



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُؤَيْيْفِ الْقِزْصَاوِيِّ

المجلد السادس والتسعون





حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

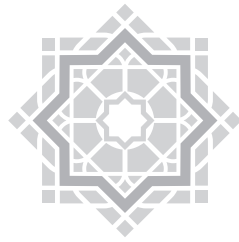
١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م



دار الشَّامِيتِ

للطباعة والنشر والتوزيع

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْظَاوِيِّ



الْجُورُ الثَّانِي عَشَرَ

الْمَحَاضِرَاتُ

١٨٩ محاضرات الإمام القرضاوي

١

نسخة مجانية



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْضَاوِيِّ

المحور الثاني عشر

المحاضرات



محاضرات الإمام القرضاوي

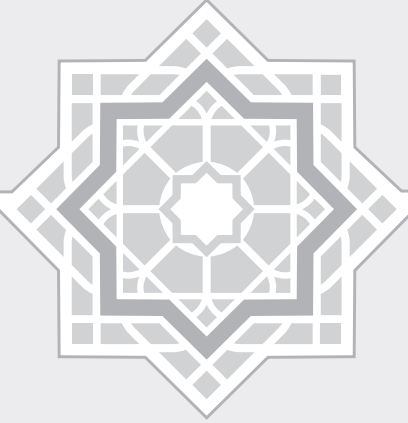
١

الإمام يوسف القرضاوي





مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



التعريف بالإسلام



يوسف القرضاوي

من الدستور الإلهي للبشرية

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٩، ٢٠].

﴿ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

غير مرخصة للطباعة

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء». متفق عليه.

عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». رواه مسلم.

عن صهيب الرومي قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له». رواه مسلم.

نسخة مجانية





رسالة الإسلام وواجبنا نحوها^(١)

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأزكى صلوات الله وتسليماته على مُعَلِّمِ الناس الخير، وهادي البشرية إلى الرُّشد، ومُخرجِ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد: سيِّدنا وإمامنا وأُسُوتنا وحبیبنا محمد، وعلى آله وصحبه، الذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه، واتَّبَعُوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون، ورضي الله عنَّ دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أحييكم به أيها الإخوة والأخوات تحيةُ الإسلام، وتحيةُ الإسلام السَّلام، فالسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكم يسرني ويسعدني أن ألتقي بكم في مقر هذه الجمعية المباركة، التي نشأت في طاعة الله، وأسست على تقوى من الله ورضوان، ونسأل الله وَجَلَّ أَنْ يجعل يومها خيراً من أمسها، ويجعل غدها خيراً من يومها.

لا زلت أذكر أول مرة زرت فيها البحرين من ثلاث وأربعين سنة، في سنة ١٩٦٢م. أنا وصلت قطر سنة ١٩٦١م. وبعد سنة أحببت أن آخذ جولة

(١) أُلقيت في جمعية الإصلاح الاجتماعي، على هامش المشاركة في الندوة العالمية الرابعة عشرة لقضايا الزكاة المعاصرة، في مملكة البحرين، مارس ٢٠٠٥م.

في المنطقة؛ فزرت البحرين، وزرت الإمارات، وكانت البحرين محدودة في ذلك الوقت، وفي أول النهضة، لم تكن فيها بناية ظاهرة إلا بناية واحدة اسمها (دار الحكومة)، ونفس الشيء قطر كان فيها بناية واحدة اسمها (دار الحكومة)، فيها المالية، وفيها كذا.

بداية جمعية الإصلاح:

وكان اسم جمعية الإصلاح في ذلك الوقت (نادي الإصلاح)، نادٍ صغير محدود، وفيه عدد من الإخوة الأفاضل: الشيخ عبد الرحمن الجودر، والأخ أحمد المولود، والأخ مبارك الخاطر، والأخ القاسم الشيخ، ومجموعة من الإخوة، من مات منهم نسأل الله تعالى أن يغفر له ويرحمه، ويتقبله في الصالحين، ومن عاش منهم نسأل الله أن يحفظه ويرعاه، ويسدد خطاه.

وهذه المجموعة هي التي بذرت البذور الطيبة في الأرض الطيبة؛ فأثمرت هذه الثمار الطيبة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

انتهى نادي الإصلاح الصغير إلى هذه الجمعية الكبيرة. حضرت افتتاح هذه الجمعية، وقد حضر فيها أمير البلاد الشيخ عيسى بن سلمان رَحِمَهُ اللهُ، لقيته في هذه الجمعية وأخذني الرجل بالعناق وقال: نحن نتبعك ونسمعك، هذه بلادك؛ لماذا لا تحضر إلى البحرين؟ وكلنا نحب أن نراك ونسمعك. وكذلك قال رئيس الوزراء، وولي العهد الذي هو الآن ملك مملكة البحرين، كان يومًا حافلًا.



اتساع أنشطة الجمعية:

ثم شاء الله أن تتسع أنشطة هذه الجمعية في كل ناحية: في النواحي الاجتماعية، والنواحي الخيرية، والنواحي الثقافية، والنواحي الدعوية، والنواحي الجهادية، وكل النواحي، لأن هذا هو الإسلام، فالإسلام في الحقيقة ليس عبادة محضة، صحيح أن العبادات الشعائرية مطلوبة: الصلاة والصيام، والزكاة والحج؛ ولكن العبادة في الإسلام تشمل كل مجالات الحياة، كل مجالات الحياة عبادة.

مزية هذا الدين أنه يجعل حركة المسلم في الحياة يمنية ويسرة، وأينما شَرَّقَ وغَرَّبَ: عبادة وقربة لله وَعَلَى. فالأرض مسجد كبير، ومحراب واسع للمسلم: يتعبد فيه لربه، يعبد بالزراعة في حقله، ويعبد بالصناعة في مصنعه، ويعبد بإتقان العمل في وظيفته، ويعبد بالتفوق في دراسته إن كان طالبًا، ويعبد بالعدل في حكمه إن كان حاكمًا، وتعبد المرأة بحسن القيام على بيتها وأولادها وزوجها إن كانت زوجة وأمًّا، يعبد كل إنسان في ساحة الحياة الرحبة.

الإسلام رسالة شاملة:

الإسلام رسالة شاملة تشمل حياة المسلم كلها، في كل مراحل حياته، تتبع رحلة المسلم الطويلة من المهد إلى اللحد، وتضيء لها الطريق، وتقدم لها التوجيهات الأخلاقية، والتشريعات الحُكْمِيَّة، والآداب التي تُجَمِّلُ الحياة، هكذا منذ يولد المسلم إلى أن يموت والإسلام يوجهه.

الإمام ابن القيم ألف كتابًا سماه (تحفة المودود في أحكام المولود)، ماذا تفعل للمولود؟ تحسن تسميته، تسميه اسمًا لا يستنكف منه بعد

ذلك، ولذلك كان النبي ﷺ يُغَيِّر بعض الأسماء، واحدة اسمها عاصية سماها جميلة، وواحد اسمه حزن أي: صعب؛ سماه سهلاً، وهكذا فهو يريد الأسماء الحسنة؛ لأن الناس تتفائل بالاسم الحسن، فينبغي أن تسمي مولودك الاسم الجيد، وتحلق شعره وتتصدق بوزنه ذهباً أو فضة، وتعتق عنه بعد أسبوع، وهكذا، وهناك أحكام الرضاعة.

الإسلام يعتني بالإنسان قبل أن يولد:

بل أقول: إنَّ الإسلام يبدأ مع الإنسان من قبل أن يُولد، لأنَّه وهو جنين في بطن أمه له أحكام، الحفاظ على حياة الجنين وعلى صحته، حتى إنَّ الإسلام لا يقبل القصاص على امرأة زانية إذا كان في بطنها جنين، يقول لها: لا، انتظري حتى تلدي، حينما جاءت المرأة الغامدية إلى النبي ﷺ، وقالت له: أنا حبلى من الزنى؛ فأقم عليّ حد الله. قال لها: «اذهبي حتى تلدي». أي: إن كان لنا سبيل عليك؛ فليس لنا سبيل على ما في بطنك، ولما وضعت جاءته فقال لها: «اذهبي حتى تفتطميه»^(١). هكذا جعل الإسلام للإنسان حقاً وهو جنين، حتى لو كان الجنين قد جاء من طريق غير مشروع، فليس له ذنب، فمن حقه أن يعيش، ومن حقه أن يُربى، ومن حقه أن يأخذ حقه في الحياة، ولذلك أيضاً نقول للمرأة: إذا كان صيامك في شهر رمضان سيؤثر على هذا الجنين؛ يجب عليك أن تفتري حماية له، ورعاية لحقه.

الإسلام إذن يتبع الإنسان حتى قبل أن يولد، بل حتى قبل أن يتزوج

(١) إشارة إلى حديث: جاءت الغامدية، فقالت: يا رسول الله، إنني قد زנית فطهرني. وأنه ردها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لم تردني؟ رواه مسلم في الحدود (١٦٩٥)، عن بريدة بن الحصيب.



أبوه يقول له: «تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم»^(١)، «اظفر بذات الدين تربت يداك»^(٢)، «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»^(٣). ولذلك قالوا: إياكم وخضراء الدمن، المرأة الحسناء في المنبت السوء. كل هذا حتى تأتي بأولاد صالحين من أم صالحة، لأن البيئة لها أثرها والوراثة لها أثرها، ولذلك يقول الناس: (العرق يمد لسابع جد). وكان أحد الآباء يقول لأولاده:

وأول إحساني إليكم تخيري لماجدة الأعراق بادِ عفافها^(٤)

يقول: إحساني الأول إليكم أنني اخترت لكم أمًا صالحة. فالإنسان يفكر في الذرية الصالحة عندما يريد أن يخطب، يتخير أمًا لأولاده، فالإسلام يراعي مصلحة الإنسان قبل أن يولد وبعد أن يولد، وقبل أن يتزوج أبوه وأمه، لأننا نقول له: تخير المرأة الصالحة. ونقول للمرأة أيضًا: تخيري الرجل الصالح، لا يكن همك ماذا يملك من أموال؟ ماذا عنده من رصيد في البنوك؟ ما مركزه الاجتماعي؟

يجب قبل هذا كله ما دينه؟ وما خلقه؟ كما قال النبي ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»^(٥).

(١) رواه ابن ماجه (١٩٦٨)، والدارقطني (٣٧٨٨)، كلاهما في النكاح، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٠٢)، عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، عن عبد الله بن عمرو.

(٤) نسبه الماوردي للرياشي في أدب الدنيا والدين ص ١٥٨، نشر دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

(٥) رواه الترمذي (١٠٨٤) موصولاً ومرسلاً. وإنما يعني بقوله: مرسلاً انقطاع ما بين ابن عجلان وأبي هريرة، وقد رجَّح البخاري المنقطع على المتصل. وابن ماجه (١٩٦٧)، كلاهما في النكاح، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٢٢)، عن أبي هريرة.

وقال الشعبي: من زوج ابنته من فاسق فقد قطع رحمها^(١).

وقال الحسن: إذا زوجت ابنتك فزوجها ذا دين، إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها^(٢).

اهتمام الإسلام بالإنسان في رحلة الحياة:

الإسلام إذن يتبع الإنسان في رحلة حياته: من الميلاد، وقبل الميلاد، وقبل الزواج، ثم ينتهي به رضيعًا، هناك أحكام للرضاعة، في الفقه كتاب اسمه (كتاب الرضاعة)، ما الواجب في الرضاعة؟ ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ وَاعِلْمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، بيان وتفصيل، خصوصًا أن هذا جاء في الوالدات المطلقات، ربما تهمل المرأة المطلقة ابنها الرضيع؛ مكايده في زوجها، فيقول لها الإسلام: لا، هذا الولد له حق عليك حتى لو طلقك أبوه، هو ابنك وفلذة كبلك.

بين القسوة والتدليل:

وهكذا ينتهي الإسلام مع الإنسان وليدًا فرضيعًا ففطيمًا فصبيًا، «مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر»^(٣)، الرحمة بالطفل

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣١٤/٤)، نشر مطبعة السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في العيال (١٢٥)، تحقيق د. نجم عبد الرحمن خلف، نشر دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٣) رواه أحمد (٦٦٨٩)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (٤٩٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٦٨)، عن ابن عمرو.



لا تعني أن تتركه من غير أدب، لأن الأولاد يضيعون أحياناً بين القسوة والتدليل، بعض الآباء يقسو على ولده، يذله، يحطم شخصيته، لا يجعل له أي اعتبار، يعامله كأنه شيء من الأشياء، لا، هذا خطأ، والبعض الآخر يدل ولده، ويطلق له العنان، لا يرد له طلباً، أي مال يطلبه يعطيه إياه، أي سيارة يطلبها يشتريها لها، مثل هذا يفسده، كما قال أبو العتاهية في أرجوزته:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَّةَ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيِّ مَفْسَدَةٍ^(١)

أن يكون شاباً يعيش فارغاً، ويجد كل ما يطلبه حاضراً أمامه، هذا إفساد. والإسلام يطالب الآباء أن يكونوا بين القسوة والتدليل، ارحم أولادك، لا عبهم كما كان النبي ﷺ يلاعب أولاده وأحفاده: أبناء بناته، كان يلاعبهم ويركبهم على ظهره، ودخل أحد الصحابة فوجد الحسن والحسين يركبان على ظهره فقال: نعم المركب ركبتما. فقال النبي ﷺ: «ونعم الفارسان هما»^(٢). وهكذا يلاعب الحسن وهو يصعد على ظهره ويقول له: «حزقة حزقة، ترق عين بقة»^(٣).

ودخل عليه ﷺ أحد زعماء الأعراب؛ فوجد النبي ﷺ يقبل أحد أحفاده فقال: أوتقبلون أولادكم؟! إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً

(١) ديوان أبي العتاهية ص ٤٩٥، أرجوزة ذات الأمثال، جمع فيها الأمثال السائرة، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٦م.

(٢) رواه البزار (٢٩٣)، وأبو يعلى كما في المطالب العالية (٣٩٦٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٠٧٨): رواه أبو يعلى في الكبير، ورجاله رجال الصحيح، ورواه البزار بإسناد ضعيف. عن عمر بن الخطاب.

(٣) رواه الطبراني (٤٩/٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٠٤٠): رواه الطبراني، وفيه أبو مزرد ولم أجد من وثقه، وبقية رجاله رجال الصحيح. عن أبي هريرة.

منهم. يأنف من هذا؛ لأنّه زعيم القبيلة، فقال له: «وأملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك، من لا يرحم لا يُرحم». ماذا أملك لك؛ إذا لم تكن رحيماً حتى على أطفالك وأولادك، فهذه هي التربية الإسلامية المعتدلة، الوسطية في كل شيء، حتى في التربية والتعليم، لا تترك له الحبل على الغارب فتفسد عليه أمره، بعد ذلك حينما يعرف الحياة وتعرفه الحياة سيدعو عليك، يقول: أبي أو أمي أو أهلي هم الذين لم ينصحوني وتركوني أفعل ما أشاء. كما لا ينبغي أن تضغط عليه بحيث لا تجعل له شخصية، لا، حاول أن تنمي شخصيته.

بين الحقوق والواجبات:

يسير الإسلام مع الإنسان صبيّاً يافعاً، ثم شابّاً، في مرحلة الشباب يستمر معه، ويعلمه في هذه المراحل ما هو له وما هو عليه، الحقوق والواجبات، الحضارة الغربية تُعنى دائماً بالحقوق، والحضارة الإسلامية تُعنى بالحقوق من خلال رعايتها للواجبات، لأن الإنسان في الحضارة الغربية مطالب سائل، وفي رسالة الإسلام مُطالب مسؤول، إنسان مُكلّف، الإنسان في الغرب يقول: ماذا لي؟ والإنسان في الإسلام يقول: ماذا عليّ؟ وإذا أدى كل امرئ ما عليه من واجبات فقد أدت الحقوق؛ لأن حق الوالدين هو واجب على الأولاد، إذا أدى الأولاد واجبهم في بر والديهم روعي بذلك حق الوالدين، وحق الأولاد هو واجب على الآباء، إذا أدّى الأب واجبه نحو أولاده فقد روعي حق الأولاد بذلك، وكذلك الزوج والزوجة؛ إذا أدّى كل واحد واجبه نحو صاحبه، فقد أدى حق الآخر، وهكذا حق الرعية واجب على الحاكم، وحق الحاكم الراعي واجب على الرعية، فإذا أدّى كل واحد واجبه رُعت حقوق الآخرين،

ولذلك يرفع الإسلام الحقوق من خلال الواجبات، يطالب الناس أن يؤدوا واجبهم، فهو يُعلم الإنسان في مراحل حياته أداء الواجبات لترعى من خلالها حقوق الآخرين.

وأول واجب على الإنسان واجبه نحو ربه الذي خلقه فسواه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وكرّمه أحسن تكريم، وخلقه في أحسن تقويم، وأعطاه نعمة العقل، ونعمة البيان، ونعمة كثيرة، وبعث إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، كل هذه نعم من الله على الإنسان تستوجب أن يؤدي حق ربه، ثم يؤدي واجبه نحو نفسه، وواجبه نحو أسرته، وواجبه نحو أقاربه وأرحامه، وواجبه نحو جيرانه، وواجبه نحو أهل بلده، وواجبه نحو مجتمعه عامة، وواجبه نحو الأمة الإسلامية كلها، وواجبه نحو البشرية كلها، وواجبه نحو الكائنات، حتى الجمادات: الأرض، والماء، والهواء، ما يسمونه الآن (حماية البيئة)، حمايتها من التلوث، بل ورعايتها أيضاً.

أحكام الشيوخة والوفاء:

والإسلام يمشي مع الإنسان في مراحل حياته، حتى الشيوخة إلى أن يموت، الشيوخة أيضاً لها أحكام، لها حقوق وواجبات، ﴿إِذَا بَلَغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤]، هناك واجب على الإنسان حتى في شيوخته لأن الإنسان مطالب بواجباته وعبادة ربه حتى الممات، ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، اليقين هنا هو الموت، فالإنسان مطالب أن يعبد الله إلى الموت، فالشيوخة لا تعفيك من هذه العبادة، يمكن أن تعطيك

الحق في بعض الرخص والتيسيرات؛ لأنَّ هذا الدين قائم على التيسير لا على التعسير، «يسروا ولا تعسروا»^(١)، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

هكذا يسير الإسلام مع الإنسان إلى أن يموت، هناك أحكام نسميها في الفقه (أحكام الجنائز)، تلقين المحتضر: لا إله إلا الله، وعندما يموت تُغمض عيناه، ويُغسَّل ويُكفن ويُصلى عليه ويشيع، ويُدفن في مقابر المسلمين، وتُوزع تركته حسب الأنصبة الشرعية؛ بعد إخراج الديون والوصايا، ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]، إلى آخره، فحتى بعد الموت توجد أحكام تتعلق بالإنسان، فالإسلام يصحب الإنسان في كل مراحل حياته: من المهد إلى اللحد، ومن قبل المهد وبعد اللحد.

الإسلام رسالة تشمل كل جوانب الحياة:

كما أنَّ الإسلام يصحب الإنسان في كل مجالات حياته أيضًا، هناك امتداد طولي وامتداد عرضي، امتداد رأسي أو عمودي، وامتداد أفقي، فهذه رسالة شاملة تمتد أفقيًا لتدخل كل جوانب الحياة، كل شيء من أدب الاستنجاء إلى بناء الدولة، يعلمك كيف تقضي حاجتك، كما قال أحد اليهود لسيدنا سلمان: علمكم نبيكم كل شيء حتى دخول الحمام؟! قال: نعم، علمنا كل شيء حتى دخول الحمام. وذكر له عدة آداب لقضاء الحاجة، ألا نستنجي بيميننا ولا بروت ولا بعظم وكذا^(٢).

كما يعلمك أدب المائدة، كيف تأكل، وكيف تشرب؟ «سَمَّ الله، وكُل بيمينك، وكُل مما يليك»^(٣). ولا تأكل في صحيفة من ذهب أو من فضة،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤)، عن أنس.

(٢) رواه مسلم (٢٦٢)، وأبو داود (٧)، والترمذي (١٦)، كلهم في الطهارة. عن سلمان الفارسي.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢)، عن عمر بن أبي سلمة.

وتعلم كذا وكذا، يعلم الإنسان الآداب والقضايا الشخصية، ويدخل في قضايا المجتمع فينظمه، مثل حقوق الفقراء على الأغنياء، وحقوق المستأجرين على الملاك، وحقوق العمال على أرباب الأعمال، وحقوق الرعية على الرعاة.. ينظم هذا كله.

جاء الإسلام رسالة شاملة، لا يفصل بين ما يُسمى (الدين) وما يُسمى (الدنيا)، أطول آية في كتاب الله في أي شيء نزلت؟ أطول آية في القرآن معروفة اسمها (آية المداينة)، آية كتابة الدين، كيف تكتب (الكمبيالة) أو صك الدين؟ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، إلى آخر الآية التي تنظم هذا الأمر الصغير، هذا دليل عناية الإسلام بالإنسان.

الإسلام يضع القواعد الكلية:

الإسلام ينظم للإنسان حياته، ويضع الأسس الكلية، لا يمكن أن يضع التفاصيل، ولكن يضع الأسس الكلية التي تنظم حياة الإنسان: تنظم علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بنفسه، وعلاقة الإنسان بأسرته، وعلاقة الإنسان بأرحامه وأقاربه وجيرانه، وعلاقة الإنسان بأهل بلده، وعلاقة الإنسان بالدولة، وعلاقة الإنسان بالأمة، وعلاقة الإنسان بالعالم، هذا معنى أن الإسلام منهج حياة.

هناك أشياء يفصل فيها الإسلام، وأشياء يُجمل فيها الإسلام، الأشياء التي فصل فيها الإسلام أكثر من غيرها: أمور العبادات، أمور الحياة

الزوجية، حتى في الحياة الزوجية نجد القرآن فصل في الطلاق أكثر مما فصل في الزواج، لماذا؟ لأنَّ الناس في حالة الزواج يكونون في حالة رضا؛ فيرعى بعضهم حقوق بعض، أمَّا في حالة الانفصال يكونون في حالة غضب، يأكل بعضهم حقوق بعض، ولذلك كان ابن مسعود يسمي سورة البقرة (سورة الطلاق الكبرى)، وسورة الطلاق التي في جزء قد سمع يسميها (سورة الطلاق الصغرى)، هي صفحتان، أمَّا البقرة فسورة طويلة في الطلاق والمطلقات، لأنَّ الناس في هذه الحالة يمكن أن يجور بعضهم على بعض.

وهناك أشياء ذكر فيها الإسلام قواعد كلية، وترك التفصيل لمقتضيات الحياة، ومقتضيات التطور البشري، مثل قضية الشورى مثلاً، قال الله تعالى في القرآن المكي في وصف مجتمع المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. فجعل الشورى واسطة العقد بين الاستجابة لله وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله، صفة أساسية، وفي القرآن المدني قال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولكن القرآن لم يذكر لنا: من الذين يُستشارون؟ المسلمون قالوا عنهم: أهل الحل والعقد. وفيَم يُستشارون؟ ما الأشياء التي يُستشارون فيها؟ وهل الشورى مُعلِّمة أم مُلزمة؟ وهل كذا؟ هناك تفاصيل لم يذكرها، لماذا لم يذكرها القرآن ولم يحددها الرسول تحديداً قاطعاً؟ حتى لا يُجمَّد الأمة أمام هذه النصوص، لو ذكر فيها نصوصاً جزئية تفصيلية ملزمة لقيدت الأمة طوال العصور، ولكن من رحمة الله بالناس، ومن فضله وتيسيره عليهم: أنَّه جاء بهذه القواعد الكلية، وترك للعقل الإسلامي أن يضع الصور المناسبة خلال التطور الزمني.



الاجتهاد السياسي:

قديمًا كان هناك أهل الحل والعقد معروفين، لكن نحن الآن في عصرنا كيف نختارهم؟ كانت المجتمعات بسيطة، ويعرف الناس بعضهم بعضًا، أيام الصحابة قال سيدنا عمر: هؤلاء الستة هم أهل الحل والعقد، إذا اجتمعوا على شيء تطيعهم الأمة كلها. لكن في عصرنا اتسع المجتمع، ولم يعد الناس يعرف بعضهم، مجتمع مثل مصر نحو سبعين مليونًا أو في إندونيسيا نحو مئتين وعشرين مليونًا أو في باكستان أو في بنجلاديش نحو مائة وخمسين مليونًا.

كيف نعرف أهل الحل والعقد الآن؟ هناك طريقة الانتخاب، تقسم البلاد إلى دوائر، ويترشح الناس في كل دائرة لينتخب الناس من بينهم، لا مانع من استخدام هذه الوسيلة لمعرفة أهل الحل والعقد، ونحن في النظام الإسلامي يمكن أن نضع بعض المواصفات، أن المرشح لا بد أن يتوفر فيه صفة كذا وكذا، ولا بد أن يكون على شيء من العلم بالأشياء الأساسية؛ بحيث لا يجهل الحلال والحرام، ولا بد أن يكون ملتزمًا بالضوابط الشرعية، بأن يكون مؤديًا للعبادات، لا يُعرف عليه شين خلقي يعيبه، لأنه سيكون قائدًا في مجلس تشريعي، ويحاسب الدولة؛ فلا بد أن تكون فيه مواصفات معينة.

نحن إذن عرفنا الآن من مسيرة البشرية، خلال كفاحها الطويل للطغاة والمستبدين من سلاطين الجور ومن الحكام الظالمين: أنها استطاعت بوسائل جديدة أن تصل إلى حقوقها، واستطاعت أن تصل إلى ما يسمى (الانتخاب)، هذه وسيلة من حقنا أن نأخذها، فالإقتباس من الآخرين مشروع فيما يحقق المصلحة.

والنبي ﷺ أشار عليه سيدنا سلمان الفارسي بحفر الخندق، وقال له: حين كان الفرس في مأزق من الناحية العسكرية، وهناك أناس يهاجمونهم يصنعون خندقاً حول المدينة، يعوقون طريق الغزاة والمهاجمين، كنا إذا حوصرنا خندقنا. فاستحسن النبي ﷺ الفكرة، وأخذ بها، وعمل الخندق، ولم يستطع فرسان قريش أن يقتحموه؛ لأنّه أوسع من قدرة الحصان^(١).

وقال له آخر: يا رسول الله، امتلأ المسجد بالناس فأصبحوا لا يرونك، ألا نصنع لك منبراً تقف عليه؟ وكان يقف على جذع نخلة، فاستحسن الفكرة، فجاءوا بنجار رومي وعمل منبراً، لأن معظم العرب لا يتقنون الصناعات للأسف، كانوا يرونها عاراً! وجريز هاجم الفرزدق: أن أحد أجداده كان قيناً، يعني: حداداً! ولا زال العرب حتى الآن يستنكفون من الصناعات اليدوية كأنه عمل الناس البسطاء، فجاء الإسلام يقول: اعملوا أي شيء، «لأن يأخذ أحدكم حبله على ظهره؛ فيأتي بحزمة من الحطب فيبيعها، فيكف الله بها وجهه: خير من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه»^(٢)، بدل أن تذهب للأمير الفلاني أو للثري الفلاني وتطلب منه، اشتغل أنت يا أخي، ولو في شغلة بسيطة أو حقيرة وقليلة الدخل، إنّما بعزة نفسك حقق ما تحتاج إليه!

فطلبوا من هذا النجار الرومي أن يصنع المنبر، وكان المنبر من ثلاث درجات، وبعض الإخوة يقولون: السنة في المنبر أن يكون ثلاث درجات، وما زاد عليها بدعة. يا أخي المنبر كان تطوراً للجذع حسب سعة المسجد، فإذا كان المسجد كبيراً لا مانع أن تزداد درجات المنبر.

(١) انظر: تاريخ الطبري (٥٦٦/٢)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

(٢) رواه البخاري في الزكاة (١٤٧١)، عن الزبير بن العوام.



الحكمة ضالة المؤمن:

الشاهد أيها الإخوة: أنَّ الإسلام لا يمنع أن تقتبس من غيرك ما ينفعك، ما دام هذا لا يعارض نصًّا شرعيًّا ولا قاعدة شرعية، سيدنا عمر أخذ نظام الخراج من الفرس، وأخذ نظام الدواوين من الروم، تعمل سجل للجنود وكذا، وهذا يستحق كذا، وهذا يستحق كذا، ما كان العرب يعرفون هذه الأشياء، فلا مانع من الاقتباس، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

هناك أشياء فضّل الإسلام فيها، وأشياء أجمل فيها، ما يحتاج الناس إليه ولا يتغير كثيرًا بتغير الزمان والمكان فضّل فيه الإسلام، مثل العبادات وشؤون الأسرة، أمّا ما يتغير كثيرًا مثل المعاملات، حتى في بعض القوانين تجد قانون الإجراءات أو المرافعات، تجد فيه نصوصًا قليلة؛ لأنّ هذه أشياء تتغير كثيرًا.

منطقة العفو:

وهناك أشياء تركها الإسلام بدون نصّ أسميها أنا (منطقة العفو)، لي كتاب بعنوان: (عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية)، ومن ضمن العوامل أنّ الإسلام ترك منطقة اسمها (منطقة العفو)، ليس فيها نصوص ملزمة، وجاء في هذا حديث أبي الدرداء: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو؛ فاقبلوا من الله عافيته؛ فإن الله لم يكن لينسى شيئًا». ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]^(١). هذه منطقة فراغ تشريعي، يستطيع الفقيه أن يملأها

(١) رواه البزار (٤٠٨٧)، وقال: إسناده صالح. والبيهقي في الضحيا (١٢/١٠)، والحاكم في التفسير (٣٧٥/٢)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٩٤): رواه البزار والطبراني في الكبير، وإسناده حسن، ورجاله موثقون.

بالقياس على المنصوص عليه، أو بمراعاة المصلحة المرسلة، أو بالاستحسان، أو برعاية العرف، أو بالاستصحاب، أو بأخذ شرع من قبلنا، إلى آخر مصادر التشريع فيما لا نص فيه.

فسحة للعلماء ليجتهدوا:

هكذا يريد الإسلام أن يُنظم حياتنا، هناك أشياء جاءت فيها نصوص جزئية، ولكن النصوص الجزئية أيضاً معظمها ظنية في ثبوتها وفي دلالتها، القرآن هو القاطع في ثبوته، ولكن معظم القرآن ظني في دلالته، والسنة أكثرها ظني في ثبوته، ومعظمها أيضاً ظني في دلالته، وهذا يعطي المجتهدين والفقهاء فسحة ليجتهدوا.

نحن عندنا الآن اجتماع الهيئة العالمية لقضايا الزكاة المعاصرة، نبحث أشياء: بعضها بحثه الفقهاء السابقون واختلفوا فيها، من حقنا أن نرّجح رأياً من الآراء، وهناك أشياء لم يبحثوا فيها؛ لأنّها لم تكن عندهم مالاً ذا قيمة، مثل الثروة السمكية لم يقل فقيه: السمك فيه زكاة. ولكن إذا كانت الآن بعض البلاد فيها شركات عندها سفن وقوارب وأدوات تصطاد الأسماك والكائنات البحرية وتُصدّر بالملايين كيف أقول: إنّ هذه لا تجب فيها الزكاة؟ بعض الإخوة قال: تجب فيها زكاة التجارة.

ولكن زكاة التجارة تجب عندما تتحول هذه الأسماك إلى مال، ويحول عليه الحول فتجب فيه (٢,٥٪)، ومعروف أنّ التجار ورجال المال في عصرنا لا يكاد يوجد عندهم مال سائل يحول عليه الحول، تأتيه المكاسب فيحولها إلى عمل آخر، فلا تجد عنده سيولة، بالعكس أحياناً لا يستطيعون توزيع الأرباح على الناس لأنّهم ليس عندهم سيولة، فكيف ستجب عليهم الزكاة؟ وإذا وجبت تكون (٢,٥٪)، وهذه

الثروات هناك من قال: يجب فيها العشر. ومن قال: نصف العشر. ومن قال: الخمس.

الإسلام أعطانا ثروة فقهية وتشريعية لا تجدها عند أمة من الأمم لتنظيم هذه الحياة، نعرف من خلالها كيف ننظم حياتنا وفق الشريعة الإسلامية؛ بما يحقق العدالة والتكافل والإخاء بين الناس؛ بحيث يحب بعض الناس بعضًا، ولا يحقد بعض الناس على بعض.

هكذا نظرنا أيها الإخوة إلى رسالة الإسلام، إنها رسالة تسير مع الإنسان طوال مراحل حياته منذ يولد إلى أن يموت، وقبل أن يولد وبعد أن يموت، كما تسير مع الإنسان في كل مجالات حياته، في بيته، في عمله، في علاقته بالناس: بالمسلمين وبغير المسلمين، حتى في علاقته بأعداء المسلمين!

رسالة الإسلام تقوم على العدل للجميع:

هذه الرسالة تنظم حياة الأمة الإسلامية وتقيمها على الحق والعدل، عدل الله لجميع خلق الله، ليس عدلاً للمسلمين وحدهم، القرآن يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. فالعدل لكل الناس: مسلم، يهودي، نصراني، وثني، العدل مطلوب للجميع.

ونزلت في القرآن تسع آيات من سورة النساء تبرئ يهوديًا اتُّهم ظلماً في جريمة سرقة، سرق أحد المسلمين، وأرد أقاربه وأهله أن يلصقوا التهمة بأحد اليهود، وكاد النبي ﷺ أن يصدقهم، وهم أن يجادل عنهم، فنزل القرآن يبرئ اليهودي: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. لا تكن محامياً لهؤلاء الذين خانوا وسرقوا، ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وَلَا

تُجَدِلُ عَنِ الَّذِينَ يَحْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا *
يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنْ
الْقَوْلِ * [النساء: ١٠٦ - ١٠٨]. إلى آخره، تسع آيات تبرئ هذا اليهودي وتنصفه؛
لأن العدل الذي جاء به الإسلام عدل لجميع الناس.

رسالة الإسلام وسطية متوازنة:

هكذا جاءت رسالة الإسلام رسالة شاملة، شمول زماني في مراحل
الحياة، وشمول أفقي في مجالات الحياة، وهي رسالة أيضًا تتميز
بالوسطية، بالتوازن، بالاعتدال، لا طغيان ولا إفساد كما قال القرآن
الكريم: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩]. لا طغيان ولا إفساد،
لا إفراط ولا تفريط، هذه هي الرسالة الإسلامية لا تحيز لأحد ضد أحد،
هي الوسط، هي الصراط المستقيم.

ونحن ندعو الله في كل يوم أن يهدينا الصراط المستقيم، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، الخط المستقيم دائمًا أقرب طريق للوصول إلى
الهدف، المنعرجات زيادة في الطريق، فالطريق المستقيم هو طريق الاعتدال
والتوازن والوسطية في كل شيء، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]،
وسطًا بين الغالين والمفرطين، ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

والنبي ﷺ يقول فيما رواه ابن عباس: «إياكم والغلو في الدين؛ فإنما
هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»^(١). هذا حديث ابن عباس، ويقول

(١) رواه أحمد (١٨٥١)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والنسائي (٣٠٥٧)، وابن
ماجه (٣٠٢٩)، وابن خزيمة (٢٨٦٧)، جميعهم في المناسك.

فيما رواه ابن مسعود: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون»^(١). قالها ثلاثاً، وهو إنما يكرر الكلمة لعظم خطرهما، والمتنطع هو المتعمق المبالغ في كل شيء، وعبر بالهلاك، «هلك من كان قبلكم»، تضيع الأمة إذا صار فيها الغلو، وبالتالي أيضاً إذا انتشر فيها التسبب، لا نريد غلوّاً ولا تسبباً، إنّما ضاع هذا الدين بين الغالي فيه، والجافي عنه؛ كما قال بعض السلف^(٢)، ويقول سيدنا علي: عليكم بالنمط الأوسط، الذي يلحق به التالي، ويُرد إليه الغالي^(٣).

معنى الوسطية الإسلامية:

ولذلك نحمد الله ونعتز بأننا ندعو إلى الوسطية الإسلامية، وليس معنى الوسطية الإسلامية أن نحل للناس كل شيء، لا، الوسطية تقوم على التيسير الذي تسنده الأدلة، ولكن لو كان هناك قولان متكافئان أو متقاربان أحدهما أحوط والآخر أيسر بماذا نفتي عموم الناس؟ أنا أفتيهم بالأيسر، بعض الإخوة المتشددون قال: وما دليلك على هذا؟ قلت: دليلي «أنّ رسول الله ﷺ ما خيّر بين أمرين؛ إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً»^(٤)، وبناء على هذا نيسر على الناس في الفتاوى وهذه الأمور.

من عشرة أو خمس عشرة سنة نقل إليّ بعض الإخوة في هذه الجمعية عريضة على لسان الآخرين اسمها (القرضاوي متهمًا)، متهم بكذا وكذا، ومنها أنني كثير التحليل وقليل التحريم، حتى قال بعضهم:

(١) رواه مسلم في العلم (٢٦٧٠)، وأحمد (٣٦٥٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٣٨١)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد،

المدينة النبوية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٣٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، عن عائشة.

جدير بكتابك (الحلال والحرام في الإسلام) أن تسميه (الحلال والحلال في الإسلام)؛ لأنه لا يكاد يحرم شيئاً. قلت لهم: لست أنا الذي فعلت هذا، الله تعالى هو الذي فعل هذا، المحرمات أشياء محدودة، تستطيع أن تعد الحرام، لكن لا تستطيع عد الحلال، الأصل أن كل شيء حلال، الأصل في الأشياء والتصرفات الإباحة، أمّا المحرمات فهي أشياء معدودة، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. قلت لهم: الأولى أن تكتبوا كتاباً وتسموه (الحرام والحرام في الإسلام)؛ لأنكم ليس عندكم شيء مباح.

عدم التشديد على المسلمين:

نحن إذن لسنا مع الذين يريدون أن يشددوا على الناس؛ بحيث لا يجعلون شيئاً حلالاً، ولا مع الذين يريدون أن يفلت زمام الناس، ولا يجعلون شيئاً حراماً، لا، هناك حلال، وهناك حرام، ولكن الحرام لا بد أن نشدد فيه، حتى نقل الإمام ابن تيمية أن السلف ما كانوا يطلقون كلمة حرام على شيء؛ إلا على ما علم تحريمه جزمًا.

ولذلك بعد أن نزلت في الخمر آيتان، نزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]. كان يكفي أن يكون فيهما إثم كبير ليمتنعوا، ولكن ظل بعض الصحابة يشربون الخمر، ويعتبرون أن هذا ليس بياناً شافياً، ويقولون: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً. ثم نزلت آية أخرى:



﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. معناه أنك لا تستطيع أن تشرب الخمر بين الصلوات التي وقتها غير متسع، ربما تستطيع ذلك من بعد العشاء أو من الصباح إلى الظهر، فضيَّق عليهم بهذه الآية، وكان يكفي أن يقولوا: لا نشرب. ومع هذا ظل عدد من الصحابة يشربون ويقولون: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. حتى نزلت الآية الحاسمة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ * [المائدة: ٩٠ - ٩١]. فقالوا: قد انتهينا يا رب. وكان الرجل يشرب الخمر: يضع الكأس على فمه؛ فلم يكمله حينما نادى المنادي: إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. فقال أبو طلحة: قم يا أنس إلى هذه الجرار فاكسرهما. قال: فقمْتُ إلى مهراس^(١) لنا، فضربتُها بأسفله حتى تكسَّرت^(٢)، لم يعمل ما كان يعمل امرؤ القيس حينما كان يشرب الخمر في مجلس من مجالس الشرب، وجاءه القائل يقول له: إِنَّ أَبَاكَ قَدْ قُتِلَ؛ فقم خذ بثأرك. فقال لهم: اليوم خمر وغداً أمر^(٣)! نكمل الأنس اليوم، وغدا لما حدث حل!

المسلم لا يفعل هذا، حُرِّمَت الخمر فصب بقية الكأس، وذهب الناس إلى بيوتهم وجاؤوا بقرب الخمر، وألقوها في الطرقات؛ حتى

(١) المهراس: حجر مستطيل منقور، يتوضأ منه، ويدق فيه. لسان العرب مادة (هـ. ر. س).

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أخبار الآحاد (٧٢٥٣)، ومسلم في الأشربة (١٩٨٠)، عن أنس بن مالك.

(٣) الاشتقاق لابن دريد الأزدي ص ٥٠، تحقيق عبد السلام محمد هارون، نشر دار الجيل،

بيروت، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

امتلات طرقات المدينة، تخلصوا مما لديهم، انتهينا يا رب. فالمنهج الوسطي الذي نؤمن به أيها الإخوة منهج ييسر على الناس، لا يوسع منطقة التحريم.

المنهج الوسطي لا يحل الحرام:

كما أنَّ هذا المنهج الوسطي لا يحل ما حرم الله، لا نتهاون في هذا أبدًا، بعض الناس يقول: يا أخي أنت رجل ميسر، لماذا حرمت التدخين؟ قلت: يا أخي أنا حرمت التدخين؛ لأنني وجدت الأدلة كلها تحرمه، كيف لا أحرم التدخين وهو يضر بالنفس، هو قتل للإنسان في الحقيقة، هو انتحار بطيء، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، وهو تضييع للمال، ولا تجوز إضاعة المال فيما لا ينفع، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ثم هو إضرار بغيرك، لأن المدخن يجبر غيره أن يتضرر بالتدخين، يسمونه (التدخين القسري)، ثم هو ضرر نفسي، ليس فقط ضررًا ماليًا وصحيًا، فهو استعباد للإنسان، أن يكون الإنسان عبدًا للسيجارة، يظل الواحد صائمًا في رمضان ١٦ أو ١٧ ساعة؛ حتى إذا أذن المؤذن لصلاة المغرب يلتهم السيجارة، كيف لا أحرم هذا؟ التدخين ضد الكليات الخمس؛ لأن الإسلام جاء يحافظ على الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، والتدخين يضر بهذا كله، فليس معنى الوسطية أن نحاول تحليل الحرام.

نحن نتبع هذا المنهج الوسطي لأنَّ الإسلام دين وسطي، والمنهج الإسلامي في طبيعته منهج وسطي في كل شيء: بين الفردية والجماعية، بين الواقعية والمثالية، بين الروحانية والمادية، بين العقل والقلب، بين الدنيا والآخرة، توازن في كل هذه الأمور.

الاعتزاز بالإسلام:

هذه هي رسالة الإسلام التي أكرمنا الله تعالى بها، وامتن بها علينا، وأتم بها علينا النعمة؛ حينما قال ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. هذه النعمة التي نعتر بها أننا مسلمون، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، كنت في أول أمري أقول: وماذا يعني أن يقول المرء: إنني من المسلمين؟ ماذا يكلفه أن يقول هذا؟ حتى فهمت أنه يقولها معتزًا مغاليًا مباهيًا، الآن تجد من يقول: أنا ماركسي. ومن يقول: أنا علماني. ومن يقول: أنا ليبرالي. ويبرؤون من الإسلام، لكن المسلم يقول: لا، أنا مسلم، أنا أعتز بالإسلام كما يقول الشاعر:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم^(١)
وكما يقول آخر:

لا تسأل عن عُصري أو نسبي إنه الإسلام أمي وأبي^(٢)
الاعتزاز بالإسلام هو معنى: إنني من المسلمين.

نعمة الهداية إلى الإسلام:

نحن أكرمنا الله بهذا الدين، وأنعم به علينا، وهو أعظم نعمة علينا أيها الإخوة، هو أعظم من نعمة الحياة نفسها، لأنه ما قيمة أن تحيا ولا تصل إلى الحق، ولا تهتدي إلى الحق، وتكون من أهل النار والعياذ بالله؟

(١) من شعر نهار بن توسعة الشكري. انظر: الكامل في اللغة والأدب (١٣٣/٣)، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٢) ديواننا نفحات ولفحات ص ٢٣٨ - ٢٤٤، نشيد: مسلمون، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

هو أعظم من نعمة العقل؛ لأن العقل لم يهدك إلى الحق، أعظم من نعمة المال، ومن نعمة الصحة.. نعمة الهداية هي أعظم النعم، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، «كلكم ضال إلا من هديته»^(١)، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، الهداية للإيمان أعظم نعمة في الدنيا وفي الآخرة، هي سبب الفلاح في الدارين، ولذلك يعتز الإنسان بهذه النعمة، كان سيدنا عمر يقول: نحن كنا أذل قوم؛ فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغيره أذلنا^(٢). ومن الآداب الواردة في بعض الأحاديث أن المسلم حينما يفرغ من طعامه ويشبع يقول: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وجعلنا مسلمين»^(٣). فهو يتذكر هذه النعمة حتى عند كل أكلة، فعلينا أن نعزز بهذا الإسلام.

العمل بالإسلام:

كما أن علينا أن نعمل بالإسلام، لكي نؤدي شكر هذه النعمة: علينا أن نتمثل الإسلام في حياتنا، أن يكون كل منا إسلامًا يمشي على قدمين، مصحفًا مفسرًا، لما سُئِلَت السيدة عائشة عن خلق النبي ﷺ قالت: كان خلقه القرآن^(٤). إذا أحببت أن تعرف خلق النبي ﷺ: اقرأ القرآن، كل ما في القرآن من أخلاق حسنة ومن فضائل جليلة يجسدها محمد ﷺ، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، عن أبي ذر.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٥٨٥)، والحاكم في الإيمان (٦١/١)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أحمد (١١٢٧٦)، وقال مُخَرَّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأُطعمة (٣٨٥٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٧)، وسكت عنه. وابن ماجه في الأُطعمة (٣٢٨٣)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٤٣٦)، عن أبي سعيد الخدري.

(٤) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١)، عن عائشة.



اقرأ أخلاق المتقين في أول سورة البقرة، أو أخلاق المؤمنين في أول سورة المؤمنين، أو أول الأنفال، أو أخلاق عباد الرحمن أو الأبرار أو أولي الألباب، كل هذه الأخلاق تجدها مجسدة في شخصية محمد ﷺ وفي سيرته.

الاقتداء بسيرة النبي ﷺ :

نريد أن يكون كل واحد منا محمدياً، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، من فضل الله علينا أنه لم يتركنا للنظريات فقط، لا، بل جعل لنا شخصية تجسد الفضائل أمامنا، وهي شخصية محمد ﷺ، شخصية بشرية.

وسيرته ﷺ محفوظة لنا، لا توجد سيرة نبي من الأنبياء محفوظة كلها، كل سيرة فيها فجوات، تعرف أشياء قليلة من سيرتهم، وأشياء أخرى لا تعرفها، أمّا هذه السيرة فحفظها الصحابة، وحفظتها أمهات المؤمنين، حتى حياته الشخصية محفوظة، كان يقبل زوجته وهو صائم، كان يفعل كذا أيام الحيض، حياته كلها مكشوفة لنا، ليس فيها دائرة حمراء، لا، كل حياته تُروى لنا، وله تسع نساء، كل واحدة تحكي من سيرته، فهي سيرة معروفة.

وهي سيرة شاملة لكل أنواع الحياة، هناك أنبياء تقتدي بهم في ناحية معينة، يمكن للحاكم أو الملك في ملكه أن يقتدي بسيدنا سليمان؛ لأن الله آتاه ملكاً، ويمكن للغني أن يقتدي به لأنه كان صاحب مال، أمّا الفقير فلا يجد فيه مجالاً للقدوة! وعيسى ﷺ يمكن أن تقتدي به في بعض الحالات: في الزهد والورع والتضحية، لكن لا يستطيع الزوج أن يقتدي به؛ لأنه لم يتزوج، ولا يستطيع الأب أن يقتدي به؛ لأنه لم ينجب

بطبيعة الحال، ولا يستطيع الغني أن يقتدي به؛ لأنّه لم يكن عنده مال، ولا يستطيع المحارب أن يقتدي به؛ لأنّه لم يحارب، ولا المسالم لأنّه لم يسالم، ولا الحاكم لأنّه لم يحكم.

أمّا الرسول فيستطيع كل إنسان أن يجد له أسوة في حياته، يستطيع الشاب أن يجد له أسوة في حياته؛ لأنّه حينما كان شابًا عمل بالتجارة، وعمل برعي الغنم، وكان مثال الطهر والاستقامة.

والزوج يجد له أسوة في حياته لأنّه تزوج، والمتزوج بواحدة أو بأكثر يجد في حياته أسوة، لأنّه تزوج الصغيرة والكبيرة، والبكر والثيب، والعربية والعجمية.

والجد يجد في حياته أسوة لأنّه كان جدًا، ومن عاش له أولاد، ومن مات له أولاد يجدان في حياته أسوة.

والغني والفقير يجدان في حياته أسوة؛ لأنّه عاش الفقر وعاش الغنى، عاش محكومًا في مكة، ثم عاش حاكمًا في المدينة، عاش محاربًا وعاش مسالمًا، وانتصر وانكسر، سيرة عجيبة، فمن فضل الله علينا أنّه لا يوجد عند أمة ما عندنا نحن المسلمين.

نحن أيها الإخوة علينا أن نشكر الله على نعمة الإسلام بأن نتمثل الإسلام في حياتنا، أن يكون كل منا إسلامًا يمشي على قدمين، أن يكون قرآنًا محمديًا في حياته، أن يتعامل مع الله ومع الناس، أن يتعامل مع أهله: مع زوجته، مع أولاده، مع أبويه، مع أرحامه، مع جيرانه، أن يتعامل مع من يحب ومن يكره بالإسلام، لأنّه حتى من تكره يحرم أن تظلمه، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨].



العمل للإسلام:

شكر نعمة الإسلام أن نعمل به، وأن نعمل له، مطلوب منا أن نعمل للإسلام، وأن نكون جنودًا لهذا الدين، نحمل هذا الإسلام على ظهورنا، كان الإمام حسن البنا يقول: الناس صنفان: صنف يحملهم الإسلام، وصنف يحمل الإسلام. يعنى أن هناك من هو عبء على الإسلام، محسوب على المسلمين، ولا يعمل شيئًا للإسلام، معدود من الألف والثلاثمائة مليون، من الكثرة التي هي كغناء السيل.

وهناك أناس يحملون الإسلام عقيدة راسخة في قلوبها، وفكرة واضحة في رؤوسها، وخلقًا موجهًا لحياتها، وشرعية منظمة لأموورها، هؤلاء المعول عليهم، فكما يجب أن نعمل بالإسلام يجب أن نعمل للإسلام.

إذا كانت كل فلسفات ومذاهب وأديان العالم قد وجدت من يعمل لها، الشيوعية وجدت من يعمل لها، واليهودية وجدت من يعمل لها، شردت أهلنا في الآفاق، وأقامت لها دولة في قلب أرضنا وعلى حسابنا، فعلت هذا في أرض النبوات، أرض المقدسات، أرض الإسراء والمعراج.

والنصرانية وجدت من يعمل لها، ويحاول أن ينشرها في الآفاق، حتى على حساب المسلمين، في سنة ١٩٧٨م. اجتمع المبشرون البروتستانت في ولاية (كلورادو) الأمريكية، وكان هدفهم من هذا الاجتماع تنصير المسلمين في العالم، ورصدوا لذلك ألف مليون دولار، وأنشؤوا لذلك معهدًا سموه (معهد زويمر)، كان زويمر مبشرًا معروفًا يقيم هنا في البحرين، في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، وهو الذي رأس المؤتمر التبشيري العالمي الشهير في القاهرة سنة ١٩٠٦م. فأحبوا أن يحيوا ذكراه، فأنشؤوا معهدًا لتخريج المنصرين، الذي يعملون

لتنصير المسلمين على وجه الخصوص، لا بد أن يعرف المنصر منهم البلد الذي سيذهب إليه، ما هو المذهب الفقهي السائد فيه؟ وما هي الطريقة الصوفية المنتشرة فيه؟ وما هي اللغات واللهجات السائدة فيه؟ ومن هم الشخصيات المؤثرة؟ لا بد أن يعرف كل هذه الأمور.

أهمية العمل الجماعي:

إذا كانت اليهودية عملت لدينها، والنصرانية عملت لدينها، والشيوعية عملت لفلسفتها، لماذا لا نعمل نحن لديننا؟ ولذلك يجب أن نعمل بالإسلام، ونعمل للإسلام، ولا يمكن أن نعمل للإسلام عملاً حقيقياً مؤثراً ونحن فرادى مبعثرين، لا بد أن نعمل عملاً جماعياً، من أجل هذا قامت مثل هذه الجمعية والجمعيات الإسلامية المختلفة ليعمل الناس عملاً منظماً، لأن أعداءنا يعملون في كتل كبيرة مهيأة منظمة، تسندها دراسات علمية، وتسندها أموال هائلة، يجب أن نعمل عملاً منظماً حتى نخدم ديننا، ونكون كما يحب الله منا ورسوله، أن نكون خداماً لهذا الدين، ونعمل لهذا الدين، نحيا له، ونموت عليه، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أسأل الله تبارك وتعالى أن ينير لنا الطريق، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، اللهم آمين.

وصل اللهم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

والسلام عليكم أيها الإخوة والأخوات ورحمة الله وبركاته.



كيف نفهم الإسلام^(١)؟

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أيها الإخوة والأبناء، خير ما أحْيِيكم به تحية الإسلام، وتحية الإسلام السَّلام، فالسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

سلامي إليكم بالأصالة عن نفسي، وسلامي إليكم بالنيابة عمن لقيت من إخوتكم من أبناء الإسلام، ومن شباب الإسلام، ورجال الإسلام في شرق الأرض وغربها، فقد حمّلي هؤلاء التحية والسلام إلى أبناء مصر بالذات؛ التي يعتبرونها مصدر الدعوة، ويعتبرونها المنبع، ويعتبرونها حاملة الراية، فمن مصر انطلقت كبرى الحركات الإسلامية في هذا العصر، ومن مصر انطلق الدعاة إلى الإسلام شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، انطلق هؤلاء الذين اضطهدوا، وأوذوا، وضُبت عليهم سياط العذاب، فانتشروا في أرض الله يطلبون الأمان حيث يذهبون، ويطلبون الرزق، ويطلبون العز، فكان من وراء ذلك أن بثهم الله تعالى هنا وهناك،

(١) أُلقيت في مصر في بداية الثمانينيات.

وكانوا كالغيث وكالمطر حيثما نزل أحيا الله به مواتًا، وجمع به شتاتًا، فالحمد لله! أبلغكم أيها الأبناء تحية هؤلاء الإخوة المسلمين في كل مكان، وتحيتهم إليكم السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لقد قدمني إليكم الأخ الكريم لأحدثكم عن ركن عظيم من أركان الدعوة إلى الإسلام وهو ركن الفهم، كيف نفهم الإسلام فهمًا يجمع المتفرق من هذه الأمة، يجمع العاملين للإسلام في جبهة واحدة، في صف واحد، في مواجهة القوى المعادية للإسلام؛ وما أكثرها؟

توحيد العاملين للإسلام:

سألني الكثيرون من الغيورين على الإسلام، وعلى الفكرة الإسلامية، والدعوة الإسلامية، والشريعة الإسلامية: ألا يمكن توحيد العاملين للإسلام والداعين إليه في جماعة واحدة؟

قلت لهم: هذا أمل نتمناه طبعًا، ونحرص عليه، ولكن ليس من الضروري أن يتحقق هذا، ليس من الضروري أن يكون كل العاملين في جماعة واحدة، ولكن يكفينا وحدة الفكر، أي ليس من الضروري أن يكونوا جميعًا في تنظيم واحد، لهم قيادة واحدة، ولهم منهج واحد، ولهم طريقة واحدة، إنما المهم أن يتحدوا فكرًا! أن يكون هناك قدر مشترك، حد أدنى من الأصول والقواعد يتفقون عليه، هذه هي الوحدة الفكرية الأساسية التي نسعى إليها ونحرص عليها، فكيف يمكن أن يتم توحيد الفكر؟

لا يمكن أن يتم توحيد الفكر إذا تعصب كل فريق لرأيه، وقال: (رأسي وألف سيف) ووقف ضد الآخرين يقاتل ويقاوم، ويحمل السلاح؛ سلاح



العصبية والتعصب، لا، لا بد أن أقرب منك قليلاً، وتقرب مني قليلاً؛ حتى يمكن أن نلتقي، وهذا ما صنعه الإمام حسن البنا منذ نحو وأربعين عاماً؛ حينما أريد للجمعيات الدينية أو للجماعات الإسلامية في مصر أن يضمها اتحاد واحد، تقف كلها تحت ظله، وتعمل صفّاً واحداً؛ لتواجه المشاكل والمآسي التي تعترض طريق المسلمين في كل مكان! كانت هناك فكرة أن يقوم اتحاد للجمعيات الإسلامية، ولكن لا يمكن أن يقوم اتحاد إذا كان الفكر مختلفاً، إذا كان هناك اختلاف حتى على الحد الأدنى.

أسس وحدة الفكر للعاملين للإسلام:

ومن هنا وضع الشهيد حسن البنا أصولاً اشتهرت فيما بعد وعرفت باسم (الأصول العشرين)، عشرون أصلاً هي أساس وحدة الفكر لمن يعملون للإسلام ويدعون له، هذه تمثل الحد الأدنى، القدر الذي لا بد منه، ولذلك صاغها صياغة معتدلة، لم يجنح إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولم يميل إلى الإفراط ولا إلى التفريط، وإنما حاول أن يقف في الوسط، النقطة الوسط دائماً هي التي يمكن أن تقف عندها الأطراف المتباعدة، مركز الدائرة دائماً أقرب مكان لأي طرف من الأطراف، وقف في الوسط، والمسلمون الأمة الوسط، وأهل السنة في الجماعات هم أيضاً الفرقة الوسط والجماعة الوسط، وكذلك الداعون إلى الإسلام الذين يريدون أن يجمعوا الصفوف يجب أن يقفوا موقفاً وسطاً معتدلاً، لهذا كانت هذه الأصول العشرين تعمل على جمع الشتات.

ومن هنا نجد بعض الناس يأخذ على هذه الأصول شيئاً معيناً، أو كلمة معينة لا تعجبه! هي لا تمثل رأيك أنت بالذات يا صاحب مدرسة معينة، أو صاحب رأي معين، هي تريد أن تجمع الجميع، ولذلك لا بد

أن يكون عند كل واحد من التسامح في نقطة معينة ما يمكنه التنازل عنه؛ بحيث يجتمع الجميع على كلمة سواء، فالمهم أن نلتقي على القواعد الكبرى، على الأصول العظمى، على الكليات الأساسية، وليختلف الناس بعد ذلك في أشياء وأشياء، لا حرج في ذلك.

شمول الإسلام:

كان أول أصل دعا إليه حسن البنا في هذه الأصول العشرين التي جعلها أساس الوحدة الفكرية لكل العاملين للإسلام هو أصل الشمول الإسلامي، عدم تجزئة الإسلام وتفتيته، فقد ابتلي المسلمون في العصور الأخيرة بمن يحاول تجزئة الإسلام، وإخراج أشياء من الإسلام، كما ابتلوا في بعض العصور بإدخال أشياء في الإسلام ليست منه عن طريق الابتداع.

وفي عصرنا حاولوا إخراج أشياء من الإسلام هي من صلبه:

فهناك من يريد أن يجعل الإسلام دينًا بلا دولة، أو دينًا بلا سياسة!

ومن يريد أن يجعله سلامًا بلا جهاد أو مصحفًا بلا سيف!

ومن يريد أن يجعله زواجًا بلا طلاق!

ومن يريد أن يجعله عقيدة بلا شريعة!

ومن يريد أن يجعله وطنية إقليمية غير عالمية، ومن يريد ومن يريد!

ولكن فليرد من أراد، وليشأ من شاء؛ فليس الإسلام حسب أهواء الناس.

الإسلام هو دين الله، وقد جاء هذا الدين منهجًا شاملاً، ونظامًا كاملاً متكاملًا للحياة، فهو عقيدة وشريعة، ودين ودولة، وعبادة وقيادة، وصلاة وجهاد، ومصحف وسيف، ومسجد ومصنع! وهو علاقة بين العبد وربّه،

وعلاقة بين العبد ونفسه، وعلاقة بين الإنسان وأسرته، وعلاقة بين الإنسان والمجتمع، وعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وعلاقة بين الدولة وغيرها من الدول، فهو منهج شامل.

وقد جاء القرآن شاملاً للحياة كلها، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، حتى كان الخليفة الأول أبو بكر الصديق يقول: لو ضاع مني عقل بعير لوجدته في كتاب الله^(١).

القرآن كتاب شامل، والسنة أيضاً شاملة، «ما تركت أمراً يقربكم من الله إلا أمرتكم به، ولا أمراً يبعدكم عن الله إلا نهيتكم عنه»^(٢).

الإسلام يشمل كل مراحل الحياة:

جاء الإسلام منهجاً شاملاً كاملاً للحياة، يصحب الإنسان في جميع أطوار حياته: من مهده إلى لحده، من يوم وُلِدَ إلى أن يموت، بل من قبل أن يولد ومن بعد أن يموت، تعرفون أن هناك أحكاماً تختص بالمولود، حينما يولد نعرف كيف يُسمى، وكيف يُؤذَّن في أذنه، وكيف يُعق عنه في اليوم السابع، وكيف يتصدق عنه بوزن شعره فضة، إلى آخر ما ضمنه الإمام ابن القيم كتابه: (تحفة المودود في أحكام المولود).

بل هناك أحكام للجنين في بطن أمه، الحمل وكيف نحافظ عليه؛ حتى ولو جاء من حرام، تصوروا: حتى الحمل الذي جاء من حرام تجب المحافظة عليه!

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣١/٤)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٤٣٣٢)، والحاكم في البيوع (٥/٢) شاهداً لحديث جابر مختصراً وصحح حديث جابر. وقال الحافظ في المطالب العالية (٩٢٧): فيه انقطاع. وكذا قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢٧٢٢)، عن ابن مسعود.

لما جاءت المرأة الغامدية وقالت: يا رسول الله، زנית وأنا حبلى من الزنا، فطهرني، وأقم عليّ حد الله. قال: «أذهبني حتى تلدي»^(١). لماذا؟ لأن هذا الجنين لا ذنب له، كيف يقام عليها الحد وفي بطنها جنين؟ إن كان للشرع سبيل عليها فليس له سبيل على ما في بطنها، على هذا المخلوق البريء! انظروا كيف يحفظ الإسلام هذا الجنين وإن جاء من حرام، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُ وَزَرُ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وأنتم تعرفون أن من أحكام الصيام أن المرأة الحامل إذا خافت على جنينها فمن حقها أن تفطر، بل ربما كان من واجبها إذا أدى ذلك إلى ضرر الجنين، وهل عليها أن تقضي أو تجمع بين القضاء والإطعام؟ إلى آخره، فالإسلام جاء منهجاً للإنسان من قبل أن يولد إلى أن يموت، هناك أحكام الجنائز والاحتضار والغسل والتكفين والصلاة على الميت وتشيع الجنازة، إلى آخره، فمن هنا كان الإسلام رسالة شاملة، ومنهج شامل للإنسان في كل أطوار الحياة.

الإسلام يشمل كل مجالات الحياة:

وهو كذلك رسالة شاملة، ومنهج شامل للإنسان في كل مجالات الحياة أيضاً، ليس الإسلام منهجاً للمصلي في المسجد؛ فإذا خرج من المسجد فلا سلطان للإسلام عليه، لا، بل هو مع المسلم في المسجد إذا صلى، وفي السوق إذا باع أو اشترى، وفي المزرعة إذا غرس أو زرع، وفي المكتب إذا استقبل الناس وقضى حوائجهم، وفي الديوان إذا حكم بينهم، وفي الحياة كلها؛ تعامللاً وأخذاً وعطاءً، وهو مع

(١) رواه مسلم في الحدود (١٦٩٥)، وأحمد (٢٢٩٤٩)، عن بريدة بن الحصيب.

الإنسان في اليقظة والنوم، والأكل والشرب، والجلوس والمشي، واللبس، والسفر والأوبة، كل هذه أشياء للإسلام فيها رأي وتشريع وتوجيه وآداب وأحكام.

منهج كلي لا يقبل التجزئة:

إذن فليس الإسلام محصورًا في زاوية معينة من الحياة، وإنما هو يشمل الحياة كلها! ولذلك كان الأصل الأول من الأصول العشرين الذي حرص عليه الإمام الشهيد حسن البنا أن يقرر للإسلام شموله، لأنَّ الإسلام منهج كلي، لا يقبل التجزئة أبدًا، إذا كان في المسيحية: أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله؛ فالإسلام لا يقبل أن يقسم الحياة بين قيصر وبين الله، قسم لقيصر توجهه للحكومة، وقسم لله توجهه للكنيسة، لا، الإسلام يقول: إنَّ قيصر وما لقيصر كله لله الواحد القهار: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦]، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، ولذلك لا يقبل الإسلام قسمة الحياة أو قسمة الإنسان إلى شطرين! هو سلطة واحدة! ليس هناك سلطتان: سلطة روحية وسلطة زمنية!

لا، الذي كان يقود الناس في المسجد هو الذي كان يقودهم في الحياة السياسية والقضائية والحربية؛ هو النبي ﷺ: كان يؤم الناس في المسجد، يصلي بهم إمامًا، ويفصل بينهم في الخصومات، ويقودهم في الحروب، ويحكمهم في السياسة! وكذلك كان الخلفاء الراشدون، ويقول العلماء عن الخلافة: هي نيابة عن رسول الله ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا به. فليس هناك انفصام في الإسلام أبدًا، الإسلام منهج كامل ونظام شامل للحياة.

ومن هنا لما أراد بعض اليهود أن يدخلوا في الإسلام على أن يبقوا بعض تقاليدهم القديمة، أن يتمسكوا ببعض شعائرهم، مثل تعظيمهم السبت وعدم العمل فيه، فنزل قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]. أي في شرائع الإسلام كلها، لا تدعوا شيئاً منها، وخاطب الله نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. حتى البعض لا يقبل، وقد وبَّخ الله بني إسرائيل على تجزئتهم للدين فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]. فالإسلام لا يقبل التجزئة.

الحياة نفسها لا تقبل التجزئة:

وهذا يتفق مع فكرة الحياة وفكرة الوجود نفسه: الحياة نفسها لا تقبل التجزئة، ليس في الحياة شيء وحده اسمه دين، وشيء وحده اسمه اقتصاد، وشيء وحده اسمه سياسة، وشيء وحده اسمه اجتماع، وشيء وحده اسمه ثقافة! هو تيار واحد يؤثر بعضه في بعض، وينفعل بعضه ببعض، كل لا يتجزأ: السياسة تتأثر بالاقتصاد، والاقتصاد يتأثر بالسياسة، والثقافة تؤثر في الاثنين معاً، وكلاهما يتأثر بالعبادة، والعبادة تتأثر بالعقيدة، كل شيء لا يفصل عن الآخر؛ فالله تعالى خلق الحياة متماسكة مترابطة، ولذلك جاء الإسلام للحياة، دين الحياة، ومنهج الحياة، فلا يقبل أبداً أن يفصل عنها.

الإسلام يرفض حصر الدين في المسجد:

ومن هنا يرفض الإسلام تماماً فكرة العلمانية التي تحصر الدين في المسجد أو في المعبد، وتجعل السياسة منفصلة عن الدين، والحكم

منفصلاً عن العقيدة والشريعة، بعيدة عن الإيمان، لا، لا يُقبل هذا أبداً، وإذا جازت العلمانية في مجتمع كالمجتمع الغربي المسيحي فالإسلام يعتبر العلمانية كفرًا؛ لأنها رفض للشريعة.

ومن الناحية الواقعية المسيحية نفسها التي قالت: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله. من ناحية التاريخ الواقعي لها فإنها لم تفعل ذلك؛ لأنها ظلت تُوجّه السياسة! كانت الكنيسة قديمًا هي التي تنصب الأباطرة وتوليهم، وكان لها أتباعها في السياسة!

وحتى عصرنا هذا، حتى بعد أن قالوا: عُزل الدين عن الدولة ظلت الكنيسة الغربية متصلة بالسياسة، وظلت الأحزاب السياسية متصلة بالدين، ومن هنا وجدنا في أوروبا الحزب الديمقراطي المسيحي، والحزب الاشتراكي المسيحي، وحزب المحافظين يقول: من هدفنا إقامة حضارة مسيحية. إلى آخره، ولذلك كان لا بد أن يفهم الإسلام على أنه منهج شامل للحياة.

بعض الناس يقولون: نحن نشغل بالدين فقط؛ وليس لنا علاقة بالأمور السياسية، ولا كذا وكذا. إذا كان هذا من ناحية التخصص في العمل فلا بأس به، واحد يقول: أنا مهتم في التربية. وآخر يقول: مهتم في إصلاح المجتمع أو مؤسساته. وآخر يقول: مهتم في محاربة الفجور والسفور، وتحلل المرأة، وطغيان الشباب وفسوقهم. لا مانع من التخصص من ناحية الأنشطة العملية؛ على أن يظل الجميع مؤمنين بفكرة الشمول الإسلامي، وعلى ألا يغفل أمر المسلمين، فإذا قلت له: إخوانك في أفغانستان يُذبّحون ويُقتلون. فلا يقول: ليس لي شأن بالسياسة. فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]،

والمؤمنون في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد،
والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، والمسلم أخو المسلم
لا يظلمه ولا يسلمه، أي لا يتركه ولا يخذله؛ فكيف لا تكون السياسة من
صلب الدين؟

الإسلام يعتني بأمور السياسة:

إذا كان معنى أنني لا أنشغل بالسياسة أن أترك الاهتمام بقضايا
الإسلام الكبرى فهذا ليس من الإسلام في شيء، أمّا إذا كان المعنى أن
أجعل نشاطي في هذا الجانب؛ دون أن أنكر على العاملين في الجوانب
الأخرى فلا مانع من هذا.

أمّا بعض الجماعات التي تقول: لا، اتركنا من هذه الأمور؛ فأنا
أخالفهم!

لا، المسلمون في مكة في فجر الدعوة، وفي وقت لم يكن الإسلام
فيه مسموع الكلمة، ولا مرفوع الراية، بل كان المسلمون مضطهدين
ويُعذَّبون، ويلقون كل ألوان الأذى والاضطهاد، مع هذا اهتموا - وهم قلة
مستضعفة - بالصراع العالمي الذي كان حادثًا في ذلك الوقت بين الفرس
والروم! والتاريخ يعيد نفسه كما تعرفون، كان هناك في ذلك الوقت
معسكران، كتلتان عالميتان، كتلة شرقية تمثلها دولة الفرس في إيران،
وكتلة غربية تمثلها الدولة البيزنطية الرومية، وكان الفرس مجوسًا ثنويين
يقولون بالهين اثنين؛ إله للخير والنور، وإله للشر والظلمة، وكان الروم
البيزنطيين أهل كتاب نصارى، ولذلك لما انتصر الفرس على الروم فرح
المشركون، واغتم المسلمون، المشركون قالوا: هؤلاء أقرب إلينا،
مشركون مثلنا، وانتصروا، وهؤلاء أهل كتاب مثلكم وانهزموا. ولذلك

قال سيدنا أبو بكر: ستكون الدولة لهم فيما بعد، وسينتصرون على
الفرس. وراهنهم على ذلك قبل أن يُحرّم الرهان، وجاء إلى النبي ﷺ
وذكر له القصة، ونزلت فيها الآيات الأولى من السورة التي سميت باسم
(الروم) تقول: ﴿الْم * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
سَيُغْلَبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ
الْمُؤْمِنُونَ * يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا
يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ١-٦].

انظروا كيف اهتم القرآن بتسجيل هذا؛ حتى يكون المسلمون على
بينة مما يدور حولهم! المسلم لا يعيش غافلاً عما يجري في العالم؛ لأنَّ
العالم متشابك، وإذا كان العالم قديماً متشابكاً فكيف بعالم اليوم؛
وبعض الفلاسفة المعاصرين يقول: العالم قريننا الكبرى، العالم أصبح
كبرتقالة في يديك؛ لأن ما يحدث في أمريكا ستعرف به هنا، والحدث
يخرج مصوراً على شاشة التلفزيون، وتركب طائرة فتصل إلى اليابان أو
نيويورك ربما في نفس اليوم، أو في اليوم التالي، في عدة ساعات تصل
إلى نصف الكرة الآخر، فكيف يعيش المسلم غافلاً عما يجري حوله؟
لا بد أن يكون عنده قدر من الوعي.

الأزهر يتصدى لفصل الدين عن الدولة:

ومن هنا كان الاهتمام بفكرة الشمول التي كان قد أضاعها كثير من
المسلمين، وأراد بعض الناس أن يجعلوا الإسلام ديناً بلا دولة، وألف
في ذلك في وقت من الأوقات واحد كان للأسف من علماء الأزهر!
الفكرة العلمانية دخلت حتى الأزهر نفسه، وألف علي عبد الرازق كتابه
الذي تعرفونه: (الإسلام وأصول الحكم)، وجعل فيه الإسلام عقيدة

وعبادة وأخلاقًا، ولكن لا علاقة له بالحكم! يمكن أن يكون الحكم جمهوريًا أو ملكيًا أو بلشفيًا أو اشتراكيًا أو أي شيء؛ حسبما يرى الناس بعقولهم دون أن يكون للإسلام شيء في ذلك! المهم أن يكون الناس طبيين في أنفسهم، لكن الإسلام لم يحدد أشكالًا للحكم، ولا قواعد للحكم، ولم يدخل نفسه في هذه القضية!

تصوروا كان الأزهر أزهر في ذلك الوقت، فاجتمعت هيئة كبار العلماء، وحاكموا هذا العالم، وجردوه من شهادة العالمية؛ مع أنه كان من عائلة كبيرة و(مسنودة)، ولكنهم لم يبالوا، ورد عليه الكثيرون من أكابر العلماء، وعلى رأسهم الشيخ العلامة الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ، المجاهد الإسلامي العظيم الذي وُلِّي بعد ذلك شيخًا للأزهر.

الأصل الأول إذن هو أصل الشمول، أن الإسلام منهج شامل، لا بد أن نؤمن بهذا، لا مانع أن ينشغل أناس بإصلاح العقيدة، وتطهيرها من الشرك، والوقوف في وجه الخرافات والشركيات!

ولا مانع أن يهتم أناس بإصلاح العبادة ومقاومة البدع، ومقاومة الفساد الذي دخل على العبادات!

ولا مانع أن يهتم بعض الناس بالتربية الرياضية وتربية الأجسام! ويهتم بعض الناس بالإصلاح الاجتماعي؛ على أن يكون مفهومًا للجميع أن الإسلام منهج شامل! يجب أن نؤمن بهذا، وألا نجزئ إسلامنا، ولا نفتته ونحطمه، هذا هو الأصل الأول: الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو

خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة، سواءً بسواء^(١). هذا هو الأصل الأول الذي دعا إليه حسن البنا رحمه الله ورضي عنه.

الرجوع إلى القرآن والسنة:

والأصل الثاني الذي دعا إليه حسن البنا هو الرجوع إلى القرآن السنة، أن الأحكام تؤخذ من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله ﷺ، هذان المصدران اللذان لا خلاف عليهما! وعلى هذا لا يمكن أن نأخذ الإسلام من قول هذا أو قول ذاك؛ إلا من باب الاستئناس والاسترشاد والانتفاع، إنما الذي يحكم على الجميع: الكتاب والسنة.

أمّا أن يأتي من يقول: الإلهام، أو حدثني قلبي عن ربي. هكذا مباشرة! حتى قال بعضهم: إنكم تأخذون دينكم ميتاً عن ميت، مالك عن نافع عن ابن عمر، كل هؤلاء موتى، لكننا نأخذ ديننا عن الحي الذي لا يموت، هكذا باتصال مباشر. هذا الكلام مرفوض، ليس إلا الكتاب والسنة، المواجهيد والأذواق والإلهام والتحاكم للرؤى! هذا الكلام مرفوض! أن أحداً يقول: رأيت في المنام كذا. كل هذا لا تؤخذ منه أحكام، يمكن أن تكون الرؤى مبشرات أو منذرات! واحد يرى رؤيا فتحمله على الرجوع عن المعصية، أو يرى رؤية ترغبه وتبشره! أمّا أن يأخذ منها أحكاماً فلا، حتى لو رأى النبي ﷺ!

(١) رسالة التعاليم ص ٣٥٦، ضمن مجموعة رسائل الإمام حسن البنا، نشر المؤسسة الإسلامية للطباعة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

لا يأت واحد ويقل: جاءني النبي في المنام وقال لي: اذهب فاقتل فلاناً مثلاً، أو لا تصل مثلاً سنة الفجر: هل يؤخذ هذا من رؤيا؟ لا، إنما نأخذ ديننا مما ثبت عن النبي ﷺ، من الكتاب والسنة.

الفهم الصحيح للكتاب والسنة:

غير أن الكتاب والسنة يجب أن يفهما الفهم الصحيح، ونستدل بفهم الصحابة رضوا الله عليهم؛ خاصة إذا أجمعوا على شيء، أخذناه، وبفهم التابعين أيضاً، الصحابة؛ هؤلاء أفهم الناس للقرآن، وأعرف الناس باللغة العربية، وأدري الناس بقرائن وأسباب النزول، وأفقه الناس لمقاصد الشريعة؛ لمخالطتهم للنبي ﷺ وأخذهم عنه، وتربيتهم في حضن رسالته، ولذلك نأخذ عن الصحابة خاصة إذا أجمعوا، وإذا اختلفوا؛ فهذا دليل عن أن الأمر اجتهادي! والتابعون أيضاً إذا أجمعوا كان إجماعهم دليلاً على أن للأمر أصلاً، فإذا لم يكن هناك إجماع؛ ففي هذه الحالة لنا أن نجتهد.

وفي الاجتهاد نستفيد من اللغة العربية أولاً، ومن السيرة النبوية، ونراعي السياق والسباق، لا نقطع الآية عما قبلها وعما بعدها، نستفيد من آراء المسلمين ومن أقوالهم، لا يأت واحد هكذا وينصب نفسه مفسراً، لا، لا بد أن نستفيد من الثروة العظيمة التي عندنا، سواء في التفسير أو في الحديث أو في الفقه، لا بد من هذا! القرآن عربي؛ فلا بد أن نفهم القرآن بعد أن نتمكن من إدراك أسرار العربية وتذوقها، أمّا واحد يقال عنه: إنه مفسر القرآن، وهو لم يعرف العربية ولا بلاغتها ولا نحوها ولا صرفها، ولكّنه قرأ بعض الأشياء؟! فما أسرع ما يتهجم، ويقتحم المجال، ويخطئ الآخرين! لا، هذا ما لا يجوز في الحقيقة.

ومما آخذه على كثير من الشباب المسلم في هذا العصر أن كثيراً منهم - بعد أن يقرأ بعض القراءات - يقحم نفسه في ميادين العلم، وينزل إلى أغواره، ويفتي، ويخطئ المفسرين والفقهاء والشرح، وهؤلاء حصيلتهم من العلم قليلة؛ لا يجوز للإنسان أن يجترأ على هذا، الإنسان الذي يحترم نفسه لا بد أن يتوقف ويتريث في هذه الأمور، ويحترم رأي غيره، لا بد من التضلع في هذا تضلعاً كبيراً، واحترام الآخرين في هذه المواقف.

مراعاة الخلاف بين المجتهدين:

كتاب الله وسنة رسوله هما الأساس، وما عدا ذلك فكله معروض للرأي والأخذ والرد والتقويم! كل رأي بعد ذلك يمكن أن يوضع على بساط البحث وعلى مشرحة التحليل، ولذلك في أصل آخر قال حسن البناء: وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ، وكل ما جاء عن السلف - رضوان الله عليهم - موافقاً للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع، ولكننا لا نعرض للأشخاص - فيما اختلف فيه - بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نيّاتهم، وقد أفضوا إلى ما قدّموا^(١).

هذا مهم جداً، أن ما جاء عن السلف، عن الصحابة وعن التابعين وعن الأئمة السابقين؛ إذا كان موافقاً للكتاب والسنة فلا يسعنا إلا أخذه واتباعه! هذا أمر مهم جداً، قد تعتبر هذا الرأي مخالفة عندك، ولكن يقول به مجتهد اعتمد على دليل آخر لم تدركه أنت، ولم تعرف سره، له أصول أخرى اعتمد عليها؛ فيخيل إليك أنه خالف الكتاب والسنة! فهذا اعتمد على أصل، وهذا اعتمد على أصل آخر، أو هذا اعتمد على رواية وهذا اعتمد على رواية أخرى، فمن هنا؛ إذا اتضحت لنا المخالفة فخذ

(١) رسالة التعاليم ضمن مجموعة الرسائل ص ٣٥٧.

بالكتاب والسُّنة، خاصة من اتضح له ذلك! إذا لاح لك أنَّ الدليل ليس مع هذا الرأي، وأن هذا الرأي ضعيف ومخالف للكتاب والسنة؛ فاتركه أيًا كان قائله، واعمل بالكتاب والسُّنة! وكل واحد كما جاء عن ابن عباس، وكما جاء عن عطاء من التابعين، وكما جاء عن الإمام مالك وعن غيرهم هذه الكلمة: كل أحد يؤخذ من قوله ويُرد عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ^(١). قال الإمام مالك ذلك وهو في مسجد النبي بالمدينة، وأشار إلى القبر، لأن النبي هو الذي ينطق عن ربه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤].

عدم الطعن في المجتهد المخالف:

وليس معنى أننا لا نأخذ هذا الرأي المخالف أن نطعن في المجتهد أو نجرحه، لا، بل لا نعرض للأشخاص فيما اختلفوا فيه بطعن أو تجريح، وكل أفضى إلى ما قَدَّم، وكل واحد بنيتة، ولكل مجتهد نصيب، ولكل امرئ ما نوى.

وفي أصل آخر أيضًا ذكر حسن البنا هذه القضية، وهي قضية مهمة أيضًا، قضية الاختلاف في الآراء، قال: والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببًا للتفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله، والتعاون على الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجُرَّ ذلك إلى المراء المذموم والتعصب^(٢).

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣٠٢/١٨)، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، نشر دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٢) رسالة التعاليم ضمن مجموعة الرسائل ص ٣٥٧.

الخلاف الفقهي لا يكون سببا في تفرق المسلمين:

الخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً للتفرق في الدين أبداً، ولا يؤدي إلى خصومة أو بغضاء، لماذا؟ لأن الله ﷻ اقتضت حكمته أن يجعل هناك مجالاً للاختلاف في هذه الأمور! لو شاء الله لأنزل الدين كله نصوصاً محكمة قاطعة في كل أمر، فلا يكون هناك مجال للاختلاف، ولكن الله لم يرد هذا، وإنما أنزل الكتاب: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، من القرآن ما يمكن أن يفهم على أكثر من وجه، وقد يأتي الحديث فيفهمه هذا بوجه، وهذا بوجه، وهذا له أجره وهذا له أجره، والمجتهد إذا أخطأ فله أجره، وإذا أصاب فله أجران، كما قال الله تعالى عن داود وسليمان في قضية حكما فيها، فأخطأ داود، وأصاب سليمان: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]. كل منهما أوتي الحكم والعلم، ولكن سليمان هو الذي فهم وأصاب الحق، فيمكن أن يخطئ المجتهد ولا يُحرم أن يكون من أهل الحكم والعلم، ولا يُحرم الأجر.

وقد أكدت هذا السنة العملية، لما قال النبي ﷺ بعد غزوة الأحزاب: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»^(١). نقض بنو قريظة العهد، وتألّبوا مع المشركين على المسلمين، ولو تم لهم ما أرادوا لأبى المسلمون، فلما ارتد المشركون كان لا بد من تأديب بني قريظة فوراً، ولهذا قال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة». أي لا بد من الذهاب إليهم على الفور! وذهب الصحابة إلى بني قريظة، وفي الطريق

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صلاة الخوف (٩٤٦)، ومسلم في الجهاد (١٧٧٠)، عن ابن عمر.

أوشكت الشمس أن تغرب، وأوشك وقت العصر أن يفوت، فقال بعض الصحابة: هيا نصلي. فقالت جماعة: لا، إنّما قال النبي: «فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة». فلا نصلي العصر إلا في بني قريظة؛ حتى ولو في منتصف الليل. وقالت جماعة: إنّما أراد منا سرعة النهوض، لم يرد منا أن نضيع الصلاة، إنّما أراد منا ألا نتأخر، أن نصل بأسرع ما يمكن. وصلى هؤلاء في الطريق!

فجماعة نظروا إلى فحوى النص وروحه ومقصده، وأخذوا بهذا، وصلوا في الطريق، وجماعة أخذوا بظاهر النص وحرفيته، ولم يصلوا إلا في بني قريظة، وبلغ النبي ﷺ فعل هؤلاء وفعل هؤلاء، فماذا كان موقفه؟ لم يعنف أيًا من الفريقين، أقرّ كلّاً منهما على اجتهاده؛ ليدلنا على شرعية الاجتهاد، وكما قال ابن القيم: هؤلاء الذين صلوا في بني قريظة هم سلف أهل الظاهر، والذين صلوا في الطريق هم سلف أهل الرأي والفحوى^(١). فكل واحد يجد سلفه في عهد النبي ﷺ.

أمر الخلاف الفقهي فيه متسع:

هذا يدلنا على أن أمر الاختلاف فيه متسع، ولذلك فالذين يريدون رأيًا واحدًا، ويظنون أنه الرأي الصواب ولا رأي غيره، وأن كل من عدا ذلك خطأ وضلال، هؤلاء لم يفهموا المسألة كما ينبغي! أمور الفروع هذه يمكن الخلاف فيها من أكثر من وجه، النص نفسه في مسألة بني قريظة قد يحتمل: فيه روح النص، وفيه ظاهر النص، كل واحد كانت له وجهة أمام هذا النص، ولذلك وجدت مدرسة الرأي ومدرسة الأثر.

(١) إعلام الموقعين (١/١٥٦)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية،

بيروت، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.



في زكاة الفطر مثلاً جماعة يقولون: لا بد أن تخرج صاعاً من طعام، من شعير أو تمر أو زبيب أو أقط. وجماعة قالوا: لا، بل تخرج من غالب قوت البلد، فالنبي ﷺ حدد هذه الأشياء؛ لأنها كانت غالب أقواتهم في المدينة. وجماعة آخرون: عمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة وغيرهما قالوا: لا، إنما أراد الإغناء، «أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم»^(١)، والإغناء قد يتحقق بالشعير والتمر وهذه الأشياء، وقد يتحقق بالقيمة، تعطيه قيمتها من النقود فيشتري ما يناسبه. هذه مدرسة ولولاها لصارت مشقة على الناس في هذا الأمر في عصرنا، إذن فالأخذ بالفحوى أمر مهم، ومن هنا ينبغي أن نعلم أن من النصوص ما يحتمل تعدد الأفهام.

أثر الطبيعة الشخصية في الخلاف:

والبشر بطبيعتهم يختلفون في فهم النصوص، حسب تكوين الشخص، حسب البيئة: ابن عمر كان مجتهداً، وابن عباس كان مجتهداً، ولكل منهما اجتهاده، لكن كل واحد يمثل اتجاهًا، ابن عمر يمثل التشدد، كان إذا توضأ لا يرضى إلا بأن يدخل الماء باطن عينيه حتى عمي ﷺ، كن يعتبر هذا من الوجه! ولم يكن يرضى بأن يقبل الأولاد الصغار أو يحتضنهم خشية لعابهم! بينما ابن عباس يمثل التيسير، كان يحتضن الأولاد ويقول: إنما هي رياحين نشمها. ولذلك اشتهرت في الفقه شذائد ابن عمر ورخص ابن عباس، لدرجة أن الخليفة المنصور لما أراد من الإمام مالك أن يؤلف الموطأ قال له: تجنب فيه شذائد ابن عمر ورخص ابن عباس، ووطئه للناس توطيئاً^(٢). فالناس تختلف من

(١) رواه الدارقطني في زكاة الفطر (٢١٣٣)، والبيهقي الزكاة (١٧٥/٤)، عن ابن عمر.

(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (٧٣، ٧٢/٢)، نشر مطبعة فضالة،

المحمدية، المغرب، ط١.

طبيعة إلى طبيعة، واحد طبيعته مشدد، وواحد طبيعته ميسر، هكذا يكون الناس في الحياة!

أثر البيئة في الاختلاف:

والبيئة أيضًا لها حكمها، البيئة تحكم على الناس ولا بد، تجد بيئة العراقيين غير بيئة الحجازيين، حكمت البيئة على الإنسان! والإنسان ابن بيئته، هي من حيث لا يشعر تؤثر في تكوينه الفكري والثقافي، ولذلك كان فقه أهل العراق متميزًا عن فقه أهل الحجاز، وجعل مؤرخو الفقه أن من أسباب اختلاف رأي الإمام الشافعي في العراق عن رأيه في مصر اختلاف البيئة: أنه لما جاء إلى مصر رأي غير ما كان قد رأى، وسمع غير ما كان قد سمع، ولذلك كان له مذهبان: مذهب في العراق ويسمى (القديم) ومذهب في مصر ويسمى (الجديد)، ويقال: قال الشافعي في القديم، وقال الشافعي في الجديد. هذه كلها بعض أسباب الاختلاف.

الاطمئنان إلى الرواية: واحد يأخذ بالراوي ويوثقه، والثاني يضعفه! واحد يقول: عمل أهل المدينة يؤخذ في بعض الأشياء، ويُقدّم على حديث الآحاد. والبعض يقول: لا. فهذه أصول اختلفوا فيها، لا يمكن أن ترفع الخلاف في هذه الأشياء، سيبقى الخلاف ولا بد.

تقدير آراء الآخرين:

ولكن إذا وُجد الخلاف ينبغي ألا يؤدي إلى تفرق في الدين، ولا إلى خصومة أو بغضاء، لا، يجب أن نحترم آراء الآخرين! الإمام الشافعي



قال: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب^(١).
فاحتمال الخطأ في رأيي، واحتمال الصواب في رأي غيره قَرَب المسافة
بين الاثنين!

لكن لا أقول: رأيي هذا هو الصواب الذي لا خطأ فيه. بعض الناس
في مدرسة في عصرنا إذا وصلوا إلى اجتهدا قالوا: هذا هو الرأي الذي
لا رأي غيره. ويمكن أن يكون مخالفاً رأي الجماهير قديماً وحديثاً،
يا أخي: قل: هذا رأي من الآراء وصلت إليه! وبعض الناس يدعون إلى
عدم المذهبية، فإذا وصلوا إلى رأي جعلوه مذهباً، فما زدت على أن
جعلته مذهباً آخر؛ فأصبح مذهباً خامساً، الأمور ليست هكذا.

لا بد أن ننظر إلى هذه الأمور الفرعية نظرة فيها سعة وتسامح،
الاجتهاد باب واسع ثري عريض جداً! بعض الناس بمجرد أن يقابله نص
يمسك به ولا يرى غيره، هل تعرف أن هذا النص قد تعارضه نصوص
أخرى، وقد تعارضه قواعد، هل علمت أن هذا النص سلم من المعارضة
من كل ناحية من النواحي أم لا؟ لعل فيه طعنًا من بعض الأئمة، لعل
ولعل، في مسائل الخلاف لا بد أن ندرك فقه الخلاف وأدب الخلاف،
ونعرف كيف نختلف، ولا يهدم بعضنا بعضاً، ولا يعادي بعضنا بعضاً.

الخلاف في الفروع سيظل قائماً:

لا يمكن منع الناس من الاختلاف فيها، هذا الخلاف سنة من سنن
الله، ولا يضر هذا الخلاف، ولما سئل الإمام أحمد بن حنبل عن

(١) نقل ابن حجر الهيتمي أن ذلك مذهب الشافعية. الفتاوى الفقهية الكبرى (٣١٣/٤)، نشر
المكتبة الإسلامية.

الاختلاف في الأذان وفي الإقامة وفي هذه الأشياء قال: كل هذا وارد، وكل من فعل شيئاً من هذا فهو جائز^(١).

والسلف كما تعرفون اختلفوا في أوضح الأشياء وأظهرها، الأذان الذي يتكرر كل يوم خمس مرات هو والإقامة:

هل الأذان يبدأ بتكبيرتين أم بأربع؟ اختلف المالكية مع غيرهم في هذا! والإقامة هل هي مثنى كالأذان أم فرادى؟ اختلفوا في هذا!

والبسملة اختلفوا فيها: هل هي جزء من الفاتحة أم لا؟ وإذا كانت جزءاً منها: هل تُقرأ سرّاً أم تُقرأ جهراً؟ اختلفوا في هذا، ومع هذا الاختلاف لم يدمر بعضهم بعضاً، ولم يقيموا حرباً عواناً بعضهم على بعض، لا، بل صلى بعضهم خلف بعض!

كان الإمام أحمد يرى أن سيلان الدم الكثير من المتوضئ ينقض وضوءه، فقليل له: إذا كان بعض الناس لا يرى هذا، وسال منه دم ودخل الصلاة وأمام الناس هل يصلي وراءه؟ قال: كيف لا أصلي خلف سعيد بن المسيب^(٢)؟ لأن سعيد بن المسيب سيد التابعين كان من رأيه هذا، فهناك أمور يجوز الاختلاف فيها، ويجوز الاجتهاد فيها، ويكون هناك أكثر من رأي.

تجنب الخصومات:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إذا ذهب إنسان إلى بلد وكان أهلها

(١) راجع: مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود السجستاني ص ٤٢، تحقيق طارق عوض الله، نشر مكتبة ابن تيمية، مصر، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٢) التمهيد لابن عبد البر (١٣٩/١١)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، نشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.

يجهرون بالبسملة، ورأى أنّه لو لم يجهر بالبسملة لأدى ذلك إلى امتعاض، أو استنكار، أو نفور منه، وعدم السماع له فيمكن أن يجهر بالبسملة؛ تأليفاً لقلوب الناس^(١). وأنا أفعل هذا، وإن كنت أرى أنّ الإنسان في الصلوات الجهرية يسر بالبسملة، وليس هناك مانع أن يجهر بالبسملة في بعض الأحيان؛ لتعليم من وراءه، أو لسبب من الأسباب.

فيا أيها الشباب: الخلاف في الأمور الفقهية لا يجوز أن يؤدي إلى خصومة أو بغضاء أو إلى تراشق بالتهم، أو إلى التفرق في دين، لا، بل لكل مجتهد أجره، حتى لو تبين لك خطأ الرأي الآخر فللمجتهد أجره!

وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة سماها (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، بين فيها أنّه ليس هناك إمام واحد تعمد أن يخالف رسول الله ﷺ، إنّما اجتهدوا، بتأويل أو بآخر قد يكونوا اتخذوا هذا الموقف، فلكل مجتهد أجره.

ولا مانع من التحقيق النزيه في مسائل الخلاف، ولكن في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة: إذا استطعنا أن نبحت المسائل الخلافية بحثاً علمياً موضوعياً فلا مانع من هذا، تعال يا أخي، هذه مسائل خلافية؛ فلنعطها طابع الخلاف! هذا إذا أردنا أن نجتمع، أمّا إذا أعطيتها الطابع اليقيني الإجماعي، فأنت لا تجعل هناك مجالاً للقاء أبداً.

(١) مجموع الفتاوى (٣٧٤/٢٣ - ٣٧٧).

مسألة التوسل:

بعض الناس عابوا على الشهيد حسن البنا في الأصول العشرين، أنه ذكر أن التوسل بالنبي ﷺ وبغيره خلاف فرعي في كيفية الدعاء، وليس من مسائل العقيدة، فقالوا: لا، كيف يكون هذا؟ مع أن هناك شيئاً لا خلاف عليه وهو أن المدعو هو الله ﷻ، والمتوسل إليه هو الله، والمستغاث به هو الله، هذا أمر لا خلاف فيه إطلاقاً، لكن الشيء المختلف فيه من قديم، وذكر في كتب الفقه هو موضوع التوسل، أن يقال: اللهم إني أتوسل إليك بجاه النبي ﷺ. هل يجوز هذا أو لا يجوز؟ بعض الناس أجازوه، وبعض الناس منعه، وممن منعه شيخ الإسلام ابن تيمية، وألف في ذلك رسالة سماها: (قاعدة جلية في التوسل والوسيلة)، وأنا شخصياً ممن يمنع هذا، لا أحب التوسل لا بالنبي ﷺ ولا بأحد، هذا الذي أرجحه، ولكن هذا لا يمنع أن الأمر خلافي، وأن الأمر يتعلق بكيفية الدعاء، وليس بالدعاء نفسه، فلا يجعلني هذا أن أقلب الحقائق وأقول: هذا أمر يتعلق بصلب العقيدة. لا.

كنت قريباً من شهرين في الهند، وهناك كثير من علماء الهند ممن يتبعون السنة، ويحاربون الشرك والقبوريات والخرافات والبدع، ولكنهم يجيزون التوسل بهذه الطريقة، حتى إن بعضهم ممن يناصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الشيخ محمد منظور النعماني من كبار العلماء السنيين هناك، ألف كتاباً يدافع عن الشيخ محمد ابن عبد الوهاب بمناسبة المؤتمر الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، وذكر أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ظلم، وأشيعت عنه في عصره إشاعات لا حقيقة لها، ولكن ذكر أن كثيراً من الأشياء التي



يختلف فيها كثير من علماء الهنود مع الشيخ بن عبد الوهاب وأتباعه، منها مسألة التوسل، فمعظم الهنود حنفية، ويجيزون - حسب المذهب الحنفي - التوسل إلى الله بالنبي ﷺ، فالإمام حسن البنا قال: هذا أمر خلافي. ولم يبد رأيه فيه، ولم يرجح رأياً على رأي، أحب أن يذكر فقط أن هذا الأمر من الأمور الخلافية حتى يجتمع هؤلاء؛ لأنك حينما تريد أن تجمع الناس على الأصول الكلية للإسلام فلا بد أن تتسامح - كما قلت في أول الحديث - في بعض الأشياء، وتترك الناس على اختلافهم فيها، وتقول: تعالوا نمحصها. لكنها أمور خلافية لا ينبغي أن نزيل عنها الطابع الخلافية ونحولها إلى أمور قطعية يقينية، هذا كما قلت: يعطي فرصة للقاء بين المختلفين.

* * *



حسن فهم الإسلام^(١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيّدنا وإمامنا وأسوتنا، وحبينا ومعلمنا رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هداه.

بالأصالة عن نفسي، وبالنيابة عن إخوانكم في قطر وفي المشرق العربي أحبيكم أيها الإخوة في جنوب إفريقيا وفي هذه المدينة خاصّة، وخير ما أحبيكم به تحية الإسلام، وتحية الإسلام السّلام، فالسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

فأقول للإخوة: إنني منذ اليوم والأمس أحس أننا في عرس إسلامي، وأحمد الله ﷻ أن المسلمين على خير، مهما حدث في هذه الأمة؛ فإن هذه الأمة هي أمة الخلود، هي آخر الأمم، أورثها الله آخر الرسالات، وأورثها آخر الكتب، وهي تتبع خاتم النبيين محمدًا ﷺ، ولذلك فإنّ هذه الأمة باقية ما بقيت الحياة والأحياء، كما قال النبي ﷺ: «مَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ الْمَطَرِ، لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ»^(٢). الدفعة من المطر التي ينبت

(١) ألقيت في مسجد التوحيد؛ ضمن زيارتي إلى جنوب أفريقيا، بدعوة من مجلس القضاء الإسلامي هناك، في أبريل ٢٠١٠م.

(٢) روي هذا الحديث عن عدد من الصحابة منهم: أنس بن مالك، رواه أحمد (١٢٤٦١)، وقال

بها الزرع، وتخصب بها الأرض هل هي في الأول أم في الآخر؟ الأمة كلها كهذا المطر، أوله وآخره خير إن شاء الله.

بقاء أمة الإسلام إلى يوم القيامة:

شاء الله وَعَجَّلَ ألا يُسَلِّطَ على هذه الأمة أحداً يُفْنِيها عن آخرها، ولذلك ضمن الله بقاءها إلى قيام الساعة، ولم يضمن بقاءها المادي فقط، ولكن ضمن أيضاً بقاءها المعنوي، فمهما ضلَّ الناس فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، لا بد أن يبقى فيها من يدعو إلى الحق، ومن ينصر الحق، ومن يدعو إلى الخير، ومن يأمر بالخير، هذه الأمة كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. هناك أناس وكلهم الله بالدفاع عن الإسلام، جندهم الله ليكونوا من حُرَّاس هذا الدين، فإذا كفر من كفر؛ فإن أهل الحق وأنصار الإسلام باقون كما قال تعالى: ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهذه الأمة باقية.

هناك طائفة يُسمِّيها العلماء (الطائفة المنصورة)، تبقى إلى آخر نفس في الحياة؛ كما جاء في أحاديث البخاري ومسلم، والكتب الستة، وسائر المسانيد والمعاجم أن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق، لا يضرهم من خالفهم؛ حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(١).

مخرَّجوه: حديث قويٌّ بطرقه وشواهده. والترمذي في الأمثال (٢٨٦٩)، وقال: حسن غريب. وعن عمار بن ياسر، رواه أحمد (١٨٨٨١)، وقال مخرَّجوه: حديث قويٌّ بطرقه وشواهده. والطيلاسي (٦٨٢)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٢٢٦).

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، عن معاوية. وصحَّ من حديث عمر، والمغيرة، وثوبان، وأبي هريرة، وقرة بن إياس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وعقبة بن عامر، وجابر بن سمرة، وأبي أمامة، انظر: الأحاديث (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦)، ومن (٧٧٠١) إلى (٧٧٠٤) من صحيح الجامع الصغير وزيادته.

ولذلك اطمئنوا أيها الإخوة أنَّ الإسلام بخير، الناس يقولون على لسان النبي ﷺ: «الخيرُ فيَّ وفي أُمّتي إلى يوم القيامة». ولا يوجد حديث بهذه الصيغة، ولكن معناه ثابت في الأحاديث التي استفاضت عن عدد من الصحابة؛ بقاء هذه الطائفة المنصورة القائمة على الحق، حتّى يأتي أمر الله، يسميها بعضهم الطائفة المنصورة، أو الفرقة الناجية، أو الفرقة الموكلة، ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾، فأنا أبشركم بأن الإسلام باقٍ إلى يوم القيامة إن شاء الله.

وأنا ذكرت هذا لأنني وجدت الإخوة في هذا البلد - وهم بعيدون عن صرة العالم العربي - وجدتهم بحمد الله مستمسكين بدينهم، مصرّين عليه، مضحّين في سبيله بكل شيء، فهذا يدل على أن هذه الأمة بخير، وستظل بخير إلى يوم القيامة إن شاء الله.

الاعتزاز بالإسلام:

أيها الإخوة، كنت بالأمس في مسجد (نيو تاون)، وتحدثت مع الإخوة عن واجبات المسلم في عصرنا، وحددتها في واجبات أربعة، تكلمت عن واحد منها فقط وهو الاعتزاز بالإسلام، أن أول ما يجب على المسلم في عصرنا أن يعتز بدينه، وأن يعلم أن معه كنزاً لا يملكه أحد غيره، وأن عنده نعمة لا تدانيها نعمة، فأعظم النعم في الوجود هي نعمة الإسلام.

هناك نعم عظيمة؛ مثل نعمة الخلق، ونعمة العقل، ونعمة الصحة والعافية، ونعمة العلم، ونعمة الأولاد، هذه نعم عظيمة، ولكن ما قيمة كل هذا إذا كنت كافراً، افرض أنّك من العباقرة ثم دخلت جهنم في النهاية؛ فما قيمة عبقريتك، وما قيمة الكنوز التي عندك حتّى لو بلغت كنوز قارون؛ وأنت لست من أهل الهداية؟!!



النعمة العُظمى هي نعمة الإسلام، ولذلك أول ما تعتر به يجب أن يكون هو الإسلام، أن الله جعلك من خير أمة أخرجت للناس، من أمة القرآن، من أمة الإسلام، من أمة محمد ﷺ.

هذه هي النعمة الأولى: الإسلام، وهذا هو الواجب الأول: الاعتزاز بالإسلام، ولذلك أطلت في شرح هذا البند، وهو مسجل على كاسيت، للأسف الإخوة هنا يحرمون التصوير، إخواننا في السعودية تركوا هذا من زمن، وأصبحوا يبيحون التصوير في كل مكان، بينما إخواننا في جنوب أفريقيا لا يزالون للأسف يُحرّمون التصوير، فمن كان يريد أن يستوعب ما أريد في هذا البند فليرجع إلى هذا التسجيل الصوتي.

حُسن فهم الإسلام:

وأنا أريد هنا أن أتحدث عن الواجبات الثلاثة الأخرى، أن تعتر بالإسلام هذا أمر جميل، ولكن لماذا تعتر بالإسلام؟ لا بد أن تفقه الإسلام، أن تعرف ما هو الدين الذي تعتر به، أن تفهمه حق الفهم، هذا هو المطلوب حتى يكون إيمانك عن بينة، ودعوتك على بصيرة، ليس في الإسلام أن تعتقد وأنت أعمى، لا، لا بد أن تعرف حقيقة الإسلام، وعقائد الإسلام، وعبادات الإسلام، وأخلاق الإسلام، وتشريعات الإسلام، أن تلمّ بهذه الأمور ولو مجرد إمام.

النبى ﷺ يقول: «مَنْ يُرِدَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١). والقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَفْقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٧)، عن معاوية.

لا يجوز للمسلمين أن يخرجوا كلهم للجهاد ويتركوا ثغرات في المجتمع لا يسدّها أحد، منها الناحية العلميّة، لا يصح أن يخرجوا كلهم للجهاد ويتركوا الأمة جاهلة، لا، لا بدّ من توزيع الأدوار، بحيث تُسدّ كل الثُّغرات، وتُملأ كل الجوانب، فيأخذ الجانب الجهادي حقّه، ويأخذ الجانب الاقتصادي حقّه، ويأخذ الجانب السياسي حقّه، ويأخذ الجانب العلمي حقّه، ويأخذ الجانب الشعائري حقّه، كلُّ جانب يأخذ حقّه.

أعطوا كلّ ذي حقّ حقّه، كما قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص؛ حين ظلّ يصوم النهار ويقوم الليل؛ تاركًا زوجته، وتاركًا دنياه، فقال له: «إِنَّ لَبَدَنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»، أي في الراحة، «وَلَعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»، أي في النوم، «وَلَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» أي في الإمتاع والمؤانسة، «وَلَزُورِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»، أي في المشاركة والخدمة، «وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا»، فأعطِ كلّ ذي حقّ حقّه^(١). الفرد يفعل هذا، والأمة تفعل هذا، على المجتمع أن يقوم بالحقوق؛ بحيث لا يضيع حقّ في أمة الإسلام، توزع الأمة طاقاتها على الأعباء وعلى الواجبات المختلفة، فمن الأمور المهمة الفقه في الدين.

واجب كل مسلم:

الفقه في الدين هو واجب كل مسلم، أن يتفقه في دينه، ولكن ما معنى الفقه في الدين؟ الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) قال: هناك كلمات أو مصطلحات حُرِفَتْ عن معانيها الإسلاميّة، وأخذت مفاهيم أخرى غير ما جاء في القرآن والسنة، مثل مفهوم التوحيد، الجماعة المعتزلة يسمون أنفسهم (أهل العدل والتوحيد)، وللتوحيد عندهم معنى غير المعنى الذي جاء في القرآن، ومثل كلمة (الحكمة)،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصوم، عن عبد الله بن عمرو.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، جعلوها علماً على الفلسفة، وسموا الفلاسفة (الحكماء).

ومن ضمن الأشياء الفقه، الفقه الذي جاء في القرآن فقه ينير القلوب، ويحرك الأنفس خشية من الله، القرآن يقول: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فلو ظلت تحدثهم عن فرائض الوضوء ونواقضه؛ فلا يؤثر في نفوسهم، ولا يحرك قلوبهم هذا النوع من الفقه، إنما الذي يحرك القلوب معانٍ أخرى، ولذلك يجب أن نرجع بالفقه في الدين إلى المعنى القرآني والمعنى النبوي، «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١)، الناس يطلقون لفظ الفقيه على من يحفظ الأحكام الفرعية التكليفية، في أمور الطهارة والوضوء، والزواج والرضاع والطلاق، وليس على من يعرف المقاصد الكلية للشريعة، أو أسرار الدين.

أضرب لكم مثلاً: قام الإسلام على اليسر لا العسر، وعلى التبشير لا التنفير، المنهج المحمدي النبوي يقول: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا»^(٢). ولذلك في عهد النبي ﷺ كان الأعرابي يأتي من البادية ويدخل في الإسلام، ويجلس في المدينة يوماً أو يومين أو ثلاثة؛ فيتعلم الوضوء والصلاة وهذه الأمور من رسول الله ﷺ بإيجاز واختصار وتيسير!

الأصول والكليات، لا التفاصيل والجزئيات:

أحد الأعراب سأل النبي ﷺ: ماذا تقول بعد الصلاة؟ قال: أما والله إنني لا أحسن دُندنتك ولا دُندنة معاذ، ولكنني أقول: اللهم إنني أسألك

(١) سبق تخريجه ص ٦٥.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤)، عن أنس.

الجنة وأعوذ بك من النار. قال: «حَوْلَهَا نُدْنِدُن»^(١). دندنتي ودندنة معاذ حول هذين الأمرين، ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الْتَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، لا يحسن التطويل والتفصيل وهذه الأشياء.

ويقول النبي ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(٢). وتوضؤوا كما رأيتموني أتوضأ، لكننا الآن إذا أردنا أن نعرف الوضوء نقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]. فنقول: ما هو الوجه؟ الصحابة وأمثالهم لم نجد منهم أحداً يقول لهم: هل تعلم وجهك أم لا؟ لكن هنا يقولون: الوجه ما بين منبت شعر الرأس إلى أسفل الذقن طولاً، وما بين شحمتي الأذنين عرضاً. وماذا لو كان هناك أصبع ليس له منبت شعر، أو كان هناك منسدل الشعر؟ هل نحدد مساحة الوجه بالسنتيمتر أو المليمتر؟! ومن هنا تنشأ المشاكل من هذه التعقيدات.

وأنا صبي كنت أحضر دروس العلماء في رمضان؛ فكان في مسجد حارتنا أحد المشايخ يدرس الطهارة كل سنة، فيدرس الاستنجاء وآدابه والوضوء وشروطه وهذه الأمور، ويظل ثلاثين ليلة لا يخرج من دورة المياه، لا ينتهي من مسائل الطهارة أبداً، والسَّنةُ اللاحقة يبدأ من جديد، فإذا كنا نعلم المسلمين الجدد الإسلام على هذه الطريقة؛ فإننا بذلك نضيعهم، لا ينبغي أن ندخلهم في التفاصيل وتفاصيل التفاصيل، وإنما ينبغي أن نعلمهم الأصول لا الفروع، نعلمهم الكليات لا الجزئيات،

(١) رواه أحمد (١٥٨٩٨)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الصلاة (٧٩٢)، عن بعض أصحاب النبي، ورواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩١٠)، وابن حبان في الرقائق (٨٦٩)، وصحَّحه النووي في خلاصة الأحكام (٤٤٣/١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الأذان (٦٣١)، عن مالك بن الحويرث.

نعلمهم الأهداف الكبرى للإسلام، نعلمهم أخلاقيات الإسلام، نعلمهم ماذا على الإنسان لنفسه؟ وماذا عليه لربه؟ وماذا عليه لزوجته؟ وماذا عليه لأولاده؟ وماذا عليه لجيرانه؟ وماذا عليه لأُمته؟ ولذلك نحن في حاجة إلى أن نفهم حقائق الإسلام، ولا نُضيّع أوقات الناس وجهودها في هذه التفاصيل.

نماذج تقليدية غير واعية:

في أوائل السبعينيات من القرن العشرين ذهبت إلى أمريكا، وكنت أزور المسلمين في المراكز الإسلامية المختلفة، وفي مركز إسلامي بمدينة نيو جيرسي، وهي مدينة ملاصقة لنيويورك - أشبه في تلاصقها بالقاهرة والجيزة - فكنت ألقى محاضرة في هذا المركز، وعادة تأتيني أسئلة بعد المحاضرات، فمن الأسئلة التي جاءتني سؤال من أمريكي حديث العهد بالإسلام يقول: يا فضيلة الشيخ، لماذا شرع الإسلام صيام شهر رمضان شهرًا عربيًا متنقلًا يأتي في الصيف، وفي الخريف، وفي الشتاء، وفي الربيع؟ وكان إمام المركز أستاذًا كبيرًا، وهو أستاذنا في الحقيقة وعالم كبير، ولكن كثيرًا من العلماء الكبار قد تفوت عليهم حتى الأمور الصغيرة، فقال للسائل: اترك الشيخ، نحن عندنا درس يوم الثلاثاء للمسلمين الجدد، وكل ما يتعلق بالفقه نشرحه في كتاب يُدرّس في ثانوي الأزهر، هو (الشرح الصغير على الدردير).

ولأنه شيخ كبير لم أرد عليه، ولكن بعد أن انتهيت قلت له: يا سيدنا الشيخ، أولاً هذا الكتاب يتعب طلاب الأزهر حتى يفهموه - وهم عرب - ودرسوا من قبل ذلك الفقه المالكي في المرحلة الابتدائية، فكيف تجعل هذا الكتاب للأمريكان وهم غير عرب أساسًا لدراساتهم، هذا من ناحية،

ثم أنت الآن تدرس باب الطهارة؛ فبعد كم سنة تصل إلى باب الصيام إن شاء الله؟ وحين يصل إلى باب الصيام لن يجد في (الشرح الصغير) جواباً على هذا السؤال؛ لأن هذه الحِكَم لا يهتم بها الفقه التقليدي، فالإسلام جعل الصيام في شهر متنقل حتّى يصوم الناس في كل أوقات السنة، هذه حكمة من الحكم.

حُسن تعليم الإسلام:

ولذلك أنا أريد من الذين يُعلّمون الإسلام أن يحسنوا تعليم الإسلام الناس، ويحسنوا التيسير الحقيقي في التعليم، ولكي نفهم الإسلام فهماً حقيقياً ينبغي ألا نركز على هذه التفاصيل، أحياناً تجد بعض الناس يستغرق في هذه التفاصيل، وكلما فصّل فيها يُظن أنّه علامة، كما يفعل بعض مدرسي الفقه فيقول كما في المذهب الشافعي: تكبيرة الإحرام لها ثمانية عشر شرطاً. فهذا من التعقيد لا التيسير، يكفيه المرء أن يقول: الله أكبر. وينتهي الأمر، علينا أن نعلم الناس كما كان يفعل سيد المعلمين محمد ﷺ، هو الذي بعثه الله معلماً، من ضمن مهمته أنّه يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، هو المعلم الأول، فهذا ما أريده في حسن فهم أو فقه الإسلام.

لكي نحسن فهم الإسلام أيها الإخوة يجب أن نتبع منهج رسول الله ﷺ، فهو كما قلت لكم سيد المعلمين، يجب أن نتعلم منه كيف نفهم الإسلام، كان حريصاً على أن يُقلل التكاليف على الناس، ويقلل الواجبات والفرائض، ويقلل المحرمات، ولذلك قال: «إنّ من أعظم الناس جُزماً رجلاً، سأل عن شيء لم يُحرّم؛ فُحرّم من أجل

مسألته»^(١). ظل يُلحّ في السؤال عن شيء حتّى نزل به تحريم كما فعل بنو إسرائيل، أمرهم الله أن يذبحوا بقرة. قال ابن عباس: لو ذبحوا أي بقرة لأجزأتهم^(٢). لكنهم بطبيعتهم التعنّتيّة لم يفعلوا هذا؛ بل ظلوا يسألون عنها وعن لونها وأوصافها؛ فشددوا فشدد الله عليهم.

أمّا المسلمون فلا يقبلون أن يتبعوا هذا المنهج، ولذلك العالم الحق هو الذي لا يُكثّر التكاليف على الناس، ولذلك مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك يشددان في المحرمات والفرائض، لا يقولون بحُرمة شيء إلا لما ثبت بدليل لا لبس فيه، أمّا إذا كان أقل من هذا؛ فيسمونه مكروهًا.

والفرض ما ثبت بدليل قطعي، فإذا كان أقل من القطعي يسمونه واجبًا، أي ما هو فوق السنة ودون الفرض.

يحاول العالم المسلم ألا يكثّر التكاليف على الناس؛ فيعسر الدين! والدين بطبيعته يسر وليس عسرًا، هذا أمر مهم في تعليم الناس الإسلام التعليم الحقيقي، ولذلك النبي ﷺ جاءه رجل أعرابي فسأله: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمّدًا رسول الله». قال: ثمّ ماذا؟ قال: «أن تؤدي الصلوات المفروضة كلّ يومٍ وليلة». قال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوّع». قال: ثمّ ماذا؟ قال: «أن تؤدّي الزكاة». قال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوّع». قال: ثمّ ماذا؟ قال: «أن تصوم رمضان». قال: هل عليّ غيره؟

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٩)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) رواه الطبري في التفسير (٢٠٤/٢، ٢٠٥)، وقال ابن كثير في تفسيره (٢٩٨/١): إسناده صحيح.

قال: «لا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». فقال الرجل: والله يا رسول الله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال: «أفْلَحَ إِنْ صَدَقَ» أو «دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ»^(١).

وفي حديث مماثل رواه أبو هريرة: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»^(٢). يكفي أن يترك المُحَرَّمَات ويؤدي الفرائض، لكن يأتي أحدهم فيقول: عَلَّمَنِي الْإِسْلَامَ. فيقال له: عليك أن تُصَلِّيَ ركعتي الصبح وركعتين قبله، وأربع ركعات في الضحى، وركعتين أو أربعة قبل الظهر، ومثلهم بعد الظهر، وهكذا كل السنن. يا أخي، إذا أردت أن تعلمه علمه الفرائض والأركان أولاً، لا تُكثِر عليه فيتفلسف منك، فلا بدَّ للداعية الذي يُعَلِّمُ الْإِسْلَامَ أن يكون عنده فقه في التعليم.

مقاصد الشريعة:

ثمَّ على الداعية أن يركز على مقاصد الشريعة، هناك أناس يُرَكِّزُونَ على الظواهر وينسون المقاصد، لا، رَكَّزَ على المقاصد، كان شيخ الإسلام ابن تيمية في عهد التتار، والتتار حاربوا المسلمين وانتصروا عليهم، ثمَّ انتصر الإسلام عليهم مرَّتين: انتصاراً عسكرياً في معركة شهيرة اسمها معركة عين جالوت، وانتصاراً معنوياً أنَّهم اختاروا الدخول في الإسلام طوعاً وهم أقوياء، ولكن حينما دخلوا في الإسلام لم يكن إسلامهم حسناً، يصلون حيناً، وحيناً لا يصلون، وبعضهم لا يزال يشرب الخمر، ويظلمون الناس، وينهبون الأموال، في هذا الوقت مرَّ شيخ الإسلام ابن تيمية هو وبعض من أصحابه على جماعة من هؤلاء التتار وكانوا سكارى، فقال لهم بعض أصحابه: يا أعداء الله تشربون الخمر أم الخبائث، وقد حرمها الله!

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١)، كلاهما في الإيمان، عن طلحة بن عبيد الله.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٤)، عن أبي هريرة.



فقال له: دعهم في سكرهم ولهوهم؛ فإنما حرم الله الخمر لأنها تصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن سفك الدماء ونهب الأموال^(١). فمعرفة مقاصد الشريعة أمر مهم.

بعض إخواننا من الدعاة للأسف يأتون في رمضان ويشددون على الناس الذين يُخرجون زكاة الفطر بالقيمة، يقول: لا بد أن تخرجها من الحبوب!

وإذا كان الناس في عصر النبوة محتاجين إلى الحبوب، محتاجين إلى التمر والزبيب والقمح والشعير، لكن الناس في مدينة مثل القاهرة إذا أعطيت الواحد منهم حبوبًا فماذا يفعل بها؟ حتّى بيوتهم لم تعد فيها دواجن ليطعموها هذه الحبوب.

وفي جدة والرياض يشتري الرجل من التاجر مقدار ما يجب عليه وعلى أولاده من زكاة من التمر، ثم يأخذها إلى الفقير، فيتجمع عند الفقير من هذا وذاك مائتا كيلو فماذا يفعل بها؟ يذهب إلى التاجر ليشتريها منه بالخسارة، اشتراها الأول بعشرين، وباعها هذا بعشرة، وأولى من هذا أن نعطي الفقير المال ليشتري ما يحتاجه من اللحم أو الحلوى أو الملابس، ولكن بعض إخواننا يقولون: هؤلاء مخالفون للسنة!

قلت لهم: هؤلاء يعملون بمذهب من مذاهب المسلمين، مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ومذهب الثوري، ومذهب عمر بن عبد العزيز، ومذهب فلان وفلان. وقلت لهم: أنتم المخالفون للسنة. قالوا: كيف؟ قلت: لأن النبي ﷺ حينما اختار الأطعمة في ذلك الوقت وجد أنها أيسر على

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (١٣/٣).

المعطي وأنفع للآخذ، هذه الأشياء عند المعطي فيدفع مما عنده، عنده تمر يدفع من التمر، والمجتمع محتاج إلى التمر، وأنتم تعطون شيئاً لا هو أيسر للمعطي، ولا هو أنفع للآخذ، فأنتم المخالفون للسنة وليس هؤلاء، فنحن أيها الإخوة في حاجة إلى أن نفهم مقاصد الإسلام؛ حتى نؤدي حق هذا الدين.

قلت بالأمس للإخوة: إنني كنت أريد أن أحدثكم عن أربعة أشياء، ولكنني تحدثت عن واحد منها وهو الاعتزاز بالإسلام، واليوم كنت أريد أن أحدثكم عن الثلاثة الأخيرة: حسن فقه الإسلام، وحسن العمل بالإسلام، وحسن العمل للإسلام والدعوة إلى الإسلام، ولكن يبدو أن الترجمة تضاعف الوقت، خاصة أن الشيخ إحسان لا يترك معنى مما أقوله إلا ويترجمه، فأكتفي بهذا القدر وأكمل في كيب تاون إن شاء الله؛ فمن أراد منكم أن يصحبنا فأهلاً وسهلاً، ومن لم يرد فقد هياً الله للناس في هذا العصر ما يُسمّى (التسجيل)، فمن التسجيل يمكن أن يتعلم الإنسان ما فاته.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل يومنا خيراً من أمسنا، ويجعل غدنا خيراً من يومنا، ويحسن عاقبتنا في الأمور كلها، ويجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وأن يُعلي كلمة الإسلام، ويرفع راية القرآن، وينصر المسلمين على أعدائهم، اللهم انصر الإسلام، اللهم أعلي كلمة الإسلام، اللهم ارفع بنا راية القرآن، اللهم أهلك أعداء الإسلام، اللهم عليك باليهود الغاصبين، اللهم أنزل عليهم بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين، اللهم انصرنا عليهم نصراً عزيزاً، وافتح لنا فتحاً مبيناً، واهدنا صراطاً مستقيماً، وانصرنا على أعدائنا الظالمين



الباغين، وكُنْ لنا نصيرًا يا خير الناصرين، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا؛ ربنا إنك رؤوف رحيم، ربنا كُنْ لإخواننا في القدس، وكُنْ لإخواننا في غزة، وكُنْ لإخواننا المضطهدين والممتحنين في سائر بلاد الإسلام، اللهم افكك بقوتك أسرهم، واجبر برحمتك كسرهم، وتولَّ بعنايتك أمرهم، إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، والسلام عليكم أيها الإخوة والأخوات ورحمة الله وبركاته.

* * *



الإجابات عن أسئلة المحاضرة

السؤال: أريد أن نربط بين النقطة الأولى: الاعتزاز بالإسلام، والنقطة الثانية: فقه الإسلام؛ بالنسبة للفرقة والطائفة المنصورة؛ كيف نحددها على أرض الواقع؛ خاصة مع كثرة الفرق والطوائف، والمذاهب الفقهية والعقدية، ومنها المذهب الشيعي؟

الجواب: الطائفة المنصورة التي استفاضت بها الأحاديث الصّحاح عن عدد من الصحابة تعني أنّ الإسلام سيظل بخير إلى أن تقوم الساعة، وأن هذا الدين لن يأتي يوم إلا وله أنصاره ورجاله، كما قال الإمام النووي وغيره وهو يتكلم عن حديث: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ»^(١). أنّ الطائفة المنصورة هي طائفة منتشرة في البلاد^(٢). قد توجد في بعض البلاد بكثرة، وفي بعض البلاد بقلّة، قد تنتشر وتقوى في زمن، وفي زمن تضعف، فليست هناك غربة مطلقة، وغربة دائمة، يكفي أن تكون هناك غربة جزئية في مكان ما في وقت ما، ثمّ تعود هذه الغربة مرة أخرى إلى يقظة وصحوّة، ومن ينظر في التاريخ الإسلامي يجد هذا هو مسار الإسلام، تحدث عثرات ثمّ نهضات، تحدث نكبات ثمّ انتصارات، وقد رأينا أعظم النكبات التي مرت بالأمة الإسلامية انتصر الإسلام عليها.

قوة الإسلام الذاتية:

ونحن نقول دائماً: إنّ الإسلام فيه قوّة ذاتيّة، وأعظم ما تظهر هذه القوّة الذاتية وهذه الصلابة عند الشدائد؛ بدءاً من حروب الردة، لولا أنّ

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٥)، وأحمد (٩٠٥٤)، عن أبي هريرة.

(٢) شرح النووي على مسلم (٦٧/١٣)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

الله قد هيأ لهذه الأمة طائفة منصوره باستمرار لقضي على الإسلام في مهده، لأن القبائل التي أسلمت ارتدت عن الإسلام بمجرد أن مات الرسول، كان خطرًا كبيرًا حتّى إنَّ عمر بن الخطاب وهو الشديد قال لأبي بكر: لا طاقة لك بحرب العرب جميعًا. فقال أبو بكر وهو رجل بكاء رقيق: أأرجو نصرتك؛ فتأتيني بخذلانك يا ابن الخطّاب؟ والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه، والله لو لم أقف إلا وحدي لقاتلتهم ما استمسك السيف بيدي^(١). فشرح الله صدر عمر والصحابة لما عزم عليه أبو بكر، وانتصر الإسلام على المرتدين، وكان هؤلاء المُرتدّون - بعد أن عادوا إلى الإسلام - من أقوى الناس شكيمة في حروب فارس والروم، شعروا أنّهم ارتكبوا ذنبًا عظيمًا بالردة؛ فأرادوا أن يعوضوا عنه بالبطولات والروائع في حرب هذه الإمبراطوريات الظالمة: فارس، والروم.

وجاءت بعد ذلك حروب الصليبيين وحروب التتار، وانتصر الإسلام عليهم في النهاية، وجاء الاستعمار الحديث، واحتل كل بلاد المسلمين تقريبًا إلا السعودية واليمن وكذا، واستعمرت كل بلاد الإسلام من بريطانيا وفرنسا، وإيطاليا وإسبانيا، حتّى هولندا التي كان تعدادها خمسة ملايين استعمرت إندونيسيا التي كان تعدادها خمسين مليوناً في ذلك الوقت.

هكذا انتشر الإسلام وانتصر، وكانت القوة الإسلامية هي المحركة، يقول برنارد لويس المؤرخ اليهودي الأمريكي المعروف: إنّ الحركات الإسلامية هي التي قادت حركات التحرر دائماً.

(١) عزاه المتقي الهندي في كنز العمال (١٦٨٣٨) للإسماعيلي. والحديث متفق عليه: بغير هذا اللفظ. رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

حتّى أتاتورك نفسه كان الذين يحاربون معه يحاربون باسم الإسلام،
كان المسلمون يصفونه بالغازي مصطفى كمال، ولما انتصر ذات مرة
كتب شوقي قصيدة مشهورة يقول فيها:

اللَّهُ أَكْبَرُ كَمْ فِي الْفَتْحِ مِنْ عَجَبٍ يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدُّ خَالِدِ الْعَرَبِ^(١)

يا خالد الترك، اعتبره كأنّه خالد بن الوليد، فهذه هي الطائفة
المنصورة المستعدة لنصرة الإسلام.

ونحن نجدها بحمد الله في هذا العصر، تكفي هذه الصحوة
الإسلاميّة، هذه الصحوة من ثمار الطائفة المنصورة، المنشورة أيضًا في
كل مكان، من الذي صنع هذه الصحوة؟ الدعوة الإسلاميّة ضربت في
بعض البلاد ضربات وحشية؛ حتّى ظن بعض الناس أنّ الإسلام لن تقوم
له قائمة، وإذا بهذه الصحوة تظهر في المشارق والمغارب، في بلاد
العرب وبلاد الإسلام، وخارج بلاد الإسلام، في أوروبا وأمريكا،
والشرق الأقصى وأفريقيا، وبين الرجال والنساء!

في وقت من الأوقات قلما كنت تجد امرأة محجبة، تسير في البلاد
العربية، تجد امرأة عجوزًا أكل الدهر عليها وشرب، وتلبس (الجابونيز،
والميني جب، والميكرو جب) وهذه الملابس الكاسية العارية، ثمّ انتشر
الحجاب بين النساء طوعًا، من الذي صنع هذه الصحوة؟ إنّها القوة
الذاتية للإسلام!

يمكن أن تحدث خلافات فرعية بين أبناء الصحوة؛ لكن الصحوة
تكتسح هذه الخلافات في طريقها ويبقى الإسلام الحيّ، الذي تقوم عليه
هذه الطائفة المنصورة.

(١) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (٥٩/١)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.



شكر الله لكم أيها الإخوة وجزاكم خيرًا، وهذا هو الظن بكم أن تحملوا هذه الرسالة، هذه المجموعات الطيبة التي لقيتها، أسأل الله ﷻ أن يبارك فيها، ويمدها بروح من عنده، ويمدها بمدد من جنده، وأن يجعلهم أنصارًا لهذا الدين، وأتباعًا لهذا الرسول العظيم، وأن يجعل الإسلام في هذا البلد واسع الانتشار، وشكر الله لكل من يقوم ببناء لبنة، شكر الله للشيخ عبد السلام البسيوني هذه المؤسسة التي شهدتها اليوم: هذا المركز، والمسجد، والمعهد، وكذلك جمعية العلماء التي رأيناها اليوم، ومؤسسة القدس أيضًا، هذه كلها بحمد الله أشياء تسرنا وتشرح صدورنا، وتطمئننا على أن الإسلام في هذا البلد بخير، وأسأل الله تعالى الذي جعل يوم هذا البلد خيرًا من أمسه: أن يجعل غده خيرًا من يومه، اللهم آمين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *



كيف نحقق الإسلام في حياتنا^(١)؟

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين. إنَّها لفرصة طيبة أن ألتقي بكم - أيها الإخوة - لأحييكم، وخير ما أحييكم به تحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وهذه التحية هي بالأصالة عن نفسي، وبالنيابة عن إخوان لكم كثيرين حمّلوني السلام والتحية إليكم، عن إخوانكم في الولايات المتحدة، حين التقينا بهم في مؤتمر اتحاد الطلاب المسلمين، وفي البلاد التي قدّر لي أن أزورها، وإخوانكم في مصر حيث مررت بهم، وإخوانكم في قطر حيث أقيم هناك.

كلُّ هؤلاء يُحمّلوني التحية إليكم، ويدعون الله تعالى أن يُثبّت على الحقّ أقدامكم، وأن يُسدّد في طريق الخير خطاكم، وأن يجعلنا جميعاً من جُنْدِه الصّادقين وحزبه الغالبين، وأن يُحبّب إلينا الإيمان ويُزيّنه في

(١) أُلقيت في الجزائر في أواسط السبعينيات من القرن العشرين.

قلوبنا، وأن يُكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وأن يجعلنا من الراشدين، فضلاً منه ونعمة.

سؤال يُحدّد حقيقتنا:

أيُّها الإخوة، حينما نلتقي أو يلتقي مجموعة من هذا الشباب ذي الصَّبغة المُعيَّنة والانتماء المُعيَّن، ينبغي أن يسألوا أنفسهم سؤالاً: مَنْ نحن؟ أو ما نحن؟ أو ما حقيقتنا؟

قد يكون الجواب: أنا عربي، أو أنا إفريقي، أو أنا سوداني، أو أنا مصري، أو أنا ليبي، أو أنا خليجي. ولكنَّ هذه الإجابات ليست هي التي تُحدِّد شخصيتنا الحقيقية.

إنَّ هذا السؤال ليس له إلا جواب واحد: نحن مسلمون. هذا هو الجواب الصحيح، والجواب الوحيد، فنحن مسلمون، اختار الله لنا هذا الدين، رضي لنا الإسلام ديناً، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فالله رضي لنا الإسلام ديناً، ونحن رضينا به ديناً.

رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، فنحن مسلمون إذاً، لا يشكُّ في هذا أحد، بل حتّى الذين ينحرفون عن الإسلام، عن تطبيق تعاليمه، حتّى الذين يعصون الله تبارك وتعالى، لا يُحِبُّون أن يُحرِّموا من الانتماء إلى هذا الدين، يريدون أن يبقوا مسلمين، فالانتماء إلى الإسلام أمر أساسي.

مقتضيات الإسلام:

ولكن إذا كنّا مسلمين فما الذي يلزمنا لكي نحقق الإسلام في هذه

الحياة؟ هل نحن مسلمون، بالكلام، أو بالوراثة أو تقليدًا للآباء والأمهات، أو بالجغرافيا؛ وُلدنا في أرض الإسلام فأصبحنا مسلمين، وكفى؟ لا، فالإسلام يقتضي منا جملة أمور.

الواجب الأول: فقه الإسلام:

أول هذه الأمور: أن نفقه الإسلام، يلزمنا أن نعرف الإسلام، فإن «من يُرد الله به خيرًا يُفقهه في الدين»^(١)، والفقه في الدين ليس مقصورًا على طائفة تتخصص فيه، وتُعرف به، بل يجب على كل مسلم أن يتفقه في الدين بقدرٍ مُعَيَّن، بقدرٍ ما تسلم به عقيدته، وتصحُّ به عبادته، وينضبط به سلوكه، ويقف به عند أمر الله ونهيه، وحلاله وحرامه، ويستطيع به أن يردَّ على شُبُهات الضَّالِّين، وأكاذيب المفترين.

لا بدَّ إذن أن يقف المسلم على أرضٍ صُلْبَةٍ من فهم هذا الدين، لا يجوز أن يكون مسلمًا وهو لا يفهم حقيقة الإسلام، فليس في الإسلام أن تكون مسلمًا لأنَّ أباك وأمك مسلمان، أو لأنك وجدت أهل بلدك مسلمين فنشأت مسلمًا.

لا، الإسلام لا يقبل التقليد، لا يقبل الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. ليس في الإسلام ما في المسيحية، من مثل قولهم: أطفئ مصباح عقلك، واعتقد وأنت أعمى. أو أغمض عينيك واتَّبِعْنِي. فالعقائد عندهم لا دخل فيها للعقل، لا تقبل المناقشة، وهذا ليس في الإسلام.

العقيدة في الإسلام يجب أن تقوم على البرهان، ابتداءً من وجود الله ﷻ وتوحيده، يجب أن يقوم هذا كله على أساس سليم من العقلانية

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٧)، عن معاوية.

الصافية المبرهنة، فالإسلام يطلب من أصحاب الديانات الأخرى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، لا يمكن أن تؤمن بغير برهان، ومن هنا ناقش القرآن الملحدين والمشركين، وأقام الأدلة على وجود الله وعلى وحدانيته، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ * ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُغْوُ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، مناقشة عقلية برهانية.

لهذا ينبغي على المسلم أن يفقه دينه، ابتداءً من العقيدة السليمة، التي يجب أن يبدأها على نور ويمشي فيها على نور، فالإسلام يريد أن يعيش المسلم على بصيرة من أمره، على بينة من ربه، على نورٍ من طريقه، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، على بصيرة، ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَنِينَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤]، فالبينّة والبصيرة نورٌ على نور، نورُ الفطرة والعقل مع نور الوحي والتبوّة، الاثنان جنباً إلى جنب، ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]، فالمسلم عليه أن يتفقه في هذا الدين، ليعيش به على نور، لا يأخذه لمجرد أن أبويه وأهل بلده مسلمون.

بل لا بدّ أن تفقه دينك، وتبذل جهداً في هذا الفقه، تعرف الدين من مصادره الأصيلة، ومن ينابيعه الصافية، بعيداً عن غلوّ الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتحريف الدجالين، بعيداً عن تزمت المتزمتين، وتحلل المتحلّلين.

عُدَّ إلى النبيِّ الصَّافي، إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله، وإلى فهم القرون الأولى خير القرون، حاكم إليها كل شيء، وابتحث: هل كان الرسول ﷺ يفعل ذلك؟ هل كان أصحابه ومن تبعهم بإحسان يفعلون ذلك؟ تَعَرَّف على منهجهم فهم خير القرون، وأفهم الناس لمقاصد الإسلام، وأفقههم لروح الإسلام، وأحرصهم على تطبيقه، وهم الذين أثنى عليهم القرآن والسُّنة.

حاول أن تفهم الإسلام في هذا الضوء، تفهمه عن طريق السماع أحياناً، فتحضر درس علم لعالم تثق به، وتطمئن إلى علمه ودينه معاً، حاول كذلك أن تقرأ، بل لا بدَّ أن تقرأ، وقد أصبحت المكتبة الإسلامية بحمد الله ثروة كبيرة، كتبها علماء أفاضل من مختلف البلاد الإسلامية، من عرب وغير عرب، ينبغي أن نبحت عن هذه الثروة ولا ندعها مطمورة ولا ننتفع بها، وللأسف إنَّ أمتنا أقل الأمم قراءة، نريد أن نتعب في القراءة وتحصيل العلم، كما كان سلفنا يتعبون في تحصيله، قال سعيد بن المسيب: إنَّ كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد^(١).

وجاء رجل فسأل الشَّعْبِيَّ عن مسألة، فأجابه عنها، ثم قال: خُذْهَا بغير شيء، فقد كان الرجل يرحل في مثلها إلى المدينة، يعني من الكوفة^(٢). يعني: إنَّك أخذتها مجاناً، أمَّا نحن فقد شقينا في تحصيلها، حتَّى لنسير في سبيلها من الكوفة إلى المدينة.

ورحل أبو أيُّوب الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى عُقْبَةَ بن عامر، فلَمَّا قَدِمَ مَصْرَ أخبروا عُقْبَةَ فخرج إليه، قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ في ستر

(١) رواه البيهقي في المدخل (٤٠١).

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١)، ومسلم في الإيمان (١٥٤).

المسلم لم يبقَ أحدٌ سمعه غيري وغيرك؟ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ سَتَرَ مؤمناً على خُرْبَةٍ^(١) سَتَر الله عليه يوم القيامة». قال: فأتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة، وما حلَّ رحله^(٢).

ورحل جابر بن عبد الله الأنصاري مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد، قال جابر: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريتُ بغيراً، ثم شددتُ عليه رجلي، فسرتُ إليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فقلت للبوَّاب: قل له: جابر على الباب. فقال: ابن عبد الله؟! قلت: نعم. فخرج يثأ ثوبه، فاعتنقي واعتنقته. فقلت: حديثاً بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيتُ أن تموت أو أموت قبل أن أسمعَه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَر النَّاسُ يوم القيامة - أو قال: العباد - عِراً غُراً بْهُمًا». قال: قلنا: وما بْهُمًا؟ قال: «ليس معهم شيء»^(٣).

من أجل حديث قطع هذا المسافة، ففي أمتنا نماذج ضربت الأمثلة التي لا تزال موضع الدهشة والإعجاب من الباحثين في الرحلة لطلب العلم، ونحن الآن قد يسّر الله لنا الكتب تُطبع وتُتشر، ولكن الناس لا يقرؤون، لذلك ينبغي أن تُخصّص لنفسك كل شهر عدداً من الكتب

(١) في كثير من المصادر: خزية، والمعنيان قريبان، والخُرْبَة: العورة والفضيحة. انظر تاج العروس مادة (خ. ر. ب).

(٢) رواه أحمد (١٧٤٥٤)، وقال مخرّجوه: المرفوع منه صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه. والخطيب في الرحلة في طلب الحديث (٣٤).

(٣) رواه أحمد (١٦٠٤٢)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠)، والحاكم في التفسير (٤٣٧/٢، ٤٣٨)، وصحّح إسناده ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٣٦٩): رواه أحمد ورجاله وثقوا، ورواه الطبراني في الأوسط بنحوه. وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٧٠).

تشتريه، على قدر ميزانيتك، كوّن مكتبة لتنتفع بها وتورّثها أولادك من بعدك، كما تصنع الأمم المتحضّرة.

يجب أن نفقه الإسلام حتّى نعرف الحقّ من الباطل، والصواب من الخطأ، والسنة من البدعة، والحلال من الحرام، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وليس هناك دين طلب العلم وفرضه كما فعل الإسلام، فلا بدّ أن نتفقه في ديننا وأن نعرف حقيقته، وبخاصّة أننا نواجه بحملات على هذا الدين، من خصومه ومن أعدائه، سواء كانوا أعداء من أتباع الأديان الأخرى، الذين يهاجمون المسلمين في عقر دارهم، ويريدون أن يُنصّروا المسلمين، كما يفعلون في إندونيسيا، التي وضعوا لها مخططاً لتنصيرها في نصف قرن، وهم يجمعون الشبهات حول الإسلام، فإذا لم يجدوا شبهات صنعوا الأكاذيب لغزو الإسلام في عقر داره وتشكيك المسلمين في إسلامهم - أو كانوا من الذين يحاربون الأديان عامّة والإسلام خاصّة، من شيوعيين وغيرهم، فيجب أن نسلح أنفسنا بثقافة إسلاميّة أصيلة، حتّى نستطيع أن نردّ سهام الكائدين عن نحر هذا الدّين.

فأول ما يجب علينا أن نفعله: أن نفقه هذا الدّين، لا بدّ من دراسة منّظّمة، ليست دراسة التسلية والمتعة، أو الدراسة السطحيّة السريعة، بل دراسة مُركّزة، مُنتقاة؛ فكما قيل: أخبرني ماذا تقرأ؟ أخبرك من أنت. نَظّم ما تقرأ، واعرف أي فكرة جديدة أضافها إليك هذا الكتاب؟ ولخصّ وادرس مع غيرك، مع زميلك، أو مع إخوتك، أو مع مجموعة من رفقاءك، تدارسوا فيما بينكم، وتعاونوا على هذا البر وهذه التقوى.

هذا هو واجبنا الأوّل: أن نفقه الإسلام.



الواجب الثاني: العمل بالإسلام:

إذا عرفنا الإسلام وفقهناه ودرسنا تعاليمه، هل تنتهي بذلك مهمتنا؟ لا، إنما العلم في الإسلام للعمل، علمت فاعمل، ولا تكن مثل من ضرب الله بهم مثل السوء: مثل الحمار، ومثل الكلب.

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥]، وقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

فهؤلاء حُمِّلُوا التوراة ثم لم يحملوها، أي لم يقوموا بحققها، بحق العمل بها والالتزام بتعاليمها، فجعلهم كالحمار الذي يحمل أسفاراً قيّمة وكتباً جيدة، ولكنه لا يفقه فيها شيئاً، كذلك الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها، وكان يمكن أن يرتفع بهذه الآيات ويرفعه الله بها، ولكنه أخلد إلى الأرض، جذبته الطين فهبط إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب.

لا بدّ من العمل، لا بدّ من التطبيق، لا بدّ أن يكون المسلم نموذجاً حياً لتعاليم الإسلام، يراه الناس فيقولون: ما أجمل الإسلام! انظروا إلى أخلاق الإسلام، انظروا إلى تعاليم الإسلام، فهو مصحف مفسّر، ليس مفسّراً بالكلام، ولكنه مفسّر بالعمل، قرآن حيّ يمشي على قدمين، هذا هو المسلم الحقيقي، وهكذا كان الصّحابة رضوان الله عليهم، وهكذا كان من تبعهم بإحسان، كل واحد منهم قرآن متحرك.

بماذا دخل الناس في الإسلام؟ لم يدخل الناس في الإسلام بمبشرين

مُحترفين، إنّما دخلوا في الإسلام لأنّهم وجدوا أُمَّة، هي في الواقع خير أُمَّة أُخرجت للناس، فَهَمًّا وإيمانًا والتزامًا وسُلوكًا، في علاقاتهم مع الله، وفي علاقاتهم مع أنفسهم، وفي علاقاتهم مع أسَرهم، وفي علاقاتهم مع الناس، في علاقاتهم مع خصومهم، بل حتّى مع أعدائهم، يقول غوستاف لوبون: ما عرفَ التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب^(١). يعني من المسلمين.

من أجل ذلك دخل الناس في دين الله أفواجًا، وفي بعض الأوقات كان النَّاس يدخلون في دين الله إلى حدٍ أخاف بعض الولاة أن تتناقص بذلك الميزانيّة العامّة لكثرة من يدخلون في الإسلام، فتسقط عنهم الجزية ولا تجب عليهم الزكاة إلّا بعد حَوْل، فتهدّط الميزانيّة لذلك مرّة واحدة.

حتى كتب بعضهم إلى عمر بن عبد العزيز يقول له: إنّ الناس يدخلون في الإسلام بكثرة، وقد كان من قبلك أجاز أن تفرض الجزية على من دخل في الإسلام، في السنة الأولى، فهل نفعل ذلك؟ فبعث إليه يقول: قَبَّحَ اللهُ رأيك؛ إنّ الله بعث محمّدًا ﷺ داعيًا ولم يبعثه جابيًا^(٢). بعثه للهداية، ولم يبعثه للجباية.

هذه هي دولة الإسلام، ليس همّها جمعُ الضرائب وتحصيلُ الأموال، إنّما همّها أن تهدي الناس، فهي دولة فكرة، ودولة رسالة، فهكذا كان الناس يدخلون في الإسلام، بأخلاق المسلمين.

(١) حضارة العرب لجوستاف لوبون ص ٦٠٥، ترجمة عادل زعيتر، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ٣، ١٩٥٦م.

(٢) رواه سعيد بن منصور، كما في سير أعلام النبلاء (١٤٧/٥)، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات. تحقيق مجموعة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

بماذا دخل الإسلام ماليزيا وإندونيسيا وأمثالها؟ هل ذهبت إليها جيوش المسلمين؟ الأفاكون يقولون: الإسلام انتشر بالسيف. أي سيف ذهب إلى هذه البلاد؟ ما ذهب إليها قائد ولا فاتح، ولا دخلها جيش، ولكن بأناس من العامة، تجار من حضرموت ذهبوا إليهم ورأى الناس الإسلام فيهم، في أخلاقهم، في سلوكهم، في معاملاتهم، في عباداتهم، فدخل الناس في الإسلام.

إذن يجب الالتزام بالإسلام، ويجب العمل بالإسلام، في كل مكان وكل زمان، ليس العمل بالإسلام في بلاد العالم الإسلامي فقط، فإذا اغترب المسلم عنها أصبح غير مكلف بالإسلام، لا، بل «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ»^(١) كما جاء في الحديث. ما دمت في أي مكان ستجد الله معك، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، فلا بد أن تعمل بما يرضي الله وعبادته، ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، إذن فليصحبك إسلامك حيثما حللت، وحيثما رحلت، إذا كنت في بلاد الغرب فاستمسك بالإسلام، بل ينبغي أن تظهر إسلامك في هذه البلاد، وأن تُري الناس الإسلام حقيقة جليّة، متمثلة في أشخاص يمشون على الأرض.

وحينما كلفنا الله بالإسلام لم يكلفنا شططا، ولم يرهقنا عسرا، لقد شرع هذا الدين حنيفيّة سهلة سَمْحَة، أزال منه كلَّ حرج وكلَّ عسر، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، هذا هو الإسلام. هذا هو الواجب الثاني: العمل بالإسلام.

(١) رواه أحمد (٢١٣٥٤)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، وقال: حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)، عن أبي ذر.

الواجب الثالث: العمل للإسلام:

معنى العمل للإسلام: أن نجعل من أنفسنا جنودًا لهذا الدين، دعاةً إلى هذا الدين، وليس الداعية هو الخطيب أو المحاضر فحسب، الداعية هو من يحمل الإسلام عقيدةً راسخةً في قلبه، وفكرةً واضحةً في رأسه، وخُلُقًا مُنظَّمًا لحياته، ورسالةً يتبنّاها ويحملها إلى النَّاس، قد يكون ذلك بالكلمة، بالحديث العادي مع النَّاس، أو بالتزاور أو الهدية أو المراسلة، المهم أن يعيش داعيةً للإسلام، أن يكون الإسلام في قلبه جمرَةً مُتَّقدة، لا أن يكون رمادًا فاترًا، أن يكون الإنسان الحيّ صاحب اللوعة والحرقة على الإسلام.

أمّا الَّذي يرى هموم الإسلام، وهموم المسلمين ولا يهتم ولا يبالي أعاش المسلمون أحياء أم أمواتًا، فليس هو المسلم الحق، فمن لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يُمس ويصبح ناصحًا لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين، وعامتهم فليس منهم، ليس على هدي الإسلام من كان كذلك، لا بدّ أن يهتم كل مسلم بالإسلام والمسلمين، لا بدّ أن توجد عنده هذه اللوعة والحرقة على الإسلام، نحن مسلمون، إذن لماذا تشيع بيننا المنكرات؟! لا بدّ أن يعيش المسلم بروح الداعية، صاحب الدعوة، صاحب الرسالة.

وعارٌّ علينا أن يجد كلُّ دينٍ أنصارًا له، ودعاةً وحُماة، ولا يكون من المسلمين من هم كذلك من أجل الإسلام، لقد وجدت اليهودية أناسًا يعملون لها، وقيمون لها دولة في قلب بلاد العروبة والإسلام، ويُسمّونها اسمًا دينيًا تاريخيًا. كما وجدت المسيحية أناسًا يبشرون بها في آسيا وأفريقيا وكل بلاد العالم، حتّى في قلب بلاد المسلمين، رجالًا ونساءً، مُبشّرين ومبشّرات، وتُبذل لذلك عشرات ومئات الملايين، من الجنيهات

والدولارات. حتّى البلاد التي لا تهتم بالتدوين تهتم بنشر الدين عند غيرها، في كل مذهب دعاة، الشيوعية - المذهب اللاديني - تعمل على نشر مذهبها بكل الوسائل، وعلى غزو البلاد من الداخل، عن طريق نشر الفكر الماركسي، وكذلك الماسونيّة والبوذيّة كلّ يريد الدعوة إلى نفسه.

لهذا كان من العار علينا، نحن أصحاب الدين الذي هو دين الدعوة والانتشار بطبيعته ألا نكون دعاةً إليه، وكل مسلم مطالب بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، يجب أن تكون داعية، تدعو إلى سبيل الله، بين غير المسلمين، بين المسلمين أنفسهم.

الدعوة بين غير المسلمين:

لهذا ينبغي أن يجعل كل مسلم من نفسه داعيةً لهذا الدين، بين غير المسلمين حتّى يصحّحوا فهمهم عن الإسلام، حتّى يرد الشُّبُهات المُعشَّشة في أفكارهم عن هذا الدين، وحتى يعمل على إدخالهم في هذا الدين، والإسلام والحمد لله ينتشر في كل مكان، ولكنّه انتشار ذاتي في الحقيقة، ينشر نفسه بنفسه.

أنا عشت أياماً في أمريكا، فلم يكد يمرُّ يوم إلا ويدخل أناس في الإسلام، جاء أناس ونحن هناك في مؤتمر اتحاد الطلاب المسلمين، وفي واشنطن أيضاً جاء أناس وأسلموا، فالإسلام ينتشر دون جهودٍ مُنظمة، فكيف إذا وُجد له دعاة.

المسلمون أغلظ حجاب يحجب الإسلام:

صحيح أن المسلمين أنفسهم هم أكبر العقبات في سبيل نشر الإسلام، لأنّ الناس كلما عرفوا عن الإسلام، وحدثتهم عن الإسلام،

وعن تعاليم الإسلام، وعن عظمتها، وما فيها من عمق وشمول، إلخ، قالوا: فما بال المسلمين غير ذلك؟ إذا كان الإسلام يدعو إلى العلم فما بال المسلمين جهلاء؟ وإذا كان الإسلام يدعو إلى التقدّم فما بال المسلمين متخلفين؟ إنهم يسمّون بلاد المسلمين البلاد النامية، وهو تعبيرٌ مُلَطَّفٌ عن البلاد المُتخَلِّفة، وإذا كان الإسلام يدعو إلى النظام فما بال الفوضى تضرب أطناها في بلاد المسلمين؟ وإذا كان الإسلام يدعو إلى النظافة فما بال بلاد المسلمين أقذر بلاد الدنيا؟ وإذا كان الإسلام يدعو إلى القوّة فما بال المسلمين ضعفاء؟ وإذا كان الإسلام يدعو إلى الوحدة فما بال المسلمين متفرّقين؟ أين الإسلام في واقع المسلمين؟ لهذا أقول: إنّ أغلظ حجاب يحجب النَّاسَ عن الإسلام هو حال المسلمين أنفسهم.

أسلم بعض الناس في الغرب عن طريق الكتب، قرأ بعض الترجمات عن القرآن، وبعض الكتب عن السيرة النبويّة، وبعض الكتب عن عقيدة الإسلام ونظامه وشريعته، فشرح الله صدره للإسلام ودخل فيه، وظلّ يقرأ كل يوم حتّى ازداد إيمانه عمقاً بالإسلام، ولكنّه كان يتشوّق إلى أن يرى المسلمين أنفسهم، ووجد أنّ أفضل فرصة لذلك هي حجّ بيت الله الحرام، فذهب إلى الحج، فماذا رأى؟

رأى صورة غير الصورة التي رسمها في مخيلته عن المسلمين، وعن أمّة الإسلام، رأى الفوضى، والقذارة، والعنف، والأخلاق المنافية لأدب الإسلام وتعاليمه، فوجئ بذلك فقال: الحمد لله الذي عرّفني الإسلام قبل أن أعرف المسلمين.



لذلك نقول: إنَّ أغلظ حجاب عن الإسلام هو حال المسلمين، ومع هذا ينبغي ألا نياس، ينبغي أن نفهم الناس أن ما عليه المسلمون ليس هو الإسلام، لأنَّ الخطأ هنا أن يقولوا: الإسلام جعل المسلمين في مؤخرة الأمم.

والصحيح أن ذلك بسبب البعد عن الإسلام، إذا أردنا أن نحكم على الإسلام بالمسلمين، فليكن ذلك يوم كان الإسلام إسلامًا، ويوم كان المسلمون مسلمين حقًا، والذي يقرأ في التاريخ الإسلامي يرى أن المدَّ والجزر، والنصر والهزيمة، والقوة والضعف، على امتداد التاريخ الإسلامي ترتبط بمدى القرب من الإسلام أو البعد عنه، إذا رأيت انتصارًا أو انتعاشًا فاعلم أن هناك اقترابًا من تعاليم الإسلام، إذا رأيت اندحارًا وهزيمة وضعفًا، فاعلم أن هناك بُعدًا عن الإسلام، هذه حقيقة يجب أن نعرفها ونعرّف به.

المهم أننا يجب أن ندعو للإسلام وأن نعمل للإسلام، بين غير المسلمين، خاصّة من يعيش من أمثالكم في بلادهم.

الدعوة بين المسلمين:

ومن ناحية أخرى: ينبغي أن يجعل كلُّ مسلم من نفسه داعيةً لهذا الدين بين المسلمين أنفسهم، فهناك مسلمون ليس لهم من الإسلام إلا اسمه، هؤلاء في حاجة إلى أن نشدّهم إلى الإسلام، وأن نردّهم إلى صراط الإسلام، وأن نعرّفهم حقيقة الإسلام، وأن نبذل معهم جهودًا متتابعة، حتّى يهتدوا بعد ضلالة، يهتدي الضال، ويتوب العاصي، ويستقيم المنحرف، ندعو هؤلاء مع غير المسلمين، كما يحاول الماركسيون وغيرهم أن يصطادوهم، ويرموا بهم في أحضان الضلال.

بهذا لا بدّ أن تتغير الأوضاع المختلّة، فكما تكونوا يولّي عليكم،
فغيّر الناس تتغيّر الأوضاع، وغيّر الأنفس يتغيّر التاريخ، الماركسيون
يقولون: غيّر الاقتصاد أو غيّر علاقات الإنسان يتغيّر المجتمع. ونحن
نقول: غيّرُوا الأنفس يتغيّر التاريخ، فهذه قاعدة قرآنيّة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا
بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

لا بدّ أن نبذل جهودًا مستمرّة ولا نياس، والطريق بالطبع ليس سهلاً،
ليس مفروشًا بالأزهار والرياحين، بل هو مفروش بالأشواك، ومضرج
بالدماء، فهو طريق الأنبياء والمرسلين، لذا ينبغي - مع العمل للإسلام -
أن نصبر على ما نلاقي ونتحمّل الضربات، حتّى نجني الفلاح إن شاء الله
﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا
بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

لا بدّ من العمل للإسلام حتّى يُقام دين الله في الأرض، ويحكم دينُ
الله دنيا الناس، وتسود شريعته الخالق دنيا الخلق.

الإسلام سفينة الإنقاذ:

لا شكّ أنّ بعض الإخوة السطحيين من المسلمين إذا انتقل من بيئتنا
المتخلّفة - للأسف - في كثير من مظاهر الحياة الدنيا، إلى البيئات الغربيّة
المتقدّمة حضاريًا، وتكنولوجياً، وإداريًا وغير ذلك، أصابه الانبهار، والافتتان،
مع ما يصيبه من يأس، وعلى هؤلاء أن يتأمّلوا هذه الحقائق الثلاث:

متاع الدنيا ومتاع الآخرة:

على هؤلاء الإخوة أن يعلموا أنّ الدنيا ليست دارًا للبقاء والخلود،
وأنّ متاعها بالنسبة إلى متاع الآخرة قليل، وأنّ الخلود حبل ممدود

لا ينقطع بالموت، وأنَّ تمكُّن الإنسان من الدنيا ونعيمها إذا لم تصحبه عقيدة سليمة، ورسالة نبيلة فقد خسر خسرانا مبيِّنا، والله تعالى يقول: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وِبِئْسَ الْمَهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

وهذا أمر أساسي لا شكَّ فيه، فإذا كنَّا نقيس الإنسان بهذا الخلود، بهذا الامتداد الطويل، بهذا الحبل المربوط بين الدنيا والآخرة، فلا نعتقد أنَّ الحياة انتهت بالموت، ولا نعتقد أنَّ الموت هو نهاية المطاف، بالعكس هو بداية حياة جديدة هي خير وأبقى، فالله تعالى يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]، ولو كان الموت عدما صرفا لم يُخلق، الموت بداية رحلة، كما قال عمر بن عبد العزيز: إنكم خلقتُم للأبد، وإنما تنقلون بالموت من دار إلى دار^(١). ويقول الشاعر المؤمن:

وما الموتُ إلَّا رحلةٌ، غيرَ أنَّها من المنزلِ الفاني إلى المنزلِ الباقي^(٢)

ولذلك نحن ننظر إلى الحياتين معًا، ونرى أنَّ الدنيا مزرعة للآخرة، ومن هنا لا نبالي بالدنيا حتَّى لو أعطاهَا الكافر، ولمَّا دخل سيدنا عمر بن الخطاب على النبي ﷺ، ووجد الحصار قد أثر في جنبه، قال له: فقال: يا نبي الله، لو اتَّخذت فراشًا أوثر من هذا؟ فقال: «ما لي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا، إلَّا كراكبٍ سار في يومٍ صائفٍ، فاستظلَّ تحت شجرةٍ ساعةً من نهار، ثمَّ راح وتركها»^(٣).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣٤)، في خطبة طويلة عن عمر بن عبد العزيز، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٢) من شعر أبي العتاهية، انظر: الإعجاز والإيجاز للثعالبي ص١٥١، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.

(٣) رواه أحمد (٢٧٤٤)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. وابن حبان في التاريخ (٦٣٥٢)، والحاكم في الرقاق (٣٠٩/٤)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس.

هكذا الدنيا بمقدار قيلولة، أمّا الآخرة فهي الدار الحقيقيّة، وعلى كلّ مسلم أن يستحضر هذا المعنى دائماً.

الإسلام يُمكن المسلم من الدنيا:

وأريد أن أقول بجوار هذا شيئاً آخر: إنّ الإسلام هو أعظم ما يُمكننا من الدنيا، أكثر من أيّ مبدأ أو فلسفة أو عقيدة أخرى، والمسلمون - كما قلت - حينما كانوا مسلمين حقّاً ملكوا زمام العالم، وقادوا الدنيا، وكان الشرق والغرب تحت أيديهم، فهم بالإسلام صنعوا هذا، وأقاموا حضارة عالمية، ربانية، إنسانية، أخلاقية، متوازنة، التقى فيها العلم مع الإيمان، والدين مع الدنيا، والسموّ الأخلاقي مع الرقيّ المادّي جنباً إلى جنب، هذه أيضاً حقيقة ينبغي أن تُعرف.

الحضارة الغربية حضارة قاصرة:

كما ينبغي أن نعرف أنّ الحضارة الغربية ليست حضارة كاملة، بالعكس هي حضارة قاصرة، حضارة عرجاء عوراء، ولذلك نقول: إنّها حضارة المسيح الدجال، وليست حضارة المسيح ابن مريم، هي عوراء كما أنّ المسيح الدجال أعور، هي عوراء لأنّها تنظر إلى الحياة بعين واحدة، تنظر إلى الجانب المادّي وحده وتنسى الجانب الروحيّ، تنظر إلى الدنيا وتنسى الآخرة.

حتى إنّ مفكري الغرب ونقّاده أصبحوا الآن ينقدون هذه الحضارة، ويشكون من إفلاسها في جوانب المعاني والقيم والمُثل والروحانيّات، ويقولون: إذا لم تتدارك هذه الحضارة نفسها، فإنّها ستهوي وتهبط وتزول كما زالت حضارات سابقة. لذلك قال أحد المفكرين الهنود لآخر من الغرب، حينما قال له: إنّ الإنسان عندنا في الغرب استطاع أن يخلق في

السَّماء كالطير، وأنْ يغوص في البحر كالحيوت. قال له: نعم صحيح، ولكنه لم يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان. لفقدان المعاني الإنسانية وغلبة المعاني المادية.

السعار المادي هل آمن الناس من خوف؟ هل أعطاهم السكينة التي هي سرُّ السعادة؟ الناس في أمريكا حينما يخلو أحدهم بنفسه يقول: وماذا بعد أعيش عمري، طال أم قصر؟ هل هي أرحام تدفع وأرض تبلع؟ ما أتفه الحياة.

بعض الناس في الغرب يشعرون بتفاهة الحياة، يضيقون بالحياة، يفتقدون السكينة، السكينة التي نجدها بالإيمان يفتقدونها عندهم، السعادة التي نشعر بها حينما نقول: الحمد لله. نشعر في كل ما يصيبنا أنه قضاء الله وقدره، فالإيمان مصدر السعادة، حتَّى قال بعض السلف: نحن نعيش في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف، ولنازعونا عليها^(١).

بينما يشعر أولئك الناس في الغرب بالفراغ الروحي، حتَّى الترابط العائلي، نحن عندنا العائلة والأرحام، عندنا الأبوة والأمومة والأخوة والبنوة، كلها لها وجود وحقوق في حياتنا، يشعر المسلم بهذا الترابط بين أسرته وأقاربه من الدرجة الأولى إلى ما هو أبعد.

بينما هؤلاء في الغرب لا يشعرون بذلك، الوالد والبنت يبلغان، فإذا كل واحد حبلى على غاربه، لا يجتمع بوالديه ولا يسأل عنهما، فلمَّا انتبهوا لذلك خصَّصوا يوماً سمَّوه عيد الأم، أمَّا نحن فالترابط الأسري بيننا وثيقٌ، حتَّى لو غبنا عن الأهل لا تنقطع المكالمات والمراسلات والزيارات، فلا يوجد عندنا جفاف العاطفة الموجود عندهم.

(١) من قول إبراهيم بن أدهم، ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٧٠/٧).

حكى لي بعض إخواننا في أمريكا: أنَّ بعض الجيران - ذات مرة - وجدوا رائحة كريهة تنبعث من أحد البيوت، فلما كان مغلقاً بلَّغوا الشرطة، فلما جاءت فتحت البيت فوجدوا جثة امرأة عجوز قد ماتت من عدّة أيام، فبعثوا فإذا أبناءها متفرقون يعملون في أماكن شتّى، والأم تعيش بمفردها في البيت لا تجد من يرعاها، حتّى ماتت وحيدة، فالشيخوخة في هذه البلاد موحشة، ولذلك انتشرت دور المُسنّين، وشركات التأمين على الحياة، وانتشرت تربية الكلاب للاستئناس بها ومَلء العواطف بحبها، ولذلك قال رئيس جمعية الرفق بالحيوان في باريس: يوجد سبعة ملايين كلب تقتنيها العائلات. فسألوه: لماذا هذا العدد الكبير؟ قال: الإنسان في حاجة إلى أن يُحب وأن يُحب. فلما لم يجد الإنسان من يُحبه وجد هذا الحيوان بما فيه من ألفه ووفاء.

هذه هي المجتمعات التي يصفونها بالرُّقي، والرُّقي ليس فقط بالرُّقي العمراني والتكنولوجي، بل لا بدّ من الرُّقي النفسي، ولذلك هذه الحضارة ينقصها الكثير من المعاني، وقد كثرت الكتب التي تنتقد هذه الحضارة، كما فعل كولن ولسون في كتابه «اللامنتمي»، وكتابه «سقوط الحضارة»، وألكسيس كاريل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» الذي تحدّث عن أنّ الحضارة لم تعرف حقيقة الإنسان، اهتمّت بعلوم الجماد ولم تهتم بعلوم الإنسان. ولا يمكن أن يعرفوا الإنسان؛ لأنّه لا يعرف الإنسان إلا خالق الإنسان، يعرف ما يصلحه وما يُفسده، ما يرقى به وما يهبط به، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: ١٤].

من هنا تظل هذه الحضارة قاصرةً وناقصة؛ فلم تُشبع هذه الحضارة الماديّة النهم الروحي للإنسان، الإنسان هناك أحسّ بالداء ولكنه لم يهتد



إلى الدواء، ولو عرفوا الإسلام معرفة حقيقية لوجدوا الإسلام دين التوازن، الذي يمزج بين المادة والروح، وبين العقل والقلب، وبين الدنيا والآخرة، وبين الفرد والجماعة، هذا هو الإسلام.

فالمسلم لا ينخدع بهذه الحضارة؛ لأنه يعلم أن الإسلام يجمع التوازن والعمق والشمول، ﴿صَبَغَةَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

من هنا ركزنا على أنه ينبغي أن نعتز بالإسلام، لأننا وحدنا من نملك سفينة الإنقاذ، البشرية الحائرة الآن لن تنقذها الفلسفة الماركسيّة، ولا الوجوديّة، ولن تنقذها المسيحيّة؛ لأنها فقدت نفسها، صارت ديناً فاقداً التوازن، فليس هناك إلا الإسلام، والإسلام وحده، إذا وجد المسلمين الحقيقيين، الذين يفهمون الإسلام، ويعملون بالإسلام، ويدعون إلى الإسلام، ونرجو أن نكون منهم إن شاء الله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



من مقومات الإسلام ودعائمه

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تنزل الخيرات والبركات، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأزكى صلوات الله وتسليماته على مُعَلِّمِ الناس الخير، وهادي البشرية إلى الرُّشد، وقائد الخلق إلى الحق، ومُخْرِجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، سَيِّدِنَا وَإِمَامِنَا وَأَسَوْتِنَا وَحَبِيبِنَا وَقَائِدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ مَنْ دَعَا بِدَعْوَتِهِ، وَاهْتَدَى بِسُنَّتِهِ، وَجَاهَدَ جِهَادَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

خير ما أحييكم به، أيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ فِي الْمَغْرِبِ الْحَبِيبِ، وَفِي هَذَا الْمَسْجِدِ الْمُبَارَكِ، الَّذِي يَخْطُبُ فِيهِ الشَّيْخُ الدَّاعِيَةُ الْمَجَاهِدُ عَزُّ الدِّينِ تَوْفِيقُ، وَالَّذِي تَحْضُرُهُ هَذِهِ الْجُمُوعُ الْحَاشِدَةُ، رَاغِبَةٌ فِي التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، وَالتَّجَمُّعِ عَلَى الْخَيْرِ، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، خَيْرٌ مَا أحييكم به أَيُّهَا الْإِخْوَةُ جَمِيعًا، رِجَالًا وَنِسَاءً، شَبَابًا وَشِوْخًا، تَحِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَتَحِيَّةُ الْإِسْلَامِ السَّلَامِ، فَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

(١) أُلْقِيَتْ فِي مَسْجِدِ عَقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ، بِالْأَدَارِ الْبَيْضَاءِ، بِالْمَغْرِبِ.

تميُّز العبادات في الإسلام:

من أعظم نعم الله تبارك وتعالى على المسلمين ما فرضه عليهم من فرائض تميّزت عن غيرها من الفرائض في الأديان الأخرى.

الصلاة:

فرض عليهم الصلاة، ولكنها ليست كالصلاة في الأديان السابقة، فالصلاة كما رأيناها عند اليهود مجرد انحناء، والصلاة عند المسيحيين دعاء وابتهاال، كالصلاة بالمعنى اللغوي عند العرب.

أمّا الصلاة في الإسلام، فهي معراج المؤمنين، هي أثر من آثار تلك الليلة المباركة، ليلة الإسراء والمعراج، ففي هذه الليلة رحلتان: رحلة أرضيّة، ورحلة سماويّة.

الرحلة الأرضيّة كانت من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وقد شاء الله ﷻ أن يربط بين المسجدين، المسجد الذي ابتداءً منه الإسراء، والمسجد الذي انتهى إليه الإسراء، المسجد الحرام والمسجد الأقصى، كأن مَنْ فَرَطَ في المسجد الأقصى أوشك أن يُفَرِّطَ في المسجد الحرام.

ولم يصف الله المسجد الحرام بشيء إلا بأنّه المسجد الحرام، ولكنه وصف المسجد الأقصى بقوله: ﴿الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وصفه بالبركة؛ ليتعلّق الناس به، وترتبط به قلوبهم، فلا يمكن أن تُسقط اعتباره، ولا تُهمل شأنه، هذه هي الرحلة الأرضيّة، رحلة الإسراء.

ثم كانت رحلة سماويّة من المسجد الأقصى إلى السماوات العلّاء، إلى سدرة المنتهى، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿ [النجم: ١٦، ١٧].

الصلاة معراج يومي:

وقد تركت لنا رحلة المعراج أثرًا عظيمًا، هو الصَّلوات الخمس. والصلوات هي معراج المؤمن اليومي إلى الله، فمن حيث عددها، لا يوجد دين يفرض على أتباعه أن يعبد ربّه في كل يوم خمس مرات.

وفي أوائل القرن العشرين - أو في الربع الأوّل منه - أسلم أحد اللوردات البريطانيين، يُسمّى اللورد «هيدلي»، وقد ألّف كتابًا سمّاه «إيقاظ الغرب للإسلام»، وقال فيما أعجبه من الإسلام: إنني وجدت أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي يصل المرء برّبّه في كل يوم خمس مرات، لقد كنّا في النصرانيّة نتوجّه إلى الله في كلّ يومٍ أحدٍ بالذهاب إلى الكنيسة، ولكن المسلم يتوجّه إلى الله كلّ يوم خمس مرات، فهو على موعد مع الله وَجَّهًا في كل يوم. فلا يوجد دين يربط العبد بربه مثل الإسلام.

الصلاة حمّام يومي:

إنّ الصلاة حمّام يومي، تغتسل به من أدران خطاياك، ومن أدناس غفلتك، فإذا أخذتك الدنيا وزخارفها وأشغالتها عن الله، سرعان ما تسمع المؤذّن يقول: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح. فيردك إلى الله، يأخذك من سوقك، وأرقامك، وأعمالك، وأشغالك، وأموالك، ويذهب بك لتقف بين يدي الله وَجَّهًا فتناجيه، كما جاء في الحديث القدسي:

«قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. قال الله تعالى: أشنى علي عبدي. وإذا قال: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾. قال: مجّدني عبدي. فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿١﴾. قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»^(١).

كأنما هو بين يدي الله، ليس بعيداً عن الله، يناجي قريباً غير بعيد، ويسأل كريماً غير بخيل، فهذه الصَّلَاة هي المعراج اليومي للمؤمن، وليست كالصلاة عند الأديان الأخرى.

تميُّز الصلاة:

والصلاة في الإسلام متميِّزة، بما لها من شروط، كالطَّهارة من الأحداث والأخباث، الطَّهارة الكبرى والصُّغرى، طهارة الثوب، وطهارة البدن، وطهارة المكان، ليدخل المسلم إلى صلاته نظيفاً وضيئاً، وقد سُمِّي الوضوء وضوءاً؛ لأنَّه يجعل المسلم منيراً مشرقاً دائماً.

والصلاة متميِّزة بما يلزمها من استقبال القبلة، بالتوجُّه نحو المسجد الحرام، نحو الكعبة، فتتوجَّه إليه الوجوه، ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠].

والصلاة متميِّزة بما لها من ستر العورة والزينة، كما قال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وكان الحسن إذا أراد الذهاب إلى المسجد تزَيَّن وتطيَّب ورَجَّل شعره، فلما سُئِل في ذلك قال: فقل له يا ابن بنت رسول الله لم تلبس أجمل ثيابك؟ فقال: إِنَّ الله جميل يحبُّ الجمال، فأنا أتجمل لربي، لأنَّه هو القائل: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]^(٢).

(١) رواه مسلم في الصلاة (٣٩٥)، وأحمد (٧٢٩١)، عن أبي هريرة.

(٢) تفسير الألوسي (٣٤٩/٤)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.

والصلاة متميزة بما لها من أذان، لم يجعله الله بوقاً يُنفخ، أو جرساً يدق، ولا تفهم منه معنى، وإنَّما جعله هذا الحداء الرباني: الله أكبر، الله أكبر، إلخ.

وأداء الصَّلاة في جماعة جعل منها كذلك عبادة مُتميِّزة.

تميُّز الزكاة:

كما أنَّ كلَّ عبادات الإسلام متميِّزة، فالزكاة في الإسلام ليست هي البر، أو الصدقة، أو الإحسان، أو الخيرات، كما في الأديان الأخرى، إنَّها فريضة مُحَكَّمة، لم تُعدَّ مُجرَّد إحسانٍ فرديٍّ، أو صدقةٍ تطوعيَّةٍ، مثل الصَّدقات في المسيحيَّة، وما سبق من الأديان، بل أصبحت حقًّا معلومًا، علِّمه من تجب عليه، وعلِّمه من تجب له، وعُرفت الأموال التي تجب فيها، وعُرف نصابها، والمقادير الواجبة، والمصارف المُستحقَّة، ومن الذي يجمع الزكاة ليوزعها.

الأصل أن يُخرج المؤمن الزكاة بدافع إيمانه، فإذا لم يكن عنده إيمان دافع فهناك الضمير الاجتماعي، إذا مات الضمير الفردي أو سَكَنَ عن حراكه فهناك المجتمع الذي يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، يُخاطبه: لماذا لا تخرج حق الفقراء، وحق الله؟

ثم هناك الدولة التي تجبي هذا الحق، تأخذه كزها إذا لم يدفعه صاحبه طوعًا، بل تقاتل عليه، إذا كانت هناك فئة ذات شوكة وتمردت على أداء الزكاة يقاتلها الإمام ولي الأمر، حتى يأخذ حقَّ الفقراء وحقَّ الله منها.

لقد كانت الدولة الإسلاميَّة هي أوَّل دولة في العالم ترفع السلاح، وتشنُّ الحرب من أجل حقوق الفقراء والمستضعفين، قبل الشيوعيَّة

والاشترائية وأمثالها، وقال أبو بكر رضي الله عنه : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عناقاً (عزاً صغيرة) - وفي رواية: عقلاً (حبلاً بغيراً) - كانوا يؤدُّونه لرسول الله لقاتلتهم عليه^(١).

فالزكاة ليست كالصدقات في الأديان الأخرى، بل هي عبادة، وضريبة بلغة العصر، ضريبة تُجبى وتؤخذ، كما قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم : «تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»^(٢).

ولذلك جعل القرآن من مصارفها مصرف العاملين عليها، الذين يقومون بتحصيل الزكاة من أربابها، وتوزيعها على مُستحقِّيها، ويأخذون أجرهم من ميزانية الزكاة، فحتى لا يتعطل هذا الجهاز عن القيام بواجبه يأخذ جزءاً من الزكاة، وقال الإمام الشافعي: لا ينبغي أن يأخذوا أكثر من الثمن^(٣). أي (١٢,٥٪)؛ حتى لا يستهلكوا الزكاة في الأُبَّهة، والمصاريف الإدارية، والأُمور المظهرية.

فالعبادات الإسلامية أيُّها الإخوة متميزة عمّا في الأديان الأخرى: الصلاة، والزكاة، والصيام والحج وغيرهما، ولا أترسل في هذا الأمر، وإنّما أتحدّث عن الصلاة باعتبارها المعراج اليومي للإنسان المؤمن.

تميّزت الصلاة عن العبادات الأخرى في الإسلام، وخصوصاً صلاة الجمعة، فصلاة الجمعة إحياء أسبوعي للضمير الإسلامي، للقلب الإسلامي، وللعقل الإسلامي، إذا وجد المسجد الخطيب الموفق،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس.

(٣) نهاية المحتاج للرملي (١٦٦/٦)، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

والإمام الموفق الذي يؤمُّ النَّاسَ في الصلاة فيَهْزُ قلوبهم بقراءته الخاشعة، الذي يُدَرِّس للناس، ويفقِّهم في دين الله، في القرآن، وفي السُّنَّة، وفي العقيدة، وفي العبادات، وفي المعاملات، وفي السلوك، إذا وُجِدَ هذا وُجِدَت للمسجد قوة لا يمكن أن تعادلها قوة.

حملة لتنصير المسلمين:

في أوائل القرن العشرين ابتُلِيت بلاد المسلمين بحملات تبشيرية تنصيرية هائلة، وكانت مصر من تلك البلاد، تصوّروا أنَّ التبشير النصراني طمع في مصر، بلد الأزهر، وبلد القرآن! أراد أن يُنصّر المسلمين، لقد طمعوا أن يتحوّل أحمد، ومحمد، وعبد الله، وعبد الرحمن، إلى جورج، وحنّا، وجرجس، وبطرس! فنشروا المُبشِّرين في سائر القرى والمدن، في أوائل الاستعمار الغربي، وفي أوج قوّته، وهم مُؤيِّدون بالعلم الغربيّ، والمال الغربيّ، والمكر الغربيّ، والتّخطيط الغربيّ، والتنظيم الغربيّ.

يذهب أحدهم إلى القرية فيُحدّث الناس عن المسيح، وعن العذراء، ساعات طويلة، والناس يجلسون يستمعون في صمت، فيظنّ أنّهم استجابوا له، وتجاوبوا معه، وآمنوا بدعوته، حتى يمرّ عليهم أحد الناس فيقول: وحّدوه. فيردّون جميعاً: لا إله إلا الله. ويقول: صلُّوا على النبيّ: فيردّون جميعاً: ﷺ. فيدرك الرجل إذ ذاك أنّ دعوته ذهبت هباءً، فالأمر كما يقول المثل: ما يجمعه النمل في سنة، يأخذه الجمل في خُفّه. هكذا ظلوا يعملون في مصر، ولا يجدون من يستجيب لهم.

لم يفلح التبشير في مهامه، إلا حين استطاع أن يستغلّ فقر الفقراء، فيعلمهم في مدارس، وقد رفض بعض الناس في بعض البلاد أن يعلموا أولادهم في المدارس المسيحية، لكن بعض الناس قبلوا ذلك للأسف.



دعائم أربعة في الإسلام:

أريد أن أقول أيُّها الإخوة: بعد هذه الحملة التنصيرية التي استمرت عدّة سنوات في مصر، ولم يدركوا لها ثمرة، كتب رئيس المبشرين تقريرًا قال في آخره: سيظل الإسلام صخرةً عاتيةً تتحطّم عليها محاولات التبشير النصراني، ما دام للإسلام في مصر هذه الدعائم الأربعة: القرآن، والأزهر، والجمعة، والحج^(١).

القرآن:

الدعامة الأولى: هي القرآن الكريم، فما دام القرآن يُتلى بين المسلمين صباح مساء، فلا أمل في تنصيرهم، ولم يكن الراديو والإذاعة والتلفزيون قد وُجد حين ذاك، ولكن الناس كانوا يقرؤون في البيوت، والمساجد، وكل مكان.

علماء الأزهر:

والدعامة الثانية: هي الأزهر، أي علماءه المنتشرون في المدن والقرى وفي كل مكان، يُعلّمون الناس ما جهلوا، ويجيبون على أسئلتهم، يستفتيهم الناس فيفتونهم، كان العالم في ذلك الوقت «دينامو»، محرّكًا في مكانه، يُولّد المولود على يديه، فيحنكه ويؤذن في أذنه اليمنى، ويُطلّب منه أن يُسمّيه، ويُعلّمه إذا كَبُرَ، ويتزوج على يديه، ويموت بين يديه، فيحضر لتلقينه، ويُقدّم ليُصلي عليه، كانت الحياة كلها مع العلماء، فقد كانوا أئمة الهدى، ومصابيح الدُّجى، ورسُل الخير إلى الناس.

(١) انظر: الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب للدكتور مانع حماد الجهني (٦٧٩/٢)، نشر دار الندوة العالمية للطباعة، الرياض، ط ٣، ١٩٩٧م.

اجتماع الجمعة:

والدعامة الثالثة: هي اجتماع الجمعة الأسبوعي، أن المسلمين يذهبون إلى المساجد لصلاة الجمعة، فهي فريضة، ليست نافلة ولا تطوعاً، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠]. اترك أشغال الدنيا كلها واذهب إلى صلاة الجمعة.

يجتمع المسلمون كل جمعة ليستمعوا إلى موعظة أسبوعية، تُذكّرهم بما نسوا، وتُعلمهم ما جهلوا، وتُنبّههم بما غفلوا عنه، وتقوّيهم إذا ضعفوا، وتردّدهم إلى الصّراط إذا شردوا، تجمعهم على ذكر الله، وتجمع بعضهم مع بعض، هذه هي مهمّة صلاة الجمعة وصلاة الجماعة، ولكن صلاة الجماعة سنّة، وصلاة الجمعة فريضة، فاعتبروا اجتماع المسلمين في صلاة الجمعة دعامة تحفظ عليهم إسلامهم.

اجتماع الحجّ:

والدعامة الرابعة: هي اجتماع الحج السنوي للمسلمين، فالحجّ عند المسلمين فريضة ربّانية، مؤتمر عالمي سنوي، لا يدعو إليه ملك أو رئيس أو أمير، إنّما الداعي إليه هو الله تعالى، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ يَا تُوتٰكُ رِجَالًا لَا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

هذا الحج إحياء للمسلم أيضاً، ونحن نرى كثيراً من عصاة المسلمين إذا أراد أن يتوب أحدهم يقول: إنّني أنوي أن أحجّ وأتوب إلى الله تعالى

توبةً نصوحًا، أغتسل بها من ذنوبي. وتقول امرأة غير محجّبة: إن شاء الله أحجّ وأتحجّب.

الحج يُحيي موات المسلمين، ويجمع شتاتهم، ويوسع أفقهم، المسلم الذي يعيش في قرية من قرى الريف المغربي، أو المصري، أو الباكستاني، أو البنغالي يذهب إلى الحج فيرى الشعوب، والأمم، والأجناس، والألوان، واللغات، يخرج من أفقه المحلي الضيق، إلى الأفق العالمي الواسع، ويعرف أنه يعيش لدين عظيم، دخلت فيه شعوب وأمم كوّنت أُمَّة الإسلام الكبرى.

مَقَوِّمَاتُ إِسْلَامِيَّة:

لهذا - أيها الإخوة - ينبغي ألا تستهينوا بما عند المسلمين من مقوّمات، فما بقي الإسلام رغم ما أصابه من محن، وما نزلت به من مصائب ونوازل تصم الظهر، إلا بهذه المقوّمات، وقد أدرك ذلك المُبَشِّرُ أو المُنصِّرُ المسيحي خطورة هذه الدعائم الأربع: القرآن، والأزهر، والجمعة، والحج، لأنها مقوّمات في ديننا.

والقرآن ليس في مصر وحدها، والأزهر ليس في مصر وحدها، فهو يقصد علماء المسلمين في أيّ مكان كانوا، ويقصد القرآن بأيّ رواية يُقرأ، وفي أيّ مكان يُتلى، فهو الذي يُحرّك هذه الأُمَّة من سكونها، ويوقظها من سباتها، ويحييها من مواتها، فعندنا القرآن، وعندنا صلاة الجمعة، وعندنا العلماء، وعندنا الحج، عندنا ما يقوِّي هذه الأُمَّة، ويجعلها مستعصية على الذوبان.

يريد الأمريكيان اليوم أن يلغوا هُويّة هذه الأُمَّة، حتى اسمها، لا يريدون أن يقال: الأُمَّة العربيّة أو الإسلاميّة، أو العالم العربي أو الإسلامي، إنّما يريدوا أن يكون اسمنا «الشرق الأوسط الكبير»، أو

«الشرق الأوسط الجديد»، لا والله، حتى الاسم لن يضيع أبداً، سنظل أمة الإسلام، أمة القرآن، أمة محمد ﷺ، يظهر ذلك جلياً عند الشدائد.

عندما ظهرت الرسوم الكاريكاتورية التي تسيء إلى محمد رسول الله ﷺ، رأينا المسلمين داخل العالم الإسلام وخارجة، في كل مكان به مئذنة يرتفع فيها صوت الأذان، رأينا الجميع يغضبون لرسول الله ﷺ، لقد أثبتوا أن هناك أمة، وأنها أمة واحدة، وأنها أمة لا ترضى أن تُهان مقدساتها، أو تُهان حرمتها، فالذين أرادوا أن يُذنبوا هذه الأمة، ويلغوا هويتها واهمون، لأن هذه الأمة لن تذوب، ولن تفنى أبداً.

حاجة الأمة إلى قيادة:

الأمة الإسلامية أيها الإخوة حيّة وقائمة، لا تحتاج إلا إلى قيادة تقودها، إذا وجدت القيادة التي تُنير الطريق للناس، وتناديهم أن يجتمعوا على الله، فسرعان ما تستجيب لها هذه الأمة، ولكن للأسف نحن نفتقد القيادة، قلت مرة مازحاً: عند النصاري بابا، إذا قال كلمة سمع له النصاري في أنحاء العالم، ولكننا للأسف ليس عندنا بابا ولا ماما.

مظاهر الوحدة الإسلامية:

لقد فقدنا القيادة منذ فقدنا الخلافة الإسلامية، فقد كانت وحدة الأمة الإسلامية تتجسد في أمور ثلاثة:

وحدة المرجعية:

الأمر الأول: هو وحدة المرجعية، المتمثلة في الشريعة الإسلامية، والتي ظلت الأمة تحكم بها طوال تاريخها، ولا تصدقوا من يقول: إن الأمة الإسلامية فقدت الإسلام بعد الخلفاء الراشدين. فهذا كذب رددت

عليه في كتابي «تاريخنا المفترى عليه»، ظلت الأمة تحتكم إلى الإسلام، ظلّ أساس حياتها التشريعية، والثقافية، والأدبية، والاجتماعية، لم يكن هناك قانون تحتكم إليه الأمة ويحكم به قضائها غير قانون الشريعة الإسلامية، لم يتغيّر ذلك إلا بعد دخول الاستعمار بلاد المسلمين، كان العلماء هم الذين يقودون التعليم في المدارس المختلفة، ويقودون الأوقاف الاجتماعية، ظلت الأمة الإسلامية تحتكم إلى الإسلام ثلاثة عشر قرناً، حتى دخل الاستعمار بلاد المسلمين، فهذه هي وحدة المرجعية.

وحدة الدار:

والأمر الثاني: وحدة الدار، والفقهاء المسلمون يسمون دار المسلمين دار الإسلام، وليس ديار الإسلام، تختلف الأوطان، وتتباعد الديار، ولكن هناك دار واحدة، هي دار الإسلام.

وحدة القيادة:

الأمر الثالث: هو وحدة القيادة، المتمثلة في الخلافة الإسلامية، والتي ظلت تحكم هذه الأمة، انتقلت الخلافة من الراشدين، إلى الأمويين، إلى العباسيين، إلى العثمانيين، حتى جاء كمال أتاتورك سنة ١٩٢٤م، وألغى الخلافة، فكان نكبة على المسلمين.

كان المسلمون يظنون أنّ أتاتورك من فاتحي الإسلام حينما كان يحارب الحلفاء، وقد كان يحارب الجنود معه بروح الجهاد، وانتصر في بعض الوقائع، حتى كتب فيه أمير الشعراء أحمد شوقي:

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدّد خالد العرب^(١)

(١) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (٥٩/١).

ظنَّ أنَّه خالد بن الوليد من جديد، فلم يكن المسلمون يعرفون أنَّه كان يضمّر سوءًا للإسلام، حتى ظهر على حقيقته وألغى الخلافة، وألغى كل ما يتّصل بالإسلام، حتى ألغى الحروف العربيّة التي كانت تكتب بها اللغة التركيّة، وحتى الأذان صار بغير اللغة العربية، بل حتى الأمور المظهريّة طالتها يده الخبيثة، فألغى لبس العمامة في الشوارع، فكان يعلق الإمام عمامته في المسجد ليلبسها داخله، أمّا خارجه فممنوع عليه بحكم الدستور، هذا الرجل هو الذي ألغى القيادة الإسلامية الموحّدة، ألغى الخلافة الإسلامية.

ولمّا ظهرت حقيقته الماكرة، نعى أحمد شوقي الخلافة بقصيدة رائعة، ينبغي أن يحفظها شبابنا، فهناك قصائد تستحق أن تُحفظ، مثل قصيدة أبو البقاء الرندي التي رثى بها سقوط غرناطة في الأندلس، فقال:

لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِيْمَانٌ وَإِسْلَامٌ^(١)

ومن القصائد التي ينبغي أن تحفظ قصيدة شوقي في نعي الخلافة:

عَادَتْ أَغَانِي الْعُرْسِ رَجَعَ نَوَاحٍ	وُنُعِيَ بَيْنَ مَعَالِمِ الْأَفْرَاحِ
كُفِّنَتْ فِي يَوْمِ الزَّفَافِ بِثُوبِهِ	وَدُفِنَتْ عِنْدَ تَبْلُجِ الْإِصْبَاحِ
ضَجَّتْ عَلَيْكَ مَآذِنٌ وَمَنَابِرُ	وَبَكَتْ عَلَيْكَ مَمَالِكُ وَنَوَاحِ
الْهِنْدُ وَالْهَيْةُ وَمِصْرُ حَزِينَةٌ	تَبْكِي عَلَيْكَ بِمَدْمَعٍ سَحَّاحٍ ^(٢)

قصيدة طويلة ينبغي أن تحفظ.

(١) ومطلعها:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ فَلَا يُغَرِّ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ

اقرأها بتمامها في نفح الطيب للمقري (٢٣٢/٦ - ٢٣٤)، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١/١٠٥، ١٠٦).

مقومات النجاح:

أيها الإخوة، إِنَّ أَمْتَنَا الإسلاميَّةَ لديها مقوِّمات البقاء، ومقوِّمات الرِّيادة، ومقوِّمات السِّيادة، وينبغي أن نحفظ هذه المقوِّمات على هذه الأُمَّة، ونُوظِّفَها ونُجَنِّدَها في إحيائها، وتجميعها، وتقويتها، وإزالة شعور اليأس والإحباط منها، لتكون قادرة على أن تتبوَّأ مكانتها، إذا وجدت الرجال الذين يقودونها، ففي الأُمَّة كلُّ مقوِّمات البقاء والرِّيادة والسِّيادة.

القوة العدديَّة:

من هذه المقوِّمات: القوة العدديَّة، والقرآن يقول: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]. فكثرة العدد ليست شيئاً مهيناً، فقوَّة العدد معتبرة، كما قال الشاعر:

وَلَسْتُ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَاثِرِ^(١)
والأُمَّة ربما كانت الآن مليارا ونصف مليار؛ لأنَّ المسلمين أُمَّة ولود، حتى إنَّ الأوروبيين يخافون من أنَّ المسلمين في بلادهم يتكاثرون وهم يتناقصون، فالقوة العددية أمرٌ مُعتَبَر.

القوة الاقتصادية:

عندنا كذلك القوة الاقتصادية، عندنا السهول الزراعيَّة، وعندنا البحار والبحيرات والأنهار، عندنا النفط في البلاد العربية والإسلاميَّة، ومن الطريف أنَّي سمعت من الأستاذ أنور إبراهيم - الذي كان نائباً لرئيس

(١) ديوان الأعشى الكبير ص ١٤٣، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، نشر مكتبة الآداب، القاهرة.

حكومة ماليزيا - أنّ وزير خارجية تايلند قال له متعجباً: لماذا لا يظهر النفط إلا في بلاد المسلمين؟!

الأُمَّة لديها ثروات هائلة، ومع ذلك فهي لا تحسن استغلالها، حتى قيل: إنّ دخل كل بلاد العرب لا يعادل دخل أسبانيا. لأنّنا لا نستغل ما عندنا من ثروات، والغربيون يشترون النفط منا بأرخص الأسعار، ثم يعيدونه إلينا مُصنَّعاً بأعلى الأسعار، فالغربيون لنا بالمرصاد، لا يريدون أن ننتفع بهذه الثروة، وهم كل مدة يحدثون أمراً ليستنزفوا به أموالنا.

لقد دبّروا لنا من قبل حرب الخليج، أغروا صدام حسين ليغزو الكويت، حتى نستدعيهم فيحرروها بأموال الخليج، ويجربوا أسلحتهم الجديدة، ويتخلّصوا من أسلحتهم القديمة في بلادنا، ثم تأتي شركاتهم لتعمير ما خرّبوه بأموالنا أيضاً، فهم كالمنشار يأكلون ذهاباً وإياباً.

وقد اخترعوا الآن حرب لبنان، وهي حرب أمريكية بأيدي إسرائيلية، ما معنى أن تقوم حرب هائلة مُدمّرة من أجل أسر جنديين؟! أمريكا هي التي تريد ذلك، تريد إضعاف هذه الأُمَّة، واستنزاف ثرواتها، وتغيير هويتها، لا تريدنا عرباً ومسلمين، إنّما تريدنا شرق أوسطيين، لننسى حتى اسمنا، هذا ما يريدونه، لكننا نمتلك المقوّمات للوقوف ضد ذلك، ومنها القوة الاقتصادية.

العمق الحضاري:

عندنا كذلك العمق الحضاري، عندنا حضارات ورثناها من قديم، فإذا كان عُمر أمريكا حوالي مائتين سنة، فأمتُّنا ورثت حضارات العالم:

الفينيقيّة، والفرعونيّة، الآشوريّة، والبابليّة، والفارسيّة، والهنديّة، نشأت كل حضارات العالم في بلادنا، كما نشأت كل الديانات في بلادنا: اليهودية، والمسيحية، والإسلام؛ موسى، وعيسى، ومحمد؛ التوراة، والإنجيل، والقرآن، من أين أخذوا المسيحيّة؟ لم ينشأ المسيح ﷺ في أوربا ولا أمريكا، إنّما نشأ في فلسطين، في بلادنا، ونشأ موسى ﷺ في مصر، في بلادنا، نحن الذين صدّرنا إليهم الديانات، والحضارات، والثقافات، حينما كانوا لا يرون الضوء إلا من سُمّ الخياط، فعندنا البُعد الحضاري.

رسالة الإسلام:

عندنا كذلك الرسالة الكبرى، الرسالة الروحيّة الوسطيّة، الرسالة التي تجمع بين الدين والدنيا، تمزج بين الروح والمادة، توفق بين الدنيا والآخرة، بين الفرد والمجتمع، تصل الأرض بالسماء، تصل الخلق بالخالق، هذه الرسالة هي رسالة الإسلام.

الاهتمام بالعمل وترك الانتظار:

عندنا كل المقوّمات التي تجعلنا نتقدّم القافلة البشريّة، بل تجعلنا نقودها، لا أن نكون وراءها أبداً، لكن علينا أيها الإخوة أن نهتم بالعمل، العمل الدائم المستمر، والعمل المنظم القائم على العلم والدراسة والتّخطيط، والعمل الجماعي، فالعمل الفردي والمبعثر لا يكفي، لا بدّ من عمل جماعيّ، وعلى الجماعات أن يتعاون بعضها مع بعض، لا أن يحارب بعضها بعضاً، فالميدان يتّسع للجميع، لماذا تريد كل جماعة أن تحتكر الأمر لنفسها ولا تتعاون مع غيرها،

الإسلام يتطلّب من الجميع أن يقفوا صفًا واحدًا، فلا مكان في المعركة للتفرق والاختلاف، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَنٌ مَّرْصُومٌ﴾ [الصف: ٤].

لا بدّ إذن من عمل دؤوب، ومنظم، وصبور، كما أنّ علينا ألا ننتظر؛ فالانتظاريون تركوا الانتظار وبدؤوا يعملون.

كان اليهود من الانتظاريين، كانوا ينتظرون المسيح الدجال، فهم لا يؤمنون بالمسيح بن مريم، ووقفوا ضده، وتأمروا عليه، فهم ينتظرون المسيح الدجال ليقم لهم الدولة وملك إسرائيل، حتى جاءت الحركة الصهيونية وقالت: لا ننتظر، سنقيم نحن الدولة. وأقاموا الدولة في قلب ديارنا، وسَمَّوها اسمًا دينيًا، هو إسرائيل، وإسرائيل هو سيدنا يعقوب عليه السلام، وهو بريء منهم، وممّا يفعلون باسمه.

وكذلك كان الشيعة من الانتظاريين، فالشيعة عندهم عقيدة المهدي المنتظر، وأهل السُّنَّة يختلفون في ذلك، فمنهم من يقول به ومنهم من ينفيه مثل ابن خلدون قديمًا، الذي ضَعَّفَ أحاديث المهدي كلها، ومعه حق، وقد ألَّفَ العلامة عبد الله بن زيد المحمود - رئيس المحاكم الشرعيّة في قَطْر - كتابًا في أوائل القرن الخامس عشر الهجري سَمَّاه «لا مهدي يُنتظر بعد محمّد خير البشر»، فالمهدي عند السُّنَّة يتراوح بين القيل والقال، أمّا عند الشيعة فهو عقيدة أساسية.

والمهدي عندهم هو الإمام الثاني عشر، لذلك يقال عنهم الشيعة الاثنا عشرية، فعندهم اثنا عشر إمامًا معصومًا، دخل آخرهم سردابًا واختفى، وما زالوا ينتظرون عودته منذ ألف ومائتين سنة، ويقولون دائماً: عَجَّلَ الله فرجه، أو رَدَّ الله غيبته. فلا يزالون ينتظرون حتى

جاءهم الإمام الخميني بنظرية جديدة، اسمها «نظرية ولاية الفقيه»، وقال: نحن لن ننتظر حتى يظهر المهدي، ويمكن أن يقوم الفقيه مقام الإمام الغائب، فلا بدّ أن نقيم دولة يحكمها الفقهاء نيابة عن الإمام المنتظر.

رعاية أسباب النصر:

هكذا بدأ كل المنتظرين يعملون، فلماذا ننتظر نحن؟ لماذا لا نعمل؟ ديننا، قرآننا، وسنة نبينا، تراثنا، كل ذلك يدعونا إلى أن نعمل لهذا الدين، وأن ندع الانتظار، وإذا عملنا لهذا الدين فلا بدّ أن نتصر، لأنّ من سُنن الله تعالى أن ينصر من نصره، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

علينا أن نعمل أولاً، ثم ننتظر نصر الله و﴿عَلَى﴾، ونصر الله قريب ليس ببعيد، ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. المهم أن نراعي سنن الله و﴿عَلَى﴾، ونعمل بكل ما نستطيع، وبإخلاص لله تعالى، وننتظر النصر من السماء، ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

هناك ملائكة نزلت في بدر، ونزلت في الخندق، ونزلت في حنين، وهذه الملائكة موجودة ويمكن أن تنزل، ولكنها لا تنزل في فراع، لا بدّ أن يوجد ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ حتى تنزل الملائكة، فلنعمل وننتظر الملائكة من السماء، وننتظر نصر الله و﴿عَلَى﴾، ﴿وَيَوْمَ إِذْ يَقَرَّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يَنْصُرِ﴾ الله يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٤ - ٦].

أعتذر إذ أطلت عليكم أيها الإخوة، وأسأل الله تعالى أن يجمعنا جميعاً في مستقر رحمته، وأن يسكننا جميعاً الفردوس الأعلى من جنته.

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفلى، اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم عليك باليهود الغادرين الماكرين، اللهم عليك بالأمريكان الحاقدين المستكبرين، اللهم عليك بجميع أعدائك أعداء الدين، اللهم ردّ عنا كيدهم، وفلّ حدهم، وأدلّ دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تجعل لهم سبيلاً على أحدٍ من عبادك المؤمنين، اللهم أنزل عليهم بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

اللهم انصر إخواننا في فلسطين، وانصر إخواننا في لبنان، وانصر إخواننا في العراق، وانصر إخواننا في أفغانستان، وانصر إخواننا في كشمير، وانصر إخواننا في كل مكان، اللهم انصر المجاهدين في كل مكان، وانصر المضطهدين والمُمتَحنين في كل مكان، اللهم افكك بقوّتك أسرهم، واجبر برحمتك كسرهم، وتولّ بعنايتك أمرهم.

اللهم اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً، سخاءً رخاءً، وسائر بلاد المسلمين، اللهم اجمع كلمتنا على الهدى، وقلوبنا على التّقى، ونفوسنا على المحبة، وعزائمنا على عمل الخير وخير العمل.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].



﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *





الإسلام شريعةٌ ونظام^(١)

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلِّ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أحييكم به - أيُّها الإخوة الأحباب - تحيةُ الإسلام، تحيةٌ من عند الله مباركةٌ طيبةٌ، وتحيةُ الإسلام السَّلام، فالسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(وبعد)

موضوعنا هذه الليلة عن الإسلام، ونحن دائماً مع الإسلام، ونسأل الله ﷻ أن يُحيينا بالإسلام وللإسلام، وأن يَميتنا على الإسلام، ﴿رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أفرغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

معنى الشريعة:

حديثنا عن الإسلام باعتباره شريعةً ونظامًا، وهذا أمر لا ينبغي أن يختلف فيه اثنان، ولا أن ينتطح فيه عنزان كما يقولون. هذا أمر واضح

(١) أُلقيت في الجزائر في بداية التسعينيات.

لكلّ مسلم، سواء فسّرنا الشريعة بالمعنى العام، وهي ما شرعه الله لعباده من العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات في شتى جوانب الحياة، وهذا معنى من معاني الشريعة، فالشريعة بالمعنى العام تشمل الرسالة الإسلامية بكلّ مجالاتها، وبكلّ جوانبها، فهي تشمل العقائد والعبادات، وتشمل الآداب والأخلاق.

ولعلّ هذا ما أشار إليه القرآن المكيّ في سورة الجاثية، حيث قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

جاء هذا في القرآن المكيّ قبل أن يوجد التشريع، قبل أن يوجد الجانب القانوني الذي يحكم علاقات الناس ومعاملاتهم بعضهم مع بعض، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾، فالشريعة قد تكون بهذا المعنى العام.

عقيدة وشريعة:

وقد تكون الشريعة بمعنى آخر، وهو ما يقابل العقيدة، حيث تتعلق العقيدة بالجانب النظري، بما ينبغي أن يؤمن به الإنسان، وما يعتقده في أعماق نفسه، وتتعلق الشريعة بالجانب العملي، بالجانب الذي ينظم حياة الإنسان العملية، ومن هنا يقال الإسلام: عقيدة وشريعة. كما عبّر عن ذلك شيخنا محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق رحمه الله في كتابه «الإسلام عقيدة وشريعة».

على كلّ حال سواء فسّرنا الشريعة بهذا المعنى أو ذاك، فالجانب الذي ينظم الحياة الإسلامية جانبٌ أساسيٌّ في الإسلام، فالإسلام ليس

لاهوًا فقط، ليس مجرد عقيدة تستكن في ضمير الفرد المسلم، تُحدّد العلاقة بينه وبين ربه، وتدع الحياة تمضي في طريقها بعيدًا عن هدى الله ومنهجه، لا، ليس هذا هو الإسلام.

الإسلام عقيدة وشريعة، أو إيمان وعمل، أو هو عقيدة ونظام، عبّر بما شئت أن تعبّر، ولكنّ هذا كلّه يدلّ على أنّ هذا الإسلام جاء ينظّم حياة الإنسان، حياة الفرد المسلم، وحياة الأسرة المسلمة، وحياة المجتمع المسلم، وحياة الدولة المسلمة، بل حياة البشريّة كلّها، ومعنى أنّه يُنظّمها: أي أنّه يضع لها الأصول والضوابط التي تعصمها من الانحراف، وتهدّيها إلى سواء السبيل.

عموم الإسلام وشموله:

وليس معنى ذلك أنّه يخوض في جزئيات الحياة وتفصيلاتها التي لا تنتهي، ولكن بحسب الإسلام أنّه يضع القواعد العامّة، ويضع الأسس التي لا بدّ منها، ويضع منارات تهدي إلى الطريق الأقوام، ويضع بعض الأمثلة التي يمكن أن يضلّ الناس فيها، وتختلف بهم السبل إذا تركت لأفكارهم وأهوائهم وحدها، هذا ما جاء به الإسلام، أنّ الإسلام نظام شامل للحياة، هو شريعة، ومعنى أنّه شريعة: أنّه منهاج، أو طريق، أنّه صراط مستقيم، منهاج يشمل الحياة كلّها.

عالميّة الرسالة:

وهذا من مزايا الرسالة المُحمّديّة: أنّها رسالة عامّة جاءت لكلّ البشر، عربًا وعجمًا، في شرق وفي غرب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقوله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

والعجيب أن هذه الآيات التي دلت على عالميّة الرسالة، وعلى عموميّة البعثة المُحمّديّة، كلها آيات مكّيّة، جاءت في القرآن المكيّ بالإجماع، لا يخالف في ذلك مخالف، وهذا دليل على أنّ هذه الرسالة منذ فجر الدعوة، منذ أيّامها الأولى أعلنت عن عالميّتها، فهي رسالة عالميّة عامّة.

وأكثر من ذلك أنّ هذا الرسالة ليست للبشر وحدهم، بل هي للإنس والجن جميعاً، حتّى الجن، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أُسْمِعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]. فالرسالة الإسلاميّة امتازت بهذه العموميّة من حيث المكان.

خلود الرسالة:

وامتازت من ناحية أخرى بالعموميّة من حيث الزمان، فهي ليست رسالة جيل من الأجيال، ولا عدّة أجيال، ولا رسالة قرن، أو عشرة قرون، أو عشرين قرن، أو مائة قرن، بل هي رسالة الخلود، إنّها رسالة الله إلى العالمين حتّى يرث الله الأرض ومن عليها، فهي الرسالة الخاتمة الخالدة، فليس بعد الإسلام شريعة، وليس بعد محمد ﷺ نبيّ ولا رسول، وليس بعد القرآن كتاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وكما قال النبي ﷺ: «إنّه لا نبيّ بعدي»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٤١٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٤)، عن سعد بن أبي وقاص.

وقال: «أنا اللَّبْنَةُ، وأنا خاتم النَّبِيِّينَ»^(١). فهذه الرِّسالة خالدة، هي من حيث المكان عامَّة عالميَّة، ومن حيث الزمان خاتمة خالدة.

عموم المحتوى:

وهي كذلك من حيث المحتوى والمضمون رسالة عامَّة شاملة، شاملة للروح والمادَّة، للعقل والقلب، للفرد والمجتمع، للاقتصاد والسياسة، لكلِّ شأنٍ من شؤون الحياة، كما وصف الله تعالى القرآن بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. الكتاب هو القرآن، نَزَّلَهُ اللهُ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، فهو تبيانٌ لكلِّ شيءٍ من ربِّ كلِّ شيءٍ، وهذا ما جعل الخليفة الأوَّل أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه يقول: لو ضاع مِنِّي عَقَالٌ بَعِيرٌ لَوْجَدْتُهُ فِي كِتَابِ اللهِ^(٢). فهي رسالةٌ شاملةٌ، نزل بها كتاب شامل لكلِّ أنواع الهداية التي يحتاج إليها الناس في حياتهم.

السُّنَّةُ وشموليَّة الإسلام:

وجاءت السُّنَّةُ تُفَصِّلُ هذا الكتاب، وتُبَيِّنُ ما أبهم، وتُخَصِّصُ ما عَمِم، وتُثَبِّتُ ما أَطْلَق، فهي بيان نظريٌّ، وتطبيق عمليٌّ للقرآن الكريم، ومن هنا كان الالتزام بها فريضة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقوله: ﴿وَمَا أَمَّاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهَوْا﴾ [الحشر: ٧]. وقوله: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَردُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. وقوله:

(١) متَّفَقٌ عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦)، عن أبي هريرة.

(٢) الإِتِّقان في علوم القرآن (٣٠/٤، ٣١).

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢]. إلى آخر الآيات الكثيرة، فنحن حينما نتبع السنة ونطيع الرسول ﷺ إنما نطيع القرآن نفسه، لأنّه هو الذي أمرنا بهذا.

جاءت هذه السنّة شاملة أيضًا، كما ورد في الحديث: «ما تركتُ أمرًا يُقَرِّبُكم من الله إلّا وأمرتكم به، ولا أمرًا يُبعدكم عن الله إلّا ونهيتكم عنه»^(١). وفي الحديث الآخر: «تركْتُكم على المَحَبَّةِ البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلّا هالك»^(٢). فهذه السنّة جاءت أيضًا مُفَصَّلة لمنهج الحياة الإسلاميّة في التشريع والتّوجيه، لم تدعْ شأنًا من الشّؤون إلّا وعلمتنا إيّاه، حتّى قال أحد اليهود ذات مرّة لسيّدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه: ما ترك نبيُّكم شيئًا حتّى علّمكم إيّاه؟ قال: نعم، حتّى علّمنا كذا، يعني أدب قضاء الحاجة^(٣). علّمنا كيف يقضي الإنسان حاجته، كيف يدخل الخلاء؟ يدخل برجله اليسرى، ويقول قبل الدخول: «أعوذ بك من الخُبْثِ والخبائث»^(٤)، ويخرج برجله اليمنى، ثمّ يقول بعد الخروج: «غُفْرَانُكَ»^(٥). ويجتنب استقبال القبلة في قضاء حاجته إذا كان في العراء، إلى آخره، حوالي بضعة عشر أدبًا من آداب قضاء الحاجة^(٦).

(١) سبق تخريجه ص ٤١.

(٢) رواه أحمد (١٧١٤٢)، وقال مخرّجوه: صحيح بطرقه وشواهده. وابن ماجه في المقدمة (٤٣)، والحاكم في العلم (٩٦/١)، عن العرباض بن سارية.

(٣) رواه مسلم (٢٦٢)، وأبو داود (٧)، والترمذي (١٦)، كلهم في الطهارة.

(٤) متفقٌ عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٢٢)، ومسلم في الحيض (٣٧٥)، عن أنس.

(٥) رواه أحمد (٢٥٢٢٠)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وأبو داود (٣٠)، والترمذي (٧)، وقال:

حسنٌ غريب. وابن ماجه (٣٠٠)، ثلاثهم في الطهارة. عن عائشة.

(٦) انظر كتابنا: فقه الطهارة ص ٩٦ - ١٠٩، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

وهناك كذلك آداب في الأكل والشرب وفي غيرها، لم يدع النبي ﷺ شيئاً من هذا إلا وبَيَّنَّه، إذا أكلت فهناك أدب للأكل، كما ورد في الحديث عن عمر بن أبي سلمة - وهو ابن أم سلمة زوج النبي ﷺ - قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ - وفي رواية: أتني بطعام ومعه ربيبه عمر بن أبي سلمة^(١) - وكانت يدي تطيش في الصَّحفة، وفي رواية: فجعلت آكل من نواحي الصفحة^(٢). فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام، سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ ممَّا يليك». فما زالت تلك طعمتي بعد^(٣). حتَّى الأكل يعلمنا النبي ﷺ إياه، فقد جاءت هذه الرسالة إذنْ تعلم الإنسان من أدب المائدة إلى بناء الدولة، تعلمك من أدب المائدة كيف تأكل؟ كل بيمينك، وسَمِّ الله، وكل ممَّا يليك، ولا تترك من الطعام ما يُلقى، بل تلعق الصَّحفة، لا أنْ ترمي بنصف الطعام إلى القمامة كما يفعل بعض الناس، ولا تأكل في آنية ذهب أو فضة، إلى آخره.

هذه التَّوجيهات والتَّشريعات من النبي ﷺ تشمل الحياة كلها، فهي رسالة شاملة بهذا المعنى، رسالة شاملة لكل جوانب الحياة.

وقد عبَّر الإمام الشهيد حسن البنا عن هذه المعاني الثلاثة للشمول في إحدى مقالاته تعبيراً دقيقاً بليغاً بكلمات موجزة، فقال: إنها الرسالة التي امتدَّت طويلاً حتَّى شملت آباد الزمن، وامتدَّت عرضاً حتَّى انتظمت آفاق الأمم، وامتدَّت عمقاً حتَّى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة^(٤).

(١) رواه البخاري في الأُطعمة (٥٣٧٨)، عن وهب بن كيسان أبي نعيم.

(٢) رواه البخاري في الأُطعمة (٥٣٧٧)، عن عمر بن أبي سلمة.

(٣) متَّفَقٌ عليه: رواه البخاري في الأُطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢).

(٤) مقال من وحي حراء للإمام حسن البنا، جريدة الإخوان المسلمون اليومية، السنة الأولى، العدد (١٦٨)، ص١، بتاريخ ٢٧ ذو الحجة ١٣٦٥هـ - ٢١ نوفمبر ١٩٤٦م، وانظر: سلسلة من تراث الإمام لجمعة أمين عبد العزيز (١٨١/٥)، نشر دار الدعوة، الإسكندرية، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.



رسالة الزمن كله:

لو تصوّرنا هذه الرسالة جسماً له طول، وعرض، وعمق، فطولها يشمل الزمن كله، لأنها رسالة النبيّين من عهد آدم، جاءت متممة ومصحّحة للرسالات السابقة، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. فهي تصحّح وتتمّم وتكمل، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١). فهي ممتدة في الزمان إلى أن تقوم الساعة، تمتدّ طولاً حتّى شملت آباد الزمن.

رسالة للناس جميعاً:

ثم امتدّت عرضاً حتّى انتظمت آفاق الأمم، إنّها رسالة للعالمين جميعاً، ليست رسالة شعب مخصوص كالرسالة اليهوديّة، فرسالة موسى ﷺ كانت لقومه بني إسرائيل، وكذلك كانت رسالات الأنبياء قبل النبي ﷺ لأقوامهم، كما قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(٢).

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢)، وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله.

وهذا ما أكده القرآن في أكثر من موضع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا [نوح: ١ - ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٤﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿١﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ [الصف: ٥ - ٦].

إذن لم تجئ قبل محمد ﷺ رسالة عالمية، الرسالة العالمية الوحيدة هي رسالة محمد ﷺ، فهذا هو امتداد الرسالة من ناحية العرض حتى انتظمت آفاق الأمم.

رسالة للحياة كلها:

ثم هناك امتداد الرسالة من ناحية العمق، هذا الامتداد الذي يشمل

شؤون الدنيا والآخرة، ولذلك جاء الإسلام دينًا ودُنيا - كما نُعبر نحن - جاء دينًا ودولة، أو عقيدة وشريعة، أو دينًا ونظامًا كاملاً للحياة، يصحب الإنسان منذ يولد، ويستمر معه في رحلة الحياة حتى يُودّعها بالموت.

ولذلك نجد عندنا في الفقه الإسلامي أحكامًا تتعلق بالمولود، لنعرف ما ينبغي أن نفعله به حينما يولد، كيف نسمّيه فنحسن اسمه، ونعق عنه في يومه السابع، ونحلق شعره، ونتصدق عنه، وكيف نتابعه في عملية الرضاعة، والحضانة؟ إلى آخر الأحكام التي أَلَفَ فيها العلماء، وفصلها العلامة ابن القيم كتابه «تحفة المودود في أحكام المولود»، وقد تعرّض لها القرآن الكريم في بعض آياته كما في قوله تعالى: ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. كل ذلك حتى لا نُهمل أمر المولود.

وهناك أحكام كثيرة تتعلق بمعاملات الإنسان، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا يدخل سوقنا إلا من يتفقه في ديننا^(١). لا يحقُّ لأحد أن يبيع أو يشتري في السوق قبل أن يعرف فقه البيع والشراء، وفقه المعاملات، حتى لا يبيع ما يحرم عليه، ولا يشتري ما يحرم عليه، ولا يقع في إثم حيث يغش، أو يحتكر، أو يرفع الأسعار على الناس، أو

(١) قوت القلوب (٤٣٢/٢)، تحقيق الإمام د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، نشر

دار المعارف، القاهرة.

يُطَفَّف المكيال والميزان، إلى آخره، وقسم المعاملات في الفقه الإسلامي قسم ضخيم، فهناك أحكام تتعلق بالمولود، وتستمر مع الإنسان طوال الحياة حتّى يحتضر على فراش الموت، ويلقن لا إله إلا الله.

عناية الشريعة بالأسرة:

والشريعة الإسلامية تنظم جميع شؤون الحياة، تنظم العلاقة في شؤون الأسرة بين الزوج وزوجته، وتقرّر الحقوق المتبادلة بينها، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وهي درجة القوامة والمسؤولية، أنّ الحياة الزوجية شركة مقدّسة، مَنْ المسؤول عنها؟ مَنْ مدير هذه الشركة؟ يقول الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. فهذه هي الدرجة، وبعد ذلك تكون الحقوق والواجبات متبادلة بالمعروف، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

رأى نافع سيده وأستاذه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وهو يزين نفسه أمام المرأة، فقال له: ما هذا الذي تصنع يا ابن عم رسول الله ﷺ، يضرب الناس إليك أكباد الإبل، وأنت تقف تتجمل وتحسّن وتزيّن؟ فقال: وماذا في هذا يا نافع، إنّي أتجمل لامرأتي كما تتجمل لي امرأتي، وإنّي أجد هذا في كتاب الله تعالى. قال: تجد هذا في كتاب الله، أن تتجمل لامرأتك كما تتجمل لك امرأتك؟ قال: نعم. قال: أين هذا في كتاب الله تعالى؟ قال: في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١). فكما أنّ عليها أن تتجمل لي، فعليّ أن أتجمل لها، فهذا معنى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. فهي حقوق متبادلة.

(١) رواه ابن أبي شيبة في الطلاق (١٩٦٠٨).

وهذا من الغوص في القرآن، حينما نقول: يتجلى في القرآن كل شيء. فإن هذا يكون على قدر ما أتى الله الإنسان من فهم، فيستخرج من القرآن معانيه وكنوزه الضخمة المخبوءة تحت الألفاظ والعبارات، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

التفصيل في أحكام الأسرة:

نقول: نظمت الشريعة الإسلامية الحياة البشرية، نظمت حياة الأسرة، بل فصلت في هذه الناحية أكثر من غيرها، لأن حكمة الشارع ﷻ أنه يُجمل ولا يُفصل فيما يتغير بتغير الأزمنة، والامكانة، والأحوال، والأعراف، إلى آخره، أمّا ما لا يتغير كثيرًا فإن الشارع يُفصل فيه ولا يُجمل، فهو يُجمل فيما من شأنه التغير والتطور، ويُفصل فيما من شأنه الثبات والاستمرارية، وأمور الأسرة من العناصر الثابتة، الحياة الزوجية أب وأم وأبناء، هذا عناصر ثابتة، وعلاقات ثابتة، فيجب أن تكون لها أيضا أحكام ثابتة، ولذلك نجد القرآن الكريم يفصل في هذه الأحكام.

وقد فصل القرآن أكثر في أحكام الأسرة إذا وقع فيها الخلاف والشقاق، ولذلك تجد أحكام الطلاق، وأحكام الإيلاء، وغيرها مفصلة في سورة البقرة، التي كان يسميها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سورة الطلاق الكبرى، فهناك في القرآن سورة الطلاق الصغرى التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

وهناك سورة الطلاق الكبرى، وهي سورة البقرة، لأن فيها تفصيلات عن الطلاق مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الطلاق مَرَّتَانٍ فإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلَهُنَّ فَلَمَّا تَعَضُّلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمُ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٧ - ٢٣٢].

وقوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٦، ٢٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَتِ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].



فهكذا نجد تفصيلاً كبيراً في شأن الطلاق بسورة البقرة؛ لأنَّ الناس حينما يغضبون يمكن أن يؤدي بهم الغضب إلى الانحراف، إذا غضب الإنسان كثيراً ما يخرج غضبه عن الحق، كما أنه إذا رضي كثيراً ما يدخله رضاه في الباطل، فعند الغضب والنزاع نخشى أن يؤدي ذلك إلى نسيان الحقوق، ومن هنا اهتم القرآن بالأسرة، وخاصة عند النزاع والشقاق.

في حالة النشوز نقرأ قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ [النساء: ٣٤، ٣٥]. يمكن أن يُجرب الزوج بنفسه هذه الأساليب بالتدرج: الوعظ، ثمَّ الهجر في المضجع، ثمَّ الشدة، فإذا لم ينفع أي أسلوب من هذه الأساليب، فهذا يعني أنَّ الخلاف مستحکم، ولا بدَّ من تدخل خارجي.

ولكن التدخل الخارجي يجب أن يكون في دائرة محدودة، في الدائرة الأسريَّة للزوجين، فلا ندخل الغرباء في الخلاف، فتشيع الأخبار والأسرار، ولذلك هي محكمة عائليَّة، أو مجلس عائلي، قال تعالى: ﴿فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾. والْحَكَم هو القادر على الحكم، أي يجب أن يكون من أهل الرأي، ولكن ينبغي أن يكون مع الرأي النية الصالحة أيضاً، ولذلك يقول القرآن: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾.

ولمَّا بعث سيِّدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه حَكَمَيْن لينظرا في أمر زَوْجَيْن مُخْتَلَفَيْن، فذهبا ثمَّ عادا، وقالوا: يا أمير المؤمنين، لم نستطع أن نوفق بينهما. قال لهما عمر: أصلحا نِيَّاتِكما ثمَّ عودا، فإنَّ الله تعالى يقول:

﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(١). فعاد الحكماء بنية جديدة، جدداً النية، وعزماً على أن يصلوا إلى حلٍّ، وقد وفقهما الله إليه، وهذا دليل على أثر النية في العمل.

والعجيب أن القرآن قال هنا: ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾. فذكر حالة التوفيق، ولم يذكر الحالة التي يتعذر فيها التوفيق، كأن القرآن يشعرنا أنه يريد ألا نصل إلى الطريق المسدود، بل إننا يجب أن نحاول، المهم أن القرآن الكريم اهتم بأمر الشقاق والنزاع داخل الأسرة، أليست هذه شريعة تنظم حياة البيت المسلم، والأسرة المسلمة؟

الأسرة بين الإسلام والغرب:

والأسرة المسلمة ليست كالأسرة في الحضارة الغربية، فالأسرة هناك تقتصر فقط على الزوج والزوجة، وليس هناك علاقة بعد ذلك بالأولاد، حينما يبلغ الولد والبنت ويشبَّان عن الطُّوق، يذهب كل منهما في طريقه الخاص، يبحث الفتى عن صديقة، وتبحث الفتاة عن صديق، ويكاد الأبوان لا يحسان بما يفعل هذا أو تلك، ولا تجد مَنْ يسأل منهما عن أبيه أو عن أمه.

من أجل هذا جعل الغربيون في بعض بلادهم يوماً في السنة للأم، سمَّوه عيد الأم، ويوماً للأب سمَّوه عيد الأب، لأنه لا يكاد أحد من أولادهما يصلُّهما ويعرف لهما حقاً، فاحتاجوا إلى يوم في السنة يقضي الولد فيه حقَّ أمه أو أبيه، وما هذا الحق؟ لا يعدو هدية، زجاجة عطر أو نحوها، يهديها لأمِّه في عيدها، وقد يبعثها بالبريد، فأى أسرة هذه؟! من أجل هذا كانت الشيخوخة في الحضارة الغربية من أشدِّ مراحل الحياة

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٤٩/٢)، نشر دار المعرفة، بيروت.

وحشة ومشقة على النفس، لأن الأب والأم في حالة الشيخوخة يعيشان كل منهما وحده بعيداً، الأولاد والأحفاد يبعدون عنهما كل البعد، وهما يقضيان شيخوختهما وحدهما.

ومن أجل هذا كثر اقتناء الناس في الغرب للكلاب، ولا يبعد أن تجد رجلاً جالساً هو وكلبه على مائدة واحدة يأكلان في مطعم، هو جالس على كرسي، والكلب أمامه على كرسي آخر، وقد سئل رئيس جمعية رعاية الحيوان في باريس منذ عدة سنوات، قيل له: إن بارييس فيها سبعة ملايين من الكلاب، وهي تتكلف عشرات الملايين من الفرنكات، فما سرُّ كثرة الكلاب، واهتمام الناس بها أكثر من اهتمامهم بأطفالهم؟

فقال: إن الإنسان في حاجة إلى أن يُحِبَّ ويُحَبَّ، فلما جفَّت عواطف الحب في أنفس الناس، بحثوا عن هذه المخلوقات الأليفة. الإنسان الغربي في شيخوخته حينما لا يجد حوله ابنه ولا ابنته، ولا يجد حفيده ولا حفيدته، يبحث عن كلب يُؤنسه، فهو عنده أكثر ألفة، وأكثر ودًا، وأكثر وفاء من هؤلاء، فهو - على الأقل - يجلس إليه، ويدور حوله، ويتمسح به، ولا يغدر به كما يغدر به أصدقاؤه، والناس الذين عرفوه أيام شبابه وقوته، هذه هي الحضارة الغربية المادية، وهذا بعض ما فعلته بالإنسان.

بِرُّ الوالدين:

أما نحن المسلمين فالاهتمام بالأسرة عندنا كبير، عندنا في الإسلام حقوق الأبوة والأمومة، خاصة في حالة الكبر، كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

يقول علي بن أبي طالب عليه السلام: لو علم الله في العقوق شيئاً أدنى من كلمة أفّ لحرّمها^(١). أدنى شيء لا تقل لهما: أفّ. هذه الكلمة التي تشعر بالتّضجّر أو السّأم، فكيف بالسّب أو الشتيمة؟ ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، فالذلّ للأبوين محمود وممدوح من هذه الناحية.

لقد أوجب الإسلام مصاحبة الوالدين بالمعروف، حتّى وإن كانا مشركين، إلى هذا الحد بلغت مرتبة البر بهما في نظر الشريعة الإسلامية، أنّ الأبوين وإن كانا غير مسلمين، بل وإن كانا يجتهدان، بل يجاهدان على فتنه ولدهما عن الإسلام، وحمله على الشرك لا يسقط حقهما في البر، يقول القرآن في سورة لقمان: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

صلة الرحم:

هذه هي الشريعة، التي جاءت ترعى شؤون الأسرة، وتمتد بالأسرة، وتتوسع بالأسرة فتشمل الأرحام والأقارب والعصابات، كما قال القرآن: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]. وفي الحديث الصحيح: «لا يدخل الجنة قاطع»^(٢).

(١) رواه السمرقندي في تنبيه الغافلين ص ١٢٤، تحقيق يوسف علي بديوي، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط ٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، والفردوس بمأثور الخطاب للدليمي (٣/٣٥٣)، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٨٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٦)، عن جبير بن مطعم.



وأكثر العلماء على أَنَّ القاطع هنا هو قاطع الرَّحْم، وفسّره بعضهم بأنه قاطع الطريق، كأنهما في منزلة واحدة مع قُطَاع الطريق، ﴿إِنَّمَا جَزَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]. فقاطع الطريق وقاطع الرحم في منزلة واحدة في نظر العلماء.

نظام النفقات:

ولم يكتف الإسلام بهذا، بل وضع من التّنظيمات والتشريعات التفصيلية ما يجعل هذه الأسرة الموسعة في حالة تكافل وتضامن، وتقارب مستمر، فهناك نظام النفقات الذي وضعه الإسلام، فأوجب على الأب المسلم نفقة الأولاد، والعكس أيضًا أوجب على الأولاد نفقة الأبوين حينما يتقدّم بهما السن ولا يكون لهما دخل.

وأوجب على المسلم كذلك نفقة أقاربه، إخوانه وأخواته من العصب المَحْرَم على تفصيل عند الأئمة في ذلك، منه على حسب الميراث، أو على حسب الرحمة، إلى آخره، نظام يقضي به القضاء الشرعي في المحاكم الشرعيّة، عندما يتعرّش الإنسان ويكون له قريب موسر قادر على أَنْ ينفق عليه، فلا يجوز له أَنْ يدع قريبه يهلك جوعًا وهو قادر على أَنْ ينفق عليه.

كتب شيخنا المرحوم محمد يوسف موسى رَحِمَهُ اللهُ، في كتابه «الإسلام وحاجة الإنسانيّة إليه» عن حادثة حدثت له وهو يدرس في باريس في فرنسا، قال: كانت تخدمنا فتاة يبدو عليها أنّها كريمة الأصل، فتاة ذات

جديّة ووقار، وليست لعوبًا، وقد بدا أنّها من أسرة ذات معدن طيّب، فسألها هؤلاء الشبان الذين كانوا يدرسون هناك: من أنت، ومن عائلتك؟ فقالت لهم: أنا اسمي كذا، وعمي هو صاحب المتجر الكبير في الشارع الفلاني. قالوا: أهذا عمك؟! قالت: نعم، هذا عمي، شقيق أبي. فقالوا لها: وكيف تشتغلين في خدمة شباب غرباء، ولك عمّ عنده مثل هذه الثروة؟ فقالت: ما لي وثروته؛ هو غنيّ وأنا فقيرة؟ فقالوا لها: ولكنّه عمّك. فقالت: ليست لي أي سلطة عليه، وهل يتوجّب عندكم أنتم إنفاق العم الغني من ماله على ابنة أخيه؟ قالوا لها: نعم، وتستطيع أن ترفع دعوى عليه في المحكمة، وتأخذ حكمًا عليه بالنفقة. قالت لهم: لو كان هذا عندنا ما رأيت هذه الجيوش الجرّارة من النساء في المعامل، والمصانع، والأعمال الخسيّة، والأعمال الشاقّة، إنّ النساء إنّما ذهبن إلى هذه الأعمال للضرورة، لأنهنّ لو جلسن في بيوتهنّ لهلكن جوعًا، ولن ينفق عليهن أحد.

هذا هو نظامهم، فليست حرية المرأة وتحرير المرأة في العمل كما يقولون، إنّما هي حاجة المرأة إلى العمل لكي تنفق على نفسها وتعيش، وإلا ماتت، أمّا نحن المسلمين فعندنا شريعة تحفظ الأسرة بالتشريعات الإسلاميّة الخاصة بها، مثل نظام النفقات.

نظام المواريث:

ومن هذه التشريعات التي تحمي الأسرة نظام المواريث، كما قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ

الْثُلُثَ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۖ [النساء: ١١]. إلى آخر ما تعلمون من آيات سورة النساء، وما جاء من الأحاديث يكمل ذلك.

هناك نظام العصبية، ويقول رسول الله ﷺ: «أَلْحَقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ»^(١). إلى آخر نظام المواريث، الذي يجعل هناك لحمة بين الأقارب بعضهم وبعض، وبه يكون هناك تعادل في المغنم والمغرم، فكما ينفق الإنسان على قريبه فيغرم فهو يرثه كذلك فيغنم، فالغرم بالغنم.

نظام العاقلة:

كذلك عندنا في التشريع الجنائي ما يسمّى نظام العاقلة، وذلك أن الإنسان لو قتل أحدًا خطأ، أو شبه عمد - كما هو التعبير الفقهي والشرعي - وجبت عليه دية كبيرة، كانوا يقدرونها بمائة من الإبل، أو بمائة ألف درهم، وأنا لا أدري كم تكون بالضبط الآن؟

من الذي يستطيع أن يدفع كل هذه الدية أو يتحملها، لو حملت لمرتكب الخطأ شبه العمد فلعلّ في ذلك إجحافًا به، أو لعلّه لا يقدر، وتضيع الدماء هدرًا، ولذلك تحمل العصبية معه هذه الدية، تشترك العصبية معه ليكونوا متضامنين، ولتكون أيضًا كل قبيلة، أو كل مجموعة رقية على أبنائها حتّى لا يعبثوا بالأرواح ويأتوا إليهم كل يوم بجناية أو جريمة، فهذا نوع من التضامن المادي والأدبي، هذا النظام المفصل جاءت به الشريعة في شؤون الأسرة الممتدة الموسعة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥)، كلاهما في الفرائض، عن ابن عباس.

عناية الشريعة بالمجتمع:

ثم خرجت هذه الشريعة إلى المجتمع لتنظّم شؤونَه، لتنظّم علاقاته بعضه ببعض، علاقة الأغنياء بالفقراء، والعمال بأرباب العمل، والملاك بالمستأجرين، هناك أحكام شتى تتعلق بهذه النواحي، يكفينا في العلاقة بين الأغنياء والفقراء أنّ الشريعة تحرص على أن ترفع من مستوى الفقراء، وذلك بأن تحدّ من طغيان الأغنياء، عن طريق تحريم الاكتناز، وتحريم التعامل بالربا، أن يعطي الإنسان المائة فيستردها مائة وعشرة، أو يعطي الألف فيستردها ألفاً ومائة، أو ألف ومائتين، دون أن يعمل أو يشارك حتّى في تحمّل المخاطرة، فجاءت الشريعة وحرّمت على هؤلاء الربا، وحرّمت عليهم الكنز، كما حرّمت عليهم الشحّ والبخل بحقّ الله ﷻ، وحرّمت عليهم الإسراف، وحرّمت عليهم الترف، ونحو ذلك، كل هذا نوع من الحدّ من طغيان الأغنياء.

ومن ناحية أخرى عملت الشريعة على رفع مستوى الفقراء عن طريق تيسير فرص عملٍ لهم، ليعملوا وينتجوا، فكل من كان قادراً على العمل يجب أن يُيسر له سبيلٌ للعمل، كما فعل النبي ﷺ مع ذلك الأنصاري الذي جاء يسأله.

روى أنس بن مالك أنّ رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: «أما في بيتك شيء؟» قال: بلى، جُلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء. قال: «أئتني بهما». قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: «مَنْ يشتري هَذَيْنِ؟». قال رجل: أنا أخذهما بدرهم. قال: «مَنْ يزيّد على درهم؟». مرّتين أو ثلاثاً، قال رجل: أنا أخذهما بدرهمين - وهذا أساس مشروعية البيع بالمزاد - فأعطاهما إيّاه،

وأخذ الدرهمين، فأعطاهما الأنصاري، وقال: «اشترِ بأحدهما طعامًا، فانبذه إلى أهلك، واشترِ بالآخر قدومًا فأتني به». فأتاه به، فشدد فيه رسول الله ﷺ عودًا بيده، ثم قال له: «اذهب فاحتطب وبيع، ولا أرينك خمسة عشر يومًا». فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا، وبيع بعضها طعامًا، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تجيء المسألة نُكْته في وجهك يوم القيامة، إنَّ المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقرٍ مُدَقِّع، أو لذي غُرمٍ مُفْطَع، أو لذي دَمٍ مُوجِع»^(١).

والفقر المدقع هو الفقر الشديد الذي يصل الإنسان بالتراب، ﴿مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾ [البلد: ١٦]، والغُرمُ المُفْطَع هو الدين الثقيل، والدم الموجه هو الدية، يعبرون بها عن الدم المُراق، لأنَّ الدية ثقيلة لا يستطيع أن يتحملها المرء وحده فيحق له أن يسأل الناس ليؤدي الدية التي عليه، أمَّا ما عدا ذلك فلا يجوز للإنسان السؤال، ولذلك أرشد النَّبِيُّ ﷺ ذلك الأنصاري إلى أن يعمل ويكتفي بنفسه، ويعمل في حدود البيئة، في حدود الميسور له، ولو كان عملاً شاقًا، ولو كان كسبه منه ضئيلًا، ولكن هذا أفضل له من أن يمدَّ يده إلى الصدقة، «فإنَّ الصدقة لا تحلُّ لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»^(٢)، وذو المِرَّة هو ذو القُوَّة، فمن كان قويًّا سليم الأعضاء لا يجوز له أن يمدَّ يده للصدقة، فالصدقة حقُّ الضعفاء الذين لا يستطيعون العمل.

(١) رواه أحمد (١٢١٣٤)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. وللقطعة الأخيرة منه - وهي قوله: «إنَّ

المسألة...» - شواهد تصح بها. وأبو داود في الزكاة (١٦٤١)، والترمذي في البيوع (١٢١٨)، وقال:

حسن. وابن ماجه في التجارات (٢١٩٨)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٢٩١)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (٦٥٣٠)، وقال مخرَّجوه: إسناده قوي. وأبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢)، وقال:

حسن. كلاهما في الزكاة، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٤٤)، عن عبد الله بن عمرو.

هكذا وجّه النبي ﷺ الثروة التي تتكون من درهمين، وجّه نصفها للاستهلاك، فاشترى الرجل بها طعاماً لأهله، ووجّه نصفها الآخر إلى الإنتاج، فقال للرجل: «اشترِ به قدوماً». والقدوم أداة من أدوات الإنتاج كما يعبر عنه في الاقتصاد الحالي، أي أنه مال يأتي بمال آخر، فلو أن الرجل اشترى طعاماً بالدرهمين لظل محتاجاً، لكنّه أنفق درهماً في حاجته في الاستهلاك، واشتغل بدرهم ليأتي له بدراهم، هكذا ينبغي أن نكون.

رفع الإسلام إذن من مستوى الفقراء، لأنّه هياً لهم سبل العمل الحلال، فإذا كان الإنسان عاجزاً عن العمل، أو قادراً ولكن لم يجد عملاً بسبب انتشار البطالة مثلاً، أو وجد عملاً ولكنّه لا يناسب اختصاصه ولا يليق بحاله، أو وجد عملاً ولكن دخله منه لا يكفي لكثره العيال، وغلاء السعار، ونحو ذلك، فهل يترك الإسلام هذا الشخص لتدوسه أقدام القادرين، وتطحنه ماكينة الحياة بالرحى الجبارة التي لا ترحم، تدور به ولا تبالي، أو تجعله مثل الحبة بين شقيها؟

فريضة الزكاة:

من هنا أوجب الإسلام أن يكون له حق من الزكاة، وهي ليست صدقة تطوعيّة، بل هي حق معلوم، علمه من تجب عليه الزكاة، وعلمه من تجب له الزكاة، علم متى يجب، وكم يجب، وفيما يجب، ولمن يجب؟ فالأنصبة محدّدة في القرآن والسنة، في القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُؤُجُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وفي السُّنة عن زياد بن الحارث الصُّدائي قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ، فبايعته، فذكر حديثًا طويلًا قال: فأتاه رجلٌ فقال: أعطني من الصدقة. فقال له رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيِّ وَلَا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ، فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أُعْطِيْتُكَ حَقَّكَ»^(١). فالزكاة حقٌّ معلوم، ليست إحسانًا اختياريًا كما يريد بعض الناس أَنْ يَصُورَهَا، يقولون: تريدوننا نحن في هذا العصر أَنْ نعيش اشتراكية الصدقات، كما سَمَّاهَا بعضهم. أسأؤوا فهم كلمة صدقة، كأنَّ كلمة صدقة تعني الإحسان الاختياري، وذلك أَنْ يعطي الغني الزكاة للفقير فيأخذها منه، ويُقَبَّلَ يده، ويدعو له بطول العمر، لا، ليست هذه هي الزكاة المقصودة.

الزكاة المقصودة هي حقٌّ يُؤْخَذُ، كما قال رسول الله ﷺ: «فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فتردُّ على فقرائهم»^(٢). تؤخذ أخذًا، كما قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]. فالأصل في الزكاة أَنَّهَا حَقٌّ يُؤْخَذُ، أَنَّ هُنَاكَ نِظَامًا تُشْرَفُ عَلَيْهِ الدَّوْلَةُ، لِتَأْخُذَ الزَّكَاةَ مِمَّنْ تَجِبُ عَلَيْهِ، لِتَصْرِفَهَا إِلَى مَنْ تَجِبُ لَهُ، هَذَا بِوَسْطَةِ جِهَازٍ قَوِيٍّ آمِنٍ، سَمَّاهُ الْقُرْآنَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا، وَجَعَلَ لَهُمْ حَصَّةً مِنْ مِيزَانِيَةِ الزَّكَاةِ، حَتَّى لَا يَتَوَاكَلَ النَّاسُ وَيَقُولُوا: مَنْ أَيْنَ نَصْرَفُ عَلَى احْتِيَاجَاتِنَا؟ لَا، خُذْ

(١) رواه أبو داود (١٦٣٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣٠١١)، والدارقطني (٢٠٦٣)، والبيهقي (٢٩٠/٤)، أربعتهم في الزكاة، قال الصنعاني في شرح الجامع الصغير (١٧٦٩): فيه عبد الرحمن بن زياد الأفريقي ضعيف. وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٢٨٩)، عن زياد بن الحارث الصُّدائي.

(٢) متفقٌ عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٥)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس.

من الزكاة، وقُمْ بعملك، وحَصِّل الزكاة، ولا تعطل هذه الفريضة، فالأصل في الزكاة أنها عبادة اجتماعية.

فريضة التكافل:

لقد حثَّ الإسلام على التكافل بين المسلمين، وحذّر من أن يتضرّر أو يجوع مسلم أو مسلمة وحوله إخوة له شُبعي، ففي الحديث عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من احتكر طعاماً أربعين ليلةً، فقد برئ من الله تعالى، وبرئ الله تعالى منه، وأيُّما أهلَ عَرَصَةٍ أصبح فيهم امرؤٌ جائع، فقد برئت منهم ذمّةُ الله تعالى»^(١). فهناك نوع من التكافل بين المسلمين في هذه الأمور، حتّى إنّ القرآن جعل من موجبات النار ألا يطعم الإنسان المسكين وهو قادر على إطعامه، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ۖ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۖ فِي جَنَّتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۖ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۖ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۖ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ۖ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٤]. أي أنّهم أضاعوا حقَّ الله حينما فرطوا في الصلاة، وأضاعوا حق عباده حينما فرطوا في إطعام المسكين.

وهذا الإطعام للمسكين كناية عن تلبية ضروراته وحاجاته، لأنّه كما يحتاج إلى الطعام يحتاج إلى الشراب، ويحتاج إلى الكساء، ويحتاج إلى الدواء، ويحتاج إلى المسكن وغير ذلك، فلا يجوز أن تطعمه ثمّ تجعله عارياً، فهذه كناية.

(١) رواه أحمد (٤٨٨٠)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح. وأطال النفس في تخريجه فليراجع. وأبو يعلى (٥٧٤٦)، والحاكم في البيوع (١١/٢)، وذكره ضمن عدة أحاديث، وقال: هذه الأحاديث الستة طلبتها وخرجتها في موضعها من هذا الكتاب احتساباً لما فيه الناس من الضيق، والله يكشفها، وإن لم يكن من شرط هذا الكتاب. وقال الذهبي: عمرو بن الحصين العقيلي تركوه، وأصبع بن زيد الجهني فيه لين. عن ابن عمر.

ولم يكتف القرآن بذلك، بل أوجب على كل مؤمن أن يحضّ على طعام المسكين، إذا رأى المسكين يضيع فلا بدّ أن يُحرّض على إطعامه، أن يحثّ الآخرين على الاهتمام به، فليس من الإسلام أن يعيش الإنسان لنفسه، وأيضاً ليس من الإسلام أن يكتفي الإنسان بإطعام المسكين، لا، بل لا بدّ أن يحضّ غيره على إطعامه، ولذلك رأينا القرآن الكريم يذكر في أسباب الحكم على أصحاب الشمال، الذين يُؤتون كتابهم بشمائلهم: أَنَّهُمْ لَا يَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ، فيقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ * وَلَمْ أَدرِ مَا حِسَابِي * يَلَيِّنَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٣٢]. لماذا كل هذا العذاب؟ يجيبنا الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤].

ولذلك كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول لزوجته أمّ الدرداء رضي الله عنها: يا أمّ الدرداء، إنّ لله سلسلة لم تزل تغلي بها مراحل النار منذ خلق الله النار إلى يوم القيامة، كسرنا نصفها بالإيمان بالله، فعلينا أن نكسر النصف الثاني يا أمّ الدرداء، فحضّي على طعام المسكين^(١). فالإيمان بالله كسر نصف السلسلة، والحضّ على طعام المسكين يكسر النصف الثاني، فبهذا التكافل ارتفع الإسلام بمستوى الفقراء.

موارد أخرى:

كما جعل الإسلام للفقراء حقوقاً في موارد الدولة الأخرى، مثل خمس الغنائم، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٢٧٤/٨) لعبد بن حميد وابن المنذر. نشر دار المعرفة، بيروت.

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ
وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ [الأنفال: ٤١].

وجعل لهم حقاً في الفيء، كما قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ
أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً
بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا ءَانَتْكُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ [الحشر: ٧].

هذا بالإضافة للصدقات التطوعية، سواء كانت الصدقات الموسمية
أو الدائمة، وهو ما يعرف بالصدقة الجارية، أو ما عرف باسم الوقف
الخيرى، فقد عُرِفَت الأوقاف الخيرية في الحضارة الإسلامية وفي
المجتمع الإسلامي، عُرِفَ وقف أصحاب الخير في العقارات، والبيوت،
والمستشفيات، وغيرها من أجل الضعفاء والفقراء، فهذا كله مما جاء به
الإسلام لرفع مستوى معيشة الفقراء، فهو يحدُّ من طغيان الأغنياء، ويرفع
مستوى الفقراء، لتقترب المسافة بين الفريقين، هذا ما يتعلق بالمجتمع.

عناية الشريعة بالدولة:

وهناك ما يتعلق بالدولة الإسلامية والحكم الإسلامي، فقد جاء
الإسلام ليحكم، ولم ينزل القرآن لتعلق آياته لافتات تُزَيَّن بها الجدران،
أو ليكون أحجبة يحملها الأطفال أو الحوامل من النساء لتحفظهم من
الجن أو من العين أو غير ذلك، ولم ينزل القرآن ليقرأ على الموتى،
إنما نزل القرآن ليحكم الأحياء، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ
مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]. وقال:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥].
 نزل هذا الكتاب ليحكم، وإلا ما قيمة كتاب أنزله الله ﷻ إذا لم يكن يحكم الناس ويربط سير الحياة؟ ما قيمة هذه الهداية الإلهية، وهذه الأحكام الإلهية؟ هل نزلت للتبرك؟

إنَّ البركة حقيقة في اتباع القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. هذه هي بركة القرآن، ليست البركة في أن تكتب آياته في طبق وتشربه، لا، البركة في أن تتبَّعه وتعمل به، كما قال الله تعالى مخاطباً النبي ﷺ: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴾ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨ - ٥٠].

العجيب أن أحد المحرِّفين في محاضراته المعروفة في أبي ظبي قال: إن هذا الخطاب خاص بالنبي ﷺ بالنسبة لليهود، بالنسبة لأهل الكتاب، لأنَّ القرآن يقول: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾. ولم يقل له هذا في شأن المسلمين!

وهذا من العجب، أن يقال: مطلوب من النبي ﷺ أن يحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله، وليس مطلوباً منه أن يحكم بين المسلمين بما أنزل الله. أهذا منطق يقوله عاقل، أو يفهم الحكم، أو يفهم أي شيء؟ أن

القرآن جاء لتحكم به بين اليهود والنصارى بما أنزل الله ولكن هذا ليس لم ينزل في شأن المسلم، ما هذا؟

إذا كان القرآن يأمر النبي ﷺ أن يحكم بين أهل الكتاب فالأولى أن يحكم بين الجميع وفي مقدمتهم المسلمين، فهو كلام عام، ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾. هل حكم الجاهلية يكون مذموماً بالنسبة لليهود والنصارى، ولا يكون مذموماً بالنسبة للمسلمين؟! هل يقال للمسلمين؟! ولا يقال للمسلمين؟!

كما قال هذا المتفاح المتعال - وهو ليس من العلم في شيء، لا في قليل ولا كثير - عن الآيات الأخرى التي نزلت في سياق واحد من نفس السورة، سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]. يقول عن هذه الآيات: إنها نزلت في شأن اليهود والنصارى، نزلت في غير المسلمين، وأنها جاءت في شأن التوراة.

وتغافل بهذا عما قرره الأصوليون بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، قد يكون السبب خاصاً، ولكن إذا جاء اللفظ عاماً، فإن اللفظ يشمل القصة التي نزل فيها الحكم، وجاءت فيها العبارة القرآنية أو النبوية ويشمل غيرها، كما لو رأيت إنساناً مريضاً مثلاً، لأنه

تناول طعامًا ضارًا، فتقول: أصيب فلان بكذا لأنّه تناول طعامًا ضارًا، فيه كذا وكذا؛ ومن تناول طعامًا ضارًا لا بدّ وأنّ يصاب بكذا. الأول كلام عن هذا الشخص، والتعقيب هذا لكل من يتناول مثل هذا الطعام، هذا معنى العبرة بعموم اللفظ، واللفظ هنا عام، يضع قاعدة.

ثم هناك شيء آخر بديهي يجعل كلام هذا الشخص فاسدًا، وهو أننا إذا اعتبرنا أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. في شأن اليهود والنصارى دون المسلمين، كما يقول هو؛ فهذا يعني أنّ الله تعالى شأنه يكيل بكيّلين، أنّه يحابي المسلمين، فإذا حكم اليهود والنصارى بغير ما أنزل الله، وُصفوا بالكفر أو الظلم أو الفسق، أمّا إذا حكم المسلمون بغير ما أنزل الله فلا حرج عليهم، فهل هذه عدالة تصحّ نسبتها إلى الله جل شأنه؟

ولهذا قال الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: نِعَمَ الإخوة لكم بني إسرائيل؛ أنّ كانت لكم الحلوة ولهم المرّة^(١). قال ذلك لمن ظنّ أنّ هذه الآيات لأهل الكتاب، وأنّ المسلمين لا حرج عليهم فيها، فنحن نقول: نعم نزلت الآيات فيهم، ولكنها عامّة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم هل ما أنزله الله على اليهود والنصارى دون ما أنزله على المسلمين، هل كتابهم أعظم من كتابنا، هل ما أنزل الله عليهم أفضل ممّا أنزل علينا، بحيث أنّهم إذا لم يحكموا بما أنزل الله وُصفوا بالكفر

(١) رواه الطبري في تفسيره (٣٥٠/١٠)، تحقيق محمود وأحمد شاكر، نشر دار التربية والتراث، مكة المكرمة.

والظلم والفسق، فإذا تركنا نحن ما أنزل الله ولم نحكم به لا نوصف بكفر ولا ظلم ولا فسق؟ هل هذا عدل؟!

لا، بل العكس هو الصحيح، فإن كان لا بد من مفاضلة فلنقل: القرآن هو الكتاب الخالد، هو المهيمن، كما جاء في نفس السورة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ﴾. فهو المهيمن على الكتب، والناسخ لها، والمصحح له، والتمم لها، هذا هو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي تكفل الله بحفظه، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فلا معنى إذن لأن يُقال: إن القرآن ليس للحكم، وأن الشريعة ليست للحكم، وأن تلك الآيات التي جاءت في سورة المائدة ليست في شأن المسلمين؟

لقد جاءت الآيات بلفظ عام، ومنطق العدالة الإلهية يوجب أن يوصف الجميع بما فيها، المسلمون وغير المسلمين، وأيضاً فإن ما أنزل الله ينبغي أن يُحترم، سواء أنزله الله على اليهود أو على النصارى أو على المسلمين، فهذا هو المنطق الذي ينبغي أن يفهم به هؤلاء الذين يدخلون فيما لا يحسنون، ويقولون على الله ما لا يعلمون.

يرفض هؤلاء الشريعة، ويقولون: ليس في الإسلام شريعة، وإنما هو دين فقط! والحقيقة أن الإسلام دينٌ ودُنْيَا، فإذا أخذتم الإسلام بالمفهوم الضيق، فالإسلام يشمل الدين وغيره، ولذلك جاءت الشريعة عند الفقهاء للمحافظة على الضروريات الخمس أو الست، ما هذه الضروريات؟ هي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، ويضيف بعضهم العرض، فإذا لم يدخل العرض في قضية النسل يضيفها فتكون سادسة، فهذه هي الضروريات.

والدين هو ما يتعلق بالعقائد والعبادات والقيم الأخلاقية، أمّا الشريعة فهي التي تحكم جميع هذه الجوانب، فكلّمة إسلام أشمل وأعم وأوسع من كلمة دين، ولذلك عندما نقول: نحن نريد نظامًا إسلاميًا. فليس معنى ذلك أننا نريد نظامًا دينيًا كهنوتيًا، لا، بل النظام الإسلامي أوسع بكثير، فليس معنى أننا نطالب بحكومة إسلامية أننا نطالب بحكومة دينية، لا، فالحكومة الإسلامية والدولة الإسلامية ليست دولة دينية، ولكنها دولة مدنيّة تُحكّم بالإسلام، أي أنّها ليست دولة الكهنة، ليست دولة الدراويش، لا، ولكنها دولة الأقوياء الأمناء، يتقدّم القوي الأمين فيها ويأخذ حظّه سواء كان من علماء الدين أو من علماء الدنيا.

ولهذا عندما سأل سيّدنا أبو ذر الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النَّبِيَّ ﷺ أن يوليه ولاية من الولايات، قال له: «يا أبا ذرٍّ؛ إنَّكَ ضعيف، وإنَّها أمانة، وإنَّها خِزْيٌ وندامة يوم القيامة إلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا»^(١). يقول ذلك لأبي ذر وهو مَنْ هو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، هو من السابقين في الإسلام، وصاحب الصّدق، كما وصفه النَّبِيُّ ﷺ: «ما أَظَلَّتْ الخُضراءُ، ولا أَقَلَّتْ الغبراءُ من رجلٍ أَصْدَقَ لهجةً من أبي ذرٍّ»^(٢). ومع ذلك قال له النَّبِيُّ ﷺ: «إنَّكَ ضعيفٌ». لماذا؟ لأنّه ليس كلُّ إنسان يصلح للإمارة والولاية. ولهذا عندما أسلم عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَدَّمَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ على غيرهما، وهكذا تفرض الكفايات نفسها في الشؤون الإدارية والعسكرية وغيرهما.

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٥)، عن أبي ذر.

(٢) رواه أحمد (٧٠٧٨) وقال مخرّجوه: حسن لغيره. والترمذي في المناقب (٣٨٠١) وقال: حسن.

وابن ماجه في المقدمة (١٥٦)، عن عبد الله بن عمرو.

الدولة الإسلامية إذن ليست دولة الكهنة، ليست دولة ثيوقراطية كما يقولون، ولكنها دولة مدنيّة، تقوم على اختيار الناس وعلى البيعة وعلى الشورى، والحاكم المسلم فيها ليس كاهنًا، وليس معصومًا، ليس إنسانًا يفرض رأيه على الناس، لا، بل هو الإنسان الذي يتجلّى في قول سيدنا أبي بكر رضي الله عنه في أوّل خطبة له بعد الخلافة: أيّها الناس؛ إنّي وُلّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإنّ رأيتموني على حقّ فأعينوني، وإنّ رأيتموني على باطل فسدّدوني، الضعيف فيكم هو القويّ عندي حتّى آخذ الحقّ له، والقويّ فيكم هو الضعيف عندي حتّى آخذ الحقّ منه، أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم^(١).

أو كأمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان يقول: رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوب نفسي، مرحبًا بالناصح أبد الدهر، مرحبًا بالناصح غدوًا وعشيًا^(٢). وحينما وقفت امرأة وردّت عليه وهو يخطب على المنبر قال: أصابت امرأة وأخطأ عمر^(٣). وكان يقول: يا أيّها النّاس من رأى منكم فيّ اعوجاجًا فليقوّمني. فوقف رجل من الأعراب وقال له: والله لو رأينا فيك اعوجاجًا يا ابن الخطّاب لقوّمناه بحدّ سيوفنا. فلم يقل: اقبضوا على هذا الرجل، أو زجّوا به في السجون، أو ائتوني بهذا الإرهابي، لا،

(١) ذكره ابن هشام في السيرة (٦٦١/٢)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر، ط٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

(٢) رواه الطبري في تاريخه (٢٢٥/٤).

(٣) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في الأوسط (٩)، وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٣)، وقال المناوي في فيض القدير (٥٢٦٥): قال ابن عبد البر: طرقها كلها معلولة. وقال النووي: ضعيف وإن كان معناه صحيحًا. وقال السيوطي: جمعت له خمسين طريقًا، وحكمت بصحته لغيره، ولم أصحح حديثًا لم أسبق لتصحيحه سواه. وقال السخاوي: له شاهد عند ابن أبي شاهين، بسند رجاله ثقات، ورواه نحو عشرين تابعيًا. عن أنس.

ولكن قال: الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يُقَوِّم اعوجاج عمر بحدّ السيف^(١). ولمّا قال له بعض الناس: اتَّقِ الله يا عمر. وغضب بعض جلسائه وقال للرجل: لا تقل هذا لأمر المؤمنين. فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: بل دعه يقولها. ثمّ قال: لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها^(٢). هذا هو الحاكم المسلم.

الحكومة في الإسلام إذن ليست حكومة دينيّة بالمعنى الكهنوتي تدّعي العصمة، فيكون ما حلته في الأرض محلولاً في السماء، أو ما عقدته في الأرض معقود في السماء، لا، ولذلك كان على الحاكم المسلم أن يستشير، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وكان النبي ﷺ أكثر الناس مشاورة، وكم نزل عن رأيه إلى رأي أصحابه، وهكذا، فنحن نريد دولة إسلاميّة، وليست دولة دينيّة.

ومن الخطأ أن يظنّ بعض الناس أن كلّ ما هو ديني يكون إسلاميّاً، أو كلّ ما هو إسلاميّ يكون دينيّاً، وهذا ليس صحيحاً، ولذلك بعض الناس يفهم الخلافة فهمّاً خاطئاً، كما فعل هذا الشخص المحرّف، يقول: الخلافة ليست نظاماً دينيّاً.

ونحن نقول: إنّها ليست نظاماً دينيّاً بالمعنى الديني الضيق هذا، وإنّما هي نظام إسلامي، فهناك فرق بين كلمة «ديني» وكلمة «إسلامي»، كلمة «إسلامي» كلمة واسعة جدّاً، كما نقول مثلاً: إنّ التربية الدينيّة جزء

(١) ذكره على بن خلف في كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد (١٩١/١)، تحقيق محمد محمد تامر، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. ورواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٢٩) بنحوه بدون ذكر السيف.

(٢) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة (٧٧٣/٢)، تحقيق فهد محمد شلتوت، نشر عام ١٣٩٩هـ.

من التربية إسلامية؛ فالتربية الإسلامية تشمل بضعة عشر نوعاً من ضمنها التربية الدينية، تشمل: التربية الدينية، والتربية العقلية، والتربية الخلقية، والتربية الجسمية، والتربية العلمية، والتربية الأدبية، والتربية المهنية، والتربية الأسرية، والتربية الاجتماعية، والتربية الجنسية، والتربية العسكرية، والتربية السياسية، والتربية الإنسانية، حوالي ستة عشر أو سبعة عشر نوعاً من التربية، كلها من التربية الإسلامية، وواحدة منها تسمى التربية الدينية، وهي التي تغرس في نفس الإنسان المعاني الروحية، وتغرس فيها مخافة الله ﷻ، وتغرس فيها العقيدة السليمة، وتغرس فيها حبّ العبادات، وسائر هذه الأنواع هي تربية إسلامية.

فهناك تربية البدن القوي القادر على الحركة والمرونة، الذي يتحمّل الخشونة، فالمسلم ليس من أولئك الذين قال فيهم الشاعر:

خَطَرَاتُ النَّسِيمِ تَجْرَحُ خَدَيْهِ وَلَمْسُ الْحَرِيرِ يُذْمِي بَنَانَهُ^(١)

فالتربية التي تحرص على السلامة من الأمراض، وتحرص على النظافة والصحة، والبعد عما يضر بالجسم من المُسكرات والمخدرات، كل هذا من التربية البدنية أو التربية الصحية، وهي داخلة في التربية الإسلامية.

وكذلك يخلط بعض الناس بين الأمرين، بين النظام الديني والنظام الإسلامي، فيقولون: لا نريد نظاماً دينياً. ونحن في الحقيقة نريد حكماً إسلامياً وليس حكماً دينياً، فالحكم الإسلامي ليس حكماً كهنوتياً، ليس هو الحكم الذي عرفه الناس في أوربا، الذي فيه حكم رجال الكنيسة،

(١) من شعر شهاب الدين الإغزالي، انظر: نفح الأزهار في منتخبات الأشعار لشاكر شقير البتلوني ص ٩٠، تحقيق إبراهيم اليازجي، نشر المطبعة الأدبية، بيروت، ط ٣، ١٨٨٦م.

لا، بل نحن نريد حكمًا مدنيًا إسلاميًا، نريد حكومة مدنية مختارة مبايعة عن رضا من الناس.

وهذه الحكومة المنشودة لا تمشي على هواها، ولا تسير وفقًا لمنهج الشيطان، وإنما هناك منهج حدّده الله تعالى لها، هو منهج الشريعة الإسلامية، فهي محكومة بمنهج، وهذا هو الذي يضمن السلامة للحياة والاستقامة للناس، فما أفسد الحياة إلا أولئك المتألهين في الأرض من الطغاة الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، والذين عذبوا الخلق، والذين كان معهم أولئك الجلادون الذين معهم سيات كأذنان البقر يضربون بها الناس، هؤلاء الفراعنة كيف تمكنوا من الحياة وأفسدوها؟ كان ذلك عن طريق القوانين، حيث أخذوا لأنفسهم سلطة التقنين فقنّنوا لأنفسهم ما يضمن لهم السلطة والطغيان، ونسوا قوانين الله ومنهج الله، وقد سحب الله ﷻ بشريعته هذه السلطة منهم، فليس لهم الحق إلا أن يتقيّدوا بالشريعة، ولذلك فالحكومة الإسلامية حكومة مقيّدة بشريعة الله، لأنّ الشريعة الإسلامية تحتاج أن يفهمها الإنسان بعقله، ويجتهد في فهم نصوصها غير القطعية، فهناك مرحلة القطعيّات التي لا اجتهاد فيها، وهذه تمثل الوحدة الفكرية والشعورية والسلوكية والعملية للأمة، ثمّ هناك مرحلة الظنيات وهي أغلب أحكام الشريعة ونصوصها، وهناك أشياء ليس فيها نص وهي منطقة العفو، كما أسمىها أخذًا من الحديث: «ما أحلّ الله في كتابه فهو الحلال، وما حرّم فهو الحرام، وما سكت عنه فهو عفو»، فاقبلوا من الله عافيته، فإنّ الله ما كان لينسى شيئًا»، ثمّ تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]^(١). فأمام العقل فسحة.

(١) رواه البزار (٤٠٨٧)، وقال: إسناده صالح. والبيهقي في الضحيا (١٢/١٠)، والحاكم في التفسير (٣٧٥/٢)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٩٤): رواه البزار والطبراني في الكبير وإسناده حسن ورجاله موثقون. عن أبي الدرداء.

والحمد لله رب العالمين أنَّ الشريعة الإسلامية خصبة ثرية غنيّة، هي ثروة من الاجتهادات والآراء والاختلافات الفقهية متعددة المشارب، متعددة الاستنباطات، وهذه للأسف قد يضيق بها بعض الناس الذين لا يفقهون سعة هذه الشريعة ومرونتها، ويظنون هذا عيباً فيها، مع أنَّ من محاسن الشريعة الإسلامية أنَّ فيها مجالاً لتنوع الآراء، ولخصوصية الأفكار، وتلاقح العقول، تستطيع أن تجد في هذه الشريعة أشياء كثيرة جدّاً، هناك رأي يصلح لزمن ولا يصلح لآخر، ورأي يصلح لبيئة ولا يصلح لآخرى، ورأي يصلح لحال ولا يصلح لآخر، فنجد في هذه الشريعة ما يسعنا، وما نثري به حياتنا، وما نحلُّ به مشكلاتنا.

لقد جاء القرآن كتاباً ليحكم، جاء الإسلام شريعة حاکمة، جاء ديناً ودولة، ولو لم تجئ النصوص بهذا لكان الواقع يحتم على الناس أن يقولوا بهذا، لأنّه لا يمكن أن توجد رسالة ويوجد نظام أو أيّدولوجية - بتعبير عصرنا - دون أن تحكم، فإن لم تحكم فكيف تطبق منهجها؟ وكيف تطبق قيمها؟ وكيف تحقق ذاتها؟ لا بدّ أن تحكم لتطبق ذلك وتحققه، لقد جاء الإسلام شريعة مفصلة لكل جوانب الحياة كما ذكرنا، ولكن هذه الشريعة إذا لم تُطبّق هل نتركها؟ وإذا تركناها فما قيمتها؟ هل يطبقها غير المسلمين؟ لا بدّ من حكم، فإما أن يُسلم الحاكم أو أن يحكم المسلم، إما أن يُسلم الحكم أو أن يحكم الإسلام، أو بتعبير آخر: إمّا أن ينتقل الإيمان إلى قلوب الحاكمين أو ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين، لا بدّ من هذا، فقد جاء الإسلام ليحكم الحياة، والواقع يفرض هذا، وإلا فمن الذي يحمي العقيدة، ومن الذي يعلم الناس العبادة ويحفظها ويقيم المساجد ويعاقب من فرط في هذه الأمور أو أهملها أو استخف بها؟ إنّها الدولة الإسلامية، من الذي يجمع الزكاة

ويوزعها، مَنْ الَّذِي يعاقب منتهك حرمة رمضان، مَنْ وَمَنْ؟ إن لم تكن هناك دولة فما الفائدة؟

ثمَّ إِنَّ القوانين التي تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض والقوانين المدنية، والقوانين الجنائية هذه كلها تحتاج إلى حاكم يحكم بها ويرعاها، وإلا أصبحت حبرا على ورق، ولذلك نقول: جاء الإسلام شريعة وحكما، والخلافة الإسلامية كما عرّفها علماؤنا: هي نيابة عن رسول الله ﷺ في سياسة الدين، وحراسة الدنيا به. أي بالدين، هذه هي الخلافة.

والخلافة ليست مجرد نظام حكم عادي، إنه نظام حكم للأمة الإسلامية، ففيه معنى الرياسة السياسية، وفيه معنى آخر يتضمنه نظام الخلافة وهو معنى الوحدة الإسلامية، إنه نظام للأمة الإسلامية، المسلمون أمة، وليسوا أمما كما يقول بعض الناس، أمة إسلامية، لا، هي أمة واحدة كما يقول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. هي أمة إذن، هذه الأمة يحكمها نظام واحد على طريقة ما من الطرق، حكم اتّحادي، حكم فيدرالي، يسمونه كما يسمونه، ولكن لا بدّ أن يقوم بين المسلمين لون من الاتّحاد، وتكون لهم قيادة، مشكلتنا في هذا العصر أننا فقدنا القيادة الإسلامية المتمثلة في الخلافة، وليس لنا أي قيادة أخرى.

إذا كانت المسيحية قد انفصلت عن الدولة وعن السياسة وعن الحكم، وانفصل الدين فيها عن الدولة، فالكنيسة لها سلطة مستقلة بابوية، لها جنودها وجيوشها وأموالها وممتلكاتها، وتقف في المرتبة الثالثة من ناحية الغنى بعد أمريكا وروسيا، الكنيسة الكاثوليكية غير الكنيسة البروتستانتية غير الكنيسة الأرثوذكسية، عندهم في الكنيسة سلطة، أمّا نحن إذا لم تكن لنا خلافة فمن الذي يوحد المسلمين؟ من يقول للمسلمين هبوا وقفوا لتدافعوا عن أنفسكم أو عن إخوانكم أو عن هويتكم؟ لا نجد، ونظام الخلافة يمثل وحدة الأمة الإسلامية، ولهذا كان لا بدّ من هذا إيجاد النظام، وهو ما جعل الصحابة يحرصون عليه قبل أن يدفنوا النبي ﷺ، فكروا فيمن يخلف النبي ﷺ، حتّى جاء في الحديث الصحيح: «من مات وليس في عنقه بيعةٌ لإمام، مات ميتة جاهليّة»^(١).

هذا - أيّها الإخوة - هو الإسلام، جاء عقيدة وشريعة ونظامًا كاملاً للحياة، جاء شريعة حاكمة، تحكم الحياة كلها من المهد إلى اللحد، من أدب المائدة إلى بناء الدولة، هذا هو الإسلام تبيان لكل شيء، من رب كل شيء.

أسأل الله ﷻ أن يفقهنا في هذا الدين، وأن يجعلنا من جنوده ودعائه، حتّى يتحقق نظامه في الأرض، وحتى تسود شريعة الخالق من الخلق، وتشرق أنوار السماوات على ظلمات الأرض، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٤ - ٦].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(١) رواه مسلم في الإمامة (١٨٥١)، وأبوداود الطيالسي (٢٠٢٥)، عن ابن عمر.

إجابات الشيخ القرضاوي عن أسئلة المحاضرة

من شبهات الدكتور خلف الله:

السؤال الأول: كتب الدكتور محمد أحمد خلف الله - وهو علماني معروف - مقالاً في إحدى الصحف المحليّة، وذكر أنّ القرآن ليس فيه ما يدل على السعي من أجل قيام الدولة الإسلاميّة، مستدلاً بقول الله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧]. فما رد فضيلتكم على ذلك؟

الجواب: لم يكن كلام هذا الشخص في مقال، وإنّما كان للأسف في محاضرة ألقاها في أحد الأماكن، وهذا الشخص معروف بتحريفاته وتخريفاته منذ بداية حياته العلمية، فبحثه في رسالة الدكتوراه في كليّة الآداب بجامعة القاهرة^(١) كان عن الفن القصصي في القرآن، وقال: ليس من الضروري إذا حدّثنا القرآن في قصة من قصصه - كقصة أهل الكهف - أنّها وقعت في الحقيقة، بل لأخذ العبرة منها. وهذا الكلام طبعاً غير صحيح، وقد ردّ عليه من ردّ.

ومن قريب قرأت لهذا الكاتب المُرَوَّر للحقائق كلاماً كتبه في إحدى المجلات يقول: إنّ الرسائل التي جاء بها الأنبياء رسالات قوميّة، حتّى رسالة محمد ﷺ. واستدلّ بقوله تعالى: ﴿وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وذكر الأشياء التي جاءت في مراحل الدعوة الأولى من على وجه التدرج.

ولكنّه يغفل الآيات الدالّة على عالميّة الدعوة ولا يذكرها، أين هو من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

(١) وهو نصر حامد أبو زيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]. وغير ذلك من الآيات والأحاديث؟

الواقع أنَّ الذين يكيدون للإسلام سيظلون يطعنون، وكما يقول الشاعر:

ولو كان سهماً واحداً لا تَقِيَّتُهُ ولكنَّه سَهْمٌ وثانٍ وثالثٌ^(١)

ولكن الله سيَهَيِّئُ لدينه من يذبُّ عنه، ويحمِّله لينشره في الآفاق.

والمسلم الحقيقي هو الذي يكون وقافاً عند كتاب الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١، ٥٢]، وكما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. فبعد أن رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً وسولاً وبالقرآن إماماً، ما عاد لنا خيار إلا اتباع الإسلام، كما يقول الإمام الغزالي: إنَّ العقل يعمل حتَّى يثبت النبوة، فإذا ثبتت النبوة عزل العقل نفسه وبدأ يتلقى من الوحي^(٢). لم يعد العقل قاضياً، فما دام أن ما يقوله رسول ﷺ ما هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى، فإنَّ العقل عليه أن يتلقى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، هذا أمر ينبغي ألا يكون فيه جدل.

(١) البيت للقاضي أبي بكر ابن العربي، كما في الحُلة السَّيِّئة لابن الأَبَّار (٦/١)، تحقيق

د. حسين مؤنس، نشر دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م. بلفظ رمح بدل سهم.

(٢) المستصفى للغزالي ص٦٠، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي، نشر دار الكتب العلمية،

بيروت، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

أَمَّا الْآيَةُ الَّتِي تَقُولُ: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧].
 فمعناها: أي كي لا يكون المال متداولاً بين الأغنياء منكم دون الفقراء،
 أي: إِنَّ الْإِسْلَامَ جَعَلَ لِلْفَتَاتِ الضَّعِيفَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ نَصِيبًا مِمَّا يَفِيءُ اللَّهُ
 تَعَالَى بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْفَتَاتُ أَوَّلَ مَنْ يُقَسَّمُ
 عَلَيْهَا هَذَا الْفِيءُ، ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى
 وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَانَكُمْ
 الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].
 فَقَدْ نَصَّ الْقُرْآنُ عَلَى هَذِهِ الْفَتَاتِ حَتَّى لَا يَكُونَ الْمَالُ مُتَدَاوِلًا بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ
 مِنَ النَّاسِ، بَيْنَمَا يُحْرَمُ مِنْهُ الْفُقَرَاءُ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْقُرْآنِيَّةُ تَبِينُ حَقِيقَةَ
 مَهْمَةٍ، وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ أَحْصَى مَا يَمِيزُ الرِّأْسَمَالِيَّةَ أَنَّ الْمَالَ فِيهَا دُولَةٌ بَيْنَ
 الْأَغْنِيَاءِ وَلَيْسَ لِلْفُقَرَاءِ فِيهِ إِلَّا الْفَتَاتُ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ يُعْطِي الْفُقَرَاءَ
 وَالْفَتَاتِ الْمَسْحُوقَةَ، وَالطَّبَقَاتِ الْمَطْحُونَةَ فِي الْمَجْتَمَعِ مِنَ الْفِيءِ - كَمَا
 قُلْنَا - وَيَرْفَعُ مِنْ مُسْتَوَاهَا بِأَسَالِبِ تَشْرِيعِيَّةٍ وَتَوْجِيهِيَّةٍ شَتَى.

القصور في فهم تطبيق الشريعة:

السؤال الثاني: هل يجوز للمجتمع الذي يحاول تطبيق الشريعة
 الإسلامية في الحكم أن يعطل بعض الحدود الإسلامية لفترة انتقال
 بحجة درء الحدود بالشبهات؟

الجواب: أولاً هناك سوء فهم في مسألة الشريعة الإسلامية، فكثيراً
 ما تفهم كلمة الشريعة أننا نريد تطبيق الجانب القانوني فقط في الإسلام،
 جانب المواد، وكأن كل ما نريده هو أن نغير المواد في القانون بـ مواد أخرى
 فتنتهي الأمور بهذه الطريقة، لا، والبعض يحصر الجانب القانوني في
 جانب الحدود والعقوبات فقط، وهذا أيضاً ليس بصحيح، هذا فهم قاصر.

نحن نريد الشريعة الإسلامية بالمعنى العام، أو كما قلت دائماً: نريد حياة إسلامية متكاملة، حياة تحكمها الشريعة الإسلام، وتوجّهها عقيدة الإسلام، وتسودها مفاهيم الإسلام، وتسيطر عليها آداب الإسلام، وتضبطها أخلاق الإسلام، نحن نريد حياة إسلامية متكاملة فيها العقيدة، والشريعة، والأخلاق، والمعاملات، والآداب، والتقاليد، هذا كله ما نريده، فنحن لا نريد جانباً واحداً فقط، بل نريد الجوانب المختلفة.

وأنا عندما حضرت الذكرى الأولى لتطبيق الشريعة الإسلامية في السودان قلت على الملأ: لا تظنوا أنكم بتغيير القوانين إلى قوانين إسلامية تكونون قد أقمتم المجتمع المسلم، لا، هذه مجرد خطوة، فالمجتمع المسلم يحتاج إلى تربية، وإلى توجيه، وإلى فكر، وإلى ثقافة، لا بدّ أن نبدأ من المدارس، من مرحلة الحضّانة إلى الجامعة، نغير الأفكار والثقافات والمناهج والروح العامة التي تسيطر على التعليم، لا بدّ أن نغير الإعلام والإذاعة والتلفزيون والصحافة والكتاب والمجلة وكذا، لا بدّ أن يسيطر الإسلام على الثقافة والفكر والتقاليد الاجتماعية، فليس بمجرد تغيير القوانين يكون قد تغيّر كل شيء. قلت ذلك في السودان، وقلت ذلك منذ خمسة عشر سنة في ليبيا في مدينة البيضاء، حينما كنت هناك في مؤتمر للشريعة الإسلامية، فليس مجرد تغيير القوانين يعني أننا أقمنا الإسلام، لا، إقامة الإسلام تحتاج إلى أن تقيم حياة إسلامية، وأن تقدم المسلمين الملتزمين على غيرهم، أمّا أن تقدم الشُّراق كما هم، وتقول: إننا نحكم بالإسلام. فأنت بذلك تسيء إلى الإسلام، وستجد كارهي الإسلام يقولون: أهذا هو الإسلام؟ فلا بدّ من تقديم أهل العلم والدين والفضل والتقوى لكي يقودوا الحياة، أمّا أن تدع اللصوص الكبار أو الصغار أو المحاسب في أماكن القيادة والإدارة،

فلا يجوز فهم سيشوهون صورة الإسلام، فينبغي أن نفهم معنى تطبيق الشريعة، أن نأخذها بمفهوم أكبر من المفهوم الذي يفهمه كثير من الناس.

مناظرة الدكتور فؤاد زكريا:

السؤال الثالث: نرجو من فضيلتكم إلقاء الضوء على المناظرة التي حدثت في مصر مع العلمانيين؟

الجواب: ليس من الممكن أن أختصر ندوة استمرت أربع ساعات في هذا المقام، أنا أرجو أن تشاهدوا وتستمعوا إلى شريط منها، وهي مسجلة بالفيديو، ومسجلة بالكاسيت، وهي في الحقيقة ندوة تاريخية، وكانت ليلة مشهودة، وهي من ليالي الإسلام، لأن الله ﷻ أبطل باطل هؤلاء الناس، لا لقوتنا، ولكن لقوة الإسلام الذي نمثله، كما قال الشاعر:

إِذَا جَاءَ مُوسَى وَأَلْقَى الْعَصَا فَقَدْ بَطَلَ السَّحَرُ وَالسَّاحِرُ^(١)

وكما قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]. فالحمد لله، وقد دعوت أكثر من واحد ولم يستجب إلا رأس من رؤوسهم وهو فؤاد زكريا، وحضرت أنا وفضيلة أستاذنا الجليل فضيلة الشيخ محمد الغزالي، واستمرت الندوة كثيرًا، وأتحنأ له أن يتحدث ويرد براحتة، ولكن خرج الجميع يقولون عنه: إنه سُحِقَ سَحَقًا. هذا منطق الإسلام، والحمد لله رب العالمين، كل الأشياء التي قالها مردود عليها، وهي أشياء ضعيفة جدًا، وأنا حاليًا أحاول أن أكتب هذا الكلام ليصدر في كتاب، لأن الكتاب أوسع انتشارًا، ولأن ما يكتب يكون أقوى وأمتن، لأن الأشياء المترجلة دائمًا نمر بها

(١) ذكره الثعالبي ولم ينسبه في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٣١، نشر دار المعارف، القاهرة.

سريعاً لضيق الوقت، فأرجو أن يوفقني الله تعالى لإخراج هذا الكتاب عن قريب إن شاء الله.

توزيع التركات العينية:

السؤال الرابع: الإنسان بعد مماته توزع تركته، ولكن بعض الورثة لا يوزعون التركات العينية كالعقارات مثلاً، وإنما يقسمون أجرة العقار فيما بينهم، فهل هذا جائز؟

الجواب: إذا اتفق الورثة على أن يبقى العقار بينهم مشاعاً غير مقسم، بحيث يكون معروفاً نصيب كل واحد منهم فيه وفق أحكام الميراث فهذا جائز، لأنَّ العقار ربما لا يقبل القسمة العينية، كأن يكون نصيب الواحد لا يكفي أن يعيش فيه هو وأسرته، فمن الممكن أن يعيش فيه واحد منهم أو اثنين ويعطوا الباقي نصيبهم مآلاً، أو يتم تأجير البيت وتقسم قيمة الإيجار على الورثة بحسب نسبة كل واحد منهم، فهذا أمر لا بأس به، وليس فيه مخالفة شرعية.

بل إنَّ هناك مَنْ يكره هذه القسمة العينية إذا كانت ستضر بالورثة، ففي هذه الحالة لا يحسن القسمة، فإما أن يأخذ العقار واحد منهم ويعطي الباقي حقهم منه مآلاً حسب نصيبه، أو أن يؤجر العقار ويقسم ريعه على حسب نصيب كل منهم في الميراث كما قلنا، ويبقى الجميع مشتركين في الأصل، فهذا هو الأولى وهو الذي ينبغي أن يكون بالنسبة للمسلمين بعضهم مع بعض، أمّا ما يقبل التقسيم يقسم ويوزع.

بيع النقود الورقية:

السؤال الخامس: هل يجوز بيع الدولار بغيره من العملات بالأجل، وأخذ زيادة عن سعره الحالي، هل يعتبر هذا مثل بيع البضائع الأخرى بالأجل؟

الجواب: لا يجوز هذا، وقد سئلت منذ خمسة عشر عامًا في مصر عن شخص يقول لآخر يقترض منه: إذا كان الدولار الآن بثمانية وستين قرشًا، فأنا سأخذه وأعطيك إياه بعد ستة أشهر بثمانين قرشًا مثلًا، ظنًا منه أن هذا مثل بيع السلم أو نحو ذلك؟ وهذا خطأ، لأنّ النقود لها أحكام الصرف في الإسلام، كما جاء في الحديث: «إذا اختلف الصّنفان فبيعوا واشتروا كيف شئتم إذا كان يدا بيد»^(١). وجاء في الحديث عن النبيّ من قوله ﷺ جوابًا لابن عمر لمّا سأله عن أخذه الدنانير بالدراهم، والدراهم بالدنانير في البيع: «إذا كان ذلك من صَرَفِ يَوْمِكِما وافترقتما، وليس بينكما شيءٌ فلا بأس»^(٢). أي ينبغي يكون بسعر اليوم، وتنصرفوا وتنهوا القضية، أمّا تعليقها وتأجيلها فهذا ممنوع، فمعاملة النقود الورقية مثل السلع والبضائع لا تجوز، لأنّها أثمان، والأثمان هي التي تُقَوِّمُ بها الأشياء، فكيف تصبح هي نفسها سلعة؟ هذا لا ينبغي.

للأسف بعض الناس اليوم يقول: هذه النقود الورقية المتداولة ليست هي النقود الشرعيّة، لأنّ النقود الشرعيّة هي الذهب والفضة. لا، فالواقع أنّ هذه بعد أن اعتمدتها السلطات الشرعية للتبادل، وللتقويم والادخار، وأصبحت هي النقود المعتمدة، وصار الإنسان يدفعها ثمنًا، ويستحل بها المبيع، ويدفعها أجرة، ويستحل بها عَرَقُ الأجير، ويدفعها مهرًا فيستحل بها الزوجة، ويدفعها دية فيعوض بها عن دم المقتول إلى آخره، حتّى إنّ هؤلاء الناس الذين يقولون ما لا يعلمون قالوا: إنّ هذه الأموال لا يحرم

(١) رواه مسلم في المساقاة (١٥٨٧)، عن عبادة بن الصامت.

(٢) رواه أحمد (٦٢٣٩)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود (٣٣٥٤)، والنسائي (٤٥٨٢)، والحاكم (٤٤/٢)، وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. جمعهم في البيوع. عن ابن

عمر.

فيها الربا، ولا تجب فيها الزكاة. ومقتضى هذا الكلام: أنَّ أحدًا لو كان لديه مثلاً مائة ألف درهم، فسرقه أحد منه، أو أخذه منه عنوة أنَّه لا يعاقب هذا السارق أو الناهب، وهذا غير صحيح، فالقائلون بهذا الكلام مخطئون، وكلامهم لا يليق، فالنقود الورقية هي النقود المعتمدة، وينبغي أن تُعامل معاملة النقدين اللذين عُرفا في زمن البعثة، وهما الذهب والفضة، لهذا تجب الزكاة في النقود الورقية يقينا، وتجري فيها أحكام الربا.

إعطاء الغارمين من الزكاة:

السؤال السادس: هناك موظف يبلغ راتبه أربعة آلاف شهريًا، ويقوم ببناء بيته، وهو عليه دين، وبعدها سيجمع مهرًا ليتزوج، وهذا يجعله مدينًا فترة حتى يُسدّد ما عليه، فهل يستحق أن يأخذ من الزكاة؟

الجواب: في أحد مصارف الزكاة الثمانية سهم اسمه: الغارمين. والغارم هو المدين، هناك مَنْ يكون مدينًا وليس عنده مورد يستطيع أن يقضي به دينه، هذا يسمى الغارم لنفسه، وهناك الغارم لمصلحة المجتمع، الغارم لنفسه يجوز أن يُعطى من الزكاة إذا كان غُرمه ودينه في غير معصية ولا سَفَه، فلا يجوز أن نعطي من الزكاة رجلًا يريد أن يشتري سيارة مرسيدس أغلى موديل، لأنَّ هذا سَفَه، وخاصة إذا كان لا يملك المال لشراء هذه السيارة، فليس من الحكمة أن يستدين ولا يستطيع السداد ويذهب ليأخذ من الزكاة، فهذا لا يجوز له الأخذ من الزكاة، الزكاة تذهب للفقراء الذين سيموتون من الجوع في أفريقيا ومن يحتاجون.

أمَّا الزواج فلا مانع من إعطائه من الزكاة لأجل الزواج، ولكن أن يقوم بعمل حفل الزواج في «الشيراتون» أو «الهيلتون»، ويبذر ويرسل



لمنزل العروسة خمسين ذبيحة، ويعمل ما يسمى «الدزة»، ويدخل الناس في المفاخرة والمكاثرة والرياء الاجتماعي ثم يقولون: نريد من الزكاة. هذا لا يجوز، لأننا عندما نعطي هذا من الزكاة، فإننا نحرم الفقراء والمساكين حقوقهم، وهم أولى بذلك، لأن الفقراء قد يهلكون من الجوع ويئنون منه أنين الملسوع، فلا بد أن ننظر إلى الأولويات في هذه الأمور.

البيع بالصفة:

السؤال السابع: سائل يقول عندي معرض ويأتيني المشترون، فيشاهدوا نموذجًا معروضًا للبضاعة التي أضعها في المخزن، فأعطيتهم سعرًا بعد التعرف عليها فيرضون ويشتررون، فهل هذا جائز؟

الجواب: يجوز البيع بهذا، لأن الفقهاء يقولون بجواز البيع بالصفة، وهم قد شاهدوا السلعة في المعرض، ويأخذون مثلها من المخزن، بشرط أن يكون لهم خيار الرؤية كذلك عند الاستلام، فإن وجدوا الشيء مطابقًا للمواصفات استلموه، وإلا فلهم الخيار، والبيع لا يتم تمامًا إلا عند الاستلام والتسلم.

الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية:

السؤال الثامن: كنتم من المؤسسين للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، فما دورها الآن، وما الأعمال التي قامت بها في الفترة الماضية؟

الجواب: الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية هي الهيئة التي وفقنا الله تبارك وتعالى لتأسيسها ردًا على تلك المحاولات الجهنمية التنصيرية التي تريد تنصير المجتمع المسلم، وتنصير المسلمين في العالم، حينما قرأنا نبأ أولئك المبشرين الذين اجتمعوا في ولاية كلورادو سنة ١٩٧٨م

في أمريكا، وكانوا حوالي مائة وخمسين مُبَشِّرًا من كبار المبشرين، وقدموا أربعين دراسة عن أحوال المسلمين في العالم مقارنة بالأوضاع النصرانية وانتشارها، وكان هدف هذا المؤتمر هو العمل على تنصير المسلمين في العالم، وهو العنوان الذي اجتمعوا من أجله، وانتهت هذه الدراسات إلى قرارات بعضها سري، وبعضها علني، ومن القرارات العلنية أنهم أنشؤوا معهدًا يسمّى «معهد زويمر»، وقد كان «زويمر» أحد عتاة المبشرين في البحرين، وكان على رأس المبشرين في أوائل هذا القرن، ورصدوا لهذا ألف مليون دولار لتنصير المسلمين في العالم، وبدؤوا فعلاً في الحملة، وخاصة في البلاد التي فيها أقليات وجاليات في آسيا وأفريقيا.

وعندما قرأنا ذلك قلنا: لماذا نقف صامتين ومكتوفي الأيدي أمام هذا الغزو التنصيري؟ وقلنا: نحن قادرون على أن نرصد كما رصد أولئك القوم، هم رصدوا ألف مليون دولار لتنصير المسلمين، ونحن قادرون على أن نرصد ألف مليون دولار لحماية المسلمين، لإنقاذ الوجود الإسلامي، وليس هذا بكثير على المسلمين، لأنَّ المسلمين عددهم في العالم أكثر من ألف مليون، فلو أنَّ كل مسلم في المتوسط دفع دولاراً واحداً نستطيع أن نجمع الألف مليون، لو استطعنا أن نصل إلى كلِّ مسلم ودفع كل واحد دولاراً، وبالطبع من الممكن أن يدفع واحد دولاراً ويدفع آخر عشرة، وآخر يدفع مائة وآخر يدفع مليوناً، وأنا أول ما ناديت بهذه الفكرة في الكويت تبرع بالفعل أحد إخواننا بمليون دولار، وهمس في أذني قائلاً: أنا سأبدأ بالتبرع لهذا المشروع بمليون دولار، ولكن لا تذكر اسمي. ولم نذكر اسمه حينها، ولكن عُرف اسمه بعد ذلك، وهو الأخ المحسن الكبير - مدَّ الله في عمره، وبارك فيه، وفي

ماله - أبو بدر عبد الله المطوع، رئيس جمعية الإصلاح في الكويت، تبرع بمليون دولار، ثم تبرع بعد ذلك بعمارتين، وقفهما لهذا المشروع.

وبدأنا أيامها في الحقيقة في الإعداد لهذا الأمر، وبدأنا في اختيار الأشخاص الذين ستتكون منهم الجمعية التأسيسية، وإقرار النظام الأساسي للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، وتعديل هذا النظام، ثم اجتمعنا منذ مدة - وكان معنا الأخ أبو عيسى - وأقررنا النظام الأساسي، وكان لا بدّ أن يصدر قانون في الكويت للهيئة، وكنا من قبل قد اتفقنا أن تكون الكويت هي بلد المقر للهيئة، وطبعًا لكي يكون للهيئة الصفة العالمية كان لا بدّ أن يصدر بها قانون، فقالوا نجعله تبعًا لوزارة الشؤون الاجتماعية، ولكن الهيئة ليست محلية حتّى تكون تبعًا لوزارة الشؤون الاجتماعية، فلا بدّ أن يصدر بها قانون، وفي مجلس الأمة حمل الإسلاميون مقترح القانون للمجلس، وكانوا قد وجدوا عقبات من العلمانيين والماركسيين حيث عملوا ضجة كبيرة، ولكن بعد بيان أعضاء مجلس الأمة من الإسلاميين لأهمية الهيئة على المستوى المحلي والعالمي الإسلامي، وفي مجلس الأمة أخذ مشروع القانون ما يشبه الإجماع من المجلس ووافقوا عليه، وبعدها بقليل تم حل مجلس الأمة ولكن كان ذلك بعد أن تمّت الموافقة على القانون والحمد لله رب العالمين، فأصبحت الهيئة هناك قد أخذت وضعها القانوني، وهي في خلال هذه الفترة - قبل أن نقوم بحملة التبرعات - كانت قد قامت بعدة مشروعات كبيرة، وكان لها دور إزاء المجاعة في أفريقيا، وبعثت بمعونات، وفتحت أبوابًا للتبرعات، وكان لها مندوبون، وكان لها أيضًا دور في أفغانستان، قامت بأدوار ودراسات عدة وتحضيرات جيدة، ونحن منتظرون أن نجتمع في جمعية تأسيسية مرة أخرى لنضع الخطة لحملة

تبرعات كبيرة، ولكن تعرفون الآن أنّ الكويت تستعد لمؤتمر القمة الإسلامي، فقبلها بأشهر لا يسمح بأي اجتماع حتّى يمر هذا المؤتمر، فإن شاء الله الدور دوركم في المستقبل، لأنني كما أرى أنّ الأمر ليس أمر مجموعة تقوم بهذا الشيء، ولكن على كل مسلم أن يقوم بدوره.

ومن الأشياء التي سررت بها، أنّ أحد الإخوة أرسل لي في البرنامج في إذاعة قطر رسالة، حيث كنا قد رفعنا شعارًا يقول: ادفع دولارًا تنقذ مسلمًا. كان اليهود في الأربعينيات عندهم شعار يقول: ادفع دولارًا تقتل عربيًا. فنحن قلنا: ادفع دولارًا تنقذ مسلمًا. فبعض الناس أرسل لي رسالة فيها دولار، كأنه يقول: أنا ألبى النداء، وما طالبتموني به قد نفذته وعملته. فأنا سعدت جدًا بهذا، فيا ليت الدعوة تصل إلى كل مسلم، ويلبي الجميع النداء، ويدفعون بعد ذلك ما يشاؤون، فعندما نصل إلى المسلم العادي في قريته، وفي زقاقه، وفي حارته، ويدفع هذا الدولار نكون بذلك قد نجحنا.

طبعًا هذا العمل دائم ومستمر، ويمكن أن نظل مدة حتّى نجمع هذا المبلغ الذي نريده، لأنّ الفكرة أننا لا نجمع المال لننفقه، ولكن الفكرة أننا نجمع المال لنستثمره، وننفق من عائدته، نحن نريد أن نجمع ألف مليون دولار نشغلها ونوظفها، ومن فوائد ذلك أنّ هذا سيوظف عددًا كبيرًا من المسلمين، قد نذهب إلى بلد فنقيم فيها مصنعًا للصابون، وبلد نشي فيها مطبعة، وبلد نقيم فيها مدرسة خاصّة، وبلد نعمل فيها مشغلًا للبنات، إلى آخره، فنشغل بذلك أعدادًا كبيرة من المسلمين ونستثمر الطاقات الإسلامية، ومن ناحية أخرى نوفر عائداً، فلو جاء العائد من الألف مليون مائة مليون، ننفق المائة مليون ويبقى رأس المال سالمًا،

هذه هي الفكرة الأساسية في الموضوع، طبعاً هناك بجوار هذا زكوات وصدقات وأشياء للإنفاق، لكن الفكرة الأساسية أننا نريد مالا للاستثمار، هذا هو الهدف، وأملنا في الله كبير أن ننجح في هذا، وإنَّ مع اليوم غداً، وإنَّ غداً لناظره قريب إن شاء الله.

دعوة لدعم الوجود الإسلامي في الغرب:

السؤال التاسع: بمناسبة ذكر التبشير، هنا وفد من المركز الإسلامي من ألمانيا الغربية يزور الدولة ليجمع التبرعات والصدقات للمساعدة في تلبية حاجات المسلمين المحتاجين ونشر الدعوة، فهل لفضيلتكم كلمة في ذلك؟

الجواب: أنا أعرف الوضع الذي يعانيه الإخوة هناك في ألمانيا، فهناك مركز إسلامي، وهناك مدرسة إسلامية، استطاع المسلمون أن ينتزعوا حقهم في هذا وقيموا مدرسة إسلامية تُعلِّم الإسلام في هذه البلاد، أنتم تعرفون أن في ألمانيا جاليات إسلامية من الأتراك وغيرهم، وهم يكونون أحياناً بالملايين، في أوروبا الآن - أيها الإخوة - الملايين من المسلمين، وهم يحتاجون إلى دعم، فهذه المكتسبات ينبغي ألا نضيعها، وهذه الأشياء التي ليست تجارية لا بدَّ أن تحتاج إلى دعم، أمَّا المدارس الربحية الخاصة التي تقوم على التجارة وتأخذ مصاريف مرتفعة فهذا شيء آخر، لكن المدارس صاحبة الرسالة تحتاج إلى دعم كبير، وأنا أعتقد أنَّ المدارس والمراكز الإسلامية الآن، خاصَّة المراكز الملتزمة التي يقوم عليها مَنْ نظمَّن إلى دينهم وإلى حُسن رأيهم وحُسن عقيدتهم، هذه تحتاج إلى دعم، وهذا الدعم هو من الجهاد في سبيل الله، من الجهاد بالمال، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

والمعركة - أيها الإخوة - متعددة الجوانب، فإنَّ أعداءنا يحاربونا بكلِّ الوسائل، فمنهم من يحاربنا بالسلاح، ومنهم من يحاربنا بالمدرسة، ومنهم من يحاربنا بالكتاب، ومنهم من يحاربنا بالإعلام، ومنهم من يحاربنا بالتبشير، ومنهم من يحاربنا بالشيوعية، جبهات عديدة، تختلف فيما بينها وتتفق علينا، ولذلك لا بدَّ أن نكون مع إخواننا، وأن نكون - إن شاء الله تعالى - عند حسن ظنهم بنا، فلا يرجعوا إلى أماكنهم إلا وقد حقَّق الله لهم ما يرجون، فليَجِدْ كُلُّ واحد بما تيسَّر وما يستطيع، وإن كان قليلاً، ففي هذا الخير كلُّ الخير إن شاء الله تعالى.

* * *



من نعم الله على الأمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تنزل الخيرات، وبتوفيقه تتحقق الغايات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وأزكى صلوات الله وتسليماته على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة: البشير النذير، والسراج المنير، الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وهداهم به إلى صراط الله المستقيم، وَمَنْ بِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، لِيَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

ورضي الله عن آله وصحبه، الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون، وعمن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيُّها الإخوة والأبناء الأحبة: بالأصالة عن نفسي، ونيابة عن إخوانكم العرب عامة، وفي قطر خاصة، أحييكم أيُّها الإخوة بتحية الإسلام، تحية من عند الله مباركة طيبة، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأشكر للإخوة في هذا المركز الإسلامي، أن أتاحوا لي هذه الفرصة في هذه الأمسية الطيبة؛ من أجل أن أتحدث إلى هذه الوجوه المشرقة بنور

الإسلام، التي لم تجتمع على عرض من أعراض الدنيا، وإنما اجتمعت على كلمة الله، في بيت من بيوت الله، تتلو كتاب الله وتتدارسه، وتدرس سنة نبيه ﷺ، وتتدارس أمر الإسلام، فلا عجب أن تغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، وتحفها الملائكة، ويذكرها الله تعالى في ملاء عنده.

نعمة الإسلام:

إننا نحن المسلمين قد أنعم الله علينا بنعمة كبرى، لا تدانيها نعمة أخرى، أعظم نعمة أنعم الله علينا بها هي نعمة الإسلام، أن الله أكرمنا بهذا الدين، الذي ختم به الأديان، ونسخ به الشرائع، فهو الدين التام الكامل، الذي لا يقبل الله من أحد ديناً غيره، ﴿إِنَّ أَلَدِيكَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقد أتم الله هذا الدين بمحمد ﷺ، وأعظم به النعمة فقال ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

الإسلام بعيد عن التحريف والتبديل:

نحن المسلمين وحدنا الذين نملك ديناً ليس فيه تحريف ولا تبديل، نحن المسلمين وحدنا عندنا دين تتمثل فيه كلمات الله تعالى الهادية للبشر، الوثيقة السماوية الوحيدة التي لم تنلها يد التحريف اللفظي أو المعنوي، ولم تنل منها يد التغيير بأي صورة من الصور، هي وثيقتنا نحن المسلمين.

الوثيقة السماوية الوحيدة التي بقيت كما أنزلها الله تعالى هي القرآن الكريم، فقد تولى الله تعالى حفظه بنفسه حين أكد ذلك في كتابه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].



بهذه المؤكدات المتعددة.. والذي يعرف اللغة العربية يعرف معنى إنَّ، بهذا الحرف المؤكِّد، وبنون المعظم نفسه، إنا نحن، وهذا تأكيد آخر، نزلنا الذكر، وإنا مرة ثانية، وإنا له لحافظون، بهذه اللام، كل هذه المؤكدات توحى بأن الله تعالى قد تولى حفظ هذا الكتاب، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ولهذا مرت القرون ثم القرون، ولم يتغير في القرآن الكريم سورة، أو سطر، أو جملة، أو كلمة من جملة، أو حرف من كلمة، القرآن الكريم بقي، ليس هناك كتاب ديني في الدنيا بقي محفوظًا كما بقي القرآن الكريم.

القرآن محفوظ في الصدور:

هياً الله له من يحفظه في الصدور، ومن يكتبه في السطور، ومن يتعبد بتلاوته. القرآن وحده هو الذي نجد من أبنائه من يحفظه بعشرات الآلاف، الصبيان من المسلمين يحفظون القرآن الكريم، أنا كنت في قطر، وقد امتحنت صغاراً من أبناء الهند وباكستان وبنجلاديش، وغيرها من بلاد العجم، فوجدتهم يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب، لا يخرمون منه حرفاً، ولا يُسقطون منه كلمة، كأنَّ أحدهم شريط مسجل، يحفظ القرآن كله كلمة كلمة، ولو سأله: ما اسمك بالعربية، لا يعرف أن يجيب، وهذا يعني أنَّه حفظ هذا المصحف وهو لا يعلم معنى كلمة واحدة بالعربية! أي إعجاز أعظم من هذا الإعجاز؟!

اسأل أي قسيس أو كاهن، هل تحفظ التوراة، هل تحفظ الإنجيل، هل تحفظ العهد القديم؟ هل تحفظ العهد الجديد؟ هل تحفظ الكتاب المقدس؟ هل في استطاعة أعظم قسيس، أو أعظم أسقف، أو كردينال أن يحفظ صفحات معدودة من التوراة أو الإنجيل؟ لا أظن ذلك بإمكانه،

أمّا أطفال المسلمين فيحفظون القرآن الكريم كله عن ظهر قلب، وهذه إحدى روائع الإعجاز لهذا الدين العظيم!

لقد لفت نظري وأنا أزور بنجلاديش منذ سنوات، أنني زرت مدرسة إسلامية هناك - يجلس طلابها على التراب - فوجدت بها صبيًا عمره أقل من تسع سنوات، يحفظ القرآن الكريم كله. امتحنته في «الطواسين» و«الحواميم» والمتشابهات في القرآن؛ فلم يخطئ في كلمة، وهو صبي دون التاسعة من العمر، وليس من العرب، ولا في بلاد العرب. علام يدل هذا؟ ألا يدل على تيسير الله هذا الكتاب للحفظ؟ ولذلك ظل القرآن الكريم وسوف يظل محفوظًا في صدور الناس يتلقونه جيلا بعد جيل إلى قيام الساعة.

ولذلك نحن المسلمين وحدنا دون غيرنا نملك كتابًا سماويًا يمثل كلمات الله الخالصة، غير مشوبة بأوهام البشر، ولا بأغيار البشر، ولا بتحريف البشر، كتاب الله، ﴿كَتَبَ أَحْكَمَ أَيْنَهُ ثُمَّ فَصَّلَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]. نحن المسلمين وحدنا الذين نملك هذه الوثيقة السماوية، فعلينا أن نعتر بقرآننا، وأن نعتر بإسلامنا.

القرآن محفوظ في السطور:

أجل أيُّها الإخوة: نحن المسلمين وحدنا الذين نملك الكتاب الإلهي الذي لم يتغير ولم يتبدل، لم يتبدل منه حرف ولا كلمة، بقي محفوظًا في الصدور كما أنزل، وبقي مكتوبًا في المصاحف منذ عهد عثمان إلى اليوم، لم يجرؤ أحد أن يزيد فيه أو ينقص، هناك مائة وأربعة عشر سورة في القرآن الكريم، كلها بدأت بالبسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] إلا سورة واحدة، لم تبدأ بالبسملة، هي سورة براءة، سورة التوبة، هل فكّر

أحد في أن يقول: نضع البسملة في هذه السورة كغيرها من بقية السور؟ لا، بقيت هذه السورة وحدها دون بسملة؛ لأن أحداً لا يملك أن يزيد في هذا القرآن أو ينقص منه، بل بقي القرآن مكتوباً بالرسم العثماني، رغم تغير قواعد الرسم وقواعد الإملاء من عصر إلى عصر، ولكن في المصحف، الذين يعرفون القراءة العربية والخط العربي، يعرفون أن كلمة الربا في قول الله تعالى: ﴿ءَامِنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ [آل عمران: ١٣٠]، ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، مكتوبة في القرآن الربوا (راء باء واو ألف)، وفي الرسم العادي الربا (راء باء ألف)، هذا مقتضى القواعد، وكذلك كتب في القرآن بالرسم العثماني ﴿حَفِظُوا عَلَى الصُّكُوتِ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، (لام واو وتاء مربوطة) بقي القرآن كما هو برسمه؛ ولم يملك أحد، ولن يملك أن يغير هذا الرسم؛ لأنه هذا كتاب محفوظ.

القرآن محفوظ في طرق تلاوته:

بل بقي القرآن الكريم بغنّه ومده، بطريق إلقائه كما كان يلقيه النبي ﷺ للصحابة، طريقة القراءة والتلاوة، هناك علم مخصوص للمحافظة على طريقة قراءة القرآن الكريم، اسمه علم التجويد، هذا الحرف يُغْنِ، وهذا الحرف يُدْغَم، إدغامًا بغنة، أو إدغامًا بغير غنة، وهذا الحرف يظهر، وهذا الحرف يُخْفَى، وألفت في ذلك رسائل، ونظم في ذلك شعر، كل هذا ليبقى القرآن كما أنزل، هذا هو كتابنا، نحن المسلمين وحدنا الذين نملك كتابًا سماويًا نزل من عند الله تعالى للبشر، لم يستطع أحد أن يغير فيه أو يبدل.

نحن المسلمين وحدنا نملك هذه الميزة.

القرآن دستور شامل:

وهناك ميزة أخرى، أن هذا القرآن الذي أكرمنا الله تعالى به هو دستور شامل، إنه دستور للدين وللدنيا معاً، إنه منهج حياة متكامل، يحدثك عن العلاقة بينك وبين الله، وعن العلاقة بين الإنسان والإنسان، وعن العلاقة بين الإنسان وأُمته، وعن علاقة الإنسان بالكون، وعن علاقة الإنسان بالحياة، وعن علاقة الإنسان بالدنيا وبالأخرة، كل هذا يحدثك إياه القرآن.

إذا أردت أن تعرف ماذا يجب عليك نحو الله، تجده في القرآن، ماذا يجب عليك نحو زوجتك وأولادك تجده في القرآن، ماذا يجب عليك نحو غيرك من غير المسلمين، تجده في القرآن، ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ [المتحنة: ٨، ٩]. يقول ابن عباس: لو ضاع مني عقلٌ لوجدته في كتاب الله^(١)؛ لأنَّ كتاب الله تعالى اشتمل على أصول الهداية في كل خير، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقف حبر الأُمّة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يوماً أمام المرأة يرجل شعره، ويهذب لحيته، ويتجمل في مظهره، فلاحظه نافع مولى عبد الله بن عمر، فقال: ما هذا الذي تصنعه يا ابن عم رسول الله، وإليك يضرب الناس أكباد الإبل؟ - أي: يسافرون إليك من بلاد بعيدة يستفتونك ويتعلمون منك - فقال: وماذا في هذا يا نافع؟ إنني أتجمل

(١) الإتيان في علوم القرآن (٤/٣٠، ٣١).

لامرأتي، كما تتجمل لي امرأتي، وإنني أجد هذا في كتاب الله. قال نافع: وأين تجد هذا في كتاب الله؟! قال: في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]^(١). فكما أن من الواجب على المرأة: أن تتجمل لزوجها، فإن لها من الحق: أن يتجمل لها زوجها، وهذا مقتضى القسط والمعروف، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

كان الصحابة رضوان الله عليهم يجدون في القرآن كل شيء، كما قال ابن عباس رضي الله عنه: لو ضاع مني عقل لوجدته في كتاب الله.

فالقرآن الكريم كتاب متكامل في دستور الهداية، وضع الله تعالى فيه أصول الحياة الطيبة، وأصول الدين الإسلامي، والسنة مبينة لهذا القرآن ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

أيها الإخوة، إن الله أكرمنا نحن المسلمين بأن أعطانا كتاب الخلود: القرآن الكريم، الكتاب الذي ﴿أُحْكِمْتَ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] الكتاب الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، الكتاب: الذي نزله الله تعالى ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرًى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

رسالة النبي محمد ﷺ:

ولكن الله تبارك وتعالى أضاف إلى هذا الكتاب إكرامًا آخر، أكرمنا بنبي هو أعظم أنبيائه، صلوات الله عليه وسلامه، أعظم الأنبياء هو النبي محمد ﷺ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، وصنعه على عينه؛ ليكون رحمة للعالمين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] بعثه

(١) رواه ابن أبي شيبة في الطلاق (١٩٦٠٨).

برسالة عامة خالدة، عبر عنها الإمام حسن البنا رَحِمَهُ اللهُ عندما قال: إِنَّهَا الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة^(١).

امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن؛ لأنها رسالة النبيين من عهد آدم إلى محمد ﷺ، وهو خاتم النبيين وآخرهم. وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم؛ لأنها رسالة الأحمر والأسود، والعرب والعجم، والشرق والغرب. وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة؛ لأنها جاءت رسالة للحياة كلها.

فهي رسالة الزمن كله، ورسالة العالم كله، ورسالة الإنسان كله، الإنسان روحاً، والإنسان جسماً، والإنسان عقلاً، والإنسان عاطفة، والإنسان فرداً، والإنسان عضواً في أسرة، والإنسان عضواً في مجتمع، والإنسان طفلاً، والإنسان شاباً، والإنسان كهلاً، والإنسان شيخاً، والإنسان قبل أن يولد، والإنسان بعد أن يموت؛ لأن في هذه الرسالة أحكاماً تتعلق بالجنيين في بطن أمه، له أحكام تخصه في الشريعة الإسلامية، وهناك أحكام تتعلق بالميت حين يحتضر، وبالميت بعد أن يموت، من وجوب غسله وتكفينه، والصلاة عليه، ودفنه في مقابر المسلمين، وتوزيع تركته، وسداد ديونه، وتنفيذ وصاياه في غير معصية. فهي رسالة الإنسان كله، الإنسان محكوماً والإنسان حاكماً، الإنسان غنياً والإنسان فقيراً.

(١) مقال من وحي حراء للإمام حسن البنا، جريدة الإخوان المسلمون اليومية، السنة الأولى، العدد (١٦٨)، ص١، بتاريخ ٢٧ ذو الحجة ١٣٦٥هـ - ٢١ نوفمبر ١٩٤٦م، وانظر: سلسلة من تراث الإمام لجمعة أمين عبد العزيز (١٨١/٥).



كان خُلُقُه القرآن:

محمد ﷺ بعثه الله تعالى بهذه الرسالة، أكرمنا الله بالقرآن أولاً، وأكرمنا بمن أنزل عليه القرآن ثانياً، أكرمنا بمحمد ﷺ، الذي وصفه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وقال هو عن نفسه: «إِنَّمَا بَعَثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١) وحينما سُئِلَتْ زوجته عائشة رضي الله عنها عن خلقه، أجابت بهذا الجواب الجامع: كان خُلُقُه القرآن^(٢). إذا أرت أن تعرف أخلاقه ﷺ فافتح المصحف، واقرأ آياته، تعرف أنه ﷺ نموذج مجسم للقرآن الكريم، كان خلقه القرآن.

إِنَّ اللَّهَ وَجَّلَ أكرمنا بالقرآن، وأكرمنا بمن تجسّد فيه القرآن، وكان قرآنًا حيًّا يسعى بين الناس على قدميه، وهو محمد رسول الله ﷺ، الذي ما رأت البشرية مثله.

بشرية النبي ﷺ:

كان ﷺ بشراً من الناس، لم يدّع أنه إله، ولا أنه ابن إله، ولا أنه ثلث إله، ولكن قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] لم يرض لأحد أن يسجد له، ولم يرض لأحد أن يبالغ في مدحه، لمّا أراد بعض الناس أن يبالغوا بمدحه قال لهم: «يا أيها الناس عليكم بتقواكم، لا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله: عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله»^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ١٢٧.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١)، عن عائشة.

(٣) رواه أحمد (١٢٥٥١)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٠٩٧)، عن أنس.

وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، وقولوا: عبد الله ورسوله»^(١).

ولهذا علمنا ﷺ أن نقول في التشهد في الصلاة: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»^(٢)، فهو يتشرف بالعبودية لله، ولهذا بلغنا عن ربه في أعلى مقاماته أنه عبد لله، في الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وفي الوحي: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] في التشریف بالقرآن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، وفي الدعوة إلى الله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]. عبد الله، لم يدع شيئاً أكثر من العبودية.

تواضعه ﷺ :

لَمَّا دخل عليه رجل ارتعدت فرائصه، فقال له ﷺ: «هون عليك، فلست بمَلِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة»^(٣). لست ملكاً من الملوك الجبارين.

كان ﷺ يجلس مع أصحابه كأنه واحد منهم، لا يميزه الغريب، عندما يدخل عليه أحد لا يعرفه. يسأل عنه ويقول: أيكم محمد^(٤)؟ أيكم ابن عبد المطلب؟ لا يتميز بزي خاص، ولا بحرس يقف من حوله،

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٣١)، ومسلم في الصلاة (٤٠٢)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه ابن ماجه في الأُطعمة (٣٣١٢)، والحاكم في المغازي والسير (٤٧/٣) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٦٧٧)، عن أبي مسعود.

(٤) رواه البخاري في العلم (٦٣)، عن أنس بن مالك.

ولا بصولجان، ولا بهيل ولا هيلمان، واحد من الناس، يجلس معهم، يشاركهم في أعمالهم.

وأبى في غزوة بدر أن يركب وصاحبه يمشيان - وقد عرضا عليه ذلك راضيين - قائلاً: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»^(١). أنا في حاجة إلى أجر الله ومثوبته، ولست عاجزاً عن المشي، أمشي كما تمشون!

هذه أخلاق محمد ﷺ.. لم يأخذ من الدنيا شيئاً، كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويطحن بالرحى مع الجارية والغلام، كان ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبه، ودخل عليه عمر يوماً، فرأى الحصير قد أثر في جنبه، فقال: أنت نبي الله وصفوته، وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير، فقال: «أولئك عجلت لهم طبياتهم»^(٢) وهي وشيكة الانقطاع، وإنا قوم أخرت لنا طبياتنا في آخرتنا.

وكان ﷺ يقول: «مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، - استظل وقت القيلولة - ثم راح وتركها»^(٣) أي: إن الدنيا مقليل، محطة سفر، محطة راحة في الطريق، والغاية هي الآخرة، هكذا كان ﷺ.. لم يأخذ من الدنيا شيئاً، ولم يترك لأهله ثروة، هكذا كان ﷺ.

(١) رواه أحمد (٣٩٠١)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والنسائي في الكبرى (٨٧٥٦)، وابن حبان (٤٧٣٣)، كلاهما في السير، والحاكم في الجهاد (٩١/٢)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٢٥٧)، عن ابن مسعود.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٦٨)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩)، عن عمر.

(٣) رواه أحمد (٣٧٠٩)، وقال مخرّجوه: صحيح. والترمذي (٢٣٧٧)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤١٠٩)، كلاهما في الزهد.

إِنَّ اللَّهَ كَمَا أَكْرَمَنَا بِالْقُرْآنِ، وَأَكْرَمَنَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَنْ بِهِ عَلَيْنَا كَمَا قَالَ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فهذه نعمة أخرى تضاف إلى نعمة القرآن العظيم.

المستقبل لهذا الدين:

إننا نعتقد ونؤمن أنَّ المستقبل لهذا الإسلام، وأن الإسلام مكتوب له النصر إن شاء الله، فالمسلمون لا يمكن أن يسودوا ويعزوا، وتقوى شوكتهم، وتتوحد كلمتهم، إلا بالإسلام، هذه حقيقة لا ريب فيها، هذه الأمة مرتبطة بالإسلام، وجودها بالإسلام، قيادتها بالإسلام، وعزتها بالإسلام، هي بالإسلام كل شيء، وبدون الإسلام لا شيء، هذا ما أثبتته التاريخ، وهذا ما يثبته الواقع، ولقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلمة ينبغي أن نسجلها ونعيها ولا ننساها، قال لأبي عبيدة يومًا؛ حينما أراد أن يذهب إلى الشام، وقابل في طريقه مخاضة، فكشف عن ساقيه، وأخذ يخوض في الماء والطين، فقال: يا أمير المؤمنين، لو فعلت غير هذا! جئت فوق ناقتك، وتفعل هذا أمام الناس الذين يحبون المظاهر، فقال لأبي عبيدة: إننا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام؛ فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله^(١).

قال له: يا أبا عبيدة، لا ينبغي أن نخدعنا المظاهر، نحن كنا أذل قوم، لم نكن في مثل قوة كسرى ولا قيصر، ولم يكن عندنا حضارة كفارس

(١) سبق تخريجه ص ٣٢.

والروم، ولكن أعزنا الله بالإسلام، فمهما نبتغي ونطلب العزة بغير الإسلام أذلنا الله، فهذه حقيقة دائمة.

الإسلام يوحد الأمة:

أمة الإسلام إذا التمسست العزة بغير الإسلام أذلها الله، وإذا التمسست القوة بغير الإسلام، أضعفها الله، وإذا التمسست الوحدة تحت راية غير راية الإسلام، مزقها الله، لا يمكن أن توحد هذه الأمة رايةً جاهلية، وراية قومية، وراية وطنية، وراية إقليمية، وراية اشتراكية، وراية ديمقراطية، لا يمكن؛ لأنّ القوميات مختلفة وتتعارض، والأوطان كثيرة وتتعدد، والاشتراكيات مختلفة، واليمين واليسار درجات، يمين اليمين، ويسار اليمين، ويسار اليسار، ويمين اليسار، ووسط اليمين، ووسط اليسار، وأشياء لا تنتهي، ولهذا لا يمكن أن تجتمع الأمة إلا على الإسلام الصحيح، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] المسلمون لا يمكن أن يسودوا ويعزوا وينتصروا إلا بالإسلام، هذه حقيقة يجب أن نعرفها، ونؤمن بها، وندعو الناس إليها.

المسلمون في أشد الحاجة إلى الإسلام؛ ليسعدوا ويعزوا، وينتصروا ويتحدوا، ثم بعد ذلك ليفوزوا برضوان الله تعالى قبل كل شيء.

الإسلام سفينة الإنقاذ للعالم:

والعالم بعد ذلك كله محتاج إلى الإسلام أيضًا، العالم غربه وشرقيه، في حاجة إلى الإسلام، الذين وصلوا إلى القمر، وغزوا الفضاء، وصنعوا القنبلة الذرية، وأنشؤوا الإنسان الآلي، وصنعوا الكمبيوتر، هؤلاء في أشد

الحاجة إلى الإسلام، إنهم وصلوا إلى القمر، ولكنهم لم يستطيعوا أن يسعدوا الإنسان على سطح الأرض، الإنسان الذي حطّم الذرّة وغزا الفضاء شقي وتعيس، لم يحقق السعادة لنفسه، إنّه استطاع أن يسخر الطبيعة، وأن ينتصر عليها، ولكنّه لم ينتصر على أهواء نفسه، لم ينتصر على الصراع الداخلي، لا زالت أهواؤه تنتصر عليه، ولا زال القلق يحطمه!

إفلاس الحضارة الحديثة:

الحضارة الحديثة حضارة القلق المرضي، والعيادات النفسية في أمريكا بالآلاف، لأنّ الناس يعيشون في قلق، لا يشعرون بالطمأنينة، فالسعادة ليست أن تملك الأشياء، السعادة هاهنا، تنبع من داخلك ولا تستورد من خارجك، السعادة سكينه النفس، والسكينه بنت الإيمان، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. ولا طمأنينة بغير يقين ولا إيمان، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

الحضارة الحديثة خاوية العروش، ليس فيها هذه المعاني الربانية، التي تربط الناس بهذا الأساس المتين، وتشده إلى ركن ركين، وإلى حصن حصين: حصن الإيمان بالله والثقة به، واللجوء إليه في الشدائد.

الحضارة في حاجة إلى زناد روحي، وإلى زناد إيماني، ولن تجد هذا الزناد في فلسفات المادية: في الشيوعية أو في غيرها من فلسفات المادة التي تنكر ما وراء الطبيعة، والتي تنكر أن يكون لهذا الكون إله، وأنّ لهذا الإنسان روحًا، التي تقول: ليس صحيحًا أنّ الله خلق الإنسان، بل الصحيح أنّ الإنسان هو الذي خلق الله! هذه الفلسفات المادية الجاحدة، لا يمكن أن يجد فيها الإنسان كفاءً لنفسه.



المسيحية لا تملك العلاج:

كذلك المسيحية لا يمكن أن يكون فيها كفاء، المسيحية المحرفة، التي لا تعترف بالعقل، التي تجعل الإيمان شيئاً وراء العقل، تقول: اعتقد وأنت أعمى، أغمض عينيك ثم اتبعني، آمن ثم اعلم، تجعل الإنسان عبداً للكهنة وأسيراً للقسيس، هذه الديانة لا يمكن أن تنفع الإنسان في القرن العشرين، الإنسان في هذا القرن والذي يقف على مشارف القرن الحادي والعشرين، هذا الإنسان يحتاج إلى رسالة تجمع بين العقل والقلب، تمزج ما بين المادة والروح، تقول: إنَّ لبدنك عليك حقاً، وإنَّ لربك عليك حقاً، وإنَّ لأهلك عليك حقاً، وإنَّ لمجتمعك عليك حقاً، فأعطِ كل ذي حق حقه.. رسالة التوازن.

العالم في حاجة إلى الإسلام:

وهذه الرسالة لا توجد إلا في الإسلام، العالم كله في حاجة إلى الإسلام، العالم كله يتخبط روحياً واجتماعياً وأخلاقياً، الانهيار الأخلاقي، التحلل الذي يشكوا منه العالم، الأمراض الخبيثة التي أصبحت ظاهرة عامة، مثل الإيدز وغيره من الأمراض الناتجة عن الشذوذ الجنسي والتحلل الجنسي، هذه الأشياء كلها تشير إلى أنَّ العالم في حاجة إلى شيء جديد.

هذا التفكك الأسري في الغرب، ليس هناك أسرة بمعنى الأسرة، لا يكاد الابن يعرف أباه، ولا يكاد يعرف أمه، بمجرد أن يبلغ الابن والبنت يطلق له حبله على ظهره ثم ينتهي، ولا تكاد أسرة تجتمع، امرأة عجوز ماتت في شقتها حتى تنفخت وتجيّفت، أصبحت جيفة، جاءت الشرطة وكسرت الباب فإذا هي قد فارقت الحياة منذ أيام، كانت في حالة

شيخوخة، سألوا عنها وعرفوا أنَّ لها أبناء وأحفاد، منهم مهندسون وأطباء ومعلمون، ولكنهم تركوها وحدها تلقى مصيرها بهذه الصورة، إنهم لم يعرفوا للأمم حقًا، وأنَّ الجنة تحت أقدام الأمهات، لأنَّها حضارة مادية.

العالم في حاجة إلى رسالة متوازنة، وهذه الرسالة لا توجد إلا في الإسلام، المسلمون في حاجة إلى الإسلام، والعالم كله وراءهم في حاجة إلى الإسلام.

الإسلام ينتصر برجاله:

والإسلام هو دين الغد، هو رسالة المستقبل، ولا بدَّ أن يأتي يوم ينتشر فيه نور هذا الدين، ويتم الله فيه نوره، وعندنا وعد الله ﷻ بذلك ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿[التوبة: ٣٢، ٣٣].

أيها الإخوة: نحن موقنون أنَّ المستقبل للإسلام، ولكن اقتضت سنة الله تعالى أنَّ الحق لا ينتصر وحده، ولكن ينتصر بمن ينصره، لا بدَّ للحق من رجال، ولا بدَّ للإسلام من جنود، والله تعالى يخاطب رسوله ﷺ فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصِيرَةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿[الأنفال: ٦٢] لا بد من المؤمنين، لا ينصر الإسلام بغير المؤمنين، هناك ملائكة يستطيع الله تبارك وتعالى أن ينزلها متى شاء، كما أنزل الملائكة في بدر، وكما أنزل الملائكة في يوم الخندق، وكما أنزل الملائكة في يوم حنين، ولكن الملائكة لا تنزل في فراغ، وإنَّما تنزل على المؤمنين أيضًا، كما قال الله تعالى في غزوة بدر: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ﴿[الأنفال: ١٢].



لا بد أن يوجد الذين آمنوا أولاً حتى تنزل عليهم الملائكة، لا بد أن يكون هناك من يستحق نصر الله، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] لا بد أن يوجد أنصار الله، الذين ينصرون الله، أي: ينصرون دينه، وينصرون دعوته، وينصرون الهدى ودين الحق، الذي بعث به رسوله محمداً ﷺ.

فلا بد من هؤلاء الأنصار، وعليكم أنتم أن تكونوا أنصار الله، وأن تكونوا جنوداً لهذا الحق، وأن تكونوا هؤلاء المؤمنين الذين ينصر الله تعالى بهم، ﴿أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾، والإيمان ليس مجردة كلام يقال، ولا مجرد شعار يرفع، ولا مجرد دعوة تدعى، الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، الإيمان نور يقذفه الله تعالى في القلب، به يُحسن الإنسان الفهم عن ربه، فيفهم الإسلام فهما صحيحاً، ثم يطبقه على نفسه، ثم يدعو إليه غيره، هذه هي المراحل الثلاثة التي لا بد منها.

الوعي بالإسلام وحسن فهمه:

واجبنا نحو الإسلام: أن نحسن الفهم لهذا الدين كما أنزله الله ﷻ على رسوله ﷺ، وكما فهمه الصحابة وتابعوهم بإحسان، قبل أن يدخل على هذا الدين ما دخل من الشوائب، من البدع والاختلافات.

الإسلام الذي نريده، والذي ينتصر به المسلمون ويعزون به، الإسلام الذي نريد أن ننقذ به الإنسانية من الخرافات والأباطيل، التي نراها عند كثير من المسلمين، وكذلك من الجمود والتقليد الذي نراه عند كثير من المسلمين، ليس إسلام البدع والمحدثات التي نراها عند كثير من المسلمين، لا، الإسلام إسلام القرآن والسنة، إسلام القرون الأولى: خير القرون.. يوم كان الإسلام إسلاماً، وكان المسلمون مسلمين حقاً، إسلام

الحق والقوة، والعدل والحرية، إسلام الجهاد والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إسلام الوحدة والأخوة والمحبة، إسلام الأمة الواحدة.

هذا الإسلام الذي نريده، وليس الإسلام الذي أساء المسلمون فهمه وتطبيقه في بعض العصور، نريد إسلامًا خالصًا من الشوائب، كاملاً بلا نقصان، خالصًا بلا شركة، متكاملًا بلا تجزئة، هذا هو الإسلام الذي نريد.

العمل بالإسلام:

إذا أردنا أن نتصر، فلا بد أن نحسن الفهم للإسلام، ثم لا بد أن نحسن العمل بالإسلام، الإسلام ليس مجرد كلام بلا عمل، لا بد أن يكون كل واحد منا إسلامًا حيًا، يرى الناس فيه أخلاق الإسلام، وعبادته ومعاملاته؛ مجسدًا في شخص، كما كان أصحاب النبي محمد ﷺ.. كانوا يمثلون الإسلام الحي، نحن نريد صحابة جددًا، نريد صحابة من جديد، ومن هم الصحابة؟ إنهم أناس مثلنا، ولكن الله تعالى ميزهم بالإسلام، فكانوا كما قال الله تعالى ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] هؤلاء هم الصحابة، نحن نريد صحابة جددًا، ويمكن أن يكون لنا مثل فضل كثير من الصحابة، إذا نصرنا الإسلام كما نصروا، وبذلنا في سبيل الله كما بذلوا، واجتمعنا عليه كما اجتمعوا، النبي ﷺ يقول: «طوبى لمن آمن بي ورآني مرة، وطوبى لمن

آمن بي ولم يرني» سبع مرار^(١)، وقال ﷺ في شوق إليكم: «وددت أنا قد رأينا إخواننا». قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد»^(٢).

فنحن إخوان رسول الله ﷺ؛ إذا أحسنا الأخذ عنه، وأحسننا الفهم منه، والعمل بما جاء به، لا بد من حسن فهم للإسلام، يُخرج الإسلام من جمود الجامدين، وينفي عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، كما جاء في بعض الآثار.

العمل للإسلام:

ثم لا بد من العمل بالإسلام، ثم بعد ذلك لا بد من العمل للإسلام، لا يكفي أن تعمل بالإسلام في نفسك، حتى تعمل بنصرة الإسلام، أي تدعو إليه غيرك، أن تجند نفسك لخدمة الإسلام، كما جند الآخرون أنفسهم لخدمة أديانهم.

اليهودية وجدت من يقيم لها دولة في قلب بلاد العرب والمسلمين، وينتزع المسجد الأقصى من بينهم، ويقيم دولة يسميها اسمًا دينيًا: دولة إسرائيل.

والنصرانية تعمل على نشر رسالتها في العالم، حتى إنها تريد أن تنصّر المسلمين في العالم، ورصدت لذلك ألف مليون دولار.

والشيوعية تعمل على نشر نحلته ومذهبها في العالم كله، ومن أجلها يدخل أتباعها السجون، ويتحملون ما يتحملون.

(١) رواه أحمد (١٢٥٧٨)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. عن أنس.

(٢) رواه مسلم في الطهارة (٢٤٩)، وأحمد (٨٨٧٨)، عن أبي هريرة.

كل الديانات والمذاهب والنحل وُجد لها أتباع وجنود، يعملون على نشرها، أفلا يجد الإسلام له رجالاً يدعون إليه ويحملون رسالته؟ ولذلك كان علينا بعد أن نحسن فهم الإسلام، ونحسن العمل به، علينا أن نعمل بالدعوة إليه، وأن نجند أنفسنا دعاء للإسلام.

العمل الجماعي فريضة وضرورة:

ولا يكفي في هذا أن نعمل فرادى متناثرين، لا، إنما لا بد أن نعمل متكئين؛ ولهذا كانت ضرورة الجماعة، لا بد من جماعة إسلامية، لا بد من حركة، لا بد من عمل جماعي منظم، إنما لا نستطيع أن نواجه الكفر آحاداً متفرقين، وهو يواجهنا كتلاً وجماعات منظمة، لا بد أن نواجه الكفر بالقوة المتحدة، بكتلة بشرية، بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

أي هم يوالي بعضهم بعضاً، ويساند بعضهم بعضاً، ويتكلم بعضهم مع بعض، فإذا لم تفعلوا ذلك تكن فتنة في الأرض وفساد كبير؛ لأنه سيكون تجمع في جانب الكفر، وتفرق في جانب الإسلام، تكون هناك كتلة بشرية كافرة، ولا يكون مقابلها إلا آحاد متناثرة من المسلمين؛ ولهذا كان العمل الجماعي ضرورة، العمل الجماعي لخدمة الإسلام فريضة وضرورة.

ومن هنا أيها الإخوة كان عليكم أن تحسنوا الفهم للإسلام، وتحسنوا العمل بالإسلام، وتحسنوا العمل للإسلام، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله، ولا يكون ذلك عن طريق العمل الفردي، بل عن طريق العمل



الجماعي، فالعمل الجماعي هو السبيل الوحيد لخدمة الإسلام في هذا العصر، ويد الله مع الجماعة، وإنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

هذه وصيتي إليكم في هذه الأمسية، وأسأل الله تبارك وتعالى أن يعلي بنا كلمة الإسلام، وأن يرفع بنا راية القرآن، وأن يتقبلنا في جنده الصادقين، وحزبه الغالبين، وأن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين، اللهم آمين.

وصلّ اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام

مقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره، ونُصَلِّي ونُسَلِّم على المبعوث رحمةً للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

(وبعد)

فلقد تعددت وجهات نظر الفلسفات الماديّة والوضعيّة حول خَلْق الإنسان، وغاية وجوده في هذا العالم، وإلى أين يصير بعد هذه الحياة الدُّنيا؟

ونظرًا لأنَّ كل هذه الفلسفات إنّما تنطلق من خلفيّات ثقافيّة واعتقاديّة مختلفة، بعيدة كل البعد عن وحي السماء، فقد ضلّت الطريق وجانبها الصواب.

أمّا الإسلام - الرسالة الخاتمة - فقد تحدّث عن الإنسان - من خلال القرآن والسُّنة - موضحًا، بل مجيبًا على هذه الأسئلة التي حارت فيها عقول أصحاب الفلسفات الماديّة:



من أين أتى الإنسان؟ وكيف أتى؟ ولماذا أتى؟ وما المصير بعد الموت؟ إلى غيرها من الأسئلة.

ولذا نستطيع أن نقول: إنَّ الإسلام قد بيَّن - بما لا يحتاج إلى مزيد - قيمة الإنسان ومكانته في هذا الوجود، كما بيَّن غاية وجوده ومقصد الخالق من خلقه، وما أعظم الفرق بين هذا الإنسان - إنسان الإسلام - والإنسان كما تصوّره الفلسفات الماديّة والوضعيّة.

وصدق الله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].



قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام

للإنسان في الإسلام قيمة كبيرة، ومكانة رفيعة، نوّه بها القرآن الكريم، ونوّهت بها السُّنة النبويّة، وأشاد بها علماء الإسلام في كلّ اختصاص، فالإنسان هو المخلوق الذي كرّمه الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

تحدّث القرآن عن الإنسان وخصائصه ورسالته وأحواله في عشرات، بل مئات من آياته. وحسبنا أنّ أوّل فوج من آيات الوحي الإلهي نزل به الرُّوح الأمين على قلب مُحَمَّدٍ ﷺ - وكانت خمس آيات - لم تغفل شأن الإنسان وعلاقته برّبّه؛ علاقة التّكريم، وعلاقة الهداية والتعليم - واختارت الآيات لفظ «الرّب» لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال، هذه الآيات الأولى في القرآن هي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

والحقّ أنّ القرآن كلّهُ إمّا حديث إلى الإنسان، أو حديث عن الإنسان. حقّاً إنّ الإنسان شيءٌ ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه وحياة جسمه، ولكنّه من حيث رُوحه وكيانه المعنويّ شيءٌ كبير، وهل الإنسان في الحقيقة إلّا ذلك الروح وذلك الكيان المعنوي؟

وقد نُسب إلى الإمام عليٍّ رضي الله عنه قوله يُخاطبُ الإنسان:

دَوَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تُبْصِرُ ودَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تُشْعُرُ
وتَزَعَمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وفِيكَ انْظَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ^(١)

(١) من شعر ينسب لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كما في الديوان المنسوب إليه ص ٧١، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، نشر دار ابن زيدون ومكتبة الكليات الأزهرية.

وَحَقًّا إِنَّ الْإِنْسَانَ - من حيث عمره القصير على الأرض - ذرّة في صحراء الأزمنة البعيدة الضاربة في أغوار القدم، ولكن المؤمنين يوقنون أنّ الموت ليس نهاية الإنسان، إنّهُ مَحْطَّةُ انتقال إلى الأبد الذي لا نهاية له، وإلى دار الخلود، إلى حيث يقال للمؤمنين: ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

مكانة الإنسان من الله:

وفي آيات كثيرة من سورٍ شتّى بيّن القرآن قُربَ الإنسان من الله سبحانه، وقُربَ الله تعالى من الإنسان؛ ذلك القرب القريب هو الذي حطم أسطورة الوسطاء السماصرة المرتزقين بالأديان، الذين جعلوا من أنفسهم «حجابًا» على «أبواب» رحمة الله الواسعة، والله يعلم إنّهم كاذبون. قال الله في القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فالله تعالى - مع علوّه على خلقه - قريبٌ منهم، بل هو معهم أينما كانوا، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

ويؤكد الرسول ﷺ هذا المعنى في أحاديث عن ربه: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منه، وإن تقرب إليّ شبرًا تقربتُ إليه ذراعًا، وإن تقرب إليّ ذراعًا تقربتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(١).

وحتى العصاة المسرفون على أنفسهم ليس بينهم وبين الله تعالى حجاب،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في التوبة (٢٦٧٥)، عن أبي هريرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. فرغم عصيانهم وإسرافهم على أنفسهم لم يحرمهم من شرف انتسابهم إليه، وناداهم: ﴿يَعْبادِي﴾.

مكانة الإنسان في الملائكة الأعلى:

أمّا مكانته هناك في الملائكة الأعلى - عند العوالم الروحية العلوية - فهي مكانة اشرأبت إليها أعناق الملائكة المُقَرَّبِينَ، وتطاولت إليها نفوسهم فما أُنُوها؛ فإنَّ المخلوق الذي اختار الله تعالى له هذه المكانة - خلافة الله في الأرض - هو الإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ويذكر القرآن أنَّ الله تعالى عقد امتحاناً بين آدم والملائكة، ظهر به فضل آدم وتفوقه في مجال العلم والمعرفة، فقد علّمه الله الأسماء كلها، على حين لم يمنح ذلك للملائكة^(١).

هذا وقد أراد الله أن يُكرِّم هذا النوع في شخص الإنسان الأول، ويحتفي به، ويُظهر مكانه في تلك العوالم الروحية، فأمر الملائكة أن تؤدي التحية لهذا الكائن الجديد وتستقبله بانحناء وإجلال وإكبار: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أجمعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [ص: ٧١ - ٧٤].

لقد تمرد إبليس على أمر ربّه بالتحية لهذا الإنسان، ودفعه الحسد والغرور أن أبى واستكبر وكان من الكافرين، واتخذ من الإنسان موقف

(١) انظر: سورة البقرة الآيات (٢١، ٣٢).

التحدّي والعداء، فما كانت عاقبة هذا العدوّ المُبين؟ كانت كما ذكر القرآن: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَچِيمٌ ۖ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٧، ٧٨]. وتلك هي مكانة الإنسان في العوالم الروحية.

مكانة الإنسان في هذا العالم المادي:

أمّا مركز الإنسان في هذا الكون المادي العريض، فهو مركز السيّد المُتصرّف الذي سُخر كل ما في العالم لنفعه ولإصلاح أمره، وكأنّ كلّ شيء في هذا الكون قد «نُسج» من أجله و«فُصل» على «قده» تفصيلاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۖ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤]. وتلك هي مكانة الإنسان في هذا الكون وصلته بما فيه.

وما الذي بوأ الإنسان هذه المكانة السامية؛ وفي الكون أجرام أضخم منه وأكبر؟ إنّه سر القبس الذي هو فيه من نور الله، والنفخة التي فيه من روح الله. تلك النفخة التي جعلته مستعدّاً للخلافة في الأرض، لحمل الأمانة الكبرى - أمانة التكليف والمسؤولية - تلك التي صورها القرآن تصويراً أدبيّاً رائعاً حين قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

هذا الاستعداد في الإنسان هو الذي جعل مصيره بيده، بعد أن يسّر الله له سبل الهداية، وأزاح عنه كلّ الأعذار: ﴿بَلِ الْإِنْسَنُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

ولقد سَمَّا الإسلام بالإنسان فاعترف به كَلِّه، رُوحه وجسده، وعقله وقلبه، وإرادته ووجدانه، وغرائزه الهابطة، وأشواقه الصاعدة، لم يضع في عنقه غلاً، ولا في رجله قيداً، ولم يُحرِّم عليه طيباً، ولم يغلق في وجهه باب خير، ولم يدعه للمتاجرين بالدين يتلاعبون به، بل خاطبه خطاباً مباشراً: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ *﴾ [الانفطار: ٦ - ٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

علماء الإسلام يُشيدون بمكانة الإنسان:

هذه صورة سريعة، لكنها واضحة التقاسيم لمكانة الإنسان كما رسمها القرآن، وقد أشاد بهذه المكانة كلُّ أئمة الإسلام وعلمائه في مختلف البيئات والاختصاصات.

يقول الفقيه أبو بكر ابن العربي: «ليس لله تعالى خلق هو أحسن من الإنسان، فإنَّ الله تعالى خلقه حيًّا عالمًا، قادرًا متكلمًا، سميعًا بصيرًا، مدبرًا حكيمًا، وهذه هي صفات الربِّ جلَّ وعلا...»^(١).

ويشرح الإمام الغزالي في «إحيائه» أسباب محبة العبد لله تعالى، فيذكر منها المناسبة والمثابرة بين ذات الإنسان وذات الله وَجَلَّ، وهي مناسبة باطنة لا ترجع إلى المباشرة في الصور والأشكال، بل إلى معانٍ باطنة، يجوز أن يُذكر بعضها في الكتب، وبعضها لا يجوز أن يُسَطَّر. قال: «فالذي يُذكر هو قرب العبد من ربه وَجَلَّ في الصفات التي أمر فيها بالاعتداء والتخلق بأخلاق الربوبية، حتى قيل: تخلَّقوا بأخلاق الله، وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية: من العلم والبرِّ والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق، والنصيحة لهم،

(١) انظر: أحكام القرآن (٤/٤١٥)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

وإرشادهم إلى الحق، ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة؛ فكل ذلك يُقَرَّب إلى الله وَجَلَّ.

أمَّا ما لا يجوز أن يُسَطَّر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي؛ فهي التي يومئ إليها قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. إذ بيَّن أنه أمر رباني خارج عن حدِّ عقول الخلق. وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص: ٧٢]. ولذلك أسجد له ملائكته. ويشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]^(١). إذ لم يستحقَّ آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة، وإليه يرمز قوله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»^(٢). حتَّى ظنَّ القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المُدركة بالحواس، فشبهوا، وجسموا، وصوَّروا - تعالى الله ربُّ العالمين عمَّا يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا - وإليه الإشارة بقوله تعالى في الحديث القدسي: «مرضتُ فلم تُعْذِنِي! فقال: يا رب، وكيف ذلك؟ قال: مرض عبي فلان فلم تُعْذِه، ولو عُدَّتْهُ لوجدتني عنده»^(٣). وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد أحكام الفرائض كما قال تعالى في الحديث القدسي: «لا يزال عبي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحبَّته كنتُ سمعَه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يُبصر به، ولسانه الَّذي ينطق به...»^(٤)^(٥).

(١) الظاهر أنَّه يقصد آية البقرة (٣٠): ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾، كما يبدو من تعقيبه على الآية. أمَّا الآية التي ذكرها فهي خطاب من الله لداود ﷺ.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٤١)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٩)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

(٥) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣٠٦/٤، ٣٠٧).

ويقول الإمام ابن القيم: «اعلم أنَّ الله عَجَّلَ اختصَّ نوعَ الإنسان من بين خلقه بأنَّ كَرَّمَهُ وفضَّله وشرَّفه، وخلقَه لنفسه، وخلق كلَّ شيء له، وخصَّه من معرفته ومحبته، وقُربه وإكرامه بما لم يُعطه غيره، وسخر له ما في سَمَواته وأرضه وما بينهما، حتَّى ملائكته - الَّذِينَ هم أهل قربة - استخدمهم له، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، ووظعه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكَلَّمه منه إليه، واتَّخذ منهم الخليلَ والكلیم، والأولياء والخواصَّ والأحبار، وجعلهم مَعْدِن أسرارِهِ، ومَحَلَّ حكمتِهِ وموضع حُبِّهِ، وخلق لهم الجنة والنَّار، فالخَلْق والأمر، والثواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني؛ فإنَّه خلاصة الخَلْق، هو المقصود بالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب.

فللإنسان شأنٌ ليس لسائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من رُوحه وأسجد له ملائكته، وعَلَّمه أسماء كلِّ شيء وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات، وطرده إبليس عن قُربه، وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين، واتَّخذه عدوًّا له.

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق، وخيرة الله من العالمين. فإنَّه خلقه ليُتِمَّ نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه، وليخصَّه من كرامته وفضله بما لم تَنَله أمنيته، ولم يخطر على باله، ولم يشعر به...»^(١).

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢١٠/١)، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار الكتاب

العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

منزلة الإنسان المؤمن خاصة:

وإذا كانت هذه هي منزلة الإنسان في الوجود، من حيث هو إنسان، فإن منزله تعلق وتعلم حينما يؤمن بالله تعالى، وبرسالته، ويؤمن ببلقائه وحسابه في الدار الآخرة.

إن هذا الإنسان المؤمن هو روح الحياة، وإكسير العالم، وهو خير البرية وأفضل الخليقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

إنه المخلوق الذي جعله الله له ولياً: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وخصه سبحانه بمعيته - معية الحفظ والتأييد - فقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

وهو الذي تكفل الله بنصره والدفاع عنه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

وهو الذي وعد الله أن ينجيه من الشدائد والكربات - وإن تفاقمت - كما نجى يونس من بطن الحوت: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وهو الذي ينزل ملائكته لتأييده وتشده أزره: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وهو الذي أعد الله له جنته ودار مثوبته، ومظهر رضوانه ومحبته: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

أثر هذه الفكرة في حياة الإنسان:

لا ريب أنَّ اعتقاد الإنسان بكرامته على الله، ومكانته في الملاء الأعلى، ومركزه القيادي في هذا الكون - وخصوصًا بعد إيمانه بالله تعالى - يجعله يشعر بذاته، ويغالي بقيمة نفسه؛ لأنَّه يعتز بانتسابه إلى الله، وارتباطه بكل ما في الوجود، فيحيا عزيز النفس، عالي الرأس، أبا للضميم، عصيًا على الذل والهوان، وبعيدًا عن الشعور بالتفاهة والضياع والعدم والفراغ، وهذا الإحساس الذي يعيش به المؤمن ليس شيئًا هينًا ولا بضاعة مزجاة، إنَّه كسب كبير ومغنم ضخم للإنسان، كسب له في عالم الشعور والتصور، وفي عالم الواقع والسلوك.

وما أعظم الفرق بين رجلين: يعيش أحدهما وهو يعتقد في نفسه أنَّه مُجَرَّد «حيوان» من فصيلة راقية ليس له قبل حياته جذور، وليس له بعد موته امتداد، وليس له في حياته صلة بالوجود الكبير أكثر من صلة القروود به، ويعيش الآخر وهو يعتقد أنَّه خليفة الله في أرضه، ونائبه في إقامة الحق، وإفاضة الخير، وإشاعة الجمال في هذا الكون! ويشعر بأنَّ الكون كلُّه في خدمته، والملائكة الكرام في حراسته، وأنَّ ربَّ الوجود في معيته، وأنَّه من فصيلة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأنَّ وجوده لا ينتهي بالموت، وداره لا تنتهي بالقبر؛ فإنَّما خُلِقَ للخلود وللأبد الذي لا ينقطع ولا يزول.

إنَّ هذا الشعور الأصيل - الذي بلغ حدَّ الاعتقاد واليقين - بمنزلة الإنسان في الكون عامَّة، ومنزلة المؤمن خاصَّة، هو إحدى النقاط الرئيسة التي تخالف فيها عقيدة الإسلام التفكير المادي الذي يسود الحضارة الماديَّة اليوم في النظرة إلى الإنسان.



الإنسان هو المقصود من خلق العالم:

ويبدو للمتأمل في آيات القرآن الكريم أنّ خلق الإنسان واستخلافه في الأرض، وابتلاءه بالتكليف، وترتيب الثواب والعقاب عليه - وخصوصاً الثواب للمؤمنين الصالحين - هو الغاية من خلق العالم كله: علويّه وسفليّه، أو بتعبير القرآن: سماواته وأرضه.

ويقول تعالى من آخر آية من سورة الطلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. فالخطاب في الآية للمُكَلَّفِينَ من بني الإنسان، والغاية واضحة في الآية الكريمة، دلّت عليها لام التعليل: ﴿لِنَعْلَمَ﴾.

الغاية المعرفيّة للإنسان:

فالغاية إذن من خلق هذا العالم الرحب الضخم - الذي يسكن الإنسان في جزء منه صغير صغير هو كوكب الأرض من مجموعته الشمسية التي هي جزء صغير صغير من مجرتنا الكبيرة التي يسمونها «سِكَّةَ التَّبَّانَةِ»، والتي هي أيضاً جزء صغير صغير بالنسبة لمجموع العالم الذي يحتوي على ملايين المجرات الأخرى - هي معرفة المُكَلَّفِينَ المخاطبين بالقرآن ربّ هذا العالم وخالقه، ومعرفته بأسمائه الحسنی وصفاته العليا التي دلت على خلقه لهذا الكون، وتديره له، وإحكامه لكل ما فيه على أدق نظام، وأروع تنسيق، وأبرز الصفات الدالة على ذلك: صفة القدرة الشاملة، وصفة العلم المحيط، ولهذا قالت الآية معللة: ﴿لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

فلا يطمع الإنسان أن يعرف ذات الله تعالى، ويدرك حقيقتها؛ فهذا تطلع إلى ما لا يمكن له، كيف وهو لم يدرك حقيقة ذاته هو، ولم

يُحِطُ بحقيقة «الرُّوح» الَّتِي بها يحيا، لم يعرف تمامًا كيف يعمل العقل، إلى حدٍّ أن أَلَفَ أحدُ أقطاب العلم كتابًا سمّاه: «الإنسان ذلك المجهول»^(١)!

إِنَّ كَثِيرًا من الحقائق المادِّيَّة لم يعرف الإنسان إلى اليوم كنهها، إِنَّمَا يعرف آثارها، فكيف بشأن الألوهية العليا، الَّتِي تحيط بكل شيء، ولا يحيط بها شيء؟ إِنَّ كل ما يطلب من الإنسان - وما يمكنه - أَنْ يعرفها من آثارها، ولا يتجاوز ذلك فيغرق في بحر لا قرار له ولا ساحل. ومن ثم جاء في الحديث: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله»^(٢)، «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله»^(٣)، ويقول القرآن: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ولقد حاول بعض مفكري المسلمين ومتكلميهم أَنْ يقتربوا من لجج هذا البحر الخضم فأوشكوا أَنْ يغرقوا، فابتعدوا عنه، وحذروا منه، ويقول الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ - ١٢١٠م) صاحب التفسير الكبير والكتب الشهيرة في «الأصولين» أصول الدين وأصول الفقه، بعد أَنْ حصَّل أفكار المتقدمين والمتأخرين:

- (١) هو الدكتور ألكسيس كاريل الحائز على جائزة «نوبل» في العلوم.
 - (٢) رواه أبو الشيخ في العظمة (٢)، وابن بطة في الإبانة (١٠٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦٦/٦)، عن ابن عباس.
 - (٣) رواه الطبراني في الأوسط (٦٣١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٩)، وقال عقبه: هذا إسناد فيه نظر. عن ابن عمر.
- وقال السخاوي: أسانيدُها ضعيفة، لكن اجتماعها يكتسب قوة، والمعنى صحيح. انظر: المقاصد الحسنة ص ٢٦١، تحقيق محمد عثمان الخشت، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، وحسنه الألباني في الصحيحة بمجموع الطرق (١٧٨٨)، وفي صحيح الجامع الصغير (٢٩٧٥، ٢٩٧٦)، ومعنى الحديث صحيح بالإجماع.

الْعِلْمُ لِلرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ وسواه في جهالاته يتغمغم
ماللتراب وللعلوم وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم^(١)!

وينشد الإمام الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ - ١١٥٣م) في أول كتابه «نهاية الإقدام في علم الكلام»:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسرحت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعًا كفَّ حائرٍ على ذقنٍ، أو قارعًا سنَّ نادم^(٢)

وصرح بذلك الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ - ١١١١م) في «الإحياء» وصنّف في وجوه القول فيه في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى».

ومن الصوفيّة اشتهر عن أبي القاسم الجُنَيْد (ت ٢٩٧هـ - ٩١٠م) أنّه كان يقول: لا يعرف الله إلا الله^(٣)!

والمعتزلة - على خوضهم في بحر الإلهيات - نجد منهم مثل العلامة ابن أبي الحديد (ت ٦٥٥هـ - ١٢٥٧م) في شرحه كتاب «نهج البلاغة» المنسوب للإمام عليّ عليه السلام، يتعرّض لهذه القضية في مواطن من شرحه، ويذكر فيه كلمات بليغة نثرًا وشعرًا - مع توغّله في علم الكلام - ومن شعره يخاطب الفلاسفة:

(١) انظر: العواصم والقواصم لابن الوزير (٣٥٧/٦)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام ص ٧، تحقيق أحمد فريد المزيدي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ.

(٣) المقصد الأسنى في شرح معاني الأسماء الحسنى للغزالي ص ٧٣، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، نشر الجفان والجابي، قبرص، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

هل أنتمو إلا الفَرا شَ رأى السَّراجَ وقد تَوَقَّدَ
فَدَنَّا فَاخْرَقَ نَفْسَهُ ولو اهتدى رُشْدًا لَأُبْعَدَ

وقال أيضًا يخاطب الذات الإلهية:

سافرتُ فيكَ العقولُ فما رَبِّحَتْ إِلَّا عَناءَ السَّفَرِ
فَلَحَا اللهُ الألى زَعَمُوا أَنْكَ المعلومُ بالنَّظَرِ
كذبوا إِنَّ الَّذِي زَعَمُوا خَارِجٌ عن قوَّةِ البَشَرِ

قال العلامة أبو عبد الله مُحَمَّد بن المرتضى اليماني الشهير بابن الوزير: (ت ٨٤٠هـ - ١٤٣٦م) بعد أن أورد هذه الأقوال وغيرها: «ودع عَنْكَ هؤلاء كلَّهم، فقد كفانا كتاب الله تعالى حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. ولا أوضح من القرآن إذا أُجِير من التأويل بغير برهان»^(١)!

وكيف نتأول ذلك؟ وهذا رسولُ الله ﷺ - وهو المُبَيَّن لكتاب الله - يقول في هذا المقام: «لا أُحْصِي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نَفْسِكَ»^(٢).

«هذا هو أفصح وأعلم من ترجم عن مَمَادِح رَبِّه سبحانه، وهو المؤتى في ذلك لجوامع الكلم وحُسناها وأنفِسُها عند الله وأَسَنَها، وهو المخاطب بقول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. فاعترف ﷺ بقصور عباراته عن بلوغ المرام في هذا المقام، فكيف بسائر الأنام؟!»^(٣). هذا هو مكان الغاية المعرفية للإنسان من خلق العالم، كما دلَّت عليه آية: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

(١) انظر: إيثار الحق على الخلق ص ١٣٩، ١٤٠، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧م.

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، عن عائشة.

(٣) انظر: إيثار الحق على الخلق ص ١٤٠، ١٤١.

والاستدلال بهذه الآية الكريمة في آخر سورة الطلاق يغني عن الاستدلال بالحديث القدسي الذي يذكره بعض الصوفيّة في كتبهم، وهو: «كنت كنزاً لا يُعرف فأُحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً فعرفتهم بي، فعرفوني»، وفي لفظ: «فتعرّفت عليهم فبي عرّفوني». فالحديث لا أصل له عند أئمة الحديث^(١). وإن قال بعض كبار الصوفيّة - مثل محي الدين بن عربي: «صح عندنا كشفاً وإن لم يصحّ سنداً».

فالأحاديث لا تثبت عن طريق الكشف والإلهام، بل بالسند الصحيح المتّصل، السالم من الشذوذ والعلّة، وهذا ما أجمعت عليه الأئمة. على أنّه لا حاجة إلى هذا التكلّف، والآية صريحة الدلالة على المراد. وبعض العلماء استدللّ بالآية الأخرى من سورة الذاريات، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقد فسّرها مجاهد بقوله: «إلا ليعرفون»^(٢).

الغاية العمليّة للإنسان:

وإذا كان هذا هو مكان الغاية المعرفيّة للإنسان من خلق العالم، فهناك غاية عمليّة أخرى، عبر عنها أيضاً القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

(١) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٢٢/١٨): «ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف». وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر في اللآلئ والسيوطي وغيرهم. انظر: كشف الخفاء للعجلوني (٢٠١٦)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، نشر المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي (١٢٠/٩)، تحقيق ابن عاشور، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

والخطاب في الآية كذلك للمُكَلَّفِينَ من بني الإنسان، والغاية من خلق السماوات والأرض - كما دلت عليها لام التعليل - ظاهرة كذلك، وهي هنا غاية عملية: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. وهو تعبير قرآني له إيحائه ودلالته. فالله خلق السماوات والأرض جميعًا ليختبر الناس المكلفين: أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. فهم خلقوا ليعلموا، بل خلق العالم كله من فوقهم وتحتهم ليعلموا.

الإنسان لم يُخلق إذن لمجرد أن يأكل ويتمتع. إِنَّ الإسلام لم يُحَرِّم عليه أن يأكل الطيبات، ويستمتع بزيينة الله التي أخرج لعباده، بل أنكر أشد الإنكار على من زعم حرمة ذلك على الناس: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ولكنه حين أباح هذه للإنسان لم يرضها له غاية ورسالة، بل جعلها له وسيلة وآلة. إِنَّ الدُّنْيَا بَكلِّ ما فيها من طيبات وخيرات خلقت للإنسان، أمَّا الإنسان نفسه، فقد خلق لما هو أعظم من الدُّنْيَا، خلق لله الَّذي سخر هذه الدُّنْيَا، وأَعَدَّ فيها للخلود في دار أخلد وأبقى.

الإنسان الَّذي هُمُّه الشهوة والمتعة يهبط بنفسه من درجة المخلوق المستخلف من الله إلى درك الحيوان الَّذي لا هم له إلا بطنه ومتعته. وهذا ما ذمَّ به الله الكفار الحائدين عن الصراط المستقيم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

الأكل والشرب والمتعة للإنسان أداة ووسيلة، حتَّى يستطيع أن يقوم بعمله، ويؤدي رسالته، فقد خلق الله الناس ليعملوا، أو كما قال القرآن: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]. إِنَّه ليس مجرد العمل الحسن، بل العمل الأحسن: الأفضل والأمثل دائماً؛ فالسباق بين العاملين ليس بين حسنٍ وسيئٍ، بل بين حسنٍ وأحسن.

والإنسان المؤمن ينبغي دائماً أن ينزع إلى ما هو أحسن في كل شيء، كما نبّهه على ذلك القرآن. فهو يتبع أحسن ما أنزل إليه من ربه: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥]. وهو يدفع السيئة بالتي هي أحسن: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]. وهو يجادل المخالفين بالتي هي أحسن: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وهو يستثمر أموال اليتامى بالتي هي أحسن: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ومعنى هذا: أنه إذا كانت هناك طريقتان لدفع السيئة، أو لجادل المخالفين، أو لتنمية مال اليتيم: أحدهما حسنة، والأخرى أحسن منها، فالإنسان المؤمن مطالب أن يستخدم الطريقة التي أحسن وأفضل، ومقتضى هذا أن عليه أن يفكر ويبحث أبداً عن المنهج الأفضل، والوسيلة الأمثل، ولا يرضى لنفسه الأدون والأدنى.

وإن هذه العبارة: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ تكررت في القرآن عدة مرات في مقام التعليل. في سورة الملك يقول سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ١، ٢]، وفي سورة الكهف يقول ﴿وَإِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

تفصيل للمقصد الإلهي من خلق الإنسان:

وبهذا كله نعلم من صريح آيات القرآن: أن الإنسان وهو المقصود من خلق العالم كله، أن الله خلق هذا الكون الكبير بسماواته وأرضه؛ ليقوم هذا الإنسان المستخلف من الله بوظيفته في الأرض، ورسالته في الوجود، وهي رسالة تتركب من عنصرين أساسيين:

١ - عنصر معرفي علمي: وهو أن يعرف الإنسان ربّه وربّ هذا الكون معرفةً صحيحة، بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ولن يتم له ذلك إلا إذا عرف نفسه، وعرف الكون من حوله.

٢ - وعنصر عملي سلوكي: وهو أن يعمل فيحسن العمل، بل يجتهد أن يكون: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وقد فصل بعض أئمة المسلمين هذا العمل، أو العمل الأحسن المقصود من خلق الإنسان، وهو ما ذكره الإمام الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ - ١١٠٨م) في كتابه القيم «الذريعة إلى مكارم الشريعة» فقال: «الإنسان من حيث هو إنسان كل واحد كالآخر، كما قيل: فالأرض من تربة والناس من رجل. وإنما تشرف بأن يوجد كاملاً في المعنى الذي وجد لأجله. كالبعير إنما يختص ليلبغنا وأثقالنا إلى بلدٍ لم نكن بالغيه إلا بشقّ الأنفس.

والفرس ليكون لنا جناحاً نطير به.

والمنشار والمنحت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما.

والباب لنُحرز به البيت.

فالفعل المختص بالإنسان ثلاثة:

١ - عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره.

٢ - وعبادته سبحانه المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وذلك هو الامتثال للباري تعالى في عبادته في أوامره ونواهيه.

٣ - وخلافته المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلَفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه - على قدر طاقة البشر في السياسة - باستعمال مكارم الشريعة. ومكارم الشريعة هي: الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس في الحُكْم، والإحسان والفضل. والقصد، منها: أن يبلغ بذلك إلى جنة المأوى وجوار رب العزة تبارك وتعالى.

وكلُّ ما أوجد لفعل ما فشرّفه لتمام وجود ذلك المعنى، ودنائه لفقدان ذلك منه كالفرس للعدو، والسيف للعمل المختص به في القتال. ومتى لم يوجد فيه المعنى الذي لأجله أوجد كان ناقصاً. فإمّا أن يُطرح طرحاً أو يُرد إلى منزلة النوع الذي هو دونه كالفرس إذا لم يصلح للعدو اتُّخذ حمولة، وأُعد أكلة، والسيف إذا لم يصلح للقطع اتُّخذ منشاراً، فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى ولا لعبادته ولا لاستعمار أرضه، فالبهيمة خير منه. ولذلك قال الله تعالى في ذم الذين تكلوا هذه الفضيلة: ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]»^(١) هـ.

وبعد، فهذه هي قيمة الإنسان ومكانته في نظر الإسلام، وتلك هي غاية وجوده ومقصد الخالق من خلقه، كما بيّنها القرآن الكريم، والسُّنة المطهرة، وفصلها علماء المسلمين.

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٨٢، ٨٣، تحقيق د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، نشر دار

السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.



وما أعظم الفارق بين هذا الإنسان - إنسان الإسلام والإنسان كما
تُصوّره الفلسفات الماديّة والوضعيّة.

وصدق الله العظيم؛ إذ يقول: ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا
يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

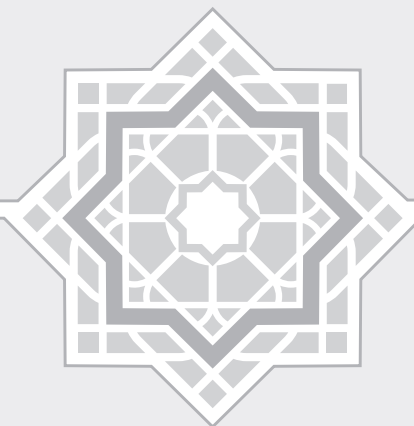
* * *



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ

لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ

يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



التفسير وعلوم القرآن



قُرْآنٌ



غير مرخصة للطباعة

من الدستور الإلهي للبشرية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَعَسَىٰ ذَٰلِكُمْ فِي رَحْمَةِ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].



غير مرخصة للطباعة

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده». متفق عليه.

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿أَلَمْ﴾ حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف». رواه الترمذي.



نسخة مجانية



القرآن الكريم منهاج للعمل والاتباع^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأزكى صلوات الله وتسليماته على رحمة الله المهداة، ونعمته المسداة، البشير النذير، والسراج المنير، مُعَلِّم الناس الخير، وهادي البشرية إلى الرُّشد، وقائد الخلق إلى الحق، سيِّدنا وإمامنا وأُسُوتنا وحبينا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه، الَّذِينَ آمَنُوا به وعَزَّروه ونَصَّروه وَاتَّبَعُوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون، ورضي الله عَمَّن دعا بدعوته، واهتدى بسُنَّته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين. وأُحْيِيكُمْ - أَيُّهَا الْإِخْوَةُ - بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَام، تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبَارَكَةً طَيِّبَةً، فَالْسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

تدارس القرآن:

ويسرُّني أن نتحدَّث معاً، ونتدارس معاً، حول القرآن الكريم، فالنبي ﷺ يقول: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٢). فنحن هنا نحاول أن

(١) أُلقيت في حفل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، لمسابقة الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني لحفظ القرآن الكريم، الدورة الرابعة لعام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧/٩٦م.

(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٧)، عن عثمان بن عفان.

نتعلّم القرآن، ونتدارسه، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: «ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتابَ الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١). يتلون كتاب الله، ويتدارسونه.

مطلوبٌ مِنَّا أن نُشجّع حفظ القرآن، حتّى يبقى تواتر هذا الكتاب، ويبقى حملته وحُفاظه إلى يوم القيامة إن شاء الله، ولكنّ مطلوبٌ مِنَّا أيضًا أن نتدارس القرآن، كما كان يفعل النبي ﷺ مع جبريل عليه السلام، حين ينزل في رمضان من كل عام، فيعرض على النبي ﷺ القرآن ويدارسه إيّاه^(٢)، أمين السماء وأمين الأرض يتدارسان القرآن، من هنا كانت محاضرتنا هذه لونا من تدارس القرآن الكريم، لنعرف كيف نتعامل مع كتاب الله؟

حفظ القرآن واستظهاره:

ينبغي أن نحفظ القرآن ونستظهره، ولا يوجد أمةٌ تحفظ كتابها غير أمة القرآن، لا يمكن أن تجد قسيسًا، أو أسقفًا، أو كاردينالًا، أو البابا نفسه يحفظ ربع كتابهم المقدّس، ولكن تجد صبيان المسلمين يحفظون القرآن الكريم، بل أعجب من هذا أن تجد حُفاظ القرآن بغير لغته، تجد من الهنديين، والباكستانيين، والبنغاليين، والتركين، والنيجيريين، والسنغاليين، وأمثالهم، من يحفظون القرآن الكريم، وهم لا يفهمون منه كلمة واحدة، نراهم في المسابقات القرآنية المختلفة، وأنا شخصيًا امتحنت بعضهم بنفسى قديمًا، عندما كنت مديرًا للمعهد الدينيّ، وكنت

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في الصوم (١٩٠٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٨)، عن ابن عباس.

أسأل بعضهم في الآيات المتشابهات فلا يخرم حرفاً، ولا يُسقط كلمةً، كأنه شريط مُسجَّل، ثمَّ إذا قلت له: ما اسمك؟ لا يفهم معنى (ما اسمك؟)؛ لأنَّه لا يعرف معاني الكلمات العربيَّة، فهذا من معجزات القرآن الكريم، فينبغي أن نحرص على أن يظل هذا الحفظ.

تلاوة القرآن والاستماع إليه:

وينبغي أن نحرص على تلاوة القرآن والاستماع إليه، فتلاوة القرآن عبادة، ولتالي القرآن بكل حرف عشر حسنات، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أنَّ النبي صلَّى الله عليه وآله قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الْم﴾ حرفٌ، ولكن ألف حرفٌ، ولام حرفٌ، وميم حرفٌ»^(١).

ومن لم يكن يُحسن تلاوة القرآن - أو كان يحسنها - فليستمع إليه، فالاستماع إليه عبادة، ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ومن فضل الله على المسلمين أن أصبحت هناك إذاعات مخصصة لتلاوة القرآن، وأصبحت هناك مصاحف مُرتلة مُسجَّلة لتلاوة القرآن، كنت أُلقي محاضرة في شهر رمضان من أحد الأعوام في أحد البلدان العربيَّة، فسألني إحدى الأخوات قالت: ماذا تصنع المرأة التي تُبتلى بالدورة الشهرية، أمر كتبه الله على بنات آدم، ولا تستطيع بسببه أن تقرأ القرآن؟

(١) رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٠)، وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٣٢٧)، عن ابن مسعود.

قلت: لكنها تستطيع أن تستمع إلى القرآن، من خلال الإذاعة، أو من شريط قرآنيٍّ مُسجَّلٍ، فمن فضل الله علينا في هذا العصر أن هَيَّا أسباب التعبُّد بوسائل لم يكن يعرفها السابقون، ولا تُتاح لهم، فلا بدَّ أن نستفيد من تقنيات العصر وآلياته.

القرآن منهاج للعمل:

علينا أيضًا أن نعرف كيف نتعامل مع القرآن فهماً وتفسيراً؟ وهذا موضوع كبير، ولعلَّ بعضكم تابع صحيفة «الراية» القطريَّة، في شهر رمضان، فقد كتبت فيها فصلاً مُطوَّلاً عن: كيف نفهم القرآن ونُفسِّره، ما المنهج الأمثل لتفسيره، ما الضوابط والمعالم الهادية، وما هي المحاذير المخوفة، ومزالق الأقدام في هذه القضية؟

والحديث عن التعامل مع القرآن متعدّد الجوانب، فهو حديث واسع طويل، ولهذا أكتفي هنا بأنَّ أحدِّثكم عن شيءٍ واحد في التعامل مع القرآن، وهو: كيف نتعامل مع القرآن باعتباره منهاجاً للعمل والاتباع؟

بركة القرآن:

القرآن كتاب بركة، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ولكنَّ بركة القرآن في اتِّباعه والعمل به، وليست بركته في أنْ تحمله تميمةً في صدرك، أو في جيبك، أو أنْ تُعلِّقه في سيارتك أو في دكانك، أو أنْ تستشفي به استشفاءً عضويًّا ماديًّا، كما نرى في عصرنا أولئك الذين فتحوا عيادات لعلاج النَّاس بالقرآن، ابتدعوا أشياء ما فعلها الصحابة ولا التابعون، ولا أئمة الأُمَّة.

إِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَدَاوُوا يَا عِبَادَ اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَا أَنْزَلَ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»^(١). وجاءه بعض الناس يشكو مرضًا، فأرشده إلى أن يذهب إلى الطبيب الثقفي، الحارث بن كِلْدَةَ^(٢)، حَتَّى قالوا: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَسْلَمَ بَعْدَ. واستدلوا على ذلك بجواز الذهاب إلى الطبيب غير المسلم، إِذَا كَانَ ثِقَةً فِي طَبِّهِ، وَتَدَاوَى النَّبِيُّ ﷺ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالتَّدَاوِي، وَلَمْ يَقُلْ لَهُمْ: اكْتُبُوا آيَاتَ الْقُرْآنِ بِالزَّعْفَرَانِ، وَضَعُوهَا فِي إِنَاءٍ بِهِ مَاءٌ، ثُمَّ اشْرَبُوهَا. إِلَى آخِرِ مَا ابْتَدَعَهُ النَّاسُ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ.

اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ:

إِنَّ حَقِيقَةَ الاستشفاء بالقرآن هي العلاج به من أمراض الفرد والأُمَّة، أمراض المجتمع، والنفس، والعقل، كما قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، فبركة القرآن في أَنْ تَتَّبِعَ هُدَاهُ، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، فلكي تدرك بركة القرآن عليك أَنْ تَتَّبِعَهُ، وَتَتَّقِيَ اللَّهَ فِي الْعَمَلِ بِأَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، تكسب البركة، وتربح الرحمة، فالقرآن أنزله الله لِيَتَّبِعَ، كما قال الله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

(١) رواه أحمد (١٨٤٥٦)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح. وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)

وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٣٤٣٦)، ثلاثتهم في الطب، عن أسامة بن شريك.

(٢) رواه أبو داود في الطب (٣٨٧٥)، وضعّفه الألباني في ضعيف أبي داود (٨٣٤)، وقال

الأرنأؤوط في تخريجه لسنن أبي داود: رجاله ثقات لكنّه مرسل. عن سعد بن أبي وقاص.

اتِّبَاعُ الْأَحْسَنِ:

وفي الآية الأخرى يقول: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بُغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]، فاتِّبَاعُ الْأَحْسَنِ هو ما وصف الله به عباده ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ [الزمر: ١٨].

يربِّي القرآن المسلم على أن يرنو ببصره، ويتوق بقلبه، إلى الأحسن، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ١، ٢]، أي: ليختبركم أيكم أحسن عملاً.

لهذا خلق الله الموت والحياة، ولهذا جعل ما على الأرض زينةً لها، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، ولهذا خلق العالم علويّه وسفليّه، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]. ليختبركم أيكم أحسن عملاً، كأنه ميدان تنافس، فلم يقل: ليعرف المحسن منكم من المسيء. لا، ليس هذا هو المقصود، المقصود: مَنْ المحسن، وَمَنْ الأكثر إحساناً؟ فالسباق ليس بين الحسن والسيئ، بل بين الحسن والأحسن منه، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، هذا ما يريده القرآن: مَنْ هو الإنسان الذي يعمل، ويبلغ القمّة في الإحسان؟

والإحسان كما قال الرسول ﷺ في وصفه: «أَنْ تَعْبَدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَهُوَ يَرَاكَ»^(١). هذا في إحسان العبادة، ولكن الإسلام يريد الإحسان في كل شيء، كما جاء في الحديث الصحيح:

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ»^(١).

التَّخَلُّقُ بِأَخْلَاقِ الْقُرْآنِ:

من هنا كان القرآن منهاجاً للعمل والاتباع، العمل للدنيا والعمل للآخرة، العمل بكل ألوانه، فهو منهاج للفرد، ومنهاج للأمة وللدولة، ومنهاج للدعوة، فعلى الفرد أن يعتبر القرآن منهاجاً له، حَتَّى يَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ، وَيَتَأَدَّبَ بِآدَابِهِ، كما كان النَّبِيُّ ﷺ.

خلق الرسول ﷺ:

سُئِلَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ تِلْكَ الْكَلِمَةُ الْمَوْجِزَةُ الْبَلِيغَةُ: «إِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ كَانَ الْقُرْآنُ»^(٢).

فمن أراد أن يعرف خلق رسول الله ﷺ، فليفتح المصحف، ويقرأ فيه وصف المتقين في أوائل البقرة، ووصف المؤمنين في أوائل الأنفال، وفي أوائل سورة المؤمنين، وفي سورة الحجرات، ويقرأ وصف عباد الرحمن في أوائل سورة الفرقان، ويقرأ وصف أولي الألباب في سورة الرعد، يقرأ هذا ليعرف أخلاق محمد ﷺ؛ لَأَنَّهُ كَانَ الصُّورَةُ الْمُثَلَّى لِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ، يَنْظُرُ أَوَامِرَ الْقُرْآنِ وَنَوَاهِيَهُ سَيَجِدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ أَوَّلُ مَنْ يَأْتُمِرُ بِأَمْرِ الْقُرْآنِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْتَهِي عَنْ نَهْيِهِ، فَقَدْ كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١٣)، عن شداد بن أوس.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٢٦٩).

المحمديون قرآنيون:

ونحن مأمورون أن نقتدي برسول الله ﷺ، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فإذا أردنا أن نكون مُحمديين فلنكن قرآنيين، فلن تكون محمدياً إذا لم تكن قرآنياً، فلنجعل القرآن أمامنا، وليحاول كل منا أن يكون قرآنًا حيًا، قرآنًا يسعى بين الناس، يراه الناس فيقولوا: انظروا، ما أجمل تعاليم القرآن، وما أجمل أخلاقه وقيمه. لأنه أصبح قرآنًا حيًا، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم.

أخلاق القرآن تفتح الآفاق:

بماذا نشر الصحابة الإسلام في العالم، هل نشروه بالسيف، كما يقول المستشرقون، والمُنصِّرون، وأمثالهم؟

لا يمكن أن يفتح السيف قلبًا لدين، يمكن أن يفتح السيف أرضًا، ولكنه لا يمكن أن يفتح عقلًا ولا قلبًا، لقد دخل المسلمون بجيوشهم بعض البلدان، لكن أهلها دخلوا الإسلام باختيارهم، حتى اشتكى بعض الولاة في بعض البلاد من كثرة الداخلين في الإسلام.

هداية لا جباية:

ففي عصر بني أمية فرض ولائهم الجزية على من دخل في الإسلام، مع أن المفروض في الشرع أن تسقط عنهم، لكن هؤلاء الولاة قالوا: إذا لم تجب عليهم جزية، ولا تجب عليهم زكاة إلا بعد حَوْلٍ، فمعنى هذا أن كثرة الداخلين في الإسلام تؤثر على الميزانية العامة للدولة. ففرضوا الجزية، وبقيت مفروضة إلى عهد عمر بن عبد العزيز، وأرسل الوالي

على مصر حينذاك، يستأذن الخليفة الراشد في أن يُبقي الجزية مفروضة على الداخلين في الإسلام، كما كان من قبله يفرضونها، فأرسل إليه عمر يقول: قَبَّحَ اللهُ رأيك؛ إِنَّ الله بعث محمّداً هاديّاً، ولم يبعثه جابياً^(١).

فبماذا دخل الناس في الإسلام؟

دخلوا بالأخلاق القرآنيّة في دين الله أفواجاً، بل هناك أناس دخلوا في الإسلام في بلاد لم تدخلها جيوش الإسلام قط، مثل ماليزيا، وإندونيسيا، والفلبين، وكثير من البلاد الإفريقيّة، بل حتّى البلاد التي دخلها جيش مسلم كالهند، فمحمد بن القاسم الثقفي دخل جزءاً صغيراً منها، يُسمّونه السّند، ولم يتوغّل فيه، بل إنّ الإسلام هو الذي نشر نفسه في تلك البلاد، بأخلاق المسلمين القرآنيّة، ولذلك فعلينا أن نتخلّق بأخلاق القرآن، إذا أردنا للناس أن تفتح لدين الله قلوبهم مع عقولهم.

شمول منهاج القرآن:

وقد وضع لنا القرآن الكريم أحكاماً، وأخلاقاً، وآداباً، لنرجع إليها، وضع لنا مناهج تُفصّل حياتنا تفصيلاً، في المعاملات المختلفة، حتّى في الأمور الصغيرة: كيف تتكلم، وكيف تمشي، وكيف تزور أخاك، وكيف تستأذن، وكيف تجلس؟

ففي الكلام يقول: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، وخصوصاً مع الكُبراء من الناس، ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ

(١) رواه سعيد بن منصور، كما في سير أعلام النبلاء (١٤٧/٥)، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات.

أَعْمَلَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٣٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ ﴿٣١﴾ [الحجرات: ٢، ٣].

وفي المشي يقول: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، اقتصد في مشيك، فلا تكن بطيئًا، ولا تكن سريعًا.

وفي الجلوس يقول: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرَفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وفي الاستئذان يقول: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

الدُّوقُ الْقِرَانِيُّ:

انظر إلى التعبيرات القرآنية في الآية السابقة: ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾، الاستئناس أعمق من الاستئذان، فالاستئناس أن يكون عندك إحساس بالوقت الذي يجوز فيه الزيارة، والذي لا يجوز، فلو جاء رجل من سفر، لا بد أن تتيح له فرصة يستريح فيها من عناء السفر، ولا بد أن تتجنب في يوم زيارته التوقيت غير المناسب، كالظهيرة أو الليل، هذا هو الاستئناس، فلا بد أن يكون عند الإنسان إحساس وبصيرة، ليعرف متى يزور الشخص، ومتى لا يزوره؟ فكل شيء له ما يضبطه، والنبی ﷺ

وضع لهذا الأمر ضوابط ومعالم، فجاءت السنة بضوابط أخرى غير الضوابط القرآنية، مثل قوله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»^(١). بعض الزوّار يمسك بجرس الباب لا يريد أن يتركه حتى يردّ عليه من الداخل، فإن كان مُصلياً خرج من الصلاة، أو نائماً استيقظ من نومه، أو في الحمام خرج منه، لا؛ لا بدّ من رعاية ظروف الناس، والوقوف عند الأدب القرآني النبوي.

والقرآن يريد أن يعلمنا الذوق، انظر إلى قوله: ﴿بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾. فالبيت ليس هو الدار، بل هو جزء من الدار، هو مكان المبيت، فقد تسكن أسرة في دار كبيرة، بها حجرة لأبٍ وأمّ، وأخرى لأخ أو أخت، فلا يجوز الدخول على أحدٍ منهم بغير استئذان، ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾، كان بعض السلف يقول: حاولت أن أنال فضل هذه الآية، بأن يقول لي أحد: ارجع. فأزكو بالامتثال، لكن لم يحصل.

حكى أستاذنا البهي الخولي رَحِمَهُ اللهُ، أن جماعة من الناس زاروا الإمام الشهيد حسن البنا - وكان مشغولاً بأمرٍ ما - فطلب من ابنه أو أخيه أن يفتح لهم ويدخلهم المجلس، ففعل، ثم أمره أن يُقدّم لهم تحية الضيف، ثم بعد فترة جاءهم واعتذر إليهم عن الجلوس معهم، لانشغاله بأمرٍ ما، فغضبوا ولا موه.

فقال لهم: القرآن حَكَمَ بيننا، أترضون به؟ قالوا: نعم. قال: يقول الله تعالى: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾. وأنتم لم تستأنسوا؛ لأنكم جئتم في وقتٍ غير مناسب لي، واستقبلكم أحد أفراد البيت، وقَدّم لكم واجب الضيف دون حضوري، وكان يمكن أن تفهموا بعد هذا أنني مشغول فتصرفوا، لكنكم

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في البيوع (٢٠٦٢)، ومسلم في الآداب (٢١٥٣)، عن أبي سعيد الخدري.

لم تفعلوا، ثم حضرت أعتذر إليكم بنفسي فلم تقبلوا، مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾.

قال الأستاذ البهي: ولما كانوا على شيء من الفقه والعلم، قالوا: أفحمتنا وغلبتنا يا أستاذ، والحق معك. فسلّموا عليه وانصرفوا. إلى هذا الحد يُعلّمنا القرآن الذوق الرفيع.

في التعامل مع الناس:

يُعلّمنا القرآن كيف يتعامل المسلم نفسه، كما يُعلّمنا كيف يتعامل مع الناس، مع أسرته، مع أبويه، وزوجته، وأولاده، مع جيرانه، مع الضعفاء من الناس، ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، كيف يتعامل مع غير المسلمين، كيف يتعامل مع الناس جميعًا.

وقد وضع الله تعالى دستوراً للتعامل مع غير المسلمين في آيتين من القرآن: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿[الممتحنة: ٨، ٩].

فالمسالمون الذين لم يعادوكم، ولم يؤذوكم، ولم يقاتلوكم، ولم يخرجوكم من دياركم، ولم يظاهروا على إخراجكم، هؤلاء لهم القسط والبر، القسط هو العدل، والبر هو الإحسان، هو شيء فوق العدل.

وأما غير المسلمين، الذين يقاتلوكم، ويخرجونكم من دياركم، مثل ما فعلت معنا إسرائيل، فهؤلاء نهانا الله أن نتخذهم أولياء، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]. هكذا وضع لنا القرآن دستوراً في التعامل مع الناس.

في التعامل مع الكون:

كما بيّن لنا القرآن كيف نتعامل مع الكون من حولنا، فقد سخر الله تعالى لنا هذا الكون، فهو يخدمنا، ولسنا نخدمه، فلا يجوز لنا أن نعبد شيئاً فيه، مثل الذين عبدوا الشمس، أو القمر، أو الجبال، أو البحار، أو الأنهار، كما نجد ذلك في الهند وفي غيرها، لا؛ فهذا الكون مسخر لنا، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

كيف نتعامل مع هذا الكون المسخر لنا؟

نتأمل ما فيه لنعتبر، كما وصف الله أولي الألباب بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وننتفع بكل ما في هذا الكون، لا حجر علينا، حتّى الشمس والقمر، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، فيمكن أن تنتفع بالطاقة الشمسية، ولو استطعت الانتفاع بالقمر فافعل، فهذه نصوص قرآنية.

في التعامل مع الحياة:

كما بيّن لنا القرآن كيف نتعامل مع الحياة، فلم يحرم الله تعالى علينا طبيّات الحياة، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

انظر إلى التعبير: ﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾. فإضافة الزينة إلى الله إضافة تكريم، حتّى إذا استمتع المرء بها لا يشعر أنّه فعل ما يغضب الله، لا، بل فعل ما يحبه الله، وحين قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». فقال رجل: يا رسول الله، إنّي رجل أولعتُ بالجمال في كلِّ

شيء، حتّى ما أحبُّ أن يفوقني أحدٌ بشراك نعل، فهل هذا من الكبر؟ وفي رواية: إنّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة. فقال النبي ﷺ: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكبر بطر الحقِّ، وغمط النَّاس»^(١). الكبر: أن تردَّ الحقَّ، وأن تحتقر الناس، «بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم»^(٢). فالإسلام يحبُّ الزينة ويحبُّ الجمال، «إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال»، ولهذا أضاف الزينة إلى نفسه، فقال: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، لم يحرم أن يستمتع بطيبات الحياة.

ولم يحرم عليه أن يعمل في الحياة، بل لم يشرع له أن يعتزل الحياة، كما يعتزلها الرهبان في النصرانيّة، فلا رهبانية في الإسلام.

اعتبر القرآن العمل في الحياة عبادةً وقربةً لله ﷻ، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وإذا كان يوم السبت عند اليهود يوم بطالةٍ وعطالةٍ عن العمل، لا يعملون للدنيا في هذا اليوم، لأنّه مُحَرَّم عليهم العمل فيه - فإنَّ العمل لم يُحَرَّم علينا في أيّ يوم، حتّى في يوم الجمعة يبيع المسلم ويشترى، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠].

إذا سمع المسلم المؤذن ينادي لصلاة الجمعة يترك البيع والشراء، يترك ما يشغل به من أعمال، ويذهب إلى الصلاة، فإذا انتهى منها عاد إلى عمله وأشغاله، فحتى يوم الجمعة في الإسلام ليس يوم تعطّل ولا تبطل.

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٧) (٩١)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧)، عن أبي هريرة.

ولذلك روي أن عمر بن الخطاب رأى بعد الصلاة قوماً قابعين في المسجد، بدعوى التوكل على الله، فعَلاهم بدِرَتَه، وقال: لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني. وقد عَلِمَ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تُمَطَّرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً، إِنَّمَا يَرْزُقُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾^(١).

ليس المسجد إذن مكاناً للكسالى والدراويش والقاعدين عن العمل، فالقرآن منهاج لعمل الفرد.

في سياسة الحُكْم:

والقرآن كذلك منهاج لسياسة الحُكْم، فهو دستور يضع القواعد اللازمة لحُكْم الدولة، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وهذه إشارة قرآنية إلى أَنَّ الحكم بالعدل إنما هو بين الناس، ليس بين المسلمين وحدهم، بعضهم وبعض، فإذا كان الخصم غير مسلم لم يكن له مِنَّا العدل، لا؛ فعَدِلَ اللهُ لجميع عباد الله، مسلمين وغير مسلمين، هذا هو عدل القرآن.

وقد نزلت تسع آيات من سورة النساء تدافع عن يهودي اتُّهم ظُلماً بالسرقة، اتَّهمه جماعة من المنافقين، أو من ضعاف الإيمان، كانوا هم السُّرَّاق واللصوص، فنزلت الآيات لتبيِّن الحقَّ، وتدعو إلى العدل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٦٢/٢).

يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا... ﴿ [النساء: ١٠٥ - ١٠٨]. إلى آخر الآيات، التي تدافع عن رجلٍ يهوديٍّ اتُّهم بغير حق، هذا عدل الإسلام، عدل القرآن، عدل الله، لجميع عباد الله.

الحكم بما أنزل الله:

أمر القرآن بالحكم بالعدل، وأمر بالحكم بما أنزل الله، فما أنزل الله يمثل العدل الكامل، كما أمر الله تعالى النبي ﷺ في قوله: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

يُصَدِّقُ الْقُرْآنُ الْكِتَابَ السَّابِقَةَ فِي أَصُولِ الدِّينِ، وَيُهِيمُنَ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ يَصَحِّحُهَا، لَهُ السَّيْطَرَةُ عَلَيْهَا، مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَصَحِّحَ أخطاءَهَا، وَأَنْ يَرُدَّهَا إِلَى الْهُدَى إِذَا شَرَدَتْ إِلَى الضَّلَالِ، وَيَبَيِّنُ لَهَا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، هَذَا مَعْنَى الْهِيمَةِ عَلَى هَذِهِ الْكُتُبِ.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩]. معناه أن تحكم بالكتاب كله، ولا تفعل ما فعله بنو إسرائيل، الذين آمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعض، ووبَّخهم الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥]. احذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك.



من شبهات العلمانيّين:

وللعلمانيّين شبهات وأقاويل، لا ينقضي منها العجب، كثيرًا ما يثيرونها حول آيات القرآن الكريم، وعلاقة الإسلام بالحكم.

الشبهة الأولى:

فمن أعجب ما قرأت: ما كتبه بعض العلمانيّين أنّ الذين أمر الله رسوله أن يحكم بينهم بما أنزل الله هم أهل الكتاب، وليسوا هم المسلمون!

وليس من المعقول أن يحكم بين اليهود والنصارى بما أنزل الله من القرآن، ولا يحكم به بين المسلمين الذي أنزل الله عليهم، وشرفهم به، وأمرهم بتلاوته وحفظه واتباعه والإذعان لحكمه.

لكنّ هؤلاء يتملّصون من الحكم الدامغ الحاسم بالكفر، والفسوق، والظلم الذي تضمّنته هذه الآيات بأنه جاء في شأن أهل الكتاب، ولم يجرى في شأن المسلمين: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ * وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * [المائدة: ٤٤، ٤٥]، ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * [المائدة: ٤٧].

يريد هؤلاء أن يقولوا: إِنَّ ما أنزل الله على أهل الكتاب في التوراة والإنجيل يجب القضاء به والنزول على حكمه، وإذا لم يفعلوا ذلك كانوا كافرين أو ظالمين أو فاسقين، أو جامعين بين هذه الصفات. أمّا ما أنزل الله على المسلمين، فليس فرضاً عليهم أن يحكموا به، وإذا أعرضوا عن الحكم به لم يوصفوا بما وصف به أهل الكتاب المُعْرِضُونَ عَمَّا أنزل عليهم، من الكفر والظلم والفسوق!

ومقتضى هذا: أَنَّ ما أنزل الله على المسلمين هو دون ما أنزل الله على أهل الكتاب! إذ يجوز للمسلمين أن يُفَرِّطُوا فيه، وينأوا بجانبهم عنه، ولا يُتَّهَمُوا بكفرٍ ولا ظلمٍ ولا فسقٍ، بخلاف أهل الكتاب! فهل يقول ذلك عاقل؟! هل يعتبر القرآن المعجز المبين الخالد المحفوظ أقل قدرًا عند الله من الكتب الأخرى التي لم تتَّصف بالإعجاز ولا الخلود؟

ثم إِنَّ معنى هذا الكلام أيضًا: أَنَّ الله تعالى يكيل بكيلين: كَيْلَ للمسلمين وكَيْلَ لغير المسلمين، فرغم وحدة الجريمة عند الفريقين لا يتَّحد الجزاء والحكم عليهم. كأنَّ الله تعالى يُحابي المسلمين، ويشدّد على غير المسلمين، فأين عدل الله؟ وهو القائل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

وهذا ما لاحظته الصحابة رضي الله عنهم، وأنكروه بعبارات بليغة على من قاله، فقد سُمعت هذه المقولة في عصرهم: أَنَّ تلك الآيات نزلت في أهل الكتاب!

روي أبو جعفر الطبري في تفسيره: أَنَّ رجلاً سأل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن آيات سورة المائدة: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ...﴾ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ...﴾ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ...﴾.

وقيل لحذيفة: إنَّها في بني إسرائيل. فقال حذيفة: نِعَم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كانت لهم كل مُرَّة، ولكم كل حُلوة^(١)!

هل أنزل الله كتابه ليُتلى على الأموات، ولا يحكم الأحياء؟ هل أنزل الله كتابه ليقرأه المسلمون في المآتم، ولا يحكم به القضاة في المحاكم؟ هل أنزل الله كتابه لتزيّن جدران البيوت بآياته، ولا تحكم في بني الإنسان؟ هل هذا معقول؟ إنَّ هذا مستحيل؛ فالقرآن دستورٌ للحكم، ويجب أن يرجع الناس إلى كتاب الله فيما يحكمون.

الشبهة الثانية:

ومما قرأته لبعضهم أيضًا في شأن الآيات التي تتعلق بالحكم: أنَّها تتعلق بالقضاة، وليس للأمرء والملوك والحكام والدول، فمن يحكم هو القاضي وليس هؤلاء.

وهذا أمر لا ينقضي منه العجب: لماذا يكون القاضي الذي لا يحكم بما أنزل الله كافرًا أو ظالمًا أو فاسقًا، والأمير أو الرئيس الذي يسوس الناس بغير ما أنزل الله مبرئًا من ذلك؟ الحقُّ أنَّ كليهما لم يحكم بما أنزل الله.

ثم إنَّ الرئيس أو الأمير هو الذي يُعيّن القاضي، ويُلزمه أن يحكم بالشرع أو القانون الوضعي، فهو - من باب أولى - داخلٌ فيما ذكرته الآيات الكريمة. فهو يبوء بوزره، ووزر من ولّاه القضاء بغير ما أنزل الله.

(١) رواه الحاكم في التفسير (٣١٢/٢)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

الشبهة الثالثة:

إنَّ العلمانيين واللا دينيين يحرفون الكلم عن مواضعه، يحرفون كتاب الله وَعَجَلْ، حتَّى إنَّ بعضهم قال: كيف ينزل الله كتابًا من السماء ليُعالج به أمور دنيا لا تزن عنده جناح بعوضة؟

فيا عجبًا، لماذا أنزل الله وحيه إذن؟ إنَّما أنزله ليهدي النَّاسَ للتي هي أقوم، هل يهديهم للتي هي أقوم في أمور الطهارة، والوضوء وأمثالها، ولا يهديهم في أمور الدولة والحكم إلى أقوم المناهج وأعدلها وأوسطها، وأبعدها عن الغلو والتقصير؟!

إنَّ الله تعالى أنزل أطول آية في كتابه لِتُنْظَمَ أمراً صغيراً من شؤون الحياة الدنيا، هو كتابة الدِّين، وهي الآية المعروفة بآية المُدَايَنَةِ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا...﴾ [البقرة: ٢٨٢]. إلى آخر ما تحفظونه من الآية الكريمة.

تأمل: ما تكون الأرض بالنسبة إلى ملكوت الله؟ وما تكون قارة آسيا بالنسبة إلى الأرض؟ وما تكون دولة قطر مثلاً بالنسبة إلى آسيا؟ وما يكون الفرد فيها بالنسبة إلى سائر المقيمين فيها؟ وكم يكون الجانب المالي في حياة الفرد بالنسبة إلى سائر الجوانب؟ وكم يكون الدِّين بالنسبة إلى الجانب المادي؟

إنَّ الدِّينَ شيءٌ ضئيل جدًّا، ومع هذا أنزل الله فيه أطول آية في القرآن الكريم، وهذا دليل على أنَّ الخالق سُبْحَانَهُ لم يُهمل عباده، ولم يتركهم سدى، بل أنزل القرآن ليهديهم في شؤون حياتهم كلها.

لقد وضع القرآن للناس الأصول الهادية، والمنارات والمعالم الموجهة، إنه لا يدخل في التفصيلات ولا التفرعات، فشأن القرآن أن يضع الأصول التي يحتاج الناس إليها في كل شيء، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. لا أستدل هنا بقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. لأن الكتاب المذكور بهذه الآية يحتمل أن يكون القرآن، إنما قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، صريح في الدلالة على القرآن، كما في ختام سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]. تفصيل كل شيء، وتبيان كل شيء، من رب كل شيء، من خالق كل شيء، الله ﷻ.

ومعنى كل شيء: الأصول، وليس الفروع، هذا هو القرآن، حتى قال عبد الله بن عباس، وهو ترجمان القرآن، وحبر هذه الأمة، ومن دعا له النبي ﷺ أن يعلمه التأويل، وأن يفقهه في الدين: لو ضاع مني عقل بغير لوجدته في كتاب الله^(١). غَوَاص يغوص لمعرفة المعاني والأسرار في القرآن الكريم.

ينبغي - أيها الإخوة - أن نتعامل مع القرآن الكريم على أنه منهاج لحياة الفرد، ودستور لسياسة الدولة، والحديث عن التعامل مع القرآن متعدد الجوانب، فهو - كما قلت - حديث واسع طويل، ويحتاج إلى محاضرات أخرى، لعلنا نوفق إليها في وقت آخر إن شاء الله.

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤/٣٠، ٣١).

أكتفي بهذا القدر، وأسأل الله تعالى أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا،
ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همّنا وغمّنا، إنّه سميع قريب
مجيب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، وصلى الله على سيّدنا
مُحمّدٍ، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا، والسلام عليكم ورحمة الله
وبركاته.





معالم وضوابط في فهم القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا
ومعلمنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

(أما بعد)

فهذه إحدى المحاضرات التي ألقيتها في «دار العلوم» بندوة العلماء في
مدينة «لكهنو» بالهند، حينما دُعيتُ من رئيس الندوة، شيخنا العلامة الإمام
أبي الحسن علي الحسيني الندوي، لإلقاء عدد من المحاضرات، على
طلاب دار العلوم وأساتذتها، في جوانب الدراسات الإسلامية المختلفة.

وقد اخترتُ أن تدور محاضراتي حول العلوم الإسلامية: من تفسير،
وحديث، وفقه، وأصول، ودعوة، وأن أتوَّخى فيها السهولة وعدم التعقيد،
وأن أربطها بالعصر الذي نعيش فيه، وقد سرَّني أن الجميع كانوا
حريصين على شهودها، شيوخاً وطلبة، وكان على رأس الحضور
باستمرار شيخنا أبو الحسن رَحِمَهُ اللهُ.

وهذه المحاضرة حول القرآن وتفسيره، أوردتُ فيها أهم القواعد والضوابط لمن يريد أن يفهم القرآن فهماً صحيحاً، كما حذرت من المزالق التي يقع فيها بعض الذين لا يلتزمون بهذه الضوابط.

وقد كنتُ أرتجل هذه المحاضرات على عادتي، دون اعتماد على أيّ ورق منّي، وكان بعض الطلاب سجّلوها على «الكاسيت»، فكانت فرصة لمكتبي في الدوحة، أن يفرّغها على الورق، لإعدادها للطباعة والنشر، عسى أن ينفع الله بها بعض من يقرأها.

أسأل الله سبحانه أن ينفع بها قائلها، ومسجلها، وطابعها، وناشرها، وقارئها، ومن أسهم فيها بنصيب قلّ أو كثر. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الفقير إليه تعالى

يوسف القرضاوي

الدوحة في ذي الحجة ١٤٣١هـ

نوفمبر ٢٠١٠م

* * *





بسم الله الرحمن الرحيم

في تفسير القرآن الكريم^(١)

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأزكى صلوات الله وتسليماته على البشير النذير، والسراج المنير، مُعَلِّم الناس الخير، وهادي البشرية إلى الرشد، وقائد الخلق إلى الحق، ومُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، سيدنا وإمامنا وأُسُوتنا وحبينا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه، ودعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أحييكم به أيها الإخوة الأعزّة، والأبناء الأحبة: تحية الإسلام، تحية من عند الله مباركة طيبة، وتحية الإسلام السلام، فالسلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته.

(وبعد)

من خصائص القرآن:

أتحدّث إليكم اليوم عن موضوع خطير، موضوع ذي شأن، وذي بال، لأنّه يتعلّق بالقرآن الكريم، بكتاب الله ﷻ، حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، عمدة الملة، وأساس العقيدة، وينبوع الشريعة، وروح الوجود الإسلامي كلّهُ.

(١) أُلقيت بمكتبة الشبلي النعماني بدار العلوم، ندوة العلماء، الهند، بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٩٦م.

(١) كتاب مُبِين:

وقد خُصَّ هذا القرآن بعدة خصائص، لا توجد في غيره، فهو كتاب مُبِين مُيسَّر، نقرأ في القرآن قول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، وقوله: ﴿حَمَّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١، ٢، والدخان: ١، ٢]، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١]، ومعنى ﴿مُبِينٍ﴾: أَنَّهُ بَيِّنٌ بِنَفْسِهِ، مبين لغيره. وقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، والنور مُنْكَشَفٌ في نفسه، كاشف لغيره. فكيف إذا كان نورًا مبينًا؟ وقد وصفه تعالى بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿حَمَّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١، ٢، والدخان: ١، ٢]، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١، والشعراء: ٢، والقصص: ٢]، ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]. ومعنى ﴿مُبِينٍ﴾: أَنَّهُ بَيِّنٌ بِنَفْسِهِ، مبين لغيره.

(٢) كتاب مُيسَّر:

وهو كتاب مُيسَّر للذكر والحفظ والفهم، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، ويقول: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، ولذلك لا تجد كتابًا في الدنيا يحفظه الألف، وعشرات الألف، ومئات الألف من الناس، غير القرآن الكريم.

هاتِ أعظم قَسٍّ من قُسُس اليهود أو النصارى، أو أعظم كاردينال أو بابا، واسأله: هل يحفظ الكتاب المقدس، أو يحفظ نصفه، أو حتى

رُبَّعه؟ لا تجد هذا؛ لأنَّ هذه الكتب لم تُيسَّر للحفظ والفهم كما يُسرَّ القرآن الكريم لذلك. القرآن يحفظه المسلمون: الصغار والكبار، الرجال والنساء، بل والعجم قبل العرب. لقد حفظتُ القرآن الكريم - والله الحمد - وأنا دون العاشرة وجودته^(١).

ومنذ سنين ذهبتُ إلى بنغلاديش، فوجدتُ في إحدى المدارس العربية الإسلامية، تلميذا عمره تسع سنوات يحفظ القرآن كما أنزل، امتحنته بنفسي فلم يُخطئ في حرف واحد، وفي مصر وجدنا من عدَّة سنوات صبيانا في سنِّ السابعة، يحفظون القرآن حفظا جيِّداً، وأحدُهم جيء به إلى قطر، وكرَّمه وزير التربية والتعليم القطري. لا يوجد كتاب يحفظه من يحفظه بهذه الكثرة إلا القرآن الكريم.

وأعجب من هذا أنك تجد الرجل من الهند أو باكستان أو تركيا أو بورما أو نيجيريا، يحفظ القرآن كله كأنه آلة تسجيل، امتحنتُ بعض هؤلاء بنفسي فلم يَخرم حرفاً، ولم يُسقط كلمة من القرآن، إخواننا من الهنود والباكستانيين والبنغاليين امتحنتُهم في مسابقة حفظ القرآن في قطر، وحينما أسأل أحدَهم عن اسمه، لا يعرف معنى كلمة: «ما اسمك؟»، فهو لا يفهم العربية، ومع هذا يحفظ القرآن الكريم كاملاً، وهو لا يفهم منه كلمة. فهل هناك كتاب في الدنيا مثل هذا الكتاب يحفظه من لا يفهمه؟ هذا كتاب عجيب.

فالقرآن من خصائصه أنه مُيسَّر للذكر والحفظ والفهم.

(١) كنتُ في الجماهيرية الليبية منذ زمن قريب، فقالوا: قد أكملنا مليون حافظ للقرآن، وبدأنا في المليون الثاني. وقد استبعدتُ ذلك في أول الأمر، فأخبروني أنَّهم معروفون بالأسماء، ولكلِّ واحد منهم سجل، ويأخذ مكافأة دورية من الدولة.

(٣) كتاب مُعْجَز:

ومن خصائص هذا الكتاب العظيم: أنه كتاب مُعْجَز، بل هو المعجزة الكبرى، والآية العظمى لمحمد ﷺ، لم يتحدّد محمدٌ الناس إلا به، رغم ما وقع على يديه ﷺ من آيات كونية، ومعجزات حسّية، حفلت بها الكتب، وامتلات بها الصحاح والحسان من الأحاديث^(١)، ولكن لم يتحدّد إلا بالقرآن، تحدّى العرب أن يأتوا بمثل القرآن: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فليأتوا بحديثٍ مثله: ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]، أو يأتوا بعشر سور مثله مفتريات: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، أو يأتوا بسورة مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، أو بسورة من مثله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فغلبوا وانقطعوا، وحق قول الله ﷻ: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

(٤) كتاب خالد:

ومن خصائص هذا القرآن: الخلود، أنه كتاب خالد، كتاب محفوظ، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، تولّى الله حفظه، استحفظ الأمم السابقة كُتُبُهَا فلم يحفظوها، ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، ولكنه تبارك وتعالى هو الذي تولّى حفظ القرآن بنفسه

(١) مثل خروج الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام القليل، وحنين الجذع، وتسبيح الحصى بين يديه، وتسليم الحجر والشجر عليه بالنبوة، وتظليل الغمام عليه، وانشقاق القمر، وغيرها.

ووعده بذلك، وعدًا مؤكدًا فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، ولذلك نحن نتلو القرآن كما كان يتلوه رسول الله ﷺ، بغنّه ومدّه، وحركاته وسكناته، نقرؤه بالرسم العثماني، كما كتبه المسلمون في عهد الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه، ولم يجرؤ أحد أن يُغيّر الخطّ العثماني، بقي القرآن كما هو، نقرؤه كما كُتب، دخل عليه النقط والشكل فقط، وبقي كما هو بالرسم العثماني، وبقي كما هو نقرؤه كما كان يقرؤه الصحابة، وكما كان يقرؤه النبي ﷺ، لم يجرؤ أحد أن يزيد في هذا القرآن، ولا أن ينقص منه.

هناك مئة وأربع عشرة سورة، كلّها بدأت بالبسملة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، إلا سورة واحدة لم تبدأ بالبسملة، هي سورة التوبة، سورة براءة، هل استطاع أحد أن يقول معترضًا: لماذا لا نضع البسملة في هذه السورة كما وُضعت في السور الأخرى؟ لم يستطع أحد أن يفعل ذلك، لأنّها هكذا وردت، وهكذا ينبغي أن نحفظ هذا القرآن.

قرأ أحد الصبية في الكتاب مرّة قول الله ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قرأها ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ ﷺ﴾، ﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، فهاج عليه التلاميذ من يمينه ومن شماله، ونهروه وقالوا له: من أين جئت بجملة: «صلى الله عليه وسلم» هذه؟! هي: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. في القرآن نقرأ اسم النبي ﷺ كما هو، لا نصلي ولا نسلّم، فلننظر كيف استنكر الصبية الصغار في الكتاب الزيادة في القرآن، فهذا كتاب له خصائص لا توجد في غيره، وعلى هذا يجب أن نفهم هذا الكتاب ونفسّره، ولا أقصد بالتفسير التفسير الرسمي

فقط، بمعنى أننا نفّسر القرآن من الفاتحة إلى الناس، وإنما أقصد أن نفهمه، وهذا الفهم هو المشكلة في عصرنا.

مزلق في فهم القرآن وتفسيره:

هناك مزلق في فهم القرآن وتفسيره، القرآن الذي هو أساس الأمة ومرجعها، كما قال الله ﷻ: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، هذا القرآن الذي هو المرجع، بعض الناس يريدون أن يجعلوه هو نفسه موضع اختلاف، فلا يبقى لنا حكم نحتكم إليه، ولا مرجع نعوّل عليه، والعلمانيون واللا دينيون والعصريون يريدون أن يتلاعبوا بالقرآن، وهذه هي المشكلة التي احتاجت إلى أن نضع المعالم والضوابط لحسن فهم القرآن وتفسيره، حتى لا يعثر العابثون بهذا القرآن العظيم، وحتى لا يتلاعب المتلاعبون بأساس الملة وعمدة العقيدة والشرعة.

لهذا احتجنا إلى أن ننبّه إلى المزالق في فهم القرآن وتفسيره، هناك أناس من غير البيئة الإسلامية - للأسف - أقحموا أنفسهم على كتاب الله، فأرادوا أن يثنوا عن الآيات، ويلووا أعناقها، لتؤيد ما يذهبون إليه، هذا ما رأيناه في كثير من الكتاب العصريين.

إنّ القرآن الكريم لا يفهمه إلا من تأهّل لفهمه، صحيح أنّ القرآن كتاب مبين، ولكنه أيضاً كتاب مُعْجِز، ركّز الله فيه من المعاني والمفاهيم والأحكام والأسرار والكنوز، ما لا يطلع عليه إلا من آتاه الله البصيرة والحكمة والعلم، فلا بدّ أن يتأهّل لذلك.

(١) عدم التمكن من اللغة العربية:

وأول ما يتأهّل به الذي يريد أن يفهم القرآن ويفسّره، معرفة اللغة

العربية، بل التعمُّق في اللغة العربية، بحيث يصبح متذوّقاً لها، كأنّه واحد من العرب الأقدمين، الذين قال قائلهم:

ولستُ بنحويٍّ يُلوكُ لسانه ولكن سليقيٍّ أقول فأعرب^(١)

لا بدّ أن يصل في فهم اللغة العربية والتمكُّن منها إلى هذا الحد، أمّا الذي لا يعرف النحو، ولا الصرف ولا البلاغة، ولا مفردات اللغة، كيف يستطيع أن يفسّر القرآن؟! لا بدّ لمن يُفسّر القرآن أن يكون على علم جيّد باللغة العربية، لغة القرآن.

فالزمخشري في تفسيره أنكر على من فسّر قول الله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، بقوله: أنّ الناس يُدعون يوم القيامة بأُمّياتهم، فجعل (الإمام) جمعاً للأُم، مع أنّ المعنى أنّ كلّ أُمّة تُدعى بكتابها ونبيّها، يا أُمّة النبي فلان، يا أُمّة محمد، يا أُمّة موسى، أو يا أُمّة القرآن، يا أُمّة التوراة، وهكذا.

قال الزمخشري: «ومن بدع التفاسير: أنّ الإمام جمع أمّ، وأنّ الناس يُدعون يوم القيامة بأُمّياتهم، وأنّ الحكمة في الدعاء بالأُمّيات دون الآباء رعاية حقّ عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين، وألاّ يفتضح أولاد الزنا. وليت شعري أيهما أبدع؟ أصحّة لفظه، أم بهاء حكمته؟!»^(٢).

كنتُ أتناقش مع بعض الإخوة في دلالة قول الله تعالى في سورة الواقعة: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، هل فيها دلالة على أنّ المُصحف لا يَمَسُّه مُحدّث؟ قلتُ له: لا، لا يوجد في هذه الآية دليل.

(١) ذكره من غير نسبة للزمخشري في أساس البلاغة مادة (س. ل. ق).

(٢) انظر: الكشف للزمخشري (٦٨٢/٢)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

لأن القاعدة: «أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور». وفي الآيات المذكورة هنا، في سورة الواقعة ذكر أمران، ذكر القرآن الكريم، وذكر الكتاب المكنون، في قول الله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٩].

فإلام يعود الضمير في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾؟ يحتمل أن يعود إلى الكتاب المكنون، ويحتمل أن يعود إلى القرآن الكريم، يُحتمل هذا، ويُحتمل ذاك، والأصل أن يكون الضمير في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾، يعود إلى الكتاب المكنون؛ لأنه أقرب مذكور. وهذا هو الصحيح في تفسير الآية، لأن معنى الآية - وقد نزلت في مكة قبل تشريع الأحكام - أن القرآن محفوظ في لوح، في أم الكتاب، فهو كتاب مكنون محفوظ، لا يمسه إلا المطهرون، وهم الملائكة، فلا تصل إليه الشياطين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ * إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

يقول الفخر الرازي: «ما المراد من الكتاب؟ نقول فيه وجوه: الأول: وهو الأصح أنه اللوح المحفوظ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]... وإذا كان الأصح أن المراد من الكتاب اللوح المحفوظ، فالصحيح أن الضمير في ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ للكتاب»^(١).

لا بد إذن لمن يريد أن يفهم القرآن أن يتزوّد باللغة العربية، أن يكون متمكناً من اللغة.

(١) انظر: تفسير الرازي (٤٣٠/٢٩)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

وناقشتُ أيضاً بعض الإخوة في قول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، قلتُ له: كلمة: ﴿كَافَّةً﴾ هذه تُعرب حالاً؟ فهل تعرف صاحب هذه الحال؟ فلم يفهم كلامي. فقلتُ له: للحال صاحب، وهنا يمكن أن تكون هذه الحال من المفعول به، أو تكون من الفاعل^(١)، فإن كانت الحال من الفاعل، يكون المعنى: أيها المسلمون كافة قاتلوا المشركين. أي: تجمّعوا على قتالهم كما يتجمّعون على قتالكم. وهو الصحيح.

وإن كانت الحال من المفعول به، يكون المعنى: قاتلوا أنتم أيها المسلمون جميع المشركين، فإن كانت الحال من الفاعل يكون لها معنى غير المعنى المتداول، وهكذا.

هناك أناس يقولون: الخمر لم تُحرّم في القرآن؛ لأنّها لم تأتِ بلفظ التحريم، كما في قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، وإنّما قال الله في شأن الخمر: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، فقال: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾، هكذا قالوا، وهكذا فهموا.

فنقول ردّاً عليهم: كلمة: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ هذه، ليست كلمة هيّنة، بل إنّ مَنْ أدرك معنى هذه الكلمة لوجد أنّها أوكد في التحريم من كلمة التحريم نفسها، لأنّ معنى اجتنب الشيء: اجعل بينك وبينه جانباً. يعنى ابتعد عنه. فهي تُشبه في النهي كلمة: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا﴾، كالتي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا أَلْفَوْحَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، أو التي في

(١) انظر: تفسير النسفي (٦٧٨/١)، تحقيق يوسف علي بديوي، نشر دار الكلم الطيب، بيروت، ط١،

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، والتحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٢٧٨/٢)، نشر الدار التونسية، ١٩٨٤هـ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢]، فالله لم ينه في الآية عن الزنا فقط، وإنما نهى عن القرب منه، وعن مقدماته. وكذلك كلمة: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾، فالله لم ينه عن شرب الخمر فقط، وإنما نهى عن الاقتراب من الخمر، ولذلك لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: عاصرها ومعتصرها، وشاربها وحاملها والمحمولة إليه، وساقها، وبائعها وآكل ثمنها، والمشتري لها والمشتراة له^(١). كل هذا يدخل في معنى ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾.

تتبع موارد الكلمة في القرآن:

ولو تأمل من يريد أن يفسر القرآن الكريم، وتتبع موارد الكلمة في كتاب الله - وهذا أيضاً أمر مهم، لو تتبع موارد كلمة: «الاجتناب» هذه، لوجدها وردت إمّا مع الشرك والطاغوت، وإمّا مع الكبائر والفواحش، كما في قول الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله سبحانه: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [الزمر: ١٧]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبْرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبْرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

وهكذا رأينا كلمة «الاجتناب» لا تأتي إلا مع الشرك، ومع الطاغوت، ومع كبائر الإثم والفواحش، هذا هو موقعها، فلا تأتي هذه الكلمة مع

(١) رواه الترمذي في البيوع (١٢٩٥)، وقال: غريب. وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨١)، وصححه الألباني في غاية المرام (٦٠)، عن أنس.

صغائر الأمور، فهؤلاء الذين يريدون أن يقصروا القرآن قصرًا على أهوائهم، وأن يقولوا: إنَّ القرآن لم يأت بتحريم الخمر، وإنَّما قال فقط: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾، لا يعرفون اللغة العربية، ولا يتذوقونها.

ولم يعلم هؤلاء كذلك أنَّ القرآن قد جاء بأشدَّ المغلطات في التحريم، لأنَّه قرن الخمر بالأنصاب وبالأزلام، واعتبرها رجسًا، واعتبرها من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها، ورثب على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾، وذكر بعض آثارها الدينية والاجتماعية السيئة، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ أَلْعَادَ وَأَلْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٩١]، وكلها مؤكِّدات للتحريم. وهكذا يتبيَّن أنَّ من أسباب الوقوع في الخطأ، وأحد المزالق في الفهم والتفسير للقرآن: عدم التمكن من اللغة العربية.

(٢) الجهل بالسُّنة النبويَّة:

ومن مزالق الفهم والتفسير للقرآن أيضًا: الجهل بالسُّنة النبويَّة، بعض الناس لا يعرف شيئًا في السُّنة، ومع ذلك يُقدِّم على تفسير القرآن الكريم، رأينا أحدهم اسمه: «حسين أحمد أمين» يقول في قول الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: ٣٨]: هذا كان خاصًا بأيام نزول القرآن؛ لأنَّ هذه الآية نزلت في سرقة الناقة، والناقة كانت هي حياة الإنسان العربي، وروح وجوده، إذا سرقها كأنَّما قتله، فهذه الآية جاءت في سرقة النوق. هكذا قال.

ولو أنَّه رجع إلى كُتب السُّنن والأحاديث، لعلم أنَّ النوق في زمن النبوة ما كانت تُسرق، ففي الحديث الصحيح، أنَّ النبي ﷺ سئل عن ضالة الإبل، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرَّت وجنتاه، ثم قال:

«ما لك ولها؟! معها حذاؤها وسقاؤها، حتّى يلقاها ربّها»^(١). أي اتركها حتى يأتي صاحبها ومالكها، فمعها حذاؤها أي خفها، تستطيع أن تمشي في الصحاري، ومعها سقاؤها في كرشها وسنامها، اتركها حتى يأتي ربّها، فكانت الإبل في عهد النبي ﷺ، وفي عهد أبي بكر، وفي عهد عمر، وفي صدر عهد عثمان رضي الله عنه، لا يتعرّض لها أحد، حتى وجد عثمان رضي الله عنه أنّ الأمة حدث فيها خليط، ودخل عليها أناس من أمم أخرى، وبدأت الإبل تُسرق، فأمر بوضع ضوالّ الإبل في بيت المال^(٢). أمّا في عهد النبوّة وعهد الشيخين ما كانت تُسرق الإبل.

فهذا الذي يزعم أنّ الآية نزلت في سرقة الإبل لم يفهم شيئاً عن عصر النبوّة، ولو رجع إلى هذا العصر وقرأ كتب الصحاح وكتب السنن، لعرف أنّ الثوق ما كانت تُسرق قط، فالجهل بالسنة أدّى إلى هذا الانحراف.

(٣) إهمال أسباب النزول:

كذلك من أسباب الانحراف: الغفلة عن أسباب النزول، نحن نجد أنّ هناك آيات لها سبب نزول مُعيّن، فينبغي أن ندرك سببها، ولا نُهمّل سياقها.

سأل مروان بن الحكم سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٢)، كلاهما في اللقطة، عن زيد بن خالد

الجهني.

(٢) رواه مالك في الأفضية (٢٨١٠)، تحقيق الأعظمي، عن الزهري.

وقال لبّوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبًا، لنُعَذِّبَنَّ أجمعون. فقال ابن عباس: «وما لكم ولهذه؟ إنّما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه، بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم»، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] كَذَلِكَ حَتَّى قَوْلِهِ: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أْتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨] ^(١).

وسُئِلَ سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن الحرورية - وهم جماعة من الخوارج، كفّروا غيرهم واستحلوا دماءهم، وقاتلهم عليّ والصحابه - فقال: إنّهم عمدوا إلى آيات نزلت في المشركين، فجعلوها في المسلمين. فكان رضي الله عنه يراهم شرار خلق الله ^(٢).

أمران أساسيان في أسباب النزول:

من هنا لا بدّ أن ننظر إلى أسباب النزول، ونهتم بها، مع الاهتمام بأمرين أساسيين:

الأمر الأول: أنّ كثيرًا من الأحاديث التي وردت في أسباب النزول لم تصح، فليس كلّ ما ورد في الكتب التي ألّفت في أسباب النزول صحيحًا، مثل: «أسباب النزول للواحدي»، أو: «لُبَابُ النُّقُولِ فِي سَبَابِ النَّزُولِ لِلْسِّيُوطِيِّ»، أو ما ذكر في كتب التفسير من أسباب النزول،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٥٦٨)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٧٨).
(٢) علّقه البخاري في صحيحه (١٦/٩) باب قتل الخوارج والملحدين...، ووصله ابن عبد البر في التمهيد (٣٣٥/٢٣) من طريق ابن وهب، وصحّح إسناده الحافظ في تغليق التعليق (٢٥٩/٥).

فليست كلّها صحيحة، بل أكثرها غير صحيح. فلا بدّ أن نتحرّى وندقّق في قبول أسباب النزول.

الأمر الثاني: أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذا هو الرأي الصحيح والمرجّح في علم أصول الفقه، العبرة بعموم اللفظ، وليس بخصوص السبب إلا ما استُثني، فلا بدّ أن نراعي هذا حينما نتحدث عن أسباب النزول.

(٤) اتباع المتشابهات والإعراض عن المحكمات:

من أسباب الانزلاق في الفهم والتفسير للقرآن: اتباع المتشابهات والإعراض عن المحكمات، نحن نعلم أنّ الله أنزل الكتاب منه آيات مُحكمات، هُنَّ أمّ الكتاب - أي أصله الذي يُرد إليه - وأخر متشابهات، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٧]، والمفروض لكي نحسن الفهم، أن نردّ المتشابهات إلى المحكمات؛ لأنها بيّنة في نفسها، يفهم غيرها في ضوئها. والذين يقولون: القرآن حمّال أوجه. إنّما يعنون به هذه المتشابهات، بخلاف المحكمات، ولو كان القرآن كلّهُ حمّال أوجه، ما سُمّي «كتاباً مبيناً»، ولا «نوراً مبيناً». ولكن المفتونين عكسوا ذلك، جعلوا المتشابهات هي الأصل، وأغفلوا المحكمات.

والنبي ﷺ حذّر من هؤلاء، تلا هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٠﴾، وقال: «فإذا رأيتم الذين يتَّبَعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»^(١). فهو لاء الذين في قلوبهم مرض، وفي سلوكهم انحراف، يتَّبَعون المُتَشَابِهات، ويدعون المُحْكَمَات، وهذا ما نراه عند كثيرين في عصرنا، يدعون الآيات الواضحة القاطعة الدَّالَّة، ويذهبون إلى المُتَشَابِهات.

وكذلك يفعلون في السُّنن، كما رأينا بعضهم يستدلُّ على أنَّ الربا المُحَرَّم هو ما كان أضعافاً مضاعفة، مستدلاً بالآية الكريمة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، ونسي الآية المُحْكَمَة التي خُتِمت بها آيات الربا، بل خُتِمت بها آيات القرآن كُلِّها، كما جاء عن ابن عباس^(٢) وهي قول الله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩﴾.

تركوا هذه الآية وأمسكوا بآية آل عمران، بينما آية آل عمران كما يقول العلماء: هي لبيان الواقع وتفضيحه وتجسيمه. فإنَّ العرب كانوا يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، الربا المَرَكَّب المُّضَاعَف، حيث كان يأتي الشخص ويقول: أعطيك هذا بعشرة في المئة لمدَّة شهر مثلاً، فإذا مرَّ الشهر ولم يقدر على السداد، يقول له: أمهلك على أن تدفع لي عشرين في المئة، وهكذا يزيد عليه، حتى يُصبح المبلغ المطلوب من هذه الفوائد الربويَّة أكثر من المبلغ الأصلي، يصير أضعافاً مضاعفة، وهذا هو الواقع.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٥٤٧)، ومسلم في العلم (٢٦٦٥)، عن عائشة.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٥٤٤).

فالقُرآن أحياناً يذكر الواقع لبيانه وتفظيعه، كما قال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْغُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣]، فليس معنى الآية: جواز الإكراه على البغاء إذا لم يُردن التحصن، وإنما البغاء مُحَرَّم، سواء أُرِدْنَ التحصن أم لم يُردن، إنما يريد الله وَجَلَ تشنيع وتفظيع أمر السادة، الَّذِينَ كانت فتياتهم وجواريتهم وإماؤهم يرفضن البغاء، وهم يُصِرُّون على أَنْ يكسبوا المال من ورائهنَّ، عن طريق الزنا، وبيع الفروج، والعياذ بالله.

كذلك آية الربا المضاعف أرادت تفضيع هذا الواقع، وتجسيده بصورة مُزريّة، أمّا الآية الحاسمة في موضوع الربا، فهي آية البقرة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ولو كان الأمر على ما يقول هؤلاء، لكان الربا المُحَرَّم هو ما كان ستمائة في المئة، لأنَّ الضَّعْف هو المِثْل، والمِثْل معناه مئة في المئة، فإذا كان المِثْل أضعافاً، فمعناه ثلاثة أمثال على الأقل، لأنَّ أَقْلَ الجمع في اللغة العربية ثلاثة، فإذا كانت هذه الأضعاف مضاعفة، ولو على الأقل مرة واحدة، فيكون ثلاثة ضرب اثنين بسطة، فمعناها أنه لا يحرم من الربا إلا ما كان ستمائة في المئة، فهل يقول هذا عاقل؟! فالأخذ بالمتشابهات وترك المحكمات، من أسباب الزيغ والانحراف في فهم القرآن وتفسيره.

(٥) سوء التأويل:

كذلك من أسباب الانزلاق في الفهم والتفسير للقرآن: سوء التأويل، الَّذِينَ يخرجون بالقرآن عن ظاهره لغير دليل، الأصل حمل النصوص على ظواهرها، إلا لدليل يُرَجَّح ذلك، فيمكن أن نخرج من هذا الأصل إلى التأويل، كل العلماء لجؤوا إلى التأويل، المفسِّرون تحدَّثوا عن التأويل، والمتكلِّمون تحدَّثوا عن التأويل، والأصوليون تحدَّثوا عن

التأويل، ووضعوا له ضوابط، حتى لا يكون كلاً مباحاً، يراه كل من شاء، كيف شاء، كما صنعت بعض الفئات في تراثنا الإسلامي المتنوع.

الفلاسفة أسأؤوا التأويل:

هناك أناس أسأؤوا التأويل من غير شك، وهذا وجدناه عند الفلاسفة، الذين يُسمّونهم الفلاسفة الإسلاميين، من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا، أولوا القرآن ليتفق مع فلسفة أرسطو، ولذلك خطّأهم الإمام الغزالي في كتابه: «تهافت الفلاسفة»، في سبع عشرة مسألة، وكفّرهم في ثلاث مسائل: أنهم لا يقولون بخلق الله للعالم، بل يقولون بقدم العالم، وأن الله لا يعلم الجزئيات، وإنما يعلم الأشياء على وجه كلي، ولا يقولون بالمعاد الجسماني، بل يقولون: إن العذاب أو النعيم في الآخرة للروح فقط دون الجسد. أولوا القرآن الكريم لكي يتفق مع الفلسفة الإغريقية، وخصوصاً فلسفة أرسطو الذي يسمونه «المعلم الأول»، مع أن المعلم الأول للمسلمين وللعالم كله هو محمد رسول الله ﷺ.

المعتزلة أسأؤوا التأويل:

وكذلك وجدنا المدرسة الاعتزالية، أساءت التأويل لتتفق مع المسلمات العقلية التي انتهوا إليها، فأولوا الآيات المتعلقة بالشفاعة، مع أن القرآن نفى الشفاعة في آيات وأثبتها في آيات، والشفاعة المنفية غير الشفاعة المثبتة، فالشفاعة لا تكون إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولا تكون إلا لمن ارتضى، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، أي: لأهل التوحيد. ولكنهم أولوا الآيات والأحاديث الكثيرة في شفاعة النبي ﷺ، وشفاعة الملائكة، وشفاعة الأنبياء والمرسلين، وشفاعة المؤمنين والصالحين للمذنبين من الموحدّين.

وأولوا كذلك الآيات المتعلقة برؤية المؤمنين لربهم وَعَجَّلَ فِي الآخرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وردوا ما يسندها من أحاديث صحاح، كحديث: «إِنَّكُمْ سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»^(١). والتشبيه للرؤية، وليس للمرئي من غير شك.

وبعضهم أول أحاديث عذاب القبر، والآيات التي تدلُّ عليه، والآيات المتعلقة بالصراط، وبالميزان، وغيرها. فالمعتزلة ممن أساء استخدام التأويل وأسرف فيه، وكلُّ الفرق المختلفة أولت، حتى الأشعرية أولوا، وأسرفوا أحياناً في التأويل، كما ذكر الإمام الغزالي في كتابه: «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»^(٢).

وفي عصرنا نجد الذين يؤولون القرآن ويسرفون في تأويله.

المهمُّ أنَّ التأويل أمر خطير، وهو ما ينبغي أن نقف دونه، ونحول دون التلاعب بكتاب الله، والتأويل لآيات الله الواضحات. فسوء التأويل من أسباب الانزلاق في الفهم والتفسير للقرآن.

(٦) تناقل الروايات الإسرائيلية:

كذلك من الأسباب: تناقل الروايات الإسرائيلية، وبعضها في الحقيقة ليس له أساس في الكتب عندهم، كثير مما يوجد في كتب المسلمين من الإسرائيليات لا يوجد في كتب الإسرائيليين، وإنما هي ممَّا تناقله الناس

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٣٣)، عن جرير بن عبد الله.

(٢) انظر: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ٤٤، ٤٥، تحقيق محمود بيجو، ط ١،

شفهياً بعضهم عن بعض، ثم دسّوه على المسلمين، فقبله من قبله منهم، ورفضه المحققون. ومن هؤلاء الذين رفضوا الإسرائيليات، الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ. قال في تفسيره: «ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد. فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحّته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل. فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجاوز حكايته لما تقدّم. وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني. ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك. كما يذكرون في مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدّتهم، وعصا موسى من أي شجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك ممّا أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز. كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ إلى آخر الآية [الكهف: ٢٢]»^(١).

وقال في تفسير سورة الكهف، بعد أن ذكر أقوالاً في إبليس، واسمه: «وقد روى في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يُقَطَّع بكذبه، لمخالفته للحق الذي بأيدينا. وفي القرآن غنيّة عن

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٩/١)، تحقيق سامي محمد سلامة، نشر دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

كلّ ما عده من الأخبار المتقدمة؛ لأنّها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وُضِعَ فيها أشياء كثيرة. وليس لهم من الحفاظ المُتَقِنِينَ الَّذِينَ يَنْفُونَ عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأئمة من الأئمة والعلماء، والسادة والأتقياء، والبررة والنجباء، من الجهابذة النّقَاد، والحُفَاط الجياد، الَّذِينَ دَوَّنُوا الحديث وحرّروه، وبَيَّنُوا صحیحَه من حسنَه من ضعيفه، من منكره وموضوعه ومتركه ومكذوبه، وعرفوا الوضّاعين والكذّابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال. كلُّ ذلك صيانةً للجناب النبويّ والمقام المحمديّ، خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أَنْ يُنْسَبَ إليه كذبٌ أو يُحَدَّثَ عنه بما ليس منه. فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنّات الفردوس مأواهم. وقد فعَل^(١).

ولكنّه للأسف أحياناً يذكر في الإسرائيليات أحاديث طويلة جدّاً، كما فعل في سورة: [ص]، حيث ذكر حديثاً طويلاً عن سليمان عليه السلام، ثم قال: وهو غريب جدّاً^(٢). وإذا كان الحديث مُنْكَرًا أو غريبًا جدّاً، فأرحنا منه ولا داعي له!

وكثير من المفسّرين وقع في هذا، نجد الإمام القرطبي رحمه الله، برغم قلّة ما يذكر من الإسرائيليات وقع في هذا، والمفسّرون متفاوتون في قبول هذه الإسرائيليات.

والنبي ﷺ حذّر من هذه الإسرائيليات، قال أبو هريرة رضي الله عنه: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٦٨/٥، ١٦٩).

(٢) المصدر السابق (٦٩/٧، ٧٠).

رسول الله ﷺ: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿أَمَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]»^(١).

وروى الإمام البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حذر من الإسرائيليات، ورفض سؤال أهل الكتاب في هذه القضايا، وقال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرأونه لم يُشَبَّ؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا! أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلًا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم^(٢).

وللأسف هناك إسرائيلييات كثيرة وخصوصًا في القصص القرآني، كما نجد في قصة داود عليه السلام، وكما نجد في قصة يوسف عليه السلام، الكلام الذي يذكر في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَنَ رَبِّهٖ﴾ [يوسف: ٢٤]، رغم أن القرآن واضح في أن يوسف عليه السلام كان ناصع الصفحة، فقد قال حينما راودته المرأة عن نفسه: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهٗ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهٗ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، والله تعالى قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، والعباد المخلصون ليس للشيطان عليهم سلطان، كما قال الله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، بل إن إبليس نفسه قال لله عز وجل: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [إلا عبادك منهم المخلصين] [ص: ٨٢، ٨٣]، وهذا يدل على أن الشيطان ليس له على يوسف سلطان ولا سبيل.

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٤٨٥).

(٢) رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٥).

وقد أعادت امرأة العزيز الكَرَّةَ أمام النِّسوة اللاتِي صَنَعَتْ لَهُنَّ
الْوَلِيْمَةَ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ
مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا
هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ
نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣١﴾
[يوسف: ٣١، ٣٢]، فطلب العصمة لنفسه، فليس ثمة إذن أي ضعف في
موقف يوسف عليه السلام.

ولمَّا فشل معها سلاح الإغراء، ولم ينفع معه أن هيأت الأسباب،
وغلّقت الأبواب، وقالت له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾. لجأت إلى سلاح آخر، إنه
سلاح التهديد، هدّدت بالسجن والصغار والعذاب، فقالت: ﴿وَلَقَدْ
رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾،
ورغم ذلك يأتي من ينسب ليوسف عليه السلام ميلا، رغم نفي القرآن ذلك
بأوضح عبارة.

من أجل هذا نقول: إنَّ الإسرائيليات دخلت على التفسير فكدرت
صفاءه، فينبغي أن ننزّه تفسيرنا للقرآن - وخصوصًا في عصرنا هذا - عن
هذه الترهات الإسرائيلية.

(٧) قبول الروايات الواهية عن مفسري السلف:

كذلك من أسباب الانزلاق في الفهم والتفسير للقرآن: قبول الروايات
الواهية التي ترد عن مفسري السلف، كالتي ترد عن ابن عباس، أو ابن
مسعود، أو مجاهد، أو قتادة، أو عكرمة، أو الضحاك، أو عن غيرهم من
مفسري السلف، ينبغي أن نضع هذه الروايات على مشرحة الجرح
والتعديل، من ناحية سندها وثبوتها، ومن حيث معناها ومضمونها.



معروف أنَّ ابن عباس روى عنه الكثيرون، وليست كل الروايات في مستوى واحد. «فمن جيد الطرق عن ابن عباس طريق: قيس، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عنه. وهي على شرط الشيخين، وكثيرًا ما يخرج منها الفريري والحاكم في مستدركه.

ومن ذلك طريق: ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عنه. هكذا بالترديد، وهي طريق جيدة وإسنادها حسن. وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرًا. وفي معجم الطبراني الكبير منها أشياء.

وأوهى طرقه: طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير، فهي التي سمّوها: سلسلة الكذب. وكثيرًا ما يخرج منها الثعالبي والواحدي. وطريق الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس. منقطعة، فإنَّ الضحاك لم يلقه.

فإن انضمَّ إلى ذلك رواية بشر بن عمار، عن أبي روق، عنه. فضعيفة لضعف بشر. وقد أخرج من هذه النسخة كثيرًا ابن جرير وابن أبي حاتم. وإن كان من رواية جويبر، عن الضحاك، فأشدَّ ضعفًا، لأنَّ جويبرًا شديد الضعف متروك، ولم يخرج ابن جرير ولا ابن أبي حاتم من هذا الطريق شيئًا، إنَّما خرجها ابن مردويه، وأبو الشيخ ابن حيان.

وطريق العوفي، عن ابن عباس. أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرًا، والعوفي ضعيف ليس بواه، وربما حسن له الترمذي^(١).

(١) انظر: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي (٢٣٩/٤).

فلا ينبغي أن نقبل هذه الروايات على علّاتها، وإنّما ينبغي أن ننقدها، وأن نسلط عليها أضواء الجرح والتعديل، ونعرف قدرها.

وكما ينبغي البحث في أسانيد الروايات، ينبغي البحث في متونها ومضامينها، وهل هي مقبولة المعنى، أو لا؟ وهو ما نتحدث عنه فيما يلي.

(٨) الأخذ بأقوال المفسرين الضعيفة:

كذلك من أسباب الانزلاق في التفسير: الأخذ بالأقوال الضعيفة الواردة عن المفسرين، فليس كل ما ورد عن المفسرين يكون صحيحاً في معناه، فالمفسرون بشر، ولهم أوهام البشر، وأخطاء البشر، وقصور البشر، وليس هناك معصوم إلا محمد ﷺ، حتى ابن عباس رضي الله عنهما، الذي دعا له النبي ﷺ وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(١).

وقال عنه المفسرون: هو ترجمان القرآن، وحبر الأمة، رغم كل هذا فإنّ له آراء أعرضت عنها الأمة، مثل آرائه في تفسير آيات المواريث، مثل مخالفته الصحابة في العول، والكلالة.

هناك آراء في التفسير واهية، وقع فيها كبار المفسرين، كشيخ المفسرين، الإمام محمد بن جرير الطبري، الذي كان إماماً في التفسير، وإماماً في الفقه، وإماماً في الحديث، وإماماً في التاريخ، وإماماً في القراءات، وإماماً في اللغة العربية، مجموعة أئمة في رجل واحد، ومع هذا له أشياء لا تصلح.

(١) رواه أحمد (٢٣٩٧)، وقال مخزّجوه: إسناده على شرط مسلم. رواه البخاري في الوضوء (٧٥) بلفظ: «اللهم علمه الكتاب»، ولفظ: «اللهم فقهه في الدين» (١٤٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٧) بلفظ: «اللهم فقهه».

نماذج من الأقوال الضعيفة:

مثل تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤]، فقال: «أولى الأقوال بالصواب في ذلك: أن يكون قوله: ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ﴾، موجَّهًا معناه إلى معنى الرِّبْط بالهَجَار، على ما ذكرنا من قيل العرب للبعير إذا ربطه صاحبه بحبل على ما وصفنا: (هَجَرَهُ فهو يهجره هَجْرًا).

وإذا كان ذلك معناه، كان تأويل الكلام: واللاتي تخافون نشوزهنَّ فعظوهنَّ في نشوزهنَّ عليكم، فإن اتَّعَظْنَ فلا سبيل لكم عليهنَّ، وإن أبين الأوبة من نشوزهنَّ فاستوثقوا منهنَّ رباطًا في مضاجعهنَّ، يعني: في منازلهنَّ وبُيوتهنَّ التي يضطجعن فيها، ويضاجعن فيها أزواجهنَّ»^(١). يعني إذا خاف الإنسان من نشوز امرأته يُقيِّدها ويربطها بحبل، أبهيمه هي؟! كلما غضبت من زوجتك ربطتها بحبل! وهذا - كما قال الزمخشري - من تفسير الثقلاء^(٢).

وهناك مَنْ قال من المفسرين: بأنَّ قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، نزلت في أهل الكتاب^(٣).

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٠٩/٨).

(٢) انظر: الكشف للزمخشري (٥٠٧/١).

(٣) وهذا ما روي عن البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وأبو مجلز، وأبو رجاء العطاردي، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله وغيرهم كما ذكره ابن كثير في تفسيره (١١٩/٣)، وقال ابن جرير في تفسيره (٣٥٨/١٠) بعد أن ذكر الآراء في هذه الآية: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول مَنْ قال: نزلت هذه الآيات في كفار أهل الكتاب، لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات ففيهم نزلت، وهم المعنئون بها، وهذه الآيات سياق الخبر عنهم، فكونها خبرا عنهم أولى!

الآيات الثلاث في أهل الكتاب وليست في المسلمين، هذا ما ذكره هؤلاء المفسرون، كما جاء عن ابن عباس قال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، إلى قوله ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، هؤلاء الآيات الثلاث نزلت في اليهود خاصة في قريظة والنضير^(١).

سبحان الله، يعني أهل الكتاب إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم من التوراة والإنجيل، فهم كافرون أو ظالمون أو فاسقون، والمسلمون إذا تركوا ما أنزل الله عليهم من القرآن فليسوا بكافرين ولا ظالمين ولا فاسقين، هل معنى هذا أن ما أنزل الله على المسلمين دون ما أنزل الله على من قبلهم؟! هل القرآن أقل منزلة من التوراة والإنجيل؟! بحيث إن من ترك التوراة والإنجيل ولم يحكم بهما يُحَكَّم عليه بالكفر والظلم والفسوق، ومن ترك القرآن عامداً ولم يحكم به لا يُحَكَّم عليه بشيء من ذلك؟!!

وهذا لا يجوز، هل الله تعالى يكيل بكيلين، أو يزن بميزانين، بحيث إن أهل الكتاب إذا عرضوا عما أنزل الله عليهم حَكَمَ عليهم بالكفر أو الظلم أو الفسق، وإذا عرض المسلمون عما أنزل الله عليهم فلا يوصفون بشيء من ذلك؟! هذا ليس معقولاً في ميزان عدل الله ﷻ.

وهذا القول ظهر للأسف منذ عصر الصحابة، ولذلك حين قيل لسيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه إن هذا في أهل الكتاب، قال: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، أن كان لكم كلُّ حُلوة، ولهم كلُّ مَرَّة^(٢). هم

(١) رواه أحمد (٢٢١٢)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود في الأقضية (٣٥٧٦)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٥٣): حسن صحيح الإسناد.

(٢) رواه الحاكم في التفسير (٣١٢/٢)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

يستحقُّون الكفر والظلم والفسق، وأنتم ليس عليكم شيء، هذا ما أنكره الصحابة، فينبغي إذا أردنا أن نقرأ كتب التفسير، أن نقرأها بعقلية الواعي الناقد، فليس كل ما ورد في التفسير صحيحاً، فيه الصحيح وفيه الضعيف.

إِنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، هذا يشمل أهل الكتاب، ويشمل المسلمين، لأنَّ الصيغة جاءت بلفظ من ألفاظ العموم، وهو لفظ ﴿وَمَنْ﴾، والعبرة بعموم اللفظ، وليس بخصوص السبب. قد يكون السبب خاصاً، ولكن اللفظ عام، إذا قلت: المدرسة الفلانية ساءت إدارتها فساءت نتيجتها، وَمَنْ ساءت إدارته ساءت نتيجته. كان هناك قضيتان، قضية خاصة وهي: (المدرسة الفلانية ساءت إدارتها فساءت نتيجتها). وقضية عامة، وهي التعليق الأخير بقولك: (وَمَنْ ساءت إدارته ساءت نتيجته). وهذا ما ذكره القرآن، ذكر التوراة وأحكامها، كقضية خاصة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، ثم قال حكم حكماً عاماً، فقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وذكر كذلك الإنجيل: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

فهذا ما ينبغي أن نفهمه. ولهذا ينبغي أن نحذر من هذه المزالتق.

معالم وضوابط لفهم القرآن الكريم:

كذلك ينبغي أن نضع أمام أعيننا معالم وضوابط لفهم القرآن الكريم، وأول هذه المعالم:

(١) القرآن كلام الله:

أن ننظر إلى هذا القرآن على أنه كتاب الله تعالى وكلامه، منذ فترة ظهرت في مصر، قضية أستاذ جامعي، اسمه نصر حامد أبو زيد، ألف كُتُبًا وأراد أن يرتقي بها إلى درجة أستاذ بالجامعة، فاللجنة المحكّمة قالت: هذه كتب لا يصلح أن يرقى بها، بل هي كفر، والعياذ بالله. ولكن للأسف تألفت لجنة أخرى، ووافقت على ترقي هذا الرجل، فقام بعض الإخوة، ومنهم بعض أساتذة في الأزهر ودار العلوم، برفع دعوى على هذا الرجل في المحكمة، يطالبون فيها بالتفرقة بينه وبين زوجته، لأنّه ارتدّ عن الإسلام، والقانون المصري لا يعاقب المرتد عن الإسلام، ولكن قانون الأحوال الشخصية - لكونه مستمدًا من الشريعة الإسلامية - يفرق بين المرتد وزوجته، فالمحكمة الابتدائية قالت: لسنا مختصين بهذا. ولكن محكمة الاستئناف حكمت بالتفريق بين هذا الرجل وبين زوجته، ثم رفع الأمر إلى محكمة النقض الأعلى فأقرّت هذا الحكم وأكّده.

هذا الرجل يقول: «إنّ القول بأنّ النصّ منتج ثقافي يكون في هذا الحالة قضية بديهية لا تحتاج لإثبات، ومع ذلك فإنّ هذه القضية تحتاج في ثقافتنا إلى تأكيد متواصل نأمل أن تقوم به هذه الدراسة، لكن القول بأنّ النصّ منتج ثقافي يمثل بالنسبة للقرآن مرحلة التكوين والاكتمال وهي مرحلة صار النص بعدها منتجًا للثقافة بمعنى أن صار هو النص المهيمن المسيطر الذي تقاس عليه النصوص الأخرى وتحدد به مشروعيتها. إنّ الفارق بين المرحلتين في تاريخ النص هو الفارق بين استمداده من الثقافة وتعبيره عنها وبين إمداده للثقافة وتعبيره لها»^(١).

(١) انظر: مفهوم النص لنصر حامد أبو زيد ص ٢٤، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،

فهو في نظره مُنتَج ثقافي، نعامله كما نعامل كل المُنتجات الثقافية، لا ننظر إليه على أنه شيء سماوي أو شيء مُقدَّس، ونسي أن هذا القرآن كلام الله، بنص القرآن نفسه.

يقول الله تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥]، ويقول وعجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فالقرآن الكريم كلام الله، ولا بد أن ننظر إليه على هذا الأساس، وينبغي أن نفهمه ونفسره دون أن تكون عندنا خلفيّة نفرضها عليه.

مشكلة الفلاسفة أنهم قرؤوا القرآن وعقولهم محشوة بفلسفة أرسطو، فأرادوا أن يجبروا القرآن جبراً، ويقهروه قهراً على أن يتبع فلسفة أرسطو، والقرآن متبوع لا تابع، وحاكم لا محكوم، وقائد لا مقود، فلا ينبغي لإنسان أن يقرأ القرآن ويريد أن يفرض ثقافة أخرى عليه، فهذه مشكلة الفلاسفة كما قلنا مع القرآن.

وكذلك المعتزلة مشكلتهم أن عندهم مُسلّمات، وقرؤوا القرآن وفي ذهنهم هذه المُسلّمات، والواجب أن تقرأ القرآن وتُخضع له نفسك ورأسك، فما يأتي به القرآن من أخبار تقول أمامه: آمنا به وصدقنا، وما يأتي فيه من أحكام تقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. كما امتدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فشأن القرآن الكريم أن نقرأه على أنه كتاب الله، بعض المفسرين قرؤوا قصة داود في القرآن بعد أن قرؤوها في التوراة، فأرادوا أن يحملوا

ما في القرآن على ما في التوراة، لا ينبغي هذا. المسلم يقرأ القرآن وهو يريد أن يقتبس منه، وأن يتعلم منه، فيُفرغ ذهنه لهذا القرآن العظيم، وهذا هو الذي ينبغي أن نفعله نحو كلام الله.

(٢) القرآن كتاب الزمن كله:

كذلك ينبغي أن أقرأ القرآن على أنه كتاب الزمن كله، ليس كتاب زمن من الأزمنة، فلم يجرى القرآن لعصر دون عصر، أو لزمن دون زمن، فلم يجرى القرآن الكريم لعصر النبوة فقط، أو لعصر الصحابة فقط، أو للقرون الأولى فقط، ولكنه جاء للزمن كله، لأنه الكتاب الخالد، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]، وهو كتاب الخلود، لأنه ليس بعد الإسلام دين، ولا بعد محمد ﷺ رسول، ولا بعد القرآن كتاب، فيجب أن نقرأه على أنه كتاب الزمن كله، وليس لزمن دون زمن.

(٣) القرآن كتاب العالم كله:

ويجب أن نقرأ القرآن الكريم على أنه كتاب العالم كله، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، صحيح هو نزل بلسان العرب، ويجب أن يفهم بلسان العرب، ولكنه نزل للعالم، للعرب والعجم، للأبيض والأسود، بل للجن والإنس، فعالمية القرآن لا شك فيها، وهذا ما نلمسه من أول آية في كتاب الله بعد البسملة، نقرأ قول الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وآخر سورة في القرآن، تؤكد على عالمية القرآن: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣]، هذه العالمية يجب أن نفهم في ضوءها القرآن الكريم.

(٤) القرآن كتاب الإنسان كله والحياة كلها:

كذلك يجب أن نفهم القرآن الكريم على أنه كتاب الإنسان كله، يعني لم يجرى ليخاطب العقل فقط، أو يخاطب القلب فقط، إنه يخاطب العقل والقلب معاً، يخاطب الكيان الإنسان كله، الإنسان بعقله وعاطفته ووجدانه وروحه وجسده، جاء للإنسان كل الإنسان.

كذلك هو كتاب الحياة كلها، جاء القرآن للحياة كلها، لم يجرى لناحية دون ناحية، وإنما جاء يعالج أمور الحياة، يضع فيها أصول الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وأنا أرى الاستدلال بهذه الآية أفضل من الاستدلال بآية الأنعام: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، لأن الكتاب في آية الأنعام يحتمل أن يكون المراد به القرآن، ويحتمل أن يكون المراد به اللوح المحفوظ، وينبغي للعالم أن يستدل بالمحكم لا بالمتشابه، وبالصریح لا بالمؤول قدر الإمكان.

والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، فهذا القرآن فيه تفصيل كل شيء.

حكاية عن الشيخ محمد عبده:

يحكون عن الأستاذ الإمام محمد عبده رَحِمَهُ اللهُ، أن بعض الأجانب سأله وقال له: أنتم تقولون: إن القرآن فيه كل شيء. فقال له الشيخ: نعم. فقال السائل: أريد أن أسألك عن أمر وأريد الجواب من القرآن. قال له الشيخ: سل.

فقال السائل: كم رغيف خبز في الأردب الواحد من القمح؟ فقال له الشيخ: انتظرني حتى أسأل لك صاحب المخبز. وصاحب المخبز رجل أجنبي أيضاً، فسأل الشيخ صاحب المخبز، فأخبره، فأخبر السائل بما قاله صاحب المخبز.

فقال السائل للشيخ: لكن هذا ليس من القرآن. فقال له الشيخ: بل هو من القرآن، لأنَّ القرآن يقول: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، ويقول: ﴿فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، ويقول: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

فليس معنى أنَّ القرآن فيه كل شيء أن يأتي بالتفصيلات، لا، ولكنه يضع قواعد ومنازل هادية، فهذا هو الذي ينبغي أن نفهم القرآن في ضوءه. القرآن كتاب الحياة كلّها، وكتاب الإنسان كلّ، وكتاب العالم كلّ، وكتاب الزمن كلّ.

ليس في القرآن ما في الإنجيل، الذي يقول: أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. فقبل ازدواج الحياة، وثنائيّة الحياة، وثنائيّة الإنسان، أن نقسم الحياة والإنسان قسمين: قسم لله وقسم لغير الله، أو قسم لقيصر وقسم لله، أو قسم للدين وقسم للدولة، الإسلام يرفض هذا التقسيم وهذه الثنائيّة، ويجعل قيصر وما لقيصر كليهما لله ربّ العالمين، ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. هذا هو القرآن، ينبغي أن نفهم القرآن في هذا الإطار وتلك الحدود.

(٥) تفسير القرآن بالقرآن:

ينبغي أول ما ينبغي أن نفسّر القرآن بالقرآن، فما أجمل في موضع

فُصِّلَ في موضع آخر، وما أبهم في ناحية بُيِّنَ في ناحية أخرى، فلا بدَّ أن ننظر إلى القرآن ككلٍّ لا يتجزأ.

حينما نقرأ في الفاتحة قول الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، نجده لم يُبيِّن لنا المراد بالعالمين، ومن هم؟ ولكن نجد في سورة الشعراء، بيان المراد بالعالمين، في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿[الشعراء: ٢٣، ٢٤]، فعرفنا أن: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ تشمل السماوات والأرض وما بين السماوات والأرض.

ولم يُبيِّن معنى الربوبية، لكن جاء في سورة الأعلى بيان معنى الربوبية، فقال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى: ١-٥]، فبيَّن أن الربوبية تعني الخلق فالتسوية، والتقدير فالهداية.

ولم يُبيِّن في الفاتحة المراد بيوم الدين، في قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فجاء في سورة الانفطار: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩].

حتى قراءة: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، بيَّنها في سورة غافر، في قوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وفي قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿، لم يبيِّن من هم المُنعم عليهم؟ لكن جاء البيان في سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وهكذا ينبغي أن نفسر القرآن بالقرآن، وأن نربط النصوص القرآنية بعضها ببعض، ولا يجوز أن نُجزئ هذه النصوص، ولا أن نفصل بعضها عن بعض.

خرج النبي ﷺ وأناس عند حجرته يتجادلون بالقرآن، فخرج من البيت وقد غضب غضباً شديداً كأنما يُفقا في وجهه حَبُّ الرَّمَان، فقال: «بهذا أُمِرتُم؟ أو لهذا خُلِقتُم؟! تضربون القرآن بعضه ببعض؟! بهذا هلكت الأمم قبلكم»^(١). لا ينبغي أن يُضرب كتاب الله بعضه ببعض، وإنَّما القرآن يؤيِّد بعضه بعضاً، ويُصدِّق بعضه بعضاً، وصدق الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وهكذا يجب أن نربط النصوص القرآنية بعضها ببعض.

زعموا أنَّ القرآن لم يُحرِّم الخمر:

العلمانيون المُحدِّثون، يأخذون نصّاً ويقطعون عن سبأقه وسياقه، ويريدون أن يستدلُّوا به، من هؤلاء واحد في مصر اسمه: «سعيد العشماوي»، له كتب يزعم فيها أنَّه يفقه في الإسلام أكثر من الفقهاء أنفسهم، وهو رجل مدني قانوني وضعي، هذا الرجل يقول: «إنَّ الخمر في القرآن مأمور باجتنابها، وليست محرَّمة، فالمحرم من الأطعمة والأشربة ورد على سبيل القطع في القرآن بالآية الكريمة: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]»^(٢).

ونسي هذا أنَّ هذه الآية في الأطعمة، وليست في المشروبات، ولو أنَّه أخذ قوله تعالى في تعليل تحريم الخنزير: ﴿أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾، لو أخذ هذه العلة المنصوصة وطبقها على الخمر، فإنَّ الله

(١) رواه أحمد (٦٦٦٨)، وقال مخرَّجوه: صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٨٥)، وحسنه الألباني

في صحيح ابن ماجه (٦٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) أصول الشريعة ص ١٢٣، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

تعالى قال في الخمر: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠]، لم يقل ﴿رِجْسٌ﴾ فقط، وإنما قال: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، فكان هذا التعليل كافياً لو أنه ربط القرآن بعضه ببعض. مشكلة هؤلاء أنهم يأخذون نصّاً ويقطعون عن سباقه وسياقه، وعن سائر نصوص القرآن، ويريدون أن يستدلوا به.

وزعموا أن القرآن منع تعدد الزوجات:

ومثل أولئك، الذين قالوا: إنَّ القرآن منع تعدد الزوجات لأنَّ الله قال: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، فاشتراط العدل في الزواج بأكثر من واحدة، ثمَّ قال في السورة نفسها: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩]، فنفي استطاعة العدل، ومعنى هذا: أنَّ آية حلَّت وآية حرَّمت، وهؤلاء كأنَّما يصفون الله بالعبث، أو التناقض، ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

هل يُعقل أنَّ القرآن يُبيح شيئاً ويُحرمه في نفس الوقت؟! ما معنى إذن قول الله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ﴾؟ إذن هذه الآية لا معنى لها، ولا مضمون لها، ولا يمكن أن يكون لها واقع. ولكن أساء هؤلاء الفهم، حينما أخذوا بعض الآيات ونسوا البعض الآخر، إنَّ مفهوم قول الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾: أنَّ بعض الميل مُغتفر، فالمنهي عنه هو كلُّ الميل لا بعضه، فيمكن أن تميلوا بعض الميل، فالعدل المنفي استطاعته في الآية هو العدل الكامل: العدل في الظاهر والعدل في الباطن، العدل في النفقة والمبيت، والعدل في العاطفة والميل القلبي، والميل الجنسي،

أن يحبّ فلانة هذه كما يحبّ الأخرى، يحبّ هذه خمسين بالمائة، ويحبّ هذه خمسين بالمائة، من يملك هذا؟ لا يملك هذا أحد، والنبى ﷺ نفسه لم يملك هذا.

كان النبى ﷺ يقسم بين نسائه في الأمور الظاهرة، فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»^(١). فالذي لا يملكه هو أمر القلب، كونه يحب عائشة أكثر من غيرها، فهو لا يملك هذا، كما قال ﷺ: «القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء»^(٢). لهذا قال ﷺ: «فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك». يعني أمر القلب.

فإذن معنى قول الله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، أي لن تستطيعوا أن تعدلوا العدل الكامل، الذي يشمل فيما يشمل الميل والمحبة العاطفية، ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾، فلا يجوز لكم أن تظلموا واحدة لحساب أخرى، بحيث تميلوا كل الميل، فتصبح المرأة مُعَلَّقَةً، لا هي مُزَوَّجَةٌ ولا هي مُطَلَّقة.

وهكذا ينبغي أن يفهم القرآن الكريم، أي أن تُفسّر القرآن بالقرآن.

وهذا ما فهمه الرسول الكريم، وأصحابه، وتابعوهم بإحسان، وهؤلاء هم الذين يُقتدى بهم فيُهدى، وكذلك سائر أجيال الأمة كلّهم، فعّدّدوا

(١) رواه أحمد (٢٥١١١)، وقال مخرّجوه: هذا إسناد رجاله ثقات. وأبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، وقال: روي مرسلًا وهو أصح. والنسائي في عشرة النسائي (٣٩٤٣)، وصحّحه ابن الملقن في البدر المنير (٣٨/٨)، وقال الحافظ في التلخيص الحبير (٢٩٥/٣): وأعلّه النسائي والترمذي والدارقطني بالإرسال. وقال أبو زرعة: لا أعلم أحدًا تابع حماد بن سلمة على وصله. عن عائشة.

(٢) رواه مسلم في القدر (٢٦٥٤)، وأحمد (٦٥٦٩)، عن عبد الله بن عمرو.

الزوجات كما شرع الله لهم، ولم يحرمها أحد منهم، ولا تجتمع هذه الأمة على ضلالة.

(٦) تفسير القرآن بصحيح السنة:

ثم ننتقل إلى ما صحَّ عن النبي ﷺ، فنفسر القرآن بما صحَّ عنه من السُّنَّة، وهنا يجب أن نعلم أن الأحاديث التي وردت في تفسير القرآن محدودة جدًا، وقد روي عن الإمام أحمد أنه قال: ثلاثة كتب ليس فيها أصول: المغازي، والملاحم، والتفسير^(١). أي أن معظم ما ورد في تفسير القرآن ليس بأسانيد صحاح متصلة، وقد ختم الإمام السيوطي كتابه «الإتقان في علوم القرآن» بما ورد عن النبي ﷺ، من الأحاديث المصرَّح برفعها إليه، وقال عقبها: «فهذا ما حضرني من التفاسير المرفوعة المصرَّح برفعها صحيحها وحسنها وضعيفها، ومرسلها ومعضلها، ولم أعوّل على الموضوعات والأباطيل»^(٢)، فكان في بضع وأربعين صفحة.

وقد يكون الحديث ليس نصًّا في التفسير، وإنَّما بيان للقرآن بأيِّ وجه من أوجه البيان، كتخصيص عام، أو تقييد مطلق، أو تفصيل مجمل، أو تبين مبهم، أو غير ذلك. وهذه كلّها من التفسير، قال القرآن: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، لكن جاءت السُّنَّة وبيّنت الصلاة بأوقاتها وشروطها وكيفياتها، وكذلك الزكاة والصيام والحج، وهذا كلّ من البيان النبوي للقرآن.

(١) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٤٩٣)، تحقيق د. محمود الطحان، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

(٢) انظر: الإتقان للسيوطي (٢٩٨/٤).

(٧) أقوال الصحابة:

ثمَّ بعد ذلك نأخذ بأقوال الصحابة، إذا أجمعوا على رأي ينبغي أن نحترمه، لأنَّهم لا بدَّ أن يكونوا قد سمعوه من النبي ﷺ، أو فهموه من مُجمل السُّنَّة، أو السيرة. وإذا اختلفوا أتاحوا لنا أن نجتهد كما اجتهدوا، وبذلك نجمع بين الرواية والدراية في التفسير، كما فعل شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري، فهو مُفسِّر بالدراية وبالرواية، يذكر الروايات والأقوال ثم يقول: وأولى الأقوال بالصواب كذا وكذا. ويختار رأياً من الآراء التي رواها، أو يذكر رأياً من عنده. وكذلك تفسير ابن كثير، فهو ليس مجرد راوٍ، وإنَّما هو مفسِّر بالمأثور والرأي معاً، فله رأي واختيارات وترجيحات.

أمَّا التفسير بالمأثور، مثل: تفسير ابن أبي حاتم، وابن مردويه أو غير هؤلاء، من الذين ذكرهم السيوطي في كتابه: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، وهذا تفسير بالمأثور؛ لأنَّ السيوطي لا يذكر له فيه رأياً خاصاً، إنَّما يروي الروايات عن أصحابها، ولا يرجِّح ولا يضعِّف.

(٨) التفسير بمقتضى اللغة وفي ضوء السياق:

ويبقى بعد ذلك كَلَّة: التفسير بالرأي، أي: بمقتضى دلالة اللغة الحقيقية أو المجازية، وبدلالة السياق، وما ورد من النهي عن التفسير بالرأي، فالمراد من الرأي هنا: الهوى بدون الرجوع إلى القواعد والضوابط، فهذا هو الرأي المذموم. أمَّا مجرد استخدام العقل في فهم القرآن، فليس مذمومًا، وإلا ما أمرنا بالتدبُّر، في كتابه، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [النساء: ٨٢، ومحمد: ٢٤]، وقال: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّدَّبَرُوا أَمْرَهُمْ وَلَيْتَ ذَكَرُوا أُولَئِكَ الْآلَاءِ ﴾ [ص: ٢٩]، ولقد اختلف الصحابة



بعضهم مع بعض، في تفسير بعض الآيات، ما يدلُّ على أنَّهم تدبَّروا بعقولهم فاختلفوا. وعامة المفسِّرين فسَّروا القرآن بالرأي، ولا حرج في ذلك إذا راعينا ما ذكرناه هنا، من أصول ومعالم تهدي إلى سواء السبيل.

هذه - أيها الإخوة - معالم وضوابط ذكرتها بإجمال؛ لأنَّ الموضوع أوسع من أن تتَّسع له محاضرة واحدة، وقد وفَّقني الله تعالى لتأليف كتاب من حوالي خمسمائة صفحة تحت عنوان: «كيف نتعامل مع القرآن العظيم»، كيف نتعامل معه حفظًا، كيف نتعامل معه تلاوةً، كيف نتعامل معه تفسيرًا وفهمًا، كيف نتعامل معه اتِّباعًا وعملاً، كيف نتعامل معه دعوة وتربية؟ فأرجو الله أن ينفع بهذا الكتاب كاتبه وناشره وقارئه. أكتفي بهذا القدر - أيها الإخوة - وأستغفر الله تعالى لي ولكم وللمسلمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



التعامل مع القرآن .. ملامح وأضواء^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الَّذِي بنعمته تتم الصّالحات، الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا، وَمَا كُنَّا
لنَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،
وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَإِمَامَنَا وَحَبِيبَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ،
وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْمَنْ دَعَا
بِدَعْوَتِهِ، وَاهْتَدَى بِسُنَّتِهِ، وَجَاهَدَ جِهَادَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

خير ما أَحْيَيْكُمْ بِهِ - أَيُّهَا الْإِخْوَةُ - تَحِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَتَحِيَّةُ الْإِسْلَامِ
السَّلَامِ، فَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وإنَّهَا لَلَّيْلَةُ مَبَارَكَةٍ، تِلْكَ الَّتِي نَجْتَمِعُ فِيهَا عَلَى مَائِدَةِ الْقُرْآنِ، وَنَجْتَمِعُ
فِيهَا تَحْتَ هَذِهِ الظَّلَالِ، وَأَمَامَ هَذِهِ النِّفَحَاتِ الَّتِي تَهْبُّ عَلَيْنَا، وَقَدْ أَوْشَكَ
الشَّهْرُ الْكَرِيمُ أَنْ يَقْدُمَ عَلَيْنَا بِخَيْرَاتِهِ، وَبَرَكَاتِهِ، وَنِفَحَاتِهِ، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ
الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾
[البقرة: ١٨٥]، فَاسْأَلِ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رِبْعَ قُلُوبِنَا، وَنُورَ
صُدُورِنَا، وَجَلَاءَ أَحْزَانِنَا، وَذَهَابَ هَمِّنَا وَغَمِّنَا.

(١) أُلْقِيَتْ عام ١٩٩٥م.



أيُّها الإخوة، منذ سنتين أو ثلاث أصدرت كتابًا بعنوان «كيف نتعامل مع السُّنَّة النبويَّة»، فقال لي بعض الإخوة: كنا نودُّ أيضًا - قبل هذا - أن تكتب لنا: كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟ فالقرآن هو المصدر الأول من غير شك، وهو كتاب الإسلام الأول، فدفعتني هذا إلى التفكير في هذا الموضوع، ولعلَّ سبق السُّنَّة بالبحث لأنَّ الخلط في فهمها أكثر، ولذلك كان التَّصديُّ لها أوجب، ولا مانع أن نعيد الأمر إلى نصابه من جديد فتحدَّث عن هذا المدخل الذي لا بدَّ منه للتعامل مع كتاب الله، ليكتمل الحديث عن المصدرين معًا، القرآن والسُّنَّة.

حفظ القرآن:

لا شكَّ أنَّا نحن المسلمين قد أكرمنا الله بهذا الكتاب، فنحن المسلمين عندنا وحدنا - وليس عند غيرنا - الوثيقة الإلهيَّة، الَّتِي تتضمن كلمات الله تعالى الهاديَّة، المُوجَّهة، الأَمرة، النَّاهية، الأخيرة للبشر، لم تشبها شائبة، ولم يعترها تحريف ولا تبديل، لا زالت غُضَّة طريَّة، كأنما نزل بها الروح الأمين الساعة، فقد حُرِّفت كل كتب السماء، لأنَّ الله تعالى لم يتكفل بحفظها، إنَّما استَحفظها أهلها فضيَّعوها، ولكنَّه سبحانه تكفل بحفظ هذا الكتاب، ووعد بذلك وعدًا مؤكدًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. بهذا التأكيد: الجملة الاسميَّة المؤكدة بأنَّ، وباللام.

وقد صدَّق التاريخ ما وعد الله تعالى به فحُفِظ القرآن الكريم كاملاً، وصُلِّ إلينا كما أنزل، حتَّى الطريقة الَّتِي نُقل بها القرآن إلينا محفوظة كذلك، فالقرآن محفوظٌ بِغَنِّه، ومَدِّه، وحركاته، وسكناته، فهذه تُمدُّ أربع حركات، وهذه تُمدُّ ست حركات، وفي هذه إدغام بِغَنَّةٍ، وفي هذه إدغام بغير غَنَّةٍ، فالقرآن يُقرأ كما كان يُقرأ في عهد النبي ﷺ وأصحابه.

وحتى الطريقة التي كُتِبَ بها القرآن في عهد عُثمان رضي الله عنه محفوظة كذلك، فما زال الرسم العثماني قائماً إلى اليوم، حدث تغيير بسيط في النقط والشكل، ولكن لم يجرؤ أحد أن يُغيّر هذا الرسم، رغم تطور قواعد الرسم والإملاء، كل هذا دلالة على أن هذا الكتاب كتابٌ محفوظٌ، فهذا من فضل الله تعالى علينا نحن المسلمين.

وتحقيقاً لوعد الله تعالى غني المسلمون بحفظ القرآن، أعتقد أنهم في هذه الناحية لم يُقَصِّروا، ففي كل بلد - والحمد لله - الآلاف المؤلفون ممن يحفظون كتاب الله عز وجل، ليظلّ تواتر القرآن قائماً، فالقرآن هو الكتاب المحفوظ في الصدور المتلّو بالألسنة، المكتوب في المصاحف، ولا يوجد كتابٌ محفوظٌ في الصدور إلا القرآن الكريم، فلا تجد أعظم قسيس أو كاردينال من النصارى يحفظ الكتاب المقدس، أو نصفه، أو ربعه، أو عُشره، فليست هذه الكتب مُيسّرة في الأصل للحفظ، كما يُسر القرآن الكريم، حتّى إن صبيان المسلمين يحفظون القرآن الكريم، وقد حفظته وأنا دون العاشرة من عمري، ولكن رأيت في بلاد الأعاجم من يحفظ القرآن وهو دون التاسعة.

رأيت تلميذاً من بنغلاديش، عمره ثماني سنوات، يحفظ القرآن الكريم، وقد ظلت أمتحنه في المتشابهات فكأنه مسجل، وأحياناً تجري في قطر مسابقات لحفظ القرآن، يدخلها متسابقون من الهند، وباكستان، وبنغلاديش، ويُمْتَحَن أحدهم فلا يُسْقَط حرفاً، ولا يخرم جملة ولا كلمة؛ وإذا سألت أحدهم: ما اسمك؟ لا يعرف معنى سؤالك، رغم أنه يحفظ القرآن، وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

ومن إخواننا التربويين من يعيب حفظ ما لا يفهم، لكننا جرّبنا ذلك، فحفظنا قبل أن نفهم، ونفعنا هذا الحفظ، لأنّ الحفظ في الصغر كالنقش على

الحجر، على أنني أجد أن القرآن الكريم يُفهم إجمالاً، فقد كنّا ونحن صغار نحسّ بمعاني القرآن، قد لا ندرك تفاصيل هذه المعاني، ولكنّا نحس بها.

ويمكن أن تساعد الصبية الذين يحفظون القرآن على فهم ما يحفظون بالشرح المبسّط، فنذكر لهم - مثلاً - قصّة أبرهة الأشرم، ثم نُحفظهم بعدها سورة الفيل، أو نذكر لهم موقف أبي لهب، ثم نُحفظهم بعدها سورة المسد، وهكذا، فالتعامل الأوّل مع القرآن من ناحية الحفظ اعتقد أنّ المسلمين قاموا به قياماً حسناً، وهو تصديق لوعده الله ﷻ في حفظ هذا الكتاب العظيم.

تلاوة القرآن:

ولكن هناك غير الحفظ، هناك التلاوة للقرآن، والاستماع إليه، ونحمد الله ﷻ أن انتشر التعليم بين المسلمين، وأصبحت تلاوة كتاب الله تعالى، وحفظ بعض سورته وأجزائه أمراً شائعاً.

وهذا أمر لا بدّ منه حقيقة في مجال التربية، سواء في التربية الدنيّة، أو التربية اللّغويّة والأدبيّة، فالقرآن هو كتاب الإسلام الأوّل، هو كتاب العربيّة الأكبر - كما قال بحقّ الشيخ أمين الخولي - أنّه إذا كان كتاب العربيّة الأوّل فينبغي أن يحفظ منه العربي وغير العربي، والمسلم وغير المسلم^(١).

من أجل ذلك أعجب أنّهم في بعض البلاد العربيّة الآن يحذفون من كتب النصوص، والقراءة، والمطالعة آيات القرآن الكريم مجاملةً لغير المسلمين، وهذا خطأ، لأنّ القرآن ليس مجرد كتاب ديني، بل هو فعلاً كتاب العربيّة الأكبر، فأيّ عربي لا يحفظ كتاباً - هو باعتراف الجميع في قمة البيان، والبلاغة، والإعجاز الأدبي - يفوته الكثير.

(١) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ص ٣٠٢، نشر دار المعرفة، ط ١، ١٩٦١م.

من هنا ينبغي قراءة القرآن وتلاوته، والالتزام بأحكام التلاوة، وإخراج الحروف من مخارجها، فهذا أمر مهم جداً، وقد كانت بلاغة بعض البلغاء من غير المسلمين من حفظ بعض آيات القرآن وتلاوتها، والتعوّد عليها من الصّغر، وقد عُرف ذلك في خطب الزعيم القبطي مكرم عبيد، كان من الخطباء المشاهير في مصر، وكان يُضمّن خطاباته بعض فقرات من القرآن الكريم، فتجعل الناس يستمعون له بشغف، وعُرف ذلك في كتابات الدكتور نظمي لوقا، الذي حكى عن نفسه في كتابه «محمد الرسالة والرسول» كيف ذهب به أبوه إلى الشيخ سيد في السويس ليُحفظه القرآن؟ هذا من أثر القرآن الكريم على غير المسلمين.

وأذكر حين كنا صغاراً في الكتاب نكتب اللوح، ونُسَمِّعه آية آية، وكلمة كلمة حتّى ننطقها نطقاً صحيحاً، وبعض من لم يحفظ القرآن بصورة سليمة تجده لا يُخرج الحروف من مخارجها، فلا يُعطش الجيم مثلاً، أو لا يخرج لسانه في الثاء والذال والظاء، وأحياناً أسمع بعضهم يقرؤون فكأنما يضرب أمّ رأسي بمطرقة من سوء تلاوته، فحفظ القرآن، وإحسان تلاوته أمر مهمّ من الناحية اللغويّة.

وهو كذلك أمر مهم من الناحية الدنيّة، فعلينا أن نتلوه فنُحسن التلاوة، ومعنى أن نحسن التلاوة: أن نكون كما قال النبي ﷺ: «إذا قرأتم القرآن فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»^(١). حاول أن تكون خاشعاً، فإن لم

(١) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٧)، وأبو يعلي (٦٨٩)، وقال البوصيري في الزوائد (١٥٧/١): في إسناده أبو رافع. اسمه إسماعيل بن رافع ضعيف متروك. ورواه البزار (١٢٣٥) من طريق آخر، وقال عقبه: فيه عبد الرحمن بن أبي بكر (أحد الرواة) هذا لين الحديث. وجوّد إسناده ابن ماجه العراقي في تخريج الإحياء ص ٣٢٨، وضعّفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٨٧٧). عن سعد بن أبي وقاص.

تجد الخشوع فتخشع، وقد قال شاعر الإسلام الفيلسوف الإسلامي محمد إقبال: ما نفعني وصية كما نفعني وصية أبي؛ قال لي: يا بني، اقرأ القرآن كأنما عليك أنزل^(١). وقد وجدت لهذا الكلام أصلاً في كلام الإمام الغزالي في كتاب «الإحياء»^(٢)، فقرأ القرآن كأنما تتلقاه من جبريل، وتترقى كأنما تسمعه من الله عز وجل، فينبغي أن نحسن تلاوة القرآن.

الاستماع إلى القرآن:

كما ينبغي أن نحسن الاستماع إلى القرآن أيضاً، والحمد لله أن القرآن الكريم قد أصبح يُسمع الآن من الإذاعات المخصصة للقرآن، ومن المصاحف الصوتية المجودة للقرآن، ولكن المهم أن تحسن الاستماع، أن تسمع للقرآن بعقلك وقلبك، لا بأذنك فقط.

مر سيدنا أبو بكر على جماعة دخلوا في الإسلام حديثاً، يقرؤون القرآن ويبيكون، فقرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]. وقال: هكذا كنا حتى قست القلوب^(٣). يقول أبو بكر عن نفسه: هكذا كنا مثل هؤلاء الجدد حتى قست القلوب. فكيف بنا نحن الآن؟!

والاستماع إلى القرآن أنواع، وله آداب، هناك من يستمع إليه، ولكن قلبه غائب، كما أخبر الله عن قوم، وقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

(١) من روائع إقبال للعلامة أبي الحسن الندوي ص ٣١، نشر دار الفكر دمشق، ط ١، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

(٢) إحياء علوم الدين (٢٨٨/١).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٦٧٣).

آداب الاستماع إلى القرآن مذكورة في الكتب، ولا أريد أن أطيل فيها، لأنني أريد أن أدخل في الموضوع الأهم في التعامل مع القرآن الكريم، وهو كيف نفهم القرآن الكريم؟ كيف نفهم كتاب الله ﷻ؟

ضوابط فهم القرآن الكريم:

أنزل الله تعالى علينا هذا الكتاب شاملاً ليكون منهاجاً لحياتنا، ليكون هداية لنا في أمور ديننا، وفي أمور دنيانا، وليس معنى ذلك أنه يُفصّل لنا أمور الحياة الدنيا تفصيلاً، لا؛ ولكنه يضع لنا الأسس التي لا بدّ منها، فهذا هو معنى الشمول في كتاب الله، والذي عناه الخليفة الأول بقوله: لو ضاع مني عقل بعير لوجدته في كتاب الله^(١).

ينبغي أن نتعامل مع القرآن على أنه كتاب الإسلام الأوّل، نأخذ منه حقائق الدين الكبرى، ونعرف منه مقاصد الشريعة العامّة، ونعرف منه قواعد الأخلاق والتعامل، فالقرآن الكريم هو ينبوع الأوّل لتصوراتنا العقديّة، ولمفاهيمنا الفكرية، ولقيمنا الأخلاقية، ولشعائرنّا التعبدية، هو ينبوع الأوّل، فلا بد أن نحسن الفهم عن القرآن الكريم، ولإحسان الفهم ينبغي أن نُعنى ببعض الأمور.

أوّلاً: العناية بالأمور وفق معيار القرآن:

من أهم الأمور في فهم القرآن: أن نُعنى بالأمر على قدر ما عُني به القرآن الكريم، فما عُني به القرآن، وكرّره، وأكّده دليل على أهميته في دين الله، لأن القرآن نزل ليبيّن حقائق الدين، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، كل شيء من أسس الدين، فما اهتم به

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤/٣٠، ٣١).



القرآن، وكرّره بأكثر من صورة، وأكثر من أسلوب، ترغيبًا، وترهيبًا، وأمرًا، ونهيًا، إلى آخره، فهذا دليلٌ على أنّ لهذا الأمر أهمية، وله وزن اعتباري في القرآن الكريم.

وليت المسلمين فقهوا هذه الحقيقة، فكثيرًا ما نجد الأمر في حياتهم على عكس ذلك، هناك أمور اهتم بها المسلمون اهتمامًا كبيرًا، مع أنّها أخذت حيّزًا صغيرًا من القرآن الكريم، كما في الإسراء والمعراج، اهتمّ به المسلمون، واحتفوا به، وجعلوه موسمًا من المواسم، في حين لم يهتموا بالغزوات، فقد أخذ الإسراء آية من كتاب الله، ولم يأت المعراج صراحة، وإنّما أشير إلى إشارة في سورة النجم.

أمّا الغزوات فما أكثر ما ذُكرت، عقّب القرآن على غزوة بدر في سورة الأنفال، وعلى غزوة أحد في سورة آل عمران، وعلى غزو بني النضير في سورة الحشر، وعلى الحديبية في سورة الفتح، وعلى غزوة تبوك في سورة التوبة، إلى آخره، ولكن المسلمين لم يهتموا بهذه الغزوات كما اهتموا بالإسراء والمعراج، فهناك خللٌ إذن في بعض الأمور، أنّهم لم يتّخذوا القرآن معيارًا لمعرفة أهمية الأمور.

أذكر قصة وقعت لي وأنا طالب في كلية أصول الدين، ذهبت لإحياء غزوة بدر التي وقعت في شهر رمضان، وكان هذا من الأمور التي اهتم بها الإمام الشهيد حسن البنا، أنّه اتخذ من الغزوات مدرسة لإحياء معاني الجهاد في حياة الناس، وجريًا على هذا ذهبت في ليلة ١٧ رمضان لإحياء غزوة بدر، وبعد أن تحدّثت عنها، وعن الدروس التي تُستفاد منها، وظننت أنّي أتيت بما لم يأت به الأوائل، جاءني إمام المسجد، وقال: جزاك الله خيرًا، ولكن ألم يكن أولى من ذلك أن تُعلّم الناس شيئًا من

أمر دينهم؟ قلت له: وما أمور دينهم؟ قال: هناك أناس لا يحسنون أن يتطهروا، ولا أن يتوضؤوا، فلو علمتهم شيئاً من هذا لكان أفضل. قلت له: وهل الناس لا يعرفون أن يغسلوا وجوههم، وأيديهم، وأرجلهم؟! قال: لا، ليس هذا ما أقصد، بل ما يقال معه من أذكار وأدعية. قلت له: هذا لم يرد فيه حديث عن النبي ﷺ.

ثم قلت له: تعال نحتكم إلى القرآن الكريم؛ كم آية في القرآن ذكر فيها الوضوء؟ قال: لا أذكر. قلت له: ذكر مختصراً في آية بسورة النساء، ومفصلاً في آية بسورة المائدة، ولكن كم سورة ذكر الجهاد فيها والغزوات؟ قال: كثير، ولكن لا أعلم بالضبط.

قلت: سأعُدُّ لك فقط أسماء السور التي تدلُّ أسماؤها على الجهاد، مثل سورة الأنفال، وهي الغنائم التي تأتي عن طريق الجهاد، وسورة التوبة، أي توبة الذين تخلفوا عن الجهاد، وسورة الحشر تتحدث عن غزوة بني النضير، وسورة الفتح تتحدث عن صلح الحديبية، وسورة النصر تتحدث عن فتح مكة، وأخذت أذكر لها عدداً من السور التي يوحى مجرّد اسمها بالجهاد، مثل سورة الصف، هذا غير مئات الآيات في القرآن التي تحدثت عن الجهاد، وقلت: هل يصح أن نظل طول رمضان نتحدث عن الأمر الذي ذكره القرآن في آية أو آيتين، وندور حوله، وما ذكره في سور عديدة، وفي مئات الآيات نهمله؟!

هكذا كان شأن المسلمين للأسف، وقد رأيت هذا بنفسني حينما كنت أحضر دروس رمضان وأنا صغير، فكان بعض المشايخ يظل طول شهر رمضان يدرس مسائل الطهارة، ثلاثين ليلة ولا يخرج من دورة المياه، ولا يكمل هذه المسائل، وكان الرجل يأتي من البادية إلى النبي ﷺ

فيتعلم الوضوء والصلاة في جلسة أو جلستين، ينظر كيف يتوضأ؟ ويصلي كما يراه يصلي، ثم يعود إلى قومه معلماً، ولذلك نقول: يجب أن نهتم بالأمور على قدر ما اهتم بها القرآن الكريم.

اهتم المسلمون مثلاً بيوم مولد النبي ﷺ، وألفوا فيه، وأعطوه مساحة كبيرة، مع أنه لم يُذكر في القرآن الكريم قط، ذكر ميلاد المسيح ﷺ لأنه اقترن بمعجزة، وذكر ميلاد يحيى ﷺ لأنه اقترن أيضاً بمعجزة، لكن ميلاد النبي ﷺ ميلاد عادي، فلم يُذكر في كتاب الله، فلذلك ينبغي أن نُعنى بما عُني به القرآن، فالقرآن حين يُعنى بشيء فلا بدَّ أنَّ لذلك أهمية.

انظروا مثلاً إلى تواريخ الأمم، تحدث القرآن عن الروم، وهم يمثلون المعسكر الغربي قديماً، كما يمثله الأمريكان مثلاً في عصرنا، تحدث القرآن عن الروم في أوائل سورة الروم، ولم يتحدث عن الفرس صراحة، ذكر الشيخ أبو الكلام آزاد أنَّ القرآن أشار إلى أحد ملوك الفرس في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]. ويرى أنه قورش الكبير، وله أدلة مستفيضة في ذلك^(١).

ولكن انظروا كيف أفاض القرآن الكريم في الحديث عن بني إسرائيل، وعن عقائدهم، وأخلاقهم، وطبائعهم، وتعاملهم مع الله، وتعاملهم مع الأنبياء، وعن غدرهم وقسوتهم، إلى آخره؟ تحدَّث عن ذلك في سور شتى، وآيات شتى، حتَّى قال بعض المفسرين: كاد القرآن أن يكون لموسى وقومه^(٢). هذا يدلُّنا على أنَّ لهذا الأمر أهمية.

(١) ويسألونك عن ذي القرنين لأبي الكلام آزاد ص ٨٤ - ٨٦، ١٢٦ - ١٤٠، نشر دار الشعب، القاهرة، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/١٩٩).

وقد ثبت أنّ معرفة بني إسرائيل، والخبرة بهم أمر مهم، لأنّه سيكون لهم في تاريخ المسلمين شأن وشأن، فنحن في حاجة إلى أن نفهم القرآن، فالأمور التي عني بها القرآن نُعنى بها، والأمور التي مرّ عليها سريعاً ينبغي أن يكون لها في حياتنا مثل هذا، والأمور التي أهملها ينبغي أن نهملها، القرآن هو كتاب الدين الأول، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، فلا يمكن أن يهمل أمراً أساسياً من أمور الدين.

ثانياً: امتلاك أدوات فهم القرآن:

نحن في حاجة - إذن - إلى أن نفهم القرآن فهماً صحيحاً، وإنّما نفهمه فهماً صحيحاً إذا كانت لدينا أدوات الفهم للقرآن الكريم، هناك كثير من الناس - للأسف - يقتحمون هذا الحمى، ويجترئون على كتاب الله، يفسرون القرآن كما يشاؤون، وكما يحلو لهم، وليس عندهم أي أدوات للفهم، لا الأدوات اللغويّة والأدبيّة، ولا الأدوات الدينيّة، وهذا لا يصح.

فمَن أراد أن يفهم القرآن ليفهم الناس، ويفسره لهم، يحتاج إلى معرفة اللغة العربيّة، علومها وآدابها، وإلى معرفة السُنّة النبويّة، صحيحها وضعيفها، وإلى معرفة أقوال الصحابة والتابعين، وخصوصاً ما أجمعوا عليه، وإلى معرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وإلى معرفة المقاصد العامة للإسلام، إلى آخره.

(١) معرفة اللغة وعلومها:

أمّا مَنْ لا يعرف عن اللغة العربيّة شيئاً فكيف يفسّر القرآن؟ ذهب أحدهم وهو يفسّر قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]. إلى أنّ النفس الواحدة التي خلقها الله أولاً هي حواء، ثم خلق منها آدم!

ودليله على ذلك أن القرآن قال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. ولو قال: خلق منها زوجها لكان آدم هو الذي خلق أولاً!

وهذا يعني أنه يجهل أن كلمة «زوج» في اللغة العربية تُطلق على الرجل والمرأة، ولو تأمل القرآن الكريم نفسه لوجد أنه يقول: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]. ويقول: ﴿فَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. ويقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. ويقول: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصفات: ٢٢]. وهكذا، فعدم المعرفة بدلالات الألفاظ يعوق عن فهم القرآن.

لا بد أن يعرف هذه الدلالات كما كانت في عصر نزول القرآن، لأن المعروف في تاريخ اللغة أن الألفاظ تتطور، وتحمل دلالات جديدة، فلا يجوز أن يحمل على القرآن المصطلحات الحديثة المتأخرة، ويسقط عليه المفاهيم الجديدة للألفاظ.

قرأت في أحد الكتب لبعض أساتذة التاريخ قوله: إن العرب كانوا يكرهون فتياتهم على البغاء. ودليله على ذلك أن القرآن قال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]. ففهم من كلمة الفتاة أنها الابنة، وهذا بالطبع جهل بالقرآن، وجهل بالتاريخ، فلو تتبع القرآن، وتبع اللغة، لعرف أن كلمة فتاة هنا تعني الأمة.

وبعضهم قال: القرآن يشجع على السياحة، لقوله تعالى: ﴿الْتَّيُّبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّكِينُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]. وإذا تأملنا نجد أن أغلب ما جاء عن مفسري السلف في معنى كلمة السياحة أنها بمعنى الصيام^(١)؛ لأن الصيام سياحة رُوحية، ولذلك قال الله تعالى عن أمهات

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٠٢/١٤ - ٥٠٦).

المؤمنين: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطٍ تَنَبَّاتٍ عَبْدَاتٍ سَخَّاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحریم: ٥]، وليس معقولا أن يكون معنى ﴿سَخَّاتٍ﴾ هنا أنهنَّ يضربن في الأرض، من هنا ينبغي أن نعرف دلالات الألفاظ في عصر البعثة، في عصر نزول القرآن.

علم النحو:

كما ينبغي كذلك معرفة النحو لفهم القرآن، وإلا أوقع عدم المعرفة به في سوء فهم القرآن، كما حدث ذات مرة أن بعضهم تكلم عن أن الجهاد في الإسلام جهاد هجومي، فقلت له: ما دليلك؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. قلت له: كَافَّةً حال؛ فهل هي حال من الفاعل، أم من المفعول؟ فوقف مندهشاً لا يعرف ما أقول، ذلك أن هناك فرقاً بين قاتلوهم أنتم كافة، أي قاتلوهم أنتم جميعاً لا يتخلف منكم أحد؛ وبين قاتلوهم كافة، أي قاتلوهم جميعاً فلا تبقوا منهم أحداً، فالمعنى يتغير على حسب الإعراب.

وحدث أن أحدهم كان يستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠]. على تحريم مسّ المصحف؟ فسألته: ما مرجع الضمير في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾؟ فقال: القرآن. قلت له: لا؛ القاعدة تقول: إن الضمير يعود إلى أقرب مذكور. لكنّه لا يعرف هذا، لا يعرف أن القاعدة تقتضي أن يكون الضمير عائداً إلى أقرب مذكور، وهو الكتاب المكنون، أي تعود إلى اللوح المحفوظ، ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، وهم الملائكة، فهو كتاب محفوظ، لا تصل إليه الشياطين، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعُزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١١، ٢١٢]،

لا يمسُّه إلا الملائكة، ولا يصل إليه إلا الملائكة، فجهله بالنحو أوقعه في سوء الاستدلال، ولكن هكذا يجترئ بعض الناس على كتاب الله، وليست عندهم الأهلية لمعرفة القرآن، ذلك لا بدّ من معرفة النحو.

علم الصرف:

كما ينبغي كذلك معرفة الصرف لفهم القرآن، فمن لم يعرفه وقع في سوء الفهم، فمثلاً إذا قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ما معنى المحيض؟ هناك علم الصرف يتحدث عن أبنية الكلمات، فهل المحيض مصدر ميمي، بمعنى الحيض، أي اعتزلوا النساء إذا حاضوا؟ أم هو اسم مكان، بمعنى مكان الحيض، أي اعتزلوا مكان الحيض من النساء؟ أم هو اسم زمان، بمعنى فترة الحيض؟ ففهم بناء الكلمة يعني فهم الآية، فالمبنى يدلُّ على المعنى، وزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى كما في كلمة ﴿يَطْهَرْنَ﴾، وكلمة ﴿تَطْهَرْنَ﴾ في الآية: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

علم البلاغة:

ومن علوم اللغة المطلوبة لفهم القرآن علم البلاغة، هذا أمر مهم جداً، لأن في القرآن الحقيقة والمجاز، والصريح والكنية، إلى آخره، جاء سعيد بن جبير إلى عبد الله بن عباس يقول له: اختلف العرب والموالي - وهم غير العرب ممن دخلوا في الإسلام من الأمم - في اللمس في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [المائدة: ٦]. فقال العرب: الملامسة كناية عن الجماع، عن اتصال الرجل بالمرأة. وقال الموالي: لا؛ بل هي لمس البشرة للبشرة.

فقال ابن عباس: وفي أي الفريقين كنت يا ابن جبير؟ قال: كنت في فريق الموالي. قال: غُلِبَ فريق الموالي؛ إِنَّ الْمَسَّ وَاللَّمْسَ وَالْمَلَامَةَ فِي الْقُرْآنِ كُنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَيِّيٌّ كَرِيمٌ يُكْنِي عَمَّا شَاءَ بِمَا شَاءَ^(١). ولهذا نظائره في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وكما قالت مريم: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

أقول هذا لكي يفهم الذين يفسرون القرآن في عصرنا، ويجترئون عليه، ينبغي أولاً أن يكونوا أهلاً لتفسيره، حتّى لا يأتي مَنْ شَاءَ ويقول في القرآن ما شَاءَ، بغير علم ولا هدى، كما قال بعضهم: إِنَّ الْأَمْرَ لِلِإِبَاحَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]! وهذا شطط، فلا بدّ لمن يريد أن يفهم القرآن ويفسره أن يتسلح بأسلحة شتى، منها علوم اللغة العربيّة المختلفة، منها علم اللغة نفسه ليفهم دلالات الألفاظ، وعلم النحو، وعلم الصرف، وعلم البلاغة، إلى آخره.

(٢) معرفة السُّنَّة النبويّة:

ولا بدّ كذلك من معرفة السُّنَّة النبويّة، فهي المبيّنة للقرآن الكريم، وهي المبيّنة لعصر النزول وما كان فيه، قال أحد المجترئين عن آية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ هُوَ سَرَقَةُ الْإِبِلِ، لِأَنَّ حَيَاةَ الْعَرَبِيِّ كَانَتْ فِي النَّاقَةِ، إِذَا سَرَقَتْ نَاقَتَهُ فَكَأَنَّمَا قَتَلَتْهُ. يريد أن يقول: إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَصْلَحُ لِلتَّطْبِيقِ فِي كُلِّ الْعُصُورِ.

(١) رواه سعيد بن منصور في تفسيره (٦٤٠)، تحقيق سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، نشر دار الصميعي، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.



عصر النزول:

وإذا رجعنا إلى السُّنَّة الصحيحة لعرفنا أنَّ الأمر بالعكس، أنَّ الإبل لم تكن تُسرق، بل كانت تُترك، حتَّى جاء في الصحيحين وغيرهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ سئل عن ضوالِّ الغنم، فقال: «التقطها». وسئل عن ضالة الإبل، فقال: «ما لك ولها؟ دعها فإنَّ معها حذاءها وسقاءها حتَّى يأتي ربُّها»^(١). فكانت تُترك، وظلَّت هكذا حتَّى عهد عثمان رضي الله عنه، فما كانت تُسرق الإبل، بل كانت تُسرق الضوالُّ الأخرى، فمن السُّنَّة النبويَّة نعرف طبيعة عصر النزول.

أسباب النزول:

ومن السُّنَّة النبويَّة نعرف كذلك أسباب نزول الآيات، لأنَّها تُلقَى ضوءاً على معانيها، ولا بدَّ من معرفة الثابت منها لأنَّ أكثر أسباب النزول ضعيفة، فينبغي معرفة الصحيح والضعيف منها حتَّى يُفهم النص القرآني، فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمُرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]. المعروف أن كلمة ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ تفيد الإباحة، لكن هذا الطواف من واجبات الحج، أو من أركانه عند بعض المذاهب، فمن لا يعرف سبب نزول الآية لا يعرف مدلول الكلمة بها، فقد ورد أنَّ بعض الأصنام كانت موجودة عند الصِّفا والمروة، فكان بعض الأنصار يَتَحَرَّجون من الطواف مكان أصنام الجاهلية، فنزل القرآن يقول: لا جناح عليكم، لا تتحرَّجوا، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. فسبب النزول مهم لإلقاء الضوء على مدلول النص القرآني.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٢٤٢٩)، ومسلم (١٧٢٢)، كلاهما في اللقطة، عن زيد بن خالد الجهني.

(٣) معرفة السياق القرآني:

ومن الأمور المطلوبة لفهم القرآن فهمًا صحيحًا معرفة السياق القرآني، فهناك بعض الناس يفككون النصوص القرآنية، يفصلون النصوص بعضها عن بعض، حتّى في النص الواحد، يمكن أن يأخذوا جزءًا من النص ويتركون الباقي، كالذين قالوا مثلاً: ألغى القرآن تعدد الزوجات. كيف ألغاه؟ قالوا: لأنّه شرط فيه العدل، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]. ثم قال: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

لكن هؤلاء لم يكملوا الآية: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩]. ومعنى الآية أن الممنوع والمحذور هو الميل كل الميل، ومفهومها أن بعض الميل مغتفر، وهو أن يشتهي إحداهنّ أكثر من الأخرى، أو يحبها أكثر من الأخرى، كما جاء في بعض الأحاديث: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»^(١). يعني أمر القلب، فمعرفة سياق الآية أو الآيات، وعدم قطعها عما قبلها، وما بعدها أمر مهم.

ومن هنا يخطئ مَنْ يقول: إنّ الأمر يفيد الإباحة في قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]. أو في قوله: ﴿فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. كيف يكون الأمر للإباحة والله تعالى يقول: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]؟ هل هذا التشديد في أمر مباح؟!

(١) سبق تخريجه ص ٢٧٨.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]. هل هذا التشديد أمر مباح؟! هذا فضلاً عما جاء في السُّنَّة: «وايم الله، لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»^(١). فضلاً عن إجماع الأمة على تحريم الزنى والسرقه، فالذين يقطعون النص عن سياقه لا يمكن أن يفهموا القرآن الكريم فهماً صحيحاً.

وهذا للأسف يوجد في كثير من الأخطاء التفسيرية عند القدماء والمحدثين، أن يؤخذ جزء من النص، ويترك بقية النص، كما فعلوا مع قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. قالوا: هذا من كلام يوسف عليه السلام!

والواقع يدل على غير هذا، أنه من كلام امرأة العزيز، حيث ﴿قَالَتِ أُمَرَاتُ الْعَزِيزِ الْكَذَّابُ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * * ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥١ - ٥٣]. الكلام كله لامرأة العزيز؛ فما الذي أدخل يوسف وأقحمه هنا؟ كأنهم استكثروا على المرأة أن تقول مثل هذه العبارة القيّمة.

ولكن القرآن ذكر لبعض النساء عبارات في منتهى القوة، كالفتاة التي قالت لأبيها: ﴿يَتَأَبَّتْ أَسْتَجِرُّهُ إِنِّي خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. وضعت أسس اختيار الرجال للأعمال، في القوة والأمانة، الكفاية والخبرة من ناحية، والأمانة والديانة من ناحية أخرى، جانب علمي خبري، وجانب خلقي، هذا هو المطلوب للقيام بالمهام.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)، عن عائشة.

وذكر القرآن المرأة التي قالت: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]. وصفت ما نسميه في عصرنا الاستعمار، لأنَّ المقصود بالملوك الذين يدخلوا مستعمرين، فيفسدون البلاد، ويدلون العباد، هذه كلمات قالتها امرأة، ولماذا لا تقول المرأة الحكمة؟!

فلكي نحسن فهم القرآن لا بدَّ أن نضع الكلمات في سياقها وموضعها، بعض الناس لا يفعل هذا الأمر، كنت أتحدث مع بعض الإخوة، وتطرق الحديث عن الأولياء، وخوارق الأولياء، فقلت: نحن نثبت كرامات الأولياء، ولكن المشكلة في المبالغة في إثبات الخوارق، كأنَّ سنن الله تعالى عجيبة ليَّنة يُشكِّلها مَنْ شاء كما شاء، هذا ليس معقولاً.

قال أحدهم: لكن الله تعالى يقول: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٣٤]. قلت: كيف تضع الآية في غير موضعها؟ لقد جاء القرآن بهذه الفقرة للدلالة عمَّا لهم عند ربِّهم، أي في يوم القيامة، أي في الآخرة، أي في الجنَّة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]. فلا دخل للآية بما ذكرت عن الكرامات وخوارق العادات.

إنَّ الاستدلال بغير دليل، ووضع النص في غير موضعه هو من أسوأ ما ابتلي به كثيرون في فهم القرآن وتفسيره، وهو ما أصيب به أهل الكتاب، وسَمَّاه القرآن تحريف الكلم عن مواضعه، والتحريف نوعان: تحريف لفظي، وتحريف معنوي. ويمكن أن يدخل التحريف المعنوي على القرآن لأنَّه محفوظ من ناحية اللفظ، بأنَّ يوضع النص في غير موضعه، ويُستدل به في غير مكانه، وهذا الانحراف ينبغي أن نحذر منه.



(٤) رد المتشابهات إلى المحكمات:

ومما يساعد على هذا الانحراف: اتباع المتشابهات، وترك
المُحْكَمَات، فالله تعالى أنزل القرآن الكريم: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ
الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]. فلكي نفهم القرآن فهماً صحيحاً
يجب أن نردّ المتشابهات إلى المُحْكَمَات، فالمُحْكَمَات هي الأم، أي
هي الأصل، أمّا أن نمشي وراء المتشابهات فهذا هو أساس الزيغ، كما
قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ
تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]. فينبغي أن يكون فهمنا للقرآن مبنياً على رد
المتشابهة إلى المُحْكَم، فالمُحْكَم هو الإطار الذي يحكم فهمنا للقرآن
الكريم، وإلا فما من مبتدع ولا منحرف في القديم أو الحديث إلا
وحاول أن يستدل بالقرآن.

لهذا قيل: إنّ هذه الآية في آل عمران نزلت ردّاً على نصارى
نجران، لأنّهم استدلوا ببعض الآيات الواردة في القرآن مثل قوله
تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى
مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. على أن للمسيح شأنًا إلهيًا، وليس شأنًا
إنسانيًا، فاتبعوا المتشابهات، وتركوا المحكمات مثل قوله تعالى:
﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]. وقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ
ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا
يَاكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]. وما امتلأ به القرآن من أن الله سبحانه
تعالى ليس له ابن ولا ولد، فترك المُحْكَم والجري وراء المتشابهة هو
من مظاهر الزيغ ودلائله، ولكي يفهم القرآن فهماً صحيحاً يجب أن
نردّ المتشابهة إلى المُحْكَم.

(٥) ربط القرآن بعضه ببعض:

ولكي نفهم القرآن فهمًا صحيحًا يجب أيضًا أن نربط القرآن ببعضه ببعض، فقد أنزل الله القرآن يُصدّق بعضه بعضًا، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وهذا سبب وصف القرآن بالمتشاني، أي يُشبه بعضه بعضًا في بيان الحق، وقول الصدق، فلا يكذب بعضه بعضًا، ولا يضرب بعضه بعضًا، ولذلك إذا أردنا أن نعرف الحقيقة كاملة يجب أن نتبعها في القرآن كله، سواء كانت حقيقة لفظ، أو حقيقة معنى.

أ - تتبّع اللفظ الواحد:

يجب أن نتبّع اللفظ الواحد في القرآن كله، حتّى لا نقع فيما وقع فيه الذين أرادوا أن يهوّنوا من تحريم الخمر، وقالوا: لم يُحرّم القرآن الخمر، وإنّما قال: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾. كأنّ كلمة ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ كلمة هيّنة، مع أن من تتبّع موارد الكلمة في القرآن الكريم وجد أنّها لا تأتي إلا مع الشُّرك والطاغوت، أو مع الكبائر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كَيْتَرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كَيْتَرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

وهكذا لم تأت الكلمة إلا مع الرّجس، والشُّرك، والطاغوت، والكبائر، والفواحش، فكيف يقال: إنّها أهون من كلمة حرام؟!

والأمر بالعكس، فكلمة ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أشدّ من كلمة حرام، فهي تعني أن تجعل بينك وبينه جانبًا، أي تبتعد عنه، فالنّهي ليس عن الفعل فقط، بل



عن القُرب منه، فهي أشبه بكلمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾ [الإسراء: ٣٢]. فهو لم ينفه عن الزنى فقط، بل عن الاقتراب منه، والنهي عن الاقتراب من الزنى يعني النهي عن الخلوة، وعن كل المقدمات التي توصل إلى الزنى، فقوله تعالى عن الخمر: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]. يعني: لا تجلس مجلس الخمر، ولا تكن على مائدة يدار عليها الخمر، ولا تكن لها عاصراً، ولا معتصراً، ولا شارباً، ولا شارباً، ولا حاملاً، إلى آخره، هذا معنى الاجتناب، فلكي نفهم اللفظ فهماً صحيحاً يجب أن نتبعه في القرآن الكريم كله.

ب - تتبع المعنى الواحد:

ويجب كذلك أن نتبع المعنى الواحد في القرآن الكريم كله، لكي نربط التعاليم بعضها ببعض، خذ مثلاً قضية الحدود، وهي قضية أكثر كلام الناس عنها حتى ظن البعض أننا حينما ندعو إلى تطبيق الشريعة كأننا لا ندعو إلا تطبيق الحدود! وكأن الإسلام كله قد انحصر في الجانب القانوني، وانحصر الجانب القانوني في الحدود والعقوبات!

هذا مع أن الإسلام أكبر من الجانب القانوني، الإسلام عقيدة، وعبادة، وأخلاق، وآداب، ومشاعر، ومعاملات، وتشريعات؛ فلماذا تركنا هذا كله، ووقفنا عند بعض منه؟ لماذا تركنا الأهم، العقائد، والعبادات، والقيم، والأخلاق، وحصرنا الأمر في الجانب التشريعي القانوني، كأن هذا هو الإسلام كله؟

وليتنا فعلنا هذا فقط، بل ركزنا أيضاً على الجانب العقابي من الجانب القانوني، مع أن الأصل في العقوبات أنها لا تأتي إلا للشواذ من الناس، للمنحرفين منهم، أمّا الأصل في الناس فهو أنهم مستقيمون، لقد جاء معظم القرآن والشريعة للأسوياء، أمّا الذين انحرفوا فقد جاءت لهم العقوبة.

ولو طبّقنا القاعدة التي ذكرناها في بداية الحديث بأن نُعنى بالأمر على قدر عناية القرآن به؛ لعرفنا أنّ العقوبات في الشريعة محدودة، كم آية في القرآن جاءت في الحدود؟ أظنها لا تبلغ عشر آيات، ولو افترضنا أننا اهتممنا بالحدود، فيجب أيضًا أن نهتم بالأمور الأخرى، فكما نهتم بحد السرقة نهتم أيضًا بالأمور الأخرى.

علاج السرقة:

انظر مثلاً إلى حد السرقة، الإسلام لا يقطع يد الجائع الذي يسرق عن حاجة، ولم يقطع سيدنا عمر أيدي الغلمان حينما وجد أنّ سادتهم يجيعونهم^(١)، ولم يقطع في عام المجاعة^(٢)، اعتبره شبهة عامّة تدرأ الحد، أي أنّ الحد لم يستوفِ شروطه، «ادرؤوا الحدود بالشبهات»^(٣)، هكذا فعل عمر رضي الله عنه، وهذا يتفق مع ما رواه الحاكم: «ادرؤوا الحدود ما استطعتم، ومن وجدتم له مخرجاً فخلّوا سبيله، ولأنّ يُخطئ الإمام في العفو خيرٌ من أن يخطئ في العقوبة»^(٤).

لو نظرنا إلى حدّ السرقة بهذه الطريقة لعرفنا أنّه يجب أن نقيم تكافلاً اجتماعيّاً، لا بد أن نوفّر العمل للعاطل، والخبز للجائع، والكساء

(١) إشارة إلى قصة حاطب وغلّمانه، رواها مالك في الموطأ (٢٧٦٧) تحقيق الأعظمي، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب.

(٢) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١٧/٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الحدود (٢٩٠٨٥)، وابن حزم في كتاب الإيصال، كما في التلخيص الحبير (١٠٥/٤)، وصحّحه ابن حجر، تحقيق حسن بن عباس بن قطب، نشر مؤسسة قرطبة، مصر، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م. عن عمر.

(٤) رواه الترمذي في الحدود (١٤٢٤)، وذكر أنّه روي مرفوعاً وموقوفاً، وأن الموقوف أصح، والحاكم (٣٨٤/٤)، وصحّح إسناده، وقال الذهبي: قال النسائي: يزيد بن زياد شامي متروك. وضعفه الألباني في الضعيفة (٢١٩٧)، عن عائشة.

للعاري، والدواء للمريض، لا بد أن نقيم الكفالة التي يريدها الإسلام، نجمع الزكاة من أغنياء الأمة لنردّها على فقرائها، لا بد أن نقيم العدل الإسلامي، فمن يسرق بعد ذلك، وتقوم عليه الحجة التي لا شبهة معها، يمكن أن يُقام عليه حد السرقة، لكن بعض من يتحدثون عن حد السرقة ينسون هذا كله، كأن الإسلام جاء للقطع فقط!

علاج الزنى:

وانظر كذلك إلى حد الزنى، فقد ذكر هذا الحد في آية واحدة في القرآن: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]. ولكن هل عالج القرآن جريمة الزنى بهذا الحد فقط؟

التربية أولاً:

لو نظرنا إلى سورة النور نفسها التي جاء فيها حد الزنى لوجدنا أنّها حاربت هذه الجريمة بعدّة وسائل، منها التربية أولاً قبل إقامة الحد، أنّها تربي الإنسان على الإيمان، والعفاف، والإحسان، حتّى إذا وُجد الحرام أمامه رفضه، إذا دعت امرأة ذات منصب وجمال قال: إني أخاف الله تعالى. إذا جاءت إليه الفتنة قال ما قاله يوسف الصديق: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]. فلا بد من التربية أولاً على العفة وطهارة النفس والمسلك.

وهو ما جاء في السورة نفسها، في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وجاءت السورة أيضاً بتقرير آداب ترتقي بذوق المجتمع،

وُثِّقَتْ، آداب في الزيارة والاستئذان، فالمجتمع المسلم ليس مجتمعاً مختلطاً بلا قيود، ولا حدود، ولا حواجز، لا، بل هو مجتمع يراعي الآداب، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]. حتى الأطفال يُرَبِّيهُم القرآن على هذه الآداب، ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩].

وجاء في السورة أيضاً تحريم إشاعة الفاحشة بالقول، أو بالعمل، أو بالنية، حتى مُجَرَّد حب إشاعة الفاحشة يُحَرِّمهُ الإسلام، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]. فالتربية يجب أن تسبق العقوبة، بحيث لا يقع المسلم في الزنى من البداية، ولو وقع فيه يستتر به، فلا يراه أحد، وفي الحديث: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ»^(١).

سُدُّ أَبْوَابِ الْحَرَامِ:

ومن الوسائل التي جاءت بها السورة للوقاية من الوقوع في جريمة الزنى: تطهير المجتمع من أسباب الإغراء بالفاحشة والوقوع فيها، ولذلك جاء فيها: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. إلى قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. منع المغريات، سد أبواب الحرام، سد الذرائع إلى الفساد.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٩)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٠)، عن أبي هريرة.

فتح أبواب الحلال:

وأكثر من ذلك جاءت السورة بتيسير أسباب الحلال، كما سَدَّت أسباب الحرام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]. أي: زَوْجُوهم، هل هو خطاب لأولي الأمر؟ أم هو خطاب للقادرين؟ هو خطابٌ للجميع، كلٌّ على قدر مسؤوليته، ينبغي أن يساعد في تزويج الأيَّام من الرجال والنساء، ولا ينبغي أن يكون الفقر حائلاً دون الزواج، ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

إذن لو نظرنا إلى الأمر بهذه الطريقة لوجدنا أن تعاليم القرآن ترتبط بعضها ببعض، تُعطي صورة متكاملة عن الموضوع، فلا ينفعنا في الدعوة أن نأخذ جزءاً من تعاليم القرآن أو الإسلام ونركّز عليه، ونُسَلِّط الأضواء عليه، ونُضخِّمه على حساب أمور أخرى، وإنما يجب أن نربط التعاليم والأحكام بعضها ببعض، فهذا مما يعطينا الفهم الصحيح لكتاب الله ﷻ. الحديث - أيها الإخوة - عن فهم القرآن يطول، ولا أريد أن أشق عليكم، ولكن هي ملامح وإشارات لهذا الموضوع الذي أسأل الله تعالى أن يوفّقني للكتابة فيه^(١)، بما ينفع إن شاء الله.

كتاب الحقيقة المطلقة:

القرآن الكريم هو كتاب الله ﷻ، كتاب الحقيقة المطلقة، ولذلك لا يخاطب فئةً معيّنة من الناس دون أخرى، بل هو يخاطب جميع الناس، بعض الناس ينظر من زاوية معينة، ويريد أن يحمل القرآن على هذه الزاوية.

(١) وقد صدر بحمد الله بعنوان: كيف نتعامل مع القرآن العظيم.

وهذا خطأ؛ فالقرآن ليس للجامدين وحدهم، ولا للمتطورين وحدهم، ولا لأصحاب النزعة الصوفيّة وحدهم، ولا لأصحاب النزعة الأخلاقيّة وحدهم، بل هو يوازن بين الأمور كلها، ويعطيك الحقيقة المطلقة صافية مُصَفَّاة، وكلُّ أحد يجد في الكتاب ما يُغذي ما عنده، طالب الحقيقة العقليّة يجد في القرآن ما يُغذي طموحه العقلي، وطالب الحقيقة الروحيّة يجد في القرآن ما يُغذي نزعته الروحيّة، وطالب الحقيقة الأخلاقيّة يجد في القرآن ما يُغذي ما يطلبه، فالقرآن الكريم هو كتاب الإنسان كله، والعالم كله، والزمن كله، لم يجرى لعصر دون عصر، ولا لجيل دون جيل، ومن هنا لا يصح أن يحمل القرآن على عصر معيّن، أو وقف العمل ببعض ما جاء فيه.

المبالغة في النسخ:

وقد وقع بعض الناس حقيقة في هذا الأمر، فيما سُمّي بالنسخ، وتوسّعوا فيه، وأسرفوا فيه، حتّى سمعت مَنْ يقول: إنّ آية السيف نسخت مائة وعشرين آية! فلما سألنا: ما هي آية السيف؟ اختلفوا في تحديدها، بعضهم يقول هي: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وبعضهم يقول هي: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. وبعضهم يقول هي: ﴿قَتِّلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩]. لم يعرفوا هذه الآية.

وللأسف بعض الناس أسرفوا إسرافاً كبيراً في قضية النسخ، كنت في لجنة تابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي لوضع مشروع لحقوق الإنسان في الإسلام، وكلّفتني اللجنة بصياغة هذا المشروع، بناءً على توصية من وزراء خارجية دول المنظمة، فكتبت المشروع، وقدمته للجنة الثقافية للمؤتمر.

ومما ذكرته في هذا المشروع: إِنَّ الإسلام لا يُجبرُ أحداً على اعتناق دينٍ أو ترك دين. فاعترض بعضهم على هذا، فقلت له: أليس يقول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. هذا في القرآن المدني، وفي القرآن المكي يقول: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]؟

قال: لا، آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. منسوخة! قلت له: بل هذه الآية لا تقبل النسخ، لأنها معللة بعلة لا تقبل النسخ؛ فالله تعالى قال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾. والذي يُكره أحداً إنما يُكرهه على أمر لا يقبله العقل، ولا يقبله الفطرة، أمّا الأمر الذي يتواءم مع عقلك، ومع فطرتك فكيف تُكره عليه؟!

وهذه الآية مثل آية: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]. فهل يمكن أن يقول أحد: إِنَّ هذه الآية نُسِخت؟ لا يمكن، لأنها معللة بعلة لا تقبل النسخ، لأنّ منع الاعتداء مُعلّل بأنّ الله لا يحبّ المعتدين؛ فهل انقلب الحال فأصبح الله - جل شأنه - يحبّ المعتدين، بعد أن كان يحبهم؟! يقيناً لا. والأصل في كلام الله تعالى أنّه خالّد، أنّه باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولكن مع هذا نجد من يُسرف في القول بالنسخ.

ونحن لا نقول بالنسخ إلا إذا ثبت ثبوتاً قطعياً، بحيث لا نجد مفراً من القول به، وبالبحث في الآيات التي قيل إنّها منسوخة، وُجد أنّ القليل منها جدّاً هو ما ثبت أنّه منسوخ، فلا بدّ قبل القول بالنسخ أن يثبت أنّ النصين متعارضان تعارضاً لا يمكن الجمع بينهما، وأن نعرف المتقدّم والمتأخر منهما، فينسخ المتأخر المتقدّم.

ذكر الإمام السيوطي أنَّ أحد العلماء الذين ألفوا في علوم القرآن، اسمه هبة الله الضرير، كان يكتب في النسخ، وذكر قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِمًّا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. وقال: نُسخْتُ كلمة ﴿وَأَسِيرًا﴾! وهذا عجيب، أنَّ تكون الآية كلها مُحكمة إلا كلمة ﴿وَأَسِيرًا﴾، أمر غير معقول. وكانت عنده ابنته، فقالت: يا أبت، ولماذا تُنسخ؛ ألم يجمع المسلمون على أنَّ الأسير يُطعم، ولا يُترك حتَّى لا يموت جوعاً؟ قال: بلى؛ أحسنت يا بنتي. وشطب الكلام الذي كان يكتبه^(١).

اتِّباع القرآن:

أقول: يجب أن يُقرأ القرآن على أنَّه كتاب الزمن كلّه، وكتاب الإنسان كلّه، وكتاب العالم كلّه، وكتاب الحقيقة كلّها، يجب أن يُقرأ على أنَّه كتاب الخالق إلى الخلق، وهداية السماء إلى الأرض، وأن يكون موقفنا منه حسن الفهم، وحسن التلقّي والانقياد، لا ننتقي من القرآن، نأخذ ما يحلو لنا، ونترك ما لا يوافق أهواءنا.

أحياناً تجد بعض الناس كأنهم يستدركون على الله وعِزِّه، يأخذون بعض الكتاب، ويدعون بعضاً، وهذا هو الذي وبَّخ الله عليه بني إسرائيل، فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقال الله تعالى لرسوله: ﴿وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. فلا يجوز أن يؤخذ بعض الكتاب، ويُترك بعضه.

(١) الإتقان في علوم القرآن (٧٩/٣).

لا يجوز أن يأتي أحد إلى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]. ويقول: أنا آخذ آية الصيام، لكن آية القصاص، وإعدام القاتل تتنافى مع الإنسانية - كما هو الحال في الاتجاهات الإنسانية الآن - فلا أخذها؟

هذا لا يجوز، فالقرآن يجب أن يؤخذ كله، لأن موقف المسلم من القرآن هو موقف الانقياد، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، وهذا الانقياد مطلوب من كل المسلمين، فبعض الناس يجعل كل مهمته مطالبة الحُكَّام بتطبيق القرآن، ولا يطالب نفسه بتطبيقه.

وهذا أيضًا خطأ في الفهم، فالقرآن لم ينزل للحكام فقط، بل القرآن للحكام والمحكومين، القرآن لكل المسلمين، الكبير والصغير، والأمير والمأمور، والغني والفقير، والرجل والمرأة، الكل مطلوب منه أن يُحْكَم القرآن في حياته، أن يجعل القرآن دستورًا له، أن يجعل القرآن منهاجًا له، قائدًا يقوده إلى الجنة، هذا هو شأن الإنسان المؤمن، فكلنا مطالبون بأن نجعل القرآن نبراس حياتنا، بأن يكون كل واحد فينا قرآنًا مُفسَّرًا، مصحفًا يمشي على قدمين، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ.

أيها الإخوة، هذا هو القرآن الكريم، وهذا ما ينبغي أن يكون موقفنا منه، أن نُحَسِّن تلاوته، ونُحَسِّن الاستماع إليه، ونُحَسِّن فهمه وتفسيره، ونُحَسِّن العمل به، ونُحَسِّن الدعوة إليه، عسى أن يكون هذا القرآن دليلًا لنا في الدنيا إلى كل خير، وشفيعًا لنا في الآخرة عند الله، ونجاةً لنا من النار.



نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء
أحزاننا، وذهاب همّنا وغمنا، اللهم آمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، وصلى الله على سيدنا
محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *





واجبنا نحو القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه
ومن اتبع هداه. ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾
[الكهف: ١٠].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾
[آل عمران: ٨].

اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزدنا علماً.

نحمدك الله على كلّ حال، ونعوذ بالله من حال أهل النار.

خير ما أحييكم به أيها الأخوة الكرام: تحية الإسلام، وتحية الإسلام
السلام، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

(وبعد)

القرآن - الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ - أعظم نعم الله على
الأمّة. وبإنزاله كمل الدين وتمّت النعمة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فهو الكتاب الخالد الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وهو: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

نحن المسلمون وحدنا نملك كلمات الله الخالدة الباقية، التي لم يعترها تحريف ولا تبديل. أمّا الكتب السماوية التي أنزلها الله على رسله السابقين قبل محمد ﷺ، فقد أصابها التحريف اللفظي والمعنوي^(١)، ولم تبقَ سالمة موصّاة؛ لأنّ الله لم يحفظها، وإنّما استحفظ عليها أهلها^(٢)، ولم يتكفل بحفظها؛ لأنّها كانت كُتُبًا موقوتة لقوم مخصوصين في مرحلة مُعيّنة.

فلما جاءت رسالة الإسلام العامة الخالدة، أنزل الله لأهلها وللشريّة كلّها كتابًا خالدًا، لا يعتريه تحريف ولا تبديل؛ لأنّ الله تبارك وتعالى تكفل بحفظه بنفسه، ولم يستحفظه أحدًا من خلقه، قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولذلك لا نجد كتابًا سماويًا بقي كما أنزله الله تعالى إلا القرآن الكريم، فهو الكتاب الذي بقي كما أنزل على محمد ﷺ، فنحن نقرؤه كما كان يقرؤه رسول الله ﷺ؛ لأنّ هذا القرآن حفظ من جميع جوانبه.

(١) التحريف اللفظي بتبديل كلمة مكان كلمة، أو حذفها نهائيًا. والتحريف المعنوي بسوء التأويل. قال تعالى: ﴿أَفَنظَمُعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

(٢) قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

جوانب حفظ القرآن الكريم:

الأول: حُفِظَ القرآن بطريقة نطقه وإلقائه أو أدائه، في الغنّ والمدّ والإظهار والإدغام وغير ذلك. وكان هذا سبباً في تأليف علم التجويد، الذي يخدم القرآن ويحافظ على طريقة الأداء بأحكامه المعروفة، لتبقى طريقة أداء القرآن الكريم كما كانت في عهد النبي ﷺ.

الثاني: حُفِظَ القرآن بطريقة كتابته، فمنذ كتب في عهد عثمان رضي الله عنه بقيت كتابته ورسمه على ما كان عليه في عهد عثمان، ولم يطرأ على هذه الكتابة إلا شيء من النقط والشكل فقط، ولذلك نجد كلمات في القرآن تُكتب على غير قواعد الإملاء التي نعرفها مثل كلمة: «الصلوة»، والزكوة، والربوا»، وغير ذلك من الكلمات التي بقيت على هذا الرسم إلى الآن، ولم يجرؤ أحد أن يُغيّر في هذا الكتاب، حتّى في رسم هذه الكلمات ليبقى هذا الكتاب سالمًا.

كما أنّ هناك مئة وأربع عشرة سورة في كتاب الله كلها بُدِئَتْ بالبسملة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، إلا سورة واحدة هي سورة التوبة (سورة براءة).

ولم يجرؤ أحد طوال أربعة عشر قرناً أن يقول: لنضع فيها البسملة لتكون غيرها. ولم ولن يجرؤ أحد على ذلك، وهذا من أسرار حفظ هذا الكتاب الذي خصّنا الله به.

ولذلك نحن المسلمون نعزّ ونفخر بأنّ عندنا كلمات الله الهادية النيرة، التي تضيء للبشريّة كلّها طريق الحياة إلى التي هي أقوم، وأنّ هذه الكلمات تكفل الله بحفظها فلم يصبها تغيير ولا تبديل.

خصائص القرآن الكريم:

من خصائص القرآن الكريم أنّه كتاب مُيسّر، يسّره الله للحفظ، وللفهم، وللذكر.

١ - تيسير حفظه:

يسّر الله القرآن الكريم للحفظ، فهناك الآلاف المؤلّفة من العرب، ومن غير العرب الذين لا يعرفون العربيّة، من الأطفال الصغار يحفظون هذا الكتاب، يقرؤونه عن غيب، ولا يُخطئون ولا يلحنون.

كنت في الباكستان وزرت بعض المدارس هناك، فوجدت كثيرًا من الطلاب الصغار بها يحفظون القرآن الكريم، منهم من يحفظ نصفه، ومنهم من يحفظ ثلثيه، ومنهم من يحفظه كلّ. وسألت بعض هؤلاء في حفظه للقرآن الكريم، فكان الواحد منهم مثل المُسجّل (Recorder) حافظ للقرآن، لا يخرم منه حرفًا، ولا يُسقط كلمة. وحين قلتُ له: ما اسمك؟ لم يعرف ما أقول، لم يفهم معنى كلمة: «ما اسمك؟»، فهو لا يعرف كلمات العربيّة ولا معانيها، ومع هذا يحفظ القرآن الكريم، ويجيد حفظه وترتيله. أليس هذا من أسرار تيسير الله هذا الكتاب للحفظ؟

إنّه لا يوجد كتابٌ يحفظه النَّاس دون أنْ يعرفوا معانيه إلا القرآن الكريم.

وقد رأى إخواننا هنا في قَطْر نماذج من هذا الصنف من الناس، في امتحانات مسابقة القرآن الكريم، فقد امتحنوا أناسًا يعيشون في قطر من الباكستانيين والهنود وغيرهم، من بلاد الشرق الأقصى، فوجدوهم يحفظون القرآن كلّ، ولا يعرفون كلمات العربيّة ولا معانيها.

وقد لفت نظري وأنا أزور بنجلاديش منذ سنوات، أنني زرت مدرسة إسلامية هناك - يجلس طلابها على التراب - فوجدت بها صبيًا عمره أقل من تسع سنوات، يحفظ القرآن الكريم كله. امتحنته في «الطواسين» و«الحواميم» والمتشابهات^(١) في القرآن فلم يخطئ في كلمة، وهو صبي دون التاسعة من العمر، وليس من العرب، ولا في بلاد العرب. علام يدل هذا؟ ألا يدل على تيسير الله هذا الكتاب للحفظ؟

هل في استطاعة أعظم قسيس، أو أعظم أسقف، أو كردينال أن يحفظ صفحات معدودة من التوراة أو الإنجيل؟ لا أظن ذلك بإمكانه.

٢ - تيسير فهمه:

وكما يَسِّر الله القرآن للحفظ، فقد يسره أيضًا للفهم، فأَيُّ إنسان عربي أو يعرف العربية يستطيع أن يقرأ القرآن ويفهم منه على قدر ما آتاه الله.

قد لا يفهم المعاني العميقة، وقد لا يفهم بعض الألفاظ، ولكن بمجرد أن يقرأ القرآن يحس بمعانيه، وأنها لتملكُ عليه قلبه. وكم رأينا بعض الأميين الذين لا يقرؤون ولا يكتبون يكون لمجرد سماع القرآن، ما الذي أبكاهم؟ أتراهم يكون من فراغٍ أم أن هناك من المعاني والقيم ما استقرَّ في قلوبهم لمجرد السماع، ففاضت بسببه أعينهم؟ وصدق الله إذ يقول:

(١) الطواسين أو الطواسيم: هي السور التي تبدأ بـ «طسم» وهي سورة الشعراء، والنمل، والقصص. والحواميم: هي السور التي تبدأ بـ «حم» وهي غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف. والمتشابهات: هي الآيات التي يشبه بعضها بعضًا في اللفظ، مثل آيات قصة «آدم» ﷺ، في سورة البقرة، والأعراف، والحجر، وطه، وص، وليس المقصود بها المتشابهات الآيات التي هي خلاف المحكمات في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾

[آل عمران: ٧].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]،
وإذ يقول: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، وحين قال:
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

٣ - القرآن المعجزة الكبرى:

وهذا من خصائص هذا الكتاب العظيم الذي أكرمنا الله به، والذي هو آية وهداية في الوقت نفسه، فهو الآية الكبرى والمعجزة العظمى لرسولنا محمد ﷺ. وهو هداية الله التامة للبشرية: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

هناك قبل رسولنا أنبياء ورسل أعطاهم الله الآيات، وأمدهم بالمعجزات، كموسى ﷺ، فقد أعطاه الله العصا، كما حكى القرآن في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ ﴿قَالَ أَلْقَهَا يُمُوسَى﴾ ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ١٨ - ٢٠]، وآية اليد كما في قوله تعالى: ﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٢٢].

وكعيسى ﷺ، أُعْطِيَ إِبْرَاءَ الْأَكْمَه وَالْأَبْرَص وإحياء الموتى بإذن الله، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرٌ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

هذه الآيات نسَمِّيها الآيات الحسيَّة أو الكونيَّة، وهي عظيمة ولا شكَّ، ولكن هذه الآيات لا يؤمن بها إلا من رآها وعاشها، ثمَّ بعد ذلك تكون خبرًا من الأخبار.

أمَّا معجزة محمد ﷺ وآيته الكبرى، فكانت هي القرآن الكريم، وهي آية أدبيَّة عقليَّة معنويَّة، ومعجزة باقية أبد الدهر، تمضي الأيام والسنون والأعوام والدهور والأعصار، وهي حيَّة باقية.

فلا زال القرآن حيًّا باقيًا نتحدَّى به العالم كلَّه، نتحدَّى بإعجازه البياني، وإعجازه التشريعي، وإعجازه الإصلاحي، وإعجازه العلمي^(١) هذه بعض مزايا القرآن الكريم.

واجبنا نحو القرآن الكريم:

ومن هنا كان علينا واجب، بل واجبات نحو هذا الكتاب العظيم كما سمَّاه الله تعالى، فقد سمَّى الله تعالى القرآن الكريم ببعض أسمائه فهو: عظيمٌ وعزیزٌ وعليٌّ وحكيمٌ ومجيدٌ وكريمٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، وقوله ﴿وَعَجَلٌ﴾: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، وقوله: ﴿قَدْ ءَلْقَيْنَا الْكِتَابَ الْكَرِيمَ﴾ [الواقعة: ٧٧].

إحسان التلاوة والاستماع:

أولها: أن نُحسن تلاوته إذا تلوناه، وأن نُحسن استماعه إذا استمعنا إليه.

(١) من الكتب التي جدَّدت التحدي بالقرآن في عصرنا: كتاب الوحي المحمدي للعلامة رشيد رضا.

ومعنى أن نحسن تلاوته: أن نمثل لقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، أي: نقرأ القرآن بترتيل كما كان يقرؤه الرسول ﷺ، والصحابة رضوان الله عليهم، ومن تبعهم بإحسان. وهذا يلزمه أن نحافظ على سلامة النطق وأحكام التجويد، فنُخرج الحروف من مخارجها الصحيحة، ونعطيها حقها ومستحقها كما يقول علماء التجويد، وألا نُغيّر فيها بأن ننطق حرفاً مكان آخر؛ لأنّ هذا يترتب عليه فساد المعنى، أو فهم معنى آخر يتنافى ومعنى القرآن الكريم.

فمثلاً هناك بعض النَّاس لا يخرجون ألسنتهم في نطق «الثاء» و«الذال» و«الظاء»، وهذا إن جاز في اللغة العادية، فإنّه لا يجوز ولا يليق بقارئ القرآن، ومثله أيضاً عدم تعطيش «الجيم». وهناك ما هو أقسى على النفس من هذا عند من يقبلون القاف غيناً في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨]، لا بدّ أن نحسن القراءة، وأن نخضع لهجاتنا للقراءة السليمة، ولا نتساهل في هذا بحال من الأحوال.

تقويم اللسان بالقرآن:

ولا بدّ من تقويم اللسان بالقرآن، فمن فضائل القرآن أنّه يقوم اللسان، ويُعلّم الفصاحة، ويمنح القدرة على الخطابة. وقد فطن لهذا بعض النَّاس من غير المسلمين، فبعض النصارى في مصر كانوا يُعلّمون أولادهم القرآن في الصغر ليكون عوناً لهم على الفصاحة في مستقبلهم، حكى ذلك أديبٌ معروفٌ في مصر وهو الدكتور «نظمي لوقا» وهو نصرانيّ كما نعرف.

وقد ألّف كتاب «محمد: الرسالة والرسول»، وكتاب «وا محمداه»

و«محمد في بيته» إلخ، وقال في مقدمة «الرسالة والرسول»: إِنَّ أَبَاهُ جَعَلَهُ عِنْدَ شَيْخٍ يَعْلَمُهُ الْقُرْآنَ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ مِنَ الصَّغَرِ^(١).

وكان مكرم عبيد - وهو قبطي وزعيم سياسي معروف في مصر - من الخطباء المشهورين، والذي أعطاه القدرة على الخطابة حفظه للكثير من القرآن الكريم واقتباسه منه. ونحن أولى الناس بأن نحسن تلاوته، وأن نقوم به ألسنتنا.

ضرورة معرفة أحكام التجويد:

وإذا كانت المحافظة على سلامة النطق أمراً ضرورياً ولازمًا لمن يقرأ القرآن، أو لمن يتعلمه؛ فإنَّ معرفة أحكام التجويد وطريقة الأداء - أيضًا - أمر ضروري، فلا تكفي المعرفة النظرية لأحكام التجويد، بل لا بدَّ من التطبيق العملي حتَّى نقرأ القرآن كما كان يقرؤه الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم.

ومن فضل الله تعالى علينا أنْ يَسِّرَ لنا هذا، يَسِّرَ لنا سماع المصحف المرتل من الإذاعات، وبالإمكان أنْ يسمع الإنسان من إذاعة القرآن الكريم ما يشاء، وبالإمكان أنْ يحضر الإنسان الأشرطة والمسجّل، وهناك المصحف المعلم، وهناك أيضًا مراكز تحفيظ القرآن الكريم، كل هذا ميسّر لنا والحمد لله.

ولا عذر يُقبل عن تقصير منا، أو قصور فينا، فواجبنا جميعًا أن نقرأ القرآن قراءة حسنة كما كان يقرؤه الصحابة، وأن نعلم أولادنا وتلاميذنا هذه القراءة.

(١) انظر: محمد الرسول والرسالة ص ٣٣، ٣٤، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، ط ٢، ١٩٥٩م.

التدبر والخشوع:

ولا بدّ مع سلامة النطق ومراعاة أحكام التجويد، من التدبر والخشوع؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ كُنْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، أي: أنزل للتدبر والتذكر، ويقول سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، ويقول: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، فلا بدّ أن نعيش القرآن بقلوبنا وعقولنا. هذا هو المهم، فلا يليق أبداً أن نقرأه باللسنتنا وقلوبنا مشغولة عنه؛ لأنّ هذا يتنافى وجلال القرآن وعظمته.

ورحم الله محمد إقبال شاعر الإسلام في باكستان؛ لقد كانت قراءته للقرآن تختلف عن قراءة الناس، ولهذه القراءة الخاصّة فضل كبير في تذوقه للقرآن، واستطاعه إياه، وقد حكي قصته لقراءة القرآن، وقال: «قد كنتُ تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كلّ يوم، وكان أبي يراني، فيسألني: ماذا أصنع؟ فأجيبه: أقرأ القرآن. وظلّ على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله، فأجيبه جوابي، وذات يوم قلت له: ما بالك يا أبي، تسألني نفس السؤال؟ وأجيبك جواباً واحداً، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد؟ فقال: إنّما أردت أن أقول لك يا ولدي! اقرأ القرآن كأنّما أنزل عليك! ومنذ ذلك اليوم بدأت أفهم القرآن، وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست، ومن درره ما نظمت»^(١).

وكيف لا نخشع لتلاوة القرآن أو لسماعه، والله يقول: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَاهَا عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]، أي: لتصدّع

(١) انظر: ديوان محمد إقبال (٣٤/١)، إعداد سيد عبد الماجد الغوري، نشر دار ابن كثير، دمشق،

الجبل وتزلزل على قوته وشموخه ورُسُوّه في الأرض، ويقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]. وإذا وجد الخشوع تضاعف أجر القراءة وثوابها، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿أَلَمْ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(١).

وقد نبّه النبي ﷺ إلى أهمية الخشوع فقال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا»^(٢). ومع هذا نرى بعض الناس يقرؤون القرآن أو يسمعون له لمجرد أنه نغم، دون تدبّر أو خشوع، يسمعون القوارع والزواجر التي تزلزل القلوب بتهديدها ووعيدها، وتتعالى صيحاتهم بالإعجاب بصوت القارئ.

يسمعون قول الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ * ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوهُ﴾ * ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٢]، أو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ * ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ * ﴿وَبُزِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٤ - ٣٦]، أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. فترتفع صيحات الإعجاب كأن القرآن لا يتحدث عن القيامة وأهوالها، أو جهنم وأغلالها وسعيرها! إِنَّ هَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ لِلْأَسْف. نحن المسلمون لم نعد نقرأ القرآن ونسمعه كما ينبغي، لذا نجد أعداء الإسلام أصبحوا يذيعون القرآن من إذاعتهم؛

(١) سبق تخريجه ص ٢٢١.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٨٦.

لأنَّهم اطمأنوا أنَّ القرآن لم يعد يحرك فينا ساكنًا، أو ينبّه منا غافلًا، لم يصنع منا كما صنع بالمسلمين الأوائل الذين طرأ القرآن على حياتهم فغيرها. فإسرائيل وغيرها يذيعون القرآن، ولو علموا أننا سنتدبره ونعمل به كسلفنا الصالح ما أذاعوه؛ لأنّ تدبره يؤدي إلى العمل به، وتدبر القرآن والعمل به هو الذي يجمع شتات الأمّة، ويوحّد صفوفها، ويجمع كلمتها، ويجعل منها أمة قويّة كسلفها، ولذا فلا بدّ من العمل بهذا القرآن.

العمل بالقرآن:

إنّ القرآن لم ينزل ليقرأ على الأموات، وليتبرك به في المنازل والعربات، وإنّما نزل منهاجا للفرد، ودستورًا للدولة، ونظامًا للحياة كلها ليحكمها بما أنزل الله ﷻ فيه من الهدى ودين الحق، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرًى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. بيّن لنا الله فيه أصول الهداية، وأصول الحياة، وأصول التشريع، وأصول القيم: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ويوم اتبع المسلمون هذا الكتاب وساروا وراءه، ونفذوا أحكامه وتعاليمه: كانوا خير أمة حقًا كما أراد الله لهم، قادوا الدنيا بزمam، وفتحوا المشارق والمغارب بهداية هذا القرآن، وبالعامل به، لم ينشروا الإسلام بالسيف كما يزعم الأفّاكون من المبشرين والمستشرقين وغيرهم، أي سيف هذا الذي يتحدثون عنه؟

لقد دخل الإسلام مصر ببضعة آلاف على رأسهم عمرو بن العاص، وكانت مهمّتهم أن يُخرجوا الرومان الذين احتلّوا مصر، وأن يتيحوا الفرصة أمام من يريد اعتناق الإسلام. لذا فقد تآلف المسلمون مع الشعب القبطي المصري في ذلك الوقت، ولم يُكرهوا أحدًا على الإسلام، وبعد

فترة انتشر الإسلام بين أهل مصر، لا بسيف، ولا بجيش، وإنما دخل الناس في دين الله أفواجًا، حتّى كان ولاية بني أمية يفرضون الجزية على من دخل في الإسلام، لكثرتهم، وحينما جاء عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، اقترح واليه على مصر أن يستمر في فرض الجزية على من أسلم، أسوة بمن كان قبله، لكثرة من أسلم من الناس، فبعث إليه عمر يقول: «قبّح الله رأيك، إنّ الله بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا»^(١).

فالإسلام لم ينتشر بالسيف، إنّما انتشر بهداية القرآن، وبعمل المسلمين بهذا القرآن. كانوا صورة عملية لهذا القرآن، كان كل واحد منهم مصحفًا يمشي على قدمين، يرى الناس فيه آداب القرآن، وأخلاق القرآن، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم. سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم، فأجابت بالجواب الجامع قالت: «كان خلقه القرآن»^(٢)، أي: إذا أردت أن تعرف خلق الرسول صلى الله عليه وسلم فافتح المصحف واقرأ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣٨٤/٥)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١).

مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرًّا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿[الفرقان: ٦٣ - ٧٦].

واقراء: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ أَتْبَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿[المؤمنون: ١ - ١٠].

اقرأ أول سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[البقرة: ٣ - ٥].

اقرأ أوصاف المؤمنين في أول الأنفال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿[الأنفال: ٢ - ٤].

واقراء أوصاف المحسنين في سورة الذاريات: ﴿ءَاخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿[الذاريات: ١٦ - ١٩].

وأوصاف الأبرار في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِهِ

اللَّهُ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَّهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * [الإنسان: ٥ - ١٢]. اقرأ هذا كله لتعرف أخلاق محمد ﷺ، فهو خير من جسد تعاليم القرآن في حياته، وهكذا كان المسلمون في العصور الأولى.

كان كلُّ منهم قرآناً مرئياً مجسماً بين الناس. بهذا نشروا الإسلام في العالمين، ولم ينشروه بالسيف كما يزعم المضللون. إن بلاد الشرق الأقصى: الفلبين، وإندونيسيا، وماليزيا، وهذه البلاد التي فيها مئات الملايين من المسلمين، لم يدخلها فاتح مسلم، ولم تطأ أرضها خيول المسلمين ولا جيوشهم، فمن أين أسلموا؟ أسلموا بعمل المسلمين بالقرآن.

أهل القرآن المُستحقُّون لشفاعته:

ومن هنا كان علينا نحن مسلمي اليوم، إذا أردنا أن نكون من أهل القرآن كما قال ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ». قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: «هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته»^(١).

وأن نكون ممن يشفع له القرآن، كما جاء عن النبي ﷺ: «القرآن شافعٌ مُشَفَّعٌ، وماحلٌ مُصَدَّقٌ، فمن جعله أمامه، قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره، قاده إلى النار»^(٢). أي: من جعل القرآن أمامه وإمامه قاده إلى

(١) رواه أحمد (١٢٢٧٩)، وقال مخزجوه: إسناده حسن. وابن ماجه في المقدمة (٢١٥)، والنسائي في الكبرى في فضائل القرآن (٧٩٧٧)، والحاكم في فضائل القرآن (٥٥٦/١)، وقال: وقد روي هذا الحديث من ثلاثة أوجه عن أنس هذا أمثلها. ووافقه الذهبي، وصحَّح إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٢٠٩)، عن أنس.

(٢) رواه ابن حبان في العلم (١٢٤)، وقال الأرناؤوط: إسناده جيد. والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٥٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٠١٩)، عن جابر.

الجنة، ومن جعله خلفه، واتخذته وراءه ظهرًا، وجعله نسيًا منسيًا، فإن القرآن يزجّه في قفاه حتّى يردّيه في النار؛ لأنّه آخر ما يجب أن يُقدّم، ووضع القرآن في غير موضعه.

هل مجرّد أن يقرأ الإنسان القرآن بلسانه، وقلبه بعيد عنه كلّ البعد، وحياته تنافيه، يشفع له يوم القيامة؟ ومن يقول هذا؟ السلف يقولون: رَبِّ تَالِ للقرآن، والقرآن يلعنه^(١).

وكأنّهم يُحذرون من يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]. ويظلم، ويقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]. وهو يخون، يُحذرونه من أنّه لن تناله شفاعة القرآن، وكيف تناله وحاله هذا؟ إنّما يشفع القرآن لمن قرأه وعمل به، لمن أحيا به ليله، وعمل به نهاره، كما جاء في الحديث، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربّ إنّني منعتُه الطعامَ والشّهواتِ بالنّهار فشفّعني فيه. ويقول القرآن: ربّ منعتُه النّومَ بالليل فشفّعني فيه. فيُشفّعان»^(٢).

وأيضًا جاء في الحديث: «لا حسدَ إلّا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو يُنفقُ منه آناء الليل وآناء النهار»^(٣)، والمراد بالحسد هنا: الغبطة، أي يتمنّى أن يكون

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٢٧٤/١)، من قول أنس.

(٢) رواه أحمد (٦٦٢٦)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والطبراني (٣٨/١٣)، والحاكم في فضائل القرآن (٦٦٢٦)، وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٠٨١): رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجال الطبراني رجال الصحيح. عن عبد الله بن عمرو.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥٢٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٥)، عن ابن عمر.

مثله في قراءة القرآن، أو الإنفاق، ولا يتمنى زوال نعمته؛ فتمني زوال النعمة هو الحسد الذي: «يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(١). إنما يشفع القرآن لمن أحيا به ليله، وعمل به.

ومن هنا كان واجبنا نحن المسلمين أفرادًا وجماعاتٍ ودُولًا: أنْ يصبح القرآن منهاج حياتنا. وقد رسم القرآن لنا المنهاج الكامل للحياة التي يحياها الإنسان، في علاقته بالله - عقيدة وعبادة - في علاقة الرجل بزوجه والمرأة بزوجه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، في علاقة الوالد بولده، والولد بوالديه، في علاقة الفرد بالآخرين من الناس، في علاقة الحاكم بالمحكومين.

بهذا وغيره جاءت آيات القرآن موجزة جامعة، تضع الأسس والأصول التي ترسم منهاج الحياة، حتى في الأمور اليسيرة، كالمشي، وآداب الزيارة، يعلمنا القرآن كيف نمشي فيقول سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أي: لا يمشون مُتَبَخَّرِينَ مُتَجَبِّرِينَ لكن بسكينة وتواضع. ويقول أيضا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، أي: لا تمشِ مختلًا متكبرًا؛ لأنك مهما دببت على الأرض بقدمك، أو تمطيت إلى السماء بعنقك، فلن تخرق الأرض، ولن تبلغ الجبال طولًا. ويقول ﴿وَعَلَىٰ﴾: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، أي: لا تهول كالحمقى، ولا تتباطأ أو تتماوت وإنما كن متوسطًا.

وفي آداب الزيارة يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٣)، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٩٠٢)، عن أبي هريرة.

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۚ هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٧﴾ [النور: ٢٨].

هذا التعبير القرآني: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ يُعَلِّمُنَا أَسْمَى وَأَرْقَى أَنْوَاعِ الذُّوقِ الْإِنْسَانِي؛ لِأَنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى مَجْرَدِ الْإِذْنِ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى الْإِذْنِ وَالِاسْتِعْدَادِ وَالرَّغْبَةِ فِي زِيَارَتِكَ. أَيِ مَا يُسَمُّونَهُ «الِإِيْتِكِيَت»، أَوْ «الْبِرُوتُوكُول»، مِنْ هَذَا الْأَدَبِ الْقُرْآنِيِّ الَّذِي يَرْتَفِعُ بِنَا إِلَى دَرَجَةِ الْاسْتِنْسَانِ عِنْدَ الزِّيَارَةِ.

﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾، لَا شَيْءَ فِي عَدَمِ الْإِذْنِ أَوْ الرَّجُوعِ التَّمَاثُلًا لِلْأَعْذَارِ، أَوْ لِعَدَمِ الْاسْتِعْدَادِ فِي الْحَالِ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي عَدَمِ الْإِذْنِ غَضَّةٌ أَوْ غَضَاظَةٌ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَرَى ذَلِكَ. حَكَى الْأُسْتَاذُ الْبَهِّي الْخَوْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنِ الْإِمَامِ الشَّهِيدِ حَسَنِ الْبَنَّا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ زَارُوهُ، وَكَانَ مَشْغُولًا بِأَمْرِ مَا، فَطَلَبَ مِنْ ابْنِهِ أَوْ أَخِيهِ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ، وَأَنْ يَدْخُلَهُمُ الْمَجْلِسَ فَفَعَلَ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَقْدَّمَ لَهُمْ تَحِيَّةَ الضَّيْفِ، وَبَعْدَ فِتْرَةٍ جَاءَهُمْ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ عَنِ الْجُلُوسِ مَعَهُمْ لَانْشِغَالِهِ بِأَمْرِ مَا، فَغَضِبُوا وَلَا مَوْهَ. فَقَالَ لَهُمُ: الْقُرْآنُ حَكَمَ بَيْنَنَا، اللَّهُ يَقُولُ: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ [النور: ٢٧]، وَأَنْتُمْ لَمْ تَسْتَأْذِنُوا؛ لِأَنَّكُمْ جِئْتُمْ فِي وَقْتٍ غَيْرٍ مُنَاسِبٍ لِي، وَاسْتَقْبَلْتُمْ أَحَدَ أَفْرَادِ الْبَيْتِ وَقَدَّمْتُمْ لَكُمْ وَاجِبَ الضَّيْفِ دُونَ حَضُورِي، وَكَانَ يُمْكِنُ أَنْ تَفْهَمُوا بَعْدَ هَذَا أَنِّي مَشْغُولٌ فَتَنْصَرَفُوا، وَلَمْ تَفْعَلُوا، وَحَضَرْتُ أَعْتَذَرُ إِلَيْكُمْ بِنَفْسِي فَلَمْ تَقْبَلُوا، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]. قَالَ: وَكَانُوا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْفَقْهِ وَالْعِلْمِ. فَقَالُوا: أَفَحَمَتْنَا؛ الْحَقُّ مَعَكَ. فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ وَانْصَرَفُوا.

هَكَذَا يَحْكُمُ النَّاسُ الْقُرْآنَ فِي سُلُوكِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ؛ لِأَنَّهُ رَسْمٌ لَنَا آدَابِ السُّلُوكِ، فَلَوْ أَنَّا كُنَّا قُرْآنِيِّينَ حَقًّا لَكَانَتْ حَيَاتُنَا أَرْفَعَ حَيَاةً. نَحْنُ

لسنا في حاجة إلى استيراد التقاليد أو الآداب من هنا وهناك، عندنا ما يكفي، فقد أعطانا القرآن كلَّ شيء، فحبذا العود إليه؛ فبالقرآن نعر بعد ذلة، ونقوى بعد ضعف، ونأمن بعد خوف، وتعود إلينا السيادة، ونصبح في طليعة الأمم بعد أن أصبحنا وراء القافلة، كنا في مأخذ الزمام، يوم كنا قرآنيين، فلما أعرضنا عن القرآن أصبحنا في مؤخرة الأمم. الآن يقولون عنا العالم الثالث، أو الدول النامية أي المتخلفة، ولكنهم يخففون العبارة فيسمونها الدول النامية.

يوم كنّا قرآنيين كانت أمتنا في الطليعة، كانت إماماً للدُّنيا، وقادت الدنيا بهذا الكتاب العظيم.

فواجبنا نحن المسلمين أن نعود للقرآن، نُحسن قراءته، ونحسن الاستماع إليه، ونحسن فهمه وتدبره، ونعيش معه بقلوبنا وعقولنا، ثم نَحْكُمُهُ في حياتنا: حياتنا الفرديّة، حياتنا الأسريّة، حياتنا الاجتماعيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة. نحلُّ ما أحلَّ هذا القرآن، ونحرم ما حرمه، هذا واجبنا جميعاً، ليس واجب الرجال وحدهم، ولا واجب النساء وحدهنَّ، هو واجب الرجال والنساء، والحكام والمحكومين، واجب المسلمين جميعاً.

فالقرآن هو روح هذه الأمة: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكِنَّا وَلَا أَلَايْمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، هو روح ونور: روح يحيي، ونور يضيء. ولكن للأسف نحن المسلمين لا نستفيد من هذا النور وإن كان معنا وفي أيدينا.

ومن العجائب، والعجائب جمّة: قُرْبُ السَّبِيلِ، وما إليه وُضُوءُ كالعيس في البِداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

إذا أردنا أن نسعد في الدنيا، وأن نفوز في الآخرة، وأن يرضى الله تبارك وتعالى عنا، إذا أردنا ذلك: فعلينا أن نعود إلى القرآن، أن نعود إلى كتاب الله تعالى؛ هو المخرج من كل فتنة وظلمة، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ: «ستكون فتنٌ كقطع الليل المظلم». قلت: وما المخرج منها، يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم ينته الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، هو الذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم». والحديث ضعيف. ولكن معناه صحيح^(١).

وختامًا:

إنَّ واجباتنا نحو القرآن كثيرة، اكتفينا منها بما ذكرناه هنا، ولكن نشير فقط إلى ضرورة فهم القرآن، فهذا هو مقتضى تدبره، وعلينا أن نستعين في فهمه بتفاسير المفسرين، وكل تفسير له مزايا، والبصير من أحسن الاستفادة منها.

(١) رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٦)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. وضعفه الألباني في الضعيفة (٦٣٩٣)، عن علي بن أبي طالب.

كما نشير إلى ضرورة الدعوة إلى القرآن، دعوة المسلمين للرجوع إليه، والاحتكام إليه، رعاة ورعية، ودعوة غير المسلمين ليقبلوا على دعوته، ويؤمنوا برسالته، فهو المصدر الأول للدعوة، كما أنه المصدر الأول للتشريع.

ولعلنا في فرصة أخرى نفصل بعض هذه الواجبات^(١).

نسأل الله تبارك وتعالى بكل اسم هو له، سمى به نفسه أو أنزله في كتابه، أو علمه أحداً من خلقه، أو استأثر به في علم الغيب عنده، أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همنا وغمنا، وأن يجعلنا قرآنيين مسلمين، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، الذين بشرهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

وصل اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) راجع كتابنا: كيف نتعامل مع القرآن العظيم، نشر دار الشروق، القاهرة.



أحكام الطلاق في ضوء سورة البقرة^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأزكى صلوات الله وتسليماته، على من أرسله ربه رحمة للعالمين، وحُجّة على الناس أجمعين، سيّدنا وإمامنا، وأسوتنا وقائد دربنا مُحَمَّد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، الَّذِينَ ﴿ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ورضي الله عمّن دعا بدعوته، واهتدى بسُنّته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أحييكم به أيّها الإخوة والأخوات تحيّة الإسلام، تحيّة من عند الله مباركة طيّبة، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(١) ألقيت بمسجد الشيوخ، بالدوحة، في شهر رمضان ١٤٣٤هـ - يوليو ٢٠١٣م.

(وبعد)

منهج القرآن في تفصيل الأحكام وإجمالها:

اهتمَّ القرآن بشؤون الأسرة اهتمامًا بالغًا، وقد قال العلماء المُحَقِّقُونَ: إنَّ التشريع الإسلامي، والتشريع القرآني خاصَّة، فصلَّ فيما لا يتغيَّر كثيرًا، وأجمل فيما يتغيَّر كثيرًا. أي إنَّ الأمور التي تتغيَّر كثيرًا، يُجمل القرآن فيها، وقد لا يقول فيها شيئًا، مثل الإجراءات والمرافعات وغيرها، لا تجد فيها نصوصًا من القرآن إلَّا قليلًا؛ لأنَّ هذه الأمور تتغيَّر في الحياة تغيُّرًا كبيرًا.

والأمور المدنيَّة، وما في شاكلتها، فصلَّ فيها القرآن شيئًا من التفصيل، فأعطى قواعد عامَّة، مثل الفقه السياسي: تجد الأمر بالشورى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. والأمر بالعدل، وطاعة أولي الأمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨، ٥٩]. ﴿وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]. فهي نصوص قليلة، ولكنها نصوص ضابطة لقواعد مهمَّة.

وفي شؤون الأسرة نجد أنَّ القرآن فصلَّ فيها، ولكنَّ معظم تفصيل القرآن كان في الفراق، وفي انفصال الأسرة، وليس في إنشاء الأسرة ولا في تكوينها؛ لأنَّ النَّاس في حالة إنشاء الأسرة وتكوينها، يكونون في حالة رضا، وتفاهم وتفاوض وتنازل، ولكن البُعد عن الصواب، وعن الحكمة، وعن العدل يكون - غالبًا - في ساعات الغضب والفراق، فالناس يجور بعضهم على بعض في هذه الحالة، ولذلك اهتمت سورة

البقرة خاصة، بالحديث عن الطلاق، وأمر الفراق، والعدة، والوالدات - أي: الوالدات المطلقات - لأهميّة ضبط هذه الأمور.

وإن كانت السورة قد تحدّثت في بعض آياتها، عن أهميّة العلاقات الزوجيّة، كما جاء بعد آيات الصيام، أو في أثناء آيات الصيام، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ﴿فَسَاوُكُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ وَنِسَاءُكُمْ وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

ولكن الذي فصّلت فيه هو الطلاق وما يتعلّق به، في موضوع الطلاق أكثر من سورة الطلاق، حيث أخذت حوالى ربعي حزبٍ أو أكثر للحديث عن الطلاق.

حكمة مشروعيّة الطلاق:

ولقد شرع الله الطلاق لحكمة، فقد يتزوج الرجل امرأة، ثم لا تروق العشرة بينهما، فيكره أحدهما صاحبه.

ونجد أنّ بعض الأديان تُجبر الزوج على أن يبقى مع زوجته، فتُحرّم الطلاق تحريمًا باتًا، كما في المسيحيّة، فهناك مذهب في المسيحيّة يُجيز الطلاق إذا زنت المرأة. ومذهب آخر: لا يجيز الطلاق بحال من الأحوال، ويُسمّونه الزواج الكاثوليكي. من قديم قال بعض الساسة: لقد تزوّجت مصر بريطانيا زواجًا كاثوليكيًّا لا طلاق فيه^(١). كما أنّ إسرائيل الآن متزوّجة بأمريكا زواجًا (كاثوليكيًّا) لا طلاق فيه.

أمّا الإسلام فينظر إلى من استحالت العشرة بينهما أنّه لا بدّ أن يكون لحالهما هذا من حل، إذ كيف يعيش شخصان استحالت العشرة بينهما

(١) هو أمين عثمان وزير المالية المصري، الذي اغتيل في ١٩٤٦م.

تحت سقف واحد؟! ولقد قال أحد الحكماء قديماً: إنّ من أعظم البلايا أن تُصاحب من لا يُوافقك ولا يُفارقك. هذه مصيبة كبرى. وعبر عن هذا أبو الطيّب المُتنبّي فقال:

ومن نكد الدُّنيا على الحرّ أن يرى عدوّاً له ما من صدّاقته بُدُّ^(١)

ثم إنّ الزواج ليس شهراً ولا شهرين، ولا سنة ولا سنتين، ولا عشرة ولا عشرين، إنّهُ العمر، فهل يعقل أن تعيش عمراً مع من تكرهه؟! ولهذا كان الإسلام حكيماً حينما شرع الطلاق.

الضوابط التي وضعها الإسلام للطلاق:

١ - أن يكون في أضيق نطاق:

لما شرع الإسلام الطلاق، وضع له ضوابط بحيث ينفع ولا يضر، فاعتبره أبغض الحلال عند الله، كما جاء في الحديث^(٢)، فهو مشروع، ولكن الله لا يحبّه، ومعنى هذا: أنّه يجب أن يقع في أضيق نطاق. فهو بمثابة عمليّة جراحية، والمفترض بالمريض ألا يبدأ بمعالجة مرضه بعمليّة جراحية، إذا كان بإمكانه أن يعالجه بدواء - أقراص، أو شراب، أو حقن، إلخ - وإذا لم تنفع هذه الأدوية، فحينها يلجأ إلى العمليّة، كما تقول العرب: آخر الدواء الكي^(٣). وكما قال الشاعر:

إذا لم يكن إلاّ الأسِنَّة مَرَكَبٌ فما حيلة المضطرّ إلا ركوبها^(٤)

(١) ديوان المتنبّي ص ١٩٨، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

(٢) رواه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨)، كلاهما في الطلاق، وضعّفه الألباني في إرواء الغليل (٢٠٤٠)، عن ابن عمر.

(٣) انظر: جمهرة الأمثال لأبي الهلال العسكري (٩٧/١)، نشر دار الفكر، بيروت.

(٤) من شعر كميّ بن يزيد، كما في جمهرة أشعار العرب ص ٧٩٠، تحقيق علي محمد البجادي، نشر نهضة مصر، القاهرة.

٢ - أن يكون الطلاق في طهر لم يمسه فيها:

يقول الإسلام لمن يريد طلاق زوجته: لكي يكون طلاقك على السنة، لا تطلقها وهي حائض، ولا تطلقها في طهر مسستها فيه، فلعلها حامل وأنت لا تدري، وإن كانت حاملاً فخلها من أجل جنينها. فيقيّد عليه الطلاق بأن يكون في طهر لم تمسها فيه، يعني إذا أردت طلاق زوجتك وقد مسستها، فلا بد أن تنتظر حتى تحيض ثم تطهر، ثم تطلقها، ولا شك أن الإسلام أراد بذلك أن يأخذ الرجل فرصة، قبل أن يتخذ مثل هذا القرار، وهو قرار ليس هيناً ولا سهلاً.

٣ - أن يكون الطلاق بنيّة:

ثم اشترط الإسلام أن يكون هذا القرار بنيّة، كما قال ابن عباس: إنما الطلاق عن وطر^(١). فليس لعبة، لا بد أن تفكر قبل الطلاق مرة ثم مرة، ثم مرة، ولذلك القول الصحيح في طلاق السكران: إنه لا يقع؛ لأنه لا يملك عقله، وهذا مذهب سيدنا عثمان بن عفان، وبعض الصحابة والتابعين.

وطلاق الغضبان لا يقع؛ حين يكون الإنسان كالمجنون، فيغضب ويثور ويهيج، فيرمي بالطلاق كصاروخ لا يبالي من أصاب، وهذا أيضاً لا يقع. كما جاء في الحديث: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق»^(٢)، فسر الإغلاق بالإكراه، وفسر بالغضب، وهو يشمل الاثنين، ففي حالة الإكراه يفقد الإنسان إرادته، وفي حالة الغضب يفقد إرادته - أيضاً - وتصوره للأشياء كما ينبغي.

(١) ذكره البخاري في صحيحه معلقاً بصيغة الجزم، في الطلاق، قبل الحديث (٥٢٦٩).

(٢) رواه أحمد (٢٦٣٦٠)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود (٢١٩٣)، وابن ماجه (٢٠٤٦)، والحاكم (١٩٨/٢)، ثلاثهم في الطلاق، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٦٥)، عن عائشة.

٤ - أن يكون بلفظ الطلاق:

ثم اشترط الإسلام أن يكون الطلاق بلفظ الطلاق، ولذلك القول الصحيح أن الطلاق الذي يُراد به اليمين، وهو الذي يُراد به الحمل على شيء، أو المنع من شيء، لا يقع. وهذا مذهب بعض السلف، ورجحه شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وأخذ به كثير من المذاهب، ولجان الفتوى، والمحاكم، وفي قوانين الأحوال الشخصية في كثير من البلاد الإسلامية، وهو الذي يتفق مع مقاصد الشريعة، ومع روح الإسلام.

فحين يتشاجر شخصان في السوق في سلعة مثلاً، وصرخ أحدهم: «عليّ الطلاق» أو «عليّ الحرام من زوجتي». ثمّ ينتهي ليجد زوجته طالقاً، وزوجته تنتظره وقد أعدت طعامه، وجّهزت فراشه، فتجد نفسها مُطلّقة، لماذا؟! لأنّه تشاجر مع رجل - مثلاً - وأراد أن يحمله على فعل شيء أو الانتهاء عنه، أو نحو ذلك! وما ذنب المرأة في هذا الوقت؟ فهذه مشكلة حقيقة. ولذلك فالقول الصحيح أن هذا لا يقع، فالطلاق لا بدّ أن يكون عن وطر، وعن نية، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧].

الطلاق في الشريعة الإسلامية:

الإسلام وسطّ في الطلاق بين الذين حرّموا الطلاق لأيّ سببٍ كان، ولو استحالَت الحياة الزوجيّة إلى جحيم لا يطاق، كالكاثوليك، وقريب منهم الذين حرّموه إلّا لعلّة الزنى والخيانة الزوجيّة كالأرثوذكس، وبين الذين أرخوا العنان في أمر الطلاق، فلم يقيّدوه بقيّد، أو شرط، فمن طلب الطلاق من امرأة أو رجل، كان أمره بيده، وبذلك سهل هدم الحياة الزوجيّة بأوهى سبب، وأصبح هذا الميثاق الغليظ أوهى من بيت العنكبوت.

إنَّما شرع الإسلام الطلاق، عندما تُخَفِّق كُلُّ وسائل العلاج الأخرى، ولا يُجدي تحكيم ولا إصلاح، ومع هذا فهو أبغض الحلال إلى الله، وقد شرع الله الطلاق مرة بعد مرة، ليوجد فرصة للإنسان أن يراجع زوجته، ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

إذا كان الإنسان في لفظة واحدة يستطيع أن يهدم مؤسسته الزوجية ويفصل ما بينه وما بين زوجته إلى الأبد بكلمة واحدة لم يكن هناك معنى لقوله: ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ولا يكون هناك معنى لقوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ [الطلاق: ١]. ولا يكون أيضاً هناك معنى لقوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

لأنَّ الأمر انتهى بهذه الكلمة، ولم يعد هناك أي أمل أن تعود المرأة إليه إلا بعد أن تتزوج غيره زواجاً عادياً، وتطلق منه طلاقاً عادياً، وتنتهي عدتها وتعود إليه إن أراد، فهذه عملية صعبة، ولذلك فالذي يدل عليه قول الله: ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. أنَّ المراد بالطلاق مَرَّتَانٍ: الطلاق المتكرر مرّة بعد مرّة، أي: الطلاق الذي تراجع فيه الزوجة مرّتين، فأعطي الرجل فرصتين، فرصة بعد فرصة، ليطلق ثم يراجع، ويطلق ثم يراجع، والثالثة ثابتة كما يقولون، فلا يحلُّ له أن يراجعها حتى تنكح زوجاً غيره، نكاحاً شرعياً، بعد أن تعتد من الأول.

ولم يستثنِ الشرع من حق الرجوع للزوج إلا ثلاثة أنواع من الطلاق:

الأول: إذا طُلِّقت المرأة قبل الدخول بها، فطلاقها بائن ولا عدة عليها، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

الثاني: الطلاق على مال، وهو «الخلع» كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وكما قال النبي ﷺ لأحد الصحابة: «اقبلِ الحديقةَ وطلِّقها تطليقة»^(١). وليس معقولا أن تفدي نفسها منه برد ما أخذت منه، ثم يُمكن من إعادتها إلى عصمته.

الثالث: الطلاق الثلاث، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ زوجها بعد المراتين ﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وما عدا ذلك فالطلاق رجعي، كما يدل عليه القرآن، ومن حق الزوج مراجعة زوجته ما دامت في عدتها، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فسمي القرآن المطلق «بُعْلًا» أي زوجًا، وجعله أحق برد مُطلِّقته في ذلك، أي في وقت العدة، ومعنى هذا: أنَّ الزوجية لم تنقطع تمامًا بالطلاق الرجعي، فإنَّ نفقتها واجبة عليه مدة العدة، ولو مات أثناء العدة ورثته، ولو مات ورثها.

(١) رواه البخاري في الطلاق (٥٢٧٣)، عن ابن عباس.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. جعل الله الطلاق الذي تجوز معه الرجعة مرتين، أمّا الثالثة فـ«ثابتة» كما يقولون، ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

كان الناس في الجاهليّة، يطلق الرجل زوجته ثمّ يراجعها، ثمّ يطلقها ثمّ يراجعها، وهكذا، دون قيد أو شرط، فجاء الإسلام ليبيّن أنّ المرأة ليست «لعبة» في يد الرجل، وجعل الطلاق مرتين.

عندما يكون الزوج هو الكاره:

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

لا يجوز للرجل أن يأخذ من المرأة، ما أعطها من مهر، أو بعضه، من أجل أن تتركه، ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]. لأنّ بعض الرجال - للأسف - يريد أن يستغل المرأة لتدفع له ليطلقها، مثل «إتاوة»، وهذا لا يجوز.

فإن كانت المرأة هي الكارهة، تفدي نفسها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. أمّا إذا كان الرجل هو الكاره لها، ويريد أن يتزوج بأخرى، فلا يحل له أن يأخذ منها فلساً واحداً.

ولذلك يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتِنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠، ٢١]. فاعتبر القرآن الزوجيّة

ميثاقًا غليظًا، كما اعتبر النبوة ميثاقًا غليظًا أيضًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]. فميثاق الزوجية ميثاق مقدس كميثاق النبوة، فإذا كان الرجل كارها لزوجته، لا يجوز له أن يأخذ منها شيئًا.

عندما تكون الزوجة هي الكارهة:

أمّا إذا كانت المرأة هي الكارهة، فمن العدل أن تدفع له ما بذل لها، فالرجل يغرم في بناء منزل الزوجية، ثمّ تقول المرأة: لا أريده ثمّ تأخذ ما أعطاه، ليس من العدل هذا، فهو يريد أن يتزوج بأخرى، فمن العدل أن تدفع له ما أعطاه.

فقد جعل الشارع الحكيم للمرأة عدّة مخارج، تستطيع بأحدها التّخلّص من ورطة الزوج إذا كرهت الحياة معه؛ لغلظ طبعه، أو سوء خلقه، أو لتقصيره في حقوقها تقصيرًا ظاهرًا، أو لعجزه البدني أو المالي عن الوفاء بهذه الحقوق، أو لغير ذلك من الأسباب، فللمرأة الكارهة لزوجها أن تفدي نفسها منه، بأن تردّ عليه ما أخذت من صداق ونحوه، إذ ليس من العدل أن تكون هي الراغبة في الفراق وهدم عش الزوجية، ويكون الرجل هو الغارم وحده. قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

كما قالت امرأة ثابت بن قيس لرسول الله: يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكنني أكره الكفر في الإسلام.

تعني: كفر العشير، مع أن الرجل كان يحبها جدًّا، ولكنها لا تطيقه.

فقال رسول الله ﷺ: «أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ؟». قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «اقْبَلِ الْحَدِيثَ، وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً»^(١). وفي رواية: يا رسول الله، إِنِّي لَا أَرَاهُ^(٢)، فَلَوْلَا مَخَافَةُ اللَّهِ وَحَجَلُ لَبِزَتْ فِي وَجْهِهِ. فقال رسول الله ﷺ: «أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ الَّتِي أَصْدَقَكَ؟». قالت: نعم. فأرسل إليه فردت عليه حديثه، وفرَّقَ بينهما، قال: فكان ذلك أول خُلْعٍ فِي الْإِسْلَامِ^(٣).

هل الخلع طلاق أم فسخ؟

واختلف العلماء: هل الخلع طلاق أم فسخ؟ مذهب الإمام أحمد - وهو رأي ابن عباس - أَنَّ الخلع فسخ، ويدلُّ عليه ظاهر القرآن في هذه الآية: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. لا جناح عليهما فيما تفتدي به المرأة نفسها، فهي تدفع له ما أخذت وتحرَّرَ.

وهنا الخلاف بين العلماء: هل يتم برضا الزوجين، أم يُجبر الزوج على قبول الخلع، وقد اختلف المشايخ في مصر العام الماضي؛ لأنَّ الفقهاء اختلفوا من قديم، وأنا مع الرأي الَّذِي يَقُولُ: إِنَّ الْقَاضِيَ يُجْبِرُ الرَّجُلَ إِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ كَارِهَةً، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ نُلْزِمَ الْمَرْأَةَ بِالْعَيْشِ مَعَ مَنْ تَكْرَهُهُ، بَلْ إِنْ أَرَادَ رَجُلٌ عِنْدَهُ «كَرَامَةً» لَا يَقْبَلُ أَنْ يَعِيشَ مَعَ امْرَأَةٍ تَكْرَهُهُ، وَلَا تَرِيدُ أَنْ تَعِيشَ مَعَهُ.

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) لا أراه، أي لا أقدر أن أنظر إليه من شدة الكراهة والنفرة. انظر: حاشية السندي (٢٣٠/٩).

(٣) رواه أحمد (١٦٠٩٥)، وقال مخرَّجوه: حسن لغيره. عن سهل بن أبي حثمة.

جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب، تشكو زوجها، فأمر بأن تبیت في حظيرة، ثم في الصباح سألها عن ليلتها، فقالت: ما نمت ليلة أهنا من هذه! فأمر زوجها بطلاقها بعد أن تدفع له ما أخذته منه.

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية السابقة: «إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، ولا حرج عليها في بذلها له، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]».

فأما إذا لم يكن لها عذرٌ وسألت الافتداء منه فقد ذكر ابن كثير هنا حديث ثوبان: «أئما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس، فحرامٌ عليها رائحة الجنة»^(١).

قال ابن كثير: «ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف: إنّه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة، فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية... فلا يجوز في غيرها إلا بدليل، والأصل عدمه»^(٢).

حكم الإيلاء في الإسلام:

في القرون الماضية كثيرًا ما كانت المرأة مستضعفة، فجاء الإسلام وأنصفها، حتى إنّ الآيات التي بدأت في الحديث عن الطلاق، بدأت بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

(١) رواه أحمد (٢٢٣٧٩)، وقال مخرّجه: حديث صحيح. وأبو داود (٢٢٢٦)، والترمذي (١١٨٧)، وحسنه، وابن ماجه (٢٠٥٥)، ثلاثهم في الطلاق، وصحّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٩٢٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٦١٤/١).

﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ﴾ أي: يحلفون على نساءهم، والله لا أقربها أبداً، أو والله لا أقربها سنة، إلخ. المهم أن «الإيلاء» هو: أن يحلف الرجل ألا يجامع زوجته، وما معنى الحياة الزوجية إذا، فأعطاه الله إنذاراً قبل أن تمر الأربعة أشهر، إما أن ترجع وتفيء إلى المرأة، وإلا طُلقت منك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان أهل الجاهلية إذا طلب الرجل من امرأته شيئاً، فأبت أن تعطيه حلف ألا يقربها السنة والسنتين والثلاث، فيدعها لا أيماً ولا ذات بعل، فلما كان الإسلام جعل الله ذلك للمسلمين أربعة أشهر وأنزل هذه الآية.

وقال سعيد بن المسيّب: كان الإيلاء ضرار أهل الجاهلية، فكان الرجل لا يريد امرأته ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف ألا يقربها أبداً، فيتركها لا أيماً ولا ذات بعل، وكانوا عليه في ابتداء الإسلام، فجعل الله تعالى له الأجل الذي يعلم به ما عند الرجل والمرأة: أربعة أشهر^(١).

من روائع الإسلام:

من روائع الإسلام في رعاية حق المرأة: تحريمه على الزوج أن يغضب زوجته فيهجر فراشها، ويمتنع عن قربانها مدة لا تحتملها أنوثتها. فإذا أكد هذا الهجر بيمين منه ألا يقربها (لا يجامعها) أعطي مهلة أربعة أشهر، عسى أن تهدأ فيها نفسه، وتسكن ثائرة غضبه ويراجع ضميره. فإذا عاد إلى رشده واتصل بها قبل انقضاء الأشهر الأربع أو في آخرها، فإن الله يغفر له ما فرط منه، ويفتح له باب التوبة الفسيح، وعليه أن يكفر عن يمينه.

(١) أسباب النزول للواحي ص ٧٩، نشر دار الإصلاح، الدمام، ط ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

وإذا مضت هذه المدة ولم يرجع عن عزمه، ويتحلل من يمينه، فإن امرأته تطلق منه جزاءً وفاقاً على ما أهمل في حقها، ومن الفقهاء من يطلقها عليه بمضي المدة المذكورة بغير انتظار لقضاء قاض أو حكم حاكم، ومنهم من يشترط رفع الأمر إلى الحاكم بعد مضي المدة، فيخيره بين مراجعة نفسه وإرضاء زوجه وبين الطلاق، وليختر لنفسه ما يحلو، وهذا الحلف على عدم قربان الزوجة هو المعروف في الشريعة باسم «الإيلاء».

وإنما حددت المهلة بأربعة أشهر، لتكون فرصة كافية ليراجع الرجل فيها نفسه ويثوب إلى رشده، ولأنها في العادة أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها، وفي هذا يروي المفسرون قصة عمر رضي الله عنه حين كان يعش بالليل فسمع امرأة تنشد:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهُ وَطَالَ عَلَيَّ أَنْ لَا خَلِيلَ أَلْعَبُهُ
فَوَاللَّهِ لَوْلَا خَشْيَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَحُرَّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ

وقد بحث عمر عن قصتها فعرف أن زوجها غائب في كتائب المجاهدين من زمن طويل، فسأل ابنته حفصة: ما أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: أربعة أشهر، وعندئذ عزم أمير المؤمنين ألا يغيب زوج عن امرأته أكثر من أربعة أشهر^(١).

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَبَضُّ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

الآيتان تهدفان بوجه عام إلى منع الرجال من مضارة زوجاتهم، والاعتراف بحق المرأة الفطري في الصلة الجنسية، وإعطائها الفرصة

(١) رواه سعيد بن منصور في الجهاد (٢٤٦٣)، والبيهقي في السير (٢٩/٩).

للتحرر من سلطان أي رجل مضار يريد حرمانها من هذا الحق مدة لا تحتملها طبيعتها الأنثوية.

واختلف الفقهاء: هل تطلق بمجرد مرور الأربعة الأشهر، أم لا بد من حكم القاضي، فمن العلماء من يرى أن الطلاق يقع بدون قاضي، يعني لو مرّت الأربعة الأشهر دون أن يعود في حلفه، فقد طُلق امرأته. وهكذا يرفع الإسلام الحقوق بين الطرفين.

الإسلام دين العدل، وليس شريعة شرعها الرجال، فيحيفوا ويجوروا على النساء، ولا شريعة شرعها النساء فيحفن ويجرن على الرجال، إنما هي شريعة ربّ الرجال والنساء جميعاً، فهي العدل المطلق، ولذلك فيها الإنصاف للطرفين، ولا يتصور أن يكون فيها حيف ولا جور على أحد الجنسين.

وفي آية العدة يقول الله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْبِضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].
فقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾، أي: لهن من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات، وقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ والرجل عليه واجبات أكثر، فدرجة الرجل أن عليه عبئاً أكبر في المسؤولية، والنفقة، وغيرها.

هذا ما يريده الإسلام من الحياة الزوجية، أن تقوم على أسس متينة، من المودة والسكينة والرحمة، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

فإن حصل انفصال فلا بد أن يقوم على أسس أخلاقية، فبعض الناس كأن لم يكن بينهما شيء، فالرجل يشنع على المرأة، والمرأة تشنع على

الرجل، وهذا ما لا يجوز، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ولهذا تكرر في القرآن في شؤون الأسرة مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

حدود الله في الزواج:

حدود الله: هي أحكامه وأوامره ونواهيه، التي وضحت المعالم، وبينت الفرائض، ووضعت الضوابط. ومن هذه الحدود - أو الأحكام - التي بينها الله فيما يتعلق بحق الزوجة على الزوج:

(أ) الصداق أو المهر، وهو حق للمرأة، يدفعه الرجل لها، نحلة منه وهدية، ليتألف قلبها، ويشعرها بمودته لها، ورغبته فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

(ب) النفقة عليها، في كل ما تحتاج إليه من مطعم ومشرب وملبس وزينة ومسكن وعلاج على ما يقتضيه حالها، في حدود وسعه وقدرته، دون إسراف ولا تقتير، كل حسب حاله، كما قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]. وقد اعتبر الرسول ﷺ النفقة على الزوجة، أعظم أجراً من النفقة في الجهاد، أو الصدقة على المسكين^(١).

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك». رواه مسلم في الزكاة (٩٩٥)، وأحمد (١٠١١٩).

(ج) المعاشرة بالمعروف، كما قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. ومقتضى ذلك: أن يكون حسن الخلق، لطيف المعشر معها، بالقول والفعل، غير فظ ولا غليظ، فقد عظم الله حقهن بقوله: ﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

وهو نفس الوصف الذي وصف الله به ما أخذ من النبيين، قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وهذا يوجب على الرجل أن يصبر عليها، ولا ينساق وراء أي بادرة بالنفور أو الكراهية تبدو له، ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

الرجعة بقصده الإضرار بالمرأة:

الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدُوا﴾ [البقرة: ٢٣١]. من كان قصده بالرجعة المضارة، فإنه آثم بذلك، وهذا كما كانوا في أول الإسلام قبل حصر الطلاق في ثلاث: يطلق الرجل امرأته، ثم يتركها حتى تقارب انقضاء عدتها، ثم يراجعها، ثم يطلقها، ويفعل ذلك أبدًا بغير نهاية، فيدع المرأة لا مطلقة ولا مُمسكة، فأبطل الله ذلك، وحصر الطلاق في ثلاث مرات.

إذا ضارَّ الزوج زوجته وأذاها وضيق عليها ظلمًا، كأن امتنع من الإنفاق عليها، فللمرأة أن تطلب من القاضي تطليقها، فيطلقها عليه جبرًا، ليرفع الضرر والظلم عنها، ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدُوا﴾ [البقرة: ٢٣١]. ومن مضارتها: ضربها بغير حق.

بل لقد ذهب بعض الأئمة إلى جواز التفريق بين المرأة وزوجها المعسر، إذا عجز عن النفقة، وطلبت هي ذلك، لأنَّ الشرع لم يكلفها الصبر على الجوع مع زوج فقير، ما لم تقبل هي ذلك، من باب الوفاء ومكارم الأخلاق.

﴿وَمَنْ يَنْعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. المسلم ليس حرًّا يفعل ما يشاء، بل هو يعمل في إطارِ حُدِّه الله له، لا يجوز له اعتداء حدوده، ﴿وَمَنْ يَنْعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ﴿وَمَنْ يَنْعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

المتعة للمرأة المطلقة:

الله تعالى يقول: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٦، ٢٣٧].

من عناية الإسلام بالمرأة أنه أوصى إذا تزوج المسلم ولم يفرض لزوجته فريضة، أي: لم يسم صداقًا، ولم يحدد لها مهرًا، ثم طلقها قبل أن يدخل بها، أو يخلو بها خلوة شرعية، فإنَّ الإسلام يوصيه في هذه الحالة أن يجعل لها المتعة، ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وإذا تزوج وكان قد سَمِيَ للزوجة فريضة، أي حَدَّد لها مهرًا، كذا ألف مثلاً، ففي هذه الحالة إذا دخل بها استَحَقَّت المهر كله، فإذا لم يدخل بها استَحَقَّت نصف المهر، ﴿فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. أي: استَحَقَّت نصف ما فرض لها من المهر، لو كان فرض لها «٢٠» ألف مثلاً، يعطيها «١٠» آلاف، نصف المهر، ﴿فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. أي: إلا أن تعفو المرأة «المطلقة» فتقول: أنا متنازلة عن هذا النصف، أو عن جزء منه. وإذا كانت صغيرة مثلاً، وقال أبوها: نحن لا نريد منه شيئاً، فهذا من حقه، ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. أي: يعفو الرجل «المطلق»، فيقول: أنا متنازل لها عن المهر كله، أو ثلاثة أرباعه، مثلاً. وسواء فرض لها مهرًا أم لم يفرض فلا عدة عليها إذا طلقها قبل الدخول بها، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

فالايتان تقرران حقوق المرأة التي لم يُدْخَل بها في حالتين:

الحالة الأولى: حالة ما إذا لم يُسَمَّ لها فريضة، أي لم يُحدِّد لها مهرًا، ولها في هذه الحالة حقُّ المتعة، وهذه متروكة للمعروف، ما يُقرِّره العُرف، وما يُقرِّره العقلاء من الناس، ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

الحالة الثانية: حالة ما إذا كان قد حَدَّد لها مهرًا، ولكنه لم يدخل بها، ففي هذه الحالة عليه أن يؤدي لها نصف المهر، إلا ما عُفي عنه منه، ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. لا يحل للمطلق أن يشنع على زوجته، أو يشيع عنها السوء، أو يؤذيها في نفسها أو أهلها.



ثم يقول الله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. أن تعفو المرأة فتتنازل عن بعض الشيء، أو يعفو الرجل فيزيد عن المطلوب منه، هذا هو الأقرب للتقوى، وهكذا ينبغي أن يكون المجتمع الإسلامي، مجتمع تسود فيه الفضائل ومكارم الأخلاق، ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. فيجازيكم بالإحسان إحساناً، وبالصفح عفواً وغفراناً.

نسأل الله تعالى أن يُفَقِّهَنَا فِي دِينِنَا، وَأَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَنْفَعَنَا بِمَا عَلَّمَنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





تأملات في سور القرآن سورة إبراهيم^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الَّذِي بنعمته تتم الصالحات، الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا، وَمَا كُنَّا
لنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،
وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَإِمَامَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَتِهِ، وَاهْتَدَى بِسُنَّتِهِ، وَجَاهَدَ
جِهَادَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

(أَمَّا بَعْدُ)

فنقف - أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ - هَذِهِ اللَّيْلَةُ وَقَفَاتٍ مَعَ هَذِهِ السُّورَةِ
الْكَرِيمَةِ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَسُورَةُ إِبْرَاهِيمَ هِيَ
السُّورَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ فِي تَرْتِيبِ الْمَصْحَفِ، وَهِيَ سُورَةُ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعِ
الْمُسْلِمِينَ.

(١) أَلْقَيْتُ فِي بَرْنَامَجٍ: تَأْمَلَاتٍ فِي سُورِ الْقُرْآنِ، أَحَدُ بَرَامَجِ تَلْفِزْيُونِ قَطْرَ، إِعْدَادُ وَتَقْدِيمُ الْأَسْتَاذِ
عَبْدِ اللَّهِ فَرْجِ.



ومعنى أنها مكّية أنّها نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ، فموضوعها موضوع كلّ السور التي نزلت قبل الهجرة، أي إنّها تُعنى بترسيخ العقيدة التي جاء بها الإسلام، أصول العقيدة في النفس والعقل والحياة، عقيدة التوحيد والإيمان بالله تبارك وتعالى، عقيدة الإيمان بالآخرة والبعث والجزاء، عقيدة النبوة والوحي، وما يترتب على هذه العقيدة أيضًا من تثبيت دعائم الأخلاق الفاضلة، تتميم مكارم الأخلاق، والعمل الصالح الذي هو ثمرة العقيدة، فلا إيمان بلا عمل، الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، هذا هو شأن السور المكية.

وسورة إبراهيم هي مثل هذه السور كلّها، سور القرآن التي نزلت في مكة، ولكن سورة إبراهيم كسور «الر»، وهي مجموعة السور التي بدأت بيونس، وثنت بيهود فيوسف فالرعد فإبراهيم فالحجر تُسمى عند علماء علوم القرآن «آل الر»، مثل «آل طس»، و«آل حم»، إلى آخره، فمجموعة «آل الر» نزلت في فترة مُعيّنة في مكّة، يقول العلماء: إنّ سورة يونس وما بعدها نزلت بعد سورة الإسراء^(١).

ومعنى هذا أنّها نزلت في السنوات الأخيرة في العهد المكي، وهي السنوات التي اشتدّ فيها الأذى من قريش والمشركين على رسول الله ﷺ وأصحابه، وذلك بعد وفاة عمه أبي طالب الذي كان سندًا له درعًا، وكان المشركون يحسبون حسابه، ويرعون خاطره، حيث بقي على دينهم، ولكنّه زاد عن ابن أخيه بكلّ ما يستطيع، فلم يشتدّ أذى قريش عن رسول الله ﷺ إلا بعد أن توفي أبو طالب.

(١) الكشف للزمخشري (٣٢٦/٢).

كانت هذه السنوات شديدة، اشتدَّ فيها أذى المشركين بالقول وبالفعل على النبي ﷺ، وحاول أن يذهب إلى الطائف عساه أن يجد عند ثقيف ما لم يجد عند قريش، ولكنَّه وجدهم أشدَّ إيذاءً له، ونالوا من جسده ومن نفسه ﷺ، ولهذا كرَّمه الله تعالى بالإسراء وسرَّى عنه.

ونزلت هذه السور تُسرِّي عن النبي ﷺ، وتدافع عن الوحي والنبوة، فسورة يونس بدأت بعد الأحرف بقوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ١، ٢].

وجاءت بعد ذلك سورة هود، وفي آخرها: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]. وذكرت له مواقف الرسل، ومواقف أقوامهم منهم، وكيف كذبوهم، وكيف انتهى أولئك المكذبون إلى أسوأ المصير: ﴿أَلَا بُعْدًا لِلْعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِلثَّمُودَ﴾ [هود: ٦٨]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِلْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]، إلى آخر ما ذكرت هذه السورة.

وجاءت سورة يوسف أيضًا تذكر قصَّة يوسف وكيف انتهى به الحال بعدما لقي من محن شداد، محنة وراء محنة، سلسلة دامية الحلقات، ولكنها انتهت بعد الصبر الطويل إلى ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وجاءت كذلك سورة الرعد تدافع عن النبوة والوحي، وتثبت أحقيَّة القرآن: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]، ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

وسورة إبراهيم تسير في نفس هذا الخط: الدفاع عن النبوة والوحي، ولكن نفس سورة إبراهيم نفس حارّ حام، كأنك حين تقرأها تجد فيها سيّاطاً تلهب ظهور المشركين الظالمين، كأنما هناك نار تكويهم، كأنما تقذف بالحمم تتطاير على رؤوس هؤلاء، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿١٥﴾﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤]، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، إلى آخره.

وقد سُمّيت سورة إبراهيم باسم أبي الأنبياء وأبي المسلمين، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، سُمّيت باسم هذا النبي العظيم لأنها تعرّضت لشيء من قصته في هذه السورة، وهناك مجموعة من سور سُمّيت بأسماء الأنبياء، منها سورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف، وسورة إبراهيم، وسورة نوح.

وكان هناك سؤال سأل به بعض العلماء، قال: لماذا لم تُسم سورة باسم موسى ﷺ؟ مع كثرة ذكر موسى في القرآن، حتى قال بعض المفسرين: كاد القرآن كله أن يكون لموسى وقومه^(١). فلماذا لم تُذكر سورة باسم موسى؟ مع أن هناك سوراً توسّعت في ذكر قصّة موسى وقومه، مثل سورة الأعراف، وسورة طه، وسورة الشعراء، وسورة القصص، لكن هناك بعض العلماء سمّوا سورة طه: سورة الكليم، أي موسى ﷺ، كما سمّوا بعضهم سورة النمل: سورة سليمان، والمهم أن هذه السورة سُمّيت باسم إبراهيم.

(١) الإلتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/١٩٩).

وتتناول هذه السورة موضوع النبوة والرسالة، الرسالة إلى مُحَمَّد ﷺ، والرسالة إلى مَنْ بعثه الله من الأنبياء من قبله إلى أقوامهم، والصراع الذي دار بين الرسل وأقوامهم، ومصاير المؤمنين ومصاير المكذِّبين خاصَّة من أولئك الجبابرة المعاندين، اهتمَّت السورة بهذا الأمر، ودارت حول هذا المحور، وسبحت فيه سبْحاً طويلاً منذ أن بدأت السورة بالحروف المقطعة «الر».

وقد ذكرنا حينما تعرضنا في هذا البرنامج لسورة العنكبوت، وأوائل سورة العنكبوت: ﴿الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]. إلى آخره، ذكرنا أنَّ هذه الحروف المقطعة تشير إلى أمر هام: وهو التنبيه إلى إعجاز القرآن والتَّحدِّي به، وإيقاظ العقول والنفوس إلى هذا التَّحدِّي، وأنَّ القرآن المؤلف من هذه الأحرف التي ينطق بها العرب لم يجرى بأحرف غريبة عنهم، ومع هذا أعجزهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، فهذا الأحرف يتكوَّن منها القرآن، ومن هنا ذكر القرآن بعدها: ﴿الرَّ كَتَبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]. أنزل هذا القرآن على محمد ﷺ ليخرج الناس كلَّ الناس من الظلمات إلى النور، لأنَّ رسالته عالمية.

ونلاحظ أنَّ السورة ذكرت عن موسى: ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥]. على حين خوطب محمد: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. لأنَّ رسالة موسى كانت لقومه كرسالات كل الأنبياء، أمَّا رسالة محمد ﷺ فكانت إلى الناس كافة.

على كلِّ حال دارت السورة حول هذا المحور، ولا نريد أن نطيل فيها، ونترك الفرصة للأسئلة لعلها توضح لنا الكثير، ونلقي من خلالها ضوءاً على هذه السورة الكريمة.

إجابات الشيخ القرضاوي على أسئلة المشاهدين

السؤال الأول: لماذا قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ يَزْنُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَنَاتٌ طُفِئَتْ بِغَنَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؟

الجواب: شكر الله للأخ الكريم هذا السؤال، وشكر الله له على حسن تلاوته، فآفة كثير ممن يسألون أنهم لا يحسنون التلاوة، وينبغي للإنسان إذا سأل أن يحسن التلاوة ما استطاع.

قصة موسى ﷺ ذكرت - كما قلنا - في سور متعددة من القرآن، ومن ذلك آيات طويلة في سورة البقرة، وفيها يمتن الله تعالى على بني إسرائيل في سورة البقرة بما تفضل عليهم به من نعم شتى، ولكنهم لم يشكروا هذه النعم، ولم يقوموا بحققها، ونقضوا العهود، وكفروا برسالة محمد ﷺ، ففي هذه السورة يعدد الله تعالى نعمه عليهم، وموافقهم من هذه النعم، ومن ذلك قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ أُمَمٍ قَارِبَةٍ فَارْعَوْنَاسَ الْيَمِينِ بِمَا صَدَّقْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٤٩]. فسر سوء العذاب في سورة البقرة بأنه: ﴿وَيَذَّبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، يذبحون الذكور ويستبقون النساء، لا يريدون أن يبقوا فيهم باقية من الذكور بناء على قول بعض الكهنة الذين حذروا فرعون من أن ملكه سيزول على يد واحد من بني إسرائيل، وقيل: إنه رأى رؤية أو نحو ذلك. أيًا كان السبب فهو أراد أن يتخلص من ذكور بني إسرائيل، وأبقى النساء ليعملن في البيوت، هذا هو الذل المضاعف، الله تعالى يقول: كنتم في هذا العذاب، الذكور يقتلون، والنساء في الخدمة والمهانة، فأنجاكم الله من هذا العذاب السيئ، هذا ما ذكرته سورة البقرة، وفيها يخاطبهم الله مباشرة.

وفي سورة إبراهيم يخاطبهم فيها موسى عليه السلام ، حيث جاء هذا الأمر خبراً ضمن خبر، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥٠﴾ [إبراهيم: ٥، ٦]. فموسى هنا هو المتحدث، فهو يريد أن يطيل بذكر النعم عليهم حتى يتذكروها، فلم يجعل التذبيح تفسيراً لهذا العذاب الذي يُسامونه، إنّما جعله إضافة، جعله من باب العطف، ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ *، وهذا كما يقولون: من باب عطف الخاص على العام. فسوء العذاب يشمل أشياء كثيرة، ومنه على وجه التحديد أنّهم ﴿يَدَّبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ *، فناسب المقام هنا وهو يريد أن يعدّد لهم حينما رأى أنّهم يكفرون بالنعمة وينسون ما أنعم الله به عليهم، وتكرر في القرآن تذكير موسى لهم، كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]. يا قوم، يا قوم، إلى آخره، فناسب في هذا المقام أن تأتي هذه الجملة بالعطف لتكون ضمن تعداد النعم على بني إسرائيل.

السؤال الثاني: هل يعني قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]. أن الله يرسل الرسل بالرسالة، ويعلم من يهتدي بها ومن يضل عنها؟

الجواب: شكرًا للأخت العزيزة، وسؤالها الأول عن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]. الله ﷻ لم يرسل رسوله إلا ليبينوا ويبلغوا البلاغ المبين، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَغُ الْمُبِينِ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَغُ الْمُبِينِ﴾ [النحل: ٣٥]، فالبيان والبلاغ المبين هو مهمة الرسل جميعًا.

ولكي يبلغ الرسل البلاغ المبين المفهوم والمفهم أرسل الله كل رسول بلسان قومه ليستطيع أن يبين لهم، ولذلك أرسل موسى إلى بني إسرائيل، وأرسل نوحًا إلى قومه، وأرسل إبراهيم إلى قومه، وهكذا، وكانت رسالة محمد ﷺ رسالة عالمية، واقتضى هذا أن على المسلمين أن يبلغوا رسالة الإسلام باللسنة الأم، فلم ينزل القرآن بلغات عديدة، لأن من يبلغ القرآن هو من أنزل عليه القرآن وهو عربي، فلا بد أن يكون القرآن عربيًا مثل من أنزل عليه، ولكن على المسلمين أن يبلغوا رسالة الله إلى العالم بكل الألسنة، وهذا للأسف ما قصّر فيه المسلمون إلى اليوم.

وهنا أريد أن أقف عند هذه الآية وقفة، أنا أفهم هذه الآية فهمًا أعمق من مجرد أن كل رسول أرسل بلسان قومه، أن العربي يكلمهم بالعربية، والإنجليزي يكلمهم بالإنجليزية، والعبراني يكلمهم بالعبرانية، أنا أرى أن الآية تشير إلى معنى من المعاني الدقيقة العميقة، وهو أن على من كان صاحب دعوة، وحامل رسالة أن يكلم كل قوم بلسانهم، بمعنى أن يكلم العوام بلسان العوام، والخواص بلسان الخواص، فللمثقفين لسان وللاميين لسان، لأهل البدو لسان ولأهل الحضرة لسان، لكل جماعة مدخل إلى عقولهم، لا تستطيع أن تفهمهم وتؤثر فيهم إلا إذا دخلت إلى الأمر من بابه.

ولذلك يخطئ كثيرون حينما يذهبون إلى الغربيين، فيكلمونهم بما يكلمون به أهل الشرق من العرب والمسلمين، لا، أنت إذن لم تكلمهم بلسانهم، فهذه الآية تعطينا معنى عميقاً أنّ على صاحب الدعوة أن يكلم كل قوم باللسان الذي يفهمونه، والذي تصل به المعاني إلى أفئدتهم وعقولهم فيفهموا ويتأثروا، هذا ما ينبغي أن نفهمه من هذه الآية.

ثم هناك أمر آخر: إذا بلغ الإنسان الرسالة، وأدّى الأمانة، وحاول أن يفهم، هل يملك الهداية؟ لا، ليست الهداية ممّا يملكه الإنسان، نحن علينا الدعوة وعلى الله الهداية، علينا البلاغ وعلى الله الحساب، علينا أن نبذر الحب ونرجو الثمار من الرب، البذرة الذي يبذرها الإنسان هل تصل إلى مداها وتؤتي أكلها، أم قد تصيبها آفة سماوية قبل أن تبلغ النضج؟ نحن نبذر ونزرع، وعلى صاحب الدعوة أن يدعو، أمّا الهداية فأمرها إلى الله وَعَلَى، حسبه أن يقيم الحُجَّةَ، ويبطل التَّعَلَّات والأعدار، ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولكن الرسل أنفسهم لا يملكون الهداية، ولذلك قال الله بعد آية سورة إبراهيم: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

وقد قال لنبّيه محمد ﷺ، سيد الدعاة إلى الله، وأعظم من بلغ الرسالة بأفصح الكلام وأبلغه، وقد أوتي جوامع الكلم، ومع هذا قال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]. وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]. فهذا هو الذي ينبغي أن يفهمه كل من يدعو إلى الله، ويسير مقتفياً برسول الله ﷺ، عليه أن يبلغ الدعوة بأفضل الأساليب وأحسن الوسائل بلسان القوم الذين يخاطبهم، وليس عليه بعد ذلك استجاب الناس أم لم

يستجيبوا؟ لأنّ هذا ليس في سلطانه، فالقلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ﴿فِيضِلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

هذا ما تفيده الآية حتى لا ييأس إنسان، ويقول: أنا بلغت ولكن لم يستمع الناس لي، هل الخطأ أو المرض عندي؟ لا، ليس من الضروري، قد يكون المرض عنده، ولكن قد يكون المرض في قلوب الذين يستمعون أنفسهم، لأنّ الإنسان لا يملك إلا أن يبلغ الرسالة.

وقد ذكرنا ونحن نتحدث عن قصّة سيّدنا نوح في سورة العنكبوت، أنّ سيّدنا نوحًا ظل ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعو إلى الله وَعَجَلَ، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ فلم يزدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٧]. قالوا له: لا نريد أن نسمع صوتك، ولا أن نرى وجهك. هذا نوع من الإصرار على الباطل والعناد، ماذا يملك نوح أمام هذا؟ لقد فعل ما عليه.

الآية إذن تريد أن تطمئن صاحب الدعوة إذا لم يجد الاستجابة أنّ الإضلال والهداية من الله وَعَجَلَ، والإضلال والهداية أيضًا تكون تبعًا للاستعدادات، فالله سُبْحَانَهُ لم يخلق الناس ضالين، لا، بل خلق الجميع مستعدين لقبول الهداية، وكلُّ مولود يولد على الفطرة، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]. يكون عنده الاستعداد للإجابة، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴿[البقرة: ٢٦، ٢٧].

السؤال الثالث: هل أدّى العلماء الآن دورهم في تبليغ رسالة الإسلام، رسالة محمد ﷺ إلى بقية العالم الذين لا يعرفون اللغة العربية؟

الجواب: أشرت إلى أننا نحن المسلمين مقصرون أبلغ التقصير في هذه القضية، لم نقوم بما يجب علينا من نشر رسالة الإسلام إلى العالم، هذه رسالة عالمية، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿إِنَّهُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]، وكل الآيات التي ذكرت عالمية الرسالة مكيّة، وهي بذلك ترد على أولئك المنصرّين والمستشرقين الذين يزعمون أنّ محمداً كان في أول الأمر ينظر إلى أنّ رسالته فقط إلى مكة وما حولها، ثمّ فكر في العالمية، وهذا يناقض آيات كثيرة جدّاً جاءت في القرآن: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. صحيح أنّ النبي ﷺ كان في مكة مشغولاً بالعذاب يُصبُّ عليه، وسيط الأذى تناوشه من هنا ومن هناك هو وأصحابه، فما كانت عنده فرصة ليتوسع بدعوته، لكن أول ما أتحت له الفرصة حينما عقد الهدنة في صلح الحديبية مع مشركي مكة وأهل قريش، حينما أتحت له فرصة هذا السلام الجديد بدأ يبعث برسائله إلى الملوك، كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي وأمراء الأرض، يدعوهم إلى أن يُسلموا فيسلموا، فرسالة الإسلام عالمية، ولكن نحن المسلمين للأسف لم نقوم بواجبنا في تبليغ الرسالة إلى العالم.

ذكر المفسرون في آية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]: أنّ على المسلمين أن يبلغوا الرسالة باللسنة الأقوام. وللأسف الديانات الأخرى التي هي في الأصل ديانات محلية يحاول أتباعها أن ينشرونها في العالم، ديانة مثل المسيحية رسولها لم يكن عالمياً، وإنما أرسل إلى بني

إسرائيل كما يقول القرآن: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩]. وحتى الإنجيل نفسه يقول عن عيسى: أرسلت إلى خراف بني إسرائيل الضالة^(١). ومع هذا حاول المسيحيون أن ينشروا المسيحية في العالم، وترجموا الإنجيل إلى آلاف اللغات واللهجات، فماذا فعلنا نحن المسلمين؟ نحن إلى الآن ليس عندنا ترجمة لمعاني القرآن جيدة أمينة دقيقة نطمئن إليها، تجمع بين الدقة والبلاغة، ولا يكون فيها أي شوب، نحن مقصرون في هذا، وعلى المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي أن تتعاون على تبليغ رسالة الإسلام إلى العالم، مع أن الإسلام دين الفطرة، ينتشر الإسلام والحمد لله في بلاد كثيرة، ولكن بجهود فردية قليلة، انتشر الإسلام قديمًا لا بواسطة مؤسسات، ولكن بواسطة أناس من المسلمين العاديين كتجار حضر موت وأهل ساحل اليمن الجنوبيّة، ذهبوا إلى بلاد الشرق الأقصى، إلى إندونيسيا وإلى غيرها، ونشروا الإسلام بإيمانهم بربهم، وبأخلاقهم وصالح أعمالهم، نحن المسلمين الآن ينبغي أن نعمل على مستوى الإسلام الذي نؤمن به، وعلى مستوى العصر الذي نعيش فيه، عصر العلم والكمبيوتر وغزو الفضاء والثورة البيولوجية، وعلى مستوى ما يصنع الآخرون لخدمة دينهم، فنحن مقصرون، ولكي نبلغ الإسلام فعلًا نحتاج إلى عمل كبير، وعمل تعاوني من جميع الفئات الإسلامية تعمل على نشر الإسلام بكل اللغات، وإلا فإن الله تعالى سيسألنا نحن المسلمين، ونحن العرب خاصّة: لماذا لم تبلّغوا تلك الأمم رسالة الله؟ لا سيما وأنّ الكثيرين ما زالوا يحملون صورًا مشوّهة عن الإسلام من رواسب العصور الوسطى، فعلينا أن نصحّ مفاهيمهم عن الإسلام، وأن نبّلّغهم دعوة هذا الدين العظيم.

(١) إنجيل متى (٢٤/١٥).

السؤال الرابع: هل يعني قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. أن مكة المكرمة كانت مهوى للرسول والأنبياء من قبل، أو أن مكة كانت مقدّسة قبل بعثة الرسل؟

الجواب: نعم كانت مكة مكاناً مقدّساً، أو فيها المكان المقدّس، وهو الكعبة البيت المحرّم، ولذلك كان سيّدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام هما اللذان رفعوا قواعد هذا البيت، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. ودعا إبراهيم هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. وضع زوجه هاجر وابنه إسماعيل في هذا المكان، ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، دعا الله أن يعينهم على أداء فرائض الله، وعلى إقامة شعائره، فلهذا المكان إحياءه ومكانته، ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، دعا الله تعالى لهم حيث وضعهم في هذا الوادي الذي لم يكن فيه زرع ولا جنّات من أعناب، وادي بين الجبال ليس فيه خصوبة في الأرض ولا ماء، فدعا الله لأهل بيته ولذريّته أن يُهيئ لهم معيشتهم، وأن تميل أفئدة من الناس إليهم وتسرع إليهم، ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، وقد استجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام في دعواته التي دعاها في هذا المقام، فقد دعا عدّة دعوات، قال إبراهيم: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. فأول شيء دعا لهذا البلد بالأمن، وفعلاً أصبح هذا البلد مضرب الأمثال في الأمن، حتى في الجاهلية كان الرجل إذا رأى قاتل أبيه في الحرم لا يمد يده إليه، ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى:

﴿أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].
 صحيح ليس فيه زرع ولا ثمر، ولكن تُجْبَى إليه الثمرات من كل مكان
 رزقًا من لدن الله ﷻ، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ
 حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ولهذا امتنَّ الله على قريش بهاتين النعمتين: نعمة
 الأمن، ونعمة الرزق من الثمرات: ﴿لَا يَلْفُ قَرِيشٌ * إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الَّتِي
 وَالصِّيفِ * فَيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ
 خَوْفٍ﴾ [قريش: ١-٤]. نعمتان لا تعادلهما نعمة: نعمة الكفاية من العيش، أن
 يجد الإنسان ما يحتاج إليه من الطعام والشراب، ونعمة الأمن، لأنه لو كان
 عنده الكفاية من الطعام والشراب ولكنه يعيش في ذعر وخوف فلا معنى
 للحياة، فكان لا بدَّ من الأمرين، ﴿فَيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي
 أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾، فاستجاب الله لإبراهيم وجعل هذا
 البيت آمنًا، واستجاب له وهبًا لأهل هذا الوادي بمكة الذي لا زرع فيه من
 الناس من يسكنهم ويعايشهم، ورزقهم من الثمرات لعلمهم يشكرون.

السؤال الخامس: هذه البقعة التي أمر الله سيّدنا إبراهيم أن يقيم أهله
 فيها قبل أن تأتيها قريش، وأن يقيم عليها قواعد البيت، هل كانت لها
 قدسيّة معينة من قبل؟

الجواب: نعم لهذه البقعة قدسيّة منذ عهد إبراهيم ﷺ، وقبل عهد
 إبراهيم أيضًا، لأنَّ القرآن يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا
 وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. أول بيت وُضِعَ لعبادة الله وحده في الأرض
 هو هذا البيت من قبل إبراهيم، وجاء إبراهيم ورفع قواعده، فلهذه المنطقة
 بركتها وقدسيّتها حتى من قبل إبراهيم، وإنما جدّد إبراهيم بناء البيت،
 فقدسيّتها قديمة قبل قريش، وقبل إسماعيل ﷺ، وقبل إبراهيم نفسه.

السؤال السادس: يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَعْشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿[إبراهيم: ٤٨ - ٥١]. أرجو إلقاء الضوء على هذه الآيات مع بيان كيف تُبَدَّلُ الأرض غير الأرض؟ وما هي الأصفاد؟

الجواب: تتحدث هذه الآيات من أواخر سورة إبراهيم عن الظالمين، وعن مصاير الظالمين، وما ينتظرهم عند الله من سوء العذاب، وتطمئن رسول الله ﷺ وتثبت قلبه، أَنَّ العقاب لهم بالمرصاد، وأنهم لن يفلتوا من قبضة العدالة الإلهية، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿[إبراهيم: ٤٧، ٤٨]، سوف تُبَدَّلُ الأرض، ولكن هل معنى هذا أن ستكون هناك أرض أخرى؟ قد يفهم هذا، ولكن ليس من الضروري لأنها هي الأرض التي سيخرج منها الناس يوم القيامة، ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، فهم يخرجون من الأجداث أي من القبور في نفس هذه الأرض، وهي الأرض التي يُحشرون فيها، ويقفون بين يدي الله تعالى فيها، فهذه الأرض هي أرض القيامة، ولكن تغيرت أوصافها فأصبحت الأرض غير الأرض، لا تجد فيها تلك القصور الشامخة التي كان يسكن فيها الجبابرة أو يعيش فيها المترفون، لا تجد فيها هذا التفاوت الذي كان في الدنيا أكوخ لأناس لا يجدون القوت، وأناس آخرون يلقون الطعام على الأرض، أصبحت الأرض بعد أن حدث فيها ما حدث أرضاً غير الأرض، بعد أن ﴿رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿[الواقعة: ٤ - ٦]، بعد أن

﴿زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾
[الزلزلة: ١-٣]، أصبحت أرضاً جديدة، لم تتغير ذاتها، وإنما تغيرت صفاتها،
كما قال الشاعر:

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَاهَدْتُهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ^(١)

واحد جاء إلى قومه فوجد الناس قد تغيروا، الناس غير الناس، ليس هم الذين كان يعرفهم، مثل واحد كان يقطن الدوحة فسافر عنها عشرين سنة، ثم جاءها فقال: ليست هذه هي الدوحة التي أعرف. أصبح وضعها غير ما كانت عليه، صحيح أنها هي، ولكن تغيّرت المعالم، فالأرض يوم القيامة غير الأرض في الدنيا؛ لأنه قد حدث فيها تغيير كبير بعد أحداث يوم القيامة، وكذلك السماء بعد أن انفطرت، وانتشرت الكواكب فيها، وخسف الشمس والقمر، بعد أن حدث ما حدث تغيّرت الأرض، وتغيّرت السماء، ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، وقد يكون المعنى أن الدنيا تغيّرت، فالأرض غير الأرض، والكون غير الكون، لم يعد هناك إنسان يتحكم في شيء، ولا يستطيع بنفوذه أو بماله أن ينقذ إنساناً محسوباً عليه، ليس هناك شيء من هذا، لأن الملك أصبح لواحد فقط، انتهت أملاك الناس، وانتهى نفوذ أصحاب النفوذ، وسلطان ذوي السلطان، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، ولذلك يقول هنا: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. أصبحوا مكشوفين، أصبح الأمر واضحاً ظاهراً، انكشفت المساتير والسرائر، ﴿يَوْمَ بُلِيَ السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

(١) ذكره من غير نسبة أبو هلال العسكري في ديوان المعاني (٧٨/١)، نشر دار الجيل، بيروت.

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾. أي في القيود والأغلال، مربوطين بعضهم إلى بعض، وهذا دليل الإهانة والإذلال، هؤلاء الذين طالما تناولوا على الناس في الدنيا، ومشى كلُّ منهم كأنما يريد أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً يصيرون يوم القيامة أذلَّ الناس، يُذِلُّهُمْ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ، ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ، قمصانهم التي يلبسونها من قطران، اجتمعت فيها السواد والحرارة، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿[إبراهيم: ٥٠-٥١].

السؤال السابع: قرأت في كتاب «تنبيه الغافلين» أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ يوم القيامة على أرض جديدة لم يُقْتَرَفَ عليها أي ذنب أو أي إثم، أي أَنَّهَا أَرْضٌ جَدِيدَةٌ غَيْرَ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا الْآنَ، بينما تقولون: إِنَّهَا نَفْسُ الْأَرْضِ. فهل من توفيق وتفسير بين ما قلتم وما جاء في هذا الكتاب؟

الجواب: الأخت مهتمة بكتب القصص والرقائق، مثل «تنبيه الغافلين»، ونحوها، وهذه الكتب لا نأخذ منها علماً، والقرآن واضح في أَنَّ النَّاسَ يَخْرُجُونَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ، يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ، لَيْسَ هُنَاكَ طَائِرَاتٌ تَنْقُلُهُمْ عِنْدَمَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْمَقَابِرِ إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى، هُمْ فِي نَفْسِ الْأَرْضِ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَيَقْفُونَ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ الْأَرْضُ غَيْرُ الْأَرْضِ كَمَا شَرَحْتُ أَنَّهَا تَبَدَّلَتْ صِفَاتُهَا، لَمْ تَقَعْ عَلَيْهَا مَعْصِيَةٌ فَعَلًا، لِأَنَّ الْمَعَاصِيَ انْتَهَتْ بِزَمَانِهَا، فَهِيَ أَرْضٌ جَدِيدَةٌ، وَحَيَاةٌ جَدِيدَةٌ، فَلَيْسَ هُنَاكَ دَلِيلٌ مُّقْنَعٌ وَلَا صَحِيحٌ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ أَرْضًا أُخْرَى غَيْرَ هَذِهِ الْأَرْضِ، وَلَا أَنَّ هُنَاكَ سَمَاوَاتٍ أُخْرَى غَيْرَ تِلْكَ السَّمَاوَاتِ، وَالْأُمُورُ الْغَيْبِيَّةُ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ فِيهَا شَيْئًا مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا مِنَ الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ دَلِيلٌ نَظْمُنُّ إِلَيْهِ وَنُثِقُ بِهِ، هَذَا مِنْ نَاحِيَةٍ.

ومن ناحية أخرى: أنا في الحقيقة ضدّ كثرة الأسئلة حول الغيبيّات، لا ينبغي أن نُفصّل في الأمور الغيبيّة، ولا نبحث في كُنْهها، ولا نجعل من الموضوع مشكلة، ونظل نفاضل بين الأقوال، لأنّ هذا أمر لن ينفعنا كثيرًا، المهم أن الأرض التي سنُحشر عليها ونُبعث عليها سيكون فيها حكم واحد، ومليك واحد هو الله الواحد القهار، هذا هو الذي ينبغي أن يُغرس في الأنفس والقلوب.

السؤال الثامن: يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣]. أرجو إلقاء الضوء على هذه الآيات، وما معنى مهطعين؟

الجواب: الجزء الأخير من السورة - كما قلت - سيأتي ثلث ظهور أولئك الظالمين الجبابرة الذين وقفوا في وجه أصحاب الرسالات، وأنزلوا بهم من الأذى ما أنزلوا، وينطبق هذا أول ما ينطبق على مشركي قريش، ومشركي العرب الذين ناصبوا رسول الله ﷺ العدا، قد يترك الله ﷻ هؤلاء، لا يعاجلهم بالعذاب، ولكن هل معنى هذا أنّهم قد نجوا؟ لا، فالله يمهل ولا يهمل، قد يعاجلهم بالعذاب في الدنيا كما قال تعالى في السورة نفسها: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]. وقد يؤخّر لهم العذاب إلى الآخرة، وهؤلاء يكون عذابهم أشد وأخزى، ومن هنا خاطب الله رسوله بقوله، وهو خطاب لكل الأمة من بعده: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾. لا، فعين الله لا تنام، الله لهم بالمرصاد، يراقبهم ويسجّل عليهم كلّ شيء، ولا يغيب عنه شيء، لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه سرٌّ ولا علانية، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، هذا اليوم الهائل الذي يجعل الولدان شيبًا تشخص

فيها الأبصار، تنظر ولا تتحرّك من هول هذا اليوم العظيم، ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾، مهطعين: أي مسرعين في ذل كما جاء في سورة القمر: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]. ومقنعي رؤوسهم: أي مادين رؤوسهم يترقبون: ماذا سيحدث؟ وقد يكونون ناكسي رؤوسهم كذلك، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾، لا ترمش أعينهم، وأفئدتهم خالية خاوية لم يعد فيها عقل ولا فكر من هول الموقف، ومن هول ما يرون في ذلك اليوم العظيم الذي وصفه الله أهواله في القرآن بما وصفها، هذا هو موقف الظالمين أي المشركين، وكثيراً ما يُعبر القرآن عن المشركين بالظالمين، وعن الشرك بالظلم، كما قال تعالى على لسان لقمان: ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. فأظلم الظلم: الشرك بالله تبارك وتعالى، فهؤلاء الظالمون من المشركين، وطبعاً يشمل الأمر كل ظالم، ونحن نقول في الأمثال: يا ظالم لك يوم. فكل ظالم ينتظره يوم، إذا لم يكن في الدنيا ففي الآخرة، لأن الله تعالى يؤخّر الظالمين ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾. كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ»^(١).

السؤال التاسع: مَنْ أَبُو سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ؟ ومن ذرّيته؟ وهل سيّدنا مُحَمَّدٌ من ذرّية ابنه اسماعيل أم من ذرّية ابنه إسحاق، أفيدونا مشكورين؟

الجواب: لعلّ الأخ السائل يربط هذا السؤال بقوله تعالى في هذه السورة على لسان سيّدنا إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦) ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣)، عن أبي موسى.

ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
 الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٣٩ - ٤١]. نلاحظ هنا أنَّ سيِّدنا إبراهيم كان حريصاً
 على أسرته، على ذرِّيَّته، ولذلك قال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾
 [إبراهيم: ٣٥]. وهنا يقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا
 وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾. وهذا شأن المؤمنين دائماً مثل عباد الرحمن الذين
 يقولون: ﴿رَبَّنَاهَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]. ثمَّ
 دعا كذلك لوالديه، وهكذا شأن الأنبياء، كما قال سيِّدنا نوح: ﴿رَبِّ
 اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].
 وسيِّدنا إبراهيم أيضاً دعا لوالديه، قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ
 وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

مَنْ أبو إبراهيم؟ ذكر القرآن أنَّ أباه آزر، وهذا هو الظاهر، وبعضهم
 قال: إنَّه عمه. ولا يهْمُنَا اسم أبيه، إنَّما يهْمُنَا أنَّه دعا لأبيه بالمغفرة حينما
 وعده أن يدعو له: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾
 [مريم: ٤٧]. فدعا له كما في سورة إبراهيم، وكما في سورة الشعراء:
 ﴿وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]. بناء على الوعد الذي وعده
 إيَّاه، ولكنه بعد أن عرف أنَّه عدو لله تبرَّأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا
 كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ
 عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. فكانت هذه الدعوة بناء
 على الوعد السابق، ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، لأنَّ رابطة الدين
 فوق كلِّ رابطة، وكما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ
 وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
 وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ
 لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤]. ثمَّ بعد ذلك تبرَّأ منه.

أَمَّا سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ، فَهُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ، وَإِسْمَاعِيلُ هُوَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ، هَذَا أَمْرٌ مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ، وَمِنَ الْأُمُورِ الْمُتَوَاتِرَةِ، وَكَانَ لِإِبْرَاهِيمَ وَلَدَانِ: إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ، كَمَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ نَفْسُهَا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. فإِسْمَاعِيلُ هُوَ أَبُو الْعَرَبِ، الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ، الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَيْنِ، وَمِنْهُمْ قُرَيْشٌ، وَبَنُو هَاشِمٍ، وَمِنْهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَالِنَبِيِّ ﷺ وَقُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ هُمْ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، أَمَّا بَنُو إِسْحَاقَ فَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّ إِسْرَائِيلَ هُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ بِالتَّوَاتُرِ الْيَقِينِيِّ.

السؤال العاشر: هل كان سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَوَّلَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَلِهَذَا سُمِّيَ أَبَا الْأَنْبِيَاءِ؟ وَهَلْ كَانَتْ فِي شَرِيعَتِهِ صَلَاةٌ مَفْرُوضَةٌ عَلَى النَّاسِ قَبْلَ الصَّلَاةِ الَّتِي فَرَضَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟

الجواب: شُكْرًا لِلْأُخْتِ السَّائِلَةِ، لَمْ يَكُنْ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَلَكِنْ كَانَ قَبْلَهُ رُسُلٌ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، هُنَاكَ سَيِّدُنَا نُوحٌ شَيْخُ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، وَكَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]. فإِبْرَاهِيمَ جَاءَ بَعْدَ نُوحٍ بِزَمَنِ، وَطَبَعًا جَاءَ هُودٌ ﷺ بَعْدَ نُوحٍ، كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قَوْلِ هُودٍ لِقَوْمِهِ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]. وَجَاءَ صَالِحٌ بَعْدَ هُودٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ صَالِحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]. فَهُودٌ وَصَالِحٌ ﷺ أَقْدَمُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ مِنْ غَيْرِ



شك، لكن إبراهيم أبو الأنبياء، منهم أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. فلم يوجد نبي أو رسول بعد إبراهيم إلا وهو من ذريته، ومنهم مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، فلا شك في وجود أنبياء قبل إبراهيم عليه السلام، منهم من عرفناه، ومنهم آدم عليه السلام فهو - على الرأي المشهور - أحد الرسل الذين بعثهم الله تعالى، وبعض الناس يقولون: إن إدريس من الأنبياء المتقدمين جدًا بعد سيدنا آدم. ولكن لا دليل على هذا، وذكر إدريس في القرآن يدلُّ على أنه من الأنبياء المتأخرين، فهو يُذكر في القرآن بعد إسماعيل، فالمستيقن به أن إبراهيم سبقه أنبياء، ولمَّا ذكر الله تعالى قصَّة إبراهيم في سورة الأنعام قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴿[الأنعام: ٨٣، ٨٤]. فمن المؤكَّد أن نوحًا سبق إبراهيم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾. ثمَّ هناك أنبياء لا نعلمهم لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. ويقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ويقول: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. فكل الأمم جاءت بها النذر، وجاءتهم رسل من عند الله، عرفنا بعضهم ولم نعرف البعض، وقطعًا ليس إبراهيم هو أول البشر، وليس عندنا نحن المسلمين ما عند النصارى في كتبهم من أنَّ الكون يكاد مُحدَّدًا عندهم بسبعة آلاف سنة أو نحو ذلك، وأحيانًا يصلوا بنسب المسيح أو نسب بعض الأنبياء إلى آدم، وليس هذا عندنا نحن المسلمين، ولا يتَّسع له منطق العلم، لأنَّ المعروف أنَّ البشرية أقدم تاريخًا من هذا، فمن المؤكَّد أنَّ إبراهيم ليس هو أول البشر، ولا هو أول مَنْ دعا

إلى الله، ولا هو أول رسول، ولكن كان قبله رسل ذكر بعضهم القرآن، ولم يذكر بعضهم، ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

وأما عن الصلاة فهي عبادة قديمة، تكررت عند الأنبياء، ولذلك يقول سيّدنا إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]. وعندما أنطق الله سيّدنا عيسى في المهد صبياً قال: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]. وقال الله تعالى لمريم أم المسيح: ﴿يَمْرَأَةُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]. وقال الله عن أهل الكتاب: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]. وقال الله على لسان لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]. وقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢]. فهذه العبادات - الصلاة والزكاة - عبادات قديمة، حتى الصيام عبادة قديمة كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. حتى الحج من عهد إبراهيم: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]. فهذه عبادات قديمة، لأنه لا يوجد دين ليس فيه عبادة لله تعالى، وأهم ما يجسد العبودية لله الصلاة، هناك عبادة بدنية تتجسد في الصلاة، وعبادة مالية تتجسد في الزكاة.



على أنّ تلك العبادات في الأديان السابقة ليست كمثلها في الإسلام، فالصلاة التي كانت عندهم ليست مثل صلاة الإسلام، ليست خمس صلوات كصلاتنا بهذه الركعات، أصبح للصلاة في الإسلام خصوصيات مختلفة: اشترطت لها الطهارة من الحدث الأصغر والحدث الأكبر، وطهارة الثوب والبدن والمكان، واشترط لها استقبال القبلة إلى الكعبة، وجعل الأذان للإعلام بها بدخول أوقاتها، كان عند اليهود بوق، وعند النصارى ناقوس، ولكن جاء الإسلام جاء بهذا النشيد الرباني: الله أكبر الله أكبر. ثم شرع لها صلاة الجماعة، وفي هذه الصلاة الإسلامية كل ما يُشعر بالتعظيم لله ﷻ من القيام والوقوف بين يدي الله، والركوع بالانحناء لله، والسجود بتعفير الجبهة لله ﷻ، وتلاوة القرآن والتسبيح والذكر والدعاء، وكل أنواع التعظيم، فالصلاة الإسلامية لها خصائصها المميزة لها بحيث لا تدانيها صلاة.

كذلك الزكاة في الإسلام لها خصائصها، لم تكن الزكاة من قبل محدّدة بأشياء معينة، أمّا الزكاة الإسلامية، فأصبح هناك حق معلوم كما سمّاه القرآن، حقّ محدّد معروف، في هذا ربع العشر، وفي هذا نصف العشر، وفي آخر العشر، حدّدت الأنصبة، وحدّدت المقادير، وحدّدت مصارف الزكاة، وأصبح هناك مَنْ يُطالب بها، وأصبح هناك مصرف للعاملين عليها، وأصبحت فريضة تُؤخذ، وليست صدقة يُتطوّع بها، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، «إِنَّ اللَّهَ افترض عليهم في أموالهم صدقة، تُؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»^(١)، فالعبادات الدينية قديمة، ولكن لم تكن في الديانات والرسالات القديمة كما هي في الإسلام.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٥)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس.

السؤال الحادي عشر: يقول الله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]. فهل المستفتحون هنا هم الكفار أم الرسل والمؤمنون؟

الجواب: شكرًا للابنة العزيزة، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ * وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٥]. إلى آخر الآيات، وهي تحمل تهديدًا ووعدًا يقذف بالشرر لأولئك الظلمة الجبارين الذين جابهوا رسل الله حين جاؤوهم بالبينات، ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ [إبراهيم: ٩]، وفعلوا بهم الأفاعيل، فقال الله تعالى لهؤلاء الذين يتحدون الرسل، ويريدون أن ينفوهم من الأرض قائلين لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾. كما قالوا لسيّدنا شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]. وكما قالوا عن سيّدنا لوط وبناته: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْطَهُرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]. وكما أرادوا أن يفعلوا بسيّدنا محمد: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦]. حينما أعياهم قوة المنطق لجؤوا إلى منطق القوة، إلى العنف والجبروت، هذا ما يملكه الكفرة الفجرة أصحاب القوة أمام الأنبياء، كما فعلوا مع إبراهيم حينما لم يستطيعوا أن يقفوا أمام حجّته قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءِلَهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]. هذا هو حال الجبابرة دائمًا مع الرسل والمصلحين، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ * وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾،



استفتحوا: أي طلبوا الفتح والنصر، لمن الضمير في قوله: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾. هل الرسل هم الذين طلبوا الفتح ففتح الله عليهم ونصرهم، وخيب الجبابرة المعاندين؟ هذا احتمال، أم أن الجبابرة المعاندين هم الذين استفتحوا؟ كأنهم كانوا يرون أنهم على حق، مثلما فعل المشركون يوم بدر كانوا يطلبون النصر على النبي ومن معه، وكان أبو جهل يقول: اللهم انصر أكرم الحزبين. للأسف هناك بعض الناس ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، ولذلك قال الله لهم يوم بدر: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]. كنتم تطلبوا أن ينصر الله أكرم الحزبين، وقد فعل ونصر المؤمنين، فربما يكون الاستفتاح هنا من الجبابرة المعاندين على ظن في أنفسهم أنهم على الحق، وما كانوا على الحق يومًا.

السؤال الثاني عشر: يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. فهل القوم المقصودون هنا هم مشركو مكة، أم أن الآية عامة كل من كذب الرسل؟ وكيف نوفق بين هذه الآية وبين قوله تعالى مثلاً: ﴿وَلَا نُزِرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥]؟

الجواب: تدور السورة - كما ذكرت - حول محور الرسالة والرسل، ومعانديهم ومكذبيهم ومصايرهم في الدنيا والآخرة، وتدور حول محور نعمة الله تعالى وموقف الناس منها، والنعمة بعضها مادي، وبعضها معنوي، النعمة المادية هي المذكورة في آيات بعد ذلك: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ

لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَايِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۖ وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤]. وفي مقابل هذه النعم هناك نعم معنوية، مثل بعثة محمد ﷺ، هذه أعظم نعمة أن الله بعث إليهم هذا الرسول، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۖ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. اشكروني على هذه النعمة، أني بعثت إليكم من يُعَلِّمُكم ويزكِّيكم ويخرجكم من الظلمات إلى النور.

ولكن للأسف أهل مكة ومشركي قريش ومشركي العرب هؤلاء بدلوا نعمة الله كُفْرًا، لم يعرفوا لهذه النعمة حقها، ولم يقدرُوا لها قدرها، قابلوا النعمة بالكفران، كما قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣]. فهؤلاء كفروا بهذه النعمة، نعمة البعثة المحمدية وإنزال القرآن، وأحلوا قومهم دار البوار.

وكان الآية هنا تتحدث على وجه الخصوص عن رؤساء أولئك الأقوام، الجماعة الذين لهم القيادة ولهم السيادة ولهم المنزلة، وهم الذين يُطاعون في الناس، هؤلاء هم الذين أضلوا أقوامهم من بعدهم لأنهم كان لهم تأثير عليهم، ولذلك قال عنهم: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾. وكان الآخرون لهم تبعًا، ولذلك نجد في القرآن أن هؤلاء



تُضَاعَفُ الْعُقُوبَةُ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ
الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾
[النحل: ٢٥]. يحملون أوزارهم وأوزار الذين أضلوهم، فهؤلاء هم الذين
أحلوا قومهم دار البوار؛ لأنهم قادوهم إلى الضلال وإلى الباطل
فاتبعوهم، فلا يقال هنا: ﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾. لأنهم لم يحملوا وزر
الآخرين، وإنما يحملون وزرهم هم، وزر الضلال ووزر الإضلال، فهم
إنما يحملون وزر أنفسهم.



التجارة الرباحة في ضوء سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمداً عبد الله ورسوله، معلّم الإنسانية، وهادي البشرية إلى الصراط المستقيم - صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض - صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، الذين آمنوا به وعزّروه ونصّروه واتّبَعُوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون، ورضي الله عنّ دعاء بدعوته، واهتدى بسُنَّته، وسار على دربه، واحتكم إلى شريعته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أحييكم به - أيها الإخوة - تحية الإسلام، تحية من عند الله مباركة طيبة، وتحية الإسلام السّلام، فالسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

جَمْعُ مُبَارَكٍ:

وأبشركم بأنّ الله ﷻ يبارك جمعكم هذا، ومجلسكم هذا، فقد اجتمعت فيه بركة المكان؛ فهو في بيت من بيوت الله ﷻ، وبيوت الله

في أرضه المساجد، واجتمعت فيه بركة الزمان؛ فهو في هذه الليلة من ليالي شهر شعبان، حيث نستعدُّ لاستقبال شهر رمضان، واجتمعت فيه بركة النية؛ فقد اجتمع الجميع لله، لم يجتمعوا لدنيا، ولا لينيل عَرْض من أعراضها الزائلة، ولا لغرض من أغراضها الباطلة، إنما اجتمع الجميع هنا - فيما نعتقد ونحسب - على طاعة الله، وعلى محبة الله، فنسأل الله تعالى أن يثيب الجميع على خطواتهم، وعلى نيّاتهم، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [التوبة: ١٢٠، ١٢١]. واجتمعت فيه بركة العمل؛ فنحن قد التقينا هنا لتندارس كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، لنعرف إسلامنا، ونعرف موقعنا، أين نحن، وأين نقف، وماذا ينبغي علينا أن نفعل، فنحن في بركة العمل الصالح، وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ: «ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١).

فأنا سعيد - أيها الإخوة - أن ألتقي في هذا البلد الطيب، بهذه الوجوه المشرقة، في هذه الليلة المباركة، وبهذه النوايا الصالحة، وعلى هذا العمل الصالح، ولقاء المؤمن بالمؤمنين دائماً خير - وأرجو الله تعالى أن يجعلني في ركاب المؤمنين.

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

ولهذا أنا استبشر بقاء الإخوة المؤمنين، وإن لم نتحدث، أو نتعلم، أو نعدّ محاضرة في موضوع معين، فاللقاء في حدّ ذاته خير، ولو لم يكن فيه إلّا مصافحة المؤمن للمؤمن، أو إلقاء السلام من المؤمنين، بعضهم على بعض، أو صلاة الجماعة، أو اللقاء على محبة الله، أو التجالس في الله، أو التزاور في الله، فكلّ هذا ممّا يدّخره الله تعالى لعباده المؤمنين يوم القيامة، فالحمد لله على هذا حمداً كثيراً.

التجارة الربحة:

حين جئت إليكم هنا - أيّها الإخوة - لم يكن في ذهني موضوع معيّن لأحدثكم فيه، ولكن حينما يسّر الله لي، وصليت بكم صلاة المغرب، وقرأت سورة الصف، خطر لي أن أحدثكم عن التجارة المنجية، التي ندبنا الله تعالى إليها، وحثّنا عليها، وشوقنا لها، حينما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَكُمْ عَلَىٰ بَحْرَةٍ نُّجِّيَكُم مِّنْ عَذَابٍ ءَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]. فما هي التجارة المنجية، أو التجارة المربحة، أو التجارة التي لن تبور أبداً؟

النداءات الثلاثة في سورة الصف:

لقد نادى الله ﷻ المؤمنين في سورة «الصف» بثلاثة نداءات، ويلاحظ أنّ القرآن الكريم يخاطب المؤمنين دائماً بصيغة الجماعة، لم نجد في القرآن (يا أيها المؤمن)، إنّما نجد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. وذلك ليغرس في نفس المسلم الروح الجماعيّة، فالإسلام لا يريد الروح الفرديّة، لا يريد الأنانيّة، لا يريد أن يعيش المسلم وحده، ويقول: نفسي نفسي. أو ينقطع في صومعة من الصوامع، أو في دير من الأديرة، أو في زاوية من الزوايا، يتعبد لله فيها وحده، بل لا بدّ أن يعيش في جماعة.

ولا يتصور الإسلام المسلم إلا في جماعة، ولهذا إذا وقف يناجي ربه في صلاته، فإنه يناجيه بلسان الجماعة، ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. لا يقول: إِيَّاكَ أعبد. ولو كان وحده في خلوة، إنما يتمثل الجماعة في ضميره، ويعبر عنها بلسانه، فهو يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وإذا سأل الله تعالى فإنما يسأله للجماعة، لا لنفسه فقط: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

وهكذا أيضًا: إذا خاطب الله أهل الإيمان، خاطبهم جماعة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. لا ينادي فلانًا وحده، أو علانًا وحده، لا ينادي محمدًا أو أحمد، أو عليًا، أو عبد الله، كلاً على انفراد؛ إنما ينادي المجموع بصفاتهم متكافلين متضامنين في تنفيذ تعاليم الإسلام، فالمسلمون أمة واحدة، ويد واحدة، تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، فهم متضامنون في تنفيذ أحكام الله.

ولهذا حينما يناديهم القرآن: أَنْ افْعَلُوا كَذَا، أَوْ اْعْمَلُوا كَذَا؛ فإنما ينادي الجميع، فهو في قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. كأنه يقول للجميع: أنتم مسؤولون عن الصيام، فيجب على كل منكم أن يصوم إذا وجب عليه الصيام، وهو مسؤول أيضًا عن إفطار المفطرين، وتعمد المتعمدين المجاهرين بالفطر في رمضان.

وهو في قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]. كأنه يقول للجميع: أنتم مسؤولون عن هذا، باعتباركم جماعة مؤمنة، وهكذا يعتبر الإسلام الأمة كلها متضامنة في تنفيذ أحكام الله.

ولهذا كان النداء بصيغة الجماعة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نداءً جديداً، قرع سَمْعَ الأُمَّة العربية لأول مرة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، لم يكن يعرف الناس إلا آل فلان وبني فلان، وإلا يا بني لؤي، ويا بني قُصي، ويا عرب، ويا عجم، ويا فرس، ويا هنود، يتنادون بالجنس، أو بالقبيلة، أو بالفصيلة، أو بالعشيرة، حتى سمع الناس لأول مرة نداءً جديداً، لا يخاطب الناس بأجناسهم، ولا بألوانهم، ولا بأوطانهم، ولا بقبائلهم، إنما يقسمهم قسمين فقط: مؤمنين وكافرين. فهو يفصل أهل الإيمان ويميزهم، ويخاطبهم بهذا الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يا من رضيتُم بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وبالقرآن إماماً ومنهاجاً، يا من آمنتم بالله، والتزمتُم عقد الإيمان، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، آمنتم فاسمعوا إذا لما يجب عليكم، ولهذا كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: إذا سمعتَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فافتح لها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تُصرف عنه^(١).

النداء الأول: الإيمان والعمل:

النداء الأول في سورة الصف: هو عتاب لأهل الإيمان أن يقولوا ولا يفعلوا، أن يكون إيمانهم مجرد دعوى لا يُحققها العمل والسلوك في واقع الحياة، ولهذا لامهم وقرعهم وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿[الصف: ٢، ٣]﴾. فالمؤمن يقول ويفعل، يلتزم بسلوك المؤمنين، وأخلاق المؤمنين، ومن هنا نجد الإيمان في القرآن يتمثل في سلوك عملي، في أخلاق إيجابية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا

(١) رواه سعيد بن منصور في تفسيره (٥٠).

تَلَيْتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿[الأنفال: ٢ - ٤].

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ *
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
* فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْأَرْضَ دُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

هؤلاء هم المؤمنون، فالإيمان عنصر إيجابي، يتجسد في أخلاق
وسلوك، ولهذا فالشخص الذي يقول: أنا مؤمن. ثم لا يكون لإيمانه أثر
في حياته، سواء مع نفسه، أو مع ربه، أو مع زوجته، أو مع أسرته، أو
مع جيرانه، أو مع الناس جميعاً - هو صاحب إيمان زائف، أو إيمان
مدخول، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. فهذا هو النداء
الأول لكل مؤمن، أن يحرص على أن يطابق عمله قوله، ﴿لَمْ تَقُولُوا
مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. فليس الإيمان كلاماً يقال، ولا دعوى تُدعى، فما أكثر
الدعاوى وما أعز المعاني، وكما قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلي
ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، وإنَّ قومًا ألتهتهم
أمانى المغفرة، وخرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحن نحسن
الظن بالله. وكذبوا؛ لو أحسنوا الظنَّ لأحسنوا العمل^(١). هذا هو النداء
الأول في السورة.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الوجل والتوثق بالعمل (٢).

النداء الثاني: التجارة الرابعة:

ثم يأتي النداء الثاني لجماعة المؤمنين في سورة الصف بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَىٰ تَحَرِّقٍ نُّجِجِكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

من هنا يقول الله تعالى في النداء الثاني في سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَىٰ تَحَرِّقٍ نُّجِجِكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]. ومع أَنَّ الخطاب من الله تعالى لعباده، فهو يخاطبهم بهذا الأسلوب النديّ الرقيق اللطيف المحبّب، ﴿هَلْ أَذُكُمُ عَلَىٰ تَحَرِّقٍ نُّجِجِكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أدلكم أم لا؟ دُلنا يا ربّ، ومن يكره أن يدلّه الله على هذه التجارة المنجيّة؟ ﴿هَلْ أَذُكُمُ﴾ أسلوب عرض، كأنّه يشاورنا، أدلكم أم لا؟ وهو تعلیمٌ للدعاة أن يكونوا رفقاء مع الناس، أن يكونوا ميسّرين لا معسرين، ومبشرين لا منفرين، ﴿هَلْ أَذُكُمُ عَلَىٰ تَحَرِّقٍ نُّجِجِكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ما أحلى هذه التجارة! وما أعظمها! إنّها تجارة تنجي من عذاب أليم، ليست مجرد تجارة يكسب الناس من ورائها أموالاً، ثقلٌ أو تكثُر، وقد لا يكسب، يتاجر الإنسان في هذا النوع من تجارة الدنيا، فيجوب الآفاق، ويخترق البحار، والفيافي، والقفار، ويواصل سهر الليل بعناء النهار، في سبيل ربح قد يكون أو لا يكون، وإذا كان فقد يدوم أو لا يدوم، وإذا دام الربح فإنّ الإنسان ذاته لا يدوم، كما قال الشاعر:

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَىٰ انْتِقَالِ
وما دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلُ ظِلٍّ أَظْلَكَ ثُمَّ آذَنَ بَارْتِحَالِ^(١)

(١) البيتان لأبي العتاهية، انظر: الدر الفريد (٣٦٨/٥)، تحقيق د. كامل سلمان الجبوري، نشر دار

الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

رأس مال التجارة الربحية:

هذه تجارة الدنيا، هناك تجارة أعظم من تجارة الدنيا، هناك تجارة هي أرباح التجارات، فما هي هذه التجارة التي يشوقنا الله إليها؟ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وما رأس مال هذه التجارة؟ رأس مال هذه التجارة أمران: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١].

(١) الإيمان بالله ورسوله:

العنصر الأول من عناصر رأس مال التجارة الربحية هو الإيمان بالله تعالى، والإيمان برسوله ﷺ.

الإيمان بالله تعالى:

أَنْ تُوْمِنَ بِاللَّهِ رَبًّا وَهَٰذَا إِلَٰهُهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وتوحيد الألوهية، أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّهُ لَا رَبَّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا ضَارَ وَلَا نَافِعَ، وَلَا خَافِصَ وَلَا رَافِعَ، وَلَا مَحْيِيَ وَلَا مُمِيتَ، وَلَا رَازِقَ وَلَا مَدْبِرَ، إِلَّا اللَّهُ ﷻ، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢]. هذا توحيد الربوبية.

ولكن هذا التوحيد وحده لا يغني، فقد كان العرب في جاهليتهم يقررون بهذا النوع من التوحيد، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. لم يعتقدوا أن هبل، أو مناة، أو اللات، أو العزى، أو تلك الأصنام الثلاثمائة والستين التي كانت حول الكعبة خلقت شبرا

في السماوات أو في الأرض، فالله هو الخالق في نظرهم، له ما في السماوات وما في الأرض، ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ * ﴿قُلْ مَنْ مِنْ يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿[المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]. وما دمتم تعترفون أن كل شيء لله، فلماذا إذن تعبدون غير الله، وتشركون مع الله آلهة أخرى؟!

ولهذا كانت دعوة الأنبياء جميعاً لتوحيد الألوهية، لإخلاص العبادة لله وحده، فلا يُعبد إلا الله، ولا يُعبد الله إلا بما شرع، لا بدّ من هذين الأصلين، إخلاص العبادة لله وحده، فلا تبغي غير الله ربّاً، ولا تتخذ غير الله وليّاً، ولا تبغي غير الله حكماً، عناصر ثلاثة في التوحيد جاءت بها سورة الأنعام وهي سورة التوحيد، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤]. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولهذا كان لا بدّ أن نتجه إلى الله وحده، لا نرجو غير الله، ولا نخاف غير الله، ولا نعتمد إلا على الله، ولا نتوكل إلا على الله، فالله وحده هو المعبود، وهو المرجو، وهو المخوف، فعلينا أن نُخلص لله ﷻ، ونُحكّم شرع الله، فالله ﷻ هو الأمر النّاهي، هو الحاكم المتصرّف في عباده. لا بدّ من هذا التوحيد، فهو حقيقة الإيمان بالله ﷻ، ولهذا كان الإسلام دين التوحيد، إذا أردنا أن نضيف الإسلام إلى كلمة واحدة، نقول: هو دين التوحيد، دعوة التوحيد.

وكلُّ الأنبياء جاؤوا بالتوحيد، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. كلُّ الأنبياء دعوا إلى هذا التوحيد، وكان النداء الأول في كلِّ رسالة من كلِّ رسول لقومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وبعد ذلك يقول لهم: افعلوا كذا، واجتنبوا كذا.

ولهذا نحن نؤكد على هذه الحقيقة، أنَّ روح الإسلام هو التوحيد، وأساس الأسس كلها هو التوحيد، فلا بدَّ أن نرفض الشرك بكلِّ أنواعه، الشرك القديم والشرك الحديث، شرك العوام وشرك الخواص.

هناك أنواع من الشرك، كان شرك العوام قديمًا أنَّهم يطوفون بالأضرحة، ويسألون الأموات، أو يستغيثون بهم، وهناك شرك حديث، أنَّهم يتعبدون للحكام وللرؤساء وللزعماء وللقوانين الوضعية، ويعتبرونها طواغيت لا يخالفون لها أمرًا، فهذا شرك جديد، نحن نرفض الشرك كله، ولا نقبل إلا التوحيد الخالص، وهذا معنى لا إله إلا الله.

وقد علَّمنا الإسلام أن يؤذن فنرفع التوحيد، أشهد أن لا إله إلا الله، ونقيم الصلاة فنعلن التوحيد، ونقرأ التحيات ونتشهد فنعلن التوحيد، ويولد المولود، فمن السُّنة أن يؤذن في أذنه بكلمة التوحيد، وإذا احتضر الميت لقَّناه كلمة التوحيد، «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١). أيَّ أن الإنسان حين يولد يستقبل الحياة بلا إله إلا الله، وحينما يُحتضر يُودَّع الحياة بلا إله إلا الله، فأول ما يطرق السمع كلمة التوحيد، وآخر ما يطرقه كلمة التوحيد.

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩١٦)، عن أبي سعيد الخدري.

هذه هي العقيدة الأولى، أن نُربِّي الناس ألا يرجوا ولا يخافوا إلا الله، وأن يعملوا لله وحده، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]﴾. فالعنصر الأول في رأس مال التجارة المنجية هو الإيمان بالله وَحْدَهُ، أن نغرس في أنفسنا هذا الإيمان.

الإيمان بالرسول ﷺ :

ثمَّ يجب الإيمان برسول الله ﷺ، فلا إيمان بالله إذن لم يكن هناك إيمان برسوله؛ لأننا عرفنا حقيقة الإيمان عن طريق رسول الله ﷺ، فهو واسطة الخلق إلى الحق، ليس معنى واسطة أننا نتوسط به إلى الله، بأن نقول مثلاً: بحق النبي كذا. لا، بل معنى واسطة الرسول أنه يدل على الله وَحْدَهُ، أننا عرفنا عنه ما يجب علينا، عرفنا الطريق إلى الله، فلو لا رسول الله ﷺ ما عرفنا ما يرضي الله وما يُسخطه، ما عرفنا حلاله من حرامه، ولا عرفنا أمره من نهيه.

فلذلك لا بدّ من الإيمان بأنه ﷺ مُرْسَلٌ من عند الله، ليس إلهاً، ولا ابن إله، ولا ثلث إله، لا، بل هو عبد لله، ولذلك قال ﷺ: «لا تُظروني كما أظرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله»^(١). ولهذا نقول في تشهدنا: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وحينما ذكر الله رسوله في مقام المدح في القرآن الكريم ذكره بالعبودية: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]. ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥)، عن عمر بن الخطاب.

عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ [الكهف: ١]. ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا
يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. هذه العبودية
هي فخر رسول الله ﷺ، وفخر كل مؤمن بالله، وما أجمل قول الشاعر:
وممّا زادني شرفاً وتيهاً وكذتُ بأخمصي أطأ الثرى
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيّرتُ أحمد لي نبياً^(١)
فلا بدّ أن نؤمن به ﷺ، رسولاً مبلّغاً عن الله، جاء متممًا لمكارم
الأخلاق، نؤمن بأنّه ﷺ جاء بالرسالة الخاتمة، الرسالة العامة، الرسالة
الخالدة، الرسالة التي فيها نجاة الناس، فرادى وجماعات، نجاتهم في
الدنيا، ونجاتهم في الآخرة، فيها سعادتهم، وفوزهم، وانتصارهم، إذا
اتبعوا تعاليم هذه الرسالة، لا إيمان بغير هذا.

الإيمان الزائف:

لا يمكن أن يتمّ إيمان الناس إذا قالوا: نحن مؤمنون؛ ولكننا نُحكّم
قوانين غير شرع الله، أو نتبع أوامر غير أوامر الله، أو نأخذ ببعض الكتاب
دون بعض، نصلى ولكن لا نزكي، أو نزكي ولكن لا نحج، أو نحج
ولكن لا نجاهد، أو نفعل هذا كله ولكننا لا نقطع يد السارق، أو لا نجلد
الزاني، أو شارب الخمر، أو لا نفعل كذا وكذا، نعطل أحكام الله.
فلا إيمان إلّا بالتزام أحكام الله جميعاً، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى
اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. ليس لك خيارٌ ما دمت قد آمنت بالله ربّاً، وبمحمد
رسولاً، لم يعد لك خيار.

(١) البيتان للقاضي عياض اليعقوبي كما في حاشية القليوبي على شرح المحلي على المنهاج
(٧/١) مطبوع مع حاشية عميرة، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَجْبِرُ أَحَدٌ عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ
الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ولكن ما دمت قد أسلمت لله زمامك، فلا بدَّ
أَنْ تَطِيعَ اللَّهَ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ، وَتَجْتَنِبَ كُلَّ مَا نَهَى، وَتُحِلَّ كُلَّ مَا أَحَلَّ،
وَتَحْرِمَ كُلَّ مَا حَرَّمَ، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ
لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].
فلا بدَّ أَنْ تُنفِذَ أَحْكَامَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وليس لك أَنْ تعترض عليها.

صحيح أَنْ مَنْ حَقَّكَ أَنْ تَسْأَلَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ، وتستفسر عن سرِّه،
حتى يتبين لك، ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ولكن ليس لك أَنْ
ترفضه، فهذا مناقض للإيمان، انظروا إلى هذا القسم المؤكَّد، وهو
خطابٌ من الله لرسوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ
بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾
[النساء: ٦٥]. فلا إيمان إذا لم يحكِّموك يا محمد، وليس التحكيم فقط، لا،
بل لا بدَّ أَنْ يكون التحكيم عن رضا وقبول، وطيب نفس، ﴿ثُمَّ لَا
يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، هذا فرق بين
المؤمن والمنافق، أَنَّ المنافق يقبل حكم الله ورسوله إذا كان له فيه
مصلحة، فإذا لم تكن له منفعة شخصية ذاتية فهو مستعد أن يرفض حكم
الله ورسوله.

وهذا ما ذكرته سورة النور: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ
يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
[النور: ٤٧ - ٥٠]. هذا شأن المنافقين.

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَلَهُمْ شَأْنٌ آخَرُ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]. فليُنظر أولئك الذين يدعون الإسلام والإيمان، ولكنهم يرفضون أحكام الله، وشرعية الله، بدعاوى شتى، أنها شرعت لزمن غير هذا الزمن، أو في بيئة غير هذه البيئة، أو نحو ذلك، كأنما يتعاملون على الله وعجل، ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

أأنتم أعلم من الله بعباده؟ إن الله تعالى هو الذي شرع لعباده، وهو أعلم بمن خلق، وبما خلق، فصانع الجهاز أدري بما يصلح هذا الجهاز، والله هو صانع الإنسان، فهو الذي يعلم ماذا يصلح الإنسان، وماذا يفسده، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

أم أنتم أرحم من الله بعباده؟ تدعون الرحمة بالمجرمين وباللصوص وبالسارقين وبالقتلة، أنتم أرحم من الله؟ بل الله أرحم بعباده، أرحم من الوالدة بولدها، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فهو يعلم أن هذه الأحكام وحدها هي الرادعة الزاجرة، التي لا ينفع غيرها، ولا يردع غيرها، وقد دلت التجارب كلها على هذا، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. فالعنصر الأول في رأس مال التجارة الرباحة هو الإيمان بالله وعجل وبرسوله ﷺ.

(٢) الجهاد في سبيل الله:

العنصر الثاني من عناصر رأس مال التجارة الرباحة هو الجهاد في سبيل الله، ﴿وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾، فلا إيمان بلا جهاد، الإيمان الحقيقي هو الذي يدفع إلى الجهاد، إلى البذل، إلى التضحية بالنفس والمال.

اقرأوا معي هذه الآية من سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

حينما زعم جماعة من الأعراب بأنهم آمنوا، أنكر القرآن عليهم هذا: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. لم يدخل الإيمان بعد في قلوبهم؛ لأنَّ للإيمان حقيقة، وله آثارًا، ثمَّ دلهم على حقيقة الإيمان في هذه الآية التالية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، إيمان لا شك فيه، ولا ريبة معه، إيمان لا يتزعزع، هذا هو الإيمان الحقيقي، ليس الإيمان الزائف، ولا الإيمان المدعى، ولا الإيمان المدخول، وإنما إيمان يتبعه جهاد، يتبعه بذل للنفس وللمال، ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، لم يضنُّوا بأنفسهم، ولم ييخلوا بأموالهم، بذلوا الاثنين معًا لله وعجل.

صفة الله مع المؤمنين:

وقد عقد الله تعالى من قديم صفة مع المؤمنين، تمَّ فيها بيع وشراء، كان المشتري بهذه الصفة هو الله تعالى، والبائع هم جماعة المؤمنين، والمبيع هو الأنفس والأموال، والتمن هو جنة عرضها السماوات والأرض، كما قال الحسن رحمه الله: باعهم والله فأغلى بالتمن. وقال الحسن أيضًا: وهو يقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]. قال: أنفسا هو الذي خلقها، وأموالا هو الذي رزقها^(١). هل يشتري أحد ملكه؟ فكيف

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٣١٣/٢)، والرازي في تفسيره (١٥٠/١٦).

يشتري الله أنفساً هو خالقها، وأموالاً هو رازقها، ثم يعطي الثمن جنّة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟ أي فضل أعظم من هذا الفضل؟ فلا بدّ من الجهاد بالأنفس والأموال.

نموذج في الجهاد:

في سنة ١٩٤٨م، في قرية كهذه القرية الطيبة، من قرى بسيون، أراد رجلٌ فلاح أن يتطوّع للجهاد، فباع جاموسه ليشتري بها بندقية، وكانت الجاموسة في ذلك الزمان تساوي خمسين - أو ستين - جنيهاً، لكنّه باعها واشترى بندقية.

ف قيل له: يا أخ حسن؛ لماذا لم تترك الجاموسة للأولاد؟ أنت ستتطوّع بنفسك وتقاتل بنفسك، وهناك غيرك من أصحاب الأموال يجاهدون بأموالهم، فجاهد بنفسك، واترك الجاموسة للعيال، وعلى الناس أن يعاون بعضهم بعضاً، فهذا يجاهد بالنفس، وآخر يجاهد بالمال.

فقال: هل أنا رازق العيال، أم الله رازقني ورازق العيال؟! إن الله تعالى يقول: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]. وأنا لا أريد إلا الجنة، فلا بدّ أن أدفع لأتسلم الجنة، لو سلّمت النفس فأين المال؟

فأصرّ أن يبيع الجاموسة ويشتري البندقية، ويجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾، فلا بدّ من الجهاد، فإنّما يُنصر الإسلام بالجهاد، بالبذل بالتضحية، وإذا ضنّ كلُّ إنسان بنفسه، وبخل كلُّ إنسان بماله، فبماذا يُنصر الإسلام؟ هل نريد أن نكون مسلمين بغير أن نبذل للإسلام شيئاً؟

قانون النصر:

يدعو كل واحد منّا: يا ربّ انصر الإسلام. فكيف ينتصر الإسلام؟ يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]. فلا بدّ من المؤمنين، إنّ الملائكة التي يُنزلها الله ﷻ لتنصر الناس، لا ينزلها في فراغ، لا بدّ من أناس، لا بدّ من بشر مؤمنين مجاهدين، يستحقون أن تنزل عليهم الملائكة.

لقد نزلت الملائكة في غزوة بدر، وفي غزوة حنين، وفي غزوة الخندق، ولكنها نزلت على قوم مؤمنين يجاهدون، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]. فهناك المؤمنون الذين يستحقون أن تنزل عليهم الملائكة لتثبت أقدامهم، وتشارك معهم.

قانون الهزيمة:

أمّا أن يجلس الناس متربعين مستسلمين متراخين، منتظرين أن تنزل السماء عليهم جندها، فإنّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، ولا تنزل ملائكة على الكسالى والقاعدين والمتراخين، لا، إنّما ينصر الله هذا الدين بالمؤمنين المجاهدين، فلا بدّ من الإيمان، ولا بدّ من الجهاد.

إنّ الذي أضعف المسلمين، وجعلهم لقمة سائغة في أفواه الأمم، وجزأ عليهم الجبناء، وعزّز عليهم الأذلاء، هو تركهم الجهاد، «ما ترك قوم الجهاد إلا عمّهم الله بالعذاب»^(١). وما غزي قوم في عُقر دارهم إلا

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٣٨٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٤٦٨): رواه الطبراني =

ذُلُّوا، ضربهم الله بالذل؛ لأنَّهم تركوا الجهاد، وغلت قطرة الدم فيهم، حتى أصبحت أغلى من دينهم، فصار كلُّ إنسان يقول: الروح عزيزة، نفسي نفسي. ومع ذلك يدعو: يا رب انصر الإسلام! كيف ينتصر الإسلام وأنا أبخل بنفسي، وأبخل بمالي، وأبخل بولدي، ولا أريد لابني أن يتعرَّض لجهاد، ولا لتضحية ولا لاضطهاد، يقول له: ابعد يا بني عن هذا الطريق. فمن ينصر الإسلام إذن؟ لا بدَّ من جهاد بالنفس وبالمال.

حب الدنيا وكراهية الموت:

لَمَّا غَالَى النَّاسُ بِقُطْرَةِ الدَّمِ، وَغَلَبَ عَنْدهُمْ حُبُّ الْحَيَاةِ عَلَى حُبِّ اللَّهِ، كَانَ النَّتِيجَةُ هَذَا الضَّعْفُ الَّذِي نَخِرُ فِي صُلْبِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَمَلُ عَمَلِهِ فِي حَيَاتِهِمْ، فَجَعَلَهُمْ وَرَاءَ الْأُمَمِ، هَذَا الضَّعْفُ - أَوِ الْوَهْنُ - هُوَ الَّذِي حَدَّثَنَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَأَحْمَدُ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تَوَشَّكُ الْأُمَمُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَتَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا». فَقَالَ قَائِلٌ: وَمَنْ قَلَّةٌ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غَنَاءٌ كَغَنَاءِ السَّيْلِ»^(١).

يشير الرسول ﷺ هنا إلى المؤامرة الدولية على المسلمين، فالكلُّ يتآمر على المسلمين، يختلفون فيما بينهم، ويتفقون على المسلمين، الرأسمالية تحارب الشيوعية، والشيوعية تقاوم الرأسمالية، وبينهم حربٌ ساخنة أو باردة، ولكن إذا كان عدوهم هو الإسلام، اتفقت كلمتهم جميعاً، وقد رأينا روسيا تمدُّ الحبشة (أثيوبيا) ضدَّ الصومال، لأنَّ

= في الأوسط عن شيخه علي بن سعيد الرازي قال الدارقطني: ليس بذلك، وقال الذهبي: روى عنه الناس، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٩٢). عن أبي بكر.

(١) رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٥٨)، عن ثوبان.

الصومال خرجت عن فلك الشيوعية، وكان المفروض أن تأتي أمريكا لتؤيد الصومال في أوغادين، ولكن الصومال بلد مسلم، وشعبها مسلم؛ ولهذا تكف أمريكا يدها في هذه الحالة، فمادام المحارب بلداً مسلماً، يقف الجميع متفرجين، حتى تذهب (أوغادين) كما تذهب غيرها، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. مؤامرة دولية على الإسلام، تتداعى فيها الأمم علينا كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها.

فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ لماذا يطمعون فينا، ويتألبون علينا ويتكالبون؟ هل لأن عدداً قليل؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير». فالآن يقارب المسلمون المليار، أو الألف مليون، كما تدلُّ أحدث الإحصاءات في الأمم المتحدة وغيرها، فهم كثيرون، ولكنها كثرة، كما يقول الشاعر قديماً:

ما أكثر النَّاسَ، لا بل ما أقلُّهم الله يعلم أنني لم أقل فنداً
إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً^(١)

الناس كثيرون، ولكن ما قيمة الكم بلا كيف؟ ما قيمة أناس تجمعهم زمارة، وتفرقهم عصاة.

لا قيمة للأعداد الكبيرة إذا لم يعمر الإيمان قلوبها، لقد انتصر المسلمون في بدر، وقد كانوا إذ ذاك أقلَّ عدداً، وأضعف عدداً، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، مثل الحاضرين هنا في هذا المسجد تقريباً، تلك العصابة التي كان مصير الإسلام، بل مصير الدين في الأرض، مصير عبادة الله في الأرض منوطاً بها، ولهذا قال النبي ﷺ يوم بدر:

(١) من شعر: دعبل. انظر: العقد الفريد (١٥٢/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ.

«اللهمَّ إن تُهْلِكْ هذه العصاةَ فلن تُعبدَ في الأرض بعد اليوم»^(١). فإذا كان الحاضرون هنا مؤمنين صادقين مصممين على نصرته الإسلام، يستطيعون أن يفعلوا الأعاجيب، إذا تخطوا الضعف، ولم يكونوا كثرةً كغشاء السيل، كالقش والخطب، والزبد، والرغاوى التي يحملها السيل وتذهب جفاءً.

قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاءً كغشاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن». فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت»^(٢). إنهم لا يسألون عن معنى كلمة الوهن لغويًا، إنما يسألون عن سرِّ هذا الوهن، عن سرِّ الضعف: ما هو؟ فبيّن النبي ﷺ سرّه، وعلته، وسببه، فقال: «حبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت».

الموت يهب الحياة:

لماذا انتصر الصحابة على الأكاسرة والقيصرة، وسادوا الأرض، وقادوا الناس بالعدل؟ لأنهم أحبُّوا الموت في سبيل الله، وهانت الدنيا في أعينهم، ولهذا كان خالد بن الوليد يبعث إلى القياصرة والجبابرة يدعوهم إلى الإسلام، فيقول في ختام رسالته: أسلموا تسلموا، وإلا غزوتكم بقوم يحبون الموت كما تحبُّون الحياة^(٣). كما تحرصون أنتم على الحياة، يحرصون هم على الموت، والعجيب أنَّ هؤلاء الذين يحرصون على الموت طالت بهم الحياة، فبالرغم من كثرة المعارك التي دخلها خالد بن

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٣)، وأحمد (٢٠٨)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٩٩.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في التاريخ (٣٤٤١٧)، وأبو يعلى (٧١٩٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٣٨٨): رواه أبو يعلى وفيه مجالد وهو ضعيف وقد وثق. عن الشعبي مرسلاً.

الوليد نفسه، سواء في الجاهلية أو الإسلام، لم يمت في معركة، بل مات على فراشه، وكان حزينًا على عدم نيله الشهادة، وقال: لقد لقيت كذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف، أو طعنة رمح، وها أنذا الآن أموت على فراشي كما يموت البعير؛ فلا نامت أعين الجبناء^(١). ولهذا قيل: احرص على الموت توهب لك الحياة.

في سبيل الله:

لا بدّ من الجهاد، أن نستعذب الموت في سبيل الله، وأن نضحى بالأنفس والأموال، إذا أردنا أن نكون مؤمنين صادقين، إذا أردنا التجارة المنجية، هذا هو رأس مال هذه التجارة، إيمانٌ بالله ورسوله، وجهاد بالنفس والمال، بشرط أن يكون الجهاد في سبيل الله، فليس كل بذل للنفس والمال هو الجهاد المنشود، لا، ففي الحديث عن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال النبي ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢). من قاتل ليُعلي دين الله وأحكامه في الأرض، فهو في سبيل الله.

أرباح التجارة:

هذه هي التجارة، وهذا هو رأس مالها، فما هو ربحها؟ الربح ذكره الله تعالى في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢]. ربح هذه التجارة مغفرة وجنة،

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٨٣٦)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، نشر دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، عن أبي موسى.

هل هناك أفضل من هذا الربح؟ وفي البدء بالمغفرة إشارة إلى أن أي مخلوق لا يسلم من ذنوب معاصٍ يقتترفها، مهما كان من أهل الإيمان، ومن أهل الجهاد، كما قال الشاعر:

مَنْ ذَا الَّذِي مَاسَاءَ قَطُّ؟ وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطُّ^(١)؟
وفي الأحاديث:

«إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا»^(٢)
«كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^(٣)، «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(٤). لقد خُلِقَ الإنسان من طين، ولا يخلو الطين من الكدر، فلا بد من معاصي، ولا بد من أخطاء، ولا بد من تقصير، ولكن الإيمان والجهاد كفيلا أن يُكفرا عن الإنسان خطايا، ويغفر الله له بجهاده سيئاته، ولذلك قال: «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ».

ثم من ناحية أخرى: «وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ» [الصف: ١٢]. هل هناك أفضل من الجنة؟ ليس هناك أفضل من

(١) مقامات الحريري ص ٢٢٩، ٢٣٠، نشر مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٣م.

(٢) رواه الترمذي في التفسير (٣٢٨٤)، وقال: حسن صحيح غريب. والحاكم في التفسير (٤٦٩/٢)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. وقال ابن كثير في التفسير (٤٦١/٧): في صحته مرفوعاً نظراً. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٧٩). عن ابن عباس.

(٣) رواه أحمد (١٣٠٤٩)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩)، وقال: حديث غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١)، والحاكم في التوبة والإنابة (٢٤٤/٤)، وقال الذهبي: عليّ لين. وصححه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٤١٤/٥)، وقال: غرابته هي أن عليّ ابن مسعدة، ينفرد به عن قتادة. وقال ابن حجر في بلوغ المرام (١٤٩١): إسناده قوي. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٣٩)، عن أنس.

(٤) رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٩)، وأحمد (٨٠٨٢)، عن أبي هريرة.

الجنة، ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. هذا هو الربح الأخروي.

ولكن النفس مولعة بحبِّ العاجل، أليس لهذه التجارة ربح قريب؟ بلى؛ هناك ربح، أنتم تحبون العاجلة، والله تعالى لم يضيع عليكم ثوابها، ولهذا قال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣]. إذا آمنتم وجاهدتم، حقَّ الإيمان وحقَّ الجهاد، فلكم المغفرة والجنة في الآخرة، ولكم في الدنيا ما تحبون من النصر والفتح القريب، هذه سنة من سنن الله، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. إنه قانون من قوانين الله تعالى التي لا تتخلف، انصر الله ينصرك، أعطني إيماناً أعطيك نصراً، هذا أمر لا يتخلف، فلهذا يقول الله تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. فهناك ثمرة أخرى تحبونها، وتتعلق قلوبكم بها، وتشرب أعناقكم إليها.

هذا هو الربح أيها الإخوة، فعلينا أن نحرص على هذه التجارة المُنْجِية المربحة، وهي أرباح التَّجَارَات في الدنيا والآخرة، وبذلك نعدُّ أنفسنا لما أمر الله به المؤمنين في ختام السورة.

النداء الثالث: الانتصار لدين الله تعالى:

هذا هو النداء الثالث في ختام سورة الصف: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]. إذا كان هناك مَنْ ينصر فلاناً، أو ينصر علاناً من الناس، مَنْ ينصر هذا الملك أو ذاك الأمير، مَنْ ينصر هذا السلطان أو ذاك الزعيم؛ فكونوا أنصارَ الله، نريد أن ننصر الله تعالى، وإنما يكون نصر الله بنصرة دينه، بنصرة هذا الإسلام.



ومن العار أن يكون لكلّ دين، ولكلّ مذهب في هذه الدنيا أنصار وحماة ودعاة، يذودون عنه، ويضحّون في سبيله، ويتحمّلون العذاب من أجله، لكلّ مذهب له أنصاره، كلّ دين له أنصاره، فلليهوديّة أنصارها، وللنصرانيّة أنصارها، وللشيوعيّة أنصارها، وللماسونيّة أنصارها، وللبيهائيّة أنصارها، وكل مذهب في الدنيا له رجاله وأنصاره وحُماته، فأين أنصار الإسلام، أين رجال الإسلام؟ لا بدّ أن نكون أنصار الله تعالى بنصرة دينه.

دين عظيم لو كان له أنصار:

دخل رجل أجنبي في الإسلام بعد أن أعجب بتعاليمه، وقال كلمة يجب أن نعيها، وأن نسجلها في عقولنا وحوافظنا، ونكتبها بماء الذهب أو بماء العين، قال معجبا بالإسلام: يا له من دين لو كان له رجال. فهو دينٌ عظيم، ولكنّه لا يجد رجالاً عظماء، دين قوي ولكنّه يحتاج إلى رجال أقوياء، فالإسلام لا ينتصر وحده، وإنما ينتصر برجاله، حرامٌ علينا أن ندع هذا الدين العظيم يشكو إلى الله عقوق أبنائه، وخذلان أنصاره، يشكو الغربة في أوطانه، وفي بلاده.

حرامٌ علينا أن نفرط في هذا الإسلام العظيم، مع أنّه لا حياة لنا بغيره، ولا عزّة لنا في سواه، فلن ننتصر على أعدائنا إلّا بالإسلام، ولن نبني بلدنا إلّا بالإسلام، ولن تقوى شوكتنا إلّا بالإسلام، ولن تتوحد أمّتنا إلّا بالإسلام، ومهما نطلب العزّة بغيره أذلّنا الله، ومهما نلتمس القوّة بغيره أضعفنا الله، ومهما نلتمس الوحدة في سواه فرّقنا الله، فالإسلام وحده هو جامع شملنا، وهو مصدر قوتنا، وهو مصدر عزتنا، فعلى أن نكون أنصار الله، فإن كنتم من أنصار الله تريحون الدنيا والآخرة معاً،

تربحون أنفسكم، وتربحون أهلكم، وتربحون أوطانكم، وتربحون آخرتكم، تربحون الأمرين، وتفوزون بالحُسنيين، ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

الطائفة المنصورة:

وأنا أعتقد أن هناك - بحمد الله - طائفة مستعدة لنصرة دين الله، في كل مكان، وفي كل بلد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، تسمى الطائفة المنصورة التي جاءت بها الأحاديث، واستفاضت عن عدد من الصحابة، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

هذه الطائفة المنصورة موجودة، فابحثوا عنها، وكونوا منها، وتعاونوا معها، كونوا أنصاراً لهذا الدين، ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾، لينصركم الله، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿[محمد: ٧، ٨].

أَسْأَلُ اللَّهَ وَجَّكَ أَنْ يَنْصُرَنَا وَيَنْصِرَ بَنَا، وَيُعِزَّنَا وَيُعِزَّ بَنَا، وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَنَا عَلَى الْحَقِّ، وَيَجْعَلَ خَيْرَ أَيَّامِنَا يَوْمَ لِقَائِهِ، وَخَيْرَ أَعْمَالِنَا خَوَاتِيمَهَا، اللَّهُمَّ حُبِّ إِلَيْنَا الْإِيمَانُ وَزِينَتُهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِهَ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعَصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، فَضْلاً مِنْكَ وَنِعْمَةً، اللَّهُمَّ اجْعَلْ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاجْعَلْ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا هِيَ السُّفْلَى، وَأَعْلِي بِنَا كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، وَارْفَعْ بِنَا رَايَةَ الْقُرْآنِ، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

إجابات الشيخ القرضاوي عن أسئلة المحاضرة

مميزات الاقتصاد الإسلامي:

السؤال الأول: ما هي مميزات الاقتصاد الإسلامي، وكيف يمكن تطبيقه في هذا العصر؟

الجواب: كلمة منهج الإسلام الاقتصادي تعبر عن الإسلام، أكثر ممّا تعبر عنه كلمة تطبيق اقتصادي، لأنّ كلمة تطبيق في الحقيقة تعني أنّه يتفق مع المذاهب الأخرى في الأسس الفكرية والعقائدية، ولكنّه يختلف معها في التطبيق، كما كانوا يسمون «الثورية الاشتراكية» هنا «التطبيق العربي للاشتراكية»، فهناك اشتراكية موحّدة، ولكن لها تطبيقات مختلفة. ولهذا نقول: إنّ للإسلام أسسه الاقتصادية المتميّزة، ولا يتّسع المجال هنا للحديث عن هذه الأسس، ولكن حَسْبِي أن أقول: إنّ الأسس الإسلامية في الاقتصاد تتميّز بعدّة أشياء، منها:

(أ) اقتصاد ربّاني:

فالاقتصاد الإسلامي اقتصاد ربّاني، هذا النظام الربّاني يربط الحقائق الاقتصادية بالإيمان، ومن أبرز الحقائق الاقتصادية في الإسلام حقيقة نسميها الاستخلاف، وهو يعني: أنّ الناس ليسوا المالكين الحقيقيين لأموالهم، ولكنهم مستخلفين في مال الله، فالمال مال الله، والغنيّ مستخلف في هذا المال، أمين عليه، مثل أمين الصندوق، كأنّه موظف في هذا المال، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]. وقوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]. فالمال مال الله، وأنت خليفة، أو وكيل، أو أمين على هذا المال، هذا أمر

مهم جدًا، فلست حرًا حريّة مطلقة تفعل به ما تشاء، كما قال قوم شعيب له: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧]. لماذا تتدخل في أموالنا، وما نفعله بها؟

المال - إذن - مال الله، وأنت أمينٌ عليه، ولذلك لمّا سئل أحد الأعراب عن غنم يرعاها: لِمَنْ هذه الغنم؟ قال: هي لله عندي. انظروا: هي لله عندي، لم يقل: هي غنمي. بل قال: هي لله عندي. هي غنم ربّنا ولكنها عندي أنا، هذا هو شعور المسلم، وهذا المعنى مهم جدًا، وهناك حديث قدسي مشهور على ألسنة الناس، وإن لم يرد بسند معروف، ولكنّه يعبر عن معنى صحيح: «المال مالي، والفقراء عيالي، والأغنياء وكلائي، فإذا بخل وكلائي على عيالي، أذقتهم وبالي ولا أبالي»^(١). فكرة الحديث صحيحة، وإن لم يصح بها سند، حتى الشحّاتين المتسوّلين يعرفون هذا، يأتون الناس ليقولوا لهم: أعطونا من مال الله. فهم يستخدمون هذه النظرية في الشحّات، هذا جانب من الجوانب.

(٢) اقتصاد إنساني:

من الأشياء المهمّة - أيضًا - في الاقتصاد الإسلامي، أنّ العنصر الإنساني فيه مهم جدًا، لا يكفي أن تهتم بالأدوات والأجهزة والمواد، ولكن تهمل الإنسان، فالإنسان هو المنتج، وهو المستهلك، فلا بدّ أن تهتم به، يمكن أن تقول للناس: حسّنوا الإنتاج، وحسّنوا الزراعة، وحسّنوا الصناعة، وحسّنوا كذا. ولكن الناس تستهلك استهلاكًا سيئًا، يسرفون في الاستهلاك، فيضيعون ثمرات الإنتاج، ولذلك لا بدّ من تربية

(١) بحثت عنه فلم أجد له أصلًا ولا من تكلم عليه.

الناس، حتى يعرفوا كيف يستهلكون، وكيف ينفقون؟ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]. فلا بد من رعاية الجانب الإنساني.

(٣) اقتصاد أخلاقي:

ومن الأشياء المهمة - أيضًا - في الاقتصاد الإسلامي: الجانب الأخلاقي، فالاقتصاد الإسلامي لا ينفصل عن الأخلاق، فلا يجوز في نظر الإسلام أن نُنمّي الاقتصاد ولو بفساد الأخلاق.

بعض الناس يقولون: نريد أن نُشجّع السياحة لنجذب العملات الصعبة - الإسترليني، والدولار، والين، والفرنك، ونحوها - ولا بدّ لذلك من جذب أصحاب العيون الخضراء، والشعور الصفراء، والبشرة البيضاء، وهذا يتطلب منا أن نعمل الكباريات والملاهي، ونفتح الخمارات والبارات، وننشئ شواطئ العري، ونبحج في مجتمعاتنا بعض الشيء، مع نساءنا وبناتنا، فهذا يشجّع الناس، ونحن لسنا مقفولين أو رجعيين، أمّا أنتم فتريدونها ظلمة، نوروها قليلاً. هذا ما يقولونه.

والإسلام لا يقبل هذا أبداً، فالله تعالى يقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]. إذا كانت هناك منافع تجارية واقتصادية من وراء الخمر والميسر، فهي مرفوضة ومهدرة في نظر الإسلام؛ لأنّ إثمهما أكبر.

وقد منع الإسلام حجّ المشركين، رغم المكاسب الكثيرة التي كانت تأتي من وراءه، فقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨]. وقد

أغناهم الله من فضله بالفعل، ففتح لهم فتوحًا من نواحٍ أخرى أغناهم بها، فلا يجوز أبدًا أن نفصل الاقتصاد عن الأخلاق.

وقد شهد الغربيون أنفسهم لهذه الميزة في الاقتصاد الإسلامي، فكتب باحث فرنسي اسمه «جاك استوري» كتابًا سمّاه «التنمية الاقتصادية»، يقول فيه: إنَّ الإسلام يتميز بأنَّ اقتصاده اقتصاد أخلاقي، لا يمتص دماء الناس.

التنمية العادلة:

ومن هنا كان لا بدَّ أن تسير العدالة جنبًا إلى جنب مع التنمية، لا يكفي أن توسَّع الإنتاج فيستفيد جماعة ويتضرر آخرون، أو تستفيد فئة من الناس ولا تستفيد بقية الناس شيئًا، أو تزيل طبقة لتظهر بعد ذلك طبقة أخرى، لا، بل لا بدَّ من العدالة التي تمشي مع التنمية جنبًا إلى جنب، بحيث تعمُّ الجميع.

بلغ عمر بن عبد العزيز أنَّ أحد أبنائه اشترى خاتمًا، فضَّه الواحد بألف درهم، وابن الخليفة يعني أنَّه ابن أمير المؤمنين، الذي يملك المشارق والمغرب، ومصر هذه كانت قطعة بعيدة في طرف الخلافة، وعندما يشتري فضَّ خاتم بألف درهم ذهبي - وليس بألف دينار فضي - فهو يُعدُّ أمرًا بسيطًا في نظر بعض الناس؛ لأنَّه ابن أمير المؤمنين، لكن عمر بعث إليه مَنْ يقول له: أمَّا بعد: فقد بلغني أنَّك اشتريت خاتمًا فضَّه بألف درهم، فإذا بلغك كتابي هذا فبِعْهُ، وأطعم بثلثه ألف جاع، واشترِ خاتمًا واجعل فضَّه من حديد، واكتب عليه: رحم الله امرأً عرف قدر نفسه^(١). أراد أن يكون قدوة، فلا بدَّ من أخلاقية الاقتصاد الإسلامي.

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٨٩/١٠)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب

المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

ضرورة تطبيق الاقتصاد الإسلامي:

وإذا أردنا أن نتحدث عن الاقتصاد الإسلامي لا تكفينا محاضرات ومحاضرات، ولكن المشكلة - للأسف - أننا نتحدث عن اقتصاد في الكتب، فنحن نقول كلامًا لا ينفذه أحد، ولا يتبنّاه أحد، هم يتبنوا الرأسمالية، والاشتراكية، والشيوعية، والماركسية، ولكنهم يتوقفون عند الإسلام، لماذا لا تتبنوا الإسلام، لقد جربتم الحلول المستوردة من الشرق ومن الغرب، من اليمين ومن اليسار، فما أغنت عنكم شيئًا، إذا لم تكونا حتى مسلمين ولا تقبلون حكم الإيمان، فاقبلوا حكم التجربة، فقد جربتم كل شيء ولم تنجحوا، دعونا نجرب هذا النظام الإسلامي ونرى ثمرته، ولن ينفع هذه الأمة إلا الإسلام.

إن الشيوعية في الحقيقة لم تنفع أهلها، فالبلاذ الشيوعية هي أدنى بلاد العالم من ناحية مستوى المعيشة، وقد أوردت إحصاءات عن ذلك في كتابي «مشكلة الفقر وكيف عالجه الإسلام»، أدنى دخل بالنسبة للفرد في البلاذ الشيوعية، هم يُجندون الناس بالكرباج من أجل أن يعملوا، فالناس هناك مغلوبون على أمرهم.

هم يقولون: هذه طبقة العمال، وهذا حكم البلوتاريا، الطبقة العاملة. ولكن هل وضع العامل في روسيا، وبلغاريا ونحوهما أفضل من وضعه في أمريكا وانجلترا ونحوهما؟ بل الوضع في هذه البلاذ مختلف، حتى إذا كان الإنسان عاطلاً، فإنهم يصرفون له إعانة اجتماعية، ومن حقّه أن يُضرب، ومن حقّه أن يطالب بالحقوق، ولا يستطيع أحد أن يفعل له شيئًا، فهل يستطيع أحد أن يُضرب في روسيا؟ إنه إذا أُضرب تُضرب رقبته فورًا.

لقد فقدَ الناس هناك حُرِّيَّاتهم، ولم يستطيعوا أن يحصلوا على مستوى المعيشة المنشود، فقد كانوا يقولون: نحن نضحّي بالحرية في سبيل المساواة. فضحوا بالحرية ولم يحصلوا على المساواة، لا زالت الدخول في الاتحاد السوفيتي والبلاد الشيوعية متفاوتة تمامًا، هناك طبقة الحزب الحاكم، وطبقة الخبراء والمهندسين، وطبقة الفنانين، وطبقات مختلفة تعيش في مستوى رفيع جدًا، أمَّا الكادحون من الناس فهم يعيشون في مستوى متدنٍ جدًا.

ومع كل هذا لم تنفذ الشيوعية كلَّ مبادئها، بل هي تبتعد عنها، فالمفروض أن الشيوعية لا تقبل الملكية قط، ومع هذا فقد قبلوا هناك نوعًا من الملكية، وجدوا أنه يزيد في كمية الإنتاج، قالوا: إنه يجوز للإنسان أن يزرع لحسابه حديقة بيته. حديقة كم متر كده يزرع فيها قليلًا من الخضار، أو يربي فيها قليلًا من الدجاج أو الحمام، فبدأ الناس يفعلون هذه الأشياء، فزادت كمية الخضراوات والدواجن والبيض من هذه المزارع الصغيرة الخاصة بزيادة كبيرة جدًا، فهذا الحافز الفردي أمر لا بدَّ منه.

ونحن جربنا القطاع العام، والقطاع الخاص، فوجدنا أن الشيء إذا ملكه الإنسان يحرص عليه وينميه، وهذه طبيعة الإنسان، لهذا نقول: إن الاقتصاد الإسلامي هو الكفيل أن يُنمِّي الإنتاج، وأن يحقق عدالة التوزيع، وأن يحقق أيضًا ترشيد الاستهلاك، وأن يقيم أُمَّة متوازنة في حياتها، لو طبق الاقتصاد الإسلامي كجزء من النظام الإسلامي، والحديث في هذا المجال يتسع، فيكفي هذا القدر.

توجيهات للشباب الحائر:

السؤال الثاني: كثير من الشباب يقف حائرًا: كيف يسير، ثمَّ كيف يبدأ، وماذا يفعل، وماذا يقرأ، ولمن يقرأ، ثم كيف يدعو؟

الجواب: لا داعي للحيرة، فالطريق واضح إن شاء الله، مادام كتاب الله وسنة رسوله بيننا، فلن نضيع أبداً، ولن نضل أبداً، ولكن المهم أن لا يقف الإنسان وحده، ولا يبدأ وحده، فاليد وحدها لا تصفق، والإسلام لا ينتصر بالعمل الفردي، مهما أخلص أصحابه، لا بد من عمل جماعي، لا بد أن يرتبط المؤمنون بعضهم ببعض، كما يفعل الكافرون مع بعضهم بعضاً: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. فهم يوالي بعضهم بعضاً، ويعاون بعضهم بعضاً، ويشد بعضهم أزر بعض، والكفر كله ملّة واحدة، كتلة واحدة، فإذا كنّا متفرقين وهم متّحدون، مبعثرون وهم متجمّعون، ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾؛ لأنّه يكون عمل في جانب، وسلبية في الجانب الآخر؛ وتكتل في جانب، وتفرّق في الجانب الآخر؛ وإيجابية في جانب، وفراغ في الجانب الآخر؛ هذا هو الذي يجلب الفساد والفتنة في الأرض، فلا بد أن نجتمع على الإسلام، لا بد أن نتعاون فيما بيننا، وأن يكون بيننا رباط وتوثيق، لا بد من هذا، فالعمل الجماعي المنظم المخطّط كما بينت ذلك في كتابي «الحل الإسلامي فريضة وضرورة» لا بدّ منه، لا بدّ من عمل جماعي، ولا بدّ من عمل منظم، ولا بدّ من عمل مخطّط؛ لأنّه لا يكفي أننا نسير سبّهللة، يجب أن نستفيد من التاريخ، ونستفيد من تجارب الحركات الإسلامية، ونمشي في طريقنا، وإذا صدق العزم وضح السبيل.

والمكتبة الإسلامية والحمد لله زاخرة بكثير من الكتب الجيدة الطيبة، التي تهدي وتنير الطريق، فلا بدّ أن ننتفع بها، ولكنّي أنصح ألا يكون الشاب المسلم أسير مؤلّف واحد، أو كاتب واحد؛ لأنّ كلّ واحد يؤخذ من كلامه ويترك - إلّا المعصوم ﷺ - كما جاء عن الإمام

مالك^(١)، وعن مجاهد^(٢)، وابن عباس^(٣) رضي الله عنهما، فعليه أن يقرأ للجميع، ولكن يقرأ قراءة الفاحص الواعي، لا يسلم زمامه لأحد، لا، بل يقارن بين الكتب بعضها وبعض، ويجلس مع إخوانه أيضاً ليتناقشوا، ويلخصوا الكتب، وينظروا فيها، وهذا ينفع إن شاء الله.

والنية الصادقة كفيلاً بأن تنير الطريق لصاحبها، كما جاء في القرآن: ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]. فالنية لها دور، ولها أثر في التوفيق إلى حسن العمل إن شاء الله، وقد جاء عن سالم بن عبد الله: من تمت نيته تم عون الله له، ومن نقصت نيته نقص عون الله بقدرها^(٤).

الطريق واضح إذن، والذين يعملون للإسلام موجودون، ومن بحث عنهم وجدهم، ووضع يده في أيديهم، ليسير الجميع في درب رسول الله ﷺ وخلفه، فلا نجاة إلا بالسير وراء رسول الله ﷺ.

بين يدي شهر رمضان:

السؤال الثالث: يحلُّ بعد أيام شهر رمضان المبارك، وكان لرسول الله ﷺ هدي مبارك في هذا الشهر الكريم، نرجو توضيح هدي رسول الله ﷺ في شهر رمضان المبارك؟

الجواب: لا شك أن شهر رمضان موسم من أعظم مواسم الطاعات، وفرصة من أعظم الفرص، يجب على المسلم أن يغتنمها، وقد كنّا نتحدث

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٩٣/٨).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٠٠/٣)، والبيهقي في المدخل (٣٠).

(٣) رواه الطبراني (٣٣٩/١١) مرفوعاً. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٤٠): رجاله مؤثّقون.

عزاه البخاري لابن عباس موقوفاً من قوله، في القراءة خلف الإمام ص ١٤، تحقيق فضل الرحمن الثوري، نشر المكتبة السلفية، ط ١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٤) إحياء علوم الدين (٣٦٤/٤).

قبل قليل عن التجارة المنجية المربحة، ولكلّ تجارة موسمها، فتجّار القطن لهم موسم، وتجّار الخضار لهم موسم، وتجّار الفاكهة لهم موسم، كل هؤلاء ينتظرون مواسمهم ليضاعفوا فيها نشاطهم، ويستزيدوا من الربح.

وكذلك لأصحاب التجارة المربحة موسمهم، أصحاب التجارة التي لن تبور، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ * لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿[فاطر: ٢٩، ٣٠]، وشهر رمضان موسمٌ من مواسم المتّقين، ومُتَجَرٍّ من متاجر الصالحين، ولهذا ينبغي أن نضاعف فيه النشاط، اقتداءً برسول الله ﷺ.

حسن الصيام:

فرض الله ﷻ علينا الصيام في رمضان، فعليّنا أن نصومَه إيمانًا واحتسابًا، تصديقًا بما عند الله، واحتسابًا للأجر من الله، لا نصوم رمضان لمجرّد العادة، لأنّ أهل البلد يصومون رمضان، فنحن نصوم مثلهم، بل نريد أن نصوم صوم الإخلاص، أن تصوم الجوارح، «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»^(١)، «ربّ صائم ليس له من صيامه إلّا الجوع، وربّ قائم ليس له من قيامه إلّا السهر»^(٢). تجوع وتعذب نفسك ولسانك طوال النهار مثل المنشار، يروح فيأكل، ويغدو فيأكل، وعينك تلتهم الغاديات الرائحات، إلى آخر هذه المعاصي التي يقتربها الإنسان بجوارحه، وفي هذا تضييع للصيام.

(١) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٣)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٨٨٥٦)، وقال مخرّجوه: إسناده جيد. وابن ماجه (١٦٩٠)، والحاكم (٤٣١/١)، وصحّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، كلاهما في الصوم، عن أبي هريرة.

ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أنَّ من ارتكب المعاصي، فقد أفطر إبطارًا حقيقياً، كما جاء عن عمر، وأبو ذر وأبو هريرة، وأنس، وجابر، وعلي رضي الله عنه ^(١)، وهو مذهب الظاهرية ^(٢)، أنَّ المعاصي تفسر الصائم إبطارًا حقيقياً، كأنه أكل وشرب، يعني أنَّ عليه أن يقضي ويصوم يوماً بدل هذا اليوم. وقد جاء في الحديث: «الصومُ جُنَّةٌ، ما لم يخرقها» ^(٣). قال أبو محمد (يعني الدارمي): يعني بالغيبة ^(٤). ومن أجل ذلك كان سلف الأمة الصالحون يهتمون بالصوم عن اللغو والحرام، كما يهتمون بالصوم عن الشراب والطعام. قال عمر رضي الله عنه: ليس الصيام من الشراب والطعام وحده، ولكنه من الكذب والباطل واللغو ^(٥). وروي عن عليٍّ مثله ^(٦). وعن جابر قال: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمآثم، ودع أذى الخادم، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صيامك، ولا تجعل يوم فطرك ويوم صيامك سواء ^(٧). وقال أبو ذر لطريق بن قيس: إذا صمت فتحمظ ما استطعت. فكان طليق إذا كان يوم صيامه دخل، فلم يخرج إلا إلى صلاة ^(٨). وكان أبو هريرة وأصحابه إذا صاموا جلسوا في المسجد وقالوا: نطهر صيامنا ^(٩).

(١) روى هذه الآثار كلها ابن حزم في المحلى (٣٠٦/٤، ٣٠٧)، نشر دار الفكر، بيروت.

(٢) المحلى (٣٠٤/٤).

(٣) رواه أحمد (١٦٩٠)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والنسائي (٢٢٣٣)، وابن خزيمة في الصيام (١٨٩٢)، عن أبي عبيدة بن الجراح.

(٤) رواه الدارمي في الصوم (١٧٧٣).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في الصيام (٨٩٧٥).

(٦) المصدر السابق (٨٩٧٧).

(٧) المصدر السابق (٨٩٧٣).

(٨) المصدر السابق (٨٩٧٠).

(٩) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٨٢/١).

وأما جمهور العلماء: فرأوا أنَّ المعاصي لا تُبطل الصوم، وإنَّ كانت تخذشه وتصيب منه، بحسب صغرها أو كبرها؛ وذلك أنَّ المعاصي لا يسلم منها أحد، إلا من عصم ربك، وخصوصًا معاصي اللسان؛ ولهذا قال الإمام أحمد: لو كانت الغيبة تفطر ما كان لنا صوم^(١). والإمام أحمد هو مَنْ هو في ورعه، وزهده، وتقواه، فماذا يقول غيره؟! فجمهور العلماء على أنَّ المعاصي لا تبطل الصوم، كالأكل والشرب، ولكنها قد تذهب بأجره، وتضيع ثوابه.

والحقُّ أنَّ هذه الخسارة لا يستهين بها عاقل، إنَّما يستهين بها الأحمق، الَّذي يجوع ويعطش، ويحرم نفسه من شهواتها، ثم يخرج في النهاية وقد صار رصيده من الصوم صفرًا من الحسنات.

يقول الإمام أبو بكر بن العربي - في شرح حديث: من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه: مقتضى هذا الحديث: أن من فعل ما ذُكر لا يُثاب على صيامه، ومعناه أن ثواب الصيام لا يقوم في الموازنة بإثم الزور وما ذكر معه^(٢).

ومن هنا كان على العاقل أن يحرص على أن يصوم لسانه، ويصوم سمعه، ويصوم بصره، وتصوم جوارحه كُلُّها عمَّا حَرَّمَ الله، فإحسان الصيام شيء مهم.

حسن القيام:

ثمَّ من ناحية أخرى عليه أن يحسن القيام، ف«من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»^(٣). ويتحقَّق القيام بصلاة التراويح،

(١) سبل السلام للصنعاني (٥٧٠/١)، نشر دار الحديث.

(٢) عارضة الأحوذى (٢٢٩/٣)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) مُتَّفَقٌ عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٩)، عن أبي هريرة.

ولكن كيف نصلي التراويح، صلاة حقيقية، فيها الخشوع والخضوع لله تعالى، ونحقق الحكمة منها، وهي إقامة ذكر الله، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]؟

لقد رأيت أناسًا يصلون التراويح، مسرعين مهرولين، لا خاشعين متأنين، وقد كنت قديمًا أصلي في قريننا وأنا صغير وراء الإمام، وكان للأئمة مذاهب في ذلك، فإمام يصلي بأوائل الأرباع من سورة البقرة، فيقرأ في الركعة الأولى: ﴿الْمَ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ...﴾ [البقرة: ١ - ٢٥]. ثم يقرأ في الركعة الثانية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ...﴾ [البقرة: ٢٦ - ٤٣]. ثم يقرأ في الركعة الثالثة: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وهكذا في باقي الركعات.

ثم جاء بعد ذلك إمام آخر، فكان يصلي التراويح عشر ركعات بسورة الضحى، ثم يصلي العشرة الثانية بنفس السورة، يقرأ آية واحدة في كل ركعة، ويسرع في الركوع والسجود، كأن سوطًا يلهب ظهره، فقلت لهم، وقد بدأت أقرأ في كتب السنة: أليس أفضل من هذا أن نصلي ثمان ركعات متقنة، فهي أفضل من عشرين ركعة بهذه الطريقة. وقلت لهم أيضًا: نحن لا نريد أن ندخل في خلاف وجدال حول عدد الركعات: أهى عشرون أم ثمان؟ وهل هذا عمل الرسول أم عمل عمر؟ فلا يستطيع أحد أن يقول: إن الثماني ركعات غير مقبولة، وأنها غير واردة. فهذا ما روي عن رسول الله ﷺ. فنحن في الواقع أمام مشكلة الإلتقان وعدم الإلتقان، ونريد أن نصلي ثماني ركعات متقنة، نقرأ فيها قدرًا معتدلًا من كتاب الله،

ونعطي لأعمال الصَّلَاة حَقَّها من الطمأنينة والخشوع، خاصة أننا في شهر العبادة من تقَرَّب فيه بخَصْلَةٍ من الخير كان كمن أدَّى فريضة فيما سواه، ومن أدَّى فيه فريضة كان كمن أدَّى سبعين فريضة فيما سواه. فاجعلونا نستفيد من الخيرات في هذا الشهر الكريم.

فقبل الناس ذلك - جزاهم الله خيرًا - وصليت بمجموعة منهم، ظلت تتزايد ليلة بعد ليلة، حتى صار العدد كبيرًا في نهاية الشهر، فنحن نريد أن نحسن القيام، بدلًا من صلاة الخطف التي ينقرها الناس نقر الدَّيكة.

الاستكثار من الحسنات:

وأريد أن أسأل سؤالا: ماذا يفعل الناس بعد خروجهم من صلاة التراويح؟ يجلس الناس للسَّمر، والقيْل والقال، ومشاهدة الأفلام والمسلسلات، ونحن نريد أن نزيد رصيدنا عند الله من الحسنات.

قراءة القرآن والاستماع إليه:

وكان من هدي النَّبي ﷺ في رمضان الإكثار من قراءة القرآن، وكان ﷺ يقرأه مع جبريل، ورمضان شهر القرآن، ولهذا ينبغي أن نكثر من قراءته، فمن يستطيع أن يقرأ يفتح المصحف ويقرأ، ومن لا يستطيع القراءة يستمع المصحف المرتل، سواء من الإذاعة أو التلفاز، وهناك وسائل أخرى لهذا الاستماع.

الإكثار من الذُّكْرِ:

وشهر رمضان - كذلك - شهر الذكر، فيجب الاستكثار من التَّهليل، والاستغفار، وبعد ذلك تسأل الله الجنة، وتستعيد به من النار، هذا ما يجب أن نحرص عليه.

التصدق وإفطار الصائمين:

أيضًا ممَّا ينبغي أن نحرص عليه: أن نزيد في الإحسان، فقد كان رسول الله ﷺ أجودَّ الناس، وكان أجودَّ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كلِّ ليلةٍ من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المُرْسَلة^(١).

من أهداف الصيام أن يحسَّ الإنسان بجوع الجائعين، وحرمان المحرومين، وآلام المتألمين، ولذلك يجود على الناس، قال رسول الله ﷺ: «من فَطَرَ صَائِمًا كان له مِثْلُ أَجْرِهِ، غير أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ من أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا»^(٢). فلنحرص أيضًا على هذا.

ومما ينبغي أن نحرص عليه أيضًا، إذا كان عندنا أناسٌ يعملون معنا، أو عندنا كالخدم والموظفين، أن نخفف عنهم.

الاجتهاد في العشر الأواخر:

ومما ينبغي أن نحرص عليه في رمضان: الاجتهاد في العشر الأواخر منه، نضاعف النشاط فيها، فقد كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شدَّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله^(٣). فشُدِّ المئزر كنايةً عن زيادة النشاط، وأحيا ليله كله بالطاعة، وأيقظ نساءه ليشاركه في الخير، فمن السُّنَّة أن يوقظ الإنسان امرأته وأبناءه للصلاة والذكر والطاعة، والتعرض لنفحات الله في هذه الليالي.

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في بدء الوحي (٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٨)، عن ابن عباس.

(٢) رواه أحمد (٢١٦٧٦)، وقال مخرَّجوه: حسن لغيره. والترمذي (٨٠٧)، وقال: حسن صحيح.

وابن ماجه (١٧٤٦)، والنسائي في الكبرى (٣٣١٧)، ثلاثتهم في الصيام، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب (١٠٧٨)، عن زيد بن خالد الجهني.

(٣) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف (١١٧٤)، عن عائشة.

وكذلك يوقظ امرأته وأبناءه ليتسحروا، فإنَّ في السحور بركة، ليست بركة في الأكل فقط، والأكل مطلوب لأنَّه يقوي على الصيام، ولكنها بركة ساعة السحر، ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]. ساعة التجلي التي ينزل الله تعالى فيها إلى عباده وينادي عليهم: «هل من سائل يُعطى؟ هل من داع يُستجاب له؟ هل من مُستغفر يُغفر له؟ حتَّىٰ ينفجر الصبح»^(١).

فلنستفد من هذا كله، وخاصة في العشر الأواخر التي تلمس فيها ليلة القدر، كما جاء في الحديث: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان في الوتر»^(٢). وكان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، ولمَّا لحق بالرفيق الأعلى، اعتكف أزواجه من بعده، فالاعتكاف سنة، وقد كانت من قبل سنة ميّنة، حتَّى أحيّاها كثيرٌ من الشباب المؤمن في هذا العصر والحمد لله، فأصبحوا يعتكفون في المساجد، فهذا بعض هدي رسول الله ﷺ في رمضان، فلنحرص عليه كله.

حُظُّ المرأة من رمضان:

هناك شيء آخر أريد أن أنبّه عليه في شهر رمضان، أريد أن يكون للمرأة المسلمة حظٌّ من هذا الشهر، حبذا لو جُعِل في كل مسجد مكان معيّن لصلاة النساء، وإنْ أمكن في المساجد غير المجهزة - أنْ توضع ستارة صغيرة لهذا الغرض، لأنَّ بعض الناس يفعلون يضعون ستارة طويلة، فعندما يسجد الإمام في سجدة التلاوة يتحيّر النساء في متابعة

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨)، عن أبي هريرة.

(٢) مُتَّفَقٌ عليه: رواه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠١٦)، ومسلم في الصيام (١١٦٧)، عن أبي

سعيد الخدري.

الإمام، مع أنَّ مسجد النبي ﷺ لم يكن فيه أي ساتر، بل كان النساء في آخر الصفوف، وكان الرجال في أولها، فلنجعل للنساء حظًا من بيوت الله تعالى، خاصّة في هذا الشهر الكريم، حتى يتعلّموا الصلاة.
ربما يقول البعض: فليصلين في البيت.

وأقول: مَنْ تصلّي الآن التراويح في البيت؟ أنا في قطر قلت لهم: نريد النساء أَنْ تأتي إلى المسجد، وجاءت المرأة، وحضرت الصلّاة، وحضرت درس العلم، وسمعت ثلاثين درسًا في رمضان، هذا أمر بالغ الأهمية لنسائنا وبناتنا، ولا ينبغي أَنْ نحرم المرأة من المساجد، ففي الحديث الصحيح: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»^(١).

وقد انتهى الزمن الذي كان يقال فيه: لا تخرج المرأة إلى المسجد، إلّا إذا كانت عجوزًا شمطاء، أكل الدهر عليها وشرب. لقد خرجت المرأة الآن إلى المدرسة، وخرجت إلى الجامعة، وخرجت إلى السوق، وتخرج إلى كلّ مكان، فلم يبق إلّا أَنْ تخرج إلى المسجد، فلا معنى لأنْ تُحْرَم منه، فينبغي أَنْ يكون للمرأة المسلمة حظٌّ من المسجد دائمًا، وخاصة في شهر رمضان.

أسأل الله ﷻ أَنْ يختم لنا بالإيمان، وأن يجعلَ يومنا خيرًا من أمسنا، وغدنا خيرًا من يومنا، وأن يغفرَ لنا ما مضى، ويصلحَ لنا ما بقي، وأن يتوبَ علينا توبة نصوحًا، وأن يجعلنا من ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في الجمعة (٩٠٠)، ومسلم في الصلاة (٤٤٢)، عن ابن عمر.



شروط النجاة من الخسران في ضوء سورة العصر^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله ربُّه بالهدى ودين الحق، ليُظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسُنَّته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أُحْيِيكُمْ به - أيُّها الإخوة - تحيةُ الإسلام، وتحيةُ الإسلام السَّلام، فالسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأحمد الله تبارك وتعالى أنْ جمعني بكم في هذه الليلة المباركة، وفي هذا المكان المبارك، في هذا المسجد الطَّيِّب؛ لنتقي دائماً على خير، ولقاء المؤمنين دائماً على خير، كما جاء في حديث سلمان،

(١) أُلقيت بمركز الملك فيصل، في مدينة الرياض، السعودية، في نوفمبر ١٩٨٧م.

موقوفاً: «مَثَلُ الْأَخَوَيْنِ الْمُؤْمِنَيْنِ كَمَثَلِ الْيَدَيْنِ، تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَمَا التَّقَى مُؤْمِنَانِ قَطُّ؛ إِلَّا أَفَادَ اللَّهُ أَحَدَهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ خَيْرًا»^(١). ولذلك نلتقي، ونطمع أن يفيدنا الله من هذا اللقاء خيرًا، كما هو شأن المؤمنين دائماً.

الإنسان الصالح:

كنت أتحدث اليوم مع الإخوة في كلية التربية، فقلت لهم: إنَّ الذي نحتاج إليه في أمتنا العربيَّة والإسلاميَّة، والذي ينبغي أن يتَّجه إليه الدُّعاة والمُربُّون، والذي ينبغي أن يحرص عليه كل من يهتم أمر هذه الأُمَّة، كل المؤسَّسات: المساجد، والمدارس، والجامعات، وأجهزة الإعلام، كل ذي سلطان في سلطانه ينبغي أن يحرص على هذا الأمر الأساسي، وهو «بناء الإنسان الصالح»، يجب أن تحرص مناهج التربية، ومساجد الجُمع والجماعات، والأجهزة الإعلاميّة والتعليميّة على بناء الإنسان الصالح، الإنسان الناجي في سورة العصر.

وقد سألني بعض الإخوة: ما المقصود بالإنسان الناجي في سورة العصر، الذي ينبغي أن نحرص عليه؟

فقلت له: هو المذكور في هذه السورة الوجيزة الجامعة، التي قال فيها الإمام الشافعي: لو عمل بها الناس لوسعتهم، أو لكفتهم^(٢). السورة التي تكتب في أقل من سطرين: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

(١) رواه ابن وهب في جامعه (٢٠١)، تحقيق مصطفى أبو الخير، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٢٨٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٠٣/١).

قيمة الوقت:

﴿وَالْعَصْرِ﴾، أقسم الله بالعصر، كما أقسم بالفجر، والضُّحى، والليل والنهار، أقسم الله بهذه الأجزاء من الزمن ليدُلِّنا على قيمة الوقت؛ فالله إذا أقسم بشيء فإنما يريد أن يلفت الأنظار إليه، وينبِّه العقول عليه، فأقسم بالعصر، وهو إما وقت صلاة العصر، أو هو العصر مفرد عصور، وهو على كلِّ حال يقسم بالزمن، وهذا يلفت أنظارنا نحن المسلمين؛ لأننا كثيرًا ما نُفَرِّط في الزمن، ونُفَرِّط في الوقت، وكثيرًا ما نسمع بعض الناس يقولون: تعالوا نقتل الوقت. ولا يدري هذا الأحق أنه حينما يقتل وقته إنَّما يقتل نفسه، ينتحر انتحارًا بطيئًا، وللأسف قَتَلَة الوقت لا يُعاقبون، والوقت.

ما حياتك أيُّها الإنسان؟ حياتك هي الوقت الذي تُقْضيه من المهد إلى اللحد، من صرخة الوضع إلى أنة النَّزْع، من يوم أن تُولَد إلى يوم أن تموت، هذه هي حياتك، فحينما تقتل وقتك فإنما تَهْدُ جدارًا من حياتك، ولذا كان الإمام الحسن البصري يقول: يا ابن آدم، إنَّما أنت أيَّام مجتمعة، كلِّما ذهبَ يومٌ ذهبَ بعضك^(١). ومن هنا أقسم القرآن في سور متعددة بجزء من الوقت ليلفتنا إليه.

شروط النجاة من الخسران:

﴿وَالْعَصْرِ﴾ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿١﴾، الألف واللام في ﴿الْإِنْسَانِ﴾، للجنس أو الاستغراق، فكل إنسان في خُسْرٍ وضياح في الدنيا والآخرة إذا تُرك وحده، إذا تُرك لغريزته، لهواه، لعقله وحده، فلا بدَّ من شيء يُسَدِّد خطاه، ولهذا كان الوحي، ولهذا كانت النُّبُوءات، ومن هنا فالإنسان خاسرٌ

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٨/٢).

إذا لم يَسِرْ في الطريق الذي رسمته النبوة، ومن هنا كان الاستثناء: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، فهناك شروط أربعة لنجاة الإنسان من خُسْر الدنيا والآخرة:

(١) الإيمان:

أول هذه الشروط وأعظمها وأساسها: هو الإيمان، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، والقرآن عادة يذكر ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ولا يذكر المؤمن به، بأي شيء آمنوا؛ لأنَّ الإيمان القرآني أصبح معروفاً، هو إيمان بالله وكفران بالطاغوت، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، الإيمان بالله وحده، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وكلها من متعلقات الإيمان بالله، فالإيمان بالله هو أساس الجميع، ومحور كل أركان الإيمان، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، والإيمان باليوم الآخر يعني: الإيمان ببلقائه، وحسابه، جزائه. ولذلك كان الإيمان بالله أساس كل شيء، ولكي ينجو الإنسان من الخُسران يجب أن يسلك سبيل الإيمان، ويتبع سبيل المؤمنين.

إنَّ الإيمان هو مصدر النجاة في الدنيا والآخرة، فالمؤمن لا ينجو في الآخرة فقط، بل ينجو في الدنيا، والإيمان ليس مصدر السعادة في الآخرة فقط، بل مصدر السعادة في الدنيا نفسها.

الإيمان مصدر الأمن:

إنَّ الإيمان مصدر الأمن للإنسان، فإذا آمن بالله شعر بالأمن النفسي، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. حين نزلت هذه الآية فزع الصحابة، فقد ظنوا

أَنَّ الْإِيمَانَ يَنَافِي أَيَّ مَعْصِيَةٍ، فَسَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَا لَمْ يَظْلَمَ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ: «لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ - إِنَّهُ لَيْسَ كَمَا فَهَمْتُمْ - أَمَّا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: ﴿يَبْنِي لَا شُرَكَ بِاللَّهِ إِنْ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»^(١). فَمَعْنَى ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أَي: لَمْ يَخْلُطُوا تَوْحِيدَهُمْ بِشُرْكَ. صَفَّوْا عَقِيدَتَهُمْ مِنْ شَوَائِبِ الشَّرْكَ.

ويدلُّ على هذا المعنى أَنَّهُ جَاءَ تَعْقِيْبًا عَلَى قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَما خَوَّفَهُ قَوْمُهُ بِالْأَصْنَامِ أَنْ تَنَالَ مِنْهُ وَتَوْذِيهِ، فَقَالَ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]. مِنَ الَّذِي أَحَقُّ بِالْخَوْفِ: الْمُؤْمِنُ الْمُوَحِّدُ، أَمْ الْمَشْرِكُ؟ ثُمَّ جَاءَ هَذَا التَّعْقِيبُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، فَالْإِيمَانُ مُصَدَّرُ الْأَمَانِ.

الإيمان مصدر السكينة:

وَالْإِيمَانُ - أَيْضًا - مُصَدَّرُ الطَّمَأْنِينَةِ وَالسَّكِينَةِ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وَيَقُولُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وَلِذَلِكَ تَجَدُّ صَاحِبُ الْإِيمَانِ هَادِتًا وَإِنْ اضْطَرَبَ النَّاسُ، رَاضِيًا وَإِنْ سَخِطَ النَّاسُ، مُطْمَئِنًّا وَإِنْ قَلِقَ النَّاسُ، مُبْتَسِمًا لِلْحَوَادِثِ وَالْكَوَارِثِ، وَإِنْ عَبَسَ النَّاسُ، آمِلًا فِي غَدٍ أَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنْ يئَسَ النَّاسُ، تَضَطَّرِبُ سَفِينَةُ الْحَيَاةِ مِنْ حَوْلِهِ، وَيَحِيطُ بِهَا الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَلَكِنَّهُ وَاضِعُ يَدِهِ فِي يَدِ اللَّهِ، مُطْمَئِنٌّ إِلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: الْبُخَارِيُّ فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ (٣٣٦٠)، وَمُسْلِمٌ فِي الْإِيمَانِ (١٢٤)، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ.

لقد كان النبي ﷺ في الغار، والمشركون على بابه، فقال أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. فقال له: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(١). هذا هو شأن الإنسان المؤمن.

وحين خرج موسى ﷺ مع قومه، وأدركه فرعون وجنوده، وصار البحر من أمامهم، والعدو من خلفهم، ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، لا مفر، هنا قال موسى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، انظروا، من مشكاة واحدة، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعْنَا﴾، فالإيمان سَكِينَةٌ.

الإيمان مصدر السعادة:

والإيمان - كذلك - مصدر السعادة للإنسان، فالناس الذين يبحثون عن السعادة في المال، أو في الجاه، أو في المناصب، أو في إرضاء البشر لا يجدونها؛ فالسعادة الحقيقية في إرضاء الله، وليست في إرضاء البشر، مَنْ تُرْضِي مِنَ الْبَشَرِ وَمَنْ تُسْخِطُ؟ كما قال الشاعر:

إِذَا رَضِيتَ عَنِّي كِرَامُ عَشِيرَتِي فَلَا زَالَ غَضَبَانَا عَلَيَّ لِنَائِمِهَا^(٢)

وكما قال آخر:

وَمَنْ فِي النَّاسِ يُرْضِي كُلَّ نَفْسٍ وَبَيْنَ هَوَى النَّفُوسِ مَدَى بَعِيدٍ^(٣)؟

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، كلاهما في فضائل الصحابة، عن أبي بكر الصديق

(٢) البيت لأبي العيناء محمد بن القاسم قاله للمتوكل العباسي، كما في محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٤٧١/١)، نشر شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

(٣) من شعر ناصيف اليازجي.

لذلك قالوا: رضا الناس غاية لا تُدرك. ولذلك أنا أريح نفسي وأرضي الله، فهو كفيلاً بأن يُرضي عني العباد، وسواء رضي العباد أم سخطوا، فحسبي أن أَرْضِي الله وَجَلَّ، كما قال الشاعر:

فليت الذي بيني وبينك عامراً وبينني وبين العالمين خراباً
وليتك تحلوا والحياء مريّة وليتك ترضى والأنام غضاباً
إذا صحّ منك الودّ فالكُلُّ هينٌ وكلُّ الذي فوق الثُّرابِ تُرابٌ^(١)

هذه الأبيات قالها أبو فراس الحمداني يمدح بها سيف الدولة، فجاء الصالحون من بعده وقالوا: هذا كلام لا يجوز أن يخاطب به إلا الله، وقد اشتهر أن رابعة العدوية قائلة هذه الأبيات، مع أنها قتلت بعدها بمدة طويلة جداً، ومن هنا فالإيمان هو مصدر السعادة لصاحبه.

لا وساطة بين الله وخلقه:

إِنَّ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿قَدْ صَحَّتْ عَقِيدَتُهُمْ، وَصَحَّ تَوْحِيدُهُمْ، وَوَصَلُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ بِحَبَالٍ مَتِينَةٍ لَا تَنْقُطُ، وَبَابُ اللَّهِ تَعَالَى مَفْتُوحٌ لِلْعِبَادِ، لَيْسَ عَلَيْهِ حَاجِبٌ وَلَا بَوَّابٌ، فَالَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ يَحْتَاجُ إِلَى وَسْطَاءٍ مِنْ خَلْقِهِ وَاهْمُونَ؛ لِأَنَّهُمْ يَقِيسُونَ الْخَالِقَ عَلَى الْمَخْلُوقِينَ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ مِثْلَ السَّلَاطِينِ الْمُسْتَبَدِّينَ، وَالْمُلُوكِ الْجَائِرِينَ، لَا يُمْكِنُ الْوَصُولُ إِلَيْهِ إِلَّا بِوَسَائِطٍ، وَالْوَسَائِطُ يُلْزِمُهَا وَسَائِطٌ، لَا؛ فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) ديوان أبي فراس الحمداني (٢٤/٢، ٢٥)، جمع سامي الدهان، نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٤٤م.

وحينما كان المشركون أنفسهم في السفينة، وأوشكوا على الهلاك، دعوا الله فاستجاب لهم، كما ذكر الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكُمْ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]. استجاب الله لهم، وهم مشركون؛ لأنهم ساعة الشدة أذابت عنهم الطلاء الكاذب، فرجعوا إلى الفطرة، والفطرة هي التوحيد، ولذلك يقول الله عنهم: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. لم يدعوا هبل، ولا اللات، ولا العزى، ولا أمثاله، ولكن قالوا: يا رب. فاستجاب الله لهم.

ومن هنا ليس الله في حاجة إلى وسطاء، قل: يا رب. يقل لك: لبيك عبدي وسعديك. حتى لو كنت عاصياً، فالعاصي يستطيع أن يلجأ إلى الله في أي وقت، وهو يناديه ويؤمل في رحمته: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

انظروا، ما ألطف! وما أندى! وما أرق هذه العبارة! ﴿يَاعِبَادِيَ﴾. هؤلاء مسرفون، ظالمون، عصاة، ولكن ربهم يقول لهم: ﴿يَاعِبَادِيَ﴾. فهم عباده رغم إسرافهم على أنفسهم.

ومن هنا فإن كل داعية يئس الناس من روح الله ليس بداعية، وفي الحديث: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا»^(١)، هذا هو المطلوب، فالباب مفتوح، ولا داعي أبداً لوسائط، إن إبليس نفسه دعا ربه فاستجاب له، ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٤﴾ [الأعراف: ١٤، ١٥]. فالذين يظنون أن أبواب الله بعيدة، وأن الناس يحتاجون إلى وسائط للوصول إليه مخطئون.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤)، عن أنس.



التوحيد روح الإيمان:

الإيمان إذن هو أول شروط النجاة من الخسران، وروح الإيمان هو التوحيد، ألا ترجو إلا الله، ولا تخشى إلا الله، فلا تطلب شيئاً من مخلوق، حيّاً أو ميتاً، فهناك أناس يُركزون على عبادة الموتى، ونحن لا نريد أن نعبد الموتى، ولا أن نعبد الأحياء، لا نريد عبادة القبور، ولا عبادة القصور، فعبادة القبور من شرك العوام، وعبادة القصور من شرك الخواص، وكلا الشركين مرفوض.

التوحيد عِزَّة:

إنَّ التوحيد يرفع الجباه فلا تُطأطئ لغير خالقها، ويُعلي الرؤوس فلا تنحني إلا لباريها، هذا هو ما صنعه الإسلام، صنع أُمَّة عزيزة، حينما دخل ربيعي بن عامر على رستم قائد الفرس، قال له رستم: من أنتم، وما مهمتكم؟ ما الذي جعل هؤلاء يخرجون من جزيرة العرب إلينا نحن الفرس؟ والفرس حينذاك مثل روسيا الآن، والروم مثل الأمريكان، فهم قد خرجوا ليحاربوهما في وقت واحد، فقال له العربي البسيط، الذي لم يدخل جامعة، ولم يجلس إلى بروفيسور: نحن قوم ابتعثنا الله؛ لنُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام^(١). لقد لخص فلسفة الإسلام، وأهدافه الكبرى في هذه الكلمات القلائل، وهذا ما ينبغي أن نعرفه.

الشرط الأول - إذن - للنجاة من الخسران هو الإيمان، وروح الإيمان هو التوحيد الحق، بمعناه الشامل العميق.

(١) رواه الطبري في تاريخه (٥٢٠/٣).

(٢) العمل الصالح:

الشرط الثاني لنجاة الإنسان من الخسران هو العمل الصالح، فلا بدَّ أن يُثمر الإيمان الحقيقي عملاً، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ *، ولا نريد أن ندخل ميدان الجدل بين المتكلمين، وبين الفرق المختلفة: هل العمل جزء من الإيمان، أم هو شرط له؟ وهل هو شرط وجود، أم شرط صحة، أم شرط كمال؟ إلى آخره، فالمهم أن الإيمان الحق لا بدَّ أن يُثمر عملاً، ولا يُتصور الإيمان بغير عمل، والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، والقرآن يقرن الإيمان بالعمل في عشرات الآيات، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ * . فلا بدَّ من عمل.

وأَيُّ عمل لا بدَّ منه؟ إنَّه عمل الصالحات، والصالحات كلمة قرآنية جامعة، هي ما يصلح به الفرد، وما يصلح به الأسرة، وما يصلح به الجماعة، وما يصلح به الإنسانية، فهي تشمل صالحات الدين، وصالحات الدنيا، فالعبادات، والشعائر الدينيَّة، الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج، وذكر الله، وتلاوة القرآن، إلى آخره، كلها من صالحات الدين، ومن صالحات الدنيا: عمارة الأرض، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. فعلينا أن نقوم بحق الخلافة التي رُشِّحنا لها في هذه الأرض، أن نُعمرها، ونُجملها، ونحيي مواتها، هذا ما ينبغي علينا، فالصالحات تشمل هذا كله.

المسلم إذن مطالب - إلى جانب الأعمال الدينيَّة - بأنَّ يعمر الدنيا، وهذا ما صنعه المسلمون، فأقاموا حضارة شامخة الذرى، جمعت بين العلم والإيمان، بين الإبداع المادي والسموِّ الروحي، بين التقدُّم العلمي

أو التكنولوجي والأخلاق والفضائل، فالحضارة الإسلامية حضارة جامعة؛ لأنَّ الإسلام دين ودنيا وآخرة، ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

والمسلم مِعْطَاءٌ، منتج، إلى آخر رمق في حياته، كما في الحديث الشهير: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ إِلَّا تَقَوْمَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»^(١). لماذا يغرس هذه النخلة الصغيرة والساعة تقوم؟ هل سيأكل منها؟ لا، بل الأمر كما سئل شيخ كبير: لماذا تزرع وأنت على حافة القبر؟ فقال: غرس لنا من قبلنا فأكلنا، ونغرس ليأكل من بعدنا. ولكن الذي يغرس والقيامة ستقوم لن يأكل منها أحد، فلمن يغرس؟ هذا يعني أنَّ مهمة المسلم العمل والعطاء، فهو يظلُّ عاملاً حتى في آخر نفسٍ تلفظه الحياة، هذا هو الإسلام.

وللأسف يكتب بعض الناس من الخواجات، وممَّن عاشوا في بلاد المسلمين: أنَّ الدين الإسلامي سبب في تأخر المسلمين. بالعكس: سبب تأخر المسلمين هو ترك الدين الإسلامي، أو سوء فهمه له، فهناك للأسف من أساءوا فهمه، فَقَصَرُوهُ عَلَى أُمُورٍ مُعَيَّنَةٍ، وتركوا سائر شُعْبِهِ، «الإيمان بضْعٌ وسبعون شعبة»^(٢)، لكنَّهم تمسكوا بشعبةٍ أو اثنتين، وتركوا باقي الشُّعْبِ دون أنْ يهتموا بها، ولذلك نريد أن نُوعِّي الناس ونُفَهِّمهم أنَّ الإسلام دين شامل، دين الحياتين معاً، وهو الذي يجمع الإنسان به بين الحسنيتين: حسنة الدنيا، وحسنة الآخرة، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فعمل الصَّالِحَاتِ هو الشرط الثاني لنجاة الإنسان من خُسْر الدنيا والآخرة.

(١) رواه أحمد (١٢٩٨١)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة (٢٧١٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩)، عن أنس.

(٢) متَّفَقٌ عليه: رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٣) التَّوَّاصِي بِالْحَقِّ:

الشرط الثالث لنجاة الإنسان من الخسران هو التَّوَّاصِي بِالْحَقِّ، فبعد أن يؤمن الإنسان ويعمل صالحًا عليه أن يهتم بإصلاح غيره، فلا يكتفي بصلاح نفسه حتَّى يعمل على صلاح غيره، ﴿وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، هذا هو شأن الإنسان المسلم، أن يصلح نفسه ويدعو غيره، لا يقول: أنا، وليخرب العالم، أنا مهمتي أن أكون إنسانًا صالحًا في نفسي، فاضلاً في ذاتي، وما عليّ من الناس.

لا؛ فالأُمَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ أُمَّةُ رِسَالَةٍ، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وفي تقديم الأمر والنهي على الإيمان دلالة على أنه ممَّا يميِّز الأُمَّةَ الإِسْلَامِيَّةَ أَنَّهَا أُمَّةُ دَعْوَةٍ، فالمسلم داعية أمرٍ ناهٍ، وكلُّ مسلم مخاطبٌ بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]. والله تعالى يقول لرسوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]. فكل من اتَّبَعَ رسولَ اللَّهِ ﷺ فهو داعٍ إلى الله، وداعٍ إلى الله على بصيرة، فالدعوة ليست مقصورة على المشايخ وحدهم، أو على خريجي الكليات الشرعيَّة وحدهم، بل كل مسلم يدعو إلى الله بقدر ما يستطيع، فواحد يدعو فيؤلف كتابًا، وواحد يدعو فيُلقي خطبة أو محاضرة، وواحد يدعو بالكلمة الطيبة، وواحد يدعو بالأسوة الحسنة، وواحد يدعو بحُسن المعاشرة، وواحد يدعو الناس فيصطحبهم إلى المسجد، أو يُهدي إليهم رسالة يقرؤونها، كل هذه ألوانٌ من الدعوة.

المهم أن يعيش المسلم وفي قلبه هداية الآخرين، ودعوتهم إلى الله، هذا هو شأن الإنسان المسلم، ولذلك يقول الله سبحانه:

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾. يعني: إذا رأى المسلم الناس أعرضوا عن الحق فعليه أن يدلّهم عليه، ويهديهم إليه.

وكلمة ﴿وَتَوَاصَوْا﴾، هي تفاعل من الجانبين، كما يقول علماء اللغة. أي أن المسلم يُوصي غيره، ويقبل الوصيّة من غيره، فليس هناك أحد أصغر من أن يوصي، ولا أحد أكبر من أن يوصي، كل إنسان يوصي ويوصى، هذا معنى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، فكل مسلم مسؤول عن هذا الجانب، يدعو ويأمر وينهى، ويوصي الناس بالحق.

معنى الحق:

والحق هو كل ما حقّ وثبت، فالحق ثابت لا يتغير، ومن هنا كان أولى من ينطبق عليه أنه الحق هو الله تبارك وتعالى، فالثابت الذي لا يزول ولا يتغير هو الله جلّ جلاله، ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي تُصَرِّفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠]. ومن لم يعرف هذه الحقيقة في الدنيا سيعرفها في الآخرة، ﴿يَوْمَ يَدْعِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]. فالله هو الحق، ودينه حق، والنبئون حق، والجنة حق، والنار حق، وكل ما شرعه الله فهو حق، وكل ما وعد الله به فهو حق، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]. فالمؤمنون يتواصون بالحق بهذا المعنى.

(٤) التواصي بالصبر:

الشرط الرابع لنجاة الإنسان من الخسران هو التواصي بالصبر، فقد قرن القرآن بين التواصي بالحق والتواصي بالصبر في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. لأن طريق الحق طويل وشاقة، فهي ليست مفروشة

بالورود والرياحين، ولكنها مفروشة بالأشواك، مضرجة بالدماء، كما في الحديث: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(١)، وقد قال الله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۖ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۖ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]. مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَأَصَابَهُمُ الْفَقْرُ وَالْبُؤْسُ، وَمَسَّتْهُمُ الضَّرَاءُ فِي أَبْدَانِهِمْ، بِالتَّعْذِيبِ وَالْجِرَاحِ، وَزُلْزِلُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ الْقُرْآنُ: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۖ﴾ [الأحزاب: ١١]. حَتَّى يَقُولُوا: مَتَى يَأْتِي النِّصْرُ؟ يَسْتَبْطِئُونَهُ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَفَاقُمِ الشَّدَّةِ، فَهَذَا هُوَ شَأْنُ الْحَقِّ.

مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ لَا بَدَّ مِنَ الصَّبْرِ، وَلَا بَدَّ مِنَ التَّوَاصِي بِهِ، تَقُولُ لِأَخِيكَ: اصْبِرْ. وَيَقُولُ لَكَ: اصْبِرْ. كَمَا أَوْصَى لِقْمَانَ ابْنَهُ وَقَالَ: ﴿يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۖ﴾ [لقمان: ١٧]. مَا دُمْتَ سَتَامَرًا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَوَطَّنَ نَفْسَكَ عَلَىٰ أَنَّ الْبَلَاءَ سَيَصِيبُكَ، وَالْأَذَىٰ سَيَنَالُكَ، فَالْحَقُّ لَا بَدَّ لَهُ مِنَ صَبْرٍ، وَصَبْرٌ طَوِيلٌ، وَلِهَذَا أَمَرَ الْقُرْآنُ بِالصَّبْرِ وَالْمَصَابِرَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا ۖ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. صَابِرُوا: أَيِّ غَالِبُوا أَعْدَاءَكُمْ فِي الصَّبْرِ؛ لِأَنَّكُمْ تَصْبِرُونَ عَلَىٰ حَقِّكُمْ، وَهُمْ يَصْبِرُونَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ صَبْرُكُمْ أَطْوَلَ وَأَعْظَمَ مِنْ صَبْرِهِمْ.

(١) رواه مسلم في صفة الجنة (٢٨٢٢)، وأحمد (١٢٥٥٩)، عن أنس بن مالك.



صبر أهل الباطل:

وقد ذكر القرآن أنَّ المشركين كانوا يصبرون على الباطل، ويأمرون بالصبر عليه: ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]. أي أنَّ محمدًا والذين معه يريدون أن ينتزعونا من ديننا وعقيدتنا وآلهتنا، كما حكى القرآن في سورة أخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّوكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤١ - ٤٢]. أوشك بسحر بيانه، وببلاغة دعوته أن يؤثّر فينا، ويضلّنّا عن آلهتنا، ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾، شدّدنا عليها بالقوّة، وعضضنا عليها بالنواجذ، فأهل الباطل يصبرون على باطلهم، وأهل الأوثان يصبرون على أوثانهم، وأهل الإلحاد يصبرون على إلحادهم، وهذا ما نراه في عصرنا.

فالنصارى يصبرون على نصرانيّتهم، يتركون أوروبا وأمريكا، ويأتون إلى أدغال آسيا وأفريقيا، ليعيشوا في الغابات بين القبائل الهمجيّة، والقبائل المتوحشة، يتركون البلاد الباردة ليعيشوا في البلاد الحارّة، يتركون الأزارار (الأوتوماتيكية) ليعيشوا في بلاد لا تهيّأ فيها الاحتياجات الأساسيّة، يصبرون على ذلك لينشروا عقيدة باطلة، كما يقول ابن حزم: لا توجد مقالة أشد بطلانًا من مقالة النصارى: الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة^(١). ومع ذلك يصبرون عليها.

واليهود يصبرون على يهوديّتهم، وقد اجتمعوا من أنحاء العالم، وهم متفرقون، بعد أن قطّعهم الله في الأرض أممًا، ليقيموا دولة في قلب بلادنا العربيّة والإسلاميّة.

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤٩/١)، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة.

والشيوعيون يدخلون السجن من أجل الشيوعية، ويستعذبون العذاب من أجلها، ويقاتلون في أفغانستان ليدخلوا الشيوعية في بلاد الإسلام. وهكذا يجد كل مذهب باطل مَنْ ينصره ويصبر عليه، فأولى بالمسلم أن يصبر على حقه، على دينه، وأن يُغالب الآخرين في الصبر، فيكون صبره أعظم من صبرهم، من هنا كان التواصي بالصبر، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، فطريق الحق طريق طويل، والصبر مُرٌّ لا يتجرّعه إلا حُرٌّ، ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

هذه هي الشروط الأربعة لنجاة الإنسان من خُسران الدنيا والآخرة، كما جاءت في سورة العصر، وقد ورد أن الصحابة رضي الله عنهم، كانوا إذا التقوا وأراد بعضهم أن يتفرّق عن بعض قرؤوا سورة العصر، تأكيداً على معانيها، وتذكيراً بها، فهي عهد وميثاق، ﴿وَالْعَصْرِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ *.

روح الجماعة:

ونلاحظ أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾. ولم يقل: إلا الذي آمن وعمل الصالحات. وإنما جاء بصيغة الجمع: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا﴾، وفي هذا دلالة على أن الإسلام يريد من المسلم ألا يكون وحده، فالإسلام لا يحب الانفراد، «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»^(١). «يدُ الله مع الجماعة»، ومن شدَّ شدَّ إلى

(١) رواه أحمد (٢١٧١٠)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (٥٤٧)، والنسائي في الإمامة (٨٤٧)، والحاكم في التفسير (٤٨٢/٢)، وصحّحه ووافقه الذهبي، وصحّحه النووي في المجموع (١٨٧/٤)، عن أبي الدرداء.

النَّارِ»^(١). ولهذا شرع الإسلام صلاة الجماعة، وقال: «لا صلاة لمُنْفَرِدٍ خلف الصفِّ»^(٢). إذا جاء إنسان ووجد الصفَّ لا يصلي وحده، بل يحاول أن يجد فُرْجة فيه، أو يشدَّ برفقٍ أحدَ المصلين ليصلي معه، كراهةً للشذوذ والانفراد، هكذا يغرس الإسلام فينا هذه الروح الجماعيّة.

وحتى لو صلى المسلم وحده في عقر داره يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ * أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿[الفاتحة: ٥، ٦]. يتكلّم بلسان الجماعة؛

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٧)، وقال: غريب من هذا الوجه. وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٨)، دون قوله: «وَمَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ»، وضعفه النووي في شرح مسلم (٦٧/١٣)، ورواه الحاكم في العلم (١١٥/١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٧/٣)، وقال: غريب من حديث سليمان عن عبد الله بن دينار لم نكتبه إلا من هذا الوجه، وقال المناوي في فيض القدير (٣٤٤/٢): قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: في تخريج المختصر (١٠٩/١)، حديث غريب خرجه أبو نعيم في الحلية واللالكائي في السُّنَّة، ورجاله رجال الصحيح لكنّه معلول، فقد قال الحاكم: لو كان محفوظا حكمت بصحته على شرط الصحيح، لكن اختلف فيه على معتمر بن سليمان على سبعة أقوال، فذكرها وذلك مقتضى للاضطراب والمضطرب من أقسام الضعيف. وقال السخاوي في المقاصد ص ٧١٦: بالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع وغيره.... قال القرضاوي: ولكن هناك من الدلائل ما يشهد لهذا الحديث، منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، فوجود هذه الأمة الهادية بالحق، يمنع أن تجتمع على ضلالة، ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، ومنها قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، ومنها أحاديث الطائفة القائمة على الحق إلى قيام الساعة، التي سماها العلماء: «الطائفة المنصورة»... فليعلم هذا.

(٢) رواه أحمد (١٦٢٩٧)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات. وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٠٣)، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٤٧٤/٤): قال الإمام أحمد: حسن. وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٨٢٢)، عن علي بن شيان.

لأن الجماعة تعيش في ضميره، وحينما يخاطب الله بالتكاليف يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. لا تجد في القرآن: يا أيُّها المؤمن. وإنما يخاطبهم بصيغة الجماعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ ليتضامنوا، ليكونوا متكافلين في تنفيذ أحكام الله وشرائعه.

النَّجاة إذن من خُسران الدنيا والآخرة منوطة بهذه الشروط الأربعة: الإيمان، وعمل الصالحات، والتَّواصي بالحق، والتَّواصي بالصبر، هذه هي مقوِّمات الشخصية الإسلامية التي نريدها، والتي ينبغي أن تتعاون كل المؤسسات على تكوينها، حتَّى نستطيع أن ننهض بما هو واجب علينا لديننا، ودنيانا، ولآخرتنا.

اللهم أصلح لنا ديننا الَّذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخِرَتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادةً لنا في كل خيرٍ، واجعل الموت راحةً لنا من كلِّ شرٍ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، وصَلَّى الله على سيدنا محمدٍ، وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إجابات الشيخ القرضاوي عن أسئلة المحاضرة

تربية النفس وتزكيتها:

السؤال الأول: صاحب الفضيلة، أقسم الله في سورة «الشمس» سبعة أقسام، ليقرر حقيقة واحدة: هي أن من زكى نفسه فقد أفلح، ومن دساها فقد خاب، وسؤالي يا فضيلة الشيخ: كيف أزكى نفسي، وكيف أربيها على الخير؟

التزكية من مهمات النبوة:

الجواب: تزكية النفس مهمة أساسية من مهمات النبوة، فقد كان من أركان رسالة النبي ﷺ، وعناصر مهمته أنه: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وتحمل كلمة «زكا» في اللغة العربية معنيين: معنى الطهارة، ومعنى النماء. فالرسول ﷺ يقوم بتزكية النفوس، بتطهيرها من الشرك والرذائل، وتحليلتها بالتوحيد والفضائل، فالتزكية تخلية وتحلية، أو هدم وبناء، فمهمة الرسول أن يزكينا ويرينا.

تزكية الإنسان نفسه:

ومهمة الإنسان مع نفسه أيضاً أن يزكياها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]. وهذا الفلاح ليس في الآخرة فقط، بل الفلاح - كما أشرت - في الدنيا والآخرة، فمن زكى نفسه فقد أفلح حتى في هذه الدار.

تصحيح العبادة:

أول ما ينبغي القيام به في تزكية النفس - بعد تطهيرها من الشرك، والعقائد الفاسدة - هو تصحيح العبادة وإخلاصها لله تبارك وتعالى،

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وقد سئل أبو علي، الفضيل بن عياض، الزاهد المعروف رَحِمَهُ اللَّهُ، عن قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قيل له: يا أبا علي، ما أحسنُ العمل؟ قال: أخلصُه وأصوبُه. قيل: وما أخلصُه، وما أصوبُه؟ قال: إنَّ الله لا يقبلُ العمل إلا إذا كان خالصًا صوابًا، وخلوصُه: أن يكون لله، وصوابُه: أن يكون على السُّنَّة^(١). فتصحيح العبادة يكون بإخلاصها لله وحده، فلا رياء ولا سُمعة، وأن تكون على السُّنَّة لا البدعة، فكم من أناس يتعبّدون، ولكنهم يبتدعون من عند أنفسهم ما لم يأذن به الله، «ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»^(٢)، «إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنْ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَإِنْ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٣). فتصحيح العبادة أوّل ما ينبغي القيام به بعد تصحيح العقيدة.

تقويم الأخلاق:

وثاني ما ينبغي القيام به في تزكية النفس هو تقويم الأخلاق، بأن تتخلّى النفس عن الرذائل، وتتخلّى بالفضائل، «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٤).

الأخلاق والإيمان:

والأخلاق الإسلامية - في الواقع - من دلائل صدق الإيمان، وقد تكاثرت في ذلك الأحاديث النبويّة: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩٥/٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الحدود (١٧١٨)، عن عائشة.

(٣) رواه أحمد (١٧١٤٤)، وقال مخرّجوه: صحيح. وأبو داود في السُّنَّة (٤٦٠٧)، والترمذي في

العلم (٢٦٧٦)، وقال: حسن صحيح. والحاكم في العلم (١٧٤/١)، وصحّحه، ووافقه الذهبي،

عن العرابض بن سارية.

(٤) سبق تخريجه ص ١٢٧.

خُلُقًا»^(١)، «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ»^(٢)، «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٣)، «مَا آمَنَ بِي مِنْ بَاتٍ شَبَعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَىٰ جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ»^(٤). فجعل هذه الأخلاق من دلائل الإيمان وأماراته، فللإيمان إذن دلائل خلقية.

الأخلاق والعبادات:

وللعبادات الشعائرية نفسها التي شرعها الإسلام، وجعلها أركانها ومبانيه العظام، غايات وثمرات أخلاقية، فعن الصلاة يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وعن الزكاة يقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وعن الصيام يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وهكذا يكون الجانب الأخلاقي في العبادات.

من هنا نقول: ينبغي أن يحاول الإنسان أن يطرد الرذائل، ويخلي نفسه منها، ويحلّيها بالفضائل، بمكارم الأخلاق، بالصدق، والأمانة، والشجاعة، والحياء، والتواضع، والعزّة، وحب الخير للناس، إلى آخره، فكل هذه الفضائل من شعب الإيمان، كما جاء في الحديث:

(١) رواه أحمد (٢٤٦٧٧)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح لغيره. والترمذي في الإيمان (٢٦١٢)، وقال: صحيح. عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

(٤) رواه البزار (٧٤٢٩)، والطبراني (٢٥٩/١)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٧٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٥٤)، وابن حجر في القول المسدّد (٢١/١)،

عن أنس.

«الإيمانُ بَضْعٌ وسبعون - أو بضع وستون - شُعْبَةٌ، فأفضلُها قولُ: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبة من الإيمان»^(١). حتَّى إبعاد الأذى عن الناس يعتبر من شعب الإيمان، هذا الجانب الأخلاقي في الإسلام وعلاقته بزكاة النفس، وللأسف يغفل عنه كثير من الناس.

المعاصي الباطنة:

وكثير من الناس يغفلون كذلك عن الجوانب القلبية، فهم يهتمون بالمعاصي الظاهرة، ولا يهتمون بالمعاصي الباطنة، التي كان يسميها السلف: معاصي القلوب. وهي التي وصفها النبي ﷺ بالمهلكات، فقال: «ثلاث مهلكات: شُحُّ مَطَاعٍ، وهَوَى مُتَّبَعٍ، وإِعْجَاب المرء بنفسه»^(٢). فالشُّحُّ، والعُجْبُ، والكِبَرُ، والغُرُورُ، والهوى، والحقد، والحسد، كلها من المعاصي الباطنة، وكلها مهلكات تأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب، ومع ذلك لا يهتم كثير من الناس بها، وهي أخطر ما يمكن، فهي المُدْمِرَةُ للمجتمعات، وهي داء الأمم.

المجاهدة وطلب النصيحة:

ومن هنا ينبغي للمسلم الذي يريد أن يربِّي نفسه أن يطهِّرها من هذه الرذائل، ويجاهدَها في ذلك؛ لأنَّ التَّخلُّص من هذه المعاصي ليس بالأمر السهل، ولو صدقت نيَّته في المجاهدة، والصبر عليها لا بدَّ أن يصل إلى الخير، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وخاصة إذا استعان بإخوانه

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البزار (٦٤٩١)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٠٣٩)، عن أنس.

واستنصحهم، فالمؤمنُ مرآةُ أخيه^(١)، ولا يستنكف أن يسمع من أخيه نصيحته، كما كان يفعل عمر ابن الخطاب فيقول على المنبر: رحم الله امرءًا أهدي إليّ عيوب نفسي^(٢).

وكان يقول لحذيفة: أتجدني منهم^(٣)؟ أي: من المنافقين، تصوّروا عمر بن الخطاب يخشى على نفسه من النفاق، كما قال ابن مليكة وغيره من السلف: لا يأمن النفاق إلا منافق، ولا يخافه إلا مؤمن. يخاف المؤمن أن تتسرّب إليه أخلاق النفاق وهو لا يدري.

وكان من قول عمر: اللهمّ إنّي أعوذ بك من خشوع النفاق. قيل له: وما خشوع النفاق يا أمير المؤمنين؟ قال: أن يرى البدن خاشعًا والقلب ليس بخاشع^(٤). وكان يستعيز بالله من المنافق العليم اللسان، فسأله أيضًا: كيف يكون منافقًا عليمًا؟ قال: عليم اللسان جاهل القلب^(٥). يتكلّم جيّدًا، لكن قلبه خراب، فشأن الإنسان أنه يستنصح إخوانه؛ ليحاول أن يكمل نفسه، «فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن»^(٦)، إذا استنكروا أمرًا وأجمعوا عليه فليتركه.

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٨)، والبيهقي في قتال أهل البغي (١٦٧/٨)، وحسن إسناده الحافظ في بلوغ المرام (٣٠٩/١)، وحسن إسناده الألباني في الأدب المفرد (١٧٧)، عن أبي هريرة.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص ٢١٧.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الفتن (٣٨٥٤٥).

(٤) مدارج السالكين (٣٥٨/١).

(٥) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٦٨٣)، تحقيق د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، نشر مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٦هـ.

(٦) رواه أحمد (٣٦٠٠)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والطبراني في الكبير (١١٢/٩)، والأوسط

(٣٦٠٢)، والحاكم في معرفة الصحابة (٧٨/٣، ٧٩)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، =

الاستفادة من الأعداء:

وأكثر من ذلك: يستطيع المسلم أن يتعلم حتى من عدوه، يقول الإمام الشافعي:

عِدَاتِي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ فلا باعدَ الرحمنُ عَنِّي الأَعَادِيَا
فَهُمْ بَحَثُوا عَن زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا وَهُمْ نَافَسُونِي فَارْتَقَيْتَ الْمَعَالِيَا (١)

فالخصوم يبحثون عن الزلات، كما يقولون: حبيبك يمضغ لك الزلط، وعدوك يتمنى لك الغلط. يبحثون بإبرة عن عيب فيك، فانتهاز هذه الفرصة لتنظر: إن كان ما يقولونه عنك صحيحًا؛ فحاول أن تتجنبه، كما يروى أيضًا عن الإمام الشافعي أنه قال:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كما أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا (٢)

فعين السُّخْطِ تكشف ما بك، فاستفد من ذلك وحاول أن تجتنب المساوي، فالإنسان الذي يريد أن يبني نفسه، ويكون نفسه، ويزكي نفسه، يستفيد من المجتمع، من أصدقائه، ومن أعدائه، حتى يصل إلى مرحلة زكاة النفس، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾، كما جاء على لسان سحرة فرعون: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه: ٧٤ - ٧٦]. فعسى الله أن يرزقنا زكاة الأنفس وطهارتها.

= وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢٨/١): رواه أحمد والبخاري والطبراني في الكبير ورجاله موثقون، موقوفًا على ابن مسعود.

(١) هو أبو حيان الأندلسي، كما في الوافي بالوفيات للصفدي (١٨٠/٥)، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، نشر دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) البيت لعبد الله بن معاوية بن جعفر انظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص ٣٢٧، نشر دار المعارف، القاهرة. وقال: هو أول من ذكر (عين الرضا) في شعره، وأرسل مثلاً.

قُدرة الإيمان على التغيير:

السؤال الثاني: تحدثتم فضيلة الشيخ عن الإيمان، ولكن الإيمان غير صحابة رسول الله ﷺ في وقت يسير، فلم لا يحصل هذا التغير للمسلمين في هذا الزمن، وكيف يمكن حصوله؟

الجواب: إنَّ قدرة الإيمان على تغيير الإنسان في كل وقت حقيقة لا شك فيها، هي حقيقة تاريخية، وحقيقة واقعية، فقد غير الإيمان أصحاب رسول الله ﷺ، كما غير سحرة فرعون من قبل ذلك في لحظات، من أذنان للطاغية المتأله فرعون إلى دعاة يتحدونه، ويقولون له: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ [طه: ٧٢، ٧٣]. الإيمان هو الشيء الوحيد القادر على أن يقلب الإنسان رأساً على عقب، كلُّ ما في الأمر أننا نحتاج إلى دعاة ومربين يستطيعوا أن ينفخوا جذوة الإيمان في القلوب، أن يجابوا الفطرة، فالإيمان فطرة، تحتاج إلى من يجلو الصُّدأ عنها، ويستخرج الإيمان من داخلها، نحتاج إلى دعاة أصحاب قلوب حيّة تستطيع أن تحرك كوامن النفس الإنسانية.

وقد رأينا العجب حقيقة من فعل الإيمان، مثل ما نراه الآن في أفغانستان، من ثبات المجاهدين أمام هذه القوّة العاتية - الاتحاد السوفيتي الروسي - إحدى القوّتين العظيمةتين في الأرض، لقد بدأ هؤلاء المجاهدون جهادهم بعدد قليل من المسدسات والبنادق، واستطاعوا أن يقفوا أمام هذه القوّة العاتية، فهذا من فعل الإيمان، الذي جعلهم يقفون ضدها منذ سبع سنوات أو أكثر حتّى الآن، وكان يظن الروس أنها مسألة نزهة وسيقضون على هؤلاء الناس، فالإيمان لا يزال يفعل فعله حتّى الآن.

ورأينا أثر الإيمان في الْمُتَطَوِّعِينَ في حرب فلسطين، وكان لنا منهم إخوة وزملاء، كانت قذيفة المدفع تصيب الواحد منهم فتقطع ساقه، فينظر إليها بابتسام وهو ينشد قول الصحابي قديماً:

ولستُ أْبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْرَعِي
وذلك في ذاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعٍ^(١)

كان منهم من يدخل المعركة صائماً، ثم تأتي رصاصة فتنال منه مقتلاً، فيؤتى له بكأس الماء ليشرب، فيقول: دعوني؛ إني أريد أن ألقى ربي وأنا صائم.

وهناك أناس دخلوا السجون، ونالهم ما نالهم صنوف الأذى والتَّكال على أيدي الطغاة؛ لكي يرجعوا عن رسالتهم، ويكفروا بالحق الذي آمنوا به، ولكنهم صبروا وصابروا، واستشهدوا في سبيل الله، فالإيمان لا يزال يفعل فعله حتَّى الآن، لا يزال للإيمان تأثيره، إنَّما يحتاج فقط إلى أناس يستطيعوا أن يَبْثُوا الإيمان في غيرهم، فنحن ينقصنا الدعاة الأقوياء الذين يملكون قلوباً مؤمنة، فلا يمكن أن يكون هناك استقبال بدون إرسال.

وأنا أقول: إِنَّ هذه الأمة بخير، فلا يزال فيها الخير الكثير، ولا يزال فيها الشباب المؤمن في كلِّ مكان دليلاً على خيريَّة هذه الأمة، شباب الصحوة الإسلاميَّة الذين وجدتهم في كل مكان، ولقيتهم في كل صقع في أرض الله، في الشرق والغرب، هذا الشباب الذي كان ضائعاً وتائهً فرجع إلى الله، ما الذي أرجعه؟ إِنَّها صِيْحَةُ الإيمان، هذه الفتاة التي كانت تائهة، وتعيش متبرجة لا تعرف لها فرضاً، ولا تعرف حلالاً من

(١) الصحابي هو سيدنا خبيب بن عدي. والحديث رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٤٥)، عن أبي هريرة.

حرام، فعادت إلى روضة الدين، والتزمت الإيمان، ووقفت عند حدود الله، ما الذي أرجعها، ما الذي رَدَّها بعد شُرودها؟ إنه الإيمان.

لا يزال الإيمان - أيُّها الأخ السائل - موجودًا، ولا يزال قائمًا، ولا يزال يؤدي دوره، ولا يزال يُؤتي أكله، وسيظل الإيمان إن شاء الله هو المرجو لهذه الأمة أن ينصرها الله به، ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

البنوك الإسلامية ومسألة الربا:

السؤال الثالث: كثر الكلام حول البنوك الإسلامية، وزعم الزاعمون أنَّها لا تخلو من الربا، فما رأي فضيلتكم في ذلك، بحكم أنكم من أكبر أعضاء هذه البنوك والمسؤولين عنها؟

الجواب: لا شكَّ أنَّ البنوك الإسلامية أثّر كبيرٌ من أبرز آثار الصحوة الإسلامية العملية، فهي لم تعد صحوة فكرٍ فقط، ولا صحوة شعورٍ وعاطفةٍ فقط، ولكنها مع ذلك أصبحت تتمثل في مؤسسات عديدة، منها البنوك الإسلامية.

أريد أن أرجع بكم قليلًا؛ كان التفكير السائد في وقت من الأوقات أنَّ الربا لا بدَّ منه، وأنَّه ضرورة من ضرورات الحياة، وأنَّ التفكير في بنوك بلا ربا تفكيرٌ سطحيٌّ طفوليٌّ؛ لأنَّه لا اقتصاد بغير بنوك، ولا بنوك بغير ربا.

وحاول للأسف بعض المنهزمين فكريًا ونفسيًا أن يجزّوا الإسلام من تلايبه، ويجزّوا النفوس قسرًا لتؤيد إباحة الربا، فقال بعضهم: إنَّ الربا المحرَّم هو ربا الجاهلية، وليس ربا العصر الحديث. وقال بعضهم: إنَّ ربا الاستهلاك غير ربا الإنتاج، فيحرم الربا إذا كان في الأكل والشرب،

بخلاف ربا التجارة. وقال بعضهم: إنَّ الربا المُحرَّم هو ما كان أضعافاً مضاعفة، بخلاف الرِّبا اليسير المتمثِّل في نسبة (٥٪) أو (١٠٪) ونحوها. وقال بعضهم: الضرورات تُبيح المحظورات، وقد أصبح الرِّبا الآن ضرورة اقتصادية واجتماعية. فهذه تبريرات شتَّى تمثِّل الهزيمة أمام الحضارة الغربية في فترة من الفترات.

ثم جاءت فترة أخرى قُضي فيها من الناحية النظرية على هذه التبريرات، وأقيمت مؤتمرات فقهية عديدة شاركتُ فيها، قطعت بحرمة الربا، ولكن بقيت الخطوات العملية في هذا الأمر.

ثم جاءت فترة أخرى بدأت فيها محاولات إنشاء بنوك بلا ربا، وقام في مصر أول بنك بلا ربا، على يد الدكتور أحمد النجَّار، أمين عام البنوك الإسلامية، أقامه في مصر، في بلد اسمها ميت غمر، وكان بنكاً ادِّخاريّاً، ونجح البنك، لكن البنوك الأخرى تأمرت عليه حتَّى أسقطت تجربته.

ثم قام بعد ذلك على استحياء أوّل بنك تجاري إسلامي في الإمارات، هو بنك دبي الإسلامي، ثم اتَّسعت الدائرة فقامت عدَّة بنوك، منها بنك فيصل الإسلامي في القاهرة، والخرطوم، وبيت التمويل الكويتي، والبنك الإسلامي الأردني، وبنك البحرين الإسلامي، وأخذت هذه البنوك تمارس عملها في جوٍّ غير مُشجِّع؛ لأنَّ البنوك المركزية والأجنبية والمحلية ضدها، ووزارات الاقتصاد والمالية ضدها، والأفكار العلمانية ضدها، والحكومات المختلفة ضدها.

ولكن مع كل هذا نجحت التجربة وأثبت وجودها، والذي أنجَحَها في الحقيقة هو الشعور العام للمسلمين بالإثم إذا تعاملوا بالربا، والسَّعي

للتخلص منه، ولذلك لما طرحت أسهم بنك فيصل الإسلامي بالقاهرة، أخذوا يفكرون، وقالوا: نجعل رأس ماله ثمانية مليون دولار، فالمهم أن نبدأ. وإذا بالناس يُقبلون على التّمويل فجاءت الأموال خمسة أضعاف ما كان مطلوبًا، فرفعوا في الحال رأس مال البنك من ثمانية مليونًا إلى أربعين مليونًا، ثم رفعوه مرة أخرى فصار مائة مليونًا، المُصدّر منه مائة مليونًا، والمصرّح به خمسمائة مليونًا، وهو يتعامل في حوالي ألفين مليون دولار أو أكثر، غير رأس المال، فانتسعت البنوك الإسلامية، وزاد بالطبع خصومها الذين يشوّشون عليها.

وهناك معاملات في هذه البنوك الإسلامية لم يفهمها بعض الناس كما ينبغي، من ذلك ما يُسمّى بيع المربحة، ولا يتّسع المقام لشرحه، وقد كتبت كتابًا بعنوان «بيع المربحة للأمر بالشراء كما تجريه المصارف الإسلامية»؛ لأشرح فيه هذا الأمر، وأرد الشبهات عنه.

ويحدث شيء آخر أيضًا في البنوك الإسلامية لا ندّعي التخلص منه، وهو أنّ كثيرًا من العناصر التي تعمل فيها جاءت من البنوك الربويّة، وهذه مشكلة؛ لأنّ الشاب عندما كان يتخرّج من كلية التجارة، أو الاقتصاد، يأتي ليستفتي الشيوخ في العمل في البنوك الربويّة فيقولون له: حرام. فكانت النتيجة أنّه لما قامت البنوك الإسلامية واحتاجت إلى عناصر مُدرّبة من الناحية الفنيّة والإداريّة والمحاسبية، وفي نفس الوقت ملتزمة بالإسلام - لم تجدها، فصارت تعتمد على العناصر المُدرّبة في البنوك الربويّة، ولكن عقولهم للأسف مركبة تركيبًا ربويًا، لطول ما اعتادت عليه، فتُحاول أن تُفهم الواحد منهم أنّ بيع المربحة ليس هكذا، ومن هنا تحدث الأخطاء، ولا بدّ لأيّ تجربة أن تحدث فيها أخطاء.

وهذا لا يعني أنَّ البنوك الإسلامية تقوم على الربا، لا؛ فالأصل أنَّها قامت أساسًا ضد الربا، وضد المعاملات المحظورة شرعًا، والأصل فيها وجود هيئات رقابة شرعية، أو على الأقل خبير أو مستشار شرعي يُرجع إليه، وهيئات الرقابة هي التي تتحمّل المسؤولية.

ومهما يكن فالبنوك الإسلامية خطوة على الطريق، وهي من معالم الصّحوة الإسلامية البارزة الحاضرة، وهي قَدْى في عيون خصوم الإسلام، فهم يريدون أن يُمسوا ويُصبحوا ولا يوجد بنك إسلامي، فدائمًا يَصُبُّوا عليها سخطهم، ويحاولون أن يُشوِّهوها، ويجعلوا الحبة من أخطائها قُبَّة، ولذلك يجب أن نحرص على البنوك الإسلامية، وندعمها، وهي - إن شاء الله - من دعائم الخير.

العروبة والإسلام:

السؤال الرابع: فضيلة الشيخ، أرجو أن تُبيِّنوا لنا العلاقة بين العروبة والإسلام، وهل من تناقض بينهما، فعندما نقول: العروبة. فإننا لا نقصد الدعوة إلى القومية، لكننا أصبحنا نسمع كثيرًا من يقول: إنَّ العروبة لا تعني لنا شيئًا. وهل المقصود بالآية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. أن تبقى القيادة في يد عرب المسلمين، وإن كان كذلك فكيف يكون وضع المسلمين من غير العرب؟

الجواب: هذا الموضوع كبير وطويل حقيقة، الإخوة تأتي بموضوعات أسئلة - ما شاء الله - تحتاج إلى محاضرات، وهذا الموضوع تحدّثت فيه بعض الصحف المصرية بكلام كثير من هذا النوع، فهناك أناس يريدون أن يجعلوا الإسلام عربيًا فقط، وليس للعالم كله، ومنهم

واحد اسمه خلف الله أخذ يكتب في هذا الموضوع كلامًا فارغًا، ومما قاله: إِنَّ الإسلام عربي؛ لأنَّ القرآن والرسول عربيان.

ولا شكَّ أنَّ القرآن عربيٌّ، والرسول عربيٌّ، ولكنَّ الإسلام للعالم كله، فأول آية في المصحف بعد البسملة هي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. وليس ربَّ إسرائيل كما تقول التوراة. وآخر سورة في المصحف هي: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٣]. فالإسلام مُوجَّه إلى العالم كله، وهناك عشر آيات على الأقل من القرآن المكيِّ تؤكد كلها على عالميَّة الإسلام، منها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، ص: ٨٧، التكوثر: ٢٧]، ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، إلى آخره، بالإضافة إلى الأحاديث والسيرة النبويَّة، وما فيها من الكتابة إلى ملوك الأرض، إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، والمقوقس، ماذا يعني هذا كله، غير عالميَّة الدعوة؟!

وأكثر من ذلك: هناك أناس يريدون أن يجعلوا العروبة أصلًا، والإسلام فرعًا، يقولون: الإسلام ابن العروبة، وهو ثمرة العبريَّة العربيَّة، ومحمَّد هو أحد عباقرة العرب. والحقيقة أنَّ هذا كلام فارغ، وهو طبعًا مرفوض.

لكن إذا كان معنى العروبة أن يقول إنسان: أنا عربي. لا مانع أن يكون للإنسان أكثر من انتماء، فهو مثلاً: ابن الرياض، يعتزُّ بكونه من هذه المدينة، ويمكن أن يعتزَّ أنه في حيٍّ معيَّن منها، لأنَّها نشأ في هذه المدينة، وتربَّى في هذا الحي، ولعب في هذا الشارع، وله فيها ذكريات،

وله مع ذلك انتساب إلى المملكة العربية السعودية، باعتبارها وطنه، وله انتساب إلى العرب، باعتبارهم أصحاب لسان واحد، وله انتساب إلى المسلمين، باعتبارهم أمته، فتعدّد الانتماءات لا تناقض فيه، فليس الانتماء إلى الرياض يناقض الانتماء إلى الوطن، ولا الانتماء إلى العروبة يناقض الانتماء إلى الإسلام.

ونحن نقول: إنّ للعروبة مكاناً في الإسلام، بل الواقع أننا في مصر وفي المغرب العربي لا نفرق بين العروبة والإسلام، بخلاف الناس في الشام والعراق يفرقون بينهما، نحن عندنا إذا قيل: اللهم انصر العرب. يعني: اللهم انصر المسلمين. وفي المغرب يستنكرون أن يوجد عربي اسمه جورج مثلاً، وللشاعر محمود غنيم قصيدة شهيرة ينبغي أن يحفظها كل شاب مسلم، وهي وقفه على طلل، يقول فيها:

إِنَّ الْعُرُوبَةَ لَفُظٌ إِن نَطَقْتَ بِهِ فَالْشَّرْقُ وَالضَّادُ وَالْإِسْلَامُ مَعْنَاهُ
وَيْحَ الْعُرُوبَةِ كَانَ الْكُونُ مَسْرَحَهَا فَأَصْبَحَتْ تَوَارِي فِي زَوَايَاهُ
كَمْ صَرَفْنَا يَدًا كُنَّا نُصَرِّفُهَا وَبَاتَ يَحْكُمُنَا شَعْبٌ مَلَكْنَاهُ
أَنَّى اتَّجَهْتَ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي بَلَدٍ تَجِدُهُ كَالظَّيْرِ مَقْصُوصًا جَنَاحَاهُ^(١)

فهو يتكلّم عن العروبة والإسلام كأنّهما شيء واحد، وهذا هو الأساس، حتّى جاء دعاة القومية العلمانيّة فأوجدوا هذه الفجوة بين العروبة والإسلام، وبدؤوا أوّل الأمر في تركيا بالقومية الطورانيّة، لتفصل الأتراك عن الإسلام، وقد دعا إليها حزب الاتحاد والترقي، وردّ عليها جماعة آخرون بقومية عربيّة كان دعائها الأوّلون من

(١) الأعمال الكاملة لمحمود غنيم (٨٠/١)، نشر دار الغد العربي، ١٩٩٣م.

النَّصارى في لبنان والشام بالذات، هم الَّذِينَ تَبَنَّوْا هذه الدعوة والتقطوها، وقامت الجمعيات الماسونية بدور كبير في هذا الأمر، وألّفت كتب ووثائق في رصده.

هكذا قامت المعركة بين العروبة والإسلام، حتّى أصبحت القومية العربيّة الآن تعني الانفصال عن الإسلام؛ لأنّها قوميّة علمانيّة، لا تعترف بالأصول الإسلاميّة، ولا بالشريعة الإسلاميّة، ولا بالتراث الإسلاميّ، ولا ترى فرقاً بين مسلم وكافر، وتُفضّل العربي غير المسلم على المسلم غير العربي، ولا ترى علاقةً بين العرب وباكستان وإندونيسيا وماليزيا، فلا شأن لها بهم، حتّى كتب بعضهم مرّة بأنّه ينبغي أن نفصل قضية فلسطين عن قضية باكستان أو أفغانستان؛ لأنّها قضية عربية!

مع أنّ الحقيقة أنّه ينبغي أن يُنظر إلى قضية فلسطين بالمنظار الإسلامي أولاً، وفي مثل هذا اليوم من نوفمبر يكون قد مرّ سبعون عاماً على وعد بلفور - وزير خارجية بريطانيا - الذي وعد اليهود بإقامة وطنٍ قوميٍّ لهم في فلسطين، وما زلنا للأسف نلفّ وندور حول أنفسنا؛ لأننا لم نجعل قضية فلسطين إسلاميّة كما كانت في أوّل أمرها، لقد بدأت القضية إسلاميّة في زمن الشيخ عزّ الدين القسّام، والحاج أمين الحسيني، وقام مؤتمر إسلامي من أجلها، ثم جاء هؤلاء القوميون وأرادوا أن يجعلوها قضية قوميّة عربيّة، ليس لها بالإسلام صلة!

هذا، مع أنّ أعداءنا جعلوا قضيتهم دينيّة من أوّل يوم، ما الذي جمع اليهود من شتات، من بلاد الله المتفرّقة، وكانوا من قبل شذر

مذر، على أيّ أساس تجمّعوا في فلسطين؟ جمعتهم العقيدة اليهوديّة على أساس ديني، توراتي، تلمودي، وبيننا من يريد أن يُفرّغ القضية من الدين، ومن الإسلام! ولذلك لا يمكن أن نتصر إلا إذا أعدنا الأمر إلى نصابه، إذا حاربونا بالتوراة، حاربناهم بالقرآن، وإذا رفعوا التلمود رفعنا صحيح البخاري ومسلم، وإذا قالوا: الهيكل. قلنا: المسجد الأقصى. إذا قالوا: يهو. قلنا: الله رب العالمين. فالحديد لا يُفْلَه إلا الحديد، وحديدنا أقوى من حديدهم.

ولذلك أقول: لا معنى لما يقوله دعاة القومية، فإذا كان المقصود بالعروبة: العروبة المؤمنة المعترفة بالإسلام؛ فأهلاً وسهلاً بها، والإسلام يُعطي العرب مكاناً فعلاً؛ لأنّ المفروض أن للعرب القيادة، بحكم اللسان والثقافة، لا بحكم العرق والجنس، لأنّ العروبة ليست عرقاً، فسيدنا إسماعيل عليه السلام - الذي وُلِدَ النبي صلى الله عليه وآله من نسله - ليس عربيّاً، بل كان من العرب المستعربة، فأصل العرب يعرب بن قحطان، أمّا العرب العدنانيون، وعرب الشمال، وعرب الحجاز فهم مستعربون، ومصر والشمال الأفريقي والشام لم يكن أهلها عرباً، وإنّما استعربوا باللسان، وكما قيل إنّ العربية ليست من أحكم بأب ولا أمّ، ولكن العربية اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي.

ولذلك نحن نقصد بالعروبة: عروبة الثقافة، فلا يفهم الإسلام حقّ الفهم إلا من تثقّف بالعربية، ولا يخدمه حقّاً إلا من تثقّف بالعربيّة، ولهذا نعتبر المسلم الذي يتعلم العربية عربيّاً، ثم إنّ العروق الآن اختلطت، لم تعد موجودة، فالهجرات المُتتَابِعة، وتزاوج الناس بعضها من بعض جعل هذه العروق غير موجودة، فضلاً عن أنّ الناس



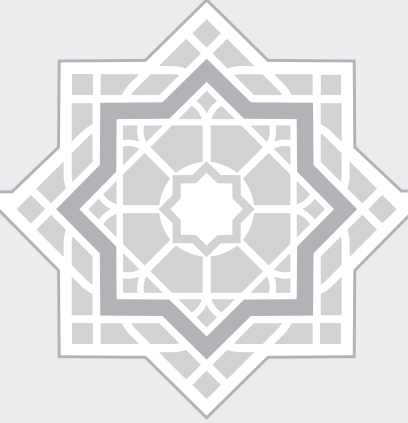
كلهم لآدم ﷺ ، وآدم من تراب، كما جاء في الحديث^(١). وميزة العروبة هنا أن لسانها هو لسان القرآن، هو لسان العبادة، ولسان الثقافة الإسلامية، وينبغي أن يكون هو لسان التفاهم بين المسلمين. أكتفي بهذا القدر، وأستغفر الله لي ولكم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليمًا كثيرًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٦٢٢): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. عمن سمع خطبة النبي ﷺ.



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الحديث وعلومه



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



من الدستور الإلهي للبشرية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۖ﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿[آل عمران: ٣١، ٣٢].

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ۚ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَاخْذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

[الحشر: ٧].



من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كلُّ أُمّتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». رواه البخاري.

عن ابن عباس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس في حجة الوداع، فقال: «يا أيُّها الناس، إنِّي قد تركتُ فيكم ما إنْ اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبداً: كتاب الله، وسُنَّة نبيِّه صلى الله عليه وسلم». رواه الحاكم.

عن المقدام بن معديكرب الكندي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثله معه، ألا إنِّي أوتيتُ القرآنَ ومثله معه، ألا يوشكُ رجلٌ ينشئُ شعباناً^(١) على أريكته يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلالٍ فأحلُّوه، وما وجدتم فيه من حرامٍ فحرِّموا، ألا لا يحلُّ لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كلُّ ذي نابٍ من السباع، ألا ولا لُقطة من مال معاهدٍ إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقومٍ، فعليهم أن يقرُّوهم، فإن لم يقرُّوهم، فلهم أن يُعقِّبوهم بمثل قِراهم». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم وصحَّحه.

(١) كذا الرواية مصروفة، ويخرج على أن مؤنثه شعبانة بالتاء.





في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وعلومها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تنزل الخيرات والبركات، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات، والصلاة والسلام على رحمة الله المهداة للعالمين، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته واهتدى بسُنَّته وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أحْيَيْكُمْ به أيها الإخوة الأحبة، والأبناء الأعزّة، تحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(وبعد)

فموضوع السُّنَّة موضوع مهمّ، قد اضطربت فيه الأفكار، واختلطت فيه المفاهيم، وتباينت الطرق، ويجب علينا أن نقف الموقف الوسط في هذا الموضوع الخطير.

السُّنَّة في اللغة: الطريقة المتبعة أو المعتادة، حسنة كانت أم سيئة، وحسنها وسوءها إنّما يأتي على طريق الوصف والإضافة.

فمن الوصف: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنة... ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئة»^(١).

ومن الإضافة: «ومُبْتَغٍ في الإسلام سنةً الجاهليَّة»^(٢).
وفي اصطلاح المحدثين: ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خُلُقِيَّة أو خَلْقِيَّة، أو سيرة^(٣).

السُّنَّة منهاج لشرح الإسلام وتطبيقه:

السُّنَّة هي المنهاج النبوي المفصَّل لشرح الإسلام وتطبيقه، بما يجسّد قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ففي السُّنَّة تتجلى التزكية في تعليم الكتاب والحكمة، إلى جوار تلاوة آيات الله المنزلة، بتفهمهم معاني آيات القرآن، ومقاصد تشريعه، وأسرار توجيهه، وبيان ما غمض عليهم منه، وتفصيل ما أجمل من أوامره ونواهيه وأخباره، حتّى لا يزيغوا في فهمه أو اتّباعه.

السُّنَّة المصدر الثاني للتشريع:

والسُّنَّة بإجماع المسلمين هي المصدر الثاني للتشريع في الإسلام، لا يختلف في ذلك فقيه عن فقيه، ولا مذهب عن مذهب، أهل الرأي وأهل الأثر في ذلك سواء. الفرق بين أهل الرأي وأهل الأثر: أنّ أهل

(١) رواه مسلم في العلم (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥٦)، عن جرير بن عبد الله.

(٢) رواه البخاري في الديات (٦٨٨٢)، عن ابن عباس.

(٣) انظر كتابنا: المدخل لدراسة السُّنَّة النبويّة ص ٧ - ١٣، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥،

الرأي يفرضون مسائل، أرأيت لو حدث كذا؟ لكان كذا. والأثريون لا يفترضون مثل هذه المسائل.

أهل الرأي يؤوّلون بعض الأحاديث، وأهل الأثر لا يؤوّلونها، مثل: إجازة أهل الرأي إخراج القيمة في الزكاة، وأهل الأثر لا يجوزون إخراج القيمة، من أجل هذه الأمور قيل عن هؤلاء أهل الرأي وأولئك أهل الأثر. وفي بعض المسائل نرى أنّ أهل الرأي أقرب إلى الأثر من أهل الأثر أنفسهم، كما نرى ذلك في قضية زكاة الحليّ، فالأحناف أقرب إلى الأثر من الآخرين^(١).

جميع العلماء يحتكمون إلى السُّنّة:

جميع علماء المسلمين يحتكمون إلى السُّنّة، كلّ الفقهاء، وكلّ المذاهب تحتكم إلى السُّنّة، ولا يخالف أحد السُّنّة إلا لعذر من الأعذار، وسبب من الأسباب العشرة التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الشهير «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، كأن لم يبلغه الحديث، أو لم يثبت عنده، أو اعتقد ضعفه، أو اشتراط شروطاً في خبر الواحد يخالفه فيها غيره، أو يكون قد نسيه، أو لم يعرف دلالتَه، أو رأى أن لا دلالة فيه، أو اعتقد أنّ الدلالة ليست مُرادَة، أو رأى الحديث معارضاً بما يدلُّ على ضعفه، أو نسخه، أو تأويله - إن كان قابلاً للتأويل - بما يصلح أن يكون معارضاً بالاتفاق أو بما لا يعتقد غيره أو جنسه معارضاً.

فلم يتعمّد إمام من الأئمة المقبولين عند الأمة رفض حديث ثابت قط، ولا يُتصوّر ذلك.

(١) انظر: المبسوط للسرخسي (١٩٢/٢)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

السُّنَّةُ مصدرًا للسلوك:

الأمة مجتمعة على أنَّ السُّنَّةَ المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن. والأمة مجتمعة على أنَّ السُّنَّةَ مصدر السلوك أيضًا. المتصوِّفة الملتزمون يقولون: إِنَّ كَلَّ الطرق مسدودة - كما قال الجنيد رَحِمَهُ اللهُ سِيد القوم - إِلَّا على مَنْ اقتفى آثار رسول الله ﷺ. وقال: مَنْ لَمْ يحفظ القرآن، وَلَمْ يكتب الحديث لَا يُقْتَدَى به في هذا الأمر، لِأَنَّ عِلْمَنَا هذا مَقِيدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ^(١). وكذلك قال أبو سليمان الداراني: إِنَّهُ لَتَقَعُ في قلبي النُّكْتَةُ مِنْ نُكْتِ القوم، فَلَا أَقْبَلُهُ مِنْهُ إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ عَدْلَيْنِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ^(٢). وكذلك رَوَى عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ. وقال أبو يزيد: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدتُ شيئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنَ الْعِلْمِ وَمَتَابَعَتِهِ^(٣).

أَمَّا مَا قَالَه بَعْضُهُمْ: إِذَا سَمِعْتَ الصَّوْفِي يَقُول: حَدَّثَنَا وَأَخْبَرْنَا، فَاغْسِلْ يَدَكَ مِنْهُ. أَوْ قَوْل بَعْضُهُمْ حِينَ قِيلَ لَهُ: أَلَا تَرَحَّلُ حَتَّى تَسْمَعَ مِنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ؟ فَقَالَ: مَا يَصْنَعُ بِالسَّمَاعِ مِنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ مَنْ يَسْمَعُ مِنَ الْخَلَّاقِ؟ يَعْنِي: أَنَّهُ يَأْخُذُ مِنَ اللَّهِ مَبَاشَرَةً! أَوْ قَوْل مَنْ قَالَ: أَنْتُمْ تَأْخُذُونَ عُلُومَكُمْ مَيِّتٍ عَنْ مَيِّتٍ، وَنَحْنُ نَأْخُذُ عُلُومَنَا عَنِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ^(٤)! أَيْ: عَنْ طَرِيقِ الْكُشْفِ وَالْإِلْهَامِ. وَهَكَذَا كَانَ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي^(٥). فَلَيْسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى وَاسِطَةٍ.

(١) انظر: الرسالة القشيرية (٧٩/١) تحقيق الإمام عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، نشر دار المعارف، القاهرة.

(٢) المصدر السابق (٦١/١).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٦/١٠).

(٤) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٤٦٨/٢).

(٥) المصدر السابق (٤٠/١).

هذه العبارات كلها لا تعبر عن محققي الصوفية، عن سادة القوم، وإنما أقصى ما يُعْتَذَر به عن قائلها، ما قاله الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فهذه الكلمات أحسن أحوال قائلها: أن يكون جاهلاً يُعْذَر بجهله، أو شاطحاً معترفاً بشطحه، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله، ولولا (أخبرنا) و(حدثنا) لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام.

واعلم أن مَنْ أحوالك على غير (أخبرنا) و(حدثنا) فقد أحوالك: إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي، فليس بعد القرآن وأخبرنا وحدثنا إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين، ومن فارق الدليل ضلَّ عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة، وكلُّ طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة: فهي من طرق الجحيم والشیطان الرجيم»^(١).

الفرق بين السنة والقرآن:

السنة مصدر للتشريع، ومصدر للسلوك، وهي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم بإجماع الأمة؛ لأنَّ القرآن كَلَه قطعياً الثبوت، ثابت بالتواتر اليقيني، نقلته الأمة جيلاً عن جيل، وليس فرداً عن فرد. والسنة معظمها ثابت بالظن، بخبر الآحاد. فالمتواتر في السنة قليل، خصوصاً التواتر اللفظي، هناك متواترات عملية: مثل الصلاة والحج وغير ذلك، فالمتواتر اللفظي محدود جداً في السنة، فهي ثابتة بالظن، والظن يكفي في استنباط الأحكام.

كذلك القرآن ثابت بالوحي الجلي، عن طريق جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. والسنة منها

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/٤٦٨، ٤٦٩).

ما جاء عن طريق جبريل عليه السلام، أو عن طريق النفث في الرُّوع، أو الإلهام، أو عن طريق كلام الله لعبده، كما حدث لموسى عليه السلام: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، أو عن طريق الرؤيا، أو عن طريق الاجتهاد الذي أقرّه الله عليه، وهو ما يُسمّيه العلماء بالوحي الباطن؛ لأنّه ما دام أُقرّ فقد ثبت.

أيضًا القرآن لفظه ومعناه من عند الله، إنّما السُّنّة لفظها من عند رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعناها من عند الله سبحانه.

أيضًا القرآن محفوظ بألفاظه ومعانيه، وجملته وتفصيله، أمّا السُّنّة فهي محفوظة بمعانيها في الجملة لا بالتفصيل، محفوظه لأنّها البيان للقرآن، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، يقتضي حفظ السُّنّة أيضًا؛ لأنّه لا معنى أن يُحفظ المبيّن ولا يُحفظ بيانه، ويظلّ هو غامضًا أو ناقصًا.

أيضًا القرآن كتابٌ معجز، ولا معجز غيره من كتب الله تعالى، فلا يوجد كتاب معجز إلا القرآن، لا صحف إبراهيم، ولا التوراة ولا الزبور ولا الإنجيل. والسُّنّة وإن كانت في قَمّة البلاغة البشريّة، لكنّها لم تصل إلى مرتبة الإعجاز.

فهذا بعض ما تختلف به السُّنّة عن القرآن.

علاقة السُّنّة بالقرآن:

السُّنّة هي المبيّنة للقرآن؛ فإنّ الله تبارك وتعالى كلّف رسوله صلى الله عليه وآله أن يبيّن للناس ما نُزّل إليهم كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، السُّنّة تتضمّن البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن الكريم، من هنا لا يتصور الاستغناء

بالقرآن عن السُّنَّة، الذين يريدون الاستغناء بالقرآن عن السُّنَّة يريد بعضهم أن يستدلَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. فلم تعد هناك حاجة إلى السُّنَّة.

ونحن نقول لهؤلاء: لماذا تذكرون هذا، وتنسون قوله تعالى: ﴿لِتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢]، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١، ٥٢]، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]؟

وقد أجمعت الأمة على أن الردَّ إلى الله يعني الردَّ إلى كتابه، وأن الردَّ إلى الرسول ﷺ بعد وفاته يعني الردَّ إلى سنته^(١).

فالذين يزعمون الاستغناء بالقرآن عن السُّنَّة، يردُّ عليهم القرآن نفسه، ويردُّ عليهم إجماعُ الأُمَّة، ويردُّ عليهم فعلُ الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا يرجعون إلى السُّنَّة ويحتكمون إليها. عندما أرسل النبي ﷺ

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/١٧٤).

معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «بِمَ تقضي؟». قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: فبسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب النبي ﷺ على صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله»^(١).

وهكذا كان أبو بكر، وكان عمر رضي الله عنهما، إذا وجدا أمراً في كتاب الله تعالى قضيا به، وإلا فبالسنة إذا عرفاها، وإلا سألوا الناس: هل منكم من رأى أو سمع رسول الله ﷺ قضى في هذا بشيء؟ فإن وجداه قضيا به.

في خلافة أبي بكر جاءت إحدى الجدّات - بعد موت حفيدها - تطلب نصيبها من تركته. فقال لها أبو بكر: ما أجد لك في كتاب الله شيئاً، وما علمت رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً. ثم سأل الناس، فقام

(١) رواه أحمد (٢٢٠٠٧)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأفضية (٣٥٩٢)، والترمذي في الأحكام (١٣٢٨)، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل. وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٧٧٠)، عن معاذ. قال الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٨٩/١، ١٩٠): فإن اعترض المخالف بأن قال: لا يصح هذا الخبر؛ عن أناس من أهل حمص لم يسموا فهم مجاهيل. فالجواب: أنّ قول الحارث بن عمرو: «عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ». يدلّ على شهرة الحديث، وكثرة روايته... على أنّ أهل العلم قد تقبلوه واحتجوا به، فوقفنا على صحّته عندهم. وذكر أحاديث ثم قال: وإن كانت هذه الأحاديث لا تثبت من جهة الإسناد، لكن لما تلقّتها الكافة عن الكافة غنوا بصحتها عن طلب الإسناد لها. وجوّد إسناده ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣٦٤/١٣)، وابن كثير في التفسير (٧/١)، وقال ابن القيم في إعلام الموقعين (٢٠٢/١) نحو هذا، ثم قال: كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذي لا يخفى؟! ولا يعرف في أصحابه متهم ولا كذاب ولا مجروح، بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم، لا يشك أهل العلم بالنقل في ذلك. كيف وشعبة حامل لواء هذا الحديث؟! وقد قال بعض أئمة الحديث: إذا رأيت شعبة في إسناد حديث، فاشدد يدك به.

المغيرة بن شعبة فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يعطيها السُّدُسَ. فقال هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه أبو بكر رضي الله عنه^(١).

وجاء عن عمر، أنه استشارهم في إملاص المرأة - الجنين يسقط قبل تمامه - فقال له المغيرة: «قضى فيه رسول الله ﷺ بالغرة». فقال له عمر: إن كنت صادقاً، فأتِ بأحدٍ يعلم ذلك. فشهد محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ قضى به^(٢).

وبهذا كتب عمر رضي الله عنه إلى شريح القاضي: إذا أتاك أمر في كتاب الله فاقض به، ولا يلفتك الرجال عنه، فإن لم يكن في كتاب الله وعجل، وكان في سنة رسول الله ﷺ فاقض به، فإن لم يكن في كتاب الله وعجل، ولا في سنة رسول الله ﷺ فاقض بما قضى به الصالحون، فإن لم يكن في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله ﷺ، ولم يقض به الصالحون، فإن شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر، ولا أرى التأخر إلا خيراً لك، والسلام عليكم^(٣).

ثم أجمعت الصحابة ومن بعدهم على الرد إلى السنة، وقال السيوطي في مفتاح الجنة: «وأخرج البيهقي بسنده، عن أبي أيوب السخيتاني: أن رجلاً قال لمطرف بن عبد الله: لا تحدثونا إلا بما في القرآن. فقال مطرف: إنا والله ما نريد بالقرآن بدلاً، ولكن نريد من هو

(١) رواه أحمد (١٧٩٧٨)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. وأبو داود (٢٨٩٤)، والترمذي (٢١٠١)،

وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (٦٣٠٥)، وابن ماجه (٢٧٢٤)، جميعهم في

الفرائض، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٥٩٥)، عن قبيصة بن ذؤيب.

(٢) رواه البخاري في الديات (٦٩٠٧)، عن المغيرة بن شعبة.

(٣) رواه النسائي في آداب القضاة (٥٣٩٩)، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٥٤١٤).

أعلم بالقرآن منا^(١). يريد رسول الله ﷺ. وقال أيوب: إذا حدثت الرجل بسنة، فقال: دعنا من هذا، وأنبتنا عن القرآن، فاعلم أنه ضال^(٢).

والعقل يصدق هذا، فليس معقولاً أن نستغني بالقرآن عن السنة، ونحن نجد كل القوانين في الدنيا، لها مذكرات تفسيرية وإيضاحية تفسر وتتضح بها، وتعد جزءاً منها، فكيف لا يكون ذلك للقرآن؟! ولا يمكن أن نفهم القرآن بدون أن نفهم السنة، فالسنة مبينة للقرآن.

كيف نفهم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُهُمْ مَّا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَايْتُمُوهُنَّ أَجُورُهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْأَلُوا مَّا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ مَّا أَنْفَقْتُمْ مِنْكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۖ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتَّوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَّا أَنْفَقْتُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۚ﴾ [المتحنة: ١٠، ١١]؟ إذا لم تعرف: فيم نزلت هذه الآيات؟ وعمّن تتحدث؟ ولا يُعرف ذلك إلا من السنة.

وكثير من الآيات لا بدّ فيها من فهم السنة، فالسنة تخصص العام، وتقيّد المطلق، وتفصل المجمل، وتبين المبهم. وهذا ما أجمعت عليه الأمة.

كيف نستطيع أن نصلي إذا لم نأخذ بالسنة؟ القرآن الكريم أمرنا بالصلاة، وذكر لنا أن هناك صلاة الفجر وصلاة العشاء، كما قال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ﴾ [النور: ٥٨]. بينما لم يذكر القرآن لنا صلاة الظهر والعصر والمغرب بالقول

(١) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن (٣١٠).

(٢) انظر: مفتاح الجنة للسيوطي ص ٣٥، ٣٦، نشر الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط ٣،

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

الصريح، وبعد ذلك كيفية الصلاة، هذه الأركان والأقوال والأفعال المفتحة بالتكبير المختمة بالتسليم، كيف عرفناها؟ عرفناها بالسنة.

عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن رجلاً أتاه فسأله عن شيء، فحدثه، فقال الرجل: حدثوا عن كتاب الله، ولا تحدثوا عن غيره. فقال عمران بن حصين رضي الله عنه: إنك امرؤ أحمق! أتجد في كتاب الله تعالى الظهر أربعاً لا يُجهر فيها؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا. ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مفسراً؟! إن كتاب الله قد أبهم هذا، وإن السنة تفسر ذلك^(١).

وكذلك الحج وغيره عرف بالسنة، قال صلى الله عليه وسلم: «خذوا عني مناسككم»^(٢). كما قال في الصلاة: «صلُّوا كما رأيتموني أصلي»^(٣).

كما استقلت السنة بأحكام لم ينص عليها القرآن الكريم، وليست بياناً له، ولا تأكيداً لما جاء فيه، وإنما هو تشريع مبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم تجب طاعته فيه، ولا تحل معصيته.

فلا يمكن الاستغناء عن السنة.

ومن العلماء من يردُّ هذا النوع من الأحكام إلى القرآن، فتحريم الجمع بين البنت وعمتها، والبنت وخالتها، قالوا: هو قياس على الجمع بين الأختين، وتحريم الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة، هو من تحريم الترف الذي بالغ القرآن في ذمِّه والإنكار على أهله.

فلا يختلف هؤلاء العلماء والآخرين في النتيجة، إنما يختلفون في التفسير.

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٣٤٨)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٢) رواه مسلم في الحج (١٢٩٧)، وأحمد (١٤٤١٩)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) رواه البخاري في الأذان (٦٣١)، عن مالك بن الحويرث.

حفظ الله للسنة:

وقد حفظ الله سبحانه السنة في مجموعها، فأعداء الإسلام لم يستطيعوا أن يزيدوا في القرآن ولا أن ينقصوا منه، ولكن كان جهدهم موجهًا إلى السنة، فكذبوا على الرسول ﷺ، وأدخلوا على السنة ما ليس منها، وهو ما حذر منه النبي ﷺ في حياته، فقال في حديثه المتواتر: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١). فقد عَرَفَ ﷺ أن هناك مَنْ سيكذب عليه، وقد كذب عليه الكذّابون كما أخبر ﷺ.

وقد بيّن علماء الأمة رحمهم الله تعالى أسباب الكذب أو أسباب وضع الحديث: كالزندقة، والخلافات السياسية بين الفرق، والتعصب للجنس أو البلد، والخلافات الكلامية والفقهية، والقصص والوعظ، وترغيب الناس في الطاعة بالأحاديث الموضوعة.

وألفت كتب في الأحاديث الموضوعة، منها: «الموضوعات» لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، و«تذكرة الموضوعات» لابن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧هـ)، و«الآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» للسيوطي (ت ٩١١هـ)، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، وغيرها؛ لتحذير الأمة من هذه الأحاديث.

قيل لعبد الله بن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعة؟! قال: يعيش لها الجهابذة^(٢)! الذين ينخلونها نخلًا، وينقدونها كما ينقد الصيرفيُّ الدراهم الزائفة ويرمي بها في سلّة المهملات.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١١٠)، ومسلم في المقدمة (٣)، عن أبي هريرة، وقد ذكره ابن

الجوزي في مقدمة كتابه الموضوعات (٥٦/١)، عن أكثر من ستين نفسًا، وهو حديث متواتر مشهور.

(٢) رواه الخطيب البغدادي في الكفاية في علم الرواية ص ٣٦، تحقيق أبي عبد الله السورقي وإبراهيم حمدي المدني، نشر المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

الإسناد من خصائص الأمة الإسلامية:

لقد هَيَّا اللهُ تعالى لهذه لِسَنَّة أناسًا عاشوا لها، رفضوا أن يُقبل أيُّ حديث إلا بإِسناد، لأنَّ العلم بغير إسناد لا قيمة له. قرأ الإمام عبد الله بن المبارك تفسير ابن مقاتل فقال: يا له من علم لو كان له إسناد^(١). يعني: لم يُقل لنا من أين جاء بهذا الأقوال. وقال الإمام ابن سيرين: إنَّ هذا العلم دين، فانظروا عَمَّن تأخذون دينكم^(٢). وقالوا: لولا الإسناد لقال مَنْ شاء ما شاء، ولكن إذا قيل له: مَنْ حَدَّثَكَ؟ بقي^(٣)!

قال الشاطبي: «وقولهم: الإسناد من الدين، لا يعنون به قول المحدث: «حدثني فلان، عن فلان» مجردا، بل يريدون ذلك لما تضمَّنه من معرفة الرجال الذين يُحدَّث عنهم، حتَّى لا يُسندَ إلى مجهول ولا مجروح ولا متَّهم، إلَّا عَمَّن تحضَّل الثقة بروايته، لأنَّ رُوح المسألة أن يغلب على الظنِّ من غير ريبة: أن ذلك الحديث قد قاله النبي ﷺ، لنعتمد عليه في الشريعة، ونُسندَ إليه الأحكام»^(٤). ومعنى بقي: أي بقي ساكتًا مفحمًا، أو بقي ساكتًا مبهورًا منقطعًا.

وهذا الإسناد الذي حُفظت به السُّنَّة من خصائص هذه الأمة.

قال أبو حاتم الرازي: لم يكن في أُمَّة من الأمم منذ خلق الله آدم أُمَّة يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة^(٥).

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (١١٥/٦٠)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٢) رواه مسلم في المقدمة (١٤/١).

(٣) المصدر السابق (١٥/١).

(٤) انظر: الاعتصام (٢٢٥/١)، تصحيح محمد رشيد رضا، نشر المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

(٥) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٣٨/٣٠).

فاليهود والنصارى ليس عندهم شيء من الإسناد، والأحاديث التي نعتبرها ضعيفة عندنا أفضل في ثبوتها من كتبهم، لم تصل كتبهم إلى مثل هذه الأحاديث الضعيفة عندنا، فنحن بفضل الله تعالى الأمة الوحيدة التي اشترطت السند لقبول المرويات.

عن أبي إسحاق إبراهيم بن عيسى الطالقاني قال: قلت لعبد الله بن المبارك: يا أبا عبد الرحمن، الحديث الذي جاء: «إِنَّ مِنَ الْبِرِّ بَعْدَ الْبِرِّ أَنْ تَصَلِّيَ لَأَبْوَيْكَ مَعَ صَلَاتِكَ، وَتَصُومَ لِهَمَا مَعَ صَوْمِكَ». قال: فقال عبد الله: يا أبا إسحاق، عَمَّنْ هَذَا؟ قال: قلتُ له: هذا من حديث شهاب بن خراش. فقال: ثقة، عَمَّنْ؟ قال: قلتُ: عن الحجاج بن دينار. قال: ثقة، عَمَّنْ؟ قال: قلتُ: قال رسول الله ﷺ. قال: يا أبا إسحاق، إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي، ولكن ليس في الصدقة اختلاف^(١). ولذلك اخترعوا علم الرجال، وعلم الجرح والتعديل، وعلم التواريخ، وغيرها.

معالم التعامل مع السُّنَّة:

هناك عدة معالم في التعامل مع السُّنَّة، منها:

المعلم الأول: الاستيثاق من ثبوت الحديث:

الاستيثاق من ثبوت الحديث، فلا يكفي الإنسان أن يقول: حدَّثني فلان عن فلان، فلا بدَّ أن يبيِّن ماهيَّته، ولا أن يقول: حدَّثني الثقة. ثقة عند مَنْ؟ قد يكون ثقة عنده، ولكن ليس ثقة عند غيره، لا بدَّ أن يكون الإنسان معروفاً بشخصه ونسبه وبلده ومولده ووفاته، فمجهول العين

(١) رواه مسلم في المقدمة (١٦/١).

لا يُقبل، ومجهول الحال المستور لا يُقبل، لا بدّ أن يكون معروفًا، وثقة. ومعنى أنّه ثقة: أن يكون مشهورًا بالعدالة والضبط، بأن يكون عدلاً، لم يرتكب كبيرة من الكبائر، ولم يُعرف عنه إصرار على صغيرة من الصغائر، أي أنّه من الناحية الخلقيّة رجل مؤتمن، إذا حدّث صدق، وإذا أوّثمن أدّى. بعض الناس يمكن أن يكون مخادعًا. نعم، ولكن قد تستطيع أن تخدع بعض الناس بعض الوقت، وأنّ تخدع بعض الناس كل الوقت، وتستطيع أن تخدع كلّ الناس بعض الوقت، ولكن لا تستطيع أن تخدع كلّ الناس كلّ الوقت. كما قال زهير:

ومهما يَكُنْ عند امرئٍ من خَلِيقَةٍ وإن خالها تخفى على النَّاسِ تُعْلَمُ^(١)
وكما يقول أبو الحسن التهامي:

ثوبُ الرياء يشفُّ عمّا تحته فإذا اكتسيت به فإنّك عارٍ^(٢)

ولا بدّ أن يكون الشخص ضابطًا، أي حافظًا متقنًا، سواء كان حفظ صدر: بأن يحفظ ما سمعه من شيخه بحيث يتمكن من استحضاره متى شاء، من حين سماعه إلى حين أدائه، بدون تغيير أو خلط، أم حفظ الكتاب: بأن يحافظ على كتابه ويصونه عن أن يتطرق إليه تغيير من حين سماعه وتدوينه إلى حين أدائه.

ولا بدّ أن يُعرَف الشخص من أيّ مدرسة تخرّج؟ بعض الناس يظنّ أنّ المحدثين لو جاء رجل وقال لهم: حدثني فلان، عن فلان، عن فلان، أنّ النبي ﷺ قال: كذا، يقولون له: صدقت، هات ما عندك! لا، هذا غير صحيح.

(١) ديوان زهير ص ٧٠، شرح حمدو طماس، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٥ م.

(٢) ديوان أبي الحسن التهامي ص ٣١١، تحقيق د. محمد عبد الرحمن الربيع، نشر مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٢ م.

لا بدّ أن يقولوا له: من أين جئت بما تقول؟ لا بدّ أن يكون من مدرسة حديثة، من هم شيوخه الذين تلقى عنهم؟ من هم زملاؤه الذين عرفوه؟ لا بدّ أن يكون الشخص معروفاً. وليس صحيحاً ما يظنه بعض الناس: أنّ المحدثين كانوا ناساً (بُلْهًا) يقبلون كلّ ما يُقال لهم. هذا علم خدّمه أئمة عباقره، ورجال مؤتمنون، جابوا الآفاق، ورحلوا في الأمصار، ليأخذوا الحديث من رجاله الثقات، ورحلات علماء الحديث لا نظير لها في تاريخ العلوم، بدءاً من أصحاب النبي محمد ﷺ فمن بعدهم.

رحل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه إلى عقبة بن عامر، فلمّا قدم مصر أخبروا عقبة فخرج إليه، قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ في ستر المسلم لم يبقَ أحد سمعه غيري وغيرك. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ ستر مؤمناً على خربة ستر الله عليه يوم القيامة». قال: فأتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة، وما حلّ رحله^(١).

ورحل جابر بن عبد الله الأنصاري مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد، قال جابر: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريتُ بغيراً، ثمّ شددت عليه رحلي، فسرت إليه شهراً، حتّى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب. فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يظاً ثوبه فاعتنقي واعتنقته. فقلت: حديثاً بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيتُ أن تموت أو أموت قبل أن أسمع، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة

(١) سبق تخريجه ص ٨٥.

- أو قال: العباد - عُرَاةٌ غُرْلًا بُهُمَا». قال: قلنا: وما بُهُمَا؟ قال: «ليس معهم شيء»^(١).

وقال الإمام سعيد بن المسيّب: إن كنتُ لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد^(٢). أيام وليالي يمشيها في طلب حديث واحد!

وروى الإمام عامر بن شَرْحَبِيل الشَّعْبِي أَنَّهُ رَوَى حَدِيثًا لِرَجُلٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَعْطَيْتُكَهَا بِغَيْرِ شَيْءٍ وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَرِحُلُ فِي أَهْوَنٍ مِنْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ^(٣)، يريد أن يقول له: أنت أخذته مجّاناً، أمّا نحن فقد كنّا نذهب من الكوفة إلى المدينة، لنسمع مثل هذا الحديث. فهذه الأحاديث حفظها الله تبارك وتعالى.

فلذلك نحن عندما نتعامل مع السُّنَّة لا بدّ أن نستوثق من ثبوت الحديث، أَنَّهُ ثَابِتٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بالسند الصحيح، الَّذِي يَرْوِيهِ الْعَدْلُ الضَّابِطُ التَّامُّ الضَّبْطُ، من مبدأ السند إلى منتهاه، من غير شذوذٍ ولا علة. هكذا عُرِفَ الحديث الصحيح.

وقريب منه الحديث الحسن، الَّذِي رَوَاهُ عَدْلٌ خَفَّ ضَبْطُهُ، فَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ أَشْبَهَ بِمَا يَسْمَى فِي التَّقْدِيرَاتِ الْجَامِعِيَةِ «الْمَمْتَاز»، و«الْجَيِّدُ جَدًّا»، وَالْحَدِيثُ الْحَسَنُ أَشْبَهَ بِالْمَقْبُولِ، فَالْحَدِيثُ الْحَسَنُ فِي بَعْضِ مَرَاتِبِهِ أَقْرَبُ إِلَى الضَّعِيفِ، وَقَدْ كَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَعْتَبِرُهُ مِنْ الضَّعِيفِ قَبْلَ تَقْسِيمَاتِ التِّرْمِذِيِّ، بِتَقْسِيمِهِ الْحَدِيثَ إِلَى صَحِيحٍ، وَحَسَنٍ، وَضَعِيفٍ، أَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ فَقَدْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ يَقْسِمُ الْحَدِيثَ إِلَى صَحِيحٍ

(١) سبق تخريجه ص ٨٥.

(٢) رواه البيهقي في المدخل للسنن الكبرى (١٥١٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١)، ومسلم في الإيمان (١٥٤).

وضعيف، أمّا الحسن فقد كانوا يدرجونه في قسم الضعيف. فلا بدّ أن نستوثق من ثبوت الحديث، بحيث يكون صحيحاً أو حسناً، ويشهد لذلك عالم إمام من أئمة الحفظ والتوثيق، يشهد بأنّ هذا الحديث لا شيء في سنده، ويشهد أنّه متصل ليست فيه فجوة، فإن أي انقطاع في السنن من أدناه أو من وسطه، أو منتهاه يضعف الحديث.

فالحديث إذا سقط الصحابي من سنده يسمّى «مُرسلاً»، وإن كان سقط راوٍ من وسط السند يسمّى «مُنْقَطِعاً»، وإذا كان سقط اثنان فأكثر في وسط السند يسمّى «مُعْضَلاً»، فإذا سقط اثنان فأكثر من آخر السند يُسمّى «مُعَلَّقاً».

وقد وضع علماء الحديث - كما قال ابن الصلاح - خمسة وستين نوعاً من العلوم لخدمة الحديث، ووصل بها الحافظ السيوطي في «التدريب على التقريب» إلى أكثر من ثلاثة وتسعين نوعاً لخدمة هذه السُنّة النبويّة. فلا بدّ أن نستوثق من ثبوت الحديث، فإذا لم يكن حديثاً ثابتاً لا يلزمنا.

حكم العمل بالحديث الضعيف:

أجاز بعض العلماء العمل بالحديث الضعيف - أو قل: أجازوا روايته - في فضائل الأعمال، وفي الترغيب والترهيب، والرقائق، ولم يشدّدوا إلا فيما يتعلّق به حكم شرعي من حلال وحرام وكراهة وإيجاب واستحباب. وفي ذلك يقول العلامة المنذري في مقدمة «الترغيب والترهيب»: «إِنَّ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْعُلَمَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسَاغُوا التَّسَاهُلَ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ التَّرْهِيْبِ، حَتَّى إِنَّ كَثِيْرًا مِنْهُمْ ذَكَرُوا الْمَوْضُوعَ وَلَمْ يَبَيِّنُوا حَالَهُ!»^(١).

(١) انظر: الترغيب والترهيب للمنذري (٣٦/١)، تحقيق مصطفى محمد عمارة، نشر إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر.

ونحو هذا ما قاله الحاكم في أول كتاب «الدعاء»: «وأنا بمشيئة الله أُجري الأخبار التي سقطت على الشيخين في كتاب الدعوات على مذهب أبي سعيد عبد الرحمن بن مهدي في قبولها»، ثم ساق بسنده إلى عبد الرحمن بن مهدي قوله: «إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد، وانتقدنا الرجال، وإذا روينا في فضائل الأعمال والثواب والعقاب والمباحات والدعوات تساهلنا في الأسانيد»^(١).

وروى الخطيب في «الكفاية» بسنده، عن أحمد قال: إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال، وما لا يضع حكمًا أو يرفعه، تساهلنا في الأسانيد.

وقال: أحاديث الرقاق يُحتمل أن يُتساهل فيها حتى يجيء شيء فيه حكم. وعن أبي زكريا العنبري قال: الخبر إذا ورد لم يحرم حلالًا، ولم يُحل حرامًا، ولم يوجب حكمًا، وكان في ترغيب أو ترهيب، أو تشديد أو ترخيص، وجب الإغماض عنه، والتساهل في رواته^(٢).

والبعض رفض ذلك، وسوّى بين أحاديث الترغيب والترهيب والرقائق والزهد وغيرها من أحاديث الأحكام، فلم يقبل إلا الصحيح والحسن.

قال ابن رجب في «شرح العلل»: «وظاهر ما ذكره مسلم (ت ٢٦١هـ) في مقدمة كتابه «الصحيح» يقتضي أنه لا تُروى أحاديث الترغيب والترهيب إلا عمّن تُروى عنه الأحكام»^(٣).

(١) رواه الحاكم في الدعاء (٤٩٠/١).

(٢) روى هذه الآثار الخطيب في الكفاية ص ١٣٤.

(٣) انظر: شرح علل الترمذي لابن رجب (٣٧٢/١)، تحقيق د. همام سعيد، نشر مكتبة المنار،

الأردن، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

والظاهر أنّه مذهب إمام الجرح والتعديل يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ)، والبخاري (ت ٢٥٦هـ) أيضًا، وذهب إليه من المتأخرين ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) من الظاهرية، والقاضي ابن العربي (ت ٥٤٣هـ) من المالكية، وأبو شامة (ت ٦٦٥هـ) من الشافعية.

ومن المعاصرين الشيخ أحمد شاكر، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

يقول العلامة شاكر في «مختصر علوم الحديث» لابن كثير، بعد أن ذكر ما أجازه بعضهم من رواية الضعيف من غير بيان ضعفه بالشروط التي ذكرناها: «والذي أراه أن بيان الضعف في الحديث الضعيف واجب على كلّ حال؛ لأنّ ترك البيان يوهّم المطلّع عليه أنّه حديث صحيح، خصوصًا إذا كان الناقل من علماء الحديث الذين يُرجع إلى قولهم في ذلك، وأنّه لا فرق بين الأحكام وبين فضائل الأعمال ونحوها في عدم الأخذ بالرواية الضعيفة، بل لا حُجّة إلا بما صحّ عن النبي ﷺ من حديث صحيح أو حسن.

وأما ما قاله أحمد بن حنبل وابن المهدي وابن المبارك: إذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا. فإنّما يريد بها - فيما أرجح والله أعلم - الأخذ بالحديث الحسن الذي لم يصل إلى درجة الصحة، فإنّ الاصطلاح في التفرقة بين الصحيح والحسن لم يكن في عصرهم مستقرًا واضحًا، بل كان أكثر المتقدّمين لا يصف الحديث إلا بالصحة أو الضعف فقط»^(١).

(١) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث (٢٧٨/١)، نشر مكتبة المعارف، الرياض، طبعة خاصة بوزارة الأوقاف القطرية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

وللإمامين ابن تيمية وابن القيم كلام في هذا المعنى نفسه، فسَّرا به ما رُوي عن الإمام أحمد أنَّه يأخذ بالحديث الضعيف، ويقدمه على الرأي والقياس، فأفادا أنَّ مراده الحسن، إذ الترمذي هو الذي شهر هذا التقسيم، كما هو معروف.

أمَّا الشيخ الألباني فقد أفاض في ذلك في مقدِّمات عدد من كتبه، وبخاصة «صحيح الجامع الصغير وزيادته»، و«صحيح الترغيب والترهيب».

شروط العمل بالحديث الضعيف:

وربما توهم بعض الناس أنَّ العلماء يأخذون أيَّ حديث ضعيف في فضائل الأعمال، لا، بل هم اشترطوا لذلك شروطًا، معروفة، وهي:

الأول: ألا يكون الحديث شديد الضعف، أي أن يكون ضعفه منجرًا، أو قريبًا من الحسن. فيخرج من هذا الشرط ما انفرد به مَنْ عُرِف بالكذب، أو اتُّهم به، ومَنْ فحش غلطه.

الثاني: أن يكون مندرجًا تحت أصل كُلِّيٍّ، بمعنى ألا نُثبت بهذا الحديث فضيلة ولا حكمًا، ولا نؤسِّس عليه قاعدة. مثل حديث ضعيف في فضل الصدق، أو في الترهيب من الكذب؛ ففضل الصدق والتحذير من الكذب ثابت بنصوص قرآنية كثيرة، وبأحاديث الرسول ﷺ الصحيحة الوفيرة، فيمكن عندها أن تأتي بحديث ضعيف مُرغَّب في الصدق، أو مرهَّب من الكذب. فلا بدَّ أن يكون الحديث الضعيف مندرجًا تحت أصل أو قاعدة ثابتة بالقرآن، أو بالسُّنة الصحيحة؛ ولذلك يخرج بهذا الشرط ما يُخترع بحيث لا يكون له أصل ثابت.

الثالث: ألا يُعتقد عند العمل به ثبوته؛ لئلا يُنسب إلى النبي ﷺ ما لم يقله، وإنَّما يُعتقد الاحتياط.

الرابع: ألا يقال فيه قال رسول الله ﷺ، وإنما يرويه الراوي بصيغة تدلُّ على التَّمريض والتَّضعيف، كأنَّ يقول: رُوي عن رسول الله ﷺ كذا، أو ورد عن رسول الله ﷺ كذا، أو حُكي عن رسول الله ﷺ كذا، أو أن يقول: رواه فلان، رواه الترمذي وقال: غريب - مثلاً - يعني ضعيف.

ولكن أكثر الوعاظ والخطباء والمذكرين لا يلقون بالأل لهذا الشرط؛ ويُصدِّرون أحاديثهم دائماً بقولهم: قال رسول الله ﷺ. وهم لا يعرفون أقال رسول الله ﷺ هذا أم لا؟

إضافة شرطين آخرين:

الخامس - وهو زيادة من عندي - : ألا يشتمل الحديث على مبالغات وتهويلات يمجُّها العقل أو الشرع أو اللغة، وهذا شرط مهم، فكثير من الأحاديث الضعيفة فيها مبالغات وتهويلات ينكرها العقل، ويرفضها الدين وتأبأها اللغة، فلا ينبغي للمسلم أن يستشهد بها.

أحدثكم عن بعض ما تمجُّه اللغة: مثلاً حديث: «ويلٌ وادٍ في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً، قبل أن يبلغ قعره»^(١).

ومثل: «طوبى شجرة في الجنة»^(٢).

ومثل ذلك ما جاء عند الطبراني، عن ابن مسعود رضي الله عنه، من تفسير

(١) رواه أحمد (١١٧١٢)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في الزهد (٢٣٨٣)، وقال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث ابن لهيعة. قال ابن كثير في التفسير (٣١٢/١): لم ينفرد به ابن لهيعة، ولكن الآفة ممن بعده، وهذا الحديث بهذا الإسناد مرفوعاً منكراً. عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه أحمد (١١٦٧٣)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٤١٣)، عن أبي سعيد الخدري.

(الغِيّ) في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، قال: وادٍ في جهنم. وفي رواية: نهر في جهنم^(١).

وأغرب منه ما رواه ابن أبي الدنيا، عن شُفَيِّ بن ماتع: أنَّ في جهنم وادياً يدعى «أثاماً» فيه حيّات وعقارب^(٢). يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

وكل هذا ليس هو المراد، فكلمة الويل موجودة في الجاهليّة والإسلام، وطوبى لفلان موجودة في الجاهليّة والإسلام، وما كان الجاهليّون يعرفون أنَّ الويل وادٍ في جهنم، والطوبى شجرة في الجنة، طوبى فعلى من الطيب. فهذه الأحاديث التي يرويها رجل مثل درّاج أبي السّمح، عن أبي الهيثم، أحاديث من هذا النوع ترفضها اللّغة، فلا ينبغي أن نُسوّد بها الصفحات.

وأنا أقول: نحن في عصر تنوّر فيه الناس وتثقفوا وتعلّموا. في بعض الأزمنة المتقدّمة يمكن أن تروج فيها هذه الأحاديث التي فيها مبالغات وتهويلات عند عوام الناس، بل عوام الناس يعجبهم جدّاً هذا النوع من الترغيب والترهيب، يستقبلونها بشغف، ويستمعون إليها بإنصات! ولكن عندما تُكلّم ناساً من المثقّفين خريجي الجامعات العصرية، وتذكر لهم مثل هذه الروايات، ينفرون من الدين، يعتبرون أنَّ الدين مخرّف، والتخريف ليس في الدين، إنّما التخريف في عقل الواعظ، أو الخطيب، أو المدرس الذي جاء بهذه الروايات، التي لم تثبت صحّتها عن رسول الله ﷺ، وما أغنانا عنها.

(١) رواه الطبراني (٢٢٧/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١١٥٧، ١١١٥٨): رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها ثقات إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في صفة النار (٣٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢١٤٣).

ومما ينبغي أن نذكره أيضًا في هذه القضية، أن نستغني بالصحاح عن الضعاف، ونستغني بالمقبول عن المردود، فما من قضية - والحمد لله - نحتاج فيها إلى إيراد هذه الأحاديث الواهية، إلا وفي كتاب الله تعالى، وفي الأحاديث الصحيحة والحسنة عن رسول الله ﷺ ما يُغني عنها، فلماذا يورط الداعية نفسه في هذا؟ وهو في غنى عنه.

ومما يؤسف له أن الإمام المنذري رَحِمَهُ اللهُ، ذكر كثيرًا من هذه الأحاديث في كتابه «الترغيب والترهيب»، ولا عجب أن سارع إليه الخطباء وحفلوا بها! ولهذا أعرضنا عنها في كتابنا «المنتقى من الترغيب والترهيب».

السادس - وهو زيادة من عندي أيضًا -: ألا تعارض دليلاً شرعياً آخر أقوى منها. مثال ذلك: الأحاديث الضعيفة التي رُوِيَتْ في شأن عبد الرحمن بن عوف: أنه يدخل الجنة حبواً بسبب غناه^(١). فقد يقال: إن مثل هذه الأحاديث تدرج تحت أصل التحذير من فتنة المال، وطغيان الغنى، ولكن يجب أن نذكر أنها تعارض أحاديث صحيحة جعلت عبد الرحمن بن عوف من العشرة المُبَشِّرِينَ بالجنة، فضلاً عن وقائع ثابتة، وروايات مستفيضة، تُثبت أنه كان من خيار المسلمين، وكبار المتقين، وجعله عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الستة أصحاب الشورى، وجعل لصوته ميزة ترجيحية على غيره عند تساوي الأصوات.

(١) رواه أحمد (٢٤٨٤٢)، وقال مخرّجه: حديث منكر باطل. والطبراني (١٢٩/١)، والبخاري (٦٨٩٩)، وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة (١٤٧): رواه أحمد وفي إسناده عمارة وهو يروي المناكير، وقد قال أحمد هذا الحديث: كذب منكر. قال ابن حجر: لم يتفرد به عمارة بن زاذان فقد رواه البخاري من طريق أغلب بن تميم، وأغلب شبيهه عمارة بن زاذان في الضعف لكن لم أر من اتهمه بالكذب، وقد روي من طريق أخرى فيها متروك. وقال النسائي: الحديث موضوع. عن عائشة.

وقد قال المنذري في «الترغيب والترهيب»: وقد ورد من غير وجه، ومن حديث جماعة من الصحابة، عن النبي ﷺ: أَنَّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يدخل الجنة حبواً لكثرة ماله. ولا يسلم أجودها من مقال، ولا يبلغ منها شيء - بانفراده - درجة الحسن، ولقد كان ماله بالصفة التي ذكر رسول الله ﷺ: «نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»^(١). فَأَنَّى تنقص درجاته في الآخرة أو يقصر به دون غيره من أغنياء هذه الأمة، فإنه لم يرد هذا في حق غيره إنما صحَّ سبق فقراء هذه الأمة أغنياءهم على الإطلاق، والله أعلم^(٢).

وقال الحافظ الذهبي بعد ما تكلم عن هذا الحديث وضعفه: «وبكل حال، فلو تأخر عبد الرحمن عن رفاقه للحساب، ودخل الجنة حبواً على سبيل الاستعارة، وضرب المثل، فإنَّ منزلته في الجنة ليست بدون منزلة عليّ والزبير، رضي الله عن الكل»^(٣).

أحاديث الأحكام يجب أن تكون صحيحة:

أريد أن أقول هنا أيضاً: من المتفق عليه أن أحاديث الأحكام يجب أن تكون صحيحة، ولكن الفقهاء من قديم تساهلوا في رواية الأحاديث، وقال من قال: هذا من أحاديث الفقهاء. أي التي يذكرونها في كتبهم دون سند. وهذا ما جعل رجلاً إماماً موسوعياً الثقافة، وهو أبو الفرج بن الجوزي الحنبلي يؤلف كتاباً سمّاه «التحقيق في أحاديث التعليق»، يقصد

(١) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في البيوع

(٢/٢)، وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في مشكلة الفقر (١٩).

عن عمرو بن العاص.

(٢) انظر: الترغيب والترهيب (٦٦/٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٧٧/١، ٧٨).

الأحاديث المعلّقة في كتب الفقه بدون أسانيد، ألّف كتابه هذا، ونقّحه أيضاً أحد الحنابلة، هو ابن عبد الهادي في كتابه «تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق».

وجاء بعد ذلك من العلماء من خرّجوا الكتب المشهورة في الفقه، فوجدنا الحافظ الزيلعي عند الحنفية يخرج أحاديث كتاب «الهداية» للمرغيناني، في كتابه الشهير «نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية»، وهو أعظم كتب التخريج، ثمّ اختصره الحافظ ابن حجر وأضاف عليه بعض الفوائد، وسَمّاه «الدراية في منتخب تخريج أحاديث الهداية»، وخرّج الحافظ ابن حجر أيضاً أحاديث «شرح الرافعي على الوجيز للغزالي»، والرافعي الكبير إمام من أئمة الشافعية، فخرج كتابه الشهير سَمّاه «التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير».

وفي المذاهب الأخرى عندهم كتب مثل هذه.

وفي عصرنا جاء الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ وقال: مذهب الحنابلة - وهو المذهب القائم على الأحاديث أكثر من غيره - ليس فيه كتاب في تخريج الأحاديث! فخرّج أحاديث كتاب من كتب المتأخرين، وهو «منار السبيل شرح الدليل»، وسَمّاه «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل».

المهمُّ أنْ كُتِبَ الفقه لا تخلو من أحاديث ضعيفة، وأنا بنفسني قرأتُ كتب المذاهب المختلفة، ووجدت الاعتماد في كثير من الكتب على أحاديث غير صحيحة، وهذا موجود في كل المذاهب! وإنْ تفاوتت في ذلك.

يقول: الإمام الزيلعي عن هذه الأحاديث غير الثابتة: هذا غريب. يعني أنّه ليس له سند معروف، وكذلك عند الشافعية، وجدت هذا في

حديث: «ليس في المال حقٌ سوى الزكاة»^(١). قال الإمام البيهقي: والذي يرويه أصحابنا في التعاليق: «ليس في المال حقٌ سوى الزكاة»، فلست أحفظ فيه إسناداً^(٢). وقد بينت أن هذا الحديث مغلوط، والصواب: «في المال حقٌ سوى الزكاة». رواه الترمذي^(٣) وابن ماجه، ثم حدث خطأ قديم في ابن ماجه، وحذفت كلمة «ليس»، فأصبح «ليس في المال حقٌ سوى الزكاة».

ولذلك كان أول معلم وضابط نتعامل به مع السُّنَّة أن نستوثق من صحَّة ثبوت الحديث.

المعلم الثاني: الاستيثاق من دلالة الحديث على الحكم:

وهذا يعني أن نعرف كيف نفهم الحديث، وكيف نستنبط من الحديث الحكم المراد، أو المعنى المنشود، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا أهل الفقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وكما قال ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٤).

(١) رواه ابن ماجه في الزكاة (١٧٨٩)، وقال النووي في شرح المذهب (٣٣٢/٥): ضعيف جداً لا يعرف. وقال الألباني في الضعيفة (٤٣٨٣): ضعيف منكر. عن فاطمة بنت قيس. وانظر كتابنا: فقه الزكاة (٩٧١/٢ - ١٠٠٢)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢٥، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

(٢) انظر: السنن الكبرى (٨٤/٤).

(٣) رواه الترمذي في الزكاة (٦٦٠)، عن فاطمة بنت قيس عن النبي ﷺ: قال «إِنَّ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ». وقال: هذا حديث إسناده ليس بالقوي، وأبو حمزة ميمون الأعور ضعيف، وروى بيان، وإسماعيل بن سالم، عن الشعبي هذا الحديث قوله: إن في هذا المال حقاً سوى الزكاة. وهذا أصح، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (١٠٣).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٧)، عن معاوية.

الآفات التي أتيت بالسنة من قبلها:

السنة أتيت من آفات ثلاث: الأولى: الانتحال. والثانية: سوء التأويل. والثالثة: التحريف. كما جاء في الحديث الذي رواه البيهقي وغيره، وقَوَّاه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»^(١). هذه هي مهمّة الخلف العدول، الأجيال التي حملها الله عبء الحفاظ للسنة، والدفاع عنها، والنشر لها، هؤلاء الخلف العدول مهمتهم أن ينفوا عن علم النبوة، وميراثها، تحريف الغالين.

الآفة الأولى: تحريف أهل الغلو:

ففي الحديث اعتبر ﷺ الغلاة محرّفين؛ لأنّهم غيَّروا طبيعة الإسلام السهلة الميسرة الوسطية، إلى طبيعة أخرى، تُكلِّف الناس شططا، وتُرْهقهم عُسْرا، وشرعوا فيه ما لم يأذن به الله، وحرّموا على الناس ما أحلّ الله لهم. وقد سجّل القرآن عليهم ذلك حين قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَنْ سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، ولهذا روى ابن

(١) رواه ابن وضاح في البدع (١)، والبيهقي في الشهادات (٢٠٩/١٠)، وصحّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٨). عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري. والحديث ذكره الإمام ابن القيم في مفتاح دار السعادة وقَوَّاه لتعدد طرقه (١٦٣/١، ١٦٤)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت. وكذلك العلامة ابن الوزير الذي استظهر صحته أو حُسْنه، لكثرة طرقه مع ما نقل من تصحيح الإمام أحمد له، والحافظ ابن عبد البر، وترجيح العقيلي لإسناده، مع سعة اطلاعهم وأمانتهم، فهذا يقتضي التمسك به. انظر: الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم (٢١/١ - ٢٣)، نشر دار المعرفة، بيروت. وانظر كلامنا عن هذا الحديث في كتابنا: كيف نتعامل مع السنة النبوية ص ٣٦ - ٤١، نشر دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٠م.

عبّاس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : «إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»^(١).

الآفة الثانية: انتحال أهل الباطل:

وهناك انتحال أهل الباطل الذين يكذبون على رسول الله ﷺ ، ويحاولوا أن يُدخلوا على هذا النهج النبوي ما ليس منه، وأن يلصقوا به من المُحدثات والمبتدعات ما تأباه طبيعته، وترفضه عقيدته وشريعته، وتنفر منه أصوله وفروعه. وللأسف أن كتبنا امتلأت بهذه الأحاديث الموضوعية، لا يكاد يخلو كتاب منها، كتب المفسرين مملوءة بأحاديث من هذا النوع، نجد عددًا من المفسرين كالزمخشري والبيضاوي والثعالبي وإسماعيل حقيّ يذكرون الحديث في فضل كلِّ سورة، وهو حديث مكذوب بالإجماع! ففي آخر كل سورة يقولون ورد كذا وكذا في فضل هذه السورة.

وللأسف وجدنا صاحب «روح البيان في تفسير القرآن» يدافع عن إيراد هذه الأحاديث ويقول: الأحاديث الموضوعية لا حرج فيها إن كانت دفاعًا عن الدين، أو ترغيبًا في مكرمة من المكارم، أو فضيلة من الفضائل، والذين يذكرون حديث: «وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعْهُ مِنْ النَّارِ»^(٢). هذا فيمن كذب عليه، أمّا هؤلاء فقد كذبوا له ﷺ ولم يكذبوا عليه^(٣)! يعني أنهم كذبوا للمصلحة. مصلحة الدين فيما زعموا!

(١) سبق تخريجه ص ٢٦.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٧٤.

(٣) راجع: تفسير روح البيان لإسماعيل حقي (٥٢١/٣)، نشر دار إحياء التراث.

كَأَنَّ هَذَا الدِّينَ دِينَ نَاقِصٌ وَيَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يُكَمِّلُهُ بِالْكَذِبِ! لَقَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْصَّدَقِ عَنِ الْكَذِبِ، وَبِالْحَقِّ عَنِ الْبَاطِلِ، فَهَذَا عَذْرُ أَقْبَحَ مِنْ ذَنْبٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وللأسف الأحاديث الموضوعة موجودة في كتب التفسير، وفي كتب الحديث نفسها، حتّى في مستدرک الحاكم، وفي سنن ابن ماجه، أحاديث موضوعة! ومسند أحمد فيه أحاديث، وقد حاول ابن حجر أن يدافع عنها، والكثير منها ذكره شيخه الحافظ العراقي، والحق مع الحافظ العراقي، وهو إمام متبحر.

والحفاظ المتأخرون يصعب عليهم جدّا الحكم على حديث بالوضع. عُرف ذلك بالاستقراء.

وكذلك نجد كتب التصوف مليئة بالأحاديث الموضوعة، كتاب مثل «إحياء علوم الدين» مليء بهذه الأحاديث الموضوعة والتي لا أصل لها، وكثيراً ما يقول الحافظ العراقي: لم أجد لها أصلاً. يعني: ليس لها سند معروف، وحاول شارح إحياء علوم الدين (الزبيدي) رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يَوْجِدَ أَصْلًا لهذه الأحاديث التي لا أصل لها، وقد استطاع في بعضها، ولم يستطع في البعض الآخر.

الأحاديث الموضوعة موجودة، ولا بدّ أن ننفي انتحال المبطلين عن السُّنَّةِ، ونُصَحِّحَ ثقافتنا، فلا يمكن أن تقوم الثقافة الإسلامية على أحاديث مكذوبة على رسول الله.

سُئِلَ الإمام ابن حجر الهيثمي الفقيه الشافعي المعروف عن خطيب يرقى المنبر في كل جمعة ويروي أحاديث كثيرة ولم يبين

مخرجيها ولا رواتها؟ فأجاب بقوله: «ما ذكره من الأحاديث في خطبه من غير أن يبين رواتها أو من ذكرها فجائز، بشرط أن يكون من أهل المعرفة في الحديث، أو ينقلها من كتاب مؤلفه كذلك، وأمّا الاعتماد في رواية الأحاديث على مجرد رؤيتها في كتاب ليس مؤلفه من أهل الحديث، أو في خطب ليس مؤلفها كذلك، فلا يحل ذلك، ومن فعله عُرِّر عليه التعزيز الشديد، وهذا حال أكثر الخطباء، فإنهم بمجرد رؤيتهم خطبة فيها أحاديث حفظوها وخطبوا بها، من غير أن يعرفوا أن لتلك الأحاديث أصلاً أم لا، فيجب على حكّام كل بلد أن يزجروا خطباءها عن ذلك، ويجب على حكّام بلد هذا الخطيب منعه من ذلك إن ارتكبه»^(١).

ولو طبّقنا هذه الفتوى لمنع كثير من خطباء المساجد من الخطابة، عندما أحضر بعض خطب الجمعة، أجد الخطبة لا تخلو من الأحاديث الموضوعية أو الواهية جدّاً، أو التي لا أصل لها، أو المنكرة الشديدة النكارة؛ ولذلك يجب أن ننقي ثقافتنا من هذا الباطل، الذي لا يمكن أن تقوم عليه ثقافة، لا بدّ أن ننقيها ونصفيها بحيث تقوم على القرآن الكريم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]، وعلى السُّنة الصحيحة والحسنة. فعلى هؤلاء الخلف العدول أن ينفوا عن ميراث النبوة تحريف الغالين، وانتحال المبطلين.

الآفة الثالثة: سوء التأويل:

وهناك «سوء التأويل»، الذي به تُشوّه حقيقة الإسلام، ويُحرّف الكلم عن مواضعه، وتُنتقص فيه أطراف الإسلام، فيخرج من أحكامه وتعاليمه

(١) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي (٣١، ٣٢)، نشر دار الفكر.

ما هو من ضلّبه - كما حاول أهل الباطل أن يدخلوا فيه ما ليس منه - أو يؤخّروا ما حقّه أن يُقدّم، أو يُقدّموا ما حقّه أن يؤخّر.

لقد تعرّض القرآن الكريم لسوء التأويل، وكذلك تعرّضت السُنّة للتأويل السيء، والفهم الرديء، من الجاهلين بهذا الدين، الذين ليس لهم من الرسوخ في العلم، ولا من التجرّد للحقّ ما يعصمهم من الزيغ والانحراف في الفهم، والإعراض عن المحكمات واتباع المتشابهات؛ ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويلها، تبعًا للهوى المضلّ عن سبيل الله. فعلى الخلف العدول أيضًا أن ينفوا عن ميراث النبوة هذا التأويل السيء، بالتنبيه عليه، والتحذير منه، ووضع الضوابط الضرورية للوقاية من الوقوع فيه.

تأويل العلماء مقبول ومطلوب:

وإذا كان تأويل الجاهلين مرفوض، فهذا يعني أن تأويل العلماء مقبول؛ لأنّه سيكون مبنياً على علم وأساس، فلا يؤوّل إلا ما يحتاج إلى التأويل. الأصل أن نأخذ الأشياء على ظاهرها ولا نؤوّلها، لا نصرّفها عن الظاهر إلى معانٍ مرجوحة إلا بدليل يدلّ عليها، هذا هو الأصل.

التأويل لا بدّ منه، ولا يخلو منه عالم من العلماء، بعض الناس يسمّونه مجازاً، أو يسمّونه كناية، ومن لم يسمّه تأويلاً ولا مجازاً ولا كناية يؤوّل أيضاً، شيخ الإسلام ابن تيمية لا يسمّه مجازاً، لكنّه يؤوّل، لأنّه لا يمكن الاستغناء عن التأويل.

التأويل قد يوجب العقل، وقد يوجب الشرع، وقد توجب اللغة، ولذلك لا توجد مدرسة من المدارس الإسلامية - في الكلام أو الفقه أو الأثر أو التصوّف - إلا لجأت للتأويل، وإن تفاوتوا في ذلك تفاوتاً كثيراً، ما بين

مُوسَّع ومُضَيَّق، وقريب وبعيد في تأويله، حتَّى رأينا الإمام ابن حزم الظاهري يلوذ به في بعض الأحيان، حين لا يجد منه بداً.

حكى لي الأستاذ مصطفى الزرقا - حفظه الله -: أنَّ قانونيًا كبيرًا من أكبر قانونيي البلاد العربية، قال له: أنا فتحت البخاري ثمَّ قرأت فيه أنَّ النيل والفرات من أنهار الجنَّة^(١). فطويته ولم أرجع إليه، كيف يكون النيل والفرات من الجنة؟ نحن نعرف النيل والفرات من أين؟ النيل نابع من هضبة الحبشة، أو من البحيرات هناك في أوغندا، بحيرة فكتوريا، وغيرها من البحيرات، بحيرات معروفة درسناها في الجغرافيا، فكيف نقول: إنَّه نابع من الجنة؟! وكذلك نهر الفرات معروف منابعه، فكيف نقول: إنَّه نابع من الجنة؟! وليت هذا القانوني لم يُلَقِ الكتاب من أول نظرة، ولو رجع إلى أحد من أهل العلم، لعلم أنَّ لهذا الحديث تأويلًا.

أبو محمد ابن حزم وأنتم تعرفون أنَّه ظاهريٌّ، يأخذ بحرفيّة النصِّ، ويجمد على الظواهر، ويستقتل دونها، إنَّما في هذا الحديث، وفي حديث: «بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنَّة»^(٢)، قال: «هذان الحديثان ليس على ما يظنُّه أهل الجهل، من أنَّ تلك الروضة قطعة منقطعة من الجنَّة، وأنَّ هذه الأنهار مهبطة من الجنة، هذا باطل وكذب؛

(١) في الصحيح عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة «... ثم رفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة. قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار؛ نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال أمَّا الباطنان فنهران في الجنة، وأمَّا الظاهران فالنيل والفرات...». متَّفَق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٧)، ومسلم في الإيمان (١٦٤).

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٥)، ومسلم في الحج (١٣٩٠)، عبد الله بن زيد المازني.

لأنَّ الله تعالى يقول في الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، فهذه صفة الجنة بلا شك، وليست هذه صفة الأنهار المذكورة، ولا تلك الروضة، ورسول الله ﷺ لا يقول إلا الحق، فصَحَّ أَنْ كُونَ تِلْكَ الرُّوضَةُ مِنَ الْجَنَّةِ إِنَّمَا هُوَ لِفَضْلِهَا، وَأَنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا تُوَدِّي إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَنَّ تِلْكَ الْأَنْهَارَ لِبَرَكَتِهَا أُضِفَتْ إِلَى الْجَنَّةِ، كَمَا تَقُولُ فِي الْيَوْمِ الطَّيِّبِ: هَذَا مِنْ أَيَّامِ الْجَنَّةِ. وكما قيل في الضَّأْنِ: إِنَّهَا مِنْ دَوَابِّ الْجَنَّةِ. وكما قال ﷺ: «إِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»^(١). فهذا في أرض الكفر بلا شك، وليس في هذا فضل لها على مكة، ثُمَّ لَوْ صَحَّ مَا ادَّعَوْهُ وَظَنُّوه لَمَا كَانَ الْفَضْلُ إِلَّا لِتِلْكَ الرُّوضَةِ خَاصَّةً، لَا لِسَائِرِ الْمَدِينَةِ، وَهَذَا خِلَافُ قَوْلِهِمْ^(٢).

هذا من كلام ابن حزم نفسه، فابن حزم نفسه أوَّل، فالتأويل لا حرج فيه، بشرط أن يكون من أهل العلم الذين يعرفون مجالاته، وشروطه، وأنواعه، أمَّا تأويل أهل الجهل فهو مرفوض. فلا بدَّ من حُسْنِ فَهْمِ السُّنَّةِ.

المعلم الثالث: فَهْمُ الْأَحَادِيثِ فِي ضَوْءِ أَسْبَابِهَا وَمَلَابِسَاتِهَا وَمَقَاصِدِهَا:

ومن حُسْنِ فَهْمِ السُّنَّةِ، أَنْ نَفْهَمَهَا فِي ضَوْءِ الْمَقَاصِدِ الْعَامَةِ لِلشَّرِيعَةِ، فِي ضَوْءِ الْمَلَابِسَاتِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الْأَحَادِيثُ الْمَخْتَلِفَةُ، لَا يُمْكِنُ أَنْ نَقْطَعَ الْحَدِيثَ عَنْ مَلَابِسَاتِهِ وَسِيَاقِهِ، وَعَنْ الْمَقْصِدِ الْعَامِ لَهُ وَنَأْخُذَ بِظَاهِرِهِ.

خذ مثلاً الذين يرفضون كلَّ الرِّفْضِ إخراج زكاة الفطر بقيمتها نقداً، قلتُ لواحد منهم: إِنَّ عَمْرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رضي الله عنه - وهو من أئمة الهدى -

(١) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٠٢٤)، وَمُسْلِمٌ (١٧٤٢)، كِلَاهُمَا فِي الْجِهَادِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى.

(٢) الْمُحَلَّى لِابْنِ حَزْمٍ (٣٣٠/٥).



كان يأخذ صدقة الفطر من الدراهم، والإمام أبو حنيفة رحمته الله وأصحابه أجازوا هذا، والإمام النووي رحمته الله، وكذلك أجاز عدد من الأئمة إخراج القيمة في الزكاة، منهم: معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقد أخذ القيمة في زكاة الحبوب منسوجات يمنية، فقد روى البيهقي بسنده، والبخاري معلقاً، عن طاوس قال: قال معاذ: «أئتوني بخميسٍ أو لبيسٍ آخذه منكم مكان الصدقة، فإنه أهون عليكم وخير للمهاجرين بالمدينة»^(١).

قال: كيف هذا؟ هذا ضد السُّنة. فقلتُ له: عملكم أنتم هو الذي ضد السُّنة.

فقال: كيف؟ قلتُ له: لأنَّ السُّنة أرادت التيسير وأنتم أردتم التعسير، النبي صلى الله عليه وسلم حينما فرض الأطعمة على الناس ليخرجوها صدقة بمناسبة عيد الفطر، أراد أن ييسر عليهم، فقال: مَنْ عنده زبيب فليخرج زبيباً، وَمَنْ عنده تمر فليخرج تمرّاً، وَمَنْ عنده شعير فليخرج شعيراً، وَمَنْ عنده قمح فليخرج قمحاً، حتّى قال لأهل البوادي: أخرجوا الأقط - لبن مُجَفَّف - لأنَّ في هذا تيسير عليهم؛ لأنَّهم أهل ضرع. فالرسول صلى الله عليه وسلم راعى ظروف البيئة والزمن، فأوجب زكاة الفطر مما في أيدي الناس من الأطعمة، وكان ذلك أيسر على المعطي وأنفع للآخذ.

ولكن الآن تغير الوضع، وأصبحت النقود متوفرة، وهي أنفع للفقير في يوم العيد من الطعام.

(١) ذكره البخاري في صحيحه تعليقاً بصيغة جزم قبل الحديث (١٤٤٨) قال: وقال طاوس: قال معاذ رضي الله عنه. ورواه الدارقطني في الزكاة (١٩٣٠)، وقال: هذا مرسل، طاوس لم يدرك معاذاً. والبيهقي في الزكاة (١١٣/٤). وقال الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (١٣/٣): هو إلى طاوس إسناد صحيح، لكنّه لم يسمع من معاذ فهو منقطع. وانظر كتابنا: فقه الزكاة (٨١٩/٢).

ثم قلتُ له: انظر مثلاً مدينة مثل القاهرة، فيها خمسة عشر مليون فرد، كيف نُكَلِّف هؤلاء جميعاً بخمسة عشر مليون صاع، أو إذا أخذنا بنصف الصاع على مذهب أبي حنيفة سبع ملايين ونصف صاع، من أين يأتي هؤلاء بهذه الصيعان؟ والناس في هذا العصر ما عادوا يطحنون، ولا يعجنون، ولا يخبزون، بل يذهبون لشراء الخبز من الفرن أو المخبز، ولو أن أحدهم له أقارب في الريف، وقال لأحدهم: أرسل لنا بعض القمح أو الذرة أو الشعير، فأرسل له، ماذا يصنع به؟ يعطيه للفقير؟ الفقير لا يستفيد من هذا القمح أو الذرة أو الشعير، فماذا يفعل به، يبيعه، ولمن يبيعه؟ لا يجد من يشتريه منه، فنحن بذلك نعسر على الناس ما يسر الله عليهم.

وقد حدّثني بعض الأخوة في جدة والرياض وهذه البلاد: أنَّ الفقير يأخذ التمر مثلاً، ويكون الغني قد اشتراه بعشرين ريالاً مثلاً، فيأخذه الفقير ويبيعه من نفس التاجر الذي اشترى منه صاحب الصدقة بأقل مما اشتراه بريال أو بريالين أو أكثر، أحياناً بنصف القيمة، وأحياناً يرفض شراءه لكثرة ما عنده. فالذي خسر في هذه القضية هو الفقير، وهذا من سوء فهم النصوص.

ولو أننا نظرنا إلى المقصد النبوي، سنجد النبي ﷺ قال: «أغنوهم في هذا اليوم»^(١)، والإغناء يتحقّق بالقيمة كما يتحقّق بالعين، وفي بعض الأحيان تكون القيمة أفضل للفقير؛ لأنّه قد لا يريد هذه العين، إنّما يريد أن يشتري لحماً لأولاده، أو يشتري حلوى، أو يشتري ثوباً، فأعطه النقود إذن يشتري بها ما يشاء.

(١) سبق تخريجه ص ٥٥.

والعين قد تكون أفضل، كما قال علماء الأحناف^(١) في ساعات المجاعة والشدائد، حينما تكون الحبوب والأطعمة نادرة أو معدومة، هنا نقول: أعطه الحبوب وهكذا.

فلا بدّ أن نفهم السُّنة في ضوء المقاصد والملابسات.

المعلم الرابع: التمييز بين الوسائل المتغيرة والهدف الثابت للحديث:

يجب في تعاملنا مع السُّنة أن نُفرّق بين الوسيلة المتغيّرة، والهدف الدائم للأحاديث، هناك أهداف ثابتة، ووسائل متغيّرة، بعض الناس يركّزون كلّ التركيز على الوسائل، كأنها مقصودة لذاتها، مع أنّ الذي يتعمّق في فهم السُّنة وأسرارها يتبيّن له أنّ المهم هو الهدف، وهو الثابت الدائم، والوسائل قد تتغيّر بتغيّر البيئة أو العصر أو العرف أو غير ذلك من المؤثرات.

خذ مثلاً قول النبي ﷺ في الحديث: «الخيْلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(٢). الخيل في عصرنا لم تعد آلة الحرب، والله تعالى يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ...﴾ [الأنفال: ٦٠]، فرباط الخيل في عصرنا هو الدبّابات، والمصفّحات، وغيرها من الأسلحة، هذه هي خيل العصر.

أنا لا يهمني الوسيلة، إنّما يهمني الهدف، والهدف هو الغلبة على الأعداء، فلم يُعد الحصان أو الجواد هو الوسيلة للغلبة على الأعداء،

(١) انظر: رد المحتار (٣٦٦/٢)، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٢)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٣)، عن عروة البارقي.

وإنَّما نحتاج إلى حصان حديدي من الدبابات أو المدرَّعات التي يسمُّونها (سلاح الفرسان)، فأصبح الفارس يركب دَبَّابة، أو يركب مصفحة، فهذه هي خيل العصر، فلا ينبغي أنْ نقف عند الوسائل، بل ننظر إلى الهدف الدائم، وهذا هم المهم.

النبِيُّ ﷺ قال: «السَّوَاكُ مَظْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»^(١). السواك عودٌ من شجر الأراك، افرض مثلاً أنْ أوروباً ليس فيها أراك، أو بلاد الشرق الأقصى ليس فيها أراك، ليس عندهم هذا النوع من الشجر، ولكن عندهم معجون وفرشاة ينظفون به أسنانهم، فلا مانع من استخدام ذلك، قال ابن قدامة: «ويستحبُّ أنْ يكون السواك عوداً لِيناً ينقي الفم، ولا يجرحه، ولا يضرُّه، ولا يتفتت فيه، كالأراك والعرجون... وإن استاك بأصبعه أو خرقة، فقد قيل: لا يصيب السُّنَّة؛ لأنَّ الشرع لم يرد به، ولا يحصل الإنقاء به حصوله بالعود. والصحيح أنَّه يصيب بقدر ما يحصل من الإنقاء، ولا يترك القليل من السُّنَّة للعجز عن كثيرها»^(٢)، وقال الإمام النووي: «بأيِّ شيء استاك ممَّا يزيل التغيُّر حصل السواك، كالخرقة الخشنة، والسعد، والأُشنان»^(٣). وهو مذهب أبي حنيفة، لعموم الأدلَّة.

لأنَّ المهم هو التنظيف. بعض الناس يقولون: لا، هو الأراك أو لا. الإسلام جاء للعالم كلِّه، وليس للجزيرة العربيَّة وحدها، فلا بدَّ أنْ نطوِّر فهمنا للسُّنَّة.

(١) علَّقه البخاري بصيغة الجزم قبل حديث (١٩٣٤)، ووصله أحمد (٢٤٣٣٢)، وقال مخرَّجوه: حديث صحيح لغيره. والنسائي في الطهارة (٥)، عن عائشة.

(٢) انظر: المغني لابن قدامة (١٠٩/١)، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٤٣/٣)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢،



المعلم الخامس: جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد:

من المعالم المهمة أيضاً لفهم السُّنَّة فهما صحيحًا: أن نجمع الأحاديث الصحيحة الواردة في الموضوع الواحد، حتَّى نردَّ متشابهها إلى محكمها، ونحمل مطلقها على مقيدها، ونفسر عامَّها بخاصَّها، وبذلك يتَّضح المعنى المراد منها، ولا يُضرب بعضها ببعض.

بعض الناس يتمسَّك بحديث واحد، وينسى ما ورد من أحاديث آخر في الموضوع، بعضهم مثلاً يأتي بحديث: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»^(١). ويريد أن يأخذ من هذا الحديث أن الإسلام سيضعف وستزول دولته، وتنخفض رايته، إلى آخره! فيبدو بهذا الفهم أنه ضدَّ المبشَّرات من القرآن والسُّنَّة والتاريخ وسنن الله في المجتمعات.

وبعضهم أيضاً يذكر الحديث الآخر الذي رواه البخاري بسنده، إلى الزبير بن عدي، قال: أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: اصبروا، فإنَّه «لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شرُّ منه، حتَّى تلقوا ربَّكم». سمعته من نبيِّكم ﷺ^(٢). ويريد أن يأخذ منه: أن الحياة تنتقل من حسن إلى سيء، ومن سيء إلى أسوأ، ومن الأسوأ إلى الأشدَّ سوءاً حتَّى تقوم الساعة

أين المُبشَّرات التي جاءت بها السُّنَّة إذن؟

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٥)، وأحمد (٩٠٥٤)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٦)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الفتن (٧٠٦٨)، عن أنس.

أين الانتصار على اليهود؟ كما روى أبو هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»^(١).

أين انتصار الإسلام؟ كما روى عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يُعزُّ الله به الإسلام، وذلاً يُذلُّ الله به الكفر»^(٢).

أين فتح روميّة والقسطنطينيّة؟ كما جاء عن عبد الله بن عمرو أنه سئل: أيّ المدينتين يفتح أولاً قسطنطينية أو رومية؟ قال: فدعا عبد الله بن عمرو بصندوق له حلق، فأخرج منه كتاباً، فجعل يقرأه قال: فقال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل: أيّ المدينتين يفتح أولاً قسطنطينية أو رومية؟ فقال النبي ﷺ: «بل مدينة هرقل تُفتح أولاً»^(٣).

أين ظهور المهدي الذي سيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً؟

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩٢٢)، وأحمد (٩٣٩٨).

(٢) رواه أحمد (١٦٩٥٧)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والطبراني (٥٨/٢)، والحاكم في الفتن (٤٣٠/٤)، وصحّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٨٠٧): رجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) رواه أحمد (٦٦٤٥)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٣٨٥): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبي قبيل وهو ثقة. والحاكم في الفتن والملاحم (٥٥٥/٤)، وصحّحه، ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٤).

كما جاء عن أبي سعيد مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً». قال: «ثم يخرج رجل من عترتي - أو من أهل بيتي - من يملؤها قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وعدواناً»^(١).

أين هذه الأحاديث وأمثالها؟ لا بد أن تستقيم الأحاديث بعضها مع بعض، أن نجمع ما ورد في الموضوع الواحد لنعرف كيف نفهم هذا الحديث.

يقول ابن حجر في تعليقه على هذا الحديث: «لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شرُّ منه»: «ويحتمل أن يكون المراد بالأزمة المذكورة: أزمة الصحابة، بناء على أنهم هم المخاطبون بذلك فيختص بهم، فأما من بعدهم فلم يقصد في الخبر المذكور، لكن الصحابي فهم التعميم، فلذلك أجاب من شكك إليه الحجاج بذلك، وأمرهم بالصبر، وهم أو جلُّهم من التابعين»^(٢).

كيف نقول إنَّ زمن الحجاج - الذي عمّت الشكوى منه - أفضل من زمن عمر بن عبد العزيز الذي جاء بعده بيسير، وقد كثر الخير، وازمحل الشرُّ في زمنه؟

هناك فترات تأتي مضيئة، وينتصر فيها الإسلام، وينتشر نوره، ويعود الناس إلى الدين، بعد فترات مظلمة. فمن أجل أن نفهم الأحاديث فهماً صحيحاً دقيقاً لا بد أن ننظر نظرة كلية للأحاديث.

(١) رواه أبو داود في المهيدي (٤٢٨٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٣٠)، وقال: حسن صحيح. عن ابن مسعود.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر (٢١/١٣)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، نظر إلى حديث «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ»^(١)، فقال: «وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم»^(٢). الغربة هنا تعني دورات، أو كما نقول نحن: موجات. ولم يذكر الحديث غربة عامة دائمة شاملة، يكون الإسلام فيها غريباً في كل مكان، وإنما يكون غريباً في بلد، ثم يفتح الله عليه في بلد آخر، غريب في بيئة، ثم في بيئة أخرى يقويه الله، غريب في زمن معين، ثم يأتي زمن أفضل منه، وهكذا. كما قال إقبال رَحِمَهُ اللهُ: هو الإسلام لا تغرب شمسُه أبداً. يغرب في ناحية، فتطلع شمسُه في ناحية أخرى، غربت شمسُه في الأندلس، فدخل في أوربا، طرد من الأندلس، فدخل أوربا مرة ثانية على أيدي العثمانيين، وهكذا.

فلا بدّ لكي نفهم الأحاديث أن نفهمها فهماً كلياً.

منهج الصحابة في فهم السُّنة:

أصحاب النبي ﷺ والسلف الصالح من هذه الأمة ما كانوا ينظرون هذه النظرة الجزئية في فهم أحاديث النبي ﷺ، بل كانوا ينظرون إلى الدين كله، سواء من القرآن أو السُّنة، لا يأخذون بعض القرآن دون بعض، ولا بعض السُّنة دون بعض، إنما يأخذون الدين كله قرآناً وسُّنةً، كما قال الله: ﴿وَأَن أٰحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَم أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]، وهذا هو الواجب علينا، أن

(١) سبق تخريجه ص ٧٦.

(٢) انظر: مدارج السالكين (١٩٦/٣).



نأخذ السُّنَّة كُلَّهَا، ننظر إلى الأحاديث ونتأمَّلُها في ضوء مقاصد الإسلام الكلية، وسنجد أنَّه لا تعارض بين الأحاديث بعضها وبعض. ولا تعارض السُّنَّة القرآن، ولا تعارض السُّنَّة الواقع، ولا تعارض السُّنَّة العقل والعلم، إذا وجدت شيئاً من المعارضة، فإمَّا أنَّ السُّنَّة غير ثابتة، أو أنَّها غير صحيحة، وإما الآفة في فهمنا نحن للسُّنَّة، فلا بدَّ أن نراجع أفهامنا، وبذلك تستقيم لنا الأمور، ويستبين لنا السبيل، وتتضح لنا الحجة، وتتبين المحجَّة، وقد تركنا ﷺ على المحجَّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

أكتفي بهذا القدر فالموضوع طويل، ولا يتسع له الوقت، وأنصح بمراجعة كتابي «كيف نتعامل مع السُّنَّة؟»^(١)، وننتقل إلى الأسئلة.



إجابات الشيخ القرضاوي عن أسئلة المحاضرة

ضوابط رواية الأحاديث الضعيفة

السؤال: ما الضوابط التي لا بدّ منها لرواية الأحاديث الضعيفة؟

الجواب: ذكرت ذلك أثناء المحاضرة، كما ذكرت ذلك في كتابي «كيف نتعامل مع السُّنة» وكتابي «المنتقى من الترغيب والترهيب»، وهو تلخيص لكتاب الحافظ المنذري المشهور «الترغيب والترهيب»، والذي يعتمد عليه كثير من الوعّاظ والخطباء، فيأخذون من أحاديثه، ولا يراعون شروطها. فقامت والحمد لله بانتقاء الأحاديث المقبولة من هذا الكتاب، وذكرت فيه الضوابط التي لا بدّ منها لرواية الأحاديث الضعيفة.

وقلت: حتّى لو كانت الشروط الثلاثة التي ذكرها العلماء متوفرة، ولكن الحديث فيه شيء يمجّهُ العقل المعاصر، فلا يجوز ذكره، فأنت تخاطب الناس، ولا بدّ أن تخاطبهم بما يحبّ إليهم الدين، لا بما ينفرهم من الدين، فلا داعي أن أعتمد على أحاديث ضعيفة فيها أمور لا تقبلها العقول، مثل التفسيرات اللغوية التي ذكرتها.

كما قلت لا بدّ أن نروي الضعيف بصيغة التمرّض والتضعيف، فلا نقول: قال رسول الله ﷺ، فأنا أشترط أن يكون الحديث بعيداً عن المبالغات، فإنّ هذا يضرّ الدين ولا ينفعه.

انتقاد كتب السُّنة الصحيحة

السؤال: هل يمكن أن تنتقد كتب السُّنة الصحيحة؟

الجواب: لا أدري ما المقصود بهذه الكلمة؟ العلماء قالوا: إذا رُوي



الحديث في الصحيحين فقد جاز القنطرة، ومع هذا هناك بعض أحاديث في الصحيحين يمكن أن تُنتقد، فإذا انتقدها عالم محقق، بناء على نظر يُقبل نقده، وليس كل إنسان يُقبل نقده.

نحن نعرف مثلاً أن الإمام مسلم رحمته الله له في صحيحة أحاديث أصول وأحاديث متبعة، وهو يشترط في الأصول ما لا يشترط في المتابعات، والمتابعات هذه من الدرجة الثانية، فكثير من الناس لا يميز: هل رواه مسلم في أصل الباب، أو في المتابعات؟ فلا بد أن يُنتبه لهذا.

أمّا الكتب الصحاح الأخرى، مثل: صحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، ومستدرک الحاكم، ففيها أحاديث مردودة، ومن حقّ أيّ عالم أن ينظر إلى روايتها وأسانيدها، وأحاديث السُّنن الأربعة نفس الأمر، لا بدّ من النظر فيها إلى الرواة والأسانيد.

يعني الأصل في البخاري ومسلم الصّحّة، خصوصاً أحاديث الأصول في مسلم. ولكن بعض الأحاديث التي ثبتت عندهما لم تثبت عند بعض الأئمة، وهم أئمة.

إمكانية كذب الثقة

السؤال: هل يمكن أن يكذب الثقة؟

الجواب: الثقة لا يكذب، لكن من يكون ثقة عند بعض العلماء، قد لا يكون كذلك عند غيرهم...

اختلاف المحدثين في التصحيح والتضعيف

السؤال: قد نقرأ حديثاً صحّحه أحد المحدثين وضعّفه الآخر، فما العلّة في ذلك؟

الجواب: هذه أحكام تختلف باختلاف المصحّحين والمضعّفين، وهناك مدارس مختلفة، ولا يمكن أن نحكم على الناس جميعاً بحكم واحد.

فمثلاً: العلامة الشيخ أحمد شاكر في تخريجه لمسند الإمام أحمد، وقد أخرج منه ستة عشر جزءاً حوالي ثلثه تقريباً، كان يعتمد توثيق ابن حبان، مَنْ وثّقه ابن حبان وثّقه، نحن نعرف أنّ ابن حبان متساهل في التوثيق، إذا روى الراوي عن ثقة، وروى عنه ثقة، ولم يروِ مناكير، يُعتبر ثقة عند ابن حبان. ولكن هذا لا يكفي، لأنّ الراوي غير الثقة قد يروي عنه ثقة، وغير الثقة قد يروي عنه الثقة. فهذا الضابط غير مقبول عند المحدثين، لكن الشيخ شاكر رَحِمَهُ اللهُ - وهو من أعلم الناس حقيقة بالتخريج، ومن الأئمة في عصرنا، وعمله في مسند الإمام أحمد وفي غيره من الكتب عمل أصيل من غير شك - تساهل في التوثيق، فأكثر الرواة المُختلف فيهم مثل عبد الله بن لهيعة، وشهر بن حوشب، وعبد الله بن عقيل، كثير من الرواة الذين اختلف فيهم القدماء، ورفضهم بعضهم بإطلاق، وبعضهم رفض بعض أحاديثهم، وبعضهم ضعّفهم، وبعضهم حسّنهم، هؤلاء وثّقهم الشيخ شاكر. مثلاً قالوا: ابن لهيعة إذا روى عنه أحد العبادلة: عبد الله بن المبارك، عبد الله بن وهب، عبد الله بن يزيد المقرئ، فهو مقبول وإلا فلا، فهو بذلك وثق ابن لهيعة بإطلاق.

كذلك الشيخ الألباني يصحّح بكثرة الطرق، وهو ما لا أوافق عليه بإطلاق، وأحياناً يصحّح أحاديث ضعيفة، وأحياناً يضعف أحاديث صحيحة.

وفي الحقيقة عيب كثير من المُحدثين أنّهم لا يطبّقون القواعد. على سبيل المثال، قالوا في القواعد: إنّ الحديث إذا كان شاذّاً أو معلّلاً، ينبغي أن يُرفض، والعلة قد تكون في المتن، وقد تكون في السند.

فيأتي الشيخ الألباني ويحسن حديث: «القدرية مجوس هذه الأمة»^(١). وابن حزم يقول عن هذا الحديث، وعن حديث: «تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة، حاشا واحدة فهي في الجنة»: «هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإسناد، وما كان هكذا فليس حجة»^(٢). وكلمة «القدرية» مصطلح غريب، فنسبتهم إلى القدر غير صحيحة، وقد قيل: إن أولى الناس بالقدر من يثبته، وليس من ينفيه.

كذلك صحَّح الشيخ الألباني حديث: «الوائدة والموءودة في النار»^(٣). فكيف هذا والقرآن الكريم يقول: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، وهذا معناه: أنها لا ذنب لها، فكيف تكون في النار؟! والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وفي رواية أخرى: «الوائدة والموءودة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم»^(٤). يعني هناك فرصة للوائدة أن تنجو، وليس للموءودة أي فرصة!

(١) رواه أبو داود في السنة (٤٦٩١)، والحاكم في الإيمان (٨٥/١)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر. ووافقه الذهبي، وصحَّح وقفه الدارقطني في العلل (٢٩٨٣)، وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود (٥٨/٧): هذا منقطع، أبو حازم سلمة بن دينار لم يسمع من ابن عمر، وقد روي هذا الحديث من طرق، عن ابن عمر ليس فيها شيء يثبت. عن ابن عمر.

(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم (١٣٨/٣).

(٣) رواه أبو داود في السنة (٤٧١٧)، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات... وفي متن هذا الحديث نكارة، فإن الموءودة - وهي البنت التي تدفن حية - تكون غير بالغة، ونصوص الشريعة متضاربة على أنه لا تكليف قبل البلوغ. وابن حبان في صفة النار (٧٤٨٠). وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٧١٤٢)، عن عبد الله بن مسعود.

(٤) رواه أحمد (١٥٩٢٣)، وقال مخرَّجوه: رجاله ثقات... لكن في متنه نكارة. والنسائي في الكبرى في السهو (١١٥٨٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٦٦): رجاله رجال الصحيح. عن سلمة بن يزيد الجعفي.

وقد رجعت إلى الشُّراح لأرى ماذا قالوا في توجيه الحديث، فلم أجد شيئاً ينقذ الغُلة.

ولذلك أقول أيضاً: من ضمن الضوابط والمعامل في التعامل مع الأحاديث التي نذكرها: أنه يجب أن تُفهم الأحاديث في ضوء القرآن الكريم، فالقرآن هو الحاكم، القرآن هو الأصل. وعيب كثير من المحدثين التساهل في هذا الأمر.

ينبغي لذلك أن ندخل الفقه في الحديث، أنا ممّا أدعو إليه دائماً: أن نصل ما بين الفقه والحديث. عيب كثير من المحدثين أنهم لا يشتغلون بالفقه، وعيب كثير من الفقهاء أنهم لا يشتغلون بالحديث، نريد للمحدث أن يشتغل بالفقه وأصوله؛ حتّى تتكوّن عنده الملكة الفقهية، ونريد أيضاً للفقهاء أن يشتغل بالحديث والرواية؛ حتّى تتكوّن لديه الصنعة الحديثية، وبهذا المزيج يوجد العلماء الذين كانوا يقال عنهم: فقهاء الحديث أمثال الإمام مالك (ت ١٧٩هـ)، والإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، والإمام أحمد (ت ٢٤١هـ)، الأئمة: ابن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ)، وابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، وابن القيم (ت ٧٥١هـ)، والصنعاني (ت ١١٨٢هـ)، والذهلوي (ت ١٢٤٧هـ)، والشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، وأمثالهم. هذا الذي نريده، حتّى نفهم السُنّة ونتعامل معها تعاملًا صحيحًا.

وشكر الله لكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



كيف نتعامل مع السنة المطهرة (معالم وضوابط)

أحمد إليكم الله تبارك وتعالى، الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على خير أنبيائه وخاتم رسله، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

(أمّا بعد)

خير ما أحييكم به أيها الإخوة تحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الافتراء على السُّنَّة النبويَّة:

حديثي إليكم عن السنة المطهرة كيف نتعامل معها؟ وهذا امتداد وتكميل لحديث سابق في هذه الندوة، كنا قد تحدثنا عن السنة التشريعية أو الجانب التشريعي في السنة منذ سنتين تقريباً، ولا زال الموضوع حول السنة متصلًا، ولماذا السنة بالذات؟ لأنَّ السنة هي المفترى عليها دائماً، والمظلومة من كثير من الناس.

وقد ظلمت في عصرنا من فئتين: فئة المجترئين عليها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، من أولئك الذين يدعون العصرية والعلمية

فيها جمون السنة بغير حق، وقد يتناولون على الصحابة أنفسهم، كما تناولوا على أبي هريرة، وقد يتناولون على كتب الصحاح، كما تناولوا على البخاري رحمه الله، وقد يتناولون على الأحاديث الثابتة، إلى آخر ما نعلم.

ظلمت السنة من هؤلاء المجترئين بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ومن هؤلاء من أنكر السنة القولية كلها، كما سمعنا أن أحد الزعماء لا يقبل إلا السنة العملية، وهناك من يزعمون أنهم لا يقبلون إلا السنن المتواترة، والسنن المتواترة محدودة معدودة، وهناك، وهناك إلى آخره، هذه فئة.

سوء فهم السنة:

والفئة الأخرى التي ظلمت السنة: هي التي أساءت فهمها، فأصبحت لا تحسب السنة كما يظن بعض الناس إلا في أشياء معينة، السنة لحية طويلة، وثوب قصير، ومسواك في اليد، هذه هي السنة. وفي بعض الأوقات في مصر: السني هو الذي له لحية وعمامة ذات ذؤابة مرخاة من الوراء، هذه هي السنة، فالناس ظلموا السنة، أو تصوروا خاطئاً، من أجل هذا كان علينا أن نقف لنبين كيف نتعامل مع هذه السنة النبوية؟

تحديد مفهوم السنة:

أولاً لا بد من تحديد المفهوم، ما المراد بالسنة؟ لأن كلمة السنة في تراثنا قد تطلق ويُرَاد بها عدة معانٍ:

أحياناً نقول السنة نريد بها ما يقابل الفرض، نقول هذا فرض وهذا سنة في الأحكام.

وقد تطلق السنة ويُراد بها ما يقابل البدعة، نقول هذا مسنون وهذا مبتدع.

وقد تُطلق السنة ويراد بها ما يقابل الكتاب، كما جاء في الحديث: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله، وسنتي»^(١).

السنة هي المصدر الثاني للإسلام:

ونحن نريد السنة بهذا المعنى، السنة المقابلة للكتاب، التي هي المصدر الثاني للإسلام، لا أقول المصدر الثاني للتشريع فقط؛ لأن كلمة التشريع أحياناً قد تفهم أن المراد بها أنها مصدر للأحكام العملية فقط، بل هي المصدر الثاني للأحكام كلها: الأحكام الاعتقادية، والأحكام العملية، والأحكام الأخلاقية، فهي مصدر للتشريع وللتوجيه، فيحتاج إليها الفقيه، ويحتاج إليها الداعية، ويحتاج إليها المربي والموجه، كل هؤلاء في حاجة إلى سنة رسول الله ﷺ، وهذا هو المراد بالسنة.

تعريف السنة:

وهي التي يعبرون عنها بأنها: ما روي عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، هذا ما يعرفها به الأصوليون. وزاد المحدثون شيئاً آخر قالوا: أو وصف أو سيرة، فدخل في السنة عندهم أوصاف النبي ﷺ الخلقية والخلقية، وهي أنه كان رُبعة من الرجال، ليس بالطويل ولا بالقصير، أو كان أشد حياء من العذراء في خدرها، أو كان أجود الناس وأشجع الناس، إلى آخر ما جاء في أوصافه ﷺ.

(١) رواه الحاكم في العلم (٩٣/١)، وقال: احتج البخاري بعكرمة، واحتج مسلم بأبي أويس عبد الله، وله أصل في الصحيح. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٤٠)، عن ابن عباس.

وسيرته كقول السيدة عائشة: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُب إليه الخلاء^(١). فهذا من سيرته ﷺ، وكذلك ما يتعلق بميلاده، أو رضاعته، أو غير ذلك، كل هذا يدخل في السنة عند المحدثين، وهو ما نريده هنا أيضًا في الحقيقة، نحن نريد السنة بهذا المعنى الواسع.

هذه السنة كيف نتعامل معها؟

(١) الإيمان بمصدرية السنة:

أولاً بادئ ذي بدء: أن نؤمن بمصدريتها للإسلام تشريعاً وتوجيهاً وتربية، وهي المصدرية التالية لمصدرية القرآن الكريم، وهذا لا يحتاج إلى تدليل وإثبات، فهذا أمر مفروغ منه، وله حديث آخر في حجية السنة، طبعاً أمر معروف ثابت بالقرآن وبالسنة وبإجماع الأمة، ولا يخالف في هذا أحد، لا من القائلين بالآثر ولا من القائلين بالرأي، يعني انقسام الفقهاء إلى مدرسة الرأي ومدرسة الحديث ليس معنى هذا أن مدرسة الرأي لا تأخذ بالحديث، أو مدرسة الحديث ترفض الرأي، هذا التقسيم في الحقيقة يحتاج إلى تمحيص؛ لأنَّ الجميع معترفون بالسنة، والجميع لهم أيضاً في الرأي، هي مسألة توسع، جماعة يتوسعون في الرأي أكثر، وجماعة يتوسعون في الحديث. الحنفية مثلاً يقولون عنها مدرسة الرأي، وحين تفتح كتب الحنفية تجدهم يستدلون بآلاف الأحاديث، وأحياناً يستدلون بالأحاديث الضعيفة، وكما يقول الإمام ابن تيمية بأن أبا حنيفة أخذ بحديث ضعيف في مسألة القهقهة؛ مع أنَّه مخالف للقياس عنده، كأنه يقدم الحديث الضعيف على القياس في نظره.

(١) حديث بدء الوحي متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠).

ويزعمون أن ابن خلدون قال إنَّ أبا حنيفة لم يثبت عنده إلا سبعة عشر حديثاً، وهذا ليس بصحيح، ومن نظر إلى كتاب مثل الهداية وتخرجه للحافظ الزيلعي في كتاب نصب الراية لأحاديث الهداية وجد أحاديث كثيرة استشهد بها الحنفية.

فالأمة مجمعة على الأخذ بالسنة، كل الأمة، سواء كانوا فقهاء أم كانوا متصوفة، خاصة المتصوفون الأولون ملتزمون بالكتاب والسُّنة، من قرأ مثل رسالة القشيري وغيره يجد أنَّ الجنيد يقول: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسُّنة، من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث فليس من طريقنا، كل الطرق مسدودة على الخلق إلا من اقتفى آثار رسول الله ﷺ^(١). وغيره، وغيره.

فالالتزام بالسنة ومصدريتها أمر مجمع عليه، لم يخالف في ذلك إلا أهل البدع والأهواء، وهؤلاء لهم حديث آخر، فالإيمان بمصدرية السنة أمر لا شك فيه، وقد أمر الله بطاعة الله وطاعة رسوله، والرد عند التنازع إلى الله ورسوله، ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقد أجمعوا على أنَّ الرد إلى الله تعالى يكون الرد إلى كتابه، وإلى رسول الله ﷺ بعد وفاته يكون الرد إلى سنته، فالإيمان بمصدرية السنة هو الأمر الأول.

(٢) الاستيثاق من ثبوت السنة:

ثم يأتي بعد ذلك: الاستيثاق من ثبوت السنة، أن نستوثق ونتأكد من ثبوت السنة، عندما نريد أن نستدل لأمر من الأمور حكماً له أو حكماً عليه.

(١) انظر: الرسالة القشيرية (٧٩/١).

والاستيثاق طرقه معروفة، وقد قعد علماء هذه الأمة قواعد وأصلوا أصولاً في: كيف نثبت السنة؟ ليس الأمر كما زعم زاعم، هذا الذي يسمى حسين أحمد أمين يقول: لو كنا في العصر الماضي في عصر الفقهاء، وأردنا أن نحرم تعدد الزوجات؛ لوضعنا سلسلة: حدثنا فلان عن فلان، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر: أن من تزوج على زوجته فقد أصابه كذا، أو له من الوعيد كذا وكذا!

هذا كلام سفيه، كأن علم الحديث يأتي به من هب ودب، وهو أي واحد يقول لك كلام ويأتي لك بالسلسلة الذهبية: مالك، عن نافع، عن ابن عمر.. ويأتي لأي واحد يأخذه؟!

طبعاً لا، يعني لو فرض أن واحداً جاء بمثل هذا لأحمد بن حنبل مثلاً، وقال له: روي عن فلان، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر.. هل سيفتح جعبته ويقول: نعم، سجل؟! قبل كل هذا يقول له: من أنت؟ لا بد أن يكون الشخص معلوماً، معلوم العين، من أي قبيلة هو؟ وما نسبه؟ وما مولده؟ وأين نشأته؟

وبعد ذلك سيرته: من شيوخه؟ عمن أخذ العلم؟ من أي حلقة تخرج؟ هي حلقات معروفة، من شيوخك الذين أخذت عنهم؟ ومن تلاميذك الذين يعرفونك؟ وما هي سيرتك؟ لا بد أن يعرف هذا قبل أن يؤخذ منه.

ولو فرض أنه أصبح معلوم العين والحال، وموصوفاً بالقبول لا بد أن يُسأل: من أين جئت بهذا الحديث؟ جئت بالحديث عن مالك؟ ولماذا لم يروه أصحاب مالك؟ هناك من عاشوا مع مالك وأخذوا عنه؛ فكيف غاب عنهم هذا الحديث وجئت به أنت وحدك؟! من هنا سيقف أي واحد يقول له: من أين لك هذا الحديث؟!

ولذلك كان من الأشياء التي ترد بها الأحاديث ممن يحدث: يقولون إنه يأتي بالغرائب. يعني يحدث بأحاديث عن بعض العلماء، لا يحدث بها أصحابهم وتلاميذهم المعروفون عنهم، يقولون: يأتي بالغرائب. هذا حديث غريب، انفرد به فلان! وانفراد واحد ليس من الثقات المشهورين بحديث معين؛ يجعل على حديثه علامة استفهام، وقد يُرد.

رد الحديث بسبب سوء الفهم:

فالاستيثاق عندنا له طريقه والحمد لله، وعندنا كتبه المعروفة الآن، لكن للأسف في عصرنا وجدنا هنا عدة أخطار؛ هناك خطر من يرد الأحاديث بالرأي والهوى، وخطر من يقبل الأحاديث على عواهنها دون تمحيص!

هناك من يرد الحديث لأدنى سبب، منذ عدة سنوات كتب كاتب في مجلة العربي يرد حديث البخاري، حديث في الصحيحين، عن عائشة رضي الله عنها تقول: كان النبي ﷺ يأمرني فأترز فيباشرني وأنا حائض. فجاء هذا الكاتب في المجلة وقال: هذا حديث مخالف للقرآن الكريم، القرآن الكريم يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فهو يعتبر أن هذا الحديث مخالف للقرآن، لماذا؟ لأنه فسر الاعتزال بالبعد تمامًا عن المرأة، من أين لك هذا؟ هذا هو أسلوب اليهود مع الحائض، أن المرأة إذا حاضت لا يساكنونها ولا يقتربون منها، ولا يؤاكلونها ولا يشاربونها!

وهذا ما انقذ في أذهان بعض الصحابة؛ حتى إن عائشة رضي الله عنها لما قال لها النبي ﷺ: «ناوليني الخُمرة من المسجد». قالت: إنني حائض. فقال لها: «إن حيضتك ليست في يدك»^(١). فكان هذا من أثر ما كان عند اليهود.

(١) رواه مسلم في الحيز (٢٩٨)، وأحمد (٢٤١٨٤).

النصارى طبعًا أباحوا كل شيء حتى الاتصال الجنسي، جاء النبي ﷺ وكان وسطًا في هذا الأمر: لا مع اليهود، ولا مع النصارى، وبين لنا أن الاعتزال هنا اعتزال الجماع، قال: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»^(١). فهذا جاء واعتبر الحديث مخالفًا للقرآن من عند نفسه ورد الحديث، هذا هو الهوى.

رد الحديث بسبب التصور الخاطئ:

أيضًا وجدنا بعض الناس الذين يؤلفون في الإنكار على البخاري، وتُطبع كتبهم طبعات فاخرة، وتوزع مجانًا: يرد حديثًا مثل حديث لعب الحبشة بحرابهم في المسجد، ما حجته في هذا؟ يقول: إن المسجد لم يوضع للعب واللهو، وإنما وضع للصلاة والعبادة.

هذا تصور المسجد من صورة ما عليه الحال الآن، المساجد مغلقة محكمة الأبواب، مفروشة بالسجاد، طبعًا لا يتصور في مثل هذه المساجد أن يلعب الناس، أين أنت من مسجد رسول الله ﷺ؟ وقد كان مفروشًا بالحصباء، وقد كان هو محور النشاط للحياة الإسلامية كلها، وكان موضوعًا لأمر المسلمين كما قال المهلب وغيره، أن المسجد موضوع لأمر المسلمين، فكان من المسجد تنطلق الجيوش، وفي المسجد تأتي الوفود إلى النبي ﷺ، المسجد محور النشاط، ولذلك لا عجب أن جاء الحبشة وأذن لهم النبي ﷺ أن يلعبوا بحرابهم في المسجد في يوم عيد، ويقول: «دونكم يا بني أرفدة»^(٢)، وأذن لعائشة أن تنظر من وراء ظهره ﷺ، هذا هو الدور الذي يقوم به المسجد، إذا أردنا

(١) رواه مسلم في الحيض (٣٠٢)، وأحمد (١٢٣٥٤)، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩٤٩، ٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢)، كلاهما في العيدين، عن عائشة.

أن نعرف مهمة المسجد نرجع إلى ما كان عليه المسجد في حياة النبي ﷺ. أمّا هو فقلب الآية وعكس الموضوع، ونظر إلى المسجد من خلال ما هو عليه الآن.

هؤلاء المتجرئون الذين يردون الحديث بالهوى، حتى بعضهم رد حديث «بني الإسلام على خمس»^(١)، لماذا؟ قال: لأنّه لم يذكر فيه الجهاد، الحديث الذي اشتهر اشتهاراً ليس بعده اشتهار، وحفظه الصغير والكبير، وعرف لدى الخاص والعام! يرده لأنّه لم يذكر فيه الجهاد، إذن رد آيات: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا...﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٦٥]، إلى آخره، لأن ليس فيها الجهاد، رد أيضاً آيات: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣]، إلى آخر هذه الآيات، لأنّ ليس فيها الجهاد، رد آيات وآيات!

رد الحديث الصحيح وقبول الحديث الموضوع:

لكل مقام مقال، فهؤلاء المتطاولون مشكلتهم أنّهم يقحمون أنفسهم فيما لا يحسنون، فأول شيء هو الاستيثاق من ثبوت السنة، وهذا يرجع فيه إلى أهلها، لكل علم خبراء وأهلون مختصون به، فكل علم يرجع فيه إلى أهله، ولكن للأسف علم الدين وعلم القرآن وعلم السنن أصبح كلاً مباحاً لكل من هب ودرج من الناس، يأتي واحد ويرد الحديث الصحيح، وأحياناً يعكس الأمر، يأخذ الحديث الموضوع ويرد الحديث الصحيح.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦)، كلاهما في الإيمان، عن ابن عمر.

يعني بعضهم رد حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وهو في البخاري، حديث «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»^(١)، وما حجته في هذا؟ قال: إنه مخالف للحديث الصحيح: خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء، يعني عائشة^(٢). وهذا حديث باطل - كما قال العلماء - وموضوع ولا أصل له. فيرد الحديث الذي في البخاري من أجل هذا، فلذلك أول شيء أن نستوثق من ثبوت السنة، وثبوتها بالرجوع إلى أهلها وإلى مصادرها الصحيحة.

الأخذ من مصادر السنة الصحيحة:

ومصادر السنة ليست كتب الوعظ والرقائق؛ لأنّ هذه الكتب للأسف اختلط فيها الصحيح بالضعيف بالموضوع، كما نرى في كتاب مثل كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، هذا من أشهر الكتب لدى المسلمين، ومع هذا فيه الكثير جدًّا من مثل هذه الأحاديث، والإمام الغزالي نفسه قد اعترف - كما في كتابه «قانون التأويل» - بأنّ بضاعته مزجاة في علم الحديث، وهو طبعا لم يضع هذه الأحاديث، هو وجدها عند الصوفية من قبله: عند أبي طالب المكي، وعند غيره، فأخذها كما وجدها.

(١) رواه البخاري في المغازي (٤٤٢٥).

(٢) هذا الحديث من الأحاديث الباطلة التي لا أصل لها، قال السخاوي: قال شيخنا - يعني ابن حجر - في تخريج أحاديث ابن الحاجب من إملائه: لا أعرف له إسنادًا، ولا رأيت في شيء من كتب الحديث، إلا في النهاية لابن الأثير، ذكره في مادة (ح. م. ر)، ولم يذكر من خرّجه، ورأيت أيضًا في كتاب الفردوس، لكن بغير لفظه، وذكره من حديث أنس أيضًا بغير إسناد، ولفظه: «خذوا ثلث دينكم من بيت الحميراء». وبَيَّضَ له صاحب مسند الفردوس فلم يُخَرِّجْ له إسنادًا. وذكر الحافظ عماد الدين ابن كثير أنّه سأل الحافظين: المزي والذهبي عنه، فلم يعرفاه. انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي (٤٣٢)، تحقيق محمد عثمان الخشت، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م. والحميراء: تصغير الحمراء، يريد بها البيضاء.

وخصوصًا مع القول بأنَّ في باب الترغيب والترهيب، وباب الرقائق والوعظ يؤخذ بالحديث الضعيف، وهذا قول في الحقيقة يحتاج إلى تحقيق وتمحيص؛ لأن العلماء لم يطلقوا هذا الإذن، هم أولًا مختلفون في هذا، بعض العلماء لم يأخذ بالحديث الضعيف ولا في فضائل الأعمال، والذين أخذوا به اشترطوا له شروطًا، من هذه الشروط: ألا يكون شديد الضعف، وأن يندرج تحت أصل كلي عام، وألا يُعتقد ثبوته، وألا يجزم بنسبته إلى رسول الله ﷺ، فلا يقول قال رسول الله ﷺ، وإنما يرويه بصيغة تدل على التضعيف، كأن يقول: روي عن رسول الله ﷺ، أو حكى عنه، أو ورد عنه، أو يذكره بسنده، أمّا أن يقول: قال رسول الله ﷺ كما يقول كثير من الوعاظ والخطباء فهذا مرفوض.

فلكي نستوثق من ثبوت الحديث لا بد من الرجوع للمصدر، ليست كتب الوعظ، وليست كتب التفسير، فكتب التفسير نفسها فيها الشيء الكثير جدًّا، كنت قريبًا في ندوة، وذكر أحد الإخوة - وهو أخ مرموق، ولكن عدم الاستيثاق من المصادر يمكن أن يوقع الإنسان في الخطأ - ذكر أن الصحابة لم يعرف عنهم في حياة النبي ﷺ أنهم رفضوا الزكاة إلا في حادثة معينة، وهي الحادثة المشهورة المعروفة بقصة ثعلبة بن حاطب، والتي يذكرها المفسرون في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَإِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

وإسناد القصة واهٍ جدًّا^(١).

(١) رواه الطبراني (٢١٨/٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٠٤٧): فيه علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك. عن أبي أمامة.

والقصة تقول: إنَّه جاء بالزكاة إلى النبي ﷺ فرفضها، الزكاة وهي حق المسلمين فكيف يرفضها؟ هل هي شيء شخصي؟! وأنَّ أبا بكر رفضها، وعمر رفضها، وعثمان رفضها، رفض أن يأخذ منه الزكاة، كيف يتصور هذا؟ بل بالعكس كان الأدنى أن يعاقب، لا أن تُرفض الزكاة! وإذا كان أبو بكر قاتل الممتنعين عن الزكاة، فكيف يرفض أن يأخذ الزكاة من هذا؟!!

هذا موجود في الكتب للأسف، وممكن يقع فيه البعض، وكثير من أسباب النزول لم تصح كما حقق ذلك المحققون، ولذلك لا بد من الاستيثاق مما يورد في كتب المحدثين، سواء من الإسرائيليات أو من الروايات الضعيفة، وفي كتب المفسرين. ومن أفضل الكتب في هذا ولا شك هو تفسير الحافظ ابن كثير، فهو كثيرًا ما يعقب على الحديث ويذكر أنَّه جيد أو حسن أو صحيح أو كذا، وأحيانًا يسكت، وهذا ما جعل العلامة الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ يحاول إخراج تفسير ابن كثير في كتاب موثق مصحح هو «عمدة التفسير من تفسير الحافظ ابن كثير»، ولكنَّه توفي رَحِمَهُ اللهُ قبل أن يتمه.

المهم أنَّ كتب التفسير، وكتب الفقه أيضًا لا تؤخذ منها الأحاديث؛ لأنَّه كثيرًا ما تذكر الأحاديث في كتب الفقه معلقة، ما معنى معلقة؟ أي منسوبة إلى النبي ﷺ بغير سند، وهذا ما جعل الحافظ أبا الفرج ابن الجوزي يؤلف كتابًا سماه «التحقيق في تخريج التعاليق»، أي الأحاديث المعلقة في كتب الفقه، ونقحه العلامة ابن عبد الهادي الحنبلي في كتاب «تنقيح التحقيق»، وهذا ما جعل كثيرًا من علماء الحديث يخرجون بعض الكتب الفقهية المشهورة، مثل الزيلعي في تخريج أحاديث الهداية، وسماه «نصب الراية لأحاديث الهداية»، واختصره وعلق عليه، وزاد عليه

وهذه الحافظ ابن حجر في «الدراية في تخريج أحاديث الهداية»،
والحافظ ابن حجر أيضًا خرج أحاديث كتاب «فتح العزيز في شرح
الوجيز» وهو المشهور بشرح الرافعي الكبير، سماه «تلخيص الحبير في
تخريج أحاديث الرافعي الكبير»، وعدد من أئمة الحديث الشافعية؛ كابن
الملقن وغيره خرجوا أحاديث «الشرح الكبير»؛ لأن كتب الفقه تذكر
الأحاديث بدون سندها، وأحيانًا الحافظ الزيلعي يأتي بأحاديث أحيانًا
مذكورة في الهداية ويقول: غريب. ويقصد بغريب أنه لا سند له، ليس له
سند، ومع هذا ذكره واستدل به الفقهاء!

بل للأسف يوجد حتى في كتب الأصول نفسها أحاديث غير
صحيحة، بل باطلة، تجد في كتب الأصول من يحتاجون بأن قول
الصحابي حجة بقوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(١)،
والحديث باطل، حتى في كتب أصول الفقه وفي كل المذاهب، توجد
أحاديث ضعيفة أو ضعيفة جدًا.

وأنا عندما كنت أبحث في فقه الزكاة وجدت أمثلة كثيرة لهذا، مثلاً
وجدت المذهب للشيرازي، والمغني لابن قدامة، وعدد من كتب الفقهاء
يذكرون أنه ليس في المال حق سوى الزكاة، ويستدلون بحديث في هذا
يقول: «ليس في المال حق سوى الزكاة»^(٢)، وهذا الحديث - كما قال الإمام

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٩٢٥/٢)، وقال عقبه: هذا إسناد لا تقوم به حجة؛ لأن
الحارث بن غصين مجهول. وقال ابن الملقن في تذكرة المحتاج ص ٦٨، بعد أن ذكره من
رواية ابن عمر: من طريق والده عمر بن الخطاب وأبي هريرة وجابر، وكلها معلولة، ونقل
عن البزار قوله: منكر، ولا يصح عن رسول الله، ونقل عن ابن حزم أيضًا: هذا حديث
مكذوب موضوع باطل، لم يصح قط.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٨٩.

النووي في «المجموع» -: حديث ضعيف جداً لا يُعرف. وكذلك ذكر البيهقي، ثم وجدت الحافظ العراقي ذكر أن هذا في الواقع هو تحريف قديم من النساخ في سنن ابن ماجه، فالحديث: «في المال حق سوى الزكاة»، ويبدو أن أحداً من النساخ زاد فيه، وهذه آفة النساخ، ولذلك دائماً المحققون يبحثون للكتاب عن أكثر من نسخة للمقابلة بينها، فهو خطأ قديم تداوله النساخ إلى أن أصبح معروفاً في سنن ابن ماجه بلفظ: «ليس في المال حق سوى الزكاة»، والواقع أن الحديث: «في المال حق سوى الزكاة»، بدليل أنه روي بنفس السند عند الترمذي أن «في المال حق سوى الزكاة»^(١)، واستدل بآية: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾... وفيها: ﴿وَعَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَاءَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَعَاتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. بنفس السند، مما يدل على أنه قد حدث هناك تحريف، فكتب الفقه لا يؤخذ منها الحديث.

بل أقول أيضاً: حتى كتب الحديث نفسها لا يؤخذ منها الحديث إلا إذا بُيِّنَتْ درجته، طبعاً ما عدا الصحيحين، فالصحيحان التزاما الصحة، وأجمعت الأمة على تلقيهما بالقبول، وقالوا: إذا الحديث ورد في أحد الصحيحين فقد جاز القنطرة. ولكن ما عدا ذلك حتى كتب السنن الأربعة فيها الضعيف وفيها الواهي والضعيف جداً، بل وُجد في سنن ابن ماجه الموضوع، أمّا المسانيد والمعاجم والمصنفات فحدث ولا حرج، فيها من كل صنف.

(١) سبق تخريجه ص ٤٨٩، وقال القرطبي: والحديث، وإن كان فيه مقال فقد دلَّ على صحته معنى ما في الآية نفسها من قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَعَاتَى الزَّكَاةَ﴾، فذكر الزكاة مع الصلاة، وذلك دليل على أن المراد بقوله: ﴿وَعَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ليس الزكاة المفروضة، فإن ذلك كان يكون تكراراً. تفسير القرطبي (٢/٢٤٢).

فلا يكفي إذن أن يقول القائل: رواه أبو داود، أو رواه ابن ماجه، أو رواه الإمام أحمد. فإن رواه فبأي درجة؟ هنا لا بد من الرجوع لأهل الاختصاص، هل حكم على هذا الحديث أم لم يحكم؟ وإذا حكم فهل اتفقوا على الحكم أم اختلفوا؟ لأنهم أحياناً يختلفون، وإذا اختلفوا فما العمل؟ هذه قضية تحتاج إلى ترجيح إذن، لا بد إذن من الرجوع إلى المصادر لكي نستوثق من ثبوت الحديث، فالآفة هنا كما قلت رد الحديث الصحيح، أو قبول الحديث الضعيف دون مقياس، ودون أن يوجد المعيار الذي يستند إليه ويعول عليه.

(٣) فهم مدلول الحديث:

فبعد الإيمان بمصدرية السنة، والاستيثاق من الثبوت، تأتي بعد ذلك الدلالة، دلالة الحديث، الفهم، كيف نفهم السنة المطهرة؟ هنا أيضاً يقع الخلط، ويقع الزلل، ويقع سوء الفهم، لا بد من ضوابط لهذا الأمر، لا بد أن تفهم السنة في ضوء القرآن الكريم، ولا بد أن تفهم السنة في ضوء السنة، في ضوء مجموع السنة، الحديث يفهم في ضوء ما ورد في موضوعه من أحاديث أخرى، ولا بد أن يفهم الحديث في ضوء الأصول الإسلامية العامة، ولا بد أن يفهم الحديث في ضوء لغة العرب وما تدل عليه من حقيقة ومجاز، لا بد من أخذ هذه المعايير كلها، لا يمكن أن يؤخذ الحديث منفصلاً عن ملابساته الزمانية والمكانية ونفهمه وحده، قد نسيء فهمه.

أحاديث لها صلة بعلّة أو مصلحة مؤقتة:

هناك أحاديث طبعاً لها صلة بالزمان والمكان، ومبنية على عرف معين، أو على مصلحة معينة، أو على علة مؤقتة، فإذا تغيرت العلة تغير الحكم.

نأخذ - مثلاً - الحديث الذي يقول: «الوزن وزن أهل مكة، والمكيال مكيال أهل المدينة»^(١)، يعني أراد النبي ﷺ أن يرجع الناس في مبيعاتهم ومعاملاتهم إلى ما يضبط هذه المعاملات، إلى معايير، ويرجع في كل معيار إلى من هم أدق فيه، فأهل مكة كانوا أهل تجارة، جعلتهم هذه التجارة يدققون في مسألة الموازين، والدرهم والدينار، والمثقال والأوقية والنش وكذا، فعندهم الموازين أضبط، وأهل المدينة أهل زرع، فكان عندهم الصاع والمُد، فالمكاييل عندهم أدق، فقال: ارجعوا في المكاييل إلى أهل المدينة، وارجعوا في الموازين إلى أهل مكة.

فهل هذا حديث دائم؟ بحيث أننا الآن علينا أن نرجع إلى مكاييل أهل المدينة وموازين أهل مكة؟ يعني لو أخذنا بالكيلوجرام مثلاً كما يأخذ جميع المسلمين في العالم الآن هل يكونون قد خالفوا هذا الحديث؟! لا يكونون قد خالفوا هذا الحديث؛ لأن الحديث مبني على عرف معين في ذلك الوقت، فهنا لا بد أن نراعي الأعراف المعينة التي سيق من أجلها الحديث.

وهذا ما جعل بعض العلماء ينظرون في حديث مثل حديث النهي عن التسعير، النبي ﷺ لما طُلب منه أن يُسعرَ أبي وقال: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَرُّ، الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ، وَإِنِّي لأرجو أن ألقى الله وليس أحدٌ منكم يطالبني بمظلمة، في دم ولا مال»^(٢).

(١) رواه أبو داود في البيوع (٣٣٤٠)، والنسائي في الزكاة (٢٥٢٠)، وصحَّحه ابن الملقن في البدر المنير (٥٦٢/٥)، وصحَّحه ابن حبان، والدارقطني والنووي، وابن دقيق العيد، كما ذكر ذلك الحافظ في التلخيص الحبير (٣٣٧/٢)، نشر مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٦٥). عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد (١٤٠٥٧)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود (٣٤٥١)، والترمذي (١٣١٤)، كلاهما في البيوع، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٠)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٣٢٣)، عن أنس.



ولكن جاء من العلماء من أجاز التسعير كالمالكية والحنفية والحنابلة وغيرهم، وجاء مثل شيخ الإسلام ابن تيمية في «رسالة الحسبة» وتلميذه ابن القيم في كتابه «الطرق الحكمية» وتوسعوا في هذا الأمر، وقالوا: إنّ المقصود من الحديث ليس هو الامتناع عن التسعير في كل وقت، وإنّما الامتناع عن التسعير حين يغلو الشيء لقلة الشيء وكثرة الخلق. حين يغلو السعر بسبب قلة الشيء وكثرة الخلق، وهو تعبير عما نقوله في عصرنا: «قانون العرض والطلب»، فإذا كان غلاءً طبيعيًا تترك الأمور لطبيعتها، إنّما حين يحدث تلاعب واحتكار، وأناس يريدون أن يلعبوا بالأسواق، وأن يضيقوا على الناس، هنا يقول الإمام ابن تيمية: ليس في الحديث امتناع عن التسعير في مثل هذه الحالة، بل على ولي الأمر أن يتدخل ليلزمهم بالعدل الذي ألزمهم الله تعالى به. لا نقول أن ابن تيمية خالف الحديث في هذا، لا، ولكن راعي الظروف التي سيق فيها هذا الحديث.

أحاديث تراعي الزمان والمكان:

وأمثال هذا كثير في السنة، أحاديث راعت الزمان والمكان، نحن الآن من حقنا أن نعلم أنّ هناك أحاديث معللة بعلّة، يعني إذا نهى النبي ﷺ الرجل أن يطرق أهله ليلاً، طبعًا جاء في الأحاديث: يطرق أهله ليلاً يتخونهم، أو يتطلب عثراتهم، فعرف، وفي بعض الأحاديث عللته بعلّة أخرى، وهي حتى تتهيأ المرأة للقاء زوجها، تنزّين الشعثة، وتستحد المغيبة، إلى آخره، هذا في العصر السابق، معقول أنّ الرجل لا يأتي أهله بالليل، وإنّما يأتي بالنهار ولا يفاجئهم، الآن ممكن يأتي بالليل؛ لأنّه ممكن يتكلم بالتليفون ويخبرهم أنّه قادم في وقت كذا، أو يكونوا يعلمون ميعاد وصول الطائرة من قبلها، فالأمر لم يعد كما كان في ذلك الزمن.

ثم إنَّه في الوقت الماضي كان الإنسان يملك أمر نفسه، فهو راكب ناقته، ويستطيع أن يأتي متى شاء، يمكن أن يأتي بالليل، وممكن أن يأتي بالنهار، ولو جاء بالليل ينيخ ناقته قرب المدينة، وفي الصباح يدخل بيته، إنَّما الطائرة أو الباخرة فليس في ملك الإنسان أن يجعلها تأتي بالليل أو بالنهار، إذن هنا لا بد من النظر إلى العلة التي سيق من أجلها الحديث.

أحاديث لها علة محددة:

ومن أمثال ما جاء في السنة من أحاديث معللة بعلة، نهى النبي ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، طبعاً خشية أن يستهينوا بالقرآن، أو يعبثوا به، أو نحو ذلك، فإذا اطمأن المسلم إلى أن القرآن لن يناله أحد، وإنَّه - للأسف - قد يحترم القرآن في أرض الكفار أكثر مما يحترم في أرض بعض الذين يتسبون إلى الإسلام، فالعلة إذن مفهومة ومحفوظة، فلا بد أن ننظر إلى ملابسات ورود الحديث.

الاهتمام بأسباب ورود الحديث:

كما أنَّ المفسرين اهتموا بأسباب نزول القرآن، يجب أن نهتم بأسباب ورود الحديث، بل الاهتمام بأسباب ورود الحديث أهم من العناية بأسباب نزول القرآن؛ لأنَّ الأصل في القرآن العموم، إنَّما السنة الأصل فيها أنَّها تعالج كثيراً من الحالات الخاصة، والحالات الجزئية والفردية، ومعايشة الناس يوماً بيوم.

فالاهتمام بأسباب ورود الحديث هذا أمر مهم جداً، وطبعاً أُلِّف في هذا قليل من الكتب، السيوطي أُلِّف، وصاحب كتاب «البيان والتعريف» في أسباب ورود الحديث الشريف، الذي أخرجه أخونا المرحوم الدكتور الحسيني هاشم، فلا بد من الرجوع إلى أسباب ورود الحديث.

ونجد حديثاً مثل حديث: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»^(١)، الواحد أول ما يقرأ هذا الحديث يفهم منه أنه لا يجوز للمسلم إذن أن يقيم في بلاد الكفار، أو نحو ذلك، ولكن سبب ورود الحديث يبين أن المسلمين كانوا قد أصابوا بعض المسلمين الذين يعيشون مع المشركين، ممن أسلموا ولم يهاجروا، ولم يعرف المسلمون المهاجمون أنهم مسلمون، فأصيبوا مع من أصيب من المشركين، فهنا قال النبي ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»؛ فلا بد أن يهاجر، وكانت الهجرة واجبة قبل الفتح، كل من أسلم يجب عليه أن يهاجر، وأن ينضم إلى الكتيبة المسلمة، وإلى الجماعة المسلمة في المدينة، فلا بد من النظر إلى الملابسات والأسباب التي سيق فيها الحديث النبوي.

جمع أحاديث الباب:

لا بدّ من جمع ما ورد في الحديث في موضوعه، وأن النظر إلى مجموع الحديث هو الذي يعطي الحكم الصحيح، قد يكون هذا الحديث

(١) روي موصولاً ومرسلاً: فرواه موصولاً: أبو داود في الجهاد (٢٦٤٥)، والترمذي في السير (١٦٠٤) والطبراني (٣٠٣/٢)، والبيهقي في القسامة (١٣١/٨)، عن جرير بن عبد الله.

ورواه مرسلاً: الترمذي في السير (١٦٠٥)، والنسائي في القسامة (٤٧٨٠)، وسعيد بن منصور في الجهاد (٢٦٦٣)، وابن أبي شيبة في المغازي (٣٧٧٨٥)، والبيهقي في القسامة (١٣٠/٨)، عن قيس بن أبي حازم مرسلاً.

ورجح المرسل: البخاري فيما نقله عنه الترمذي في العلل الكبير (٤٨٣)، وأبو حاتم في العلل (٩٤٢)، وأبو داود عقب الحديث رقم (٢٦٤٥)، وقال: رواه هشيم، ومعمر، وخالد الواسطي، وجماعة لم يذكروا جريراً. والترمذي عقب حديث رقم (١٦٠٥)، والنسائي (٤٧٧٩)، والدارقطني في العلل (٣٣٥٥)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (١٦٤٣٥). وانظر: تخريج الكشاف للزيلعي (٤٠١/١ - ٤٠٣).

عامًا خصَّصه حديث آخر، قد يكون مطلقًا قيَّده حديث آخر، قد يكون مجملًا بيَّنه حديث آخر، لا بد من هذا النظر.

أضرب لهذا مثلًا بالأحاديث التي جاءت بالنهي عن الإسبال، جاء في صحيح البخاري: «ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار»^(١)، والحديث الآخر في صحيح مسلم، والذي رواه أبو ذر عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا يزكِّيهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولهم عذابٌ أليم». قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المُسْبِل، والمَنَّان، والمُنْفِق سلَّعته بالحلف الكاذب»^(٢).

هذا الوعيد الشديد للمسبل إزاره.. هل يا ترى كل مَنْ أسبله؟ أو مَنْ أسبله بنية الخيلاء؟ هنا لو رجعنا إلى الأحاديث التي رواها البخاري ومسلم، وأهل السنن الأربعة وغيرهم، نجد أن هناك أحاديث قيدت هذا بمن فعل ذلك خِيَلًا، كحديث: «من جرَّ إزاره بطْرًا»^(٣)، أو حديث: «من جرَّ ثوبه من الخيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»^(٤)، وحديث ابن عمر بهذا الحصر: «لا يريد بذلك إلا المخيلة»، وأيضًا حديث أبي بكر لما سمع هذا الحديث الذي رواه ابن عمر قال: يا رسول الله، إنَّ إزاري يسترخي، إلا أن أتعاheadه، فقال له رسول الله ﷺ: «إنك لست ممن يفعله خِيَلًا»^(٥)، فدل هذا على أنَّ العلة في الموضوع هي الخِيَل، وهذا يتفق

(١) رواه البخاري في اللباس (٥٧٨٧)، وأحمد (٩٩٣٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٠٦)، وأحمد (٢١٣١٨)، عن أبي ذر.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٥٧٨٨)، ومسلم (٢٠٨٧)، كلاهما في اللباس، عن أبي هريرة.

(٤) رواه مسلم في اللباس (٢٠٨٥)، أحمد (٤٤٨٩)، عن ابن عمر.

(٥) رواه البخاري في اللباس (٥٧٨٤).

مع الوعيد الشديد الذي جاء في الحديث؛ أن الله لا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يكلمهم ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، هذا دليل على أن الأمر خطير، وأمر إطالة الثياب وتقصيرها ليس بهذه الخطورة؛ لأن هذا الأمر - كما قال الأصوليون - يدخل في التحسينات، وليس في الحاجيات، ولا في الضروريات، هو متى يدخل؟ إذا كانت وراءه نية، كنية الخيلاء، أو الكبر، أو البطر، أو الغرور، أو العجب بالنفس، هنا يدخل الدين؛ لأن هذا يدخل في اختصاص الدين.

مراعاة المقاصد الإسلامية العامة:

كذلك يجب أن ننظر إلى الأحاديث في ضوء الإسلام الكلي، وفي ضوء المقاصد الإسلامية العامة، مثلاً إذا أردنا أن ننظر إلى أحاديث الفتن، في كل كتاب من كتب الحديث نجد كتاباً عن الفتن، أو الملاحم، أو أشراط الساعة، وتذكر فيه كثير من الأحاديث الواردة في آخر الزمان وما فيه من فساد، وما فيه من تحلل، وما فيه من سوء الأخلاق، وما فيه من اضطراب الموازين، إلى آخره.

هذه الأحاديث أحياناً تُفهم فهمًا غير صحيح، يكون من نتيجته ترك الأمور تجري في أعنتها، وترك الفساد ينخر في عظام الناس، وإلقاء الحبل على الغارب، واليأس من كل إصلاح، أو اليأس من أي محاولة لدعوة الناس إلى الخير، أو اليأس من عمل إسلامي يحاول أن يرتق الفتق، أو يسد الثُّغرات، خلاصته: إننا في آخر الزمان، وعلامات الساعة ظهرت، لا فائدة من التغيير، وهكذا، فهل معقول أن النبي ﷺ يقصد بهذه الأحاديث أن يؤسس الناس من أي عمل أو محاولة للإصلاح؟! لا يمكن هذا.

إنَّ من ينظر إلى الإسلام العام: إلى القرآن، ومجموع السنة: يستحيل أن يجد هذا! إذا كان النبي ﷺ يقول: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم - أي الساعة - حتى يغرسها فليغرسها»^(١)، هذا في أمور الدنيا، وهذا معناه أن على الإنسان أن يظل في أمور دنياه: يعمل وينتج ويعطي، حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها، ولو لم ينتفع أحد من غرسه، هو يقول: «إن قامت الساعة» وليس كما حكوا عن ذلك الشيخ الذي قيل له: لماذا تغرس شجرة الزيتون وأنت في هذه السن؟ فقال: غرس لنا من قبلنا فأكلنا، ونغرس ليأكل من بعدنا.

هنا الساعة ستقوم، ولن يأكل أحد من بعده، فلماذا يغرسها إذن؟ هذا رمز أنَّ المسلم يظل معطاءً كما يأخذ من الحياة يعطيها، يظل منتجاً عاملاً، هذا تكريم للعمل لذات العمل، وهذا من روائع الأحاديث، إذا كان هذا في أمر الدنيا، فهل أمر الدين أهون عند رسول الله من أمر الدنيا؟! أنه قبل أن تقوم الساعة بما شاء الله من السنين نقعد عن العمل ونقول: الساعة قائمة؛ فلماذا نعمل؟!

فهم أحاديث الفتن:

لا يمكن أن يكون المقصود من أحاديث الفتن هذا المعنى، وأن عليك بخاصة نفسك، ودع عنك العوام، والزم بيتك، واعمل كذا، لا! الزم بيتك وغيرها جاءت في أحاديث الفتن التي يقاتل المسلمون بعضهم بعضاً ولا يُعرف فيها المحق من المبطل، في هذه الحالة يعتزل

(١) سبق تخريجه ص ٤٣٣.

الإنسان الفتنة، «كَسَرُوا قَسِيَّكُمْ، وَقَطَّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَاضْرَبُوا سِوْفَكُمْ بِالْحِجَارَةِ، فَإِنْ دُخِلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ، فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ»^(١). ممكن تجنب الفتن والبعد عنها في هذه الحالة، كما فعل بعض الصحابة حينما لم يتبين له الأمر، كما فعل سعد بن أبي وقاص وقال: ائتوني بسيف سميع بصير، له عيان ولسان، ينطق ويقول: هذا مؤمن وهذا كافر، أضرب به الكافر فيقتله، وأضرب به المؤمن فينبو عنه^(٢).

ممكن في هذه الحالة أن أفعل هذا، إنَّما أنا أترك الناس، وأترك الأمر بالمعروف يضيع، وأترك النهي عن المنكر، وأدع الفساد يشيع، وألزم بيتي ولا أعمل شيئاً؟! لا يمكن، أين فريضة النصيحة؟ أين فريضة الدعوة إلى الله؟ أين فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ أين فريضة تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب؟!

حتى التغيير بالقلب، الناس يظنون أنَّ التغيير بالقلب أمرٌ سلبيّ، أنا لا أراه أمرًا سلبيًّا، وإلا لم يسم تغييرًا، كيف يُغَيَّر بقلبه؟ معناه أن ينظر إلى المنكر، وقلبه يذوب كما يذوب الملح في الماء، أو يغلي كما يغلي المرجل فوق النار، فهي شحنة تتفاعل، إلى أن تنفجر يومًا ما، لا بد أن تنفجر في عمل، هذا معنى التغيير بالقلب، أن يتمرَّ وجهه حينما يرى المنكر، أنَّه لا يرضى بالمنكر، وأن يقاطع أهل المنكر، هذا هو المطلوب.

(١) رواه أحمد (١٩٧٣٠)، وقال مخرَّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود (٤٢٥٩)، وابن ماجه (٣٩٦١)،

كلاهما في الفتن، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) رواه الطبراني (١٤٤/١)، عن ابن سيرين. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٣١٨): رواه

الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

حديث: لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه:

فأحاديث الفتن ساء فهمها في الحقيقة عند الكثير من الناس، ومن ذلك: الحديث الذي رواه الإمام البخاري، حينما ذهبوا إلى أنس بن مالك رضي الله عنه يشكون له ظلم الحجاج، فقال لهم: «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان؛ إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»^(١)، سمعته من نبيكم ﷺ.

فبعض الناس أخذ هذا الحديث وفهم منه أنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه، وبعض الناس طبعاً ردوا هذا الحديث، طبعاً رد الحديث دون بينة ليس من خصال أهل العلم، هذا الحديث رواه البخاري، فبدل أن نرد الحديث وقد ثبت في الصحاح؛ نبحث له عن تأويل، وهذا هو عمل أهل العلم، لا بد أن يكون له تأويل، فما تأويله؟

العلماء المتقدمون استشكلوا الإطلاق في الحديث، معنى الإطلاق أن الحديث أطلق أن كل زمن بعده هو شر منه، من أين جاء الاستشكال؟ الاستشكال جاء من أن الواقع التاريخي يدل على عكس هذا، لأنه مثلاً كان هناك زمن الحجاج وبعده زمن عمر بن عبد العزيز، فهي أدوار، أحياناً يأتي زمن فيه يقظة وصحو، ثم يأتي بعده زمن تكون فيه غفوة ونومة، وهكذا.

ثم إن الأحاديث التي جاءت أنه في آخر الزمان يأتي رجل يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وهو الذي سمي في بعض الأحاديث بالمهدي، وفي الأحاديث التي وردت أن عيسى ابن مريم سينزل في آخر الزمان، ويحكم بشريعة الإسلام، ولا يبقى إلا الإسلام، ويكسر الصليب،

(١) رواه البخاري في الفتن (٧٠٦٨)، عن أنس.



ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، إلى آخره، أحاديث جاءت، كل هذا مخالف لظاهر حديث أنس، لا بد إذن للحديث تأويل، فما تأويله؟

التأويل الذي استرحت إليه ما ذكره الحافظ ابن حجر عن بعض العلماء أن هذا الحديث ليس على عمومته، وإن فهم الصحابي الراوي منه العموم، سيدنا أنس فهم العموم من الحديث، لكن هؤلاء العلماء يقولون: هذا خطاب للصحابة، أن يوطنوا أنفسهم على ما يمكن أن يروه من الفتن، وخاصة لمن عُمّر منهم، أنكم إذا رأيتم شيئاً فوطنوا أنفسكم أنه سيأتي ما هو أنكى وأشد، وفعلاً من يرى زمن الصحابة وما حدث يرى أن الأمور بدأت تسوء في عهدهم، فإذن الحديث ليس عاماً، وإنما هو مخصوص بالمخاطبين من هؤلاء الصحابة، وإن كان راويه سيدنا أنس رضي الله عنه عمم الخطاب. فيجب أن تُفهم الأحاديث في ضوء هذه المعاني الكلية.

فهم الحديث في ضوء لغة العرب:

كذلك نقول: مما ينبغي أن تُفهم في ضوءه الأحاديث: أن تُفهم في ضوء اللغة العربية، فاللغة العربية فيها حقيقة وفيها مجاز، فأحياناً بعض الناس ترد الحديث لمجرد أنها تحمله على الحقيقة، مع أن في المجاز متسع.

حدثني الفقيه الكبير الأستاذ مصطفى الزرقا، أن أحد القانونيين الكبار في العالم العربي - علم كبير من أعلام القانون - قال له يوماً: أنا اشتريت الكتاب المشهور عندكم هذا الذي تسمونه البخاري، ثم فتحته فوجدت فيه حديثاً يقول بأن «النيل والفرات من الجنة»^(١)، فطويته ولم أفتحه بعد ذلك. فقال له: لماذا؟ قال: كيف النيل من الجنة؟ والنيل معروف من أين يأتي، النيل يجيء من بحيرة فيكتوريا، وبحيرة ألبرت

(١) رواه مسلم في الجنة (٢٨٣٩)، وأحمد (٧٨٨٦)، عن أبي هريرة.

وبحيرة إدوارد. وهضبة الحبشة، ومنابع دجلة معروفة، فكيف قلتم: إنه ينبع من الجنة؟ هذا كلام معقول؟!

طبعًا لو أنه أخذ الأمر على أن هذا أمر مجازي، وأنا وجدتُ الإمام ابن حزم الظاهري له كلام طيب في هذا، ابن حزم رجل من أشد الناس تمسكًا بالظواهر، وعلى الرغم من ذلك وجد في مجاز اللغة العربية ما يتسع لهذا الأمر، وقال: الرسول ﷺ حينما يقول: «النيل والفرات من الجنة»، وحينما يقول: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»^(١)، أو يقول: «الحجر الأسود من الجنة»^(٢)، أو يقول: «الجنة تحت ظلال السيوف»^(٣)، قد صح البرهان من القرآن، ومن ضرورة الحس على أنها ليست على ظاهرها^(٤).

وهذا كما نقول نحن في الأيام الطيبة: هذا يوم من أيام الجنة، وكما قيل في الضأن: «إنَّها من دواب الجنة»^(٥)، أحاديث كثيرة يمكن أن تُؤوّل على هذا الأساس، مثل حديث: «الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء»^(٦)، أو حديث: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: ربي، أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»^(٧). فالناس

(١) سبق تخريجه ص ٤٩٥.

(٢) رواه أحمد (١٣٩٤٤)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. عن أنس.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢)، كلاهما في الجهاد والسير، عن ابن أبي أوفى.

(٤) انظر: المحلّي (٣٣٠/٥، ٣٣١) مسألة (٩١٩).

(٥) رواه ابن ماجه في التجارات (٢٣٠٦)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٢٥)، عن ابن عمر.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٤)، ومسلم في السلام (٢٢٠٩)، عن ابن عمر.

(٧) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٠)، ومسلم في المساجد (٦١٧)، عن أبي هريرة.

المشتغلون بالفلك والجغرافيا وهذه الأشياء يقولون لك: لا، أسباب الحر والبرد معروفة علميًا وكونيًا. فالمجاز إذن يتسع لمثل هذه الأمور، فلو أننا عرفنا أنَّ اللغة العربية تتسع لمثل هذا ما كان هناك معنى لأن نرد مثل هذه الأحاديث.

الفرق بين لفظ السنة وروحها:

الموضوع طويل - طبعًا - لا أستطيع أن أُلِمَّ به كله، ولكن أقول: إنَّ من المهم جدًا في فهم السنَّة أن نفرق بين الوسيلة والهدف من السنة، وبين لفظ السنَّة وروح السنَّة، ما معنى الوسيلة والهدف؟ كثير من الناس حين ينظرون إلى السنَّة يركزون على الوسائل وينسون الأهداف، خُذ مثلاً موضوعاً كموضوع الطب النبوي، أكثر الذين يتحدثون عن الطب النبوي يركزون على الأدوية والأغذية، والحبوب والوصفات التي وصفها النبي ﷺ، مثلاً: «خير ما تداويتم به الحِجامة والقسط البحري»^(١)، أو: «الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام»^(٢)، أو: «دواء عِرْقِ النَّسَا أَلِيَّةُ شاةٍ أعرابية تُذَابُ، ثم تُجَزَّأُ ثلاثة أجزاء...»^(٣)، إلى آخره، طبعاً هذه الأشياء موجودة، وابن القيم ذكر الكثير منها في «زاد المعاد».

بعض الناس يركزون على هذا، إنَّما هذه - في رأيي - مجرد أمثلة منتزعة من البيئة، وأهم من هذا هو الهدف من الأحاديث، وهو:

(١) رواه أحمد (١٢٠٤٥)، والنسائي في الكبرى في الطب (٧٥٣٨)، والحديث متَّفَق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٦٩٦) بلفظ: «إنَّ أمثل». ومسلم في المساقاة (١٥٧٧) بلفظ: «إنَّ أفضل». عن أنس.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٦٨٨)، ومسلم في السلام (٢٢١٥)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه ابن ماجه (٣٤٦٣)، والحاكم (٢٠٦/٤)، كلاهما في الطب، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٧١٣)، عن أنس.

المحافظة على الصحة البدنية للإنسان، كانت هناك أديان وفلسفات ومذاهب نُسكِية وزُهدية، عند الأعاجم وعند اليونان وعند غيرهم، كل همها أنَّها تهتم بالروح على حساب البدن، تعذب البدن لترقية الروح، فجاء الإسلام يقول: لا، لأول مرة يسمع الناس من الدين: «إِنَّ لَجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(١)، وأنَّه لا يجوز أن تُرهق البدن ولو بالعبادة.

جاء الإسلام يحافظ على صحة الإنسان، ويشرع له الراحة إذا تعب، والدواء إذا مرض، ويقول: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عِلْمُهُ مِنْ عِلْمِهِ، وَجَهْلُهُ مِنْ جَهْلِهِ»^(٢)، ويحل مشكلة القدر حينما قالوا له: يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فيقول: «هي من قدر الله»^(٣)، كما أَنَّ الداء بقدر الله، فالدواء بقدر الله، المسببات من قدر الله، والأسباب من قدر الله.

الأحاديث التي جاءت بالاهتمام بالوقاية أكثر من الاهتمام بالعلاج، ومنع الناس من البول في الموارد والظل والمياه، والبول في الماء الراكد، والبول في المستحم، والبول في الطريق، والعناية بالنظافة: نظافة الجسم، ونظافة البيت، ونظافة الطريق، والعناية بالصحة النفسية بجوار الصحة البدنية، هذه هي الأهداف العظيمة التي جاءت بها التوجيهات النبوية، فنحن نترك هذا، ونهتم بهذه الأشياء.

(١) جزء من حديث متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصيام، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه أحمد (٣٩٢٢)، وقال مخرَّجوه: صحيح لغيره. وابن ماجه في الطب (٣٤٣٨)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥١)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه أحمد (١٥٤٧٢)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف على خطأ فيه. والترمذي (٢٠٦٥)، وقال: حسن. وابن ماجه (٣٤٣٧)، كلاهما في الطب، وحسنه الألباني في تخريج مشكله الفقر (١١)، عن أبي خزيمة.

التفرقة بين الوسيلة والهدف:

ومثلاً النبي ﷺ قال في التسوُّك: «السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب»^(١)، هل المقصود السواك بصفته سواكاً؟ أو المقصود تنظيف الأسنان؟ مثلاً، فلو وُجد شيء آخر؛ لأن العرب لم يكن عندهم إلا هذه الشجرة: شجرة الأراك، إنّما إذا كان فيه فرشاة ومعجون وهذه الأشياء، من نظف أسنانه بالفرشاة والمعجون ألا يكون قد نفذ هدف السنة؟ أعتقد أنّه نفذ هدف السنة.

الأحاديث التي جاءت مثلاً تقول: «الخيّل معقودٌ بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(٢). هل المقصود الخيّل لذاتها؟ أو المقصود الخيّل المُعدّة التي يستخدمها الناس للدفاع عن الأمة وعن الحوزة وعن العقيدة؟ فإذا كانت الآن بدلها دبابات ومصفحات، وسفن بحرية وغواصات ومدمرات إلى آخره؛ فتصبح هي خيّل هذه الأمة؟ وهكذا، فينبغي أن نفرق بين الوسيلة وبين الهدف.

إخراج زكاة الفطر نقوداً أم طعاماً؟

كما أنّه ينبغي أيضاً التفرقة بين اللفظ والروح، كثيراً ما نقف عند لفظ السنّة وننسى روح السنّة، أنا أعجب لبعض الإخوة من العلماء الذين ينكرون أشد الإنكار على من يأخذ برأي الإمام أبي حنيفة وعمر بن عبد العزيز وبعض فقهاء السلف في إخراج زكاة الفطر بالنقود، ويعتبرون أنّ هذا خروج على السنّة!

(١) سبق تخريجه ص ٥٠٠.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في فرض الخمس (٣١١٩)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٣)، عن عروة البارقي.

أنا أعتقد أن هذا خروج على لفظ السنّة، ولكنّه عمل بروح السنّة، لماذا؟ لأنّ الروح السنّة كانت تقصد إلى التيسير على الناس، النبي ﷺ حينما فرض الأُطعمة وأوجبها في زكاة الفطر من رمضان من التمر والشعير والزبيب والبر، وأحياناً الأقط.. ماذا كان يقصد؟ كان يقصد أن هذا أيسر على الدافع وأنفع للأخذ، لو قال لهم ادفعوا نقوداً لكان في هذا تعسيراً على الناس؛ لأنّ النقود عزيزة عند العرب؛ وخاصة عند أهل البادية، فلو قال لهم: ادفعوا نقوداً، لشق ذلك عليهم، فالعرب لم يكن عندهم نقود، النقود تأتيهم إما من بلاد الفرس فضة: دراهم، وإما من بلاد الروم ذهباً: دنانير، ولكن طلب منهم أن يخرجوها مما هو ميسور لهم، وحتى لو أعطوا للفقير في البادية نقوداً ماذا يعمل بها؟ هو يحتاج لشيء يأكله في مثل هذا المجتمع البسيط، لهذا كان التيسير أن يقول لهم: أخرجوا مما تيسر لكم. ولذلك أجاز للأعراب أن يُخرجوا من الأقط، اللبن المجفف المنزوع الزبد؛ لأنّ هذا هو المتيسر لهم، هذا هو التيسير.

حينما آتي أنا إلى المجتمع العصري خاصة في المدن المزدحمة الكثيفة السكان، المدن التجارية الكبرى، لو جئتُ أقول للناس أخرجوا زكاة فطركم من القمح، أو الشعير، أو التمر، أو الزبيب ماذا يصنع الناس؟ مدينة كالقاهرة فيها (١٢,٠٠٠,٠٠٠) اثنا عشر مليون مسلم تقريباً، لو قلت لهم: أخرجوا اثني عشر مليون صاع من القمح، أو الشعير، أو التمر، أو الزبيب، فمن أين يجدون القمح، أو الشعير، أو التمر وغيرها؟ هذه أشياء لم تعد تباع، لو أنّ عُشر هؤلاء الناس أو سدسهم - لأنّ كلهم لن يجدوا - لو أنّ بعضهم بعث إلى أقاربه في القرى والريف من قبلها بعدة أشهر؛ ليحضروا لهم عدة صيعان من القمح أو الشعير أو غيرها،

وجمّدها عنده حتى يأتي رمضان ثم ذهب إلى الفقير وقال له: خذ هذه الصيعان من القمح أو الشعير. ماذا يفعل بها الفقير؟ وهو لم يعد يطحن ولا يعجن ولا يخبز، إنّما يذهب يشتري الخبز جاهزاً من الفرن من المخبز؟ فأنا أعطيته شيئاً لا ينتفع به، فيضطر إلى أن يبيعه، ومن يشتريه منه؟ إنّّه إذا باعه سيبيعه بثمن بخس، سيخسر قطعاً.

وهذا ما يحدث فعلاً في بعض البلاد، الذين يتشددون في هذا، أنّ الشخص يشتري التمر ويعطيه للفقير، والفقير يأخذ التمر من هنا ويذهب إلى نفس التاجر لبيعه له، كل ما في الأمر أن هذا قد يشتري التمر من التاجر بعشرة ريالات، فيبيعه الفقير لنفس التاجر بتسعة ريالات أو ثمانية، فيكون الفقير قد خسر ريالاً أو ريالين، كان من الأفضل أعطيه أنا من أول الأمر النقود دون واسطة، فأنا أرى أننا هنا، وإن تمسكنا بلفظ السنّة لم نتمسك بروح السنّة.

تعامل المسلم مع السنّة في الحياة اليومية:

يا أيها الإخوة نحن في حاجة أن نقف من السنّة الموقف السليم الذي لا بد منه لنحسن فهمها، ونحسن التعامل معها، السنّة تدخل معنا في حياتنا اليومية في كل شيء، قد يكون تعامل الإنسان مع القرآن أقل من تعامله مع السنّة!

من أول ما يقوم من النوم يقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(١)، ثابت بالسنّة، ثم يذهب ليصلي فيتوضأ، طبعاً الوضوء ثابت في القرآن وكملمته السنّة، ثم يصلي، نفس الصلاة ثابتة بالسنّة،

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٢)، عن حذيفة.

«صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١)، وبعد ذلك إذا أكل يأكل باليمين، ويسمي الله، ويأكل مما يليه، ولا يأكل في صحاف الذهب والفضة، وكل هذا ثابت بالسنة، وإذا خرج من بيته قال: «بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢)... إلى آخره ثابت بالسنة، وإذا ركب دابته أو سيارته قال: «باسم الله، والحمد لله، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ [الزخرف: ١٣، ١٤]»^(٣) إلى آخره، وهذا ثابت بالقرآن والسنة.

الإنسان يتعامل مع السنة في معظم حياته، ولذلك لا يمكن أن نُغفل السنة، السنة هي المصدر الثاني لحياة المسلمين، هي المصدر التفصيلي التي تتضمن البرنامج التفصيلي للحياة الإسلامية، فلا ينبغي أن نهملها، ولا ينبغي أيضاً أن نفتح الباب على مصراعيه لأولئك الذين يدخلون على السنة بعلم وبغير علم، ويؤولون ما لا ينبغي أن يؤول، ويردون ما لا يجوز أن يُرد، مثل أولئك الذين ردوا الأحاديث الواردة - مثلاً - في ظهور المسيح الدجال، ونزول المسيح عيسى ابن مريم.

هذا العالم الكبير الشيخ الكشميري ألف كتاب: (التصريح بما تواتر في نزول المسيح)، اشتمل على أربعين حديثاً من الصحاح والحسان فقط، تدل على نزول المسيح، والعلامة الشيخ الألباني ألف كتاب: (قصة المسيح الدجال)، كيف نرد هذا؟!!

(١) رواه البخاري في الأذان (٦٣١)، عن مالك بن الحويرث.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٩٥)، والتَّرمذي في الدعوات (٣٤٢٦)، وقال: حسن غريب. وقال الألباني في تخريج الكلم الطيب (٥٩): حسن صحيح. عن أنس بن مالك.

(٣) رواه مسلم في الحج (١٣٤٢)، وأحمد (٦٣٠٩)، عن ابن عمر.



والبعض يؤول الحديث تأويلاً غير مقبول، فيقول: المسيح الدجال إشارة إلى الحضارة الغربية. يا أخي المسيح الدجال هذا شخص، كيف تقول هذا؟ قال لك: لأن الحضارة الغربية هذه حضارة عوراء تنظر إلى الحياة المادية فقط، صحيح؛ ولكن هذا تأويل غير مقبول!

وبعضهم يقول: إنَّ نزول المسيح يرمز إلى المحبة والسلام، وهذا دليل على أنَّ السلام سيسود في العالم، كيف والحديث يقول: «وليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية»^(١)؟! كيف يُتأوّل هذا بالسلام، وهو يقول لن يكون إلا الإسلام فقط؟! حتى الجزية كانت تُقبل ما عاد جزية، هذه تأويلات لا تُقبل.

أيها الإخوة:

الحديث ذو شجون، والحديث طويل الذيل، ولكن لكي ندع الفرصة للمناقشة أكتفي بهذا القدر، وأسأل الله ﷻ أن يفقهنا في ديننا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، أقول قولِي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في البيوع (٢٢٢٢)، ومسلم في الإيمان (١٥٥)، عن أبي هريرة.

أسئلة المحاضرة

السؤال الأول:

من المعروف أنَّ العلماء قد قسموا الأحاديث من حيث أسانيدھا إلى أحاديث متواترة، وأحاديث آحاد، وقالوا: إِنَّ الأحاديث المتواترة قطعية الدلالة، بينما أحاديث الآحاد هي ظنية الثبوت، وفي مجال العقائد قال أهل العلم: إننا نأخذ بالأحاديث المتواترة؛ لأن المسائل العقائدية إنَّما تُؤخذ على هذا الأساس، بينما لم تُبن مسائل العقائد على أحاديث الآحاد، وفي اعتقادي أنَّ في هذا ردًّا لجانب كبير من القضايا العقائدية التي ممكن أن ننتفع بأحاديث الآحاد فيها، فهي أحاديث تفيد العلم وتفيد العمل، والدليل على ذلك: أنَّ الصحابة كانوا يقبلون قضايا العقائد بطريق الآحاد، والنبي ﷺ أرسل رسله إلى ملوك الآفاق بقضايا عقائدية نقلها آحاد، ولم يثبت في السنَّة - على حد علمي - أنَّ رجلاً نقل قضايا العقيدة الإسلامية والدعوة الجديدة فطُوب بالتواتر، أو بشيء من ذلك، وهي في الحقيقة مسألة كثر حولها الجدل، فأردنا من فضيلتك أن تجلي لنا هذا الموضوع، جزاك الله خيراً.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم، مسألة ثبوت العقيدة بالأحاديث المتواترة أمر متفق عليه، ولكن معروف أنَّ الأحاديث المتواترة محدودة، أُلُفت فيها بعض الكتب، ومعظم السنَّة وجمهرة السنَّة أحاديث آحاد، فهل تثبت العقائد بأحاديث الآحاد أم لا؟

الواقع أنَّ أهل السنَّة جميعاً متفقون على ثبوت العقيدة بأحاديث الآحاد الصحاح، التي لا مطعن فيها، والخلاف بين أهل السنَّة وبعض

في هذا في أمر آخر، يعني نحن نعلم أن أهل السنة يثبتون سؤال القبر ونعيمه وعذابه، والميزان والصراط وأوصافه، ومواقف الناس في الحشر، وتفاصيل هذه الأشياء بما جاء في السنة، وكتب العقائد عند الأشاعرة والماتريدية مملوءة بهذا، ولذلك الزعم بأن الأشاعرة والماتريدية لا يقولون بإثبات العقيدة بأحاديث الآحاد غير صحيح.

الخلاف في قضية أخرى، وهي هل نكفر من لا يثبت العقائد بهذه الأحاديث أو لا؟ من لم يثبت العقيدة بأحاديث الآحاد هل نكفره؟ الخلاف هنا في هذه، فمن ناحية الإثبات إثبات، إنما لو فرض أن واحد قال لك: أنا لا أقبل في هذا المقام إلا اليقين، واليقين لا يثبت بأحاديث الآحاد، هنا الكثيرون من أهل السنة الأشاعرة والماتريدية وغيرهم لا يكفرون، بل أنا أرى أن الإجماع عندهم هنا على ذلك، ولذلك لم يكفر أحد المعتزلة فيما أعلم، المعتزلة ردوا كثيرًا من الأحاديث التي ثبت فيه مسألة سؤال القبر ونعيمه، وحديث الشفاعة للعصاة، الشفاعة لأهل الكبائر، وأحاديث الرؤية: رؤية الله تعالى في الآخرة، وأحاديث وصف الميزان والأشياء التي من هذا القبيل.

المعتزلة لهم آراء في هذا معروفة، وأهل السنة طبعًا بدعواهم وفسقواهم وأنكروا عليهم، وألفوا في الرد عليهم، ومع هذا لم يكفروهم، ما كفروا المعتزلة، ولا أظن شيخ الإسلام ابن تيمية ولا تلاميذ مدرسته كفروا المعتزلة، ولم يكفروا أهل البدع، ولم يكفروا الخوارج، رغم إن الخوارج لهم في هذا أشياء لم يكفروهم، مع أن الحديث صح في ذمهم من عشرة أوجه كما قال الإمام أحمد، وأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، إلى آخره، ولكنهم لم يكفروهم، بل هم - كما قال علي بن أبي طالب -: من الكفر قروا.

فهذه هي القضية التي فيها الخلاف، أمّا إثبات العقائد: العقائد الفرعية طبعًا؛ لأن العقائد الأصلية ثابتة بالقرآن الكريم، ثابتة بالقطعيات. نحن حينما كنا ندرس في كلية أصول الدين كان هناك قاعدة - نحفظها ويحفظها إخواننا ممن درسوا العقائد النسفية وشروحها وحواشيها - تقول: كل ممكن أخبر به الصادق عليه السلام يجب الإيمان به. ما دام ممكنًا عقلاً، وأخبر به المعصوم يجب أن نؤمن به، ما دام لا يترتب على الإيمان به مُحال وأخبر به نؤمن به، ولذلك إذا قال: إنَّ الميزان فيه كذا أو كذا، أو أنَّ الصراط من صفته كذا، أو قال: إنَّ الشفاعة لكذا وكذا نؤمن به، فهذا لا خلاف فيه بين أهل السنّة، وأعتقد أنَّ الأمر لو فهم على هذا الأساس لم يكن هناك مجال لأن نقيم المعركة الضخمة التي تقول: هل أحاديث الآحاد حجة في العقائد أو لا؟

السؤال الثاني:

شكرًا لأستاذنا الجليل، وعندني بعض الاستفسارات في هذا المجال، هل يمكن للأخ الذي رفض حديث رسول الله ﷺ عن مباشرة السيدة عائشة وهي حائض أن يكون قد استند إلى الآية الكريمة التي وردت ضمن آيات الصيام: ﴿فَأَكْثَنَ بَشْرُوهُنَّ وَابْتَغَوْا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ثم: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، يكون قد فهم المباشرة على أنَّها الجماع كما استخدمها القرآن الكريم في هذه الآية، فيكون له العذر في هذا؟ أم ماذا؟

أيضًا النقطة الثانية قضية القادم ليلاً، وقد كان في الماضي في غير استطاعة المسافرين أن يتحكم في القدوم، لكن إذا فرض وقدم ليلاً هل كان مطالبًا بالمبيت خارج البيت حتى لا يطرق أهله، وإذا دخل على أهله ليلاً يكون عاصيًا ونحو ذلك؟ وشكرًا.

الجواب:

هو بالنسبة لصاحبنا الذي أنكر حديث البخاري هذا، وأنكر عددًا من الأحاديث هو معروف اسمه عبد الوارث كبير، وأنا رددت عليه في عدد من المجالات في ذلك الحين؛ لأنّه عمل حملة في هذا الأمر، وزعم أن ليس كل ما في البخاري صحيحًا، وذكر عددًا من الأحاديث الموضوعة لا علاقة لها بالبخاري، إنّما هو جمع الحابل بالنابل، وذكر فيما ذكر حديث عائشة: كان النبي ﷺ يأمرني فأتزر فيباشرنِي^(١)، وهو لم يستند إلى هذا، وحتى لو فرض أنّه استند إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ﴾ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ كان ينبغي في هذه الأمور أن يُرجع إلى الثقات، إلى أهل الاختصاص: ما المراد بالاعتزال هنا في هذه القضية؟

قول عائشة: يأمرني فأتزر فيباشرنِي، يبين أنّه لا يمكن أن تكون المباشرة معناها الجماع؛ لأنّ لفظ الحديث يرده، فلا يمكن أن يفهم من الحديث أنّ المباشرة تعني المباشرة المذكورة في الآية، وإلا ما أمرها بالاتزار! لأنّ أمره لها بالاتزار معناه أنّها مباشرة من فوق الإزار، فهو مجرد استمتاع بما فوق الثياب، فالحديث يرد هذا الفهم، إنّما هي حملة على السنّة، فالسنّة تتعرض بين الحين والحين إلى حملة من هؤلاء القوم.

ولو تواضعوا، ولو كانوا علميين حقيقيين لردوا الأمر إلى أهله، واستفسروا، أو رجعوا إلى كتاب من كتب التفسير، ولعرفوا معنى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا نَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، لكن ليس هذا هو المقصود.

(١) رواه البخاري في الحيض (٢٩٩، ٣٠٠).

أمّا حديث: نهى الرجل أن يطرق أهله ليلاً^(١) فطبعاً هذا مبني على مسألة النهي ما المقصود به هنا؟ نحن نعرف في الأصول سبعة أقوال في النهي ودلالته، هل الأصل في النهي الدلالة على التحريم؟ أو على الكراهية؟ أو على ما هو مشترك بينهما؟ أو لا يدل على تحريم ولا على كراهية إلا بقريضة؟ أو ما كان في القرآن فيدل على التحريم، وما كان في السنة فيدل على الكراهية؟ سبعة أقوال أنتم أدرى بها، في الأمر وفي النهي، وهذه مسألة ينبغي أن تُعرف.

إخواننا الذين يتمسكون بأن فيه أمر بكذا ونهي عن كذا، ما يدريني أن الأمر هنا للوجوب أو للاستحباب؟ وما يدريني أن النهي هنا للتحريم أو للكراهية؟ مثلاً حديث: «أَعْفُوا اللَّحَى، وَاحْفُوا الشَّوَارِبَ»^(٢) هذا حديث صحيح، إنما يا ترى الأمر هنا للوجوب أو للاستحباب؟

الشيخ حبيب الله الشنقيطي صاحب كتاب (زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم) رأى أن توفيقاً بين الآراء أن عملية الأمر هنا جاءت في السنة، ولم تجئ في القرآن، فهو يأخذ بالرأي الذي يقول: إن الأمر إذا جاء في السنة فهو للاستحباب، فيقول أنه مستحب، ويكون الحلق مكروه فقط، وهكذا، ومثل هذا الأوامر والنواهي بصفة عامة.

فيا ترى حين نهى الرجل أن يطرق أهله ليلاً هل النهي هنا المقصود به التحريم؟ الصحابة يفهمون السياق، وبعض الصحابة حتى وإن كان المقصود به الكراهة كانوا يتعففون عن المكروه، حتى المكروه، بل كانوا يتركون بعض الحلال الصرف خشية الوقوع في المكروه أو في الحرام،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الحج (١٨٠١)، ومسلم في الإمارة (٧١٥)، عن جابر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في اللباس (٥٨٩٢)، ومسلم في الطهارة (٢٥٩)، عن ابن عمر.

وفي الحديث المعروف الذي رواه الترمذي: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس»^(١)، فهذه مراتب.

تعقيب من الدكتور محسن:

أولاً أشكر شيخنا الجليل على هذه المحاضرة، وأريد أن أعقب على بعض الأمور، أولاً الذين ردوا السنة هؤلاء وجدوا من قديم، وأسلحتهم تنوع وتتغير مع الزمن، فأظن أن من أهم الأمور التي ساعدتهم أحياناً هي التعريفات التي عرفت بها السنة، فقولنا مثلاً: إنَّ السَّنة تكمل القرآن، قد صدم بعض العقول، وأنتم تعرفون أن ما قام به من سموا أنفسهم أهل القرآن، وتظاهروا بأنهم يدافعون عن القرآن من السنة، هؤلاء انطلقوا من بعض التعريفات، فلو عرّفنا السنة - وهذا أستشيركم فيه - لو قلنا: السنة هي تنزيل النص القرآني إلى الواقع العملي. فنغلق أمامهم الباب من قضية تكميل القرآن وما إلى ذلك.

والذين ردوا السنة، منهم مسلمون، ولهم جانب علمي، أو دخلوا الإسلام بعد علم ودراية مثل الطبيب الفرنسي (موريس بوكاي) الآن، فقد كتب كتابات في السنة، وآخر كتبه: (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)، هذا الرجل ذهب إلى أن جانباً من السنة عبارة عن أمثلة منتزعة من البيئة، والرسول ﷺ يمكن أن يخطئ. وذكر مثلاً حديث الذبابة، فهؤلاء خطرهم على المسلمين وعلى السنة كبير، فنحن نقول: السنة ليست تجربة، وليست أمثلة منتزعة من البيئة، وإنما هي تنزيل للنص

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥١)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢١٥)، والحاكم في الرقائق (٣١٩/٤)، وصحّحه، ووافقه الذهبي، وقال ابن رجب في فتح الباري (١٦/١): في إسناده بعض المقال. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٤٣٥)، عن عطية السعدي.

القرآني إلى الواقع العملي، وهي إما وحي، أو محمية بالوحي، وبهذا نغلق الباب أمام أعداء السنّة، ممن يسمون أنفسهم (القرآنيين) أو (أنصار القرآن)، وشكرًا لكم.

الرد:

شكرًا للأخ الدكتور محسن، فمسألة خصوم السنّة أمر معروف فعلاً من قديم، وهم يظهرون ما بين الحين والحين، ويستخدمون أسلحة شتى، وهم يُعاوَنون من جهات مختلفة، ذكرتُ لكم أنّ رجلاً يطعن في أحاديث البخاري يُطبع كتابه طبعة فاخرة، ويوزع مجاناً، وقبله كان رجل سَمى نفسه أنّه من (أنصار القرآن) سكرتير وزير المواصلات في مصر، عمل كتاباً كبيراً عن الصلاة من غير السنّة، ويُطبع هذا الكتاب ويوزع مجاناً، مَنْ وراء هؤلاء؟!

والآن هناك شخص في أمريكا اسمه رشاد خليفة، صاحب رقم (١٩)، آخر شيء أنّه ادعى أنّه رسول الله، آخر نشرة جاءت منه يقول فيها: رشاد خليفة رسول الله! وينكر السنّة إنكاراً مطلقاً، ويقول صلاة المسلمين هذه ليست صلاة، هذه صلاة المشركين، إنّها صلاة حابطة، وينكر أشياء، هؤلاء الناس طبعاً لا بد أن يكون وراءهم شيء.

طبعاً هناك بعض التعبيرات - كما قال الأخ الدكتور محسن - غير دقيقة، مثل السنّة تكمل القرآن أو نحو ذلك، وأفضل تعريف في الحقيقة أنّ السنّة تبين القرآن، ولذلك الإمام أحمد لما قيل له: السنّة قاضية على القرآن. قال: أنا لا أجرؤ أن أقول هذا، ولكن أقول: السنّة تبين القرآن. لأن بعض الناس قالوا: السنّة تقضي على القرآن، وليس القرآن قاضياً على السنّة. على أساس أنّ السنّة فيها تفصيل، وفيها تخصيص، وفيها تقييد، فهي التي تحكم على القرآن، فقال: أنا لا أجرؤ أن أقول هذا.



لا بد من الأدب مع السنّة، فكلمة (السنّة مكملّة للقرآن) يشعر مفهومها أنّ القرآن ناقص ويحتاج إلى من يكمله، لا، السنّة: هي البيان، وهذا مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، فهي البيان النظري والعملي؛ لأنّها فعلاً تمثل البيان النظري والتطبيق العملي: بالقول، والفعل، والتقرير، فالسنّة فعلاً هي القرآن مفسّراً مطبّقاً، كان النبي ﷺ مصحفاً مفسّراً أمام الناس فعلاً، فهذه هي السنّة، ينبغي الحذر من التعبيرات.

ولا ينبغي ألا نبالغ أيضاً في الأشياء التي لها فعلاً دلالات بيئية وكذا، ونعتبرها وحياً معصوماً.



السُّنَّةُ ومواجهة حملات التشكيك^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مضلَّ له، وَمَنْ يَضِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، وَمَنْ دعا بدعوته، واهتدى بسُنَّته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أحْيَيْكُمْ به أيها الأخوة والأبناء تحيَّة الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(وبعد)

الإسلام يُغزى ويُهاجم في عقر داره:

فقد شاء الله لنا في هذا العصر أن يكون موقفنا موقف الدفاع، فقد أصبحنا نُغزى ولا نَغزُو، ونُهاجم ولا نُهاجم، نُهاجم في عقر دارنا، ونُهاجم من قومنا، من قوم من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، وأصبح

(١) أُلقيت في مركز الدعوة والإرشاد السعودي بالدوحة، وقَدِّم لها فضيلة الشيخ عبد التواب هيكل حفظه الله وشفاه.

علينا بين الحين والحين أن نتصدى لهذا الغزو والهجوم من الداخل والخارج، ولو كان المسلمون يفقهون ما استحققت هذه الأمور أن ندافع عنها، لأنّها أمور معلومة من الدين بالضرورة، ولكنّا للأسف في عصرٍ قد طغى فيه الجهل، وغلب فيه الغزو الفكري، حتّى أصبح من ينتسبون إلى الإسلام في ديار الإسلام يجهلون أسس الإسلام، ويجهلون بديهيات الإسلام، وأوليات الإسلام، ولهذا كان علينا أن نقف لنوعيّ ونُبصّر ونسلّح الجيل المسلم الجديد الملتزم بالإسلام، كيف يردّ على هؤلاء المتهاجمين على الإسلام قرآنه وسُنّته.

تعرّض السُّنة للطعن والتشكيك من أعداء الإسلام:

إنّ السُّنة قد تعرّضت من قديم لحملات تشكيك وطعن من خصوم الإسلام، والله تعالى قد حفظ القرآن، مكتوباً بين الدفتين، متلوّاً بالألسنة، محفوظاً بالصدور، مقروءاً بالمصاحف، ولم يعد هناك من يجرؤ على التطاول على القرآن، ولهذا دخلوا دائماً من باب السُّنة، واتّخذوا منها ثكّاةً للتطاول على الإسلام، إلّا أنّ الله تعالى قيّض في كلّ عصر أولئك العدول من حملة العلم، الذين قال فيهم ﷺ: «يحملُ هذا العلمَ من كلّ خلفٍ عدوله، ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين»^(١).

قيل لعبد الله بن المبارك الإمام المحدث الثقة الفقيه المجاهد الزاهد: هذه الأحاديث الموضوعة! قال: تعيش لها الجهابذة^(٢). جهابذة العلم الذين يكشفون زيفها ويفضحونها، ويبينون حقيقتها للناس، يعيش لها الجهابذة، وهكذا كان الجهابذة في كلّ عصر من العلماء العدول، الذين

(١) سبق تخريجه ص ٤٩٠.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٧٤.

يحملون هذا العلم حَمْلَ الوعاة الدعاة، وحَمْلَ الأمناء الرعاة، لا حَمْلَ الأدعياء ولا الدجالين. تعرّضت السُّنَّة من قديم لحملات، ولكن الله تعالى هيّا مَنْ يدافع عنها في كلِّ عصر ومصر.

في عصرنا وجد هؤلاء، بين الحين والحين يظهر فرخ من فروخ الاستعمار الثقافي والاستشراقي والتنصيري، يظهر بصورة أو بأخرى، ليؤلف كتاباً، أو يكتب في صحيفة يثير الغبار حول هذا المصدر العظيم السُّنَّة، التي هي بيان للقرآن، ولا يمكن الاستغناء بالقرآن عن السُّنَّة، لأن القرآن يحتاج إلى البيان، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩]، والمبين هو النبي ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، فالسُّنَّة هي التفسير النظري والتطبيق العملي، والبيان المفصّل لكتاب الله تبارك وتعالى، ولذلك قيل للتابعي الجليل مطرّف بن عبد الله بن الشَّحِير: قال له بعض الناس: حدّثونا بالقرآن. قال: والله ما نبغي بالقرآن بديلاً، ولكننا نريد مَنْ هو أعلم به منّا^(١). يعني رسول الله ﷺ. مَنْ أراد أن يعرف القرآن فليعرفه ممّن أنزل عليه، ومَنْ هو أعرف الناس بمراد الله منه، وهو رسول الله ﷺ.

تعرّضت السُّنَّة لحملات كثيرة، فهيّا الله مَنْ يدافع عنها، هناك مَنْ ألف كتاباً في الهجوم على السُّنَّة، مثل كتاب «أضواء على السُّنَّة المحمديّة» وكتاب «فجر الإسلام»، الذي نقل فيه عن المستشرقين، وأضاف بعض ما كتبوه إلى نفسه، وبعض ما كتبه إليهم، وجاء ابنه اليوم ليهاجم السُّنَّة من جديد، والولد سرُّ أبيه، ومَنْ يشابه أباه فما ظلم، ولكنّه زاد على أبيه.

(١) مفتاح السنة للسيوطي ص ٣٥، ٣٦.

وجدنا هذا الذي رددنا عليه في العام الماضي حينما تكلم عن السُّنة والبدعة، وادّعى أنّ استنكار البدعة موقف جاهليّ، ثم نراه أيضًا يهاجم القرآن نفسه، كما رأيناه يهاجم الحدّ القطعي المذكور في سورة المائدة وهو قطع يد السارق: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، مما يدلُّ على أنّ هؤلاء إذا سلّمنا لهم بشيء فإنّهم يقفزون على ما هو فوقه.

هم يقولون: الفقه هو اجتهاد بشر. فإذا سلّمنا لهم بهذا ذهبوا إلى السُّنة، وقالوا: بعدم قبول خبر الآحاد. فإذا سلّمنا لهم بمهاجمة سنن الآحاد، لا يكتفون بذلك، ويهاجمون السنن المتواترة، فإذا سكتنا عن ذلك، هاجموا القرآن نفسه؛ إنّهم لا يقفون عند حدّ. وللأسف نرى هؤلاء وقد فُتحت لهم أبواب الإعلام على مصاريعها، يكتبون الكتب وينشرونها، وتُعطى كتبهم الجوائز، ويكتبون في الصحف السيّارة ولا يجدون من يرد عليهم.

هناك جهات إسلامية: جامعات إسلامية، مراكز إسلامية، مجامع إسلامية من شأنها أن تردّ على هؤلاء، وأن تذود عن القرآن والسُّنة، ولكننا للأسف لم نجد من يتحمّل هذا، ويذبّ عن سُنّة النبي محمد ﷺ! وجدنا واحدًا منهم فقط لما كتب كاتب يتّهمهم بالرشوة أو بغير ذلك، قام يردّ ويدافع عمّن معه، ولما هُوجِم القرآن وهُوجِم الحكم الشرعي القطعي وهُوجِمَت السُّنة لم نجد من يرد عن رسول الله ﷺ من هؤلاء! فلا عجب أن يطمع فينا الطامعون، ويتغلّب علينا المتغلبون، فنحن نُغزى في عقر دارنا.

واجبنا نحو السُّنة النبويّة:

لذلك كان لزامًا علينا أن نكشف عوار هؤلاء المزيّفين المضللّين، الذين يتعاملون وليس لهم من العلم شيء. مشكلة هؤلاء أنّهم مغرورون،

عندهم قشور من العلم جمعوها من هنا وهناك، ولبسوا على الناس، وموهوا على العامة، موهوا عليهم أنهم قُرّاء مثقفون مطلعون. وفي الحقيقة إنهم ليسوا مُطّلعين، إنهم حاطبو ليل، إنهم يجمعون بين الغث والسمين من هنا وهناك؛ يردّون البخاري، ويأخذون من الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني! ما هذا العلم؟ ما هذا العلم الذي ليس له خطام ولا زمام؟ إنّه علم ليس له منهج ولا قاعدة، يأخذ من المرويات ما يروق له وإن كان ضعيفاً في سنده، ويردّ ما لا يروق له وإن كان في أصحّ الصحاح! كيف تحاكم هؤلاء الذين يهاجمون السُنّة، ويهاجمون الأحاديث؟ والسؤال: لماذا هذا كله؟

في الحقيقة أنّ السُنّة هي الإسلام المفصّل، هي المنهاج التفصيلي لحياة الإنسان المسلم، وحياة الأسرة المسلمة، وحياة المجتمع المسلم، القرآن تضمّن القواعد الكلية والمبادئ العامّة. ولكن الذي تضمّن منهاج الحياة الإسلامية هي السُنّة، فهي التي فصلت لنا الأحكام الإسلامية: الأحكام الشرعيّة، الأحكام الخُلقيّة، أحكام الآداب والسلوك، آداب الأكل والشرب، والقيام والجلوس، والنوم واليقظة، والسفر والحضر.

رسمت السُنّة منهاج الحياة الإسلامية، وبهذا المنهج يتميّز المسلم عن غيره، ويتميّز المجتمع المسلم عن غيره، ولهذا كانت نقمة هؤلاء على السُنّة أكثر من غيرها، فإذا انهدمت السُنّة فماذا يبقى من الإسلام؟ حتّى الصلاة لا نستطيع أن نصلي، فالقرآن لم يأت لنا بتفصيل الصلوات، لم يقل لنا: إنّها خمس صلوات. ولم يقل لنا: إنّ الصبح ركعتان، والظهر أربع ركعات، والعصر أربع ركعات، والمغرب ثلاث ركعات، والعشاء أربع ركعات. ولم يبيّن لنا المواقيت، ولم يبيّن لنا ما نقول في كلّ ركعة، هذه الصلاة المفتحة بالتكبير المختمة بالتسليم عرفناها من سنّة

النبي ﷺ ، فقد روى أبو نضرة قال: كُنَّا عند عمران بن حُصَيْن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فكنَّا نتذاكر العلم. فقال رجل: لا تتحدَّثوا إلَّا بما في القرآن. فقال له عمران: إِنَّكَ لَأَحْمَقُ، أوجدتَ في القرآن صلُّوا الظهرَ أربعَ ركعات، والعصرَ أربعًا لا تجهر بالقراءة في شيء منها، والمغرب ثلاثًا تجهر بالقراءة في الركعتين منها، ولا تجهر بالقراءة في ركعة، والعشاء أربع ركعات تجهر بالقراءة في ركعتين منها، ولا تجهر بالقراءة في ركعتين، والفجر ركعتين تجهر فيهما بالقراءة^(١).

وكذلك الصيام، وكذلك الزكاة، وكذلك الحج، وكذلك تفاصيل المعاملات، وتفاصيل الحياة عرفنا كلَّ ذلك من السُّنَّة، ولذلك إذا انهدمت السُّنَّة انهدم معها الإسلام، هؤلاء أصبحوا الآن يُوجِّهون حملاتهم إلى السُّنَّة يشكِّكون في ثبوتها، حملات على السُّنَّة من حيث ثبوتها، حملات على السُّنَّة من حيث حجِّيَّتها، حملات على السُّنَّة من حيث دلالتها ومضمونها.

من حيث ثبوتها يشكِّكون فيها، يقولون: اختلط فيه الصحيح بالضعيف، والمقبول بالمردود، والحسن بغير الحسن، وقد وضع الوضَّاعون أحاديث، فما عدنا نعرف هذا من ذاك. كأنهم يريدون أن يهيلوا التراب على تاريخ هذه الأمة، وتاريخ علمائها الذين تصدَّوا للوضَّاعين وكشفوهم وغربلوا الأحاديث، ووضعوا القواعد، وأصلوا الأصول، ولم يُعد هناك مجال أن يوجد حديث موضوع يدخل على علماء الأمة، وينطوي عليهم ويقبلونه ويروونه في كتبهم على أنَّه من دين الله ومن شرع الله، لم يُعد هذا ممكناً، علماء الأمة اشتغلوا في هذا واجتهدوا عليه. هم يقولون: إنَّ السُّنَّة لا يوجد لها ما يدلُّ على ثبوتها.

(١) رواه عبد الرزاق في جامع معمر (٢٠٤٧٤).

ومن ناحية أخرى حتّى لو ثبتت ليست حجّة؛ لأنّ النبي ﷺ كان بشراً من البشر، يقول ويفعل بطبيعته البشرية، وبطبيعته العربية، وبتجاربه وعاداته. وقد قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(١). وبعضهم يريد أن يهدم بهذا الحديث كلّ ما جاء في شؤون الحياة، وفي شؤون الآداب، وفي شؤون المعاملات، وفي شؤون الاقتصاد؛ لأننا أعلم بشؤون دنيانا.

ويشككون في مضمون السنّة، في الآداب التي تتضمنها السنّة؛ يقولون: ما معنى أن يأتي حديث ويقول لك: كلّ باليمين ولا تأكل بالشمال، واشرب باليمين ولا تشرب بالشمال، وادخل المسجد برجلك اليمنى واخرج منه برجلك اليسرى، وإذا لبست النعل فالبس اليمنى أولاً، ما هذا الكلام؟ حتّى مضمون السنّة أصبحوا يشككون فيه!

أسباب الطعن والتشكيك في السنّة:

في الحقيقة حصرت هذه الأسباب والدوافع التي دفعتهم إلى هذه الحملة على السنّة في أسباب عديدة:

السبب الأوّل: الجهل:

هؤلاء المتعالمون جهلة: هم جهلة بالسنّة، وجهلة بالقرآن، وجهلة بالتاريخ، وجهلة بعلماء هذه الأمة، هم جهلة بهذا كلّ، ولذلك يقولون كلاماً عجيباً. لو رجعوا إلى القرآن لعلموا أنّ القرآن نفسه هو الذي يدعو إلى اتباع السنّة: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣)، عن أنس، وعائشة.

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠].

﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَانَهُكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وآيات وآيات، هؤلاء لو عقلوا ورجعوا إلى القرآن الكريم لوجدوا أن القرآن نفسه هو الذي يدعوهم إلى طاعة رسول الله ﷺ واتباع ما جاء به؛ لأن النبي ﷺ هو المبين عن الله مراده، ف هؤلاء جهلة بالقرآن.

وهم كذلك جهلة بتاريخ هذه الأمة، يقول حسين أحمد أمين صاحب كتاب «دليل المسلم الحزين»: «بدأ الناس يبحثون عن السُّنة في القرن

الثاني؛ ليرفعوها إلى مصافِّ الأحكام القرآنية الإلهية^(١). يقول هذا، مع أنَّ الصحابة منذ عهد النبي ﷺ كانوا يبحثون عن السُّنة، كان أبو بكر رضي الله عنه إذا لم يجد شيئاً في مسألة في كتاب الله يقول: هل منكم من سمع شيئاً من رسول الله؟ أو عرف أنَّ رسول الله ﷺ قضى فيها بكذا، فإذا كان قال له: نعم. كما في مسألة الجدَّة، قضى لها بالسُّدس عملاً بفعل رسول الله ﷺ، فقد جاءت إحدى الجدَّات في خلافته رضي الله عنه - بعد موت حفيدها - تطلب نصيبها من تركته، فقال لها أبو بكر: ما أجَد لك في كتاب الله شيئاً، وما علمت رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً. ثم سأل الناس، فقام المغيرة بن شعبة فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يعطيها السُّدس. فقال هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه أبو بكر رضي الله عنه^(٢).

وكذلك كان عمر رضي الله عنه يقول: هل منكم من رأى أو سمع من النبي ﷺ؟ فعن أبي سعيد الخدري، يقول: كنت جالساً بالمدينة في مجلس الأنصار، فأتانا أبو موسى فزعاً أو مذعوراً. قلنا: ما شأنك؟ قال: إنَّ عمر أرسل إليَّ أن آتية، فأتيت بابه فسلمت ثلاثاً فلم يرد عليَّ فرجعت، فقال: ما منعك أن تأتينا؟ فقلت: إنِّي أتيتك، فسلمت على بابك ثلاثاً، فلم يردوا عليَّ، فرجعت، وقد قال رسول الله ﷺ «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له، فليرجع». فقال عمر: أقم عليه البيّنة، وإلا أوجعتك. فقال: أبيُّ بن كعب: لا يقوم معه إلا أصغر القوم. قال: أبو سعيد: قلتُ: أنا أصغر القوم. قال: فاذهب به^(٣).

(١) راجع: دليل المسلم الحزين لحسين أحمد أمين ص ٤٤، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٧١.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٥)، ومسلم في الآداب (٢١٥٣).

وقد كتب ﷺ إلى شريح القاضي يقول له: إذا أتاك أمر في كتاب الله فاقض به، ولا يلفتك الرجال عنه، فإن لم يكن في كتاب الله وعجل، وكان في سنة رسول الله ﷺ فاقض به، فإن لم يكن في كتاب الله وعجل، ولا في سنة رسول الله ﷺ فاقض بما قضى به الصالحون، فإن لم يكن في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله ﷺ، ولم يقض به الصالحون، فإن شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر، ولا أرى التأخر إلا خيراً لك، والسلام عليكم^(١).

وكان ذلك شأن أصحاب النبي ﷺ جميعاً، إذا لم يجدوا شيئاً بيناً صريحاً في القرآن يبحثون في السنة، وجمعوا الناس، وسألوا الناس، وإذا وجدوا من يدلهم على حديث رجعوا إليه، ولم يجادلوا في شيء من هذا. من ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان متردداً في أمر المجوس؛ كيف يعاملون؟ أيعاملون معاملة الوثنيين، أم معاملة أهل الكتاب؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف وذكر له أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر وقال: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب»^(٢). وهكذا في أمور كثيرة كانوا وقَّافين عند كتاب الله، رجَّاعين إلى سنة رسول الله ﷺ، من يقرأ التاريخ ويرجع إليه يجد هذا الأمر واضحاً تمام الوضوح.

وقال صاحب هذا الكتاب أيضاً في هجومه على السنة: استطاع الناس أن يركَّبوا أحاديث، العلماء، والفقهاء يركَّبون أحاديث وينسبونها للنبي ﷺ!

(١) سبق تخريجه ص ٤٧١.

(٢) رواه مالك في الزكاة (٦١٦)، رواية يحيى الليثي، والشافعي في الجهاد (٤٣٠) ترتيب السندي، والبيهقي في الجزية (١٨٩/٩)، وقال عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢٦١/٦): منقطع مع ثقة رجاله. عن عبد الرحمن بن عوف.

معنى ذلك: أَنَّ السلسلة الذهبية قد ركبها واحدٌ من الناس، والسلسلة الذهبية عند الإمام البخاري - والتي تعتبر أصحَّ الأسانيد - هي: مالكٌ، عن نافع، عن ابن عمر. فيأتي مَنْ يقول: أيُّ إنسانٍ يستطيع أن يأتي بالسلسلة الذهبية ويقول: حدَّثني مالكٌ، عن نافع، عن ابن عمر، أَنَّ رسول الله ﷺ قال كذا، فالمسألة سهلة، مَنْ يريد سلسلة ذهبية أتيت له بها! كَأَنَّ الأمر في غاية السهولة.

هؤلاء يجهلون تاريخ هذه الأمة، مَنْ يقول هذا الكلام لم يعرف كيف كان الحديث يُروى، كَأَنَّهُ يتصور هذا العلم يصدر من إنسان في عرض الطريق! هذا العلم حلقات علمية، حلقات متصلة، يأخذ فيها بعضهم عن بعض، لو جاء إنسان من عرض الطريق وقال: سمعتُ مالكاً، عن نافع، عن ابن عمر. هل يقبل منه؟! لا، لا يُقبل منه حتَّى تتوافر فيه عدّة شروط، وهي:

الشروط التي تقبل بها الرواية:

١ - أن يكون معروف العين والحال:

فرواية المجهول لا تُقبل، مجهول العين أو مجهول الحال، مجهول العين هو الذي لا يعرف من هو. عندما يأتي إنسان ويقول مثلاً: حدَّثني «عبد الله بن عبد السميع». مَنْ هو عبد الله بن عبد السميع هذا؟ فَمَنْ يقول هذا لا بدَّ وأن يجب مَنْ هو «عبد الله بن عبد السميع» هذا؟ لا بدَّ أن يجب ويقول: هو الذي ولد في مكان كذا، ونشأ في بلد كذا، وكان من شيوخه الذين سمع منهم وأخذ عنهم فلان وفلان، وأخذ عنه فلان وفلان من العلماء، يعدّد شيوخه وتلاميذه، ويذكر البلاد التي رحل إليها وطلب العلم من شيوخها. وهذا علم يسمّى علم الرجال، اهتمت به

الأُمَّة من قديم، وفي تاريخ الرجال كلُّ واحد معروف. ولا يكفي أن يخبر بما يفيد أنه معروف العين، لا بدَّ أن يكون معلوم الحال أيضًا، من ناحية سلوكه وسيرته، فلا بدَّ أن يكون ذلك معروفًا، فلو قال فلان: عن رجل. أو قال: عن ثقة. نقول له: لا، لا بدَّ أن تقول: مَنْ هو هذا الثقة؟ فقد يكون ثقة عنده وليس ثقة عند غيره، حتَّى ولو قال ذلك أكبر الأئمة، يقال له: لا. فقد يكون حُجَّة عنده وليس حُجَّة عند غيره. لا بدَّ أن يبيِّن مَنْ هو هذا الثقة؛ لأنَّه قد يوثِّقه بعض الناس ويجرِّحه آخرون. وهناك قاعدة تقول: الجرح يُقدِّم على التعديل، إذا كان الجرح مُفسِّراً، أي معروف الأسباب.

فلا بدَّ أن يكون الراوي معروف العين، ومعروف الحال.

٢ - أن يكون عدلاً:

أي مُتَّصِفًا بالعدالة، والعدالة هي مَلَكة التقوى، أن يكون الشخص مؤتمناً على الرواية في دين الله، لا يرتكب كبيرة، ولا يصرُّ على صغيرة، ولا يرتكب عملاً يخلُّ بالمروءة. تصوَّروا حتَّى ولو كان تقيًا ولكنَّه يفعل أفعالاً تخلُّ بالمروءة؛ كأن يبول في الطريق، أو يأكل في الطريق، أو يمشي عاري الرأس، فقد كان عندهم كشف الرأس مما يُسقط المروءة، فكلُّ هذه الأمور مما تسقط بها المروءة عن الإنسان، الأكل في الطريق ليس حراماً، ولكنَّه كان في عُرفهم مما لا يليق بأكابر الناس، فمثل هذا إذا روى حديثاً لا يُؤخذ عنه.

٣ - أن يكون ضابطاً:

لم يكتفِ العلماء بالعدالة، هذه الصفة الدينيَّة الخُلُقيَّة، ولكنهم يقولون: لا بدَّ من الضبط. العدالة والضبط معاً، بل ليكون الحديث

صحيحًا لا يكتفون بمجرد الضبط، بل بتمام الضبط، أي أن يكون في المرتبة العليا من الضبط، يعني بالتعبير الجامعي: إما أن يكون ممتازًا أو جيّد جدًّا، هذا ليكون الحديث صحيحًا، فإذا لم يبلغ هذه المرتبة كان الحديث حسنًا، في درجة الجيد أو المقبول، أمّا أن يكون دون ذلك، فلا قبول. وقد وضعوا مراتب، وقواعد للجرح والتعديل لتقويم كلّ راوٍ، فإذا كان هناك خلاف في تقويمه يُذكر هذا الخلاف، فيُعرف المتفق عليه من المختلف فيه.

٤ - ألا يكون الحديث شاذًّا:

ثم إنَّهم يشترطون أمرًا آخر، ألا يكون هذا الحديث شاذًّا، يعني: ألا يخالف الثقة من هو أوثق منه، لا يخالف عددًا أكبر من الرواة، ولا يخالف من هو أقوى منه في الأخذ عن نفس الشيخ، أو نحو ذلك.

٥ - ألا يكون معللاً بعلة قاذحة:

كذلك اشترط العلماء لقبول الحديث ألا يكون فيه علة قاذحة في سنده أو متنه، ولو كان سنده في ظاهر الأمر مقبولًا. كلّ هذه شروط ذكروها، فكيف يُقال بعد ذلك: إنّه بإمكان أي إنسان أن يأتي ويقول: حدثني مالك، عن نافع، عن ابن عمر. دون أن نقول له من أنت؟ وكيف حدّثك مالك؟ من أي أصحابه أنت؟ من أصحابه المدنيين، أم من أصحابه المكيين، أم من أصحابه المصريين؟ وكيف حدّثك أنت ولم يحدث أحدًا من أخصّ تلاميذه؟

حتى ولو جاء واحد وفعل ذلك، ونظروا فيه ووجدوا أنّه عدل مشهود له، وهذا لا يحدث لأنّ سُنّة الله تعالى اقتضت أن يفضح الكذّابين، سنة من سنن الله كما قال سيدنا علي بن أبي طالب: غشُّ

القلوب يظهر على صفحات الوجوه، وفلتات الألسن^(١). وكما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، وكما قال زهير:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ^(٢)
فلو فرض أنَّ واحدًا استطاع بكلِّ الحيل أنْ يخفي شخصيته وهو كذاب ولم يعرفه أحد، لا ممَّنْ حوله، ولا من شيوخه، ولا من تلاميذه، وقال: حدثني مالك. وجاء بشيء لم يعرفه أحد، فهذا هو الحديث الشاذ؛ لأنَّه خالف كلَّ الرواة، بل هو أشدَّ الشذوذ. والعلماء يعبرون عن هذا بقولهم: حديث غريب. ويقولون أيضًا: جاء بحديث لا يُتَّبع عليه. أي لم يتابعه راوٍ آخر، ولا ثقة آخر، وإذا كثر منه هذا وذكر أكثر من حديث قالوا: يأتي بالغرائب، أحاديثه لا يتابع عليها.

ومن تتبَّع كتب الضعفاء مثل الكامل لابن عدي، أو ميزان الاعتدال للذهبي، أو غير ذلك من الكتب، يجد هذه العبارة التي تعني أنه يأتي بالغريب من الأحاديث، أحاديثه غريبة لا يُتَّبع عليها، فيرفض هذا ويُرد. فكيف يتصوَّر هؤلاء أن هناك مَنْ يُرَكَّبُ الإسناد، ولا يُكشف وضعه وكذبه.

هذا يجوز عند العامة، وهذا كان يفعله القصاص، يذهبون إلى المساجد والعوام، ويخترعوا من الأسانيد ما يشاؤون؛ لأنَّ العوام يصدِّقون ما يُقال لهم. كما نرى في عصرنا هذا، مثل وصية الشيخ أحمد

(١) انظر: صبح الأعشى للقلقشندي (٢٦٧/٧)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) انظر: شرح المعلقات التسع ص ٢١٣، تحقيق عبد المجيد همو، نشر مؤسسة الأعلمي

للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

حامل مفاتيح الحرم النبوي، أنه رأى النبي ﷺ في المنام وقال له كذا! وعلى كل من قرأ هذه يكتب منها ثلاثين نسخة ويوزعها، وإلا حصل له كذا! وقد قرأها فلان ولم يوزعها فحصل له كذا^(١)!

وهذا كلام يصدقه العوام، وأنتم تعرفون قصة الإمام أحمد ويحيى بن معين، حينما صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين في مسجد الرصافة، فقام بين أيديهم قاص فقال: حدثني أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا: حدثنا عبد الرزاق، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَلَقَ اللَّهُ مِنْ كُلِّ كَلِمَةٍ طَيْرًا مَنْقَارُهُ مِنْ ذَهَبٍ وَرِيشُهُ مِنْ مَرْجَانٍ...». واستمر يذكر في هذا الحديث نحوًا من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى، ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال: أنت حدثت بهذا؟! فقال: والله ما سمعت بهذا إلا الساعة. فلما انتهى أشار إليه يحيى، فجاء متوهّمًا نوالًا، فقال له يحيى: مَنْ حدثك بهذا؟

قال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

فقال يحيى: أنا يحيى وهذا أحمد، ما سمعت بهذا قط في حديث رسول الله، فإن كان لا بدّ فعلى غيرنا.

فقال القاص: لم أزل أسمع أنّ يحيى بن معين أحمق، ما تحقّقه إلا الساعة.

فقال له يحيى: وكيف؟

فقال: أليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما؟ لقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

(١) انظر في الرد على هذا كتابنا: فتاوى معاصرة (٢٠١/١)، نشر دار القلم، ط٩، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

فوضع أحمد كُـمّه على وجهه وقال: دعه يقوم. فقام كالمستهزئ بهما^(١). هذا الكلام يروج عند العامة، ولا يروج عند العلماء، لو ذهب إلى حلقة علم وقال فيها هذا الكلام، مثل هذا يضرب بالنعال. العلماء لهم معاييرهم وموازينهم، والقصاص لهم طريقهم، وقد ألّف العلماء في هذا التحذير منهم، الإمام السيوطي له كتاب «تحذير الخواص من أكاذيب القصاص»، حتّى في الخليج عندهم تعبير يدلّ على كذب هؤلاء القصاص: فلان قصّاص. يعني يكذب، أمّا العلماء فلا يتصوّر ذلك منهم.

ومن العجيب أنّ هذا الرجل يقول: أنّ هذه (الفبركة) في الأحاديث تصدر من الفقهاء! الفقهاء يكذبون، الفقهاء يخترعون أحاديث عن رسول الله ﷺ! مَنْ مِنَ الفقهاء؟ أبو حنيفة، أنتم قلتم: إنّ أبا حنيفة لم يثبت عنده إلا سبعة عشر حديثاً. في بعض المجلات عندما يريدون أن يطعنوا في السُّنّة يقولون: إنّ أبا حنيفة لم يثبت عنده إلا سبعة عشر حديثاً. وهذا كذب وافتراء.

وقد ردّ على هؤلاء ابن خلدون في «مقدمته»، فقال: «وقد تقوّل بعض المبغضين المتعسّفين، إلى أنّ منهم من كان قليل البضاعة في الحديث، فلهذا قلّت روايته! ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة؛ لأنّ الشريعة إنّما تؤخذ من الكتاب والسُّنّة. ومن كان قليل البضاعة من الحديث، فيتعيّن عليه طلبه وروايته والجِد والتشهير في ذلك، ليأخذ الدين عن أصول صحيحة، ويتلقّى الأحكام عن صاحبها المبلّغ لها. وإنّما قلّل منهم مَنْ قلّل الرواية؛ لأجل المطاعن التي تعترضه فيها، والعلل التي تعرض في طُرُقها، لا سيّما والجرح مقدّم عند الأكثر، فيؤدّيه

(١) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٥٠٥).

الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه، من الأحاديث وطرق الأسانيد. ويكثر ذلك فتقل روايته لضعف في الطرق... والإمام أبو حنيفة إنما قلّت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل، وضعّف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسي. وقلّت من أجلها روايته، فقلّ حديثه. لا أنّه ترك رواية الحديث متعمّداً، فحاشاه من ذلك. ويدلّ على أنّه من كبار المجتهدين في علم الحديث: اعتماد مذهبه بينهم، والتعويل عليه، واعتباره ردّاً وقبلاً^(١).

فهم خطفوا الكلام وأخذوا بعضه وتركوا البعض.

مَنْ مِنَ الفقهاء الذي كان يُرْكَبُ الأسانيد ويخلق الأحاديث؟
أبو حنيفة أم مالك؟

الإمام مالك الذي كان قبل أن يحدث عن رسول الله ﷺ يتوضأ ويتطيّب ويجلس، وعندما يحدث عن رسول الله ﷺ تأخذه رعدة، تعظيماً لحديث رسول الله ﷺ.

أم الشافعي أم أحمد بن حنبل؟ أم الثوري والأوزاعي والليث بن سعد؟ مَنْ مِنْ هؤلاء؟ أم فقهاء الأئمة فقهاء التابعين؟ سعيد بن المسيب وسعيد بن جبيرة وعطاء والحسن البصري، مَنْ مِنْهم؟

لا يمكن أن يكذب واحد من هؤلاء! هؤلاء هم الذين اشترطوا الأسانيد، الإسناد مما اختصت به هذه الأمة، لو ذهبنا إلى اليهود أو النصارى ما وجدنا عندهم أسانيد حتّى لكتبهم الأصلية، التوراة ليس لها سند، لم تثبت لا بالتواتر ولا بالآحاد، ولذلك حُرِّفت وبُذلت، حتّى

(١) مقدمة ابن خلدون (١١٤٣/٣ - ١١٤٥) تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، نشر لجنة البيان

العربي، ط٢، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

الأنجيل الأربعة الموجودة، أين النسخة الأصلية من الإنجيل المكتوبة باللغة الأصلية عن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام؟ لا توجد، لا توجد إلا الترجمات التي كُتبت بعد المسيح بعشرات السنين، وهذا باعترافهم أنفسهم، فالإسناد من خصائص هذه الأمة.

قال ابن سيرين كما روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء^(١). لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء.

ولذلك حدّث أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى الطالقاني عبد الله بن المبارك فقال: يا أبا عبد الرحمن، الحديث الذي جاء: «إنَّ من البرِّ بعد البرِّ: أنْ تصلِّيَ لأبويك مع صلاتك، وتصوم لهما مع صَوْمِكَ». قال: فقال عبد الله: يا أبا إسحاق، عمَّن هذا؟ قال: قلتُ له: هذا من حديث شهاب بن خراش.

فقال: ثقة، عمَّن؟ قال: قلتُ: عن الحجاج بن دينار.

قال: ثقة، عمَّن؟ قال: قلتُ: قال رسول الله ﷺ.

قال: يا أبا إسحاق، إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز تنقطع فيها أعناق المَطِيِّ، ولكن ليس في الصدقة اختلاف^(٢).

هناك مسافة زمنية طويلة، أين هو وأين رسول الله ﷺ؟ ألا يستحي هؤلاء الذين يدَّعون هذا؟ ألا يرجعون إلى تاريخ هذه الأمة فيعرفوا ماذا صنع علماء الأمة، منذ عهد الصحابة والتابعين؟ كيف رحلوا في طلب

(١) رواه مسلم في المقدمة (١٥/١).

(٢) المصدر السابق (١٦/١).

الحديث؟ لم تعرف الدنيا في تاريخ العلم أناسًا رحلوا في طلب العلم كما فعل علماء المسلمين في طلب الحديث.

جابر بن عبد الله ذهب إلى الشام شهرًا ذهابًا وشهرًا إيابًا؛ لسمع حديثًا من عبد الله بن أنيس، قال جابر بن عبد الله: بلغني عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ لم أسمعه منه. قال: فابتعتُ بعيرًا فشددتُ عليه رحلي، فسرتُ إليه شهرًا حتَّى أتيتُ الشام، فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصاري قال: فأرسلتُ إليه جابرًا على الباب.

قال: فرجع إليَّ الرسولُ فقال: جابر بن عبد الله؟ فقلتُ: نعم.

قال: فرجع الرسول إليه، فخرج إليَّ فاعتنقني واعتنقته.

قال: قلتُ: حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم، لم أسمعه، فخشيتُ أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه.

فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يَخْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ عُرَاءَ غُرْلًا بَهُمَا...» الحديث^(١).

ويخرج أبو أيوب إلى عُقْبَةَ بن عامر وهو بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، فلما قدم أتى منزل مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد الأنصاري، وهو أمير مصر، فأخبر به فخرج إليه فعانقه، وقال: ما جاء بك، يا أبا أيوب؟

قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، لم يبقَ أحد سمعه غيري وغير عُقْبَةَ، فابعتُ مَنْ يدلُّني على منزله. قال: فبعث معه مَنْ يدلُّه على منزل عقبة، فأخبر عقبة به، فخرج إليه فعانقه، وقال: ما جاء بك، يا أبا أيوب؟

(١) سبق تخريجه ص ٨٥.

فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، لم يبقَ أحد سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن. قال: نعم، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ ستر مؤمناً في الدنيا على خربةٍ ستره الله يوم القيامة». فقال له أبو أيوب: صدقت. ثم انصرف أبو أيوب^(١).

هكذا كان الصحابة، والتابعون كذلك، يقول سيد التابعين سعيد بن المسيب: إن كنتُ لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد^(٢)!

وحدث عامر الشَّعْبِي بحديث: «ثلاثة يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ...»، ثم قال الشَّعْبِي: «وأعطيتُكها بغير شيءٍ، وقد كان الرجل يرحل في أهون منها إلى المدينة»^(٣). يريد أن يقول له: خذها عفواً صفواً بدون تعبٍ ولا مشقةٍ (خذها مجَّاناً)، أمّا نحن فكنا نتعب فيما هو أقلُّ منها، ونقطع فيما دونها المفازات. كلُّ هذا في سبيل الله، ومن أجل طلب العلم.

انظروا إلى رحلات علماء الحديث كيف رحلوا؟ الإمام أحمد بن حنبل ذهب إلى اليمن ولم يكن عنده مال ليكتري راحلة يركب عليها، فكان يكرى نفسه لأصحاب القوافل حتَّى وصل إلى اليمن وسمع من عبد الرزَّاق، ولما رجع ظهر به شحوب بمكة، وقد تبَيَّن عليه النصب والتعب، فقيل له: لقد شققتَ على نفسك في خروجك إلى عبد الرزاق. فقال: هَيِّنْ فيما استفدنا من عبد الرزاق^(٤).

(١) سبق تخريجه ص ٨٥.

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥٦٩)، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١)، ومسلم في الإيمان (١٥٤)، عن أبي موسى.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٨٤/٩).

الأُمَّة لم تكن أُمَّة (مَغْفَلَة)، الصالح المَغْفَل لا يؤخذ منه الحديث؛ لأنَّه من أصحاب الغفلة، يمكن أن يخدعه أحد من الناس؛ فيدس له حديث وهو لا يدري، فكانوا لا يأخذون إلا عن الوعاة.

هذا هو السبب الأول الذي جعل هؤلاء يطعنون في السُّنَّة، ويُشكِّكون فيها، وهو الجهل: الجهل بالقرآن، الجهل بالسُّنَّة، والجهل بعلوم الحديث، والجهل بتاريخ الحديث ورجاله، والجهل بتاريخ الأُمَّة وعلمائها، فهذا الجهل سبب من الأسباب.

السبب الثاني: التحامل والحقْد على الإسلام:

كذلك من الأسباب التي دفعتهم للطعن في السُّنَّة والتشكيك فيها: التحامل والحقْد على الإسلام، وهذا نجده من المستشرقين والمبشِّرين، وغير هؤلاء من تلاميذهم وفروخهم، الذين يدَّعون العلميَّة والموضوعية والحياد، ولكنهم للأسف متحاملون أشد التحامل، لأنَّ الأصل أن يبحث الإنسان وهو خالي الذهن، يستدلُّ ثم يعتقد. ولكن هؤلاء يعتقدون ثم يستدلُّون، كَوْن رأيه قبل أن يبحث، عنده فكرة مسبقة عن الإسلام، وعن القرآن والسُّنَّة، ثم يبحث في الكتب ليتصيّد أيَّ شيء يخدم فكرته، فهو لا يبحث بحثًا موضوعيًّا، ولا يقف من الحقيقة العلميَّة موقف الحياد والنزاهة، لا، بل هو يريد أن يستخدم كلَّ شيء، ولذلك يأخذ الروايات الضعيفة ويترك الروايات الصحيحة، يأخذ ببعض الكلمات ويترك باقيها، يفسّر العبارات والكلمات تفسيرًا على غير حقيقتها.

أضرب لكم مثلًا على ذلك: ابن سيرين من فقهاء التابعين ومُحدِّثيهم (ت ١١٠هـ)، يقول: لم يكونوا - أي الجيل الذي قبله، جيل أصحاب رسول الله ﷺ - يسألون عن الإسناد، فلمَّا وقعت الفتنة قالوا:

سَمُّوا لنا رجالكم، فننظر إلى أهل السُّنَّة فنأخذ حديثهم، وإلى أهل البدعة، فلا نأخذ حديثهم^(١). فكانوا بعد ذلك لا يأخذون الحديث إلا ممَّن يعرفوه.

ماذا يُفهم من كلمة: سَمُّوا لنا رجالكم؟ ماذا يفهم أيُّ إنسان يعرف التاريخ الإسلامي من كلمة: فلما وقعت الفتنة؟ إنها الفتنة في زمن عثمان، الفتنة التي سمّاها الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى»، يأتي أحد عتاتهم ويقول: الفتنة هنا فتنة وقعت سنة (١٣٠هـ) أيام الوليد بن عبد الملك، وقد أخذ هذا من تاريخ الطبري من قوله: فلما هاجت الفتنة حصل كذا وكذا، قرأ في تاريخ الطبري كلمة الفتنة فحملها على الفتنة الكبرى، فلمّا بحث وجد أنّ الفتنة وقعت سنة (١٣٠هـ)، وابن سيرين قائل هذا الكلام توفي سنة (١١٠هـ)، فكيف يتحدّث عن فتنة وقعت بعده؟! فقال: لا بدّ أنّ هذا الكلام موضوع على ابن سيرين.

انظروا: أهذه عقلية علمية؟ المفهوم حقاً أنّه لما وقعت فتنة عثمان، وأصبح هناك أهواء وشيَع وأحزاب، ودخل الداخلون في الإسلام ممَّن ليسوا بمخلصي النية في الإسلام، أصبحوا يتحرّون. هذا هو المفهوم، وهذا الذي تدلُّ عليه العبارة. رجل يخرج بالعبارة عن أصلها، ثم يجد أنّ هذا ليس صحيحاً، ويرى أنّها ليست الفتنة، فيأتي ويقول: إنّها موضوعة ومكذوبة.

لماذا يفعل ويقول هذا؟ لأنّ هذه الكلمة لو ثبتت لدلّت على أنّ المسلمين بدؤوا يتحرّون عن الأسانيد من عهد مبكّر، منذ عهد عثمان رضي الله عنه. هؤلاء لا يريدون أن يقولوا هذا، هذه كلمة تهدم عليهم كلّ

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٢٧٨).

ما يريدونه، يريدون أن يقولوا: إنَّ البحث عن الإسناد جاء في عصر متأخر، فهل هذا علم؟ هذا علم موظف لخدمة أهداف معيَّنة، وهذا ليس من العلم في شيء، فهناك تحامل منهم على سنة رسول الله ﷺ.

السبب الثالث: التبعية والتقليد:

من الأسباب التي أدَّت أيضًا إلى الطعن في السُّنَّة والتشكيك فيها: التبعية والتقليد لهؤلاء المستشرقين، للأسف هناك كثيرون يقلّدون المستشرقين، حذو النعل بالنعل، ما قاله «شاخ» و«جولد تسهير» أو غيرهما هو العلم الصراح، فهم يأخذون أقوالهم دون مناقشة، ولو كانت تافهة، ولو كان ينقصها الدليل، ولو كانت لا تقوم على رجلين، إنّما تقليد وتبعية مطلقة، كما قال ﷺ: «حتى لو دخلوا جُحر ضبّ لدخلتموه»^(١). وَلَعُ المغلوب بتقليد الغالب.

إعجاب هؤلاء بالمستشرقين جعلهم ينقلون عنهم، وأحياناً لا يصرّحون بأنّهم نقلوا؛ لِيَدَّعُوا لأنفسهم الإبداع والابتكار والأصالة، وكثيراً ما اكتُشف هذا، وعُرف أنّهم ناقلون، وليس لهم من الابتكار شيء، وليس لهم من الأصالة حظّ، فهم مقلّدون، وأحياناً يُراد إرضاء المستشرقين بترديد أباطيلهم؛ ليرضوا عنهم. وليس إرضاءهم بالأمر الهين، كيف وهم في نظرهم يملكون أن يضرّوا وينفعوا، ويخفّضوا ويرفعوا، وهؤلاء لهم تأثيرهم فعلاً على جهات شتّى، يملكون تلميع الأشخاص وترفيعهم، كم من أناس تافهين ضخّموهم وتحدّثوا عنهم، فأصبحوا شيئاً مذكوراً!

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري.

ولا عجب أن عمل هؤلاء على إرضاء المستشرقين؛ لأن من وراء إرضائهم غنائم ومكاسب مادية وأدبية. فهذا أيضًا من أسباب الطعن والتشكيك في السُّنة النبوية.

السبب الرابع: التسرع والادعاء والغرور:

بعض الناس للأسف يسارع إلى الإنكار دون أن يدُرْس، ودون أن يرجع إلى الأصول، ودون أن يرجع إلى الثقات من أهل العلم وأهل الاختصاص، وقد قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَسَّـلَ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. ولكنه لا يرجع إلى أهل الذكر، ولا يردُّ الأمر إلى أولي الأمر، ويبادر ويسارع بالردِّ والإنكار.

كتبت منذ أكثر من عشرين سنة في مجلة «العربي» أردُّ على أحدهم، وقد كتب فيها يهاجم بعض أحاديث في البخاري، وقد ظنَّ أن هذه الأحاديث تنافي القرآن، مثل حديث عائشة رضي الله عنها: كنتُ أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، كلانا جنب، ويخرج رأسه من المسجد وهو معتكف، وأنا حائض فأغسله، ويأمرني فأترز ثم يباشرني وأنا حائض^(١).

يقول: هذا مخالف للقرآن، لقول الله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وردَّ حديث البخاري.

(١) رواه البخاري في الحيض (٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١).

ولو أنَّ هذا المتسرّع المتحامل على سُنَّة النبي ﷺ رجع إلى تفسير الآية في سورة البقرة، أو رجع إلى الحديث في صحيح البخاري، وقرأ بعض الشروح: «إرشاد الساري» للقسطلاني، أو «عمدة القاري» للعيني، أو «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني، أو أي شرح للحديث من كتاب آخر، لعلم أنَّ الإشكال محلول؛ لأنَّ الأمر بالاعتزال الذي جاء في الآية: لا يعني ألا يساكنها ولا يؤاكلها ولا يشاربها، كما كان يفعل اليهود، فقد كان اليهود إذا حاضت عندهم المرأة تُعزل عزلاً تاماً، بخلاف النصارى فهم لا يحرمون شيئاً ولا الجماع.

الإسلام جاء وسطاً بينهما؛ حرَّم الجماع فقط، ولم يحرم المباشرة، كما جاء في الحديث الصحيح: «اصنعوا كلَّ شيء إلاَّ النِّكاح»^(١). فمن الممكن أن يعاشرها في هذه الحالة، يقترب منها ولكن لا يجامعها، يبتعد عن موضع الأذى، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ابتعد عن الأذى وما عدا ذلك مباح.

وبهذا تتفق الآية مع الحديث، ولكن المغرور المتسرّع يردُّ ويكذب سُنَّة ثابتة. وهؤلاء ليس عندهم فضيلة تواضع العلماء، فالعالم من شأنه التواضع، وإذا حدث عنده ريبة أو شكٌّ في شيء لا يسارع بالإنكار، وإنَّما يحاول أن يتثبت، وأن يتعرّف ماذا قال الناس قبله؟ هل معقول أن تصحح الأمة حديثاً منذ أربعة عشر قرناً، ويتلقاه بالقبول محدثوها وفقهاؤها وأصوليؤها وخواصها وعوامها، وهو الوحيد الذي يستدرك على الأمة في أربعة عشر قرناً! ما هذا؟ هذا الرجل يسمّى بأمين وهو

(١) رواه مسلم في الحيض (٣٠٢)، وأحمد (١٢٣٥٤)، عن أنس.

ليس بأمين، يردُّ أحاديث ما ردّها أحد من الأمة، ويقول: المسلمون وجدوا أن أيّ شيء فيه تزكية أخلاقية ينسبونه إلى النبي ﷺ، مثل حديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(١).

سبحان الله، هل مثل هذا الحديث يُردّ؟ لماذا؟ أيستبعد أن يقول النبي ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»؟ حتّى يقول: كلُّ كلمة زكية أو حكمة ينسبونها إلى النبي ﷺ!

حتّى كلمة الجاهليّة: «انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً». والجاهليّة كانت تقول هذه الكلمة على ظاهرها، وتعني بها: أن الإنسان يجب أن يكون مناصراً لأبناء قبيلته في الحقّ وفي الباطل، في العدل وفي الظلم، كما قال الشاعر العربي:

لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا^(٢)
طالما أنّه من قبيلته عليه أن ينتصر لها، ما يسأل عن ظالمٍ أو مظلوم!
حتّى كانوا يقولون: هذا رجلٌ إذا غضب، غضب له عشرة آلاف سيف،
لا يسألونه فيما غضب!

ولكنّ النبي ﷺ عندما قال هذه الكلمة، لم يقلها على ما كانت عليه في الجاهليّة، وإنّما عدّل مفهومها، ولذلك حينما قال: «انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً»^(٣). فزع الصحابة، وقالوا: يا رسول الله، ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ نعم هو كلام الجاهليّة، ولكن الإسلام عدّل مفاهيمهم،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.
(٢) البيت لقريط بن أنيف العنبري، كما في الحماسة لأبي تمام (٥٨/١)، تحقيق عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، ١٤٠١هـ.
(٣) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢)، عن أنس.

غرس في أنفسهم قيمًا جديدة، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨].

فقال ﷺ: «تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ - تمنعه من الظلم - فذلك نصرٌ له»^(١).
انصر أخاك ظالمًا: أي تمنعه من الظلم؛ لأنك نصرته على هواه وعلى شيطانه، وقفت معه بالحق، بدل أن يجرّ نفسه إلى النار، فأنت تحميه من النار، هذا هو النصر. فالنبي ﷺ عدل بهذا الحديث المفاهيم التي كانت سائدة في الجاهلية.

وكثيرًا ما يزعم هؤلاء المغرورون المتطاولون: أن هذا الحديث يعارض العقل، وهذا الحديث يخالف العلم، وهذا الحديث يصطدم بالواقع. كما فعل صاحبنا هذا مع الأحاديث التي ذكرت أمورًا وقعت في الدولة الإسلامية، كأن كل ما تنبأ به النبي ﷺ ووقع، يعتبره مما وضعه الوضّاعون. وهذا جهل بالنبي ﷺ، الذي يُطْلِعُهُ اللهُ على ما يشاء، فينبئ بالغيب بما أنبأه الله ﷻ: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وهناك أمور نبأ بها النبي ﷺ فوق بعضها في حياته، مثل فتح اليمن^(٢).

(١) تنمة الحديث السابق.

(٢) إشارة إلى ما رواه أحمد (١٨٦٩٤)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لضعف ميمون أبي عبد الله - ويقال له: ميمون بن أستاذ - وهو البصري. والنسائي في الكبرى في السير (٨٨٥٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠١٣٨): رواه أحمد، وفيه ميمون أبو عبد الله، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات. وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٣٩٧/٧)، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أمرنا رسول الله ﷺ، بحفر الخندق، قال: وعرض لنا صخرة. فأخذ المعول فقال: «باسم الله». فضرب ضربة، فكسر ثلث الحجر وقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، =

وبعضها وقع بعد وفاته، مثل قوله لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»^(١)، ومثل قوله عن الحسن: «إنَّ ابني هذا يُصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٢)، وفتح ممالك كسرى وقيصر^(٣).

وبعضها أخبر بها النبي ﷺ ووقعت بعد ذلك بكثير، مثل فتح القسطنطينية^(٤).

وأمر أخبر بها ولا زالت تحدث في عصرنا، نراها الآن، مثل قوله ﷺ: «صَنَفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدَ مِنْ مَسِيرَةٍ كَذَا وَكَذَا»^(٥). أمور كثيرة أخبر عنها ﷺ، فسارع هذا وادّعى وتناول عليها بالردِّ والإنكار.

كذلك كَذَّبَ حديث قتال اليهود، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ، حَتَّى يَقَاتَلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ

= والله إنِّي لأبصر قصورها الحُمْر من مكاني هذا». ثم قال: «باسم الله». وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إنِّي لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا». ثم قال: «باسم الله». وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن».

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩١٦)، وأحمد (٢٦٥٦٣)، عن أم سلمة.

(٢) رواه البخاري في المناقب (٢٧٠٤)، عن أبي بكر.

(٣) سبق تخريجه ص ٥٧٨.

(٤) إشارة إلى حديث عبد الله بن عمرو: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً: قسطنطينية أو رومية؟ وقد سبق تخريجه ص ٥٠٢.

(٥) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١٢٨)، وأحمد (٨٦٦٥)، عن أبي هريرة.

أو الشجر: يا عبد الله - وفي رواية: يا مسلم - هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله. إِلَّا الغَرْقَدُ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»^(١).

شكَّ الراوي، الراوي حينما يتشكك في الكلمة ويقول: هل قال: «يا عبد الله». أم قال: «يا مسلم». فيذكر الروایتين بالشك، «يا عبد الله» أو «يا مسلم». فهي الدقة والأمانة والتحرّي.

بعض الناس الذين كتبوا يطعنون على أصحّ كتاب بعد كتاب الله تعالى - وهو البخاري - يرفضون هذا الحديث ويقولون: ليس معقولاً أن نقبل هذا الحديث؛ لأننا بذلك ننتظر ونترك اليهود حتّى تقوم الساعة لنقاتلهم، وننتظر حتّى تحدث معجزة ينطق معها الحجر والشجر ويقول: «يا عبد الله - أو يا مسلم - هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله».

والواقع أنّ الحديث لا يدلُّ على هذا، الحديث يقول: «لا تقوم الساعة حتّى تقاتلوا...». ومعناه: إنّ هذا الأمر لا بدّ أن يحدث، وليس معناه أنّه سوف يكون عند قيام الساعة، ما قال الحديث هذا. وإنّما يقول: إنّ المعركة بيننا وبين اليهود معركة حتمية وواقعة. هذا يدلُّنا على أن معركة لا بدّ أن تدور بيننا وبين هؤلاء القوم، يكون النصر فيها حليفاً للمسلمين، وفي بعض الروايات: ليس فيها «لا تقوم الساعة».

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تقاتلكم اليهود، فتُسَلِّطون عليهم، ثمّ يقول الحجر: يا مسلم، هذا يهودي ورائي، فاقتله»^(٢). يعني تكون المعركة سجال بيننا وبينهم، حتّى تأتي المعركة

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٢٦) مختصراً، ومسلم في الفتن (٢٩٢٢)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٢٩٢٥)، ومسلم في الفتن (٢٩٢١).

الحاسمة، التي ينتصر فيها الإسلام، وهذه هي المعركة التي يدخل فيه المسلمون المعركة تحت لواء الإسلام، وتحت راية القرآن، وتحت شعار العبودية لله تعالى، ولذلك يقول الحجر والشجر: يا عبد الله أو يا مسلم. لا يقول: يا عربي ولا يا قومي، ولكن يقول: «يا عبد الله، يا مسلم»، يا مَنْ دخلت تحت راية الإسلام أو تحت شعار العبودية لله، «يا عبد الله، يا مسلم، هذا يهوديٌّ ورائي تعال فاقتله».

أيقول الحجر ذلك بلسان الحال أم بلسان المقال؟ الله أعلم، إنما المعنى الذي يفهمه كلُّ ذي حِسٍّ بصير باللغة العربية ودلالاتها، أن كلَّ شيء في هذه المعركة يكون مع المسلمين. حينما تنتصر يكون كلُّ شيء معك، وتكون الريح في اتجاهك. وحينما تكون الدولة عليك، ويكون النصر لعدوك، يكون كلُّ شيء ضدَّك، حتَّى السلاح الذي في يديك ينقلب عليك. وهذا رأينا، رأينا عام سبعة وستين، كان الناس معهم أسلحة تسدُّ عين الشمس، ولكن ما أغت عنهم شيئاً، كما قال المتنبي:

وَلَا تَنْفَعُ الْخَيْلُ الْكِرَامُ وَلَا الْقَنَا إِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَ الْكِرَامِ كِرَامٌ^(١)

وقال الطغرائي:

وَقِيَمَةُ السَّيْفِ أَنْ يُزْهَى بِجَوْهَرِهِ وَلَيْسَ يَعْمَلُ إِلَّا فِي يَدَيْ بَطْلٍ^(٢)

كانت هناك دبابات تركوها لقمة سائغة، لم يُكَلِّفُوا أنفسهم أن يُشعلوا فيها عوداً من الكبريت، تركوها ليأخذها اليهود غنيمة باردة.

(١) ديوان المتنبي ص ٣٩٠.

(٢) ديوان الطغرائي ص ٣٠٧، لامية العجم، انظر: تحقيق د. علي جواد طاهر، ود. يحيى الجبوري، نشر مطابع الدوحة الحديثة، ط ٢، ١٩٨٦ م.

حينما يكون النصر لك، حينما تكون المعركة لك، كلُّ شيء يكون في صفِّك، يكون على عدوك، الحجر والشجر، يتكلَّم الشجر، يتكلَّم الحجر. يتكلَّم بالفعل؟ الله أعلم. نحن أصبحنا في عصر ينطق فيه كلُّ شيء. أو يتكلَّم بلسان الحال، العرب قالوا: لسان الحال أفصح من لسان المقال. كلُّ هذا جائز، ولا شيء بعيد على قدرة الله، فلماذا يردون حديثاً مثل هذا؟ لأنَّهم مغرورون متطاولون.

بعضهم ردَّ حديث: «بُني الإسلام على خمس»^(١)، رجل كان مسؤولاً كبيراً في مصر قال عن هذا الحديث: حديثٌ وضعه المستعمرون. لماذا؟ قال: لأنَّه لم يذكر فيه الجهاد، كيف؟ وكتب السُّنة لا تزال تذكره قرابة ثلاثة عشر قرن ونصف، لأنَّه لم يذكر فيه الجهاد؟!

فما رأيك في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١]. كل هذه الآيات ليس فيها ذكر الجهاد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]. وليس فيها ذكر الجهاد.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦)، كلاهما في الإيمان، عن ابن عمر.

وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدْ فِيهِ مُهَنَّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَنْبُؤُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿ [الفرقان: ٦٣ - ٧٦]. ليس فيها ذكر الصلاة، فهل نرد القرآن نفسه؟

لكلِّ مقامٍ مقال، فالنبي ﷺ يذكر الأشياء التي هي المباني الأساسية والثابتة، الجهاد يجب بأسبابه وبموجباته، إنَّما الصلاة والصيام والزكاة والحج، أركان ثابتة تُطلب من كلِّ إنسان، في كلِّ وقت. للأسف أصبحنا مبتلين بكلِّ مَنْ هَبَّ ودبَّ يضرب عن يمين وشمال، أصبحت السُّنة غرضًا لكلِّ مَنْ معه سهم، ومَنْ ليس معه سهم يشتري له سهمًا من المستشرقين والمستعمرين، ويرمي به أمتنا وتراثها، فهذا التسرع والغرور من الأسباب التي تحمل هؤلاء على الطعن والتشكيك في السُّنة النبوية المطهرة.

السبب الخامس: إعطاء العقل أكثر من حقه:

بعض الناس يعطون العقل أكثر من حقه، فيردُّون كلَّ ما تستبعده عقولهم، وما هو عقلك أيها الإنسان؟ عقل الإنسان محدود بحدود ثقافته، محدود بحدود بيئته، محدود زمانه ومكانه، الإنسان إذا وقف أمام الحقائق الكبرى، الحقائق الغيبية، لا يدركها؛ فهي تؤخذ من الوحي ويُسلَّم بها، ما دام ثبت النبوة، وصحَّت الرسالة، وثبت أنَّ محمدًا ﷺ رسول من الله يوحى إليه فليس لنا إلا التصديق والسمع والطاعة.

من حقِّنا أن نبحث: هل محمد نبي أم ليس نبي؟ لا بدَّ أن نبحث حتَّى نطمئن هل هو رسول الله أم لا؟ هل يتكلَّم من عند نفسه أم يتكلَّم من عند الله ﷻ؟ هل ينطق عن هواه أم ينطق عن الوحي؟ لا بدَّ أن تقوم لنا الأدلَّة العقلية على صحَّة نبوِّته، هذا أمر يثبت بالعقل، ولذلك قال علماؤنا: العقل أساس النقل.

الإسلام ليس فيه: اعتقد وأنت أعمى. وليس فيه: أغمض عينك ثم اتبعني. وإنَّما الإسلام فيه أثبت النبوة بالعقل، بالمعجزة، بالبينات، فإذا ثبت أنَّ هذا رسول من الله، فما عليك بعد ذلك إلا أن تسمع وتطيع، لم يعد لك بعد ذلك خيار، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فإذا تحدَّث عن أمور البرزخ، عن نعيم القبر وعذابه، عن أمور القيامة، عن الموقف والحساب، والصراط والميزان، والجنة والنار، وهذه الأمور، فما عليك إلا أن تُسلِّم.

إذا تحدَّث عن الله ﷻ، عن أسمائه وصفاته وأفعاله، فما عليك إلا أن تُسلِّم؛ فعقلك عقل محدود، ماذا تعرف عن نفسك أنت؟ إذا كنا



لا تعرف عن نفسك إلا القليل، هل تعرف كيف تفكر، وكيف تتذكر، وكيف تتخيل؟ لا تعرف.

ألف العالم الكبير «الكسيس كاريل» وهو أحد أقطاب العلم، والحائز على جائزة نوبل في العلوم، ألف كتاباً سمّاه «الإنسان ذلك المجهول»، يقول فيه: هذا العصر وإن وصل الإنسان فيه إلى العلم، ولكنّ الناس عرفوا الجمادات، ولكنّهم لم يعرفوا أنفسهم، ما زال الإنسان مجهولاً، ونتيجة هذا الجهل يقعون في أخطاء كثيرة، في تعليم الإنسان، وفي التشريع للإنسان، وفي توجيه الإنسان، نحن نجهل أنفسنا، وهذا الكون الفسيح نعيش فيه نجهل من أسرارهِ الكثير، العلم الآن. يقول نحن لا نعرف من الكون إلا ثلاثة في المائة (٣٪)، أمّا سبعة وتسعون في المائة (٩٧٪) فتعتبر أعماق سوداء في هذا الكون.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا بُصِّرُونَ ﴿ وَمَا لَا بُصْرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وما لا نبصره في هذا الكون أكثر مما نبصره، ومع هذا يأتي بعض الناس ويردّ كلّ ما لا يروق له من عوالم الغيب، لماذا؟ لأن - حضرته - عقليته علميّة، والعقلية العلميّة لا تقبل مثل هذا، وتتهمّ العقلية الدينيّة بأنها عقلية غيبية، تصدّق كلّ شيء. لا؛ العقلية الدينية عقلية علميّة، الإسلام ذاته هو أعظم من يكون العقلية العلميّة، ويبدع أعظم فلسفة، وأعظم منهج لتكوين العقلية العلميّة، تلك التي تدعو إلى النظر والتفكير، وتعتبر التفكير عبادة وفريضة، وترفض التقليد، تقليد الآباء، أو تقليد السادة والكبراء، أو تقليد العوام من الناس، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي، عن حذيفة رضي عنه:

«لا يكن أحدكم إمعة، يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أسأؤوا أسأت. ولكن وُطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَنْ تَحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا أَلَّا تَظْلَمُوا»^(١).

العقلية التي ترفض اتباع الظن في موضع اليقين؛ لأنَّ الظنَّ كما قال الله تعالى: ﴿لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

وترفض اتباع الهوى والعواطف: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وتدعو إلى الموضوعية والحيادية والنظر إلى البرهان في العقلية، وإلى التجربة في الحسيات: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

هذا هو الإسلام الذي ينشئ العقلية العلمية، ولكن لا بدَّ من التسليم في أمور معينة جاء الوحي بها.

هؤلاء أناس يدَّعون أنَّهم علميون، وما هم من العلمية في شيء، ولو جاء شيء عن طريق الغرب لقبوله، وكثيراً ما يقبلوا خرافات غريبة، مثل: تحضير الأرواح وغيرها، إذا جاءت من الغرب قبلوها للأسف!

السبب السادس: هزيمة المتغربين أمام الحضارة الغربية:

من الأسباب التي حملت هؤلاء أيضاً على الطعن والتشكيك في السُّنة النبوية الشريفة: هزيمتهم أمام الحضارة الغربية، الهزيمة الروحية، والهزيمة النفسية.

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٧)، وقال: حسن غريب. والبخاري (٢٨٠٢)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٧١)، عن حذيفة بن اليمان. ولكنه يتماشى مع القواعد العامة والمبادئ الكلية في الإسلام.

إنَّهم ينظرون إلى هذه الحضارة، أنَّها القمة والأوج، وأنَّ علينا أن نتلمذ عليها، فكلُّ ما يأتي من هذه الحضارة يجب أن يُقبل، كلُّ ما تقوله فهو حقٌّ، وكلُّ ما تفعله فهو جميل، وكل ما تدعو إليه فهو صحيح! لا، نحن نرفض هذه العبودية للحضارة الغربية، نحن نرفض أن نأخذ هذه الحضارة الغربية كما نادى بعض الناس: «بخيرها وشرّها، وحلوها ومرّها، وما يُحبُّ منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب»^(١). بل ننتقي منها، فنأخذ ما يوافقنا، ونردُّ ما لا يوافقنا، وأكثر ما يوافقنا في الحقيقة هي الناحية العلميّة والتكنولوجية، وهي بضاعتنا تردُّ إلينا.

الأصل أنَّ المنهج الاستقرائي منهج إسلامي، أخذه منا «روجر بيكون» و«فرنسيس بيكون» أخذوه عن الحضارة الإسلامية، فنحن عندما نسترد المنهج العلمي والتكنولوجي إنَّما نسترد بضاعتنا.

إنَّما الذين يريدون أن يجعلونا عبيداً للحضارة الغربية، نقبل ما تقبل، ونرد ما ترد، فهو أمر غير مقبول ولا نرضى به، هم ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا عبيداً، وأنا أسميهم عبيداً للحضارة الغربية، وعبيد الفكر الغربي، لا أسميهم تلاميذ الفكر الغربي؛ لأنَّ التلميذ قد يناقش أستاذه، وقد يردُّ عليه، ولكن هؤلاء موقفهم من الحضارة الغربية أكثر من التلميذ، موقفهم موقف العبودية التي تقبل كلَّ شيء، ولا تردُّ أيَّ شيء، ولا تناقش أيَّ شيء، هكذا رأينا هؤلاء، ارتضوا لأنفسهم العبودية، ونحن لا نرضاها لأنفسنا، لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حرّاً. كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٢).

(١) انظر: مستقبل الثقافة صـ ٣٩، نشر دار المعرفة، ط ٢، ١٩٩٦م.

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي صـ ٣٣٠.

لقد خلقنا الله أحرارًا، وكرّمنا بالإسلام، فكيف نرضى أن نكون في موقف التابع الذليل، وأن نمشي وراء القوم، ونتبع سننهم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ، قال: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شَبْرًا بِشَبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبَعْتُمُوهُمْ». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»^(١).

نحن الأمة القائدة، مكاننا مكان الأستاذية في العالم، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، هؤلاء الذين يطعنون في السنة ليس عندهم هدى ولا بصيرة ولا كتاب منير، وإنما هم أذئاب وأتباع مغرورون، عندهم قشور من العلم، لو أنصفوا لرجعوا إلى التلمذة؛ ليتعلموا ويعرفوا قدر هذه السنة في دين الله، وقدر علمائها، علماء السنة، وما بذلوا في خدمة هذه السنة، وماذا قعدوا من قواعد، وماذا أصّلوا من أصول، وما تركوا من تراث، تراث ضخم تفخر به الإنسانية، تراث السنة النبوية.

لقد أثر في كتب التاريخ والأدب منهج المحدثين، ولذلك وجدنا الطبري وغيره يروي بالأسانيد، ونجد في كتب الأدب، رجلا مثل الأصفهاني في كتاب «الأغاني» يروي أيضًا بالأسانيد، ولكنهم في أسانيدهم لا يدققون كما يدقق علماء الحديث، يروون عن المجروحين وعن المجهولين، وعن الهالكين. أمّا علماء الحديث فدققوا ومحصوا وميزوا، ولذلك إذا أردنا أن نعرف السنة، فلنعرفها من أهلها ومن رجالها.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩).

أَمَّا هَؤُلَاءِ الْمَشْكُوكُونَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا أَجَدَ عِنْدَهُمْ إِلَّا الْجَهْلَ، أَرَدْتُ أَنْ أَقْرَأَ لَكُمْ بَعْضًا مِمَّا كَتَبُوهُ، وَهِيَ كِتَابَاتٌ مَمْلُوءَةٌ بِالْأَخْطَاءِ وَالْمِغَالَطَاتِ وَالتَّحَامِلَاتِ، وَيَنْقَلُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، قَضَايَا فُرْغَ مِنْهَا فَيَعِيدُونَهَا جَذْعَةً، حَدِيثٌ: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ»^(١). يَكْتُبُ بَعْضُهُمْ وَيُرَدِّدُ أَنَّ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بَنَى قَبَّةَ الصَّخْرَةِ، لِيَحُولَ بَيْنَ أَهْلِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَبَيْنَ الْحَجِّ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُلْبَسَ عَمَلُهُ هَذَا ثَوْبًا دِينِيًّا، فَوَضَعَ لَهُ صَدِيقُهُ الزَّهْرِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ.

وَهَذِهِ قِصَّةٌ وَاهِيَةٌ ذَكَرَهَا فِي الْأَصْلِ الْمُسْتَشْرِقُونَ مِثْلَ «جَوْلِدْ تَسْهِيرٍ» وَغَيْرِهِ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهَا أَسَاتِذُنَا الْكَبِيرُ وَالِدَاعِيَّةُ الْعَلَّامَةُ الدُّكْتُورُ مُصْطَفَى السَّبَاعِي فِي كِتَابِهِ «السُّنَّةُ وَمَكَانَتُهَا فِي التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ»، رَدَّ عَلَيْهَا وَفَنَّدَهَا، وَذَكَرَ الزَّهْرِيُّ وَمَكَانَتَهُ الْعِلْمِيَّةَ^(٢). ثُمَّ يَأْتِي هَؤُلَاءِ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْسَوْنَ هَذَا كُلَّهُ، وَيَخْطِفُونَ الْأَمْرَ خَطْفًا، وَيُرَدِّدُونَهُ مِنْ جَدِيدٍ، وَيُرَوِّجُونَهُ؛ إِذْ لَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنَّهُ لَمْ يَقْرَأْ هَذَا الْكَلَامَ، لَا بَدَّ أَنَّهُ قَرَأَهُ وَعَرَفَهُ.

السبب السابع: الرغبة في الظهور بمخالفة الإجماع:

كَذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَحْمِلُ هَؤُلَاءِ عَلَى الطَّعْنِ فِي السُّنَّةِ وَالتَّشْكِيكِ فِيهَا: حُبُّ الظُّهُورِ بِمُخَالَفَةِ الْإِجْمَاعِ. وَفَقَ مَا يَقُولُ الْمَثَلُ الْمَعْرُوفُ: «خَالَفَ تُعْرِفَ». وَفِي عَصْرِنَا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَظْهَرَ وَيُعْرِفَ بَيْنَ النَّاسِ، وَيُشَارَ لَهُ بِالْبَنَانِ عِنْدَ أَهْلِ الصَّحْفِ وَالْإِعْلَامِ وَغَيْرِهِمْ: عَلَيْهِ أَنْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (١١٨٩)، ومسلم في الحج (١٣٩٧)، عن أبي هريرة.

(٢) انظر: السنة ومكانتها في التشريع ص ٢٣٢ - ٢٥٣، نشر دار الوراق، الرياض، ط ٤،

يخالف، خاصة في الأمور الإسلامية بالذات، يخالف ما أجمع عليه المسلمون، يخالف المعلوم من الدين بالضرورة، فهذه أصبحت وسيلة من وسائل الشهرة، وسُلماً يرتقي عليه الراغبون في الظهور، والآخذون بمكان الصدارة بين الناس.

التشكيك في مضمون السنة:

ومن الأمور التي أحبُّ أن أذكر شيئاً عنها، ما قاله هذا الرجل صاحب كتاب «دليل المسلم الحزين»، والذي ظلَّ يكتب في جريدة المصور المصرية مدة طويلة من الزمن: مُشكِّكاً في مضمون السنة، بالتشكيك فيما تهدي إليه السنة، التشكيك في آداب السنة، يقول: هؤلاء الناس يحرمون الأكل (بالملاعق والسكاكين والشوك)، وعلى (المنضدة). وهذا افتراء!

مَنْ مِنَ المسلمين يحرم الأكل بالملعقة، أو السكين، أو الشوكة أو الأكل على المنضدة؟ ما حرم أحد هذا. هناك بعض الناس يحبُّ أن يفعل كما كان يفعل ابن عمر، كان النبي ﷺ يأكل بيده فهو يأكل بيده^(١). إنَّما ما قال: إن هذا واجب. أو قال: إنَّ من فعل غير هذا فقد ارتكب حراماً. ما رأيتُ أحداً يقول هذا، فهؤلاء أناس كذابون، هم يتحدثون عن الوضّاعين، وهم أكثر الناس دجلاً، يكذبون على الخلق، على الأحياء، فكيف لا يكذبون على الأموات؟!

كذلك ذكر أن أحاديث الأكل باليمين وعدم الأكل بالشمال، مثل الحديث الصحيح الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ:

(١) إشارة إلى ما رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٤٢٩٦)، عن نافع قال: لو نظرت إلى ابن عمر إذا تبع أثر النبي ﷺ لقلت: هذا مجنون.

«لا يأكلنَّ أحدكم بشماله، ولا يشربنَّ بشماله؛ فإنَّ الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله»^(١). إنها أحاديث يمجُّها المنطق والعقل السليم، لماذا؟ في الحقيقة كنتُ أودُّ أن أقرأ لكم مما كتبه رجل اهتدى إلى الإسلام من عشرات السنين، وسَمَّى نفسه «محمد أسد»، وله عدَّة كتب منها: «الإسلام على مفترق الطرق»، و«منهاج الإسلام في الحكم»، و«الطريق إلى مكة»، ومجموعة كتب أخرى. في الحقيقة الرجل كتب في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» كتب فصلين عن السُّنَّة^(٢)، وبَيَّن: أن هؤلاء الذين يقولون نكتفي بالقرآن عن السُّنَّة مخطئون.

وقال: مَنْ يقول هذا كمن يقول: أريد أن أدخل هذا القصر، ولكنه يرفض المفتاح الوحيد الذي يمكن به الدخول إلى هذا القصر، والمفتاح الوحيد لباب القصر، الإسلام والقرآن هو السُّنَّة، لا يمكن أن يكون قرآن من غير سنة^(٣). ونقل عن الآداب الإسلامية التي جاءت عن النبي ﷺ، وذكر فيها أمورًا. أنا أنصح كل مسلم أن يقرأ هذا فيما كتبه محمد أسد، لأنَّه كلام طويل، ومن ضمن ما قال فيه:

هناك - على ما أعلم - ثلاثة أسباب بينة - على الأقل - لإقامة السُّنَّة:

السبب الأول: الناحية الفردية:

«السُّنَّة تُمرِّن الإنسان بطريقة منظَّمة على أن يحيا دائماً في حال من الوعي الداخلي واليقظة الشديدة وضبط النفس، فإنَّ الأعمال والعادات

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢٠)، وأحمد (٤٨٨٦).

(٢) انظر: الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد ص ٨٧ - ١١٠، ترجمة عمر فروخ، نشر دار العلم للملايين، ط ٦.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ٩١.

التي تقع عفو الساعة تقوم في طريق التقدم الروحي للإنسان، كأنها حجارة عثرة في طريق الجياد المتسابقة، إنَّ هذه الأعمال والعادات يجب أن تقلَّ إلى أقصى حدودها، لأنَّها تُتلف التوجيه الروحي للفكر، فكلُّ شيء نفعه يجب أن يكون مقدورًا بإرادتنا وخاضعًا لمراقبتنا الروحية»^(١).

يريد أن يقول: يجب عليك أن تعمل العمل وأنت قاصد.

القرآن الكريم يقول: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، وبعض الناس يمشي، ولا يدري لِمَ يمشي، ولا إلى أين يمشي؟ لا، يجب أن تدري ماذا تفعل، ولماذا تفعل؟

بعض الناس يأكل باليمين وكذلك بالشمال، ولكن المسلم يأكل باليد اليمنى، وهو يعرف لماذا يأكل بها. لأنَّ فيها تفاؤل، والنبى ﷺ كان يحبُّ التفاؤل في كلِّ شيء^(٢). يريد أن نكون من أهل اليمين، الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم يوم العرض على الله في الآخرة، المسلم يأكل باليمين بقصد؛ لأنَّ النبى ﷺ كان يأكل باليمين، فقد قال ﷺ لعمر بن أبي سلمة، وكانت يده تطيش في الصَّحفة: «يا غلام، سَمَّ الله، وكُلَّ بيمينك، وكُلَّ ممَّا يَلِيكَ»^(٣).

وعن إياس بن سلمة، عن أبيه، أنَّ رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: «كُلْ بيمينك». قال: لا أستطيع. فقال: «لا استطعت»، ما منعه إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه^(٤). دعا عليه ﷺ فقد كان كذاباً متكبراً.

(١) انظر: الإسلام على مفترق الطرق ص ١٠٤.

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «لا عدوى، ولا طيرة، وأحب الفأل الصالح». رواه البخاري

في الطب (٥٧٥٥)، ومسلم في السلام (٢٢٢٣)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأُطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢)، عن عمر بن أبي سلمة.

(٤) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢١)، وأحمد (١٦٤٩٣).

المسلم يقوم بهذه الأعمال وهو في حالة وعي، يعرف لماذا يفعلها، لماذا يأكل باليمين؟ وفي النعل، لماذا يقدّم الرجل اليمنى؟ ولماذا يدخل الخلاء برجله اليسرى؟ وهكذا. لا بد أن يكون في حالة وعي لما يفعل، عنده يقظة داخلية، وهذا فعل الإنسان الراقى، الذي يتميز به عن غيره من الناس.

ثم يقول «محمد أسد»: «لقد أشرنا من قبل إلى أنّ الفكرة الإسلامية في العبادة لا تشمل الصلوات فحسب، ولكنها تشمل فعل حياتنا كلّها، أمّا أهدافنا فهو جمع ذاتيتنا الرُّوحِيَّة وذاتنا المادِّيَّة في (كلّ) واحد.

من أجل ذلك وجب أن تكون جهودنا موجّهة بوضوح نحو إزالة العوامل التي تنشط في حياتنا على غير وعي منا، وغير خضوع لسيطرتنا، فنزِيلها بالقدر الذي تتحمّله طاقة البشر.

إنّ محاسبة النفس هي أولى الخطوات في هذا السبيل، وإن أوثق الوسائل للتمرين على محاسبة النفس: أن تخضع أعمالنا التي تجري في حياتنا اليومية بحكم العادة، وبغير مبالاة ظاهرة، للمراقبة. إن هذه (الصغائر) وتلك التقاليد والعادات (قليلة الأهميّة) هي في الحقيقة - فيما يتعلّق بالمران العقلي الذي نتكلّم عنه - أكثر أهمية من أوجه النشاط (العظمى) في حياتنا؛ إذ إنّ الأمور العظمى بالإضافة إلى عظمها، تبقى دائماً بادية بوضوح، وتظلّ غالباً في نطاق وعينا. ولكن تلك الأمور الصغيرة تغرب بسهولة عن بالنا، وتخدعنا عن مراقبتنا لها. من أجل ذلك كانت تلك الصغائر أشياء أكثر نفعا لنا في شحذ قوة ضبط النفس فينا»^(١).

(١) انظر: الإسلام على مفترق الطرق ص ١٠٤، ١٠٥.

السبب الثاني: الناحية الاجتماعية:

من ناحية أخرى بين أهمية العمل بالسُّنة من الناحية الاجتماعية والنفع الاجتماعي؛ إذ هي تكوّن الذوق المشترك للأمة، الأدب المشترك للأمة؛ الأمم الحريصة على شخصيّتها، على استقلالها، على ذاتيّتها، دائماً تحبُّ أن تكون متميّزة. انظروا إلى الإنجليز: الإنجليز الآن مخالفون العالم كله، الناس الآن يمشون باليمين، وهم يمشون بالشمال، السيارات في العالم عجلة القيادة (الدركسيون) في ناحية اليمن، ولكن الإنجليز خالفوا العالم في ذلك ومقود سيارتهم ناحية الشمال، تقاليد تميزوا بها. المسلمون فقط هم الذين يُراد لهم ألا تكون لهم تقاليد وعادات تميّز بها شخصيّتهم عن غيرهم من الأمم، لا يُراد لهم أن تكون لهم آداب مشتركة، يريدون أن نكون أذنباً لغيرنا، نتبع منهم كلّ ناعق هنا وهناك. هذه الآداب هي التي تكوّن وتميّز الشخصية الإسلامية، تميّز شخصية الفرد المسلم، وشخصية الجماعة المسلمة، هذا هو شأن الإنسان المسلم: أنّه إنسان متميّز، وهذا ما جاءت به السُّنة.

عن عليّ بن شدّاد بن أوس، عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خالفوا اليهود، وصلُّوا في نعالكم؛ فإنَّهم لا يصلُّون في نعالهم ولا في خفافهم»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم»^(٢).

(١) رواه أبو داود في الصلاة (٦٥٢)، والبزار (٣٤٨٠)، وابن حبان في الصلاة (٢١٨٦)، وقال الأرناؤوط: صحيح. والحاكم في الصلاة (٢٦٠/١)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.
(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في حديث الأنبياء (٣٤٦٢)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٣).

وعن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «خالفوا المشركين، وفروا اللحى، وأحفوا الشوارب»^(١). وكان ابن عمر إذا حجَّ أو اعتمر قبض على لحيته، فما فضل أخذه.

كل هذا المقصود به التَّميُّز لشخصية الفرد، وشخصية الأمة بحيث تستطيع أن تعرف المسلم من غير المسلم لأول وهلة.

ومن ذلك إلقاء السلام، بمجرد أن ترى اثنين تقابلا، فقال أحدها للآخر: السلام عليكم. فيرد عليه: وعليكم السلام ورحمة الله. تعلم أنهما مسلمين.

حتَّى في البلاد الأعجمية التي لا تعرف العربية، تستطيع أن تتعرَّف على المسلم فيها من خلال هذه الآداب التي جاءت بها السُّنَّة النبويَّة: إلقاء السلام ورده، البدء بالتسمية عند الطعام، حمد الله بعد الفراغ منه، والأكل باليمين، تشميت العاطس. كلُّ هذه آداب يتميَّز ويعرف بها المسلم في كلِّ مكان وزمان، ولكن الذين يطعنون في السُّنَّة يريدون لنا أن نتنازل عن شخصيتنا، وأن نذوب في غيرنا، ولا يبقى لنا شيء نتميَّز به.

يقولون لك: وما فائدة الأكل باليمين، طالما أنَّ اليسرى نظيفة؟

ويقولون: ما فائدة تشميت العاطس؟ ما فائدة أن يقول العاطس: الحمد لله. ويرد عليه مَنْ سمعه: يرحمك الله؟ سبحان الله! الإسلام يريد أن يربط بين الإنسان وربِّه، وكذلك بين الإنسان والإنسان بأدنى رباط، ينشئ تجاوبًا بين الناس بأقلِّ الألفاظ والكلمات، يعمل على تبادل المشاعر والعواطف، حتَّى يظلَّ المجتمع متماسكًا، بعيدًا عن النزاع والعداء^(٢).

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في اللباس (٥٨٩٢)، ومسلم في الطهارة (٢٥٩).

(٢) راجع: الإسلام على مفترق الطرق ص ١٠٧ - ١٠٩.

السبب الثالث: الناحية العملية التطبيقية:

«ثم نأتي إلى الناحية الثالثة من السُّنة، وإلى التَّشَدُّد بالعمل بها. في هذا النظام من العمل بالسُّنة يكون كلُّ شيء في حياتنا اليومية مبنياً على الاقتداء بما فعله الرسول ﷺ، وهكذا نكون دائماً إذا فعلنا أو تركنا ذلك، مجبرين على أن نفكر بأعمال الرسول وأقواله المماثلة لأعمالنا هذه.

وعلى هذا تصبح شخصية أعظم رجل متغلغلة إلى حدٍّ بعيد في منهاج حياتنا اليومية نفسه، ويكون نفوذه الروحي قد أصبح العامل الحقيقي الذي يعتادنا طوال الحياة. ذلك يقودنا عن وعي متّا أو عن غير وعي إلى أن ندرس موقف النبي ﷺ في كلِّ أمر، فحينئذ نتعلّم أن ننظر إليه، لا على أنّه صاحب وحي أدبي فقط، بل على أنّه الهادي إلى الحياة الكاملة أيضاً.

وقبل أن نتزحزح عن هذه النقطة، يجب أن نجزم فيما إذا كنا نعدُّ النبي ﷺ رجلاً حكيماً كغيره من الحكماء، أو أنّه رسول الله الأسمى، الذي يعمل دائماً بوحي إلهي. إن نظرة القرآن الكريم إلى هذا الأمر واضحة إلى حدٍّ أنّها تجعل كلَّ سوء فهم لها غير ممكن.

إنَّ الرجل الذي أرسل (رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) لا يمكن إلا أن يكون موحّى إليه على الدوام، فإذا أبينا عليه هُداة، أو أبينا بعض عناصر هذا الهدى، فإن هذا لا يعني شيئاً أقل من أنّنا نأبى رحمة الله أو نبخسها حقّها، ويعني فوق ذلك - إذا تابعنا هذه الفكرة منطقياً - أنّ الرسالة التي جاء بها الإسلام لم تكن حتّى بمجموعها الحل النهائي لقضايا البشر، بل كانت حلاً آخر قد يكون مساوياً له في الصحّة والفائدة، وإن المفاضلة بين هذين الحلّين قد تركت لفطنتنا نحن، هذا المبدأ الهين

- لأنّه لا يجبرنا أدبيًّا ولا عمليًّا على أن نجزم بشيء مطلقًا - قد يقودنا إلى مكان، ولكنّه بكلّ تأكيد لا يقودنا إلى رُوح الإسلام، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

نحن نعدّ الإسلام أسمى من سائر النظم المدنية؛ لأنّه يشمل الحياة بأسرها: إنّهُ يهتمُّ اهتمامًا واحدًا بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد وبالمجتمع، إنّهُ لا يهتمُّ فقط لما في الطبيعة الإنسانية من وجود الإمكان إلى السمو، بل يهتمُّ أيضًا لما فيها من قيود طبيعية.

إنّهُ لا يحملنا على طلب المحال، ولكنّه يهدينا إلى أن نستفيد أحسن الاستفادة ممّا فينا من استعداد، وإلى أن نصل إلى مستوى أسمى من الحقيقة، حيث لا شقاق ولا عدا بين الرأي والعمل.

إنّهُ ليس سبيلًا بين السبل، ولكنّه السبيل، وإن الرجل الذي جاء بهذه التعاليم ليس هاديًا من الهداة، ولكنّه الهادي، فاتّباعه في كلّ فعل وأمر اتّباع للإسلام بعينه، وأمّا أطراح سنّته فهو أطراح لحقيقة الإسلام^(١).

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



(١) انظر: الإسلام على مفترق الطرق ص ١٠٩، ١١٠.



السُّنَّةُ وَالْبِدْعَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُ بِهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَتِهِ، وَاسْتَمْسَكَ بِسُنَّتِهِ، وَجَاهَدَ جِهَادَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

خَيْرَ مَا أَحْيَيْكُمْ بِهِ - أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْأَحْبَابُ - تَحِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَتَحِيَّةُ الْإِسْلَامِ: السَّلَامُ، فَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

حديثنا في هذه الليلة المباركة - التي نسأل الله تبارك وتعالى أَنْ يُظَلِّلَنَا فِيهَا بِرَحْمَتِهِ، وَيُخَفِّنَا فِيهَا بِمَلَائِكَتِهِ، وَيُنْزِلَ عَلَيْنَا سَكِينَتَهُ، وَيَذْكُرَنَا فِي مَلَأَ عِنْدَهُ - هُوَ حَدِيثٌ حَوْلَ: «السُّنَّةُ وَالْبِدْعَةُ».

ولهذا الحديث مناسبة، أشار إليها الأخ الشيخ معجب حفظه الله ونفع به^(١)، هي أَنَّ مقالة نشرت في مَجَلَّةٍ تصدر في بلادنا تحمل عنواناً بهذا السخف، أقرؤه لكم: «استنكار البدعة وكراهة الجديد؛ موقف إسلامي أم

(١) هو الشيخ معجب الدوسري، مدير المركز الإسلامي للدعوة والإرشاد بدولة قطر، وقد تفضل بتقديم هذه المحاضرة.

جاهلي؟!»^(١). يريد الكاتب أن يقول: إنَّ استنكار البدعة موقفٌ جاهلي! ينبغي ألا تُستنكر، وأن ندع الناس يبتدعون ممَّا شاءت لهم أهواؤهم، أو ما شاءت لهم شياطينهم؛ من الإنس أو من الجن.

لهذا أحببنا أن نردَّ الأمور إلى أصولها، وأن نأتي البيوت من أبوابها، وأن نُحدِّد المفاهيم؛ فإنَّ تحديد المفاهيم في هذه القضايا أمرٌ بالغ الخطورة، وتركها دون تحديد وتوضيح، مادَّة هلامية رجراجة، يجعل لمن شاء أن يُفسِّرها بما شاء، وهذا هو الخطر كلُّ الخطر.

لذلك كان لا بدَّ أن نعرِّف معنى «السُّنَّة»، ومعنى «البدعة»؛ وما موقف الإسلام من البدعة؟ ولماذا استنكر الإسلام البدعة؟ وهل يعني استنكار البدعة استنكار الجديد؛ أيَّ جديد؟ حتَّى يتَّضح الموقف، وتبيَّن الحُجَّة، وتزول الشبهة، ويهلك من هلك عن بيِّنة، ويحيا من حيَّ عن بيِّنة.

معنى السُّنَّة لغة واصطلاحاً^(٢):

السُّنَّة في اللغة: الطريقة المسلوكة، محمودة كانت أو مذمومة؛ فهناك السُّنَّة الحسنة، وهناك السُّنَّة السيئة، كما صحَّ بذلك الحديث الذي رواه مسلم وغيره: «من سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء؛ ومن سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئة، كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(٣).

(١) انظر: مقال حسين أحمد أمين، مجلة الدوحة، العدد (٨٧)، ص ٧٤ - ٧٦، قطر، ١٩٨٣م.

(٢) انظر في هذا كتابنا: المدخل لدراسة السُّنَّة النبوية ص ٧ - ١٣.

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥٦)، عن جرير بن عبد الله. ومعنى قوله: «من سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة». أي في عهده وزمنه وحال وجوده، لا في أحكامه وفروعه وأصوله.

فالسُّنَّة في هذا الحديث - بالمعنى اللغوي - تعني أن من اتَّخذ طريقة معيَّنة في الخير أو الشرِّ، أو من وضع تقليدًا حسنًا أو سيئًا؛ فإنَّ في الحسن له أجره، وأجر من اتبعه؛ وفي السيئ عليه وزره، ووزر من اتبعه، إلى يوم القيامة.

ولكن السُّنَّة في الاصطلاح الشرعي أصبح لها معنى، أو أكثر من معنى. وكثير من الألفاظ لها معاني لغوية، تحددت لها في الشَّرع معاني اصطلاحية، كما نقول: الطهارة في اللغة: النظافة، وفي الشَّرع: رفع حدث، أو إزالة نجس أو نحو ذلك؛ أو نقول: الصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشَّرع: أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم. كذلك السُّنَّة، لها معناها اللغوي، ومعناها الشرعي الاصطلاحي. الحقيقة أنَّ السُّنَّة في الشَّرع لها أكثر من معنى:

فهي عند الفقهاء: يراد بها أحد الأحكام الشرعية، أي: ما يقابل الفرض الواجب - عند من يقول بالواجب - فهي بمعنى المندوب أو المستحب: وهو ما طلب الشارع فعله طلبًا غير جازم؛ بحيث يُثاب مَنْ فعله، ولا يُعاقب مَنْ تركه؛ إلا إذا كان على وجه الإعراض عنه أو نحو ذلك، فيقال - مثلاً - صلاة ركعتين قبل الصُّبح سُنَّة، ولكن صلاة الصبح فرض.

وعند الأصوليين: السُّنَّة ما جاء عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، وهي هنا مصدر من مصادر التشريع، ولذلك فهي تقابل الكتاب، يقال: هذا الأمر ثابت بالكتاب والسُّنَّة.

والمُحدِّثون يُضيفون إليها شيئًا آخر، فيقولون: السُّنَّة ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو وصف - خلقي أو خلقي - أو سيرة.

هناك - أيضًا - معنى آخر للسُّنَّة يهتم به أهل الشَّرْع، هو ما يقابل «البدعة»، أي ما سنَّه النبي ﷺ وشرعه لأُمَّته، في مقابل ما ابتدعه المبتدعون من بعده؛ وهذا هو الَّذي جاء فيه حديث العرباض بن سارية، أحد أحاديث «الأربعين النووية» المعروفة: «ومن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا؛ فعليكم بسُنَّتِي، وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ؛ وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ بدعة ضلالة»^(١).

ولهذا اشتهر عند الصحابة المقابلة بين السُّنَّة والبدعة، قالوا: ما أحدث قوم بدعة إلا أضاعوا مثلها من السُّنَّة. وقال ابن مسعود: القصد في السُّنَّة خير من الاجتهاد في البدعة^(٢).

هذا المعنى الأخير للسُّنَّة هو موضوع حديثنا الليلة، أمَّا المعاني الأخرى فليست موضوع هذا الحديث، قد يكون لنا معها حديث أو أحاديث أخرى، قد نتكلم عن «السُّنَّة كمصدر من مصادر التشريع»، قد يكون لنا حديث حول «السُّنَّة كقول أو فعل أو تقرير أو صفة أو سيرة»، ولكن نحن نريد - في هذه المحاضرة - الكلام عن السُّنَّة المُقَابِلَة للبدعة، أي ما سنَّه النبي ﷺ لأُمَّته، من هديه ﷺ، وهو خير الهدى، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنَّما هو الكلام والهدي؛ وخير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ». وقد أخذ هذا المعنى من خطبة النبي ﷺ التي كان يخطب بها: «أمَّا بعدُ، فإنَّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرُّ الأمور مُحدثاتها، وكلُّ بدعة ضلالة»^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ٤٤٢.

(٢) رواه الحاكم في العلم (١٠٣/١)، وصحَّح إسناده على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٧)، وأحمد (١٤٩٨٤)، عن جابر بن عبد الله.

فكان النبي ﷺ يحذّر من هذا الابتداع، ويأمر المسلمين أن يتَّبِعُوا سُنَّتَهُ، وأن يحرصوا عليها، ويقول: «لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلَّا هالك»^(١).

معنى البدعة عند الإمام الشاطبي:

ولكن ما معنى الابتداع؟ وما معنى البدعة التي اعتبرها النبي ﷺ ضلالةً في الدين؟

البدعة كما عرفها الإمام المحقق الفقيه الأصولي أبو إسحاق الشاطبي: «طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه»^(٢).

هذا هو أصدق وأوثق التعاريف لمسألة «البدعة»، وهو تعريف دقيق، جامع مانع كما يقول المنطقيون.

البدعة مجالها الدين:

وقد تحدد من خلال هذا التعريف: أنَّ البدعة مجالها الدين، وليس مجالها الدنيا، فهي «طريقة في الدين مخترعة». والدليل على هذا: قول النبي ﷺ: «من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو ردٌّ»، وفي بعض الروايات: «من أحدث في أمرنا - والمقصود أيضًا أمر ديننا - ما ليس منه فهو ردٌّ»^(٣)، أي: مردود على صاحبه، كما تُردُّ العملة الزائفة على صاحبها.

(١) سبق تخريجه ص ٤٤٢.

(٢) الاعتصام للشاطبي (٣٧/١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨) (١٧)، عن عائشة.

هذا الحديث - أيضًا - اعتبروه من أصول الإسلام، وهو من أحاديث «الأربعين النووية».

قالوا: إنَّ هناك حديثين يكمل أحدهما الآخر: حديث لا بدَّ منه - لأنَّه ميزان الباطن - وهو حديث: «إنَّما الأعمال بالنيَّات»^(١)، وحديث لا بدَّ منه - لأنَّه ميزان الظاهر - وهو حديث: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ».

فلا بدَّ - لكي يُقبل العمل - أن يكون فيه أمران:

١ - أن يُقصد به وجه الله تعالى.

٢ - أن تكون صورته على ما يريد الشرع.

ولذلك لما سئل الإمام الفضيل بن عياض، الفقيه الزاهد - وقد كان الزُّهاد الأوائل فقهاءً - عن قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. ما أحسن العمل؟ قال: أخلصه وأصوبه. قيل له: يا أبا عليٍّ؛ ما أخلصه، وما أصوبه؟ قال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتَّى يكون خالصًا صوابًا؛ والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السُّنة^(٢).

أن يكون لله: هو ما يُعبَّرُ عنه حديث: «إنَّما الأعمال بالنيَّات».

وأن يكون على السُّنة: هو ما يُعبَّرُ عنه حديث: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ» أو «من عمل عملاً ليس على أمرنا فهو ردٌّ»^(٣).

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩٥/٨).

(٣) رواه مسلم في الأقضية (١٧١٨) (١٨)، عن عائشة.

فالابتداع - بمعناه الاصطلاحي - لا يكون إلا في الدين، أمّا الأشياء العادية لا يدخلها الابتداع، فلا يمكن أن يقال - على أمر من أمور الحياة - بدعة، لأنّ السلف من الصحابة والتابعين لم يفعلوه. قد يكون أمرًا جديدًا، ولكن لا يُعتبر بدعة شرعية، وإلا لاعتبرنا كثيرًا مما نحن عليه الآن بدعة: هذا الميكروفون، وهذا السجاد، وهذه الطاولة، وهذه الكراسي التي تجلسون عليها، لم يفعلها المسلمون الأوائل، ولم يفعلها الصحابة، فهل يعدُّ شيء منها بدعة؟!

ولذلك قد يخطئ بعض الناس في هذه القضية، حتّى أنّه - مع الأسف - إذا رأى للمنبر أكثر من ثلاث درجات يقول: هذه بدعة! مع أنّه لا دخل للبدعية في هذه القضية.

النبي ﷺ كان يخطب في أوّل الأمر على جذع نخلة، فلما كثّر الناس قيل له: ألا نجعل لك شيئًا تقف عليه حتّى يراك الناس؟ فجئ بنجار، قيل: إنّه نجار روميّ، وصنع له المنبر من ثلاث درجات^(١)، ولو احتاج الأمر إلى أن يكون أعلى من ثلاث درجات لفعل، فهذه الأمور لا دخل لها في البدعة.

ولذلك من المهم جدًا - أيها الأخوة - أن نعرف هنا: ما هي السُنّة؟ وما هي البدعة؟

أيضًا: يحصل الخطأ هنا بالنسبة لأفعال النبي ﷺ، فبعض الناس يظنُّ

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: أرسل رسول الله ﷺ إلى امرأة من الأنصار: «انظري غلامك النجار، يعمل لي أعوادًا أكلم الناس عليها». فعمل هذه الثلاث درجات. رواه البخاري في الجمعة (٩١٧)، ومسلم في المساجد (٥٤٤)، عن سهل بن سعد الساعدي.

أَنَّ كُلَّ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ سُنَّةٌ، مَعَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوا: السُّنَّةُ مِنْهُ مَا ظَهَرَ فِيهِ وَجْهُ الْقُرْبَةِ، أَيُّ مَا فَعَلَهُ عَلَى وَجْهِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى^(١).

وَمِنْ أَمْثَلِهِ ذَلِكَ: أَنَّهُ ﷺ كَانَ - فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ - يَصَلِّي رَكَعَتِي الْفَجْرِ، وَيَضْطَجِعُ عَلَى جَنْبِهِ الْأَيْمَنِ^(٢)، فَفَهِمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ - وَمِنْهُمْ ابْنُ حَزْمٍ - أَنَّهُ لَا بَدَّ بَعْدَ صَلَاةِ رَكَعَتِي الْفَجْرِ مِنَ الْاضْطِجَاعِ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ فِيمَا رَوَى عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَضْطَجِعْ لِسُنَّةٍ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَدَأْبُ لَيْلَتِهِ فَيَسْتَرِيحُ^(٣).

الْمَهْمُ إِذْنُ أَنْ يُعْرِفَ مِنَ الْعَمَلِ مَا قُصِدَ فِيهِ السُّنِّيَّةُ، وَمَا لَمْ يَقْصُدْ، حَتَّى لَا يَحْصُلَ خَلْطٌ بَيْنَهُمَا، كَمَا فِي مَسَائِلِ الْأَكْلِ: فَبَعْضُ النَّاسِ يَرَى أَنَّ الْأَكْلَ بِالْمَلْعَقَةِ، أَوْ بِالشُّوْكَةِ، أَوْ الْجُلُوسَ عَلَى مَائِدَةٍ - طَاوِلَةً وَحَوْلَهَا كِرَاسِي - بَدْعَةٌ! وَهَذَا غَلْوٌ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْعَادَاتِ الَّتِي تَخْتَلَفُ بِاخْتِلَافِ الْأَزْمَنَةِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالْأَحْوَالِ.

النَّبِيُّ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ عَلَى عَادَةِ قَوْمِهِ، وَبِخَاصَّةٍ مَا وَافَقَ طَبِيعَتَهُ ﷺ: طَبِيعَةَ التَّيْسِيرِ وَالتَّوَاضُعِ وَالزُّهْدِ؛ لَكِنْ لَا يُعْتَبَرُ مُبْتَدِعًا فِي الدِّينِ: مَنْ أَكَلَ جَالِسًا عَلَى مَقْعَدٍ، أَوْ أَكَلَ بِمَلْعَقَةٍ.

وَذَلِكَ عَلَى خِلَافِ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ الْآخَرَى.

(١) السُّنَّةُ مَصْدَرًا لِلْمَعْرِفَةِ وَالْحَضَارَةِ ص ١٢ - ٨١، فَصْل: التَّشْرِيعِي وَغَيْرُ التَّشْرِيعِي مِنَ السَّنَةِ، نَشْرُ دَارُ الشُّرُوقِ، ط ٤، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٢) إِشَارَةٌ إِلَى الْحَدِيثِ الْمَتَّفِقِ عَلَيْهِ: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى رَكَعَتِي الْفَجْرِ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي التَّهْجِدِ (١١٦٠)، وَمُسْلِمٌ فِي صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ (٧٣٦).

(٣) رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي الصَّلَاةِ (٤٧٢٢)، وَقَالَ الْحَافِظُ فِي فَتْحِ الْبَارِي (٤٤/٣): وَفِي إِسْنَادِهِ رَاوٍ لَمْ يُسَمَّ.

فقد حدث ذات مرّة أن ناقشني باحثٌ كبير - وهو ممن يكتبون في المجالات وأحياناً يكتب في الإسلاميات - في مسألة الأكل باليمين؛ قال: هذه ليست سُنَّةً، لأنّها من الأشياء العادية، قلت: لا، هنا نقف، فمسألة الأكل باليد أو بالملعقة أو الشوكة، وعلى الأرض أو على الطاولة، هي مسألة تتعلق بالفعل، وكل إنسان يفعل ما يفعله قومه، ما لم يظهر فيه وجه القربة، أو وجه السُنَّة المقصودة؛ أمّا مسألة الأكل باليمين، فيبدو فيها أنّ هناك قصداً للنبي ﷺ، لأنّه أمرَ بهذا أمراً حينما قال للغلام: «يا غلام، سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ ممّا يليك»^(١). وأكثر من ذلك أنّه نهى عن ضد هذا حينما قال: «لا يأكلنَّ أحدكم بشماله، ولا يشربنَّ بها، فإنَّ الشيطان يأكلُ بشماله ويشربُ بها»^(٢). ولذلك قال بعض العلماء: إن ذلك يدلُّ على الحرمة، لأنّه شبهَ فاعله بالشيطان، ولا يُشَبَّهه بالشيطان في أمر مكروه.

وحينما رأى بعض الناس يأكل بشماله وقال له: «كُلْ بيمينك». قال: لا أستطيع. قال: «لا استطعت»^(٣). دعا عليه، فلم يرفع يده اليمنى بعد ذلك، فدلَّ على أنّ الأمر مُشَدَّد فيه.

ولذلك يجب أن نقف في هذه الأمور عند حدود ما ورد، ونعرف ما قُصِدَت سُنَّتُهُ منها، أو قُصِدَت فيه القربة إلى الله تعالى، وما جاء منها على طريق العادة، أو على طريق الجِلَّة (أي الطبيعة).

(١) سبق تخريجه ص ٥٩٢.

(٢) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢٠)، وأحمد (٤٥٣٧)، عن ابن عمر.

(٣) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢١) عن إياس بن سلمة بن الأكوع.



أحياناً كان النبي ﷺ يفعل أشياء كما يفعلها قومه، يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، ويلبس كما يلبسون؛ وأحياناً عن طريق الجبلة؛ مثل كونه ﷺ يحب «الدُّبَاء» - وهو نبات القَرَع - فهل مطلوب من كل واحد منا أن يُحبَّ القَرَع؟! هذه مسائل تتعلق بأمزجة الناس وطبائعهم وأذواقهم ونشأتهم؛ فواحد يُحب القَرَع، وآخر يُحب السبانخ إلخ.

كان ﷺ يحبُّ لحم الذَّرَاع، فهل مطلوبٌ من كل واحد أن يحبَّ لحم الذَّرَاع؟! قد يوجد من يُحب لحم الرقبة أو الظهر، ومن يُحب لحم الفخذ، إلخ.

إذا اتَّفقت محبَّتكَ لشيء من ذلك مع محبة النبي ﷺ، فهو خير وبركة. ولو أنَّ إنساناً اتَّبَعَ ما كان يفعله النبي ﷺ ولو لم يكن على وجه القربة، وإنَّما لكمال حُبِّه للنبي ﷺ، وحرصه على اتِّباع كل شيء أُثِرَ عنه، فهذا أيضاً يُحمد له، وإن لم يُطلب منه.

لو أنَّ إنساناً قال: أنا أريد أن أتَّبَعَ ما فعل الرسول الكريم، وإن كانت القربة غير مقصودة منه، إلَّا أنَّني أحب أن أكل على الأرض، وأن أكل بيدي، كما كان يفعل النبي ﷺ، نقول له: جزاك الله خيراً، ولم ننكر عليه بحال سلوكه هذا، بل ربَّما أجر على نيَّته.

وقد كان ابن عمر من شدة تعلُّقه بآثار رسول الله ﷺ، وكمال حُبِّه له، يتبعه فيما لا يُعرف أنَّه أمر قُصد به القربة، أو طُلب فيه الاتِّباع^(١). وكذلك كان بعض الصحابة رضوان الله عليهم.

(١) ولهذا عُرف «بالصحابي المتأسي» لشدة تأسيه برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله.

فمثلاً: رآه بعض الصحابة يُصَلِّي محلولاً أزراره، فلما سألوه عن ذلك قال: إِنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يَفْعَلُ ذَلِكَ^(١). ولعلَّ النَّبِيَّ ﷺ فعل ذلك في يوم حارٍّ أو صائف، فهل يأتي أحدنا في البرد فيفعل هذا؟! إِنَّمَا هُوَ رَأَى رَأَاهُ ابْنُ عُمَرَ.

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسَافِرًا ذَاتَ مَرَّةٍ فَحَادَ عَنِ الطَّرِيقِ - أَي مَالٍ إِلَى جَانِبٍ مِنْهُ - فَلَمَّا اسْتَغْرَبَ مِنْ مَعِهِ، قَالَ خَادِمُهُ: إِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ حَادَ عَنِ الطَّرِيقِ^(٢).

وَفِي رَحْلَةٍ مِنْ رَحَلَاتِ الْحَجِّ - أَيضًا - أَنَاخَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ راحلته، فَأَنَاخَ مِنْ مَعِهِ رَوَاحِلَهُمْ، وَقَالُوا: مَاذَا يَرِيدُ؟! - كُلُّ مَا فَعَلَهُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى مَكَانٍ وَقَضَى حَاجَتَهُ - فَلَمَّا سُئِلَ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا حَجَّ جَاءَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ فَقَضَى حَاجَتَهُ فِيهِ^(٣).

(١) عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ قَالَ: رَأَيْتُ ابْنَ عُمَرَ يَصْلِي مُحْلُولًا أَزْرَارَهُ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَفْعَلُهُ. رَوَاهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي الصَّلَاةِ (٧٧٩)، وَابْنُ حِبَانَ فِي اللَّبَاسِ (٥٤٥٣)، وَقَالَ الْأَرْنَؤُوطُ: إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ. وَالحَاكِمُ فِي الطَّهَارَةِ (٣٨٠/١)، وَصَحَّحَهُ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

(٢) عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ ابْنِ عُمَرَ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَمَرَّ بِمَكَانٍ، فَحَادَ عَنْهُ، فَسُئِلَ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَلَ هَذَا فَفَعَلْتُ. رَوَاهُ أَحْمَدُ (٤٨٧٠)، وَقَالَ مَخْرَجُوه: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، رَجَالُهُ ثِقَاتٌ رَجَالُ الشَّيْخَيْنِ. وَجَوَّدَ إِسْنَادَهُ الْمُنْذِرِيُّ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ (٧٤).

(٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: كُنَّا مَعَ ابْنِ عُمَرَ ﷺ بِعُرْفَاتٍ، فَلَمَّا كَانَ حِينَ رَاحَ رَحَتَ مَعَهُ، حَتَّى أَتَى الْإِمَامَ، فَصَلَّى مَعَهُ الْأَوَّلَى وَالْعَصْرَ، ثُمَّ وَقَفَ وَأَنَا وَأَصْحَابُ لِي حَتَّى أَفَاضَ الْإِمَامُ فَأَفْضَنَا مَعَهُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَضِيقِ دُونَ الْمَازَمِينِ، فَأَنَاخَ وَأَنَاخْنَا، وَنَحْنُ نَحْسَبُ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَصْلِيَ فَقَالَ غَلَامُهُ الَّذِي يُمْسِكُ رَاحِلَتَهُ: إِنَّهُ لَيْسَ يَرِيدُ الصَّلَاةَ، وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا انْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَكَانِ قَضَى حَاجَتَهُ، فَهُوَ يَحِبُّ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ. رَوَاهُ أَحْمَدُ (٦١٥١)، وَقَالَ مَخْرَجُوه: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ. وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (٨١٢): رَجَالُهُ رَجَالُ الصَّحِيحِ.

كان يحب أن يضع ناقته حيث وضعت ناقه النبي ﷺ أرجلها، يعني حيث وقفت.

هل شيء من هذا مطلوب من المسلم؟ لا، ليس مطلوبًا، إنما هذا من كمال الحب للنبي ﷺ.

هذا النوع من الأفعال لا ندّمه إذا لم يُطالب صاحبه الناس به، ولكنه ليس مطلوبًا، ويجب أن يُعرف أن هذا ليس مُلزمًا به الناس، ولا مفروضًا عليهم، ولا سُنّيته مقصودة.

من فعل هذا فقد أحسن، ولكن الخطأ عندما يريد من الناس أن يفعلوا هذا، أو ينكر على من لم يفعله، أو يذمه، أو يعتقد أن هذا من صلب الدين، أو جزء منه، أو من تركه ترك السُنّة.

ولذلك من المهم - أيها الأخوة - أن نُفرّق في هذا المقام بين السُنّة الحقيقية والبدعة.

الاختراع ينبغي أن يكون في شؤون الدنيا:

البدعة كما قلنا: «طريقة في الدين مُختَرعة»، الإسلام إذن يريد من أتباعه ومن أهله أن يقفوا في أمر الدين عندما ورد، وأن يوفّروا طاقتهم للإبداعية للابتكار في شؤون الدنيا، وهذا ما فعله السلف رضوان الله عليهم.

السلف وقفوا عند حدود الوارد في أمر الدين، عند حدود المأثور، عند السنن، وبذلوا طاقتهم وجهودهم في الابتكار لتحسين شؤون الحياة.

نجد - مثلاً - في سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أشياء كثيرة اسمها «أوليات عمر»: فهو أوّل من دوّن الدواوين، وأوّل من مصّر الأمصار، وأوّل من عسّ على الرعية، وأوّل من فعل كذا وكذا.

وهناك كُتِبَ اسمها «الأوائل» أي أوائل الأشياء التي سنّها السلف.

فالصحابة ابتكروا أشياء كثيرة لمصلحة المسلمين.

ومعنى «مُخْتَرَعَة»: أي ليس لها أصل في الشرع، وأصل كلمة «بدعة» مأخوذة من «بَدَعَ» و«ابتدع» يعني اخترع شيئاً على غير مثال سابق. ولذلك قال الله في وصف ذاته **حَمْدًا**: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]. أي أَنَّ الله **وَجَدَّ** مخترعهما من غير مثالٍ سابق متقدّم^(١).

فالابتداع هو اختراع على غير ما كان عليه الرسول **وَسَلَّمَ**، وخلفاؤه الراشدون المهديون الذين أمرنا أن نتبع سنّتهم.

ما كان له أصل في الشرع لا يُعدُّ بدعة:

إنّما لو كان له أصل في الشرع فلا يكون بدعة.

هناك أشياء اخترعها المسلمون لها أصل في الشرع، مثل كتابة القرآن وجمعه في مصحف واحد، كما فعل ذلك أبو بكر بإشارة من عمر **رَضِيَ عَنْهُ**.

وأبو بكر توقّف في أوّل هذا الأمر، وقال: كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله **وَسَلَّمَ**؟ ولكن لم يزل عمر يحاول مع أبي بكر ويقنعه حتّى اقتنع^(٢)، لأنّ في ذلك خير ومصلحة وإن لم يفعله النبي **وَسَلَّمَ**، فالدين إنّما جاء بحفظ القرآن، والقرآن أساس الدين وينبوعه وكليته الأبدية، فلا بدّ أن نحافظ عليه من أيّ ضياع، أو من أيّ اشتباه.

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي (٣٦/١).

(٢) وكذلك الشأن مع زيد بن ثابت الذي أمره أبو بكر بتتبع القرآن وجمعه، ولكن لم يزل أبو بكر يراجع، حتى شرح الله صدره للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر.

وقد أذن النبي ﷺ في كتابة الوحي عند نزوله، وكان له كُتَّابٌ وحي يكتبون ما ينزل عليه من القرآن، كل هذا لحفظ القرآن.

والنبي ﷺ لم يجمع القرآن كله في مصحف واحد في حياته، لأن القرآن لم يكن قد اكتمل، كان لا يزال ينزل، فيغير الله ما يشاء، فلو جُمع في مصحف واحد لتعسر تغييره كل وقت. وأحياناً تنزل الآية ويقول: ضعوها في سورة كذا، والسورة لا يُعرف اكتمالها حتى تم نزول القرآن.

فسورة البقرة - مثلاً - نزلت في أوائل العهد المدني، ولكن لم يكتمل نزولها إلا بعد ثماني سنين، وفيها آيات يعتبرها العلماء من أواخر ما نزل من القرآن، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ آخر ما نزل من القرآن قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] ^(١).

فهناك مانع إذن منع النبي ﷺ من أن يجمع القرآن، فلما استقرَّ القرآن بموته ﷺ، أمِنَ الصحابة من زيادة القرآن ونقصه، فعملوا على كتابة القرآن وجمعه في مصحفٍ واحد.

إذن هذا العمل له أصل في الشرع يدلُّ عليه، فلا يعتبر بدعة.

ومن ذلك ما فعله عمر رضي الله عنه في جمع الناس في رمضان على إمام واحد يصلي بهم التراويح، وهو أبي بن كعب، وكانوا قبل ذلك يصلّون جماعات متناثرة. روى البخاري، عن عبد الرحمن بن عبد القارئ أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ليلة في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع متفرّقون؛ يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤١/٦).

بصلاته الرهط، فقال عمر: إنني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب؛ ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم، فقال عمر: نعم البدعة هذه^(١)، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون، يريد آخر الليل، وكان الناس يقومون أوله^(٢).

وكلمة «البدعة» هنا في قول عمر «نعمت البدعة هذه» بالمعنى اللغوي وليس بالمعنى الشرعي، لأن البدعة من الناحية اللغوية: كل ما اخترع على غير مثال سبق في صورته. وعمر هنا يقصد أن الناس لم يجتمعوا بهذه الصورة قبل ذلك، وإن كان أصل الاجتماع قد حدث في عهد النبي ﷺ، لأنه كان قد رغب في القيام، وصلى الناس وراءه أكثر من ليلة، ثم لما رأى الناس قد كثروا لم يخرج إليهم، فلما أصبح قال: «رأيت الذي صنعت فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنني خشيت أن تُفترض عليكم»^(٣).

فهذه الخشية - خشية أن يُنزل الله إيجاب هذا الأمر وفرضيته - زالت بموت النبي ﷺ، فزال المانع إذن^(٤).

(١) قال الشاطبي في الاعتصام (١/١٩٥): إنه سماها بدعة باعتبار ظاهر الحال، من حيث تركها رسول الله ﷺ، واتفق أن لم تقع في زمان أبي بكر رضي الله عنه، إلا أنها بدعة في المعنى، فمن سماها بدعة بهذا الاعتبار فلا مشاحة في الأسامي.

(٢) رواه البخاري في صلاة التراويح (٢٠١٠).

(٣) عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ صلى في المسجد فصلى بصلاته ناس، ثم صلى الثانية فكثرت الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال: «رأيت الذي صنعت فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنني خشيت أن تُفترض عليكم، وذلك في رمضان». متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (١١٢٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦١).

(٤) قال الشاطبي رحمه الله في الاعتصام (١/١٩٤): فتأملوا؛ ففي هذا الحديث - حديث عائشة المتقدم - =

المهمُّ أنَّ معنى «مُخْتَرَعَة»: ألا يكون لها أصل في الشَّرْع يدلُّ عليها.
ومن هنا دوّن السَّلف العلوم الشرعيَّة، وابتكروا علومًا لخدمتها مثل
علم أصول الفقه، وعلم مصطلح الحديث، وعلوم اللغة، ونحوها.

مضاهاة الطريقة الشرعيَّة:

ثم قال الإمام الشاطبي في التعريف: «تُضاهي الشرعيَّة»، أي أنَّها
تشابه الطريقة الشرعيَّة، من غير أن تكون في الحقيقة كذلك.

هناك أشياء يخترعها الناس ليس لها في الشَّرْع أصل، إنَّما لها في
الشَّرْع وجه شبه، لأنَّ فيها نوعًا من التعبد، ففيها مضاهاة للطريقة الشرعيَّة
وتشَبَّه بها بوجه من الوجوه، وهذا هو الَّذي يُحسِّنُها عند المبتدعين وعند
أتباعهم، لأنَّه لو لم يكن لها شَبَّه بطرق الشَّرْع لرفضها النَّاس، إنَّما هم
يُحسِّنونها بأنَّ فيها شَبَّهًا بالطرائق الشرعيَّة.

البدعة يُقصد بها المبالغة في التعبد:

ثم قال في التعريف: «يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله
سبحانه»، يعني أنَّ الَّذين يتبدعون البدع يقصدون عادة المبالغة في
التقرب إلى الله، لأنَّهم لا يكفيهم ما جاء به الشَّرْع ويريدون الزيادة
عليه! كأنَّهم يستدركون على الشَّرْع، كأنَّهم يكملون نقصه، فيبدعون
شيئًا من عندهم!

= ما يدلُّ على كونها سُنَّة، فإنَّ قيامه أولاً بهم دليل على صحة القيام في المسجد جماعة في
رمضان، وامتناعه بعد ذلك عن الخروج خشية الافتراض لا يدلُّ على امتناعه مطلقًا، لأنَّ
زمانه كان زمان وحي وتشريع، فيمكن أن يوحى إليه إذا عمل به الناس بالإلزام، فلما زالت
علة التشريع بموت رسول الله ﷺ رجع الأمر إلى أصله، وقد ثبت الجواز فلا ناسخ له.

هل هذه النيّة الحسنة تشفع لهم؟ لا، لا تشفع لهم، لأننا قلنا: لا بدّ من الأمرين: النية، والمتابعة، والميزان الظاهر: أن يكون العمل على أمر رسول الله ﷺ «من عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»^(١).

هذه البدعة في الدين، والبدعة بهذا المعنى ضلالة، كما جاء في حديث العرباض بن سارية: «فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة»^(٢).

تقسيم العلماء للبدعة والقول الأصوب في ذلك:

هناك بعض العلماء قسّموا البدعة إلى: بدعة حسنة، وبدعة سيئة^(٣). وبعضهم قسّمها إلى خمسة أقسام، بأقسام أحكام الشريعة الخمسة: بدعة واجبة، وبدعة مستحبة، وبدعة مكروهة، وبدعة محرمة، وبدعة مباحة^(٤).

والقول الأصوب في هذا: أنّ الكلام واحد في النهاية، النتيجة واحدة، لأنّهم يجعلون - مثلاً - كتابة القرآن وجمعه في مصحف واحد، وتدوين علم النّحو، وتدوين علم أصول الفقه والعلوم الإسلامية الأخرى، من البدع الواجبة، ومن فروض الكفاية.

(١) سبق تخريجه ص ٤٤٢.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٤٢.

(٣) لشيخ الإسلام ابن تيمية كلمات مضيئة في الرد على من يستحسن البدع، أوردها في كتابه: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٢٧٠ فما بعدها، نشر دار المعرفة، بيروت، فلتراجع هناك.

(٤) وقد ناقشهم الإمام الشاطبي مناقشة مفصلة، أثبت من خلالها أنّ هذا التقسيم أمر مخترع لا يدلُّ عليه دليل شرعي، بل هو في نفسه متدافع، لأنّ من حقيقة البدعة ألا يدلُّ عليها دليل شرعي، لا من نصوص الشرع ولا من قواعده، إذ لو كان هنالك ما يدلُّ من الشرع على وجوب أو ندب أو إباحة لما كان ثمَّ بدعة، ولكان العمل داخلاً في عموم الأعمال المأمور بها أو المخير فيها. انظر: الاعتصام (١٨٨/١ - ٢١١).

أَمَّا الآخرون فإنهم ينازعون في تسمية هذه «بدعًا»، يقولون: هذا التقسيم للبدعة بالمعنى اللغوي، ونحن نريد بالبدعة «المعنى الشرعي»، أَمَّا هذه الأشياء فنحن نُخرجها من البدعة، وليس من الحسن أن يسمى مثل هذا بدعة، والأولى أن نقف عند الحديث الشريف؛ لأنَّه جاء بهذا اللفظ الواضح الصريح: «فإنَّ كل بدعة ضلالة»^(١) بهذا العموم، بهذه الكلِّية. فإذا كان الحديث يقول: «فإنَّ كل بدعة ضلالة» فلا داعي إلى أن نقول: إنَّ من البدع ما هو حسن، ومنها ما هو سيئ، أو منها ما هو واجب وما هو مستحب، إلخ.

لا داعي لمثل هذا التقسيم، والصواب أن نقول ما قاله الحديث الشريف: «فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة»، ونقصد بالبدعة المعني الذي حقَّقه الإمام الشاطبي في هذا التعريف: «البدعة طريقة في الدين مخترعة» ولا أصل لها في الشَّرع، ولا أساس لها، لا من كتاب، ولا من سُنَّة، ولا من إجماع، ولا من قياس، ولا من مصلحة مرسلّة، ولا من دليل من هذه الأدلة التي قال بها فقهاء المسلمين.

لماذا شدّد الإسلام في أمر البدعة؟

لماذا شدّد الإسلام في أمر البدعة، واعتبرها ضلالة، واعتبرها في النار، وحذّر النبي ﷺ منها أشدّ التحذير؟

أولاً: المبتدع ينصب نفسه مُشَرِّعاً ونِدّاً لله تعالى:

الحقيقة أنَّ الإسلام حذّر منها لأنَّ المبتدع - كما أشرت - كأنَّه مستدرك على ربِّه، كأنَّه يوهمنا أو يوهم نفسه أنه يعلم ما لا يعلم الله،

(١) سبق تخريجه ص ٤٤٢.

كأنه يقول: إِنَّ ما شرعته يا رب لا يكفيننا، فنحن نزيد على ما شرعْتَ! فهو إذن قد جعل نفسه مُشَرِّعًا، وأعطى نفسه حق التشريع؛ والتشريع من حق الله تعالى وحده، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ...﴾ [الشورى: ٢١].

فشرعية ما لم يأذن به الله هي الخطر، لأنَّ الإنسان جعل نفسه ندًّا لله ﷻ، من حقّه أَنْ يُشَرِّعَ وَأَنْ يبتكر، ويزيد في دين الله، وهذا باب يمكن أَنْ يأتي منه خطر كبير، يصل بالناس إلى الشرك بالله تبارك وتعالى، وهذا ما أفسد الأديان من قبل.

الأديان الأخرى ماذا حلَّ بها؟ حلَّ بها الابتداع مفتحة أبوابه على مصاريعها، وجعلوا لأنفسهم حقَّ الإضافة في دين الله، وجعلوا ذلك في حق بابائهم وقسيسيهم، أو أحبارهم ورهبانهم، فأصبح الدين غير الدين، وهذا ما أنكره الإسلام عليهم، وسجَّله في كتابه الخالد حين قال الله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. فاعتبرهم القرآن مشركين.

لما دخل عديُّ بن حاتم الطائي - وكان قد تنصَّر في الجاهلية - على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: إِنَّهم لم يعبدوهم. فقال النبي ﷺ: «بلى إِنَّهم حرَّموا عليهم الحلال وأحلُّوا لهم الحرام فاتَّبعوهم، فذلك عبادتهم إِيَّاهم»^(١).

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٠٩٥)، وقال: حديث غريب. والطبري في تفسيره (٢١٠/١٤)، والطبراني (٩٢/١٧)، والبيهقي في آداب القاضي (١١٦/١٠)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣)، عن عدي بن حاتم.

فعدي بن حاتم فهم أنّ العبادة هي الشعائر فقط: الصلاة والركوع والسجود ونحوها، فأفهمه النبي ﷺ أنه ليس من الضروري أن يفعلوا ذلك، فالعبادة لها معنى أوسع: الطاعة المطلقة فيما يصنعون، وفيما يجلسون، وفيما يحرمون، وفيما يخترعون في أمور الدين عبادة، لأنّ الرّبوبيّة هي التي لها حق التشريع والتحليل والتحريم، وهي التي تتعبد الناس بما تريد، وليس من حق أحد أن يتعبد بما يريد هو.

فالمبتدع إذن كأنّه يُنصّب نفسه مشرّعاً ونذاً لله تبارك وتعالى، ويستدرك على الله عزّ وجلّ.

ثانياً: المبتدع يرى الدين ناقصاً ويريد أن يكمله:

من ناحية أخرى - وهو فرع عن المعنى السابق - أنّ المبتدع كأنّه يرى الدين ناقصاً وهو يريد أن يكمل ما فيه من نقص وقصور. والدين قد أتمّ الله علينا النعمة بكمالها فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ولذلك روى ابن الماجشون عن الإمام مالك - إمام دار الهجرة - أنّه قال: من ابتدّع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أنّ محمداً ﷺ خان الرسالة، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً^(١).

فالابتداع في الدين اتهام للنبي ﷺ بالخيانة وعدم تبليغ الرسالة بكمالها، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾ [المائدة: ٦٧].

(١) رواه ابن حزم في الإحكام في أصول الأحكام (٥٨/٦)، تحقيق أحمد محمد شاكر، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت.

الدين قد كُمِّل، فليس في حاجة إلى أن تزيد عليه، لأنَّ الكامل لا يقبل الزيادة بحال من الأحوال، الشيء الناقص هو الذي يمكن أن تضيف إليه وتزيد فيه. إذا كنت لابسا ثوبا سابغا على مقدار مفصلٍ عليك تماما، لو زيد فيه شيء، كان مقتضى ذلك أنك ستجره على الأرض.

ومن هنا وقف الصحابة والأئمة ومن تبعهم بإحسان ضد الابتداع، لأنَّه اتهام للدين بالنقص، واتهام للرسول بالخيانة.

ثالثا: الابتداع يُعسر الدين ويُخرجه عن طبيعته السمحة:

من ناحية الثالثة: إنَّ الدين قد شرعه الله ميسرا، وبعث نبيه بحنيفية سمحة، حنيفية في العقيدة، سمحة في التكليف والأعمال ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، «فإنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معشرين»^(١).

فالدين قد جاء ميسرا للناس، والذين يتدعون فيه، يخرجون بهذا الدين عن طبيعته السمحة الميسرة الميسرة، فهم يُعنتون الناس ويشقُّون عليهم، ويضيفون إليه ما يجعله آصارا وأغلالا على المكلفين، وقد جاء النبي ﷺ ليضع الآصار والأغلال عمن كان قبلنا، كما جاء في وصفه ﷺ في كتب الأولين في التوراة والإنجيل: ﴿... وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وجاء في أدعية القرآن في خواتيم سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا...﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(١) رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، عن أبي هريرة.

وهؤلاء المبتدعون يريدون أن يعيدوا آصار الأديان السابقة إلى الإسلام، وأن يضيفوا إليه تكاليف تشقُّ على الناس، وتكلفتهم شططاً، وثرهقتهم من أمرهم عُسرًا!

التكاليف الدينية يسيرة سهلة جدًّا، فمثلاً: الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وأفضل صيغ الصلوات: «اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»^(١).

تُرى كم أخذت من الوقت؟ ربع دقيقة أو نصف دقيقة؟ ومع ذلك يجيء أناس ويضعون كتباً في الصلاة والسلام على النبي، وصيغاً مُتكلفة ما أنزل الله بها من سلطان، كنت أرى العامة يقرؤونها ولا يفهمون منها شيئاً.

وكذلك في الأدعية: يضعون للناس أوراداً وأحزاباً؛ كنت في صغري أذهب إلى المسجد قبل الفجر، فأجد بعض الناس من العوام يحفظون ورداً يقال له «ورد البكري»! وهو عبارة عن أدعية مرتبة على حروف الهجاء، يبدأ الدعاء الأول بحرف الهمزة، والثاني بالباء، والثالث بالتاء إلخ. فمثلاً في حرف الغين «إلهي غناك مطلق وغنانا مقيد...». ولو سألت أحدهم ما معنى مطلق ومقيد؟ فإنه لا يعرف شيئاً.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٠)، ومسلم في الصلاة (٤٠٦)، عن كعب بن عُجرة.

يا أخي هل هنالك أفضل وأجمل وأيسر من أدعية القرآن وأدعية السُّنة؟ أدعية القرآن مثل: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، وأدعية السُّنة مثل: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»^(١)؛ فلم التكلُّف إذن؟ ولماذا نُعسر على الناس ونُحفظهم تلك الأدعية الأخرى؟

ذات مرّة قلت لأحد الناس: لماذا لا تصلي؟ قال: لأنني لا أعرف الوضوء! قلت: لا تعرف غسل الوجه واليدين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين؟! قال: هذا أعرفه، لكنني لا أحفظ ما يقال في الوضوء عند غسل كل عضو من الأعضاء! أي أنّه لا يعرف ما يقوله عند بدء الوضوء، كأن يقول: الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً، والإسلام نوراً. وعند الاستنشاق: اللهم أرحني برائحة الجنة وأنت عني راض. وعند غسل الوجه: اللهم بيّض وجهي يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. وعند غسل الذراعين: اللهم أعطني كتابي بيمينني، واجعل محمداً شفيعي وضميني. وعند مسح الرأس: اللهم حرّم شعري وبشرتي على النار^(٢).

كل حاجة وضعوا لها دعاء، والرجل المسكين يظن أنّه لا بدّ - لكي تصحّ صلاته ويصحّ وضوؤه - من حفظ هذه الدعوات الكثيرة، وليس عنده حافظة تسع هذه الأشياء. لماذا هذا كله؟!

وانظر إلى «الأذان الشرعي» كما يسمونه، تجد أداءه سهلاً يسيراً: الله

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٠)، عن أبي هريرة.

(٢) انظر كتابنا: فتاوى معاصرة (١/٢١٣، ٢١٤).

أكبر الله أكبر إلخ، لا يأخذ من الوقت إلا دقيقة أو دقيقة ونصف تقريباً؛ إنما لو أديناه بالطريقة التي عليها غالب الناس اليوم: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، فكم يأخذ من الوقت؟ ربّما أكثر من خمس دقائق.

ويلزم أن تكون «الفلاح» أطول من «الصلاة»، وعند التكرار يطول الأداء ويطول! ثم إنهم لم يكتفوا بهذا، بل وضعوا للناس صلوات على النبي ﷺ تُتلى بعد الأذان.

يا أخي، إن ربنا شرع هذه الألفاظ وأوحى بها إلى نبيّه عن طريق الرؤيا^(١) التي أقرّها النبي ﷺ، ما يعني أنّه شيء مقصود: أن يكون لله تعالى نصيب كذا في الأذان، ولمحمد ﷺ مقدار مُعَيَّن؛ فكيف تأتي أنت وتضيف صلوات وكلمات زائدة، بحيث يُجعل حظّ النبي الكريم في الأذان أكثر من حظ ربنا تبارك وتعالى؟! ليست هذه الزيادة في مكانها يا أخي، لِمَ تخرع من عندك؟!

فيا أيّها الأخوة، الإسلام وقف ضد الابتداع، لئلا يدخل الناس في الدّين أشياء تجعله عسيراً، وتضيف إليه أشياء تجعله أضعاف ما أنزله الله تعالى، وتكون النتيجة: أن الناس يستثقلون تكاليف الدّين، ويضيقون بها ذرعاً.

رابعاً: الابتداع في الدّين يميّت السّنن:

ومن هنا جاء عن السلف، وجاء مرفوعاً أنّه: «ما أحيّا قومٌ بدعةً إلّا أماتوا مثلها من السّنة»^(٢).

(١) حديث رؤيا عبد الله بن زيد، رواه أحمد (١٦٤٧٨)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وأبو داود (٤٩٩)، والترمذي (١٨٩)، وقال: حسن صحيح. كلاهما في الصلاة. وابن ماجه في الأذان (٧٠٦).

(٢) رواه أحمد (١٦٩٧٠)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وجوّد إسناده الحافظ في الفتح (٢٥٣/١٣)، عن غضيف بن الحارث مرفوعاً.

وهذا أمر طبيعي، وهو قانون: قانون كوني، قانون اجتماعي، سمّه كما تسمّيه، كما قال القائل: «ما رأيت إسرافاً إلا وبجانبه حق مُضَيِّعٌ». إذا رأيت إسرافاً في جانب، لا بدّ أن تجد تقتيراً في جانب آخر، فالإنسان إذا أودع طاقته في البدعة، فلا بدّ أن تنحسر هذه الطاقة عند السُّنَّة، لأنّ الإنسان محدود الجهد.

ولذلك تجد المبتدعة ما أسرعهم وما أنشطهم؛ ينشطون ويسارعون في البدع، وفي أمور السُّنَّة يضعفون ويفترون.

أذكر وأنا طالب في القسم الثانوي من الأزهر بمعهد طنطا - وطنطا هذه فيها مقام «السيد البدوي» المعروف - وكان من مشايخنا من يبقى معظم النهار وبعض الليل بجوار هذا المقام، ولقد ناقشت بعض مشايخي رحمهم الله وكان فقيهاً حنفياً، ولكنّه كان من الجماعة الذين يقدّسون التصوف والأولياء، وكان يدرس لنا باب الأضحى في الفقه، وأنا كنت أحب أن أربط الفقه بالحياة، فقلت له: يا سيدنا الشيخ: الناس أضاعوا هذه السُّنَّة، وأصبح الذين يُضحُّون قليلين جدّاً، وأعتقد أنّ المشايخ عليهم تبعه في هذه الناحية، فبإمكانهم أن ينبّهوا الناس إلى هذه السُّنَّة. قال الشيخ: إنّ الناس قد ضعفت إمكانياتهم المادية. قلت: ولكنهم في مناسبات أخرى يذبحون وهي ليست سُنَّة! قال: ماذا تعني؟ قلت: أعني أنّهم يذبحون في مولد (السيد)! حينما يأتي مولد (السيد) تُذبح عشرات، بل مئات وآلاف الخراف، وفي عيد الأضحى قلّما يوجد أحدٌ يضحى! فلو أنّ المشايخ وجّهوهم إلى هذه السُّنَّة، وبدلاً من أن يذبحوا للسيد، يذبحوا في عيد الأضحى، فيُحيوا بذلك سُنَّة؛ وحتى لو لم يتصدّقوا بشيءٍ منها، فإنّ مجرّد إراقة الدم هو إحياء لشعيرة من شعائر الإسلام: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنَحِرْ﴾.

ما قلت هذا حتّى وجدت الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هاج عليّ، وأخرجني من الفصل، واعتبرني مشاغبا، وكارها للأولياء والصالحين! فهذا ممّا يُذَكِّرني: بأنّ ما أحيا قومٌ بدعة، وما شغلوا أنفسهم بها، إلّا أماتوا مثلها من السُنّة، وهذا هو السرُّ في الإنكار على البدع.

خامسًا: الابتداع في الدين يصرف الناس عن الابتكار في شؤون الدُّنيا:
من ناحية أخرى: ما أشرتُ إليه في أوائل هذا الحديث، وهو أنّ الناس إذا بذلوا جهودهم وأنشطتهم في هذه الإضافات والزيادات التي أضافوها إلى الدين، فلن تبقى لهم طاقة للعمل للدنيا، والابتكار في شؤونها. البدعة كما قلنا: «طريقة في الدين مخترعة»، والاختراع يجب أن يكون في أمور الدنيا، وما دام الإنسان قد جعل كل اختراعاته في الدين، فلن يخترع في الدنيا.

ولأجل ذلك ابتكر المسلمون الأوائل في أمور دنياهم، وعملوا أشياء لم يسبقهم إليها أحد، وقامت في ظل دينهم حضارة شامخة الدُّرى، جمعت بين العلم واليقين، بين الدين والدنيا، وكانت العلوم الإسلامية: الكونية والرياضية والطبية والفلكية والطبيعية، هي العلوم التي تُدرس في العالم، ويُتلمذ فيها على المسلمين.

والمسلمون كان دافعهم في معظم هذه الأشياء دينيًّا، هل تعلمون - مثلاً - أنّ علم الجبر المنسوب إلى الخوارزمي، كان قد اخترعه ليحلّ مسائل معينة في الوصيّة والميراث، فالميراثُ جزء منه رياضي، والوصية كذلك؛ ولهذا فإنّ كتابه في الجبر جزءان: جزء في الوصايا والموارث، وجزء في الجبر والمقابلة. ولما جاء الدكتور موسى أحمد، والجماعة الذين حقّقوا الكتاب، علقوا على الجزء المتصل بالجبر، أمّا الجزء

الفقهي المتصل بالوصايا والمواريث فقالوا: لم نفهمه، ولم نستطع أن نعرف منه شيئاً.

هكذا كان العلم في الزمن الأول متّصلاً بالدين، ولم يكن هناك انفصال بينهما^(١). كان معظم العلماء والأطباء علماء دين، فابن رشد - مؤلف كتاب «الكليّات» في الطب - كان قاضياً، وهو صاحب كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه، وهو من أعظم ما كتب في الفقه المقارن بتركيز وتلخيص ورد المسائل إلى أصولها.

الذي أريد أن أقوله: أنّ المسلمين في العصور الأولى وقفوا عند النص وعند السنن في أمور الدين، وابتكروا واخترعوا، وأنشؤوا وطوّروا، وحسّنوا في أمور الحياة. ثم لما بُعدنا نحن عن الدين - في عصور التخلف - حدث العكس: اخترع المسلمون أشياء كثيرة جداً في أمور الدين، وجمدوا في أمور الدنيا، وقالوا: ما ترك الأول للآخر شيئاً! وليس في الإمكان أبدع مما كان! فضربت الحياة بالجُمود والعُقم، وأصبحت كالماء الراكد الآسن.

ولذلك كان إنكار الابتداع في الدين معناه: توفير طاقات الناس للابتكار وللتطوير في أمور الحياة.

سادساً: الابتداع في الدين يُفَرِّق الأمة ويُمزّق وحدتها:

أمر سادس هنا: وهو أنّ الوقوف عند السنن يجمع الأمة على كلمة واحدة، ويجعلها صفّاً متراصّاً وراء هذا الحقّ الذي بيّنه النبي ﷺ؛ لأنّ

(١) بل هذا الانفصال هو نفسه بدعة دخيلة لم يكن لها وجود في الإسلام، لأنّه ليس من طبيعته أن ينفصل عن الدنيا. راجع فصل: الفصام النكد، من المستقبل لهذا الدين للشهيد سيد قطب ص ٣٤ وما بعدها، نشر الاتحاد العالمي للمنظمات الطلابية، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

السُّنَّة واحدة، ولكن البدع لا تنتهي؛ الحق واحد، ولكن الباطل ألوان؛ صراط الله واحد، ولكن سُبُل الشيطان كثيرة جدًا، ولذلك جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: خَطَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًّا - كان يعلمهم بوسائل الإيضاح، ووسائل الإيضاح بالنسبة لهم الرمل - ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خَطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، وقال: «هذه سُبُل، على كلِّ سبيل منها شيطان يدعو إليه» وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ^(١).

ولذلك لما كانت الأمة وراء السُّنَّة كانت كلمتها واحدة، ثم لما ظهرت الفرق انقسمت الأمة إلى أكثر من سبعين فرقة، بل انقسمت كل فرقة إلى فرق، وكل فرقة تعتقد أنَّ ما هي عليه هو وحده الدين، وابتدعت من عند نفسها بدعًا، بعضها في العقائد، وصلت بها أحيانًا إلى حد الكفر؛ مثل الذين أنكروا علم الله وقالوا: إنَّ الأمر أنْف، يعني أنَّ الله لم يعلم هذا من قبل، وهم الذين برئ منهم ابن عمر وقال: لو جاء أحدهم بمثل جبل أحد من العمل لم يقبله الله تبارك وتعالى ^(٢)؛ ومنهم الذين قالوا في ذات الله، وشبهوا الله بخلقه وهم «المشبهة» أو «المجسمة»؛ ومنهم الذين أنكروا قَدَرَ الله وَعَزَّ وإنَّ لم ينكروا علمه؛ ومنهم الذين كفَّروا المسلمين واستحلوا دماءهم مثل: «الخوارج» رغم تعبُّدهم، ورغم ما جاء في الحديث وصفًا لهم: «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقيامه إلى قيامهم، وقراءته إلى قراءتهم» ^(٣).

(١) رواه أحمد (٤١٤٢)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. والنسائي في الكبرى في التفسير (١١١٧٤)، وابن حبان في المقدمة (٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. والحاكم في التفسير (٢٣٩/٢)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، عن ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٨).

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، عن أبي سعيد الخدري.

وظهر بعد ذلك المتصوفة، وجأؤوا بأقوال ما أنزل الله بها من سلطان مثل: الاحتكام إلى الذوق والوجدان الشخصي، لا إلى الشرع، في معرفة أحكامه! فليس من الضروري - عند بعضهم - أن يرجع الإنسان إلى حُكم ربّه، بل إلى حكم قلبه! يقول أحدهم مُعتزاً: «حدّثني قلبي عن ربي!» لأنّه يأخذ من فوق مباشرة! ولذلك لما قيل لأحدهم: تعال نقرأ «مصنّف عبد الرزّاق»، قال: ماذا يفعل بعبد الرزّاق من يأخذ عن الخلاق؟! يعني أنّه يأخذ مباشرة عن الله من غير وسائط!

وقال بعضهم: تأخذون علمكم ميتاً عن ميت، ونحن نأخذ عن الحيّ الذي لا يموت! مالك عن نافع عن ابن عمر! لقد مات هؤلاء. هذه السلسلة الذهبية - كما يسمونها - سلسلة صدئة عندهم، لا تنفع ولا تشفي.

ومن البدع التي جاؤوا بها: الحقيقة والشرعية، فأهل الشريعة ينظرون إلى الظواهر، أمّا أهل الحقيقة فهم يعرفون الأسرار والبواطن، ولذلك قالوا: «من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم»^(١). فالزاني والسكير وشارب الخمر، والظالم والطاغية الذي يُعذّبُ الناس، ويقتلهم بالمئات والآلاف، ويهدم مَدناً على أهلها؛ هؤلاء إذا نظرت إليهم بعين الشريعة تمقتهم، لأنّ الشريعة تمقت المنكر والظلم وأهله، ولكن إذا نظرت إليهم بعين الحقيقة تعذرهم، لأنّهم وإن كانوا لا ينفذون أمر الله، فهم ينفذون إرادة الله، لأنّ الله هو الذي أراد هذا: أقام العباد فيما أراد؛ تريد أن تنظّم مُلكه؟! بل دع الملك للمالك، وأترك الخلق للخالق! وهكذا آل أمر هذه البدعة إلى سلبية أمام الفساد وأمام

(١) انظر: مدارج السالكين (١٦٦/٣).

الطغيان، وسلبية في التربية، وسُلبت شخصية الإنسان بمقولات: المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل، من قال لشيخه: لِمَ؟ لا يفلح، من اعترض افترض، ومن باح راح، إلخ. ثم كم طريقة وطريقة في ذلك؟!

إنَّ الأُمَّة لو تركناها للبدع لا يمكن أن تجتمع أو يلتئم لها صفٌّ، إنَّما تجتمع لو وقفت خلف رسول الله ﷺ، واتَّبعَت المُحَكَّم من كتاب الله وسُنَّةِ رسوله. ثم لا مانع - بعد ذلك - أن تختلف في الفروع، فالاختلاف فيها لا يفسد الأخوة الإسلامية، ولا يمنع الوحدة الإسلامية؛ الصحابة اختلفوا في الفروع ولكنهم ظلُّوا إخوة، وظلُّوا مسلمين.

إنكار البدع ومحاربتها هو الذي حفظ الإسلام:

من أجل هذا كله - أيُّها الأخوة - كان الإنكار على البدع وعلى الابتداع، وكان هذا الإنكار هو الذي حفظ لنا جوهر الإسلام إلى اليوم، فلم يُمسحْ كما مُسِخت أديان أخرى.

صحيح أنَّ المسلمين ظهرت فيهم بدع كثيرة، وظهر فيهم مبتدعون، وظهر شياطين وأتباع شياطين، ورؤوس جُهَّال، يفتون الناس بغير علم فيُضِلُّون ويُضِلُّون، ولكن ظل هناك في كل عصر من يجدد لهذه الأُمَّة أمر دينها^(١)، ظل هناك رجال يُحيون السُّنن ويميتون البدع، ظل أمر السُّنَّة

(١) كما في حديث أبي هريرة: «إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩١)، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٢٢/٤)، وسكت عنه، ولكن نقل تصحيحه المناوي في فيض القدير (١٨٤٥)، فلعله سقط من المطبوع، وسكت عنه الذهبي. والمراد بتجديد الدِّين في الحديث: تجديد الفهم له، والإيمان والعمل به.

معروفًا على الأقل، ولم يحدث أن اجتمعت هذه الأمة على ضلالة^(١)، أو أقرت البدع، أو أصبحت جزءًا من دينها.

إنكار البدع إذن هو الذي حفظ لنا الأركان الأساسية: الصلاة ظلت خمسًا إلى اليوم بمواقيتها وكيفياتها؛ الصيام لم ينقل عن شهر رمضان كما فعل أهل الكتاب، وظلّ من الفجر إلى غروب الشمس؛ الحج ظل هو الحج؛ الزكاة ظلت هي الزكاة؛ الأصول الإسلامية ظلت كما هي رغم ما حدث من بدع ومن أهواء على توالي العصور.

الذي حفظ ذلك كله هو هذا المبدأ: أن البدع مرفوضة في نظر الإسلام. وأعتقد أن الإسلام بهذا كان دينًا عظيمًا ومنطقيًا، وافق كل ما يقوله المنطق الصحيح، فإذا رأينا في الناس من يأتي بعد أربعة عشر قرنًا من الزمان مضت على هذا الدين، ليكتب مقالة: «استنكار البدعة وكراهة الجديد، موقف إسلامي أم جاهلي؟» فماذا نقول له إذن؟!

وانظروا إلى عملية الدسّ في هذا العنوان: إنه يضيف إلى استنكار البدعة «كراهة الجديد»، سبحانه الله! من قال: إن استنكار البدعة يعني كراهة كل جديد؟! المسلمون - سواء كانوا سنيين أو مبتدعين - يستعملون الأشياء الجديدة، بل إن أشدّ الناس اتّباعًا للسنة قد بات يركب «السيارات»، ويستخدم «الهاتف»، ويستعمل «الميكروفون»، ويتنقل بـ«الطائرات»، لم يقل أحد منهم: ركوب الطائرة بدعة، وينبغي أن نركب الجمل كما كان يفعل النبي ﷺ.

(١) إشارة إلى حديث: «سألت ربي ﷻ أربعًا فأعطاني ثلاثًا ومنعني واحدة: سألت الله ﷻ ألاّ يجمع أمّتي على ضلالة فأعطانيها...». رواه أحمد (٢٧٢٢٤)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره. عن أبي بصرة الغفاري.

فما معنى إذن أن يقول كاتب: «استنكار البدعة وكرهاة الجديد، موقف إسلامي أم جاهلي؟» إنما هي عملية دسّ، وضحك على الناس. والشخص الذي كتب هذا يقول: إنَّ الإسلام نفسه كان بدعة بالنسبة للجاهلية، أي أمرًا جديدًا. ولو مشينا على هذا - أي استنكار البدعة - لاستنكرنا الإسلام كما استنكر الجاهليون الإسلام، لأنَّه كان شيئًا جديدًا.

سبحان الله! الجاهلية نفسها هي ابتداع، الذي صنع الجاهلية إنما هو الابتداع في الدين، لأنَّ أهلها حرَّفوا مِلَّةَ إبراهيم عليه السلام بما ابتدَعوا فيها. مِلَّةَ إبراهيم كانت حنيفيَّة، كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، ولكنهم أدخلوا في هذه المِلَّة الحنيفيَّة أشياء بالابتداع، وقصدوا بهذا طبعًا: المبالغة في التعبُّد. فهم حينما عبدوا الأصنام، لماذا عبدوها؟ قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]. وجماعة «الحمس» الذين أضافوا إلى الحج أشياء، لماذا أضافوها؟ قالوا: إننا لا يجوز أن نطوف بثيابنا لأننا عصينا الله بها، فطافوا بالبيت عراة!

فمفاسد الجاهلية وقذاراتها إنما صنعها في حقيقة الأمر «الابتداع» في الدين، الذي أنزل الله تبارك وتعالى به كتبه، وبعث به رسله، مبشرين ومنذرين؛ والإسلام إنما هو عودة إلى الأصل، إلى دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي المِلَّة التي دعا إليها إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

الحقيقة أنَّ ما كتبه هذا الكاتب كلّه مغالطات، ولكنني أحببت أن أرجع الأمور إلى جذورها، حتّى نتبيّن الموقف الصحيح من الشُّنَّة، ومن البدعة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بعض تحريفات كاتب المقال:

وإليكم شيئاً مما كتبه الكاتب - الذي أشرنا إليه - في المقالة المنشورة في مجلة «الدوحة».

يقول وهو يردُّ الأحاديث النبويَّة حتَّى ما رواه البخاري ومسلم منها، فينكر حديث: «إياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كل بدعة ضلالة...». كما ينكر الحديث النبوي: «لتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذرعًا بذراع، حتَّى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، أو لتبعتموه...»^(١).

ويدَّعي أنَّ ذلك مخالف للقرآن!

كيف يقول ذلك؟ كيف يكون مثل هذا الحديث مخالفًا للقرآن؟!

إنَّ ابن تيمية ألَّف كتابًا في هذا الأمر سمَّاه «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم» الصراط المستقيم الذي نسأل الله عَجَلًا يومئذ سبع عشرة مرَّة أن يهدينا إياه، بقراءة الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هذا الصراط يقتضي مخالفة أهل الجحيم المذكورين في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فأهل الجحيم هم المغضوب عليهم والضالون. فنحن لنا صراط، وهم لهم طرق أخرى. وقد جاء في الحديث: «المغضوبُ عليهم هم اليهود، والضالُّون هم النصارى»^(٢).

(١) سبق تخريجه ص ٥٨٨.

(٢) رواه أحمد (٢٠٧٣٦)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. وصحَّحه الألباني في الصحيحة

(٣٢٦٣) عن سمع النبي ﷺ.

صراطنا إذن غير طرقهم، فالقرآن جعل لنا طريقاً غير طرق هؤلاء ونهانا في آيات كثيرة أن نكون مثلهم، أو أن نفعل فعلهم كما قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ...﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وغير ذلك من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الكثيرة، التي يفيد مجموعها بيقين: بأن هذه الأمة متميزة، في شخصيتها، لا يجوز أن تكون ذنباً للأمم، وجاء في الأحاديث لفظة «خالفوهم»، وتكررت في أكثر من موضع.

من هنا جاء استقلال شخصية الأمة الإسلامية، وتميزها عن سواها - سواء في المظهر والمخبر - فلا نتبع سنتهم ولا نتخلق بأخلاقهم أو نتعود بعاداتهم وتقاليدهم، فتكون لنا هي النهج الأمثل؛ بل ينبغي أن تكون لنا شخصيتنا، لأنَّ أُمَّتَنَا الإسلامية هي الأُمَّة الوسط، الشهيدة على الناس، لنا مكانة الأستاذية بالنسبة إلى الأمم. نحن خير أمة أخرجت للناس، فكيف نتبع غيرنا؟!

والرسول ﷺ يريد أن يغرس فينا هذه المعاني من الاعتزاز بالشخصية والتميز والاستقلال، ولا يريد منا أن نكون ذيولاً وأتباعاً لغيرنا، ولذلك جاء هذا الحديث، وهو - وإن كان خبراً - إلا أنه يحمل معنى التحذير: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ، شَبْرًا بِشْبِرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»^(١). أي لو دخلوا جحر ضبٍّ، وكان جحر الضب «موضة» من «الموضات» سرنا وراءهم، فإذا أطالوا سؤالهم، أطال شبابنا سؤالهم، وإذا صاروا خفافس، صار شبابنا مثلهم! فأين تكون شخصيتنا المتميزة المستقلة أمام هذا التقليد الأعمى؟ هل ينسلخ المرء من دينه وشخصيته الإسلامية ليتبع غيره على ضلالة؟

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)، عن أبي

سعيد الخدري.

وكيف يقال بأن هذا الحديث مخالف للقرآن؟ والنبى ﷺ حين سئل: مَنْ يا رسول الله؟ اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ؟»^(١).

أليس من المؤسف أن يصبح أساتذتنا هم النصارى واليهود؟! إننا ننفذ ما كُتِبَ في «بروتوكولات حكماء صهيون» - سواء صحّت نسبتها إليهم أم لم تصح - وما أرادته هؤلاء غدونا ننفذه من حيث نشعر أو لا نشعر، حتّى أصبحنا طوع أيديهم.

إنّ ذلك الكاتب ينكر على المسلمين أن يرجعوا إلى طريقة النبى ﷺ والصحابة وأسلوب حياتهم. وعجباً لذلك! هل اتّباع النبى ﷺ وأصحابه في أسلوب حياتهم يستدعي الإنكار؟! إنّنا نأخذ (بمنهج) حياته ﷺ، وحياة أصحابه من بعده، في حسن تطبيق الدين وفهمه، والعمل بمقتضاه، والحرص على أصوله، والاهتمام بجوهره، والعناية بأمور الحياة والتطوير فيها، وهذا هو المقصود بالاتباع.

ثم يقول الكاتب: «غير أنني أنظر فأرى من بين الأحاديث الشريفة ما يذهب إلى أنّ العلماء هم ورثة الأنبياء، وأفهم من هذا الحديث أنّ على وارث التركة واجباً خلقياً، يحتم عليه رعاية التركة وإنماؤها، فعلى ورثة الأنبياء أن يرعوا التراث الروحي الذي خلفوه وأن يُنمّوه. وكما أن من حقّ وارث حانوتي أريب - بل من واجبه - أن يسعى إلى أن يوسّعه ويضيف إليه فيزيد من أنواع السلع المعروضة فيه، ويستبدل سلعة رائجة بسلع قد كسدت وفتّر الطلب عليها، مراعاة منه لأحوال السوق؛ كذلك على العلماء، ما يشبه ذلك بما يتصل فيما ورثوه».

(١) جزء من الحديث السابق.



يعني الكاتب: أن على العلماء، أن يزيدوا في الدين ويوسعوا ويضيفوا ويبتدعوا! فبالله، هل هذا منطق؟ وهل هذا كلام مقبول أو معقول: أن تقاس تعاليم الدين على بضائع الدكاكين؟!

ثم يقول: «بيد أن معظم علماء المسلمين لا يرون توسعاً أو إضافة، ولا يأخذون إلا بالتقليد الأعمى والجحود الباطل، مستندين في تبريرهم قفل باب الاجتهاد إلى عظمة شأن الإسلام في عصره الأول».

سبحان الله! إن إقفال باب الاجتهاد هو نفسه بدعة؛ لأنه ابتداع لم يقله النبي ﷺ ولا فعله الصحابة، وإنما هو ابتداع من العصور المتأخرة. إنه لا يملك أحد أن يغلق باب الاجتهاد الذي فتحه الله ورسوله ﷺ.

أمور الدنيا، يمكن أن تزيد فيها وتوسع، أمّا أمور الدين، فلا يجوز الزيادة فيها أو النقص منها؛ لأن ذلك - كما قلنا - استدراك على الله، واتهام الدين بالنقص إلخ.

فما معنى أن توسّع في الدين إذن؟! إن الكامل لا يقبل الزيادة، وقد قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].





حديث «إنما الأعمال بالنيات»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،
سيّدنا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسُنّته،
وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أُحييكم به - أيّها الإخوة - تحيّة الإسلام، وتحية الإسلام
السّلام، فالسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(أمّا بعد)

فقد أخرج البخاري ومسلم، عن أمير المؤمنين عمر بن
الخطّاب رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكلّ
امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دُنيا يُصيبها، أو إلى امرأةٍ يَنكِحُها،
فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١). صدق رسول الله صلّى الله عليه وآله.

كنا نعيش في ندوات ودروس السنة الماضية في رحاب القرآن
الكريم، ونحاول في لقاءاتنا في هذا العام - إنّ شاء الله - أن نعيش في

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

رحاب السُّنَّة المطَّهرة، والقرآن والسُّنَّة هما المصدران الأساسيان لعقيدة الإسلام، وشرعية الإسلام، وتوجيه الإسلام، وقيم الإسلام، كلُّ منهما أساس لحياة الإنسان المسلم، والمجتمع المسلم.

وبدأنا من هذا الحديث الذي بدأ به الإمام البخاري جامعہ الصحيح، وبدأ به كثير من المؤلفين في الحديث كتبهم، الحديث الذي ذكره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».

سبب ورود الحديث:

ذكروا أَنَّ لهذا الحديث سببًا، وهو أَنَّ بعض الناس كانوا يهاجرون من مكة إلى المدينة ابتغاء عَرَضٍ دنيوي؛ يريد أن يكسب مالًا، أو يريد أن يتزوَّج امرأة؛ فيهاجر من أجل هذا العرض، أو هذا الغرض، وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يُمَحِّصُوا هجرتهم لله، أن تكون هجرتهم من مسقط رؤوسهم من مكة إلى المدينة هجرةً لله ورسوله، غير مشوبة، ولا مخلوطة بباعثٍ من البواعث الماديَّة التي تُداخل أنفس الناس.

ذكر ابن مسعود أَنَّ رجلاً أحبَّ امرأةً فهاجرت، واشترطت عليه - لكي يتزوجها - أن يهاجر، فهاجر وراءها من أجلها، وكانت المرأة تُسمَّى أم قيس، فكان الصحابة يسمونه مهاجر أم قيس^(١)، هاجر من أجل المرأة، لا من أجل الله.

(١) رواه الطبراني (١٠٣/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٨٠): رجاله رجال الصحيح. وقال ابن حجر في فتح الباري (١٠/١): إسناده صحيح على شرط الشيخين. عن ابن مسعود.

توجيه عام:

وكان النبي ﷺ سيد المرّبين، إذا أراد أن يوجّه إنساناً لم يُشهرّ به، لم يفضحه على ملاء من الناس، وإنّما يلقي توجيهاً عاماً يفهم منه صاحب المشكلة أنّه المقصود، دون أن يُجرّح شعوره، ودون أن تُهان كرامته، هكذا كان أسلوبه ﷺ في التربية، يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا، وكذا. والذي فعل كذا هو شخص واحد، وكلّ لبّيب بالإشارة يفهم.

وهنا هاجر مَنْ هاجر لأجل المرأة، ولكن النبي ﷺ ألقى فيهم هذا التوجيه العام، الاهتمام بأمر النية، أن يكون شأن الإنسان المسلم أن يُجرّد نيّته لله، أن يحدّد غايته، وأن يجعل رضوان الله غايته، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، وأن يوجّه قوله وعمله، وحركته وسكونه، وغدواته وروحاته لله، ﴿قُلْ إِن صَلَائِي وَمَنُاسِكِي وَمَمَائِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له، ﴿وَبِذَلِكَ أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

اهتمام العلماء بالحديث:

ولأهمية هذا الحديث جعله الإمام البخاري أول حديث في جامعه الصحيح - واقتدى به كثير من الأئمة - ليشير إلى أنّ النية هي التي يجب تقديم العناية بها، صحّح نيّتك قبل أي شيء.

قد تعمل الكثير والكثير، ولكن إذا كنت فاسد النية، خبيث الطوية، فإنّ عملك مردود عليك، غير مقبول منك، كما تُرد العملة الزائفة أمام الصيرفي البصير، لا يقبلها منك، قد تروج عند العامّة، وعند مَنْ لا يعرفون الصحيح من الزائف، ولكن الصيرفي الناقد البصير يعرف الصحيح من غير الصحيح، والله لا يروج عنده الزائف، ولذلك كان لا بدّ

من تصحيح النية، أن يُقَوِّمَ العمل بالنية، «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، فقَوِّمَ العمل بالنية، كما نقول: إِنَّمَا البناء بالأساس. كذلك العمل بالنية، النية أساس العمل.

ولذلك عُنِيَ الْمُحَدِّثُونَ وعلماء السُّنَّة بهذا الحديث، فاعتبره بعضهم ربع الإسلام، واعتبره بعضهم ثلث الإسلام، رُوِيَ ذلك عن عدد من الأئمة، كالشافعي، وابن مهدي، وابن حنبل، وابن المديني، وغيرهم، منهم مَنْ قال: هو ربع الإسلام. ومنهم مَنْ قال: هو ثلث الإسلام. منهم مَنْ قال: هو ثلث العلم^(١). ثلث السُّنَّة، لأنَّ الإسلام إِنَّمَا يقوم بالقول، والعمل، والنية، وإذا أردت التعبير تقول: الإنسان هو اللسان، والجوارح، والقلب. وأهم عمل لهذه الثلاثة هو عمل القلب؛ لأنَّه لا قيمة لعمل اللسان أو الجارحة إن لم يكن وراءه قلب سليم، ومعيَّار عمل القلب هو النية، ولذلك كانت النية أَرْجَحَ هذه الثلاثة.

وَرُوِيَ عن الإمام أحمد أنَّ هذا الحديث ثلث العلم، يقصد أنَّ هناك حديثين آخرين يمثلان الثلثين الباقيين من السُّنَّة، الحديث الأول: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ»^(٢). اعتبر حديث النية ميزان الباطن، واعتبر هذا الحديث ميزان الظاهر، وأمَّا الحديث الثاني الذي يمثل الثلث

(١) قال الحافظ ابن حجر: قد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث، قال أبو عبد الله: ليس في أخبار النبي ﷺ، شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث. واتفق عبد الرحمن بن مهدي، والشافعي - فيما نقله البوطي عنه - وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، وأبو داود، والترمذي، والدارقطني، وحمزة الكناي، على أنَّه ثلث الإسلام، ومنهم مَنْ قال: ربه. قال ابن مهدي: يدخل في ثلاثين بابًا من العلم. وقال: ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب. وقال الشافعي: يدخل في ستين بابًا. فتح الباري (١١/١).

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، عن عائشة.

الباقى فهو حديث النعمان بن بشير المعروف: «الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما مُشْتَبِهَات»^(١).

وجاء عن الإمام الشافعي أنَّ حديث «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» يدخل في سبعين باباً من العلم^(٢)، يعني في الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، إلى آخره، أشياء كثيرة جداً تدخل فيها النية، فالنية أمر مهم جداً.

النية محلها القلب:

وأحبُّ أنْ أنبّه هنا أنَّ النية ليست كلاماً يقال، النية عقد القلب على الفعل، تصميم على العمل، فليست النية كلاماً يقال باللسان كما يفعل بعض الناس للأسف، يقول أحدهم: نويت أصلي فرض العشاء عليّ لله العظيم جماعةً، مستقبلاً القبلة! هذه ليست نية، ولم ترد عن النبي ﷺ، ولم تؤثر عن أصحابه، ولا عن التابعين لهم بإحسان، ولا عن أحد من الأئمة المعروفين، إنما النية أن تستحضر في قلبك أن تصلي العشاء، فلو سألك سائل: ماذا تصلي؟ تقول: أصلي العشاء. المهم أن يكون عملك لله، صلاتك لله، تؤدي هذا العمل لله، لا رياءً، ولا شيئاً من هذا.

النية في مجال الفرائض:

من الأعمال التي يأتيها الإنسان: العبادات، والمباحات، والمحرمات، أمّا العبادات والطاعات فلا بدّ فيها من النية حتى تُقبل؛ لأنك قد تؤدي صورة العبادة ولكنها خالية من الروح، فهناك لا تُقبل منك العبادة، فلا بدّ لكل عبادة من نية.

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

(٢) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص ١١، نشر دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.



والأصل في الفرائض أنها تؤدَّى على الملاء؛ لأنَّه في الغالب لا يدخل الرياء في أداء الفرائض، ربما أصبح الناس في عصرنا يراؤون بأداء الفرائض، لكن في العصور السابقة لم يكن أحد يرائي بأداء الفريضة، لأنَّ هذا هو الحد الأدنى الذي يُقبل من المسلم، لكن قد يرائي بأنه قام يتهجَّد قبل الفجر بساعة أو ساعتين، أو أنَّه ييسط يده بعد أداء الزكاة بالعطاء والإنفاق، أمَّا أن يرائي بما هو مفروض عليه فلا مجال لهذا في الحقيقة.

بالعكس هو مطلوب منه أن يجهر بأداء هذه الفرائض، يصلي علناً حتى يشهد الناس له بأنه من أهل الإيمان، «إذا رأيتُ الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»^(١)، وكذلك ينبغي أن يؤدِّي الزكاة علناً حتى يشهد الناس له أنَّه من أهل الزكاة، حتى لا يسيء الظن به أحد، ويقتدي الآخرون به، وهكذا.

يجب إذن أن تتوفر في الطاعات نيَّة الإخلاص لله وَعَلَى، لكل طاعة نيَّة، ومعنى النيَّة هنا أن يقصد بطاعته وجه الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]. فإخلاص النيَّة هو المقصود في الطاعات، فلا بد للطاعة من النيَّة لأنَّه لا تُقبل طاعة بغير نيَّة.

النية في مجال المباحات:

أمَّا المباحات فالنيَّة تُحوِّلها إلى عبادات وطاعات، يمكن أن تتحوَّل الأمور العادية التي يفعلها الناس في حياتهم إلى قربى لله سُبْحَانَهُ، فأكلك

(١) رواه أحمد (١١٦٥١)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في الإيمان (٢٦١٧)، وقال:

غريب حسن. وابن ماجه في المساجد والجماعات (٨٠٢)، وابن خزيمة في الإمامة (١٥٠٢)،

وابن حبان في الصلاة (١٧٢١)، عن أبي سعيد الخدري.

وشربك، وبيعك وشراؤك، وزراعتك، وصناعتك، وتجارتك، ووظيفتك، يمكن أن تكون كلها عبادة وقربى لله وَعَجَّلْ، إذا صحَّت فيها النية.

ومعنى صحة النية في عملك أنك تسعى إلى معاشك لتعف نفسك، وتستغني عن سؤال الناس، وتعود على أسرتك بما يعفها ويغنيها، ويفضل منك شيء فتجود به على المسلمين، وتساهم في تقوية أمتك الإسلامية، بدل أن تعيش عالّة على غيرها، فأنت تنتج لها لتغنيها.

لو عملت بهذه النية تصبح زراعتك، وصناعتك، وتجارتك عبادة لله، ففي الحديث: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمة، إلّا كان له به صدقة»^(١). وفي الحديث: «ما أكل أحدٌ طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»^(٢). كان سيّدنا داود يشتغل حداثًا يعمل دروعًا للحروب.

لو عملت هذا استجابة لنداء الله، ونداء رسوله، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، ﴿فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، كان عملك الدنيوي طاعة وعبادة، إذا كان الطالب يذاكر، ويجتهد في دروسه ليحصل العلم النافع، وينفع نفسه، وينفع أسرته، وينفع أمته، ويكون عضوًا عاملًا منتجًا في جسم الأمة الإسلامية؛ فإنّ مذاكرته واجتهاده تكون عبادة وطاعة.

بل أكثر من ذلك؛ يمكن أن تصبح الشهوات نفسها طاعة وعبادة، كما في الحديث أنّ النبي ﷺ قال: «إنّ بكلّ تسبيحة صدقة، وكلّ تكبيرة صدقة، وكلّ تحميدة صدقة، وكلّ تهليلة صدقة، وأمر

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المزارعة (٢٣٢٠)، ومسلم في المساقاة (١٥٥٣)، عن أنس.

(٢) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، عن المقدم بن معد يكرب.

بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»^(١). وزاد البيهقي: «أتحتسبون بالشر، ولا تحتسبون بالخير؟»^(٢) فحتى إتيان الرجل زوجته يحصل منه الأجر، حتى هذه الشهوات المباحة يحصل منها الأجر، ما دام المسلم في النهاية صادق الإسلام يصبح عمله كله لله ﷻ، فهذا جانب العادات والمباحات تؤثر فيه النية فتجعله عبادات.

النية في مجال المحرمات:

وهناك قسم لا تؤثر فيه النية، وهو قسم المعاصي والمحرمات، لا تنقلب المعاصي ولا المحرمات إلى طاعات بالنية أبدًا، فلا يجوز للإنسان أن يكتسب المال الحرام - مثلاً - ليبني به مسجدًا، لأن هذا كمن يطهر النجاسة بالبول.

كذلك لا يصلح أن تجمع المال الحرام لتصدق به، أو لتعمل به مشروعًا خيريًا، فالنبي ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»^(٣). الطيب من الأقوال، ومن الأفعال، ومن المكاسب، ومن الأموال، ومن الناس، فلا يقبل الله المكاسب الخبيثة حتى وإن قصدت بها الخير.

وَمُطْعِمَةُ الْإِيْتَامِ مِنْ كَدِّ فَرْجِهَا فَلَيْتَكَ لَمْ تَزْنِ وَلَمْ تَصَدَّقْ^(٤)

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٢١٤٧٣)، عن أبي ذر.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٢١٣).

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، عن أبي هريرة.

(٤) ذكره من غير نسبة المقرئ في المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٢٧٦/٤)، نشر دار

الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

فالصدقة من حرام مردودة على صاحبها، «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ؛ إِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ»^(١)، كما قال النبي ﷺ.

ولذلك فالإسلام ليس من المبادئ التي ترى تبرير الغاية الشريفة بالوسيلة غير الشريفة، أن يقول أحدهم: لا مانع أن أخوض في الحرام ما دمت في النهاية سأفعل الخير. لا؛ بل يريد الإسلام الغاية الشريفة، والوسيلة الشريفة، لا بد أن تسلك إلى الغاية الشريفة بالوسيلة النظيفة، ولا يجوز أن تصل إلى الحق بطريق الباطل، من أجل هذا لا تؤثر النية الحسنة في جانب المحرمات، إنما تؤثر في جانب العبادات، وجانب المباحات.

فضل النية وآثارها:

للنية الحسنة أثر كبير جدًا، حتى إن الإنسان يعمل العمل الناقص فيكمله الله له بسبب النية الصالحة، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]. يعطيه الله له ثواب الهجرة مع أنه لم يكملها، لأنه خرج مهاجرًا بنيته في سبيل الله.

وقد يقع العمل خطأ فتصححه النية الصادقة، كما ورد في صحيح البخاري: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: لَا تَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فِي

(١) رواه أحمد (٣٦٧٢)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. والبزار (٢٠٢٦)، والحاكم في الإيمان (٣٣/١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي. وقال الذهبي في الميزان (٣٠٦/٢): في ترجمة (الصباح بن محمد) رفع حديثين هما من قول عبد الله، أي ابن مسعود، أحدهما هذا الحديث. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٦٢٥)، عن ابن مسعود.

الليل، في جنح الظلام، حتى لا يراه أحد، كان صادق النية، يريد البعد عن الرياء والسمعة، خرج تحت ستار الظلام «فوضعها في يد سارق» فظنَّ أول إنسان قابله فقيرًا، فأعطاه صدقة، «فأصبح الناس يتحدَّثون: تُصَدِّقُ الليلةَ على سارقٍ». أخذوا يتحدَّثون: تصوَّروا خرج أحد الطيبين ليعطي صدقة فوقعت في يد فلان السارق. فعرف أنَّه هو الذي وقع في هذا الخطأ، «فقال: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، على سارقٍ»!

ثم خرج في الليلة الثانية ليتصدَّق «فوضعها في يدي زانية» قابلته امرأة فأعطاه الصدقة في السرِّ، «فأصبح» الناس في اليوم التالي «يتحدَّثون: تُصَدِّقُ الليلةَ على زانية! فقال: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ على زانية، لَأَتَصَدَّقَنَّ الليلةَ بِصَدَقَةٍ».

لم يمنعه الخطأ في الليلتين أن يتصدَّق، «فخرج» في الليلة الثالثة «بصدقته، فوضعها في يدي غني» قابله رجل فأعطاه الصدقة، «فأصبحوا يتحدَّثون: تُصَدِّقُ الليلةَ على غنيٍّ. فقال: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ على سارقٍ، وعلى زانية، وعلى غنيٍّ».

وظنَّ الرجل أنَّ صدقاته في الليالي الثلاث لم تقع موقعها، ولم توضع موضعها، ولم تحظ بالقبول، فنام «فأتي» في نومه «ف قيل له: أمَّا صدقتك على سارقٍ فلعلَّه أن يستعِفَّ عن سرِّقته». لعلَّ المبلغ الذي أعطيته إيَّاه في السرِّ يجعله يدبر أمره بالحلال؛ «وأمَّا الزَّانيةُ فلعلَّها أن تستعِفَّ عن زناها»، لعلَّ الذي دفعها إلى الزنا الحاجة، ثم سددت حاجتها بصدقتك؛ «وأمَّا الغنيُّ فلعلَّه أن يعتبرَ فينفقُ ممَّا أعطاه الله»^(١)، إذا كان هو شحيحًا بما في يده، وعرف أنَّ هناك مَنْ يبذل في الخفاء، فلعلَّ هذا يكون حافزًا له على

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

البذل والعطاء. فبركة النية لم تجعل هذا العطاء يضيع سُدى، أو يذهب عبثاً، وكان له أثره الطيب، فالنية هي التي صَحَّحت الخطأ.

بل قد لا يعمل الإنسان العمل الصالح، ولكن يُكتب له بنيته الصالحة، وقد ورد في الصحيح أَنَّ النبي ﷺ قال في غزوة تبوك: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ». قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حَبَسَهُم الْعَذْرُ»^(١).

قطع الصحابة الفياضي والقفار في شدة الهجير والحر، حتى كان المنافقون يقولون: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]. أيام غزو العسرة، من المدينة إلى تبوك، مسافات شاسعة، على الرمال، وفي القيظ، في الصحراء الملتهبة، وهناك أناس في المدينة بين أهلهم، وفي بيوتهم، شاركوا الصحابة في الأجر؛ «حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ»، كانوا يتمنون أن يكونوا مع النبي ﷺ، وذهبوا إليه، وأرادوا أن يحملهم معه، فلم يجد لهم ركائب، فرجعوا حزانى يكون، كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿[التوبة: ٩١، ٩٢]. فهو لاء كُتِبَ لهم أجر الجهاد وهم في بيوتهم.

وورد في الحديث أَنَّ بعض الناس تُكتب له الشهادة وهو في بيته، ففي صحيح مسلم: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصَدَقَ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فَرَّاشِهِ»^(٢). انظر إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقد اشترك في

(١) رواه البخاري في المغازي (٤٤٢٣)، وأحمد (١٢٠٠٩)، عن أنس.

(٢) رواه مسلم في الإمامة (١٩٠٩)، وأبوداود في الصلاة (١٥٢٠)، عن سهل بن حنيف.

تلك الغزوات المظفرة في عهد الرسول، وفي عهد الخلفاء، ثم مات على فراشه، ألا يُكتب له أجر الشهيد؟ يكتب له إن شاء الله، بينما يقول الحديث الآخر: «وَرُبَّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفَيْنِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ»^(١). يُقتل إنسان بين الصَّفَيْنِ بأيدي المشركين والكفار وليس شهيداً، ويموت إنسان آخر على فراشه وهو في عداد الشهداء، فالمدار كله على النية.

وورد عن النبي ﷺ: «مَنْ أَتَى فَرَّاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يَصَلِّيَ مِنَ اللَّيْلِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ، كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَحَسَنًا»^(٢). كان ينوي أن يقوم في الليل ليصلي، أو كان معتاداً على القيام، فكان في ليلة مُتَعَبًا فلم يستيقظ إلا بعد الفجر، التهجد الذي كان ينوي أن يفعله يُكتب له، والنوم صدقة عليه من الله، علاوة سماوية جاءت من الله، فإذا أصاب المسلم مرض أقعده عن خير كان يقوم به في صحته، يُكتب له ما كان يفعله من خير وهو صحيح، وهذا من بركات النية الصالحة.

وروى الترمذي عن أبي كبشة الأنماري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَفْضَلِ»، والعلم هنا ليس شهادة، بل هو بصيرة، نور يقذفه الله في قلبه، يعلم به أن المال مال الله، وأن خير المال هو ما يُنْفَقَ في طاعة الله ﷻ، ولا يُبْخَلُ به عن حق، فوصل به رحمته، وأدى حق الله فيه، فهذا بأفضل المنازل.

(١) رواه أحمد (٣٧٧٢)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وقال الحافظ في فتح الباري (١٠/١٩٤): رجال سنده موثقون. عن ابن مسعود.

(٢) رواه النسائي في قيام الليل (١٧٨٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٤)، وابن خزيمة في الصلاة (١١٧٢)، وابن حبان في قيام الليل (٢٥٨٨)، وقال الأرناؤوط: إسناده جيد. وصحّحه الألباني في الإرواء (٤٥٤). عن أبي الدرداء.

«وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملتُ بعمل فلان فهو بنيته، فأجرهما سواء»، كنت أبني المساجد كما يبني وأساعد المجاهدين في سبيل الله كما أعطي، وأصل أرحامي كما يفعل، وأجود على الجيران والمحتاجين بالخير كما يفعل، وأفعل كذا، وكذا؛ عاش بهذا الأمانة، وبهذه النية، وعلم الله صدق نيته، فهما في الأجر سواء، يستوي في الأجر، هو وصاحب الألف أو الملايين التي يبذلها في سبيل الله.

«وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم الله فيه حقه، فهذا بأخبث المنازل»، رجل عنده ألف أو ملايين، ولكنه لم يؤت عقلاً، ولا نور بصيرة، فلم يعلم أن الله في ماله حقاً، ولم يصل به رحمًا، ولم يؤدّ لله به حقاً، بخل به عن الحق، وأنفقه في الباطل، ومصيبة المال: أن يؤخذ من غير حِلِّه، وأن يُنفق في غير حقه، وأن يُبخل به عن حقه. والشر كله من هذه الثلاثة نبع، فهذا الرجل فهم أن المال للأناية فقط، لمنافعه وشهواته، وليس لله ولا للناس فيه نصيب، فكان منزله أخبث المنازل.

«وعبد لم يرزقه الله مالاً، ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مال لعملتُ بعمل فلان» قال: «هي نيته، فوزرهما فيه سواء»^(١). تمنى أن لو كان لديه مال لعمل مثلما عمل فلان، أشرب الخمر، وأعاقر النساء في غير الحلال، وأفعل كذا، وكذا، هو لم يفعل شيئاً، ولكنه عاش بهذه النية، وبهذه الأمانى الخبيثة، فعلم الله حقيقة نيته فاستوى في الوزر مع هذا الرجل، وحُقَّ فيه وصف «الخائب النائب»، الذي لم ينل شيئاً مما اشتهى

(١) رواه أحمد (١٨٠٣١)، وقال مخرّجوه: حديث حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٢٥)، وقال: حسن صحيح. وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٣٥).

من ملذات، ولكنه عاش في هذه الأماني الباطلة، عاش بهذه النية الخبيثة، يتحرّق شوقاً لأن يعمل مثل فلان سيء المسلك، فخر دينه ودنياه، اجتمع عليه فقر الدنيا، وشقاء الآخرة، والعياذ بالله.

الشاهد من هذا الحديث: هو الصنف الثاني، والصنف الرابع؛ حيث أخذ الصنف الثاني نفس أجر الصنف الأول، «فأجرهما سواء»، وأخذ الصنف الرابع نفس وزر الصنف الثالث، «فوزرهما سواء». وهذا حديث حسن صحيح، كما قال الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللهُ.

إذاً يمكن أن تعطي النية الإنسان أعمالاً لم يعملها من الخيرات والحسنات، ويمكن أيضاً أن تراكم عليه أعمالاً لم يعملها من الشرور والسيئات إذا كان ينوي أن يفعله.

أمّا إذا كانت مجرد خواطر عارضة، تطير ولا تستقر، مجرد أحاديث نفس لم تصل إلى درجة العزم، فهذه يعفو الله تعالى بفضلها عنها، كما جاء في صحيح مسلم: «إِنَّ اللَّهَ وَجَلَّ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ»^(١). فأحاديث النفس في دائرة العفو؛ إلا إذا خرجت إلى حيز التنفيذ بعمل أو كلام، فهذا من فضل الله وَجَلَّ.

لكن حين يصبح العمل أكثر من مجرد خاطرة، أو حديث نفس، حينما يكون عزمًا وتصميمًا ونيةً يُكتب على الإنسان، كما في الحديث الصحيح عن أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، فقلت: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول قال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (١٢٧)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠٨٣)، ومسلم (٢٨٨٨)، كلاهما في الفتن.

المقتول في النار؛ لأنّه كان ينوي قتل القاتل، لكن يد القاتل سبقته إلى ذلك فقتلته، فكلّ منهما دخل المعركة وهو ينوي قتل الآخر، ولذلك كان كلاهما في النار، والعياذ بالله.

دوام استحضر النية وتحريرها من الشرور:

النية إذن مسألة في غاية الأهميّة، ومن هنا ينبغي على المسلم أن يحرّر نيّته من الشرور، ينوي الخير دائماً، إذا لم يستطع أن يفعل الخير فليُنوّه، لأنّه بنيّة الخير يكون في خير دائم، وعليه أن يحذر من نيّة الشر، من نيّة المعصية، أن يفتش عن خبيّة نفسه، ليعرف ماذا ينوي؟ ويحاول دائماً أن يستحضر النية الصالحة، نيّة العبادة، ونيّة الجهاد.

وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق»^(١). فإذا لم يستطع أن يغزو أو يجاهد فعلى الأقل يحدث نفسه بالجهاد، يضطّحّب نيّة الجهاد، يحدث نفسه أن يدخل معركة مع الصهاينة، أو غيرهم من أعداء الإسلام والمسلمين، فحتى وإن لم تتح له هذه الفرصة لكن وجود هذه النية، واستحضر هذا الأمر في نفسه، واشتغاله به، وتفكيره فيه يخرجّه من النفاق.

أمّا الإنسان الذي لا يخطر هذا الأمر على باله، يعيش لنفسه فقط، ولمصالحه فقط، ولدنياه فقط، ولأولاده فقط، ولا يفكر في أمّته، ولا يفكر في دينه، فيخشى أن يموت على شعبة من النفاق.

من هنا كان أمر النية مهمّاً غاية الأهمية، حتى كان بعض السلف إذا قيل له مثلاً: تفضل لزيارتنا. فيقول: لا، فلم أعد لذلك نيّة. لأنّه لو زار

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٠)، وأحمد (٨٨٦٥)، عن أبي هريرة.



أخاه بنيّة تصبح هذه الزيارة عبادة، وتكون كل خطوة يخطوها إليها طاعة لله وَعَلَيْهِ، فهناك فرق بين أن يخرج من بيته ليزور أخاه في الله وأن تأتية الزيارة فجأة، ولم يعد لها نيّة، ولذلك قيل لبعضهم: افعل كذا. فقال: لا. ثم بعد لحظات قال له: نعم. فقليل له: لماذا رفضت قبل قليل، ثم قبلت؟! قال له: لم تكن لي نيّة، أمّا الآن فنعم؛ قذف الله في قلبي نيّة لهذا الأمر. فهكذا كانوا يحبون أن يعملوا كل ما فيه خير بنيّة، «إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى». إذا نوى الخير كانت عاقبته خيرًا، وإذا نوى الشر كانت عاقبته شرًا، «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

الرحلة من مكّة إلى المدينة في الحالتين رحلة واحدة، لكن يقطعها أحدهم فتكون له هجرة، جهادًا في سبيل الله، تنقله إلى مرتبة المهاجرين في سبيل الله، وما أعظم مرتبتهم، ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجَرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وآخر يقطع هذه المسافة ويتعب فيها، ولكن لا يكتب من أهل الهجرة، فقد هاجر لشيء آخر، لدنيا يصيبها، لتجارة يشتغل بها، لامرأة أحبّها فذهب وراءها ليتزوّجها، «فهجرته إلى ما هاجر إليه»، فلتكن هجرتنا إلى الله ورسوله، لتكن نيّتنا لله وَعَلَيْهِ، ولنُصَفِّ قلوبنا، ولنخلّص سرائرنا من شوائب الشُّرك الدنيوي، ولنجعل أقوالنا وأعمالنا، وحركاتنا وسكناتنا لله وَعَلَيْهِ، ﴿قُلْ إِن صَلَائِي وَمُسْكِي وَحَيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].



نسأل الله عَجَلُ أَنْ يرزقنا صدق النية، وإخلاص العمل، وأن يوفّقنا إلى ما يُحبُّ ويرضى، وأن يجعل عامنا هذا عام خير وبركة، وأن يجعل يومنا خيرًا من أمسنا، ويجعل غدنا خيرًا من يومنا، ويحسن عاقبتنا في الأمور كلّها، ويُجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم آمين.

وصلّ اللهم على سيّدنا محمد، وآله وصحبه وسلّم.

* * *





حديث جبريل عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،
سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسُنَّته،
وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أحييكم به - أيُّها الإخوة - تحية الإسلام، وتحية الإسلام
السَّلام، فالسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(أما بعد)

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده إلى أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب رضي الله عنه، قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا
رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب، شديدُ سوادِ الشعر، لا يُرى عليه أثرُ السَّفر،
ولا يعرفه منّا أحد، حتَّى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه،
ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا مُحَمَّد، أخبرني عن الإسلام. فقال
رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «الإسلام أنْ تشهدَ أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا
رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ
البيتَ إن استطعتَ إليه سبيلاً». قال: صدقت. قال: فعجبنا له؛ يسأله

ويُصدِّقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أَنْ تَوْمَنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَوْمَنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قال: فأخبرني عن أمارتها. قال: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبَنِيَانِ». قال: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عَمْرُؤُ، أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١). صدق رسول الله ﷺ.

حديث جامع:

هذا هو الحديث الثاني من الأحاديث التي جمعها الإمام النووي في رسالته المعروفة بـ«الأربعين حديثاً النووية»، وجمعها الإمام ابن رجب في كتابه «الخمسين حديثاً الرجبية».

وهو حديث جامع من أعظم الأحاديث التي وردت في السُّنَّة، لاشتماله على معرفة الإسلام، والإيمان، والإحسان، وكما قال النبي ﷺ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». فكأنَّ في هذا الحديث تعليم خلاصة الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ، وأنزل به القرآن.

سبب ورود الحديث:

والسبب في هذا الحديث أَنَّ بعض الصحابة - وخصوصاً مَنْ دخلوا حديثاً في الإسلام - كانوا يكثرون على النبي ﷺ بالأسئلة، وأحياناً تكون كثرة الأسئلة دليلاً على عدم الفقه، بعض الأسئلة لا معنى لها، كان خيراً

(١) رواه مسلم في الإيمان (٨)، وأبو داود في السُّنَّة (٤٦٩٥).

منها السكوت عنها، كأسئلة بني إسرائيل في البقرة، أمرهم الله أن يذبحوا بقرة، آية بقرة، فكان يكفيهم عن السؤال أن يذهبوا إلى بقرة من الأبقار ويذبحوها، ولكنهم بطريقتهم العقلية المعقدة ظلوا يسألون: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: ٦٨]، ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ نُهَا﴾ [البقرة: ٦٩]، ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]. وهكذا أخذوا يسألون، وكل سؤال يحتاج إلى جواب وتحديد وتفصيل، والتفصيل يعني التضييق والتشديد عليهم، شددوا فشدد الله عليهم.

هذا النوع من الأسئلة لا يستحب أن يسأل، ولذلك قال النبي ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم»^(١). فلا داعي أن تسأل عن شيء قد يترتب عليه تشديد عليك، ولذلك يقول القرآن: ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُوهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْءَانُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١، ١٠٢].

وجاء في الحديث: «إن من أعظم الناس جرماً من سأل عن شيء لم يُحَرِّم فحَرِّم من أجل مسأله»^(٢). فأحياناً يكون السكوت أفضل من الجواب، والدخول في مداخل فيها تضييق على النفس، أو على الناس.

وقد أكثر بعض الصحابة السؤال على النبي ﷺ، فسأله بعضهم: مَنْ أَبِي؟ فقال له: «أبوك فلان»^(٣). ما الفائدة من هذا السؤال؟ وماذا لو استبان لك أن أباك ليس هو الذي تعرفه؟ إنك بذلك تكون قد فضحت

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٩)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٨)، عن سعد بن

أبي وقاص.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٩٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٩)، عن أنس بن مالك.

نفسك، وفضحت أمك. وسأله آخر عن أبيه، فقال له: «هو في النار»^(١). فأغضبوا الرسول ﷺ، حتى قال بعض الصحابة: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً. فلا داعي للأسئلة التي لا معنى لها، السكوت عنها مطلوب.

كان من نتيجة هذا الغضب أن توجَّس الصحابة من سؤال الرسول ﷺ، وسكتوا مدة من الزمن، فجاء جبريل يسأل بدلاً عنهم، فهو يُعَوِّضهم بسؤاله عن فترة سكوتهم عن السؤال، ويُعلمهم أيضاً كيف تكون الأسئلة، ولذلك قالوا: حسن السؤال نصف العلم.

ليس السؤال حراماً، لكن المهم أن تُحسن السؤال، أن تعلم فيم تسأل؟ تجد أحدهم يسأل: بأي لغة يكون سؤال القبر: بالعربية، أم بالسرانية؟ وآخر يسأل: ما اسم أخت سيدنا موسى؟ قلت له: لم يذكر القرآن اسمها، وماذا يُفيدك؟ هل ستخطبها؟

وللأسف تجد بعض المُفسِّرين يهتمُّ بهذه الأمور، فإذا ذكر القرآن أن ليوسف أحد عشر أخاً، يحاول أن يذكر أسماءهم، كثيراً ما يتعب المفسرون أنفسهم، ويتعبون قراءهم معهم فيما لا طائل منه، ولا نفع من ورائه، ولو علم الله أن في ذلك نفعاً لذكره.

حسن السؤال إذن نصف العلم، ولهذا اعتبر الرسول ﷺ جبريل عليه السلام بهذه الأسئلة مُعلِّماً، «أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»، صحيح أنه مُجَرَّد سائل، وأن الذي أجاب هو النبي ﷺ، لكن السؤال نفسه علم، كيف تحسن أن تسأل؟ كيف تسأل عن الأمر المهم؟ كيف ترتب أسئلتك ترتيباً منطقياً؟ هذا هو المطلوب.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٢٠٣)، عن أنس.



جبريل عليه السلام :

اشتهر هذا الحديث باسم «حديث جبريل»، وجبريل هو أمين الوحي الذي نزل بالقرآن الكريم، وبالكتب السماوية، هو الروح الأمين، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، انظروا إلى تلك الفترة الخصيبة المضيئة من الزمن، كيف اتصلت فيها الأرض بالسماء؟ كيف كان جبريل رَوَّاحًا غَدَّاءَ بآيات الله، تُتلى على الناس، وكلما حدث شيء جاء هذا الملك العظيم، ذي القوة المتين عند الله ﷻ، كانت الأرض موصولة بالسماء في فترة من أعظم الفترات في تاريخ البشرية.

قدرة الملائكة على التشكل :

جاء جبريل يسأل النبي ﷺ، وكثيراً ما كان يجيء في سورة إنسان، وقد أعطى الله الملائكة القدرة على التشكل بصورة البشر، كما رأينا الملائكة الذين جاؤوا إلى إبراهيم، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٧]، أوجس منهم خيفة في أول الأمر؛ لأنه قدَّم إليهم الطعام فلم يأكلوا، وإذا أبي الضيف أن يأكل طعاماً تخاف منه، ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلِمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وعرفوه أنهم قدموا من أجل قوم لوط، هؤلاء الذين أشركوا بالله، وارتكبوا تلك الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين؛ اتخذوا الذكران دون الإناث، فجاءوا لإهلاك هؤلاء القوم، ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢ - ٣٤]، فلما جاؤوا إلى إبراهيم كانوا في صورة بشر، فلم يعرفهم في أول الأول.

ولما ذهبوا إلى لوط لم يعرفهم أيضاً، ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، لأنَّ فطرة قوم لوط كانت قد فسدت فساداً لا نظير له، بحيث لا يدعون ضيفاً، فعرفوه أنَّهم رُسُلٌ من الله ﷻ، وأنَّهم جاؤوا لإهلاك هذه القرية وتدميرها، وجعل عاليها سافلها.

الشاهد أنَّ الله تعالى أعطى الملائكة القدرة على التشكل في صورة البشر، كما أعطى القدرة للجن على أن يتشكلوا أيضاً في صورة بشر، ولكن قد يتشكل الجن مع ذلك في صورة حيوان، أمَّا الملائكة فلا تتشكل إلا في صور مكرمة كصورة البشر، ولذلك جاء جبريل في صورة هذا الأعرابي، وكان أحياناً ينزل في صورة رجل من الأعراب اسمه دحية الكلبي، من بني كلب.

تشكل جبريل في صورة أعرابي:

جاء جبريل هذه المرة في صورة أعرابي، ولكن عمر بن الخطاب - راوي هذا الحديث - يقول: لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ. أي أنَّه ليس من أهل المدينة بحيث نعرفه، وليس قادم من سفر بحيث نرى عليه وعثاء السفر وآثاره.

تعرفون أنَّ السفر في ذلك الوقت كان على الجمال أو على الأقدام، فلا بدَّ أن يكون المسافر أشعث أغبر، مما قاساه في الطريق، ولكن هذا الأعرابي لا يُرى عليه أي أثر للسفر، ووصفه عمر بأنه شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، يصف الأمر كما رآه، وإذا وصف راوي الحديث التفاصيل كان ذلك دليلاً على ضبط القصة، أنَّه مستحضر ما حدث، ليس غائباً عنه، فعمر وصف الرجل كما شاهده، ثياب ناصعة

البياض، وشعر شديد السواد، لا يُرى عليه أي أثر لسفر، ومع هذا ليس من أهل المدينة الذين يعرفهم، فمن هو هذا؟!

حرص عمر على التعلم:

وقد كان عمر بن الخطاب يجلس إلى النبي ﷺ لسمع منه، حرصًا منه على التعلم من النبي ﷺ، وكان قد اتفق مع جاره له على أن ينزل كل منهما يومًا لسمع من النبي ﷺ، ويشاهد ما يحدث، ثم يروي كل منهما للآخر ما سمعه وراه، لأنه كان في عوالي المدينة، فليس سهلاً عليه أن ينزل كل يوم، ليجلس إلى النبي ﷺ، ويستمتع إليه^(١).

لم يكن الأمر كما هو الآن؛ تستطيع أن تركب سيارتك، أو تستأجر سيارة وتذهب بسرعة من شرق الدوحة إلى غربها في دقائق معدودات، كان مكلفًا، يسعى مشيًا على قدميه، ولذلك اتفق عمر مع جاره هذا أن ينزل كل منهما يومًا حتى لا يفوتهما شيء مما يحدث عند النبي ﷺ، من أقواله، وأفعاله، وتقريراته، أي من سنته، ولذلك كان عند عمر الكثير من سنة النبي ﷺ، ولكنهم لم يرووا عنه الكثير كما رووا عن الصحابة المكثرين.

الطعن في المكثرين من الرواية:

هناك سبعة من الصحابة أكثروا من رواية الحديث عن الرسول ﷺ، روى الواحد منهم أكثر من ألف حديث، هناك من روى ألفين، وهناك من روى أكثر من ألفين، وهناك من روى أقل من ألفين وأكثر من ألف، هؤلاء السبعة معروفون، وهم أبو هريرة، وعائشة، ابن عباس، وابن عمر، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وأبو سعيد الخدري، رضي الله عنهم جميعًا.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٨٩)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩).

بعض الطاعنين يقولون: ما لهؤلاء أكثر الصحابة رواية؟ بعض الذين ليس لهم علم لهم ولا دين طعنوا في أبي هريرة، وقالوا: كيف لم يرو أبو بكر، وعمر، الذين لازما النبي ﷺ، مثلما روى أبو هريرة؟ وأمر أبي هريرة يختلف عن أمر أبي بكر وعمر، فهما قد ماتا في زمن قريب من النبي ﷺ، لم يعيشا ويُعَمَّرَا حتى يروى الصحابة التابعون عنهما، فالذين أكثروا من الحديث هم الذين عاشوا عُمُرًا بعد النبي ﷺ، منهم مَنْ عاش بعده خمسين سنة، ومنهم مَنْ عاش بعده ستين سنة، ومنهم مَنْ عاش بعده تسعين سنة مثل أنس بن مالك، آخر الصحابة موتًا بالبصرة، فهؤلاء احتاج الناس إلى علمهم، فأخذ التابعون يروون عنهم، وهؤلاء المكثرون قد رووا ما عرفوه من النبي ﷺ، ورووا أيضًا ما أخذوه عن مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، فنقلوا علمهم، وعلم مَنْ كان قبلهم من الصحابة إلى مَنْ بعدهم، فلم يُعَمَّر أبو بكر وعمر كثيرًا، وكانت حياة المسلمين حياة جهاد وقتال، فلما استقر الأمر بدأ الناس يكتبون الأحاديث، ويروون، وينقلون، ويبلغون، فالتعن في مثل أبي هريرة هو طعنٌ مردود على أصحابه.

كان عمر يروي عن النبي ﷺ، وروي عنه مسندًا معروفًا من الأحاديث، ومما رواه الحديث الذي شرحناه من قبل، حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»^(١). ومما رواه أيضًا هذا الحديث المشهور، حديث جبريل.

السؤال الأول: ما الإسلام؟

جاء جبريل يسأل النبي ﷺ، اقترب منه بحيث أسند ركبته إلى ركبته، ووضع يديه على فخذه، وسأله هذه الأسئلة الأربعة، فكان

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمامة (١٩٠٧).

أول سؤال سألته عن الإسلام: ما الإسلام؟ فقال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله». فالشهادتان هما مدخل الإسلام، ومفتاح باب الإسلام، الشهادة لله بالوحدانية، ولمحمد بالرسالة.

الشهادة لله بالوحدانية:

الشهادة الأولى شهادة أن لا إله إلا الله، فلا يمكن أن تكون مسلماً إذا لم تشهد هذه الشهادة، لم يقل له: أن تقتنع بأن لا إله إلا الله، أو أن تؤمن بذلك في قرارة نفسك. لا، فأنت لا تُسمي مسلماً، ولا تدخل في عداد المسلمين إذا لم تشهد شهادة يشهد بها الناس، والشهادة من الشهود، فعلى مثل الشمس فاشهد، وأنت تشهد على أمرٍ بينٍ عندك، تشهد بحيث يراك الناس ويسمعونك، «أن لا إله إلا الله».

هذا التوحيد هو مفتاح الإسلام، وهذا هو أساس بناء الإسلام، وبخاصة توحيد الألوهية، هناك توحيدان: توحيد الألوهية، توحيد الربوبية، توحيد الربوبية هو أن تشهد أن الله رب السماوات والأرض، الذي خلق هذا الكون هو الله.

إقرار مشركي العرب بتوحيد الربوبية:

وتوحيد الربوبية وحده لا يكفي؛ لأن هناك مَنْ كان يشهد بذلك، ومع ذلك جعل الله أنداداً وشركاء، كان مشركو العرب يقرّون بتوحيد الربوبية كما ذكر القرآن عنهم في غير ما موضع، في أكثر من سورة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴾ [يونس: ٣١]. كانوا يُقَرُّونَ أَنَّ الخالق المالك المُدبِّر هو الله.

ضلال البشرية عن توحيد الألوهية:

لكنهم مع هذا لم يفردوه بالعبادة، بل جعلوا له شركاء، عبدوا اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، وعبدوا هبل كبير أصنامهم عند الكعبة، جعلوا حول الكعبة - البيت الذي بُني للتوحيد - ثلاثمائة وستين إلهاً مُزَيَّفاً، وعبدوها من دون الله.

وكانت في بيوتهم آلهة يتبركون بها، وكانوا يصطحبونهم في أسفارهم، لتباركهم وترعاهم، وكانوا أحياناً يصنعون هذه الآلهة من حلوى أو من عجوة، فإذا نفذ زاد أحدهم يوماً، ولم يجد ما يأكله - ولم تكن هناك في طرق السفر المطاعم، والفنادق - فكان يأكل إلهه، قد يفطر بثلثه، ويتغذى ويتعشى بثلثيه، هكذا كانوا، كما قال القرآن: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ١٧٣]. أحياناً يقف الذباب على آلهتهم من الحلوى أو العجوة، فيمتص منها، فلا تستطيع هذه الآلهة أن تدفع الذباب عن نفسها، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾.

انظروا كيف تجني الوثنية على أصحابها؟ كيف تجني على الإنسان، بحيث يعبد إلهاً إذا جاع أكله؟! يصنع الإله، وينحته بيده، ثم ينحني له، ويرجوه، ويخشاه، ويلتمس منه البركة، والفرج عند الشدة، والنصر على الأعداء، والشفاء من الداء! كيف يعبد الإنسان ما ينحته؟

كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا نَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥، ٩٦]. فمن جناية الشرك على الإنسان أنه يفقده تفكيره، وسداده، وصوابه، بحيث يسجد للطبيعة التي سُخِّرَتْ لخدمته.

لقد ضلَّت البشرية طريقها - للأسف - حينما تاهت عن طريق التوحيد فأشركت بالله ما لم يُنزل به سلطاناً، فهناك مَنْ عبدوا الشجر، وهناك مَنْ عبدوا الحجر، وهناك مَنْ عبدوا البشر، وهناك مَنْ عبدوا الشمس والقمر.

نجد في الهند مَنْ يعبدون الأنهار، ويعبدون الأبقار التي سخَّرها الله للإنسان، تخدمه وهي صحيحة، ويأكلها وهي ذبيحة، في القرن الثالث الميلادي قبل بعثة النبي ﷺ كان يوجد في الهند ثلاثمائة وثلاثين مليون إلهًا، أصنام في الطرقات وفي كل مكان، وكذلك كان العرب، كما قال أبو رجاء العطاردي: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جُثوةً من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به^(١).

هذا هو الشرك الذي ضلَّت به البشرية، وانحرفت به عن الفطرة، ﴿فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فطر الله الناس على التوحيد ثم ضلوا، ضللتهم أوهامهم، وضللتهم أهوائهم، وضللهم أولئك الذين يتاجرون بأديانهم، فعبدوا ما لا ينفع ولا يضر، ما لا يبصر ولا ينفع، وُجد على مر التاريخ الكهنة السماسرة، الذين يتاجرون بالوثنية، الذين وقفوا بين الله وعباده، فلا يستطيع أحد أن يتقرب إلى الله إلا عن طريقهم، بأن يدفع القرابين إليهم بالتي هي أحسن، أو بالتي هي أسوأ، فهم

(١) رواه البخاري في المغازي (٤٣٧٦).

يعتبرون أنفسهم وكلاء الآلهة على الأرض، هؤلاء السماسرة المحتكرون للوساطة بين الله وعباده أفسدوا الدنيا، وأفسدوا الدين.

تحرير الناس من العبودية لغير الله:

ومن هنا كانت الحاجة إلى بعثة الرسل لإعادة الناس إلى التوحيد، نجد أن الرسل جميعاً بُعثوا بالدعوة إلى التوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. فالعبادة تُوجه لله وحده، لا لبشر، ولا لملك، ولا لجني، ولا لصنم، ولا لنبي، ولا لولي، ولا لرجل من رجال الدين، ولا لرجل من رجال الدنيا، وإنما توجه العبادة لله وحده، هذا هو التوحيد، جاء الأنبياء جميعاً يعلنون هذه الحقيقة، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ بَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

والطاغوت هو كل ما يُعبد ويُعظم ويُطاع طاعةً مطلقةً من دون الله، قد يكون هذا الطاغوت صنماً، أو ملكاً متألهاً، مثل نمرود الذي قال: ﴿أَنَا أُحْيِ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. أو فرعون الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. هؤلاء هم الذين ادَّعوا الربوبية، أو ادَّعى الناس لهم الربوبية، وتألَّهوا في الأرض.

ومن هنا جاء الأنبياء ليحرروا الناس من العبودية لغير الله، فلا يعبدون إلا الله، ويحررونهم من الطاغوت، هذا هو مبدأ الإيمان، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولذلك كان النداء الأول في كل رسالة لرسول الله كما ذكر القرآن: ﴿يَقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. هذا هو البند الأول،

ثُمَّ تَتَّبِعُهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْأُمُورَ الْأُخْرَى، فَلَوْ طَوَّلَ ﷺ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. أَيْنَكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ﴿[العنكبوت: ٢٨، ٢٩]. وشعيب ﷺ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿أَوْفُوا أَلْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥]. وهكذا، لأنَّ الأنبياءَ جاؤوا يصلحون المجتمعات أيضًا، ويدعون إلى الخير، ولكن يجب قبل أي شيء أن يضعوا الأساس، والأساس هو التوحيد.

لم يَجِئِ الأنبياءَ لِيُقيمُوا الدليلَ على وجود الله، لأنَّه لم تكن هناك مشكلة في الاعتراف بوجود الله، فالجميع كانوا يعترفون بأنَّ الله موجود، لم يكن هناك ملحدون كالذين يزعمون في هذا العصر بأن لا إله، ويقولون بأنَّ الحياة مادة، ولا شيء غير المادة، والدين أفيون الشعوب، وقالوا: إِنَّ ادِّعَاءَ أَنَّ هُنَاكَ إِلَهًا هُوَ مِنَ الْأَوْهَامِ الَّتِي أَدْخَلَهَا رِجَالُ الْأَدْيَانِ عَلَى النَّاسِ، فَلَيْسَ صَوَابًا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ، بَلِ الصَّوَابُ أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ. هَكَذَا قَالَ الْمُلْحِدُونَ، وَتَلَقَّفَ عَنْهُمْ ذَلِكَ الشُّيُوعِيُّونَ وَالْمَارْكَسِيُّونَ؛ زَعَمُوا أَنَّ الْإِلَهِيَّةَ وَنَحْوَهَا هِيَ مِنَ الْأَوْهَامِ الَّتِي يُخَدِّرُ النَّاسَ بِهَا، مَا كَانَ هَذَا مِنْ قَبْلِ.

توحيد الألوهية:

من أجل ذلك كان اتجاه الرسل ﷺ إلى الدعوة إلى التوحيد، واجتناب الطاغوت، هذا هو هَمُّ رسل الله جميعًا، والتوحيد هنا - كما قلنا - هو توحيد الإلهية، ومعناه: أن لا إله إلا الله، أي: لا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يُرْجَى إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يُخْشَى إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَلَا يُنَابُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ، هذا هو

معنى توحيد الإلهية، فلا يكفي أن تُقَرَّ بأنَّ الخالق هو الله، وأنَّه هو الذي خلق السماوات والأرض، فقد أقر بذلك مشركو العرب، ومع هذا عبدوا مع الله، ومن دونه آلهة شتى، بل لا بدَّ أن تفرد الله بالعبادة والاستعانة، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فقد جاء الأنبياء بالتوحيد.

عناية الإسلام بالتوحيد:

ولكن جاء الإسلام بتثبيت التوحيد، وأعطى التوحيد من العناية ما لم يعطه دين قط، لأنَّ الأديان قد فسدت، حتى الأديان السماوية - اليهودية والمسيحية - التي هي في الأصل أديان توحيدية، دخلت عليها الوثنيَّات فأفسدتها، فاتَّخذ المسيحيون المسيح إلهاً، قالوا: هو الله. وقالوا: هو ابن الله. وجعلوه أحد أقانيم ثلاثة تتكون منها الأسرة الإلهية، وهي الأب، والابن، والروح القدس، وقال اليهود: عُزير ابن الله. ودخلوا في دوامة الوثنيَّة، ولم يبق هناك توحيد خالص على الأرض.

دين التوحيد:

ولذلك جاء الإسلام يقر التوحيد الذي جاء به النبيون من قبل، ويثبتته، ويؤكدته، ويصحِّح المسيرة من جديد، ومن هنا عُرِف الإسلام بأنَّه دين التوحيد، فإن كان لا بدَّ أن يُضاف الإسلام إلى قيمة معينة، أو مبدأ معين فليُضَف إلى توحيد، تستطيع أن تضيف الإسلام إلى أشياء كثيرة فتقول: الإسلام هو دين الأخلاق، ودين القيم، ودين العدالة، ودين الفضيلة، ودين المحبة، ودين التسامح، ودين الأخوة، إلى آخره. ولكن أولى ما يضاف الإسلام إليه أن يُقال: هو دين التوحيد.

ولذلك كان أول ما يدعو الإسلام إليه هو شهادة أن لا إله إلا الله، جاء الإسلام بهذا، وجعله مبدأ الدخول فيه، جعله عنواناً، وشعاراً من

شعائره، يُرفع الأذان كلّ يوم خمس مرات، فيبدأ ب: شهادة أن لا إله إلا الله، ويختم ب: لا إله إلا الله، وتُقام الصلاة لتأكيد هذا الشعار، وفي الصلاة نفسها يقال في التشهُّد: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله.

بل يولد المولود في الإسلام فيكون أول ما يطرق سمعه شهادة أن لا إله إلا الله، فمن السُّنة أن تؤذّن في أذن المولود ليكون أول ما يسمعه كلمة التوحيد، ومن السُّنة كذلك حينما يُحتَضَر الإنسان على فراش الموت أن يُلقّن: «لا إله إلا الله»، فيستقبل الحياة بالتوحيد، ويغادرها بالتوحيد، ورسالته فيما بين البداية والنهاية هي العمل لإعلاء كلمة التوحيد.

كلمة التوحيد أم الفضائل:

إنّ كلمة «لا إله إلا الله» هي الشجرة الطيبة التي تؤتي ثمارها كلّ حين بإذن ربها، هي أم الفضائل، إذا أردت الحرية، أو الإخاء، أو المساواة، أو الكرامة، أو الأشياء التي يتنادى الناس بها اليوم، ويتوهم من يتوهم أنّها من ثمار هذا العصر هي من ثمار التوحيد، فلا يمكن أن تجدها حقيقة إلا في التوحيد، لا يمكن أن يكون هناك إخاء ومساواة بلا توحيد، إذا كان هناك من يستعبد الناس، ويقول لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾. فلا يمكن أن يكون هناك إخاء بين ربٍّ ومربوب، ولا مساواة بين فرعون ورعيته، إذا كان هناك أناس يدّعون أنّهم أرباب للآخرين فلا يمكن أن يكون هناك إخاء ومساواة إلا مع التوحيد.

ولا يمكن أن تكون هناك حرية إلا مع التوحيد، ولذلك جاء النبي ﷺ محرراً البشرية من كلّ الطواغيت، وكان ﷺ يختم رسالته إلى ملوك الأرض، إلى القياصرة، هرقل وأمثاله من الأمراء الذين يدّعون

النصرانية وغيرها، وهو يدعوهم إلى الإسلام بهذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ذلك أن أهل الكتاب، ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، اتَّخَذُوا هؤلاء أرباباً لأنهم أعطوا أزمَّتَهُم لهم، يُحَلِّلُونَ لهم، ويُحَرِّمُونَ عليهم، فيقولون لهم: سمعنا وأطعنا. يُحَرِّمُونَ الحلال، ويُحَلِّلُونَ الحرام بدون إذن من الله، ولا يملك أتباعهم أن يقولوا: لِمَ؟ فضلاً عن أن يقولوا: لا. أعطوهم حقَّ التشريع المطلق، والطاعة المطلقة فصاروا أرباباً، فمن هنا كانت الكلمة الأولى في الإسلام هي كلمة «لا إله إلا الله»، حتى قال بعض العلماء: الإسلام الكلمة. أي كلمة التوحيد، كلمة التقوى، كلمة الإخلاص هي «لا إله إلا الله».

دخول الشريكات على الحياة الإسلامية:

وللأسف قصرت أمة التوحيد في الوفاء للتوحيد، بما ارتكبه من ألوان الشرك، أدخلت للأسف ألوان كثيرة من الشرك على الحياة الإسلامية، فقدس الناس ما لا يُقدَّس، ودعوا ما لا ينبغي أن يُدعى، كالأولياء والأضرحة ونحوها.

وقد جاء الإسلام يحرر المسلم من هذا كله، فلا يدعو إلا الله، ولا يسأل إلا الله، «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(١)،

(١) رواه أحمد (٢٦٦٩)، وقال مخرجه: إسناده قوي. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٣٠٢)، عن ابن عباس.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ * وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ * [يونس: ١٠٦، ١٠٧]، فافهم معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ * [الفاحة: ٥]. أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا إياك، وَجَّه قلبك إلى الله، لا تُوجِّهه إلى مخلوق مثلك، أيسأل شحاذ شحاذًا؟! اسأل الله الذي بيده ملكوت كل شيء.

اتِّخَاذُ الْوَسْطَاءِ:

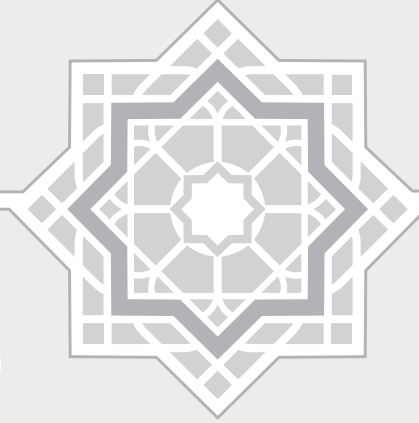
وتجد بعض الناس يتفلسفون فيقولون: لا بدَّ من الواسطة، فلا نستطيع أن نسأل الله بدون الواسطة بيننا وبين الله. كأنما يقيسون الله على الملوك والرؤساء الذين لا يستطيع الناس أن يصل إليهم إلا بوسائط، كأن على باب الله حاجبًا أو بوابًا أو أناس يردون الناس عنه! إِنَّ بَابَ اللَّهِ مَفْتُوحٌ لِلْجَمِيعِ، ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ * [الزمر: ٥٣]، رغم إسرافهم على أنفسهم، وعصيانهم له، وتفريطهم في جنبه يقول لهم: ﴿يَعْبَادِي﴾ *. يؤنسهم، يحبب إليهم القرب منه، ودعاءه، والتوبة إليه، فباب الله مفتوح للناس جميعًا، حتى العصاة منهم.

وقد دعا المشركون الله تعالى في ساعة الشدة فاستجاب لهم، حينما كانوا في الفلك، وهبَّت عليهم عاصفة، وأحاط بهم الموج من كل مكان، وأصبحوا على حافة الغرق، ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿ [يونس: ٢٢، ٢٣].

بل حتَّى إبليس نفسه دعا ربه فاستجاب له: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿ [الأعراف: ١٤، ١٥].



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



السيرة النبوية



غير مرخصة للطباعة

من الدستور الإلهي للبشرية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾
[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].
﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ،﴾
[المزمل: ٢٠].



من مشكاة النبوة الخاتمة

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: إِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ. رواه مسلم.

وعنها رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي». رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ». رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد.





الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلوات الله وتسليماته على من أرسله رحمة للعالمين، وحجة على الخلق أجمعين: سيدنا وإمامنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أما بعد)

في درسنا الماضي تحدثنا عن رسالة رسول الله ﷺ، وهي الشق الثاني من الشهادتين اللتين بهما يدخل المرء الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله، وقلنا: إنَّ رسالة رسول الله ﷺ تميّزت عن الرسائل السماوية السابقة جميعًا بأنها كانت رسالة عامة وخالدة.

عموم رسالة الإسلام وخلودها:

ومعنى عموم هذه الرسالة: أنَّها رسالة لكل الناس، لجميع الناس في الشرق وفي الغرب، وفي الشمال وفي الجنوب، والعرب والعجم، بغض النظر عن الأجناس والألوان والأوطان، واللغات والطبقات؛ بل هي

رسالة للإنس والجن كما ذكر لنا القرآن الكريم، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومعنى خلود هذه الرسالة: أنها الرسالة الأخيرة التي تتضمن كلمات الله النهائية للبشر، ليس بعدها رسالة أخرى، ليس بعد القرآن كتاب سماوي، وليس بعد محمد ﷺ نبي أو رسول، ولا بعد الإسلام شريعة من الشرائع، ومن هنا تكفل الله تعالى بحفظ كتابها فقال عز من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وتكفل الله تعالى بحفظ هذه الأمة من الاستئصال، فلا يمكن أن تستأصل هذه الأمة، وتكفل بإبقاء طائفة فيها قائمة على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك؛ لأنها الأمة الخاتمة، صاحبة الرسالة الخالدة، هذه هي رسالة محمد ﷺ، رسالة خاتم النبيين وآخر المرسلين، عليه صلوات الله وسلامه.

الخوارق والمعجزات في حياة الأنبياء:

وقد سألني أحد الإخوة سؤالاً: إننا نجد الأنبياء السابقين والرسل المذكورين في القرآن الكريم، لهم آيات ومعجزات وخوارق، دلت على نبوتهم ورسالتهم، أيدهم الله تعالى بها؛ ليدل بها على صدقهم عند الناس، عند من أرسلوا إليهم، فأيد الله موسى بتسع آيات بينات كما ذكر ذلك القرآن نفسه: العصا، واليد التي تخرج من جيبه بيضاء من غير سوء، والعذاب الذي أنزله على من كذبوا به، إلى آخر الآيات التي أيد الله بها موسى ﷺ.

وعيسى عليه السلام أيد الله تعالى بآيات ذكرها القرآن الكريم، ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، فلماذا لم يؤيد الله ﷻ محمداً ﷺ بمثل هذه الخوارق والمعجزات والآيات؟

سؤال المشركين للنبي ﷺ بآيات كونية:

هذا سؤال قد يعرض لبعض الناس، وربما يؤكده في أذهان بعضهم: أن المشركين كانوا يطالبون النبي ﷺ بآيات كونية تنزل عليهم من عند الله؛ فلا يستجيب لهم الله ﷻ، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ آيَاتِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١]، إلى آخر ما ذكر من هذه المقترحات على النبي ﷺ، أنه ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كما نُزِّلَتْ على الأنبياء من قبله كآية موسى، أو آية عيسى، أو آية صالح الذي أخرج الله له الناقة من غير توالد؛ كما طلب قومه حين قالوا: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ هَٰؤُلَاءِ شَرِبُوا وَلَكُمْ شَرِبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٤، ١٥٥]، فكانت آيته أنه أخرج لهم الناقة.

دلائل النبوة المحمدية:

ربما فهم البعض من عدم الاستجابة الإلهية لهذه المقترحات أن النبي ﷺ لم يؤيد بآيات كونية، والواقع أن النبي ﷺ أيد بأنواع شتى من الآيات والدلائل على صدقه ﷺ، ألفت في ذلك كتب عرفت في تراثنا الإسلامي باسم «دلائل النبوة»، مثل كتاب «دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصفهاني، ومثل كتاب «دلائل النبوة» للإمام الحافظ البيهقي، وغيرهما، يذكرون في هذه الكتب الدلائل والآيات التي تدل على صدق رسالة محمد ﷺ.

آيات عديدة لا تُحصى:

والواقع أن الآيات التي أيد بها نبيه محمدًا ﷺ كثيرة جدًا، آيات متوافرة ومتكاثرة؛ لأنه جاء بأعظم رسالة، وأعم رسالة، وأخلد

رسالة، ولذلك أيده الله بآيات شتى، منها الآيات الكونية؛ من الخوارق والمعجزات الحسية، التي آتاها الله الأنبياء والرسل من قبله، ولكنها ليست هي الوحيدة، آتاها الله أشياء أخرى، مثل إنبائه بالغيب فيقع كما أنبأ، ومثل استجابة الله تعالى لدعائه إذا دعا لقوم أو دعا على آخرين، فيتحقق ما دعا الله تعالى به، ومثل: تأييد الله تعالى إياه وإمداده بنصره على أعدائه رغم كثرتهم وتعددتهم وتنوعهم، ومثل شهادة أهل الكتاب له، وشهادة الكتب السماوية له، ومثل سيرته ﷺ، فسيرته ﷺ دليل؛ بل هي من أصدق الدلائل وأنصعها على صدقه فيما يبلغ عن ربه، ومثل القرآن الكريم الذي أيده الله تعالى به، وهو معجزته وآيته الكبرى، ومثل الثمرات التي تركها ﷺ دالة على صدق رسالته، من ثمارهم تعرفونهم، كل هذه وغيرها دلائل، كل واحدة منها تحتاج إلى حديث يطول.

المعجزات والآيات الكونية:

من الدلائل والآيات التي أيد الله بها رسوله محمدًا ﷺ في نبوته ورسالته، ودل بها صدقه: الآيات الكونية: المعجزات، أو الخوارق الحسية التي كانت للأنبياء من قبله، صحيح أنها لم تجئ للتحدي؛ لأن الآيات الكونية الحسية بالنسبة لموسى وعيسى كانت تأتي مقرونة بالتحدي، يعني يطالبونه بآية فتأتي هذه الآية، أمّا بالنسبة للنبي ﷺ فكانوا يطالبونه بهذه الآية فلا تنزل الآية استجابة لهم، ولكن يؤيد الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ بآيات في مواقف شتى تأكيدًا لنبوته وتكريمًا له، ومن ناحية أخرى تحقيقًا لأشياء كثيرة، مثل تفريج كربة، ومثل إعانة في موقف، أو في أزمة من الأزمات.



الإسراء والمعراج:

ولذلك نجد مثلاً آية كبيرة مثل الإسراء، ومثل المعراج، آيتان ذكرهما القرآن الكريم، ذكر إحداهما بالتصريح، وذكر الأخرى بالتلميح، الإسراء ذكره في السورة التي سميت بهذا الاسم في أول آية من هذه السورة سورة الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، هذه آية كونية، أسرى الله بعبده ورسوله محمد ﷺ من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في أرض الشام في فلسطين، الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، المسجد الذي بارك الله حوله، ذهب رسول الله ﷺ وجاء في نفس الليلة، وكانوا يضربون أكباد الإبل ليذهبوا إلى القدس شهراً ذهاباً، وشهراً إياباً.

هذه الآية الكبيرة لم تأت استجابة لطلب المشركين، فقد طلبوا فيما طلبوا أن يرقى ويصعد إلى السماء أو ينزل عليه ملك من السماء: ﴿أَوْ تَرُقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقْيِكَ حَتَّىٰ تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، صحيح صعد إلى السماء ولكن لم يكن ذلك استجابة لهم، رُفض طلبهم واقتراحهم، ولكن ربنا صعد به إلى السماء لحكم أخرى؛ تكريماً له ﷺ، وتسلياً له وتسرية عما أصابه في عام الحزن، وليريه من آياته في الملكوت الكبير، ليفرض عليه تلك الفريضة العظيمة: الصلاة؛ تنويهاً بقدرها، ولكذا، ولكذا، إنما لم تأت هذه الآية استجابة لطلب القوم!

والمعراج في ليلة الإسراء، فالإسراء رحلة أرضية من مكة للقدس،

والمعراج رحلة سماوية من الأرض إلى السماوات العُلا، إلى مستوى لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، كما قال الشاعر:

حتى بلغت سماء لا يُطار لها على جناح ولا يُسعى على قدم^(١)

هذه آية من آيات الله، أيد الله بها النبي ﷺ، ولما أخبر بالإسراء المشركين كذبوا طبعاً، وقالوا: معقول تذهب وتجيء في نفس الليلة! وقالوا لأبي بكر: انظر ماذا يقول صاحبك؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن كان قال ذلك فقد صدق. قبل أن يسمع من النبي ﷺ، فهي قاعدة مسلمة عنده: إن كان قال ذلك فقد صدق، إنه يصدقه في خبر السماء، أنه يأتيه جبريل من السماء في لحظة واحدة ليس في ليلة، فكيف وهذه رحلة من السماء إلى الأرض ليست رحلة أرضية! ولذلك سمي بالصديق، سماه النبي ﷺ الصديق من هذا اليوم.

المشركون حاولوا أن يتحدوا النبي ﷺ، ويقولون له: صف لنا هذا البيت الذي تزعم أنك ذهبت إليه؟ طبعاً مع أن الزيارة سريعة قد لا يستطيع الواحد أن يصف وصفاً مفصلاً للشيء الذي رآه؛ خاصة إذا كان في ليل، لكن الله قرب له بيت المقدس فوصفه وصفاً دقيقاً، لم يجد القوم شيئاً يقولونه، ولكن طبيعة المعاند المكابر أنه لا يقنعه شيء!

عدم استجابة الله طلب المشركين:

وهذا من الأسباب التي كانت من وراء عدم الاستجابة إلى طلب هؤلاء القوم، أن الله أيد الأنبياء السابقين بآيات بناء على طلب القوم، ومع هذا حينما جاءت هذه الآيات بصائر وبيانات واضحة لم يؤمنوا

(١) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١/١٩٨)، نهج البردة.

به، كما فعل قوم صالح مع آية الناقة، ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: آية مبصرة بينة واضحة ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: جحدوا بها ظلماً وعلواً ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وهكذا شأن المشرك المعاند، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، ﴿وَلَوْ فَدَحْنَاهُ عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥] لازم سحرنا، فلذلك القرآن لم يستجب لهم في هذه الآيات.

الإسلام لا يريد معنى القهر في الآيات:

ومن ناحية أخرى: أن الإسلام جاء في المرحلة الأخيرة من مراحل البشرية، أراد الله ﷻ - كما سنبين حينما نتحدث عن الآية العظمى لمحمد ﷺ هي القرآن الكريم - أن تكون آيته آية علمية أدبية؛ لأنها هي الآية التي تبقى، ولم يشأ أن يأتي بهذه الآيات التي فيها معنى الإخضاع، ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، لا يريد آية فيها معنى القهر، إنما يريد آية يتأملها الإنسان ويفكر فيها؛ ارتقاء بهذا الإنسان، أن يا أيها الإنسان الذي آتاك الله العقل والفكر لا تطلب هذا النوع من الآيات، أن لك أن يكون هناك أنواع أخرى من الآيات غير هذه الآيات الحسية!

آيات حسية مختلفة:

ومع هذا أيد الله نبيه ﷺ بأنواع وأصناف وألوان من هذه الآيات، كما قلت لكم؛ منها ما ذكره القرآن كالإسراء والمعراج، ومن ذلك أيضاً نزول الملائكة على النبي ﷺ وأصحابه في عدد من الغزوات تكثّر أعدادهم،

وترعب أعداءهم، وتقوي قلوبهم، وتثبت أفئدتهم وأقدامهم، كما رأينا في غزوة بدر، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿[الأنفال: ٩، ١٠]، وفي غزوة الخندق أرسل الله الريح على الكفار، وأيد الله رسوله بجنود لا تراها الأعين، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وكذلك في غزوة حنين، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٢٦].

هذه كلها آيات وخوارق أحس بها المؤمنون، أحسوا بآثارها وعرفوها، ولكن لم تكن أيضًا على سبيل التحدي، ولكنها تكريم للنبي ﷺ.

آيات لها أسباب:

كذلك نجد آيات كثيرة من هذا النوع في الكون الحسي، من المعجزات المادية والخوارق الحسية، التي يمكن أن يراها الناس وأن يلمسوها، نجدها في حياة النبي ﷺ كثيرة، مثل: تكثير الطعام القليل، هذه المعجزات كانت تأتي لأسبابها، لأسباب معينة، يكون النبي ﷺ في غزوة، وينفذ الطعام، والناس في حاجة إلى أن يأكلوا، وليس هناك مطاعم ولا فنادق؛ فمن أين يأكلون؟ الطعام القليل، تمرات في مزود أو في شيء، لقيمات أو أشياء بسيطة، يدعى إليها الجيش؛ فيأكل الجيش كله من شيء قليل، ويشبع وتبقى فضلة منه، أو يذهب النبي ﷺ مع عدد من أصحابه بدعوة من أحد الصحابة؛ فيأكلون ويشبعون من شيء قليل، إكرامًا من الله تعالى لنبيه ﷺ.

ويكون هناك ماء قليل أيضاً، كما حدث في عدد من الغزوات، والناس في حاجة إلى أن يشربوا، وتعلمون أن الماء في الصحراء - صحراء الجزيرة العربية - شيء نادر، حينما يظلم الناس ولا يجدون سبيلاً إلى الماء! يكون مع أحد الصحابة ماء؛ قليل فيضعه النبي ﷺ في إناء أو شيء، ويضع ﷺ أصابعه في الماء، فيفيض الماء من بين أصابعه كأنه ينبوع وعين تتفجر، ويشرب الناس ويرتوون من هذا الماء الذي يفيض من بين أصابع النبي ﷺ!

صوت تسبيح الحصى، وحنين الجذع:

أشياء كثيرة.. الحصى كان يسبح في يده ﷺ، الجذع حنّ إليه وسمع الصحابة حنينه، كان هناك جذع يخطب عليه النبي ﷺ، فلما كثر الناس اقترح الصحابة على النبي ﷺ أن يصنعوا له منبراً، يكون مرتفعاً: يقف عليه ويخطب عليه، ويراه الناس، فجيء له بنجار رومي؛ لأنّ العرب للأسف من قديم ما كانوا يحسنون الحرف هذه، فكان معظم الحدادين والنجارين وغيرهم من أجناس أخرى غير العرب، فجيء له بنجار رومي وصنع له منبراً من ثلاث درجات، فلما ترك النبي ﷺ الجذع النخلة الذي كان يقف عليه ويخطب عليه: سمع الصحابة حنين هذا الجذع؛ كأنه يبكي، كأنه يئن ويحن لفراق النبي ﷺ!

الإيمان بالرسالة فرع عن الإيمان بالألوهية:

طبعاً هناك أناس ربما ينكرون مثل هذه الأشياء ويستبعدونها، ولكن من علم أن هناك ألوهية قادرة قاهرة تستطيع أن تتجاوز الأسباب؛ فإنه لا يستبعد شيئاً، أمّا الذي لا يؤمن بالألوهية؛ فمن العبث أن نستدل له على صحة نبوة محمد ﷺ؛ لأنّه لا يؤمن بالأصل، فكيف يؤمن بالفرع؟!!

من لا يؤمن بالمرسل كيف يؤمن بالرسول؟ الأول تثبت المرسل: الإله الخالق، والرب الحكيم، فإذا أثبت وجود الله تعالى ووحدانيته وحكمته، وأنه لا يدع خلقه هملاً، ولا يتركهم سدى، وأنه كما غذاهم بالغذاء المادي؛ لا بد أن يغذيهم بالغذاء الروحي، وكما أنزل عليهم المطر من السماء ليحيي به الأرض؛ لا بد أن ينزل عليهم الوحي من السماء ليحيي به العقول والقلوب والأنفس، من لا يؤمن بهذا فمن المحال أن يؤمن برسالة رسول!

المعجزات دلائل على صدق الرسل:

هذه المعجزات والآيات عبارة عن ماذا؟ هي دلائل على صدق السفارة من الله ﷻ؛ لأن أي نبي هو سفير الله تعالى إلى خلقه، مندوب السماء للأرض، فكما أن السفير إذا جاء إلى دولة ليمثل دولته التي جاء منها؛ من الطبيعي أن يقدم ما يدل على سفارته، كما نعبر في عصرنا نقول يقدم أوراق اعتماده، أنه معتمد من الدولة الفلانية، ما الذي يدلنا أنه يمثل هذه الدولة؟!

كذلك من يتحدث عن الله ويقول: أنا رسول من الله إليكم لا يقبل حتى يقدم ما يدل على صدقه، يقدم آية ومعجزة تؤيده، ومن هنا كانت الآيات والمعجزات للدلالة على أن هذا الشخص لا يمثل نفسه، وإنما يمثل الإرادة الإلهية من ورائه، ولا يتكلم عن هواه، إنما هو عن وحي يوحى إليه.

من لا يصدق المعجزات والخوارق:

من لا يؤمن بأن هناك إلهاً كيف يصدق بالآيات والمعجزات؟ ولذلك ممكن بعض الناس لا يصدق بالخوارق التي نقولها هذه؛ لأنه هو نفسه غير مؤمن بالألوهية! من آمن بالألوهية الخالقة القادرة، التي خلقت هذا الكون



من عدم، وخلقت الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، هذه الألوهية التي لا تقيدّها الأسباب، لماذا؟ لأنها هي التي وضعت الأسباب؛ فالأسباب والمسببات بينها تلازم ولكنّه - كما قال الإمام الغزالي - ليس تلازماً عقلياً، يعني النار تُحرق، فيه تلازم بين النار والإحراق، السكين تقطع، فيه تلازم بين السكين والقطع، ولكنّه ليس تلازماً عقلياً، بمعنى أنّه ليس من الضرورة العقلية أنّ النار لا بد أن تُحرق، ممكن النار لا تُحرق؛ لأن من الذي جعل النار تُحرق؟ الله عز وجل، فهو الذي قرن بين السبب والمسبب، وهو الذي جعل السكين تقطع، ولو شاء لغيّر هذه الأسباب، ووضع أسباباً أخرى، أو جعل السبب لا يؤثر في مسببه، فالذي وضع الأسباب ممكن أن يتجاوز هذه الأسباب، هو صاحب الأسباب وصاحب السنن.

هؤلاء الناس الذي يستبعدون أن يكثّر الطعام القليل من تمرات معينة، أو لقيمات معينة، ويغذي عشرات أو المئات من الناس، أو الماء يفيض من بين الأصابع، أو الجزع يحن، أو غير ذلك، هؤلاء إذا لم يؤمنوا بالألوهية القادرة؛ فمن باب أولى لا يؤمنون بهذه الآيات، فمن هنا كلامنا مع من؟ مع من يؤمن بالألوهية.

من لا يؤمن بالأصل لا يؤمن بالفرع:

الخطأ الذي يقع فيه كثير من الناس أنّهم أحياناً يحاورون الماديين الذين ينكرون كل ما وراء المادة، ويريدون أن يثبتوا وحي الله، ويثبتوا نبوة الأنبياء، ويثبتوا أحكام الشريعة، أحياناً يناقشونهم في أحكام شرعية، وهل آمن هؤلاء بالأصول حتى يصدقوا الفروع؟!

لا يمكن، هؤلاء الماديون الذين ينكرون كل ما وراء الحس، كل ما وراء المادة، يعني هذا الشخص بطبيعة الحال لا يمكن أن يؤمن

بالفرعيات، الشخص الذي تقول له الإيمان بالله، يقول لك: أين الله؟ هل رأيته بعينك؟ هل سمعته بأذنك؟ أو شمّمته بأنفك؟ أو كذا أو كذا؟ مثل هذا لا يمكن أن يصدق بالخوارق.

الله ﷻ أيد رسوله محمداً ﷺ بآيات كونية كثيرة، ومن قرأ السيرة النبوية، وقرأ السنة النبوية، وقرأ كتب الأحاديث، كتاب مثل البخاري، أو مسلم، أو كتب السنن الأربعة، أو مسند الإمام أحمد، أو قرأ سيرة ابن هشام، أو قرأ كتب دلائل النبوة يجد آيات كثيرة جداً، هذا بالنسبة للنوع الأول وهو الخوارق الحسية، من قرأ هذا سيجد السيرة غنية، والسنة غنية بالآيات المؤيدة والدالة على نبوة نبينا محمد ﷺ، هذا غير الأشياء الأخرى التي سنتحدث عنها إن شاء الله في الدروس القادمة.



الإجابة عن بعض أسئلة الإخوة الحضور

نكتفي بهذا القدر هذه الليلة، ونجيب عن بعض الأسئلة التي يسألها بعض الإخوة، وأبدأ بالسؤال الذي سأله أحد الإخوة في الدرس الماضي وأجلنا الإجابة عنه إلى هذا الدرس، وهو سؤال عن المجدد.

السؤال: هل هناك مجدد أو منقذ يأتي بعد النبي ﷺ؟ وهل هذا له صفة النبوة أو الإلهام أو نحو ذلك؟

الجواب:

وأحب أن أقول أنه ورد في هذا حديث رواه أبو داود والبيهقي، والحاكم والخطيب البغدادي وغيرهم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»^(١)، وهو حديث صححه عدد من المحدثين والأئمة.

ولكن ما معنى: «من يجدد لها دينها»؟ هناك بعض شراح الحديث مالوا إلى أن «مَنْ» هنا للمفرد، «من يجدد»، ولذلك بحثوا في كل مائة سنة، وعلى رأس المائة عن واحد فقط يجدد، فقالوا: إِنَّ الْمِائَةَ الْأُولَى كَانَ فِيهَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَالْمِائَةُ الثَّانِيَةُ كَانَ فِيهَا الشَّافِعِيُّ، وَالْمِائَةُ الثَّلَاثَةُ ذَكَرُوا فِيهَا عِدَّةً؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا وَاحِدًا مَعِينًا فَاخْتَلَفُوا، وَالْمِائَةُ الْخَامِسَةُ كَانَ فِيهَا الْغَزَالِيُّ، وهكذا.

وهناك شراح قالوا إن «مَنْ» تصلح للجمع كما تصلح للمفرد، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، ف«مَنْ» تصلح للجمع

(١) سبق تخريجه ص ٦٢٧.

كما تصلح للمفرد، «من يجدد» هذا يحتمل أنه يكون فردًا، ويحتمل أن يكون جماعة، جماعة من الناس، طائفة من هذه الأمة، كما جاء في الحديث الآخر: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»^(١)، أمة كما ذكر القرآن: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

وإذا كان المجدد طائفة أو أمة من الناس مجتمعين أو متفرقين فهنا يكون عمل المسلم أنه يقول ما دوري مع هؤلاء؟ ما موقعي من هذه الطائفة أو هذه الأمة؟ ما دوري في حركة التجديد؟ بدل أن يقول متى يظهر المجدد؟ لأنه إذا اتكلنا على مجدّد فرد، ينزل من السماء في عُلبة مُغلّفة؛ فلن نفعل شيئاً، إنّما إذا قلنا إنّ التجديد عملية مطلوبة منا جميعاً؛ ينبغي أن نجدد الدين: نجدد الفهم له، والإيمان به، والالتزام به، والعمل له، والدعوة إليه، والجهد في سبيله، هذا معنى تجديد الدين.

هذا التجديد حركة ينبغي أن يشارك فيها كل مؤمن بهذا الدين، غيور عليه، داعٍ له، وعمل الإنسان المؤمن الملتزم أن يقول: ماذا أعمل في حركة التجديد؟ وهذا في الواقع يجعل منا جميعاً عاملين صادقين مخلصين في هذا الموكب، في هذا الصف؛ لأن من الخطر أن يكون كل عملنا الانتظار، ننتظر مهدياً أو مجدداً أو منقذاً، ولا نعمل نحن شيئاً، هل هذا معقول؟! هل الإسلام يطالبنا أن يكون كل عملنا الانتظار؟! إنه في أمور الدنيا نفسها يطالبنا بأن نعمل ولا ننتظر، ونعمل إلى آخر نفس

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمامة (١٠٣٧) (١٧٤)، عن معاوية.

في الحياة وآخر رمق فيها، «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها»^(١).

فهذا معنى «من يجدد لها دينها»، ليس معناه أنه واحد فرد فقط، ينتظره الناس ليقوم بعملية التجديد، هذا ما أرجحه في فهمي لهذا الحديث، وقد كتبتُ فيه بحثًا طويلًا، أرجو أن يُنشر إن شاء الله^(٢).

الآيات والأحاديث الواردة في الصحف:

سؤال عن الآيات والأحاديث، ولفظ الجلالة، وهذه الأشياء التي تذكر في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، ماذا نفعل في هذه الأشياء؟

الجواب:

طبعًا ينبغي أن يُحتَرَس من أن يستخدمها الإنسان استخدامًا سيئًا، مثل أن يدوسها، أو يأخذ صحيفة فيها آيات أو أحاديث، ويمسح بها النوافذ أو الزجاج، أو شيء من هذا!

ولكن الذي يمكن عمله: أن يضعها في سلة المهملات لتُحرق فيما بعد، تذهب مع الأشياء التي تُحرق، بعض الناس يقول: إنه يُحرقها هو البيت، طبعًا ليس معقولًا أن كل بيت يعمل حريقة يومية، وأنتم تعرفون أن الصحف هذه أصبحت شيئًا يوميًا، ولو عمل الناس هذا لأدى هذا إلى خطر، ولكن لا بأس أبدًا أن يضع الإنسان هذه الأشياء مع الأشياء

(١) سبق تخريجه ص ٤٣٣.

(٢) نشر في كتاب: من أجل صحوة راشدة ص ١١ - ٣٨، بحث: تجديد الدين في ضوء السنة، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٥ م.



المهملة، وهي الآن أصبحت تلف في أكياس وأشياء ويُذهب بها إلى المحرقة التي تحرق فيها هذه الأشياء.

حتى بعض الناس يقول: كيف يجوز إحراق الآيات والأحاديث؟ وبعضهم يقول: ولو فيه مصاحف قديمة وبليت ماذا نفعل فيها؟ أيضًا لا مانع أنها تحرق مع المحروقات كلها؛ كما أحرق سيدنا عثمان رضي الله عنه المصاحف الزائدة؛ لأنه أبقى المصحف الإمام، وما عدا ذلك أحرقه؛ حتى لا يختلف الناس في القرآن الكريم، والصحابة أقروه على ذلك، فكان إجماعًا منهم على جواز إحراق بعض هذه الأشياء؛ لأنَّ إحراقها ليس استهانة بها ولا استخفافًا، وإنما هو ضرورة.

هذا ما نستطيع أن نقوله بالنسبة للأوراق والمجلات والمصحف اليومية والأسبوعية وهذه الأشياء، فهي ضرورة، ولا يمكن أن نقول للناس: خذها، واحفر لها في الأرض، أو اعمل كذا، فهذا شيء غير ممكن ولا معقول، فهي ضرورة تقدر بقدرها.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يفقهنا في ديننا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، إنه سميع قريب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الَّذِي بنعمته تتم الصّالحات، الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا، وَمَا كُنَّا
لنَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ، وَأَزَكَّى صَلَوَاتِ اللَّهِ وَتَسْلِيمَاتِهِ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ
الْخَيْرِ، وَهَادِي الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّشْدِ، وَقَائِدِ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ، وَمُخْرِجِ
النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ،
سَيِّدِنَا وَإِمَامِنَا وَأَسْوَتِنَا وَحَبِيبِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ دَعَا
بِدَعْوَتِهِ، وَاهْتَدَى بِسُنَّتِهِ، وَجَاهَدَ جِهَادَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

(وبعد)

فَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ أَنَّ عَائِشَةَ أُمَ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،
سُئِلَتْ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقُ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ^(٢).

مَا مَعْنَى «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»؟ أَي: إِنَّ سِيرَةَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ تَفْسِيرًا
عَمَلِيًّا تَطْبِيقِيًّا لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ الْقُرْآنَ حَيًّا مَفْسَّرًا فِي

(١) أَلْقَيْتُ فِي دُبِّي بِقَاعَةِ الْخُورِ الْمَخْصُصَةِ لِلنِّسَاءِ، ضَمَنَ فَاعِلِيَّاتِ جَائِزَةِ دُبِّي الدَّوْلِيَّةِ لِلْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ، فِي دَيْسَمْبَرِ ١٩٩٨م.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ (٧٤٦)، وَأَحْمَدُ (٢٤٦٠١)، عَنْ عَائِشَةَ.

شخصية، فليُنظر في شخصية رسول الله ﷺ، فهو مصحفٌ مفسرٌ، قرآنٌ حيٌّ يمشي بين الناس على قدمين.

لهذا كنّا في حاجة إلى أن نعرف رسول الله ﷺ، ونعرف القرآن مجسّداً في حياته، فهو تمثيلٌ حيٌّ لهذا القرآن، أنزل القرآن عليه، ولكن لم يكن كما نحفظ نحن القرآن، وبيننا وبين القرآن مراحل ومراحل، ومسافات ومسافات، كان القرآن ينزل على النبي ﷺ، ويقرأ القرآن، وكان جبريل رَوّاحاً غداً بآيات القرآن، وهو ﷺ يُجسّده في سيرته، في حياته، في علاقته بالله، وفي علاقته بالناس، وفي علاقته بأصحابه، وفي علاقته بأعدائه، في حالة السلم، وفي حالة الحرب، وفي حالة النصر، وفي حالة الانكسار، في كل هذه الحالات كان خُلّقه القرآن.

أخلاقه ﷺ من خلال آية:

ولو أخذنا آية من آيات القرآن نموذجاً، وأحببنا أن نطبقها على سيرة رسول الله ﷺ، سنجد أنه ﷺ كان فعلاً قرآنًا حيًّا، ونأخذ مثلاً هذه الآية من سورة التوبة، حيث يصف الله تعالى فيها المؤمنين بقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَكِيمُونَ الْمُخْلِصُونَ الرَّكَّعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]، لو تأملنا في هذه الأوصاف القرآنية التي ذكرتها الآية الكريمة لوجدناها تنطبق انطباقاً تامًّا على السيرة المحمّدية.

أولاً: النبيُّ التائب:

وإذا تأملنا قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿التَّائِبُونَ﴾. نجد أن رسول الله ﷺ، وهو الذي كان يُراقب ربّه في حركاته وسكناته، وفي

غُدواته وروحاته، ولا يغفل عن رَبِّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه، ومع هذا يعتبر سيّد التائبين، فهناك بعض الناس يتوبون من الذنوب، وهناك أناس يتوبون من الغفلات، وهناك أناس يتوبون من حالة أدنى؛ لأنّه يمكن أن تكون لهم حالة أعلى، وهكذا كان رسول الله ﷺ.

هناك أناس تتوب من الشُّرك، وأناس تتوب من الكبائر، وأناس تتوب من الصَّغائر، وأناس تتوب من الشُّبهات، وأناس تتوب من المكروهات التنزيهية، وأناس تتوب ممّا لا يليق، وأناس تتوب من الغفلة، وكان الرسول ﷺ يتوب أيضًا، ويقول: «يا أَيُّهَا النَّاسُ توبوا إلى الله؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١).

مِمَّ يتوب؟! يتوب من الشعور بالتقصير، فحقيقة التوبة الشعور بالتقصير، والعزم على التغيير، والدخول في التغيير، هذه هي التوبة، فالشعور بالتقصير هو الأساس، وهو الَّذِي يُعَبِّرُ عنه في الشرع بالندم، وفي الحديث: «الندمُ توبةٌ»^(٢). أي أنَّ الندم هو الركن الأعظم في التوبة، كما يقول: «الحجُّ عرفة»^(٣). أي أنَّ الركن الأعظم في الحج هو الوقوف بعرفة.

مِمَّ يندم رسولُ الله ﷺ، وفيَمَّ يشعر بالتقصير؟ إنّه يشعر بأنَّ حقَّ رَبِّهِ عليه حقٌّ عظيم، ولذلك يشعر أنّه مُقَصِّرٌ فيتوب ويستغفر، ويقول:

- (١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢) (٤٢)، وأحمد (١٧٨٤٧)، عن الأغر المزني.
- (٢) رواه أحمد (٤٠١٢)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٢)، وابن حبان في الرقائق (٦١٤)، والحاكم في التوبة والإنابة (٢٤٣/٤)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن ابن مسعود.
- (٣) رواه أحمد (١٨٧٧٤)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، أربعتهم في المناسك والحج، عن عبد الرحمن بن يعمر.

«إِنَّهُ لِيُغَانِ عَلَى قَلْبِي، فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١). بل بعضهم يقول: إِنِّي لَأَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»، مائة مَرَّةً^(٢). فشعور رسول الله ﷺ بالتقصير مع ربه يجعله دائم الاستغفار.

وقد وردت عن النَّبِيِّ ﷺ صِيغُ فِي الاستغفار لم يُعَرَفْ مِثْلُهَا لبشرٍ، ومنها الصيغة التي سَمَّاها الرسول ﷺ سَيِّدَ الاستغفار، كما ورد في الحديث: «سَيِّدُ الاستغفار أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتَ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» قال: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مَوْقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مَوْقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَصْبَحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٣). فهذه صيغة التائبين.

ثَانِيًا: النَّبِيُّ الْعَابِدُ:

وَإِذَا تَأَمَّلْنَا قَوْلَهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿الْعَبِيدُوتُ﴾. نجد أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَائِبٌ عَابِدٌ، يَتَعَبَّدُ لِرَبِّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ: فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ، فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِي الْخُلُوةِ وَالْجُلُوتِ، بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، فَمِنْ صِفَاتِهِ ﷺ أَنَّهُ الْعَابِدُ الْأَوَّلُ.

- (١) رواه مسلم في الذكر (٢٧٠٢) (٤١)، عن الأغر المزني.
- (٢) رواه أحمد (٤٧٢٦)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الصلاة (١٥١٦)، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وابن ماجه في الأدب (٣٨١٤)، عن ابن عمر.
- (٣) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦)، عن شداد بن أوس.

دعوته إلى عبادة الله:

لقد دعا رسول الله ﷺ الناس إلى عبادة الله وحده، كما أن كل الرسل دعوا الناس إلى عبادة الله وحده فقالوا: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فعبادة الله هي دعوة كل نبي، وهي دعوة رسول الله ﷺ، دعا العرب قومَه، ودعا العالمين جميعًا إلى عبادة الله.

لقد كان يرسل إلى الملوك والأمراء - خصوصًا أمراء النصارى وأهل الكتاب - يدعوهم إلى أن يُسَلِّمُوا لِيَسَلِّمُوا، ثم يختم دعوته بهذه الآية الكريمة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فلم يدعو الناس ليعبدوه، أو ليتخذوه ربًّا، بل جاء في القرآن الذي يتلوه على الناس: ﴿مَا كَانَ لِلْبَشَرِ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّنِيغِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

العابد الأول:

ولكنه ﷺ لم يكن مجرد داعٍ إلى عبادة الله، بل هو يدعو إلى عبادة الله ويعبد الله، بل هو العابد الأول في الأمة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، فشعوره بالتقصير دفعه إلى العبادة، فكان يشعر بالتقصير مع الله ﷻ، ويسأله أن يغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر.

سأله أبو هريرة: يا رسول الله، بأبي أنت وأمِّي، أرايت سكوتك بين التكبير والقراءة، ما تقول؟ قال: «أقول: اللهمَّ باعدْ بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهمَّ نقني من خطاياي كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهمَّ اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد»^(١).

هذا الشعور دفعه إلى أن يعبد الله وَحْدَهُ، يقوم الليل، ويصوم النهار، فالله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ ﴿فِرَآئِلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿[المزمل: ١-٥]، العبء الثقيل الذي ستحمله يحتاج إلى إعدادٍ روحيٍّ، هذا الإعدادُ الروحيُّ يتمُّ في مدرسة الليل، ومدرسة القرآن: ﴿فِرَآئِلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿، ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿، في هاتين المدرستين تتربَّى النفوس المؤمنة، وتنزكي القلوب المُخْبِتة؛ لتَحْمِلَ الأعباء الكبيرة، ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿، أعد الله نبيّه بهذا، فسورة المزمل من أوائل ما نزل من القرآن، فكان ﷺ يتعبدُ لربه، ويُطيل العبادة، فكان بعض الصحابة - وهم شباب - لا يتحملون ما يتحمّله النبي ﷺ، صلّى بعضهم خلف النبي ﷺ، فصلّى وأطال الصلاة، حتى قال أحد الصحابة: حتى هممت بأمر سوء. قيل له: وبماذا هممت؟ قال: أن أخرج من الصلاة، وأترك النبي ﷺ. لأنه لم يحتمل طول صلاته.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: «أفلا أحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا؟»^(٢).

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في الأذان (٧٤٤)، ومسلم في المساجد (٥٩٨).

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٧)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٢٠).

نعم، غفر الله لي ما تقدّم من ذنبي وما تأخر، كما قال في سورة الفتح: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، أفلا أقابل هذه النعمة بالشكر، والزيادة في التعبد لله وعجل؟ فكان هو العابد الأول ﷺ.

ثالثاً: النبي الحامد:

ونتأمل قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. من أوصاف المؤمنين أنهم يحمدون الله وعجل، يحمدونه على السراء والضراء، وفي النعماء والبأساء، وفي حالة اليسر وحالة العسر، وفي حالة القوة وحالة الضعف، يحمدون الله في كل الأحوال، يقولون دائماً: الحمد لله. هذا شأن المؤمنين.

هناك من الناس من يحمد الله عند النعمة، فإذا أصابتهم بليّة يسخطون للأسف على الأرض والسماء، وعلى القدر والقضاء، وعلى المخلوق والخالق، لكنّ المؤمنين حقاً حمّادون لله دائماً، يعلمون أنّ الله وحده هو المستحق للحمد، ولذلك بدأ المصحف بسورة الحمد، سورة الفاتحة، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، أي أنّ الله وحده يستحق الحمد، لا يستحق الحمد سواه، فالمؤمنون حامدون لله.

والنبي ﷺ كان حامداً لرّبه، يحمد الله في كلّ أوقاته: إذا أكل حمداً الله، وإذا شرب حمداً الله، وإذا استيقظ من نومه حمداً الله، وإذا أصابته نعمة حمداً الله، وإذا أصابته مصيبة حمداً الله.

إذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»^(١).

(١) سبق تخريجه ص ٣٢.

وإذا شرب قال: «الحمد لله الذي جعله عذباً فرائاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا»^(١).

وإذا استيقظ من نومه قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور»^(٢). فالإنسان إذا استيقظ يُعتبر أنه حيٌّ بعد موته؛ لأنَّ النوم هو الميتة الصغرى، والموت هو النومة الكبرى، ولهذا قيل: الموت نومٌ ثقيلٌ، والنوم موتٌ خفيفٌ. ولذلك يقول القرآن: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠]،

وإذا أتاه ما يسره قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»^(٣).

وإذا أتاه ما يكره قال: «الحمد لله على كلِّ حال»^(٤).

فهو دائماً يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا ينسى هذا الأمر في كلِّ شيء يرى فيه نعمة لله عَزَّ وَجَلَّ، ومن تتبَّع صيغ الأذكار والدعوات التي ثبتت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجد فيها كلمة «الحمد لله» كثيراً جداً:

فهو يقول: «يا ربَّ لك الحمدُ كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك»^(٥).

(١) رواه الطبراني في الدعاء (٨٩٩)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٧/٨)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٢٠٢)، عن أبي جعفر مرسلًا.

(٢) رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٢)، عن حذيفة.

(٣) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣)، والحاكم في الدعاء (٤٩٩/١)، وصحَّح إسناده، وسكت عنه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٦٥)، عن عائشة.

(٤) جزء من الحديث السابق.

(٥) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٣٠/٤): إسناده فيه مقال، قدامة بن إبراهيم ذكره ابن حبان في الثقات، وصدقة بن بشير لم أر من جرحه ولا من وثقه، وباقي رجال الإسناد ثقات. عن ابن عمر.

وإذا أصبح يقول: «أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله لا شريك له، لا إله إلا هو إليه النشور»^(١). وفي المساء يقول مثل ذلك.

ويقول: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحدٍ من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر»^(٢). وفي المساء يقول مثل ذلك.

وقد علّمنا إذا قمنا من الركوع، وقلنا: سمع الله لمن حمده. أن نقول: «ربّنا ولك الحمد، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»^(٣). فهكذا كان رسول الله ﷺ حامداً لربّه على كلّ حال.

رابعاً: النبي السائح:

وإذا تأملنا قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿السَّيِّحُونَ﴾. نجد أنّ أغلب ما جاء عن مفسري السلف في معنى كلمة السياحة هي أنّها الصيام^(٤)؛ لأنّ الصيام سياحة رُوحية، ولذلك قال الله تعالى عن أمهات المؤمنين: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطٍ تَبَيَّنَتْ عِدَّتِ سَيِّحَتٍ ثَبَّتِ وَأَبْكَارًا﴾ [التحریم: ٥]، وليس معقولاً أن يكون معنى ﴿سَيِّحَتٍ﴾ هنا أنهن يضربن في الأرض، ولهذا فسّروا الكلمة بالصيام.

(١) رواه البزار (٨٦٨٥)، وجوّد إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٩٩٤)، وحسّن إسناده ابن حجر في مختصر زوائد البزار (٨٢٣/٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٧٣)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٩٧٥٠)، وحسّنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٣٨٠/٢)، عن عبد الله بن غنّام.

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٧)، وأحمد (١١٨٢٨)، عن أبي سعيد الخدري.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٥٠٢/١٤ - ٥٠٦).

وكان رسول الله ﷺ، من أكثر الناس صيامًا، وكان الصحابة يقولون: كان يصوم حتى نقول: لا يفطر. وكان يفطر حتى نقول: لا يصوم^(١).

وكان يصوم يومي الاثنين والخميس، ويقول: «يومان تُرْفَعُ فيهما الأعمال، فأحبُّ أن يُرْفَعَ عملي وأنا صائم»^(٢).

وكان يصوم كثيرًا في بعض الشهور من غير رمضان، خصوصًا شهر شعبان، ويقول: «ذلك شهرٌ يَغْفُلُ الناس عنه بين رَجَبٍ ورمضان، وهو شهرٌ تُرْفَعُ فيه الأعمالُ إلى ربِّ العالمين، فأحبُّ أن يُرْفَعَ عملي وأنا صائم»^(٣).

وكان يواصل الصيام أحيانًا، فيصوم يوميْن أو أكثر، فأراد بعض الصحابة أن يقلده في ذلك، فنهاهم عن الوصال. قالوا: إِنَّكَ تُواصِلُ؟ قال: «إِنِّي لَسْتُ مثلكم، إِنِّي أَطْعَمُ وَأُسْقِي»^(٤). وفي رواية: «وَأَيْتُكُمْ مثلي؟ إِنِّي أَبَيْتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»^(٥). أنتم لم تبلغوا منزلتي.

وليس معنى ذلك أَنَّهُ يَأْكُل ويشرب حقيقة، وإلا لما صار وصالًا، وإنَّما المعنى أَنَّ عنده زادٌ آخر، زاد من الروحانيَّة العالية التي تُلهيه عن الطعام والشراب، كما قال الشاعر:

لها أحاديثٌ من ذِكرِكَ تَشْغَلُها عن الطعام وتُلهيها عن الزَّادِ^(٦)

(١) مُتَّفَقٌ عليه: رواه البخاري (١٩٦٩)، ومسلم (١١٥٦)، كلاهما في الصيام، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (٢١٧٥٣)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. وأبو داود (٢٤٣٦)، والنسائي (٢٣٥٨)، كلاهما في الصوم. عن أسامة بن زيد.

(٣) جزء من الحديث السابق.

(٤) مُتَّفَقٌ عليه: رواه البخاري (١٩٦٢)، ومسلم (١١٠٢)، كلاهما في الصيام، عن ابن عمر.

(٥) مُتَّفَقٌ عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٩٩)، ومسلم في الصيام (١١٠٣)، عن أبي هريرة.

(٦) من شعر إدريس بن أبي حفصة كما في زهر الآداب للحصري القيرواني (٥٥١/٢)، نشر دار الجيل، بيروت.

فهو مشغولٌ عن الطعام والشراب بذكر الله وَعَجَّلَ، والأنس بالله، وحبّ الله، والشوق إلى الله، فهو يجد في ذلك غذاءً روحياً ينسيه كلّ أغذية الدنيا وأطعمتها وأشربتها، هكذا كان صيامه وَالصَّلَاةَ.

خامساً: النبيُّ الراكع الساجد:

ونتأمل قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ﴾. الركوع والسجود كناية عن الصلاة؛ لأنّ أهم ما يُميّز الصلاة هو الركوع والسجود، وكان ﷺ يجد راحته في الصلاة، وقال: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة»^(١). وإذا حان وقت الصلاة يقول لبلال رضي الله عنه: «أرحنا بها يا بلال»^(٢). هذا، وكأنّ بعضنا يقول أحياناً: أرحنا منها. أي: بالفراغ من أدائها، كأنّ الصلاة عبءٌ يريد أن يتخفّف منه، وشتّان بين الحالين.

لقد كان ﷺ يجد لذّته وسروره في الصلّاة، يجد قُرّة عينه وراحة نفسه في الصلاة، ولذلك كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة^(٣). كما قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فالنبيُّ ﷺ كان يجد المتعة الروحيّة، والسعادة القلبيّة، والراحة النفسيّة، في لقائه مع الله وَعَجَّلَ، وتجاوبه معه.

(١) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والنسائي في عشرة النساء (٨٨٣٦)، وصحّح إسناده ابن الملقن في البدر المنير (٥٠١/١)، وحسنه ابن حجر في التلخيص (٢٤٩/٣)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (٢٣١٥٤)، وقال مخرّجوه: رجاله ثقات لكن اختلف فيه على سالم بن أبي الجعد في إسناده. وأبو داود في الأدب (٤٩٨٦)، وصحّحه الألباني المشكاة (١٢٥٣)، عن رجل من الأنصار.

(٣) رواه أحمد (٢٣٢٩٩)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في قيام الليل (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣)، عن حذيفة بن اليمان.

وكان يروي عن ربّه تعالى قوله: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. قَالَ: مَجَدَنِي عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»: قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ^(١). فهذا تجاوب بين المصلي، وقارئ القرآن، وبين الله وعجل، فهكذا كان ﷺ راکعاً ساجداً.

وكان يقول إذا ركع: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»^(٢)، «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»^(٣).

وإذا سجّد أطل السجود، ويقول: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»^(٤). حينما يحني رأسه، ويلصق جبهته بالتراب خضوعاً وخشوعاً وامثالاً لله تعالى، فهو أقرب ما يكون إلى الله تعالى، ولهذا كان يقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»^(٥). ويدعو الله: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»^(٦).

(١) رواه مسلم في الصلاة (٣٩٥)، وأحمد (٧٢٩١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٢)، عن حذيفة.

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٧)، وأحمد (٢٤٠٦٣)، عن عائشة.

(٤) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأحمد (٩٤٦١)، عن أبي هريرة.

(٥) جزء من حديث حذيفة السابق.

(٦) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب.

ودعواته في السجود - كما رأينا - دعوات مؤثرة، تهزُّ القلب هزًّا، عن عائشة رضي الله عنها قالت: افتقدتُ النَّبِيَّ ﷺ ذات ليلة، فظننتُ أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسَّستُ ثم رجعتُ، فإذا هو راکع، أو ساجد يقول: «سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ». وفي رواية أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١). فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنِّي لَفِي شَأْنٍ وَإِنَّكَ لَفِي آخَرٍ^(٢). فلامت نفسها على أنها ظنت برسول الله ما ظنت، وهو مشغول بمناجاة ربه وَعَجَلَ، فهكذا كان ﷺ راکعًا ساجدًا.

سادسًا: النَّبِيُّ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ:

ونتأمل قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. هذا الوصف من مكمّلات صفات المؤمنين، فلا يكفي أن يكون المؤمن صالحًا في نفسه ولا يعمل على إصلاح غيره، فبعض الناس طيّبون في أنفسهم، يصلّي أحدهم، ويصوم، ويحج، ويقوم، ويذكر الله، ولكنّه لا يهتم أمر الناس: صلحوا أم فسدوا، اهتدوا أم ضلوا، آمنوا أم كفروا؟ لا يهتم بذلك، يهتم فقط بنفسه، وهذا ليس من الإسلام الصحيح.

صالح وإصلاح:

الإسلام الصحيح: أن تحمل همّ غيرك، أن تكون صالحًا في نفسك، وتعمل على إصلاح غيرك، أن تكون داعيًا إلى الله، فكل مسلم داعية

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأحمد (٢٥٦٥٥).

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣١).

لدينه، والله تعالى حينما خاطب الرسول ﷺ بقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، لم يكن خطاباً للنبي ﷺ وحده، وإنما هو خطابٌ لكل من يتأتى خطابه من الأمة.

كل مؤمن في هذه الأمة مخاطب بتلك الآية الكريمة، مأمورٌ بما فيها، والله تعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فكل من اتبع رسول الله ﷺ فهو داعٍ إلى الله، وداعٍ إليه على بصيرة.

كلُّ مسلم ومسلمة يجب أن يكون داعيةً إلى الله، والدعوة إلى الله مستويات، فقد يدعو إلى الله بتأليف كتاب، أو بإلقاء محاضرة، أو بإلقاء درس، أو يدعو إلى الله بالكلمة الطيبة، أو بالصُّحبة الصالحة، أو بالقدوة الحسنة، أو بالخلق الكريم، أو بتقديم الخير إلى الناس، فبهذا يحبب دين الله إلى الناس، فكلُّ يدعو بما يستطيع، وقد يستطيع أن يجمع بين كل ذلك، فالدعوة إلى الله واجبةٌ على كلِّ مسلم مسلمة.

وهذه الدعوة قد يُعَبَّر عنها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو يُعَبَّر عنها بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، كما في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

لم يكتف القرآن بأن يجعل نجاة الإنسان من خسران الدنيا والآخرة بالإيمان وعمل الصالحات في نفسه فقط، بل لا بد أن يجنِّد الإنسان نفسه للحق، يتواصى بالحق.



وكلمة ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ في اللغة العربية تفاعل من الجانبين، أي أنه يوصي غيره بالحق، ويقبل من غيره أن يوصيه بالحق، فليس هناك إنسان أصغر من أن يوصي، وليس هناك إنسان أكبر من أن يوصي، كلُّ إنسان يُوصي ويُوصى، يُوصي بالحق، يدعو إليه، إذا رأى باطلاً أنكره، وإذا رأى حقاً ضائعاً غضب لضياعه، وإذا رأى منكراً شائعاً نهى عنه، وإذا رأى معروفاً ضائعاً دعا إليه، هذا هو شأن الإنسان المؤمن.

الأمْر الأوّل بالمعروف والنّاهي الأوّل عن المنكر:

وقد كان النبي ﷺ الأمر الأوّل بالمعروف، والنّاهي الأوّل عن المنكر، هو صاحب الدعوة، هو رسول الإسلام، الذي رأى المنكر الأكبر، رأى الشّرك بالله، ورأى الجاهليّة وضلالاتها ومفاسدها، فوقف ينهى عن هذا المنكر، ويأمر بالمعروف، والتوحيد هو المعروف الأكبر، فدعا إلى توحيد الله ﷻ، فكان هو الأمر الأوّل بالمعروف، والنّاهي الأوّل عن المنكر.

الصبر على الدعوة:

ولم يبال في سبيل ذلك بما أصابه، ما دام في سبيل الله، لقد لقي العنت والأذى، وتجرّع الصّاب والعلقم، وذاق المرّ هو وأصحابه سنين طويلة، حتى إنهم قوطعوا ثلاث سنوات مقاطعةً كاملةً: لا يُباع لهم، ولا يُشترى منهم، ولا يُتزوَّج منهم، ولا يُزوَّجون، مقاطعة اقتصادية واجتماعية، حتى أكلوا أوراق الشجر، ودُميت أشداقهم.

مقاومة الإغراء:

وقد عُرِض عليه أن يترك دعوته في مقابل اليُسْر، والمُلْك، والمجد، فلم يشنه ذلك عن دعوته. قال له عتبة بن ربيعة: يا ابن أخي، إن كنت

إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا مللناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك ربيّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع مني». قال: أفعّل. قال: «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * كَتَبْتُ فَصَّلَتْ عَائِثَةُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١-٤]». ثم مضى رسول الله فيها يقرأها عليه، فلما سمعها عتبة منه أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يستمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك»^(١).

هكذا رفض رسول الله ﷺ أن يقبل اليُسْر، والمُلْك، والمَجْدَ بديلا عن دعوته، وقال: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه»^(٢). وأصرّ على دعوته، فقد كان هو الدّاعي الأوّل، وكان الأمر الأوّل بالمعروف، والنّاهي الأوّل عن المنكر.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢٩٣/١، ٢٩٤).

(٢) رواه الطبري في تاريخه (٣٢٦/٢). وضعفه الألباني في الضعيفة (٩٠٩)، وقال: وقد وجدت للحديث طريقا أخرى بسند حسن لكن بلفظ: «ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك، على أن تستشعلوا لي منها شعلة» يعني الشمس. وقد خرّجته في الأحاديث الصحيحة رقم (٩٢)، عن يعقوب بن عتبة بن الأحنس.



تغيير المنكر:

ولم ير رسول الله ﷺ أي منكرٍ إلا وغيّره، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولو كان المنكر من أقرب الناس إليه، وأعز الناس عليه، وقال في الحديث المشهور: «وايم الله، لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(١).

وما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله^(٢)، وما ضرب بيده شيئاً قط، لم يضرب امرأة، ولا خادماً، ولا دابةً^(٣)، كان حسن الخلق مع خلق الله جميعاً، يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»^(٤).

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت؟»^(٥). من يستطيع ذلك غيره ﷺ؟ ولذلك قال في شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. هذا هو الخلق القرآني.

وكان لا يغضب، وينهى عن الغضب^(٦)، إلا إذا انتهكت حُرّمات الله، حينها لا يحول دونه شيء، وإذا رأى أحداً قريباً إليه قد أخطأ خطأ لا يسكت عنه، فحين قالت السيدة عائشة رضي الله عنها، عن ضربتها صفية بنت

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)، عن عائشة.

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في الأدب (٦١٢٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، عن عائشة.

(٣) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٨)، عن عائشة.

(٤) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٩٥)، وقال: حسن صحيح. والدارمي (٢٣٠٦)، وابن حبان

(٤١٧٧)، كلاهما في النكاح، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. وصحّحه الألباني في

الصحيحة (٢٨٥)، عن عائشة.

(٥) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في الأدب (٦٠٣٨)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٩).

(٦) رواه البخاري في الأدب (٦١١٦)، عن أبي هريرة.

حيي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا - تعني إنها قصيرة - فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»^(١). كلمة تُعكّر بحرًا، فأراد أن يُنبّئها حتى لا تقع في مثل ما تقع فيه كثير من النساء.

التوصية بالصبر:

لقد كان ﷺ يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الله، ويوصي بالحق والصبر، يوصي أصحابه بالصبر حتى لا يياسوا ولا يجزعوا، كان ﷺ متوسّدًا بردة له في ظل الكعبة، فجاءه خباب بن الأرت رضي الله عنه، وهو من المسلمين السابقين، وكان عبدًا لسيّدة مشركة، كانت تحمي له الحديد في النار، ثم تكويه به، فغلب عليه الضعف البشري، وذهب إلى رسول الله ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(٢).

لقد عرّفه ما لاقاه الناس قبل ذلك من أتباع الأنبياء، من فتن ومحن وشدائد، ثم بيّن له أنّ هذا الليل لا بدّ له من فجر، وأنّ هذه الشدة لن

(١) رواه أحمد (٢٥٥٦٠)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الأدب (٤٨٧٥)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٢)، وصحّحه الألباني في غاية المرام (٤٢٧).

(٢) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٢)، عن خباب بن الأرت.

تطول، وأنها حتمًا ستزول، فإنَّ بعد الليل فجرًا، وإنَّ مع العسر يسرًا، ولكنكم تستعجلون، سينتصر الإسلام، وسيُظِلُّ أَمْنُهُ النَّاسَ، الذين يخافون أن يتخطَّفَهُم النَّاسُ، حتى إنَّ الإنسانَ سيسير من شمال الجزيرة العربية إلى جنوبها لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون، فلا تستعجلوا كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. كلُّ شيء عند الله بأجلٍ مُّسمًى، فهكذا كان رسول الله ﷺ يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر.

سابعًا: النبي الحافظ لحدود الله:

ونتأمل قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾. حدود الله هي محارمه، ما حرّمه الله تعالى، فالمؤمنون يحفظون هذه الحدود، لا يقتربون منها، ولا ينتهكونها، لا يرتكبون ما نهى الله تبارك وتعالى عنه.

وأول الناس حفظًا لحدود الله هو رسول الله ﷺ، كان حريصًا على ألا يرتكب ما نهى الله تبارك وتعالى عنه، ولم يُعرَف عنه في حياته أنه اقترف شيئًا ممّا نهى الله عنه وحرّمه، لا كبيرة، ولا صغيرة.

بل لم يعرف في حياته ﷺ قبل البعثة أنه شارك في لهو أو لعب، أو في أمر من أمور الجاهليّة، وقد كان كل شيء في الجاهليّة مباحًا: الخمر، والميسر، والربا، والزنا، وغيره، ولكنّه ما شارك في آثام الجاهليّة ولا مساوئها، لقد حفظه الله، حتى قبل الإسلام؛ ليكون صورةً حسنة، وأسوة طيبة، حتى لا يقال: أو ليس هو من فعل كذا، أو كذا من مساوئ الجاهلية.

لقد كان طاهرًا مطهّرًا، لقد حفظه الله تعالى في الجاهليّة، فكيف لا يحفظه في الإسلام؟ ولذلك كان هو أول الحافظين لحدود الله.

سيرة أخلاقية:

هذه أيتها الأخوات الكريمات صورة سريعة ومجملّة تبين الخلق المحمدي، وأنه هو الخلق القرآني.

ولو أخذنا القرآن الكريم، آية آية، وطبقناها على سيرة الرسول ﷺ، سنجد أنه النموذج العملي التطبيقي للقرآن الكريم، فمن أراد أن يعرف القرآن الكريم عملياً تطبيقياً فليقرأ سيرة رسول الله ﷺ.

وتوجد كتب تُسمّى كتب الشمائل، أي شمائل رسول الله ﷺ، أو هدي رسول الله ﷺ، سيجد ذلك في شمائل الترمذي، وفي زاد المعاد لابن القيم، سيجد في كتب شتّى هذه السيرة المفصلة التي تُجلبّي لنا أخلاق رسول الله ﷺ، والتي مدحها الله تعالى، وأثنى عليها في كتابه، حينما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. والتي قال عنها النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١). والتي تُجسّد قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فهو رحمة للعالمين في دعوته، ورحمة للعالمين في سيرته، كما قال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مَّهْدَاةٌ»^(٢).

نسأل الله تعالى أن يجعل لنا من هذه السيرة المشرفة نوراً نقبس منه، ومنهاجاً نهتدي به، وأن يجعلنا من أتباع رسول الله ﷺ، الذين يسرون

(١) سبق تخريجه ص ١٢٧.

(٢) رواه الطبراني في الصغير (٢٦٤)، والأوسط (٢٩٨١)، والحاكم في الإيمان (٣٥/١)، وصحّحه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٩٤٠): رواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط، ورجال البزار رجال الصحيح. وصحّحه الألباني في غاية المرام (١)، عن أبي هريرة.



على دربه، والذين يقتبسون من سناه، والذين يهتدون بهداه، ويتبعون
النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم، والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *





حياة النبي ﷺ في بيته (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أحبيكم به أيها الإخوة تحية الإسلام، وتحية الإسلام السَّلام، فالسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ما أعظم أن نعيش مع رسول الله ﷺ، وما أجمل وما أكمل أن نحيا مع هذه السيرة العطرة، السيرة الجامعة الشاملة الكاملة التي اختص بها رسولنا ﷺ.

(١) أُلقيت في المؤتمر السنوي الرابع لرابطة الشباب المسلم العربي «المايا»، بأمريكا الشمالية، تحت عنوان: «الأسوة الحسنة» عام ١٩٨١م.



السيرة النبوية تطبيق عملي للإسلام:

إنَّ من واجب كل مسلم أن يعرف هذه السيرة، وأن يعيش معها، وأن يتعرف على خصائصها؛ ليزداد فهمًا للإسلام، كلما عاش مع نبي الإسلام ﷺ! فالرسول ﷺ يمثل الإسلام الحي، يمثل الإسلام العملي، الإسلام مجسدًا في سيرة، في شخصية تعيش الناس، ولذلك حينما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن^(١). أي إنَّه مصحف مفسر، مصحف يمشي على قدمين بين الناس، فإذا أردنا أن نعرف الإسلام بشموله وتوازنه وعمقه رأيناه في حياة النبي ﷺ، رأينا هذه الحياة الحافلة: حياة السلم والحرب، حياة العبادة والجهاد، حياة الأسرة والمجتمع، الحياة بكل جوانبها! رأيناها في سيرته ﷺ، فإذا كنا نريد أن نفهم الإسلام مجسمًا في سيرة فعلينا أن نقرأ، وأن ندرس، وأن نعيش مع سيرة النبي ﷺ.

السيرة النبوية من دلائل صدق الرسالة:

ومن ناحية أخرى: إذا درسنا هذه السيرة ازددنا إيمانًا بصدق رسالته ﷺ؛ فإنَّ هذه السيرة من أنصع الأدلة على أنَّ صاحب هذه السيرة كان نبيًا، لا يمثل نفسه، وإنَّما يمثل الإرادة الإلهية! كل جوانب هذه السيرة، حياته ﷺ في الخلوة وفي الجلوة، حياته الخاصة والعامة، كلها تدل على أنَّها ليست سيرة ملك، ولا طالب ملك، ولا دجال، ولا كاهن من الكهان؛ وإنَّما هي سيرة إنسان عظيم، يتحدث عن الله ﷻ، مؤيد من رب السماء والأرض.

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١)، عن عائشة.

دراسة السيرة تزيد من محبتنا للنبي:

ومن ناحية ثالثة، فإنّ دراستنا لهذه السيرة تزيدنا حبّاً لرسول الله ﷺ، وقد قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده والناس أجمعين»^(١). ولن يتعمق هذا الحب بين جوانحنا إلا إذا عايشناه ﷺ، وعرفنا أنّه عاش لهدايتنا، لم يعش لنفسه قط، وإنّما عاش لهذه الأمة، لقي ما لقي، ولاقى ما لاقى، وقاسى ما قاسى، وذاق الصاب والعلقم ثلاثة عشر عاماً في مكة، وعشرًا أخرى في المدينة، كلها من أجل هذه الأمة، فمن هنا كان علينا أن نحبه، وأن نزداد له حبّاً.

تجسيد المحبة في حسن الاتباع:

ثم من ناحية رابعة: إذا أحببناه كان علينا أن نجسد هذا الحب في اتباع، في اقتداء، والاقتراء هو موضوع هذا المؤتمر: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، ومن فضل الله على الناس أنّه أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وجعلهم بشراً يعيشون بينهم، ولم يجعلهم ملائكة؛ حتى يمكن أن يقتدي الناس بهم.

النبي ﷺ أسوة للعالمين:

ومن فضل الله علينا نحن المسلمين أن بعث إلينا رسولاً يمكن لكل إنسان أن يجد في سيرته وفي حياته موضعاً للأسوة، بعض الأنبياء يمكن أن تجد جانباً وجانبين في حياته للأسوة، ولكن بقية الجوانب لا تجدها،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.



يمكن أن تقتدي بسليمان عليه السلام في جانب معين، كيف يتصرف الإنسان إذا حكم، أو إذا ملك، أو إذا كان ذا مال وسلطان، ولكن الفقير مثلاً لا يجد في حياة سليمان مجالاً للقدوة، يمكن أن تقتدي بيحيى عليه السلام، وبعيسى المسيح عليه السلام في الزهد في الدنيا، في العبادة والتبتل لله وَعَلَى، ولكن لا يستطيع زوج، ولا يستطيع أب، ولا يستطيع جد أن يجد في حياة يحيى أو المسيح مجالاً للأسوة؛ فلم يتزوج واحد منهما، وبالتالي لم ينجب.

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد كل إنسان في حياته مجالاً يأتسي فيه ويقتدي، الشاب يجد فيه كيف كان العفيف الطاهر العامل الكادح، والزوج يجد فيه مجالاً للاقتداء، ذو الزوجة الواحدة يجد فيه حينما كان يعيش مع خديجة كيف يعيش الزوج مع زوجته الواحدة، ومن تزوج أكثر من واحدة يجد في حياته مجالاً للاقتداء، من تزوج زوجة صغيرة أو زوجة كبيرة، الأب والجد، المسالم والمحارب، السياسي والقائد العسكري، الزعيم والحاكم والمحكوم، الغني والفقير، كل يجد في سيرته مجالاً للاقتداء، فقد كانت حياته وَعَلَى تمثل هذا كله، وهذا من الشمول الذي خص الله به هذه السيرة كما خص به مصادر الإسلام! شمول القرآن وشمول السنة وشمول الرسالة الإسلامية جميعاً.

ليس هناك خطوط حمراء في سيرته:

ولهذا لا عجب أن نتحدث عن سيرته وَعَلَى في بيته وبين أهله، وهذا هو موضع حديثنا هذه الليلة! والإنسان يعيش نصف حياته وربما أكثر في بيته، ليله في بيته، وبعض نهاره في بيته، يأكل ويشرب في بيته، ويستريح ويقيل وينام في بيته، ويعاشر زوجته ويعايش أبناءه وبناته في بيته، فللبيت أهمية عظيمة، فكيف كانت حياته وَعَلَى في بيته ومع أسرته؟

إنَّ كثيرًا من الناس الذين يعدونهم عظماء يأتون إلى حياتهم العائلية أو الأسرية أو الخاصة ويقولون: هنا دائرة أو علامة حمراء، لا داعي للتحديث عن الحياة الخاصة والأسرية، أو: لكل إنسان خصوصياته، أو: هناك نقاط ضعف معينة يجب إغفالها أو السكوت عنها! ولكن رسول الله ﷺ لم تكن في حياته دائرة حمراء، ولم تكن هناك نقطة ضعف، ولم يكن هناك شيء خصوصي له، بل قال: «حدثوا عني»^(١)، و«بلغوا عني»^(٢). وترك تسع نسوة من بعده يروين عن حياته الخاصة كل شيء؛ لأن حياته ملك للناس، وهي موضع الاقتداء!

ولم يكن له ﷺ - كما لكثير من الناس - حيتان: حياة مع الناس وحياة في بيته، لم تكن له سيرة في الخلوة، وسيرة في الجلوة، لا، هي سيرة واحدة، ووجه واحد، هي حياة واحدة كلها نقاء، كلها كمال بشري، كلها أدب أدبه الله تعالى به فأحسن تأديبه، وجعله أسوة ورحمة للعالمين.

حياة ربانية عميقة:

ولهذا إذا نظرنا إلى هذه الحياة نجدها تتميز بالربانية العميقة، وبالإنسانية العريقة، وبالأخلاقية الفاضلة، وبالوسطية العادلة! هذه خصائص الحياة النبوية البيتية.

كان ﷺ في بيته ربانيًا، يذكر الله في كل أحواله، وفي كل أحيانه: قائمًا وقاعدًا وعلى جنب، إذا أكل ذكر الله، وإذا شرب ذكر الله، وإذا فرغ من أكله أو شربه ذكر الله، وإذا دخل بيته ذكر الله، وإذا خرج من بيته ذكر الله،

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٣٠٠٤)، وأحمد (١١٠٩٢)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١)، عن عبد الله بن عمرو.

وإذا أتى أهله - حتى في ساعة قضاء الشهوة والغريزة - ذكر الله، كان يذكر الله في أحيانه، وعلى كل أحواله، كانت حياته ﷺ ربانية في كل شيء.

هذا الإنسان الرباني، كان يعيش يومه مع الناس يقضي حوائجهم، ويسمع لهم ويعايشهم، ويحل مشكلاتهم، ويستقبل الوفود، ويرسل الجيوش والبعوث، كانت حياته ﷺ - في المدينة بالذات - حياة جهاد متصل، سبع وعشرون غزوة غزاها النبي ﷺ، حضرها بنفسه، منها الغزوات السبع الكبار، وحوالي ما يقرب من ستين سرية، بعث فيها أصحابه ﷺ!

حياة جهاد متصل! كان يحارب في عدة جبهات: الجبهة الوثنية في مكة وما حولها، والجبهة اليهودية: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وخيبر، والجبهة النصرانية البيزنطية، والجبهة المجوسية الفارسية المتربصة، وجبهة المنافقين في الداخل.

مراعاة الحقوق والواجبات:

هكذا كانت حياته حياة جهاد متصل، ولكن هذا لم يشغله عن أن يقوم بحق ربه، وبحق أهله في بيته، كان يقوم بحق الله؛ رغم تعب النهار، ولكنه كان بالليل مع الله، كان إذا صلى بالناس تجوز وخفف، كان أخف الناس صلاة إذا أمّ غيره، وكان أطول الناس صلاة إذا صلى بنفسه! كان يعلم أن وراءه الكبير والضعيف والمريض وذا الحاجة فكان يخفف، وكان أحياناً - كما روى عنه أنس بن مالك رضي الله عنه - يدخل الصلاة يريد أن يطيلها فيسمع بكاء الصبي فيتجوز فيها؛ لما يعلم من وجد أمه من بكائه^(١). يعلم أن قلب الأم مع بكاء هذا الصبي، فيخفف، ويختصر الصلاة؛ وكان يريد

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٠٨)، ومسلم في الصلاة (٤٧٠).

إطالتها! ولكنه إذا قام بالليل أطال الصلاة، أطال القراءة، وأطال الركوع، وأطال السجود، أطال الوقوف حتى تتورم قدماه، وكما جاء في بعض الروايات: حتى تشقق قدماه. حتى أشفت عليه زوجه عائشة رضي الله عنها وقالت له مرة: ما هذا يا رسول الله؟ وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(١)

حياة العابد الخاشع:

كان بيته ﷺ للعبادة، كان ينام بعض الليل ويقوم بعضه، كان يقوم قبل منتصف الليل، أو عند النصف، أو بعد النصف بقليل!

جاء بعض التابعين يسألون أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالوا لها: حدثينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ. فقالت: بأبي هو وأمي، وأي أمره لم يكن عجباً؟ قام من الليل يوماً وقال: «يا عائشة، ذريني أتعبد لربي». فقلت: يا رسول الله، إنني والله أحب قربك، ولكنني أوتر هواك. فقام يصلي؛ فما زال يبكي حتى بللت دموعه لحيته، فسألته عائشة عن هذه الصلاة، وعن هذا الطول في العبادة، فقال: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيَّ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]. ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»^(٢).

كانت حياة ربانية، حياة عبادة لله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَام، وقد أمره الله بقوله: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَرْمَلُ﴾ * قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ * أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٥]. أمره أن يعد نفسه في مدرسة الليل،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٧)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٢٠).

(٢) رواه ابن حبان في الرقائق (٦٢٠) وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وفي مدرسة القرآن؛ حتى يستطيع أن يتحمل العبء الثقيل، عبء الدعوة وعبء الرسالة: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، هكذا كانت حياته ﷺ العابد القانت لله ﷻ.

زهد غير متكلف:

وكان ﷺ؛ مع عبادته يعيش حياة البساطة والزهد في الدنيا، يأكل ما تيسر له أكله، لا يرد موجودًا، ولا يتكلف مفقودًا: إن جاءه شيء طيب أكله، وإن لم يجئه لم يبحث عنه!

يعجبه لحم الذراع فيأكله، يُستعذب له الماء فيشربه، يُهدى إليه ذراع فيقبله!

حياة كلها زهد، لم يكن يتكلف شيئًا! ما عاب طعامًا قط: إن اشتهاه أكله، وإن لم يشتهه تركه!

لم يأكل الضب، قيل له: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: «لا، ولكن لم يكن بأرض قومي»^(١). وأكل على مائدته وهو ينظر!

عاش حياة البساطة: كان يأكل الشعير غير منخول، كانوا يطحنون الشعير عن طريق الرحى، فهو دقيق خشن، ينفخونه فيطير منه بعض الأشياء، والباقي يعجنونه ويخبزونه! لم يعرفوا المنخل في حياة النبي ﷺ، ومع هذا تقول عائشة: ما شبع ثلاثة أيام من خبز الشعير. قالت: ولو شئنا لشبعنا، ولكنه كان يؤثر على نفسه^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٣٧)، ومسلم (١٩٤٥)، كلاهما في الذبائح والصيد، عن ابن عباس.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٣٩٦)، عن عائشة.

إذا جاءه شيء طيب أكله، وإن لم يجئه صبر؛ حتى ربط في بعض الأحيان الحجر على بطنه من الجوع، وقالت عليها السلام: إنه كان ليمر الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما يوقد في أبيات النبي صلى الله عليه وآله نار. تعني لا يطهون طبخًا! قال لها ابن أختها أسماء عروة بن الزبير: فعلام كنتم تعيشون يا خالة؟ قالت: يا ابن أختي، إنما هما الأسودان: التمر والماء^(١). واعتبر الماء أسود لأن مياه المدينة في الآبار، وإذا كان الماء في الأسفل اتخذت لونًا أسود، هكذا كانت حياته صلى الله عليه وآله!

وما كان أثاث بيته؟ كان ينام على وسادة حشوها من ليف، وثني له فراش مرة

أربع ثنيات، فقال لهم: «رُدُّوه لحالته الأولى؛ فقد منعني وطأته صلاتي الليلة»^(٢). يعني أنه نام واستراح فأطال النوم، فقال: لا، لا أحب هذا. ودخل عليه عمر يومًا فوجد الحصار قد أثر في جنبه فقال: يا رسول الله، كسرى وقيصر ينامان على الديباج والإستبرق وأنت تنام على الحصار حتى يؤثر في جنبك؟! هلاً اتخذت لك فراشًا وطيبًا؟ فقال: «يا عمر، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب في يوم صائف استظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها»^(٣). أي إن هذه الدنيا بمثابة

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٥٦٧)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٢)، عن عائشة.

(٢) رواه الترمذي في الشمائل (٣٣٠)، نشر المكتبة التجارية، وقال المناوي في (الفيض): رمز

المصنف (السيوطي) لحسنه وليس بجيد، فقد قال الحافظ العراقي: هو منقطع (١٧٢/٥).

وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٢٢٣)، عن عائشة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩١٣)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩)، عن ابن عباس.

مقيل، محطة استراحة، والآخرة هي المقر وهي المصير، وهي الدار المقصودة! هكذا عاش ﷺ حياة متواضعة في كل شيء، يرقع ثوبه بيده، يخصف نعله بيده، يحلب شاته بنفسه، يطحن مع الجارية والغلام، يكون في مهنة أهله.

هكذا كانت حياة رسول الله ﷺ! ما كانت حياة الملوك، ولم يرض لنفسه أن يعيش عيشة الملوك، ولو شاء لفعل، ولكن ما كان يجيئه شيء إلا أنفقه، قال: «ما يسرني ألا يمر علي ثلاث، وعندي منه شيء إلا شيء أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ»^(١). حتى إنه قبل أن يموت ﷺ تسلف ثلاثين وسقًا من شعير من يهودي، وطلب اليهودي منه رهنا فرهنه درعه، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند اليهودي في نفقة عياله، هكذا كان رسول الله ﷺ.

دخل عليه عدي بن حاتم، فألقت الجارية إلى النبي ﷺ وسادة يتكئ عليها ويتوسد عليها، فقربها من عدي، وجلس ﷺ على الأرض، فقال عدي في نفسه: ما هذا بشأن ملك^(٢). ولما دخل عليه بعض الناس ارتعب من هيئته ﷺ فقال: «هَوْنٌ عليك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة»^(٣).

هذه هي حياة التواضع والزهد والعيشة البسيطة التي أرادها ﷺ لنفسه! لم يكن التمتع حرامًا في حقه، ولكنّه أراد أن يعلم الناس أنّه عاش لله، أنّه عاش في أفق رفيع وضيء، بعيد عن زخارف الدنيا وزينتها.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستقراض (٢٣٨٩)، ومسلم في الزكاة (٩٩١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبري في تاريخه (١١٢/٣).

(٣) سبق تخريجه ص ١٨٢.

حياة النبي في بيته:

ولما أراد نساؤه يوماً أن يغيرن من حالتهن، تطلعن إلى أن يعشن عيشة الملوك والأمراء؛ بعد أن فتح الله عليه الفتوح، وأفاء عليه من الغنائم! وكان يمكنه أن يعيش عيشة رفيعة راقية: اجتمع نساؤه يطالبنه بالزيادة في النفقة، وكان رد القرآن حاسماً في هذه القضية: أن هذا البيت - بيت النبوة - ليس كبيوت الملوك والأمراء، نزلت آيات سورة الأحزاب تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩]. تخيير بين أمرين: من كانت تريد الحياة الدنيا، والمعيشة المرفهة، والزينة والتجمل فليس مكانها في بيت محمد ﷺ، تأخذ متعتها، وتطلق بالمعروف، وتُسرح السراح الجميل! ومن أرادت الله والدار الآخرة فإنها تنتظر الأجر العظيم في دار هي خير وأبقى، عند الله ﷻ، هكذا عاش ﷺ!

هذه حياته في بيته، حياة العابد الزاهد المتواضع، وحياة الإنسان أيضاً: الزوج، الأب، الجد! ليس معنى أنه رسول أنه لم يكن بشراً يعرف للزوجية حقها، وللأبوة حقها، ويعرف للعواطف الإنسانية حقها، لا، بل عرف ﷺ ذلك كله، وهذا هو التوازن، وهذه هي الوسطية في حياته ﷺ!

ملاطفة النبي نساءه:

بجوار هذه الربانية كانت هناك الناحية الإنسانية، الناحية البشرية: كان يعرف لزوجاته حقوقهن، وكان له تسع من النساء، مختلفات الأذواق والمشارب والأسنان والجنسيات، فيهن القرشية، وفيهن الهلالية، وفيهن العربية، وفيهن الإسرائيلية، وفيهن الصغيرة بنت التسع سنوات، وفيهن

الكبيرة مثل سودة: مشارب وأمزجة وأعمار مختلفة، ولكنه ﷺ عايشهن جميعاً بالحسنى، وعرف لكل واحدة منهن قدرها ومطالبها وحاجاتها! عاش إنساناً، كان يعرف من عائشة صغر سنّها، فكان يدلّ لها، وكان يسرب إليها من بنات الأنصار مَنْ يلعب معها؛ لأنّها جارية، حديثه السن حريصة على اللهو^(١)، كان يأتي لها بالبنات أي بالعرائس والدمى تلعب بها في بيته^(٢)!

أراها الحبشة وهم يلعبون بحرابهم في المسجد، فنظرت من فوق منكبه لترى هؤلاء الأحباش حتى شبت وانصرفت! هكذا كان يرضى ﷺ صغرها، وكان يضع فيه موضع فيها في المأكّل والمشرب، في الإناء الذي تشرب منه، وفي العظم الذي عليه لحم^(٣)، وهكذا كان ﷺ، خرج من البيت مرة فتسابقا، هو يريد أن يخرج أولاً، وهي تريد أن تخرج؛ كنوع من الممازحة اللطيفة!

ومن المعروف حادثته ﷺ معها في المسابقة، أنّه سابقها فسبقته مرة حينما كانت خفيفة اللحم، ثم لما في المرة الثانية رغم تقدم سنّه ﷺ سبقها بعد أن سمت، فقال لها ممازحاً: «هذه بتلك»^(٤). أي أصبحنا متعادلين، وهكذا يتسع هذا القلب الكبير لمثل هذا كله، وكان يمزح ﷺ ولا يقول إلا حقاً.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٣٦)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٢)، عن عائشة.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٣٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٠)، عن عائشة.
(٣) عن عائشة قالت: كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ، فيضع فاه على موضع فيّ، فيشرب، وأتعرق العرق وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ، فيضع فاه على موضع في. رواه مسلم في الحيض (٣٠٠)، وأحمد (٢٤٣٢٨).

(٤) رواه أحمد (٢٦٢٧٧)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الجهاد (٢٥٧٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٩)، وابن حبان في السير (٤٦٩١)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٣١)، عن عائشة.

العدل بين الزوجات:

هكذا كان يعيش ﷺ مع نسائه، وكان يعدل بينهن في النفقة والكسوة والمبيت، وفي كل الأمور الظاهرة؛ إلا في العواطف والميل القلبي، فكان بعد أن يقسم لهن يقول منادياً ربه: «اللهم إني هذا قسمي في أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»^(١). يعني أمر القلب، هكذا كان ﷺ.

ومع أنه كان يحب عائشة مثلاً أكثر من غيرها، ولكن إذا أخطأت وقفها عند حدها، وبيّن لها خطأها: ففي مرة من المرات قالت له عن صفية: ما يعجبك من هذه إلا أنها! وأشارت بيديها إلى أنها قصيرة، فأنكر ﷺ عليها وقال: «يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»^(٢). كلمة تعكر بحرًا.

ولما نزلت آيات التخيير في سورة الأحزاب ليخير ﷺ نساءه بين الله ورسوله والدار الآخرة، وبين الدنيا وزينتها، بدأ بعائشة فقال لها: «إني محدثك في أمر أرجو ألا تستعجلي فيه حتى تستأمري أبويك». تستشيريهما فيه، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فقرأ عليها آيات التخيير، فقالت: يا رسول الله، وفيك أوامر أبوي؟ إني أختار الله والدار الآخرة - أي هذه لا تحتاج إلى مشورة - ولكن لا تخبر أحداً من نسائك بما اخترته. غلب عليها أيضاً الأنوثة، كأنها تريد أن تنفرد به ﷺ، تتمنى لو أن الجميع اخترن الدنيا وزينتها، وبقيت وحدها زوجة له، فقال لها ﷺ: «إن الله لم يبعثني معنّاً ولا متعنّاً، وإنما بعثني معلماً ميسراً، والله لا تسألني إحداهن عما اخترت إلا أخبرتها»^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ٢٧٨.

(٢) سبق تخريجه ص ٧٠٦.

(٣) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٨)، وأحمد (١٤٥١٦)، عن جابر بن عبد الله.

هكذا كان ﷺ عدلاً في كل حياته، عاش زوجاً أفضل ما يكون الأزواج، كان إذا صلى العصر دار على نسائه تساءل عنهن، وقرب منهن من غير ميسيس! حتى إذا جاء الليل يذهب إلى صاحبة النوبة^(١)، وكان إذا أراد سفرًا أقرع بينهن، أجرى بينهن القرعة حتى يتساوى الجميع في هذه الفرصة^(٢)، وفي مرضه ﷺ كان يبيت كل ليلة عند واحدة منهن ترضه، وكان يسأل: «أين أنا غدا؟» فيقلن له: أنت غداً عند أم سلمة، أو غداً عند حفصة، وهكذا!

فلما أكثر من السؤال عرفن أنه يريد عائشة، ويستعجل يوم عائشة، فتنازلن جميعاً لها؛ ليُمَرَّض في بيتها، ومات ﷺ بين سحرها ونحرها كما افتخرت بذلك ﷺ^(٣)، هكذا كان ﷺ والصلاة والسلام.

ما يحدث بين الأزواج:

وقال لعائشة يوماً: «إني أعرف رضاك من غضبك». قالت: وكيف تعرف ذلك يا رسول الله؟ قال: «إذا رضيت قلت: ورب محمد. وإذا غضبت قلت: ورب إبراهيم». قالت: نعم، والله يا رسول الله لا أهجر إلا اسمك^(٤).

وراجعت امرأة عمر يوماً زوجها عمر فأنكر عليها! اعتبر هذا شيئاً جديداً، وقال عمر في ذلك: إنا نحن معشر قريش كنا قومًا نغلب النساء، وكان الأنصار تغلبهم نساؤهم، فلما هاجروا بدأ نساء المهاجرين يتعلمن من نساء الأنصار: أن المرأة تناقش زوجها، وتراجعه، وهكذا! فراجعت امرأة

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الحيل (٦٩٧٢)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٤)، عن عائشة.

(٢) رواه البخاري في الهبة وفضلها (٢٥٩٣)، عن عائشة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٤٥٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٣)، عن عائشة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٢٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٩)، عن عائشة.

عمر زوجها، فأنكر عليها، وقال: كيف تراجعيني؟ قالت: إن نساء النبي ﷺ يراجعنه، وتهجره إحداهن إلى الليل، لا تكلمه إلى الليل. فقال: لقد خابت حفصة بنت عمر وخسرت إن كانت تفعل ذلك مع رسول الله ﷺ. ثم ذهب إلى حفصة وسألها: أتراجعن رسول الله ﷺ؟ وتهجر إحداكن رسول الله ﷺ إلى الليل؟ قالت: نعم. فقال: كيف تفعلين ذلك؟ وظل ينصحها وينكر عليها^(١)، ولكن هكذا كان يحدث للنبي ﷺ من نسائه.

كانت هذه حياة النبي ﷺ مع نسائه، كان نعم الزوج، الزوج الإنسان المثالي الذي لا يمنعه ارتباطه وتبته لله ﷻ أن يقوم بحق هؤلاء النساء، هكذا كان النبي ﷺ زوجًا.

الرسول ﷺ أبًا وجدًا:

وكان النبي ﷺ أبًا إنسانًا أيضًا، كان نعم الأب، رزق بالبنين، ورزق بالبنات، وكان يحب أبناءه وبناته جميعًا، الأبناء والبنات سواء، كانت فاطمة إذا ذهبت إليه رحب بها وأجلسها بجانبه^(٢)، هكذا كان ﷺ! ومات ابن إحدى بناته فبكى من أجله^(٣)، وكذلك بكى حينما توفي ابنه إبراهيم وهو صغير، وقال كلماته الماثورة: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»^(٤).

هكذا عاش ﷺ أبًا، وجدًا أيضًا، كان نعم الجد لأحفاده وأسابطه! دخل أحد الصحابة، وقد وطأ ﷺ ظهره للحسن والحسين يركبانه، جعل

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٩١)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩)، عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٨٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٠)، عن عائشة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣)، كلاهما في الجنائز، عن أسامة بن زيد.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٠٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٥)، عن أنس.

نفسه جملاً كما نقول، والصبيان يركبان ظهره، ويغدو بهما ويروح في البيت، فلما رآه الصحابي هكذا خاطب الصبيين قائلاً: نعم المركب ركبتما. فقال ﷺ: «ونعم الفارسان هما»^(١). انظروا إلى هذه النفسية السمحة الكبيرة.

وذات مرة اعتلى ظهره الحسن أو الحسين وهو ساجد، فأطال السجود حتى ظن أصحابه من خلفه الظنون: ترى هل وافاه الأجل؟ أم أغمي عليه؟ أم يوحى إليه في هذا الوقت؟ ماذا حدث؟ أطال أكثر مما يفعل عادة حتى فرغ من الصلاة وسلم فسأله: ماذا حدث يا رسول الله؟ فقال: «إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله»^(٢). جعله راحلة، ركوبة؛ فلم يشأ ﷺ أن يقطع عليه لذة الركوب، يمكن أن ينفذه فيقع، لكنه تركه حتى يشبع وينزل، «فكرهت أن أعجله»، هكذا كان!

جاءته أمامة بنت أبي العاص بن الربيع - ابنة ابنته زينب - وهو يصلي، فحملها وهو يقرأ، فإذا ركع أو سجد وضعها، ثم إذا قام إلى الصلاة حملها^(٣)، أي قلب هذا القلب الكبير؟! إنه قلب رسول الله ﷺ.

ليس فاحشا ولا بذيئاً:

ومن هديه ﷺ في بيته أنه ما ضرب شيئاً ولا أحداً قط، ما ضرب زوجة، ولا ضرب خادماً، ولا ضرب دابة: أساءت خادمة عنده في أمر

(١) سبق تخريجه ص ١٥.

(٢) رواه أحمد (١٦٠٣٣)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والنسائي في التطبيق (١١٤١)، والحاكم في معرفة الصحابة (١٦٥/٣) وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. عن شداد بن الهادي.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٥١٦)، ومسلم في المساجد (٥٤٣)، عن أبي قتادة الأنصاري.

من الأمور فأمسك بالسواك وقال لها: «لولا خوف القصاص يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك»^(١)!

حتى السب أو الشتم، ما كان سباً ولا شتاً، ولا فاحشاً ولا بذيئاً، لا تُسمع منه كلمة السوء لأحد؛ لا لزوجته ولا لخادم! قال أنس بن مالك رضي الله عنه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أف قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا^(٢)؟ هكذا كان ﷺ.

استأذن عليه أحد الناس السيئين، فقال: «بئس أخو العشيرة». ثم لما دخل هشاً، وانبط له، وأجلسه، فلما خرج قالت عائشة رضي الله عنها: أراك هشت وبشتت له وقد قلت فيه ما قلت؟! فقال: «يا عائشة، متى عهدتني فاحشاً؟ إن شر الناس يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»^(٣). يعني أن رأيته فيه سيئ، ولكنه لا يجابهه بكلمة السوء! يداريه، وفرق بين المداراة والمداهنة، مداراة الإنسان أن تحاول أن تكسبه من أجل مصلحة دينية، أمّا المداهنة أن تصف الباطل في إنسان بالحق من أجل مصلحة دنيوية، هكذا كان ﷺ ما ضرب ولا شتم قط.

نبي الوسطية والاعتدال:

هذه هي حياته ﷺ! كان في بيته نعم القدوة في كل شيء، عاش الحياة الربانية الأخلاقية الإنسانية الوسطية المعتدلة التي أعطى فيها لكل

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٨٤)، وأبو يعلى (٦٩٤٤)، والطبراني (٣٧٦/٢٣)، وجود إسناده الهيثمي في المجمع (١٨٤١١)، وضعفه الألباني في الصحيحة (٤٣٦٣)، عن أم سلمة. ولكن القود (يوم القيامة) ثابت بأحاديث أخرى صحاح.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٣٨)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٣٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٩١).

ذي حق حقه! جاء جماعة من أصحابه كما روى البخاري، عن أنس يسألون زوجاته عن عبادته ﷺ، فلما أخبروا بها كأنهم تقالُّوها، لم تشعب نهمهم للعبادة، وقالوا: أين نحن من رسول الله؛ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ ثم قال أحدهم: أمّا أنا فأقوم الليل ولا أنام أبداً. وقال الثاني: وأمّا فأصوم الدهر ولا أفطر. وقال الثالث: وأمّا أنا فاعتزل النساء فلا أتزوج.

وعلم النبي ﷺ بمقالتهم فجمعهم وقال لهم: «إنّما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنّي أصوم وأفكر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١). هكذا عاش ﷺ، سنته هي الاعتدال، منهجه هو التوازن، هو إعطاء كل ذي حق حقه.

الاقتداء بالسيرة النبوية العطرة:

علينا أيّها الإخوة أن نقتدي بهذا المنهج المحمدي، أن نعيش مع هذه السيرة العطرة، أن نعيش مع هديه ﷺ: في مأكله وفي مشربه وفي ملبسه وفي نومه وفي يقظته، وفي حياته الزوجية، وفي حياته الأبوية! أن نتخذ من هذه الحياة نبراساً لنا، نتعلم كيف نعامل زوجاتنا؟ وكيف نعامل أبناءنا وبناتنا؟ كيف نعامل أحفادنا وأسابطانا؟ كيف نعيش هذه الحياة الطيبة الربانية العالية، نوّدي فيها لكل ذي حق حقه.

علينا أن نعيش مع هذه الحياة، وأن ندرسها فنفعل ما فعلت، ونترك ما تركت، ففعله ﷺ سنة، وتركه سنة! علينا أن نعرف ما كان من حياته للتشريع والاقتداء، وما كان منها على سبيل البشرية المحض؛ فنفرق بين

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس.

هذا وذاك، وعلينا أن نفرق بين ما كان منها على سبيل الإيجاب والإلزام، وما كان على سبيل الاستحباب والندب؛ لنعطي لكل شيء حكمه، ولكل مرتبة مكانها، فلا نذيب الفوارق بين الأشياء، ولا نغفل الفوارق بين الأحكام.

هذه حياة رسولنا ﷺ لنا فيها أسوة حسنة، ومن مثلنا نحن المسلمين عنده هذه السيرة العلمية التاريخية المكتوبة، ليس فيها حلقة مفقودة! كل حلقاتها موجودة، نجد فيها العبرة قبل البعثة، ونجد فيها بعد البعثة هذه الحياة الحافلة، فعلينا أن نقتدي بها فنهتدي، وصدق الله العظيم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



إجابات الشيخ القرضاوي عن أسئلة المحاضرة

السؤال الأول: أنا أحب النبي ﷺ فماذا أفعل لو تعارضت سنة من سنن النبي ﷺ مثل إطلاق اللحية مع رغبة والدي؟

الجواب: شكر الله للأخ حبه لرسول الله ﷺ ولسنته، وثبته الله على هذا الحب؛ فحب رسول الله ﷺ من علامات الإيمان، «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...»^(١). ولكن هذا الحب كما قلت يجب أن يتمثل في عمل، وفي اتباع واقتداء.

حينما يتعارض فرض كبر الوالدين مع سنة من سنن النبي ﷺ نقدم الفرض دائماً على السنة، وحينما يتعارض فرض كفاية على فرض عين نقدم فرض العين على فرض الكفاية، ولذلك حينما جاء بعض الصحابة إلى النبي ﷺ يريد أن يجاهد معه سأل النبي: «ألك والدان؟» قال: نعم. قال: «ارجع ففیهما فجاهد»^(٢). وبعضهم قال: نعم لي والدان تركتهما يبيكان. فقال له: «ارجع فأضحكهما كما أبكيتهما»^(٣). وبعضهم قال: لي أم. فقال له: «ارجع فالزمها؛ فإن الجنة عند رجليها»^(٤). لماذا؟ لأن الجهاد

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد (٣٠٠٤)، ومسلم في البر والصلوة (٢٥٤٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه أحمد (٦٩٠٩)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الجهاد (٢٥٢٨)، والنسائي في البيعة (٤١٦٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٢)، والحاكم في البر والصلوة (١٥٣/٤) وصحّحه، ووافقه الذهبي، وصحّحه ابن الملقن في البدر المنير (٤٠/٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٤) رواه أحمد (١٥٥٣٨)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والنسائي (٣١٠٤)، وابن ماجه (٢٧٨١)، والحاكم (١٠٤/٢)، وصحّحه، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الجهاد، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٨٥)، عن معاوية بن جاهمة.

كان فرض كفاية في ذلك الوقت، وبر الوالدين فرض عين، فيمكن أن يقوم غيره من المسلمين مقامه، فلا يغني فرض الكفاية عن فرض العين. أمّا حينما يكون الجهاد فرض عين هنا يُقدّم الجهاد على بر الأم؛ لأنّه فرض عين، يتعلق بالجماعة؛ فيُقدّم على فرض العين المتعلق بالأفراد! ولذلك إذا غُزيت أرض المسلمين من الكفار يخرج الرجل بغير إذن أبيه، والعبد بغير إذن سيده، والمرأة بغير إذن زوجها؛ لأنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فعند تعارض السنن مع بر الوالدين نقدم بر الوالدين.

السؤال الثاني: وما هي السنة التي يجب علينا اتباعها؟ وما هي السنة التي لا نعاقب على تركها؟

الجواب: فعلاً هناك أشياء يجب أن نلاحظها تماماً: هناك أشياء وردت عن النبي ﷺ، قد تعتبر من قبيل الأشياء البشرية، أو من قبيل العادة، فمثلاً كان النبي ﷺ يحب الدُّبَّاء وهو القرع! فهل مطلوب من كل مسلم أن يحب القرع؟ لا، ليس مطلوباً، لكن هناك بعض الناس من كمال حبه للنبي ﷺ يحب أن يقتدي به حتى في الأمور العادية، مثلاً كان ابن عمر رضي الله عنهما يحج، وكان معه نافع، فجاء في مكان، وأناخ ناقته، وقضى حاجته، فسأله عن ذلك: لماذا نزلت هنا؟ هل هذا مشعر أو نسك؟ فقال له: لا، ولكنني تذكرت أنّ النبي ﷺ - حينما كان يحج - أناخ بناقته في هذا المكان، ونزل فقضى حاجته، فأحببت أن أقتدي بالنبي ﷺ في ذلك^(١). هذا أمر بشري محض، ولكن ابن عمر شديد الحرص على أن يتبعه حتى في هذا، من فعل ذلك فلا بأس، ولكنه ليس مطلوباً.

(١) سبق تخريجه ص ٦٠٨.

ومن ذلك مثلاً أن النبي ﷺ كان يأكل بيديه، ويأكل جالساً على الأرض، فلا مانع أن يأكل الإنسان بيديه، ويأكل جالساً على الأرض كما كان يفعل النبي ﷺ، ولكن هذا لا يعني أن الأكل بالملعقة أو بالشوكة ممنوع أو هو ضد السنة، لا، هذا أمر آخر، لأننا حين نقول: تركه سنة. فإنما هذا في الأشياء التي حدث مقتضيها، وانتفى مانعها، فتركها قصداً! لكن هناك أشياء تركها النبي ﷺ؛ لأن المجتمع لم يكن يهتم بمثل هذه الأشياء، أو لم يكن يتعود مثل هذا؛ فمن قلّد النبي ﷺ، واتبعه في الأكل على الأرض، أو الأكل باليد فهذا من كمال حبه واتباعه، ولكن لا يُلام أحد أكل على المائدة، أو الخوان، أو أكل بالشوكة والملعقة والسكين، لا مانع من هذا أبداً.

ولكن يجب أن نفرق بين بعض الأشياء وبعض، فمثلاً مسألة الأكل باليمين والشرب باليمين ليست كمسألة الأكل بالملعقة، والأكل على الأرض، لا، لأنّ هذه جاء فيها أمر وتحذير، قال: «سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»^(١). هذا أمر، ولم يكن هذا فقط، بل قال: «لا يأكل أحدكم بشماله، ولا يشرب بشماله؛ فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله»^(٢). فالأمر والنهي والتشبيه والتحذير يعني أنّ هناك قصداً في الأكل باليمين والشرب باليمين، فينبغي للمسلم أن يتبع هذه السنة، فالأمر هنا في الحقيقة مع التحذير يدل على الوجوب! ويؤكد هذا أنّ النبي ﷺ رأى رجلاً يأكل بشماله فقال له: لماذا تأكل بشمالك؟ «كل بيمينك»، قال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت»، ما منعه إلا الكبر، قال الراوي: فما رفعها

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢)، عن عمر ابن أبي سلمة.

(٢) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢٠)، وأحمد (٥٥١٤)، عن ابن عمر.

إلى فيه^(١)، طبعًا كان متكبرًا، أخذته العزة بالإثم، ولكن تشديد النبي عليه يدل على أن هذا الأمر له أهمية، فينبغي أن نفرق بين السنن التي فيها إلزام والسنن التي فيها استحباب أو فيها مجرد المشروعية.

وهناك بعض الناس يتخذ من حديث البخاري: «من رغب عن سنتي فليس مني»^(٢). أن من ترك سنة من سنن المستحبات أو المؤكدة يكون النبي ﷺ بريئًا منه، ويكاد بهذا يجعل صلاة السنة التي تؤدي قبل صلاة الفريضة أو بعدها كأنها فرض مثلها، ومن لم يفعلها برئ منه النبي ﷺ! لا، هذا خطأ، لأنني كما أشرت في المحاضرة أن «من رغب عن سنتي فليس مني»، السنة هنا تعني المنهج، تعني الطريقة النبوية، أي من خرج عن طريق الاعتدال، طريق الوسطية، طريق التوازن بين الحقوق بعضها وبعض فقد خرج عن طريقته، وعن منهجه ﷺ، وليس معناه السنن الجزئية، لا؛ لأن هذا يتعارض مع أحاديث صحيحة أخرى، مثل حديث طلحة بن عبيد الله، أن رجلاً سأل النبي ﷺ عما فرضه الله عليه من الصلاة ومن الزكاة ومن الصيام: ماذا عليّ يا رسول الله؟ قال: «خمس صلوات في اليوم والليلة». فقال: هل علي غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع». قال: «وصيام رمضان». قال: هل علي غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوع». وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع». قال: فأدبر الرجل وهو يقول بإخلاص وبراعة: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. أي لا أزيد عليها ولا أقصر فيها، فقال النبي ﷺ: «أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق»^(٣). وفي حديث أبي هريرة:

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢١)، وأحمد (١٦٤٩٣)، عن سلمة بن الأكوع.

(٢) سبق تخريجه ص ٧٢٧.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٨٩١)، ومسلم في الإيمان (١١)، عن طلحة بن عبيد الله.



«من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»^(١). وهو قد التزم بالفرض فقط! صحيح أنّه يمكن للمسلم أن يكمل الفرائض بالسنن؛ لأن من أهمية السنن أنّه إذا حدث في الفرض خلل أو تقصير يُكَمَّل من السنّة، ومن منا يضمن أن يكون فرضه كاملاً خالصاً مؤدّى فيه حقه من الآداب والخشوع والإتقان؟ ولهذا يحتاج إلى رصيد احتياطي يكمل به الفرض الناقص، ثم كثرة السيئات تجعل لإنسان محتاجاً إلى أن يزيد رصيده من الحسنات، هذا فيما يتعلق باتباع السنن.

* * *



(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٤)، عن أبي هريرة.



في ذكرى الإسراء والمعراج^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وصحبه، ورضي الله عنم دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أحييكم أيّها الإخوة، وخير ما أحييكم به تحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لا يسعني قبل أن أتحدث إليكم في هذه الليلة المباركة الكريمة، التي يُسعدنا ويُشرفنا فيها، حضور الأخ الداعية المجاهد الأستاذ عمر التلمساني، ومعه رفيقه الذي أوزي في الله فصبر، وابتلي في الله فثبت: الأستاذ جمال فوزي، ثبّت الله الجميع على الحق، وسدّد الجميع على طريق الخير.

(١) أُلقيت هذه المحاضرة في مدينة المحلة الكبرى بمصر عام ١٩٧٦م.



أيها الإخوة الكرام:

لا يسعني وأنا أقف بين يديكم، إلا أن أدعو الله تبارك وتعالى، أن يتغمّد أخاً لنا، كان معنا في لقائنا في العام الماضي، يدعو الله تعالى في دعاء ورد الرابطة، ويهتف من أعماق قلبه، ويوصينا وكأنها وصية مودع، ذلكم هو الأخ الكريم الأستاذ عبد الحي غالي، وكيل الجماعة في هذه المنطقة، نسأل الله تبارك وتعالى أن يرحمه رحمة واسعة، وأن يجعله من أهل الجنة، وأن يجعله من المقبولين عنده، وأن يخلفه في أهله وذريته بخير ما يخلف به عباده الصالحين.

لقد فقدنا هذا الأخ الكريم، كما فقدنا قبله في العام الماضي أخاً داعية لله، هو الأخ الزميل، رفيق المحنة، ورفيق الدعوة، ورفيق الدراسة، الأخ الشيخ مصباح محمد عبده، نسأل الله للجميع الرحمة والمغفرة والرضوان، وأن يجعلنا في الطريق سائرين، وعلى الدرب سالكين، ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

يا أبناء المحلة:

المحلة مدينة العمل والإنتاج والصناعة، ومدينة الصلاة والعبادة والتقوى، المدينة التي ترتفع فيها مداخن المصانع، وترتفع بجوارها مآذن الجوامع.. بلد المساجد، وبلد المصانع.

يا أبناء المحلة، لنا معكم في كل عام لقاء، والحمد لله، كلما التقينا بأبناء المحلة، وجدناهم أقوى إيماناً، وأشدّ شوكة، وأقوى إصراراً على السير في طريق الله، مهما وُضعت في السبيل العقبات، ومهما كثرت

المعوقات، فإن الإيمان أكبر، وإن الله ﷻ مع الذين آمنوا ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]

ثلاث كلمات:

أيها الإخوة، لي معكم ثلاث كلمات: الكلمة الأولى: في حق الذكرى، والكلمة الثانية: في حق الوطن، والكلمة الثالثة: في حق الدعوة.

الكلمة في حق الذكرى:

أمّا كلمة الذكرى: فهي تحت هذا العنوان، الاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج، ولا أريد أن أسهب وأطنب، وأطلق العنان للقول، في هذه القصة وهذا الموضوع، فقد كثر فيه الكلام، طالما سمعتم الخطباء يخطبون، وطالما سمعتم المذيعين يذيعون، والكاتبين يكتبون، في هذه الذكرى.

وأنا لا أحب الكلام المعاد، ولا أقول ما قاله أحد الخطباء، وقد حضرت في أحد المساجد منذ أيام، سمعته يقول: إِنَّ ذِكْرَ الإسراء والمعراج لا تكفيها ساعة ولا ساعات، ولا يوم ولا أيام، ولا شهر ولا سنة ولا سنوات، فقلت: يا سبحان الله! ولم هذا كله؟ إِنَّ اللَّهَ ﷻ قد ذكر الإسراء في آية واحدة من كتابه، وتكفيها هذه الآية، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]

هناك مسرٍ، وهناك مُسرٍ به، وهناك زمان الإسراء، وهناك مكان الإسراء، وهناك حكمة الإسراء، أشارت إليها هذه الآية الموجزة من القرآن الكريم:



أولاً: المُسْري:

المُسْري هو الله الذي يخرق القوانين، الله تعالى هو الواضع للقوانين، وهو القادر على أن يخرقها، ولا نملك إلا أن نقول: سبحان الله جلّ شأنه، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

ثانياً: المُسْرَى به:

المُسْرَى به: هو محمد ﷺ، ومن محمد؟ إنه ليس ندّاً لله، وليس ابناً لله، ولا ثالثاً من ثلاث الألوهية، إنه عبد الله، عبد الله ورسوله، علمنا أن نقول: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله. مهما أُسْري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومهما عُرج به إلى السماوات العُلا، إلى سدرة المنتهى، إلى حيث شاء الله، فهو لا يعدو إلا أن يكون عبداً لله! صحيح أن الله اصطفاه من خلقه، واصطنعه لنفسه، وصنعه على عينه، وختم به رسله، وجعله سيّد ولد آدم، ولكن ليس فخره بهذا كله، إنه يقول: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر»^(١) أي: لا أفخر بذلك، ولكن فخري بالعبودية لله تعالى، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

ثالثاً: زمان الإسراء:

المُسْري هو الله، والمُسْرَى به محمد ﷺ، وزمان الإسراء في ليلة من ليالي الله، في مكة قبل الهجرة، في عام أطلق عليه النبي ﷺ عام الحزن،

(١) رواه أحمد (١٠٩٨٧)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره. والترمذي في التفسير (٣١٤٨) وفيه قصة، وفي المناقب (٣٦١٥)، وحسنه، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨)، وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٧٧)، عن أبي سعيد.

فقد فيه نصيره بالخارج، وسنده بالداخل، فقد عمه الذي كان يحميه من بطش قريش، وفقد زوجته الحانية التي كانت تربت على كتفه، وتشدُّ أزره كلما دخلت عليه المصائب وادلهمت حوله الكروب، تقول له: والله لا يخزيك الله أبداً، فقد خديجة، وفقد أبا طالب، في عام واحد، بل في أيام متقاربة، فسمّاه عام الحزن!

واشتدَّ عليه الأذى من قريش، فلجأ ﷺ إلى الطائف، فكان ما كان من أهل الطائف ومن ثقيف، وعاد ﷺ كسير النفس، دامي القدمين، ودامي القلب معاً! يشكو إلى الله ويناجيه تلك المناجاة الرقيقة الندية الحنية: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس! يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُحلَّ غضبك بي، أو تنزل سخطك عليّ، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١).

رابعاً: مكان الإسراء والمعراج:

أمّا عن مكان الإسراء والمعراج فقد حددته الآية الكريمة ابتداءً وانتهاءً: ابتداءً من المسجد الحرام بمكة، وانتهاءً بالمسجد الأقصى بفلسطين، وكأنّ هذه الآية تربط بين المسجدين رباطاً أبدياً، وأنّه ينبغي

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣٤٥/٢). والحديث رواه الطبراني في الكبير (٧٣/١٣)، وفي الدعاء (١٠٣٦)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٨٣٩)، وقال الهيثمي (٩٨٥١): فيه ابن إسحاق، وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٨٢)، عن عبد الله بن جعفر.

أن يظل هذا الرباط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ولا يجوز التفريط في أحد المسجدين، فمن فرط في أحدهما أوشك أن يفرط في الآخر، إذا ضاع المسجد الأقصى أوشك أن يضيع المسجد الحرام.

حكمة الإسراء:

أولاً: التسلية والتسرية عن رسول الله ﷺ:

كان الإسراء والمعراج تسرية وتسلية وتعزية له عما أصاب النبي ﷺ، كان بمثابة حفل تكريم أقيم له، يحضره الأنبياء، وتشهده الملائكة، كان هذا هو الإسراء، أن يذهب النبي ﷺ إلى بيت المقدس، وأن يصلي إماماً بالأنبياء، وأن يذهب إلى السماوات العلى، وأن تُفتح له أبواب السماء، ويقال له: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، نعم المجيء جاء، كلُّ هذا تكريم للنبي محمد ﷺ؛ فكأن الله يقول له: إذا كان أهل الأرض أعرضوا عنك، فإن أهل السماء قد أقبلوا عليك، وإذا كان أهل الطائف قد أسأؤوا استقبالك، فحسبك أن رسل الله وأنبياءه يستقبلونك، في أرض الأنبياء، وأرض النبوات، بيت المقدس.

ثانياً: التذكير بالمسجد الأقصى:

يا أيُّها الإخوة: ما أحوجنا في هذه الأيام إلى أن نتذكر المسجد الأقصى، أن نتذكر منتهى رحلة الإسراء: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] المسجد الأقصى اليوم أسير اليهود، اليهود أحرقوا المسجد الأقصى، يحفرون تحت المسجد الأقصى، وماذا يصنع المسلمون؟ ماذا فعل المسلمون؟ المسلمون في العالم يقاربون المليار، يقاربون البليون، ألف مليون مسلم، ألف مليون مسلم، أين هؤلاء؟ المسجد الأقصى يُغتصب، والمسجد الأقصى يُحرق،

والمسجد الأقصى يُحفر تحته، ولا ندري ماذا يكون المستقبل، ولكن المسلمين عن ذلك غافلون!

إذا كان لنا حكمة أو عبرة من الإسراء والمعراج، فلنتذكر أرض الإسراء والمعراج، فلنتذكر المسجد الأقصى، لنتذكر هذا المسجد فهو أمانة في أعناقنا! إذا كان اليهود قد احتلوه لأول مرة في التاريخ؛ فقد احتله من قبل الصليبيون، وبقي في أيديهم أكثر من ثمانين عامًا، ثم قيض الله رجلا لم يكن عربيًّا الدم ولا الجنس، إنما هو كردي مسلم، هو صلاح الدين، يوسف صلاح الدين الأيوبي، الذي قاد جيوش الإسلام، وردَّ للمسلمين اعتبارهم، وحرر مسجدهم الأقصى، لا بد أن نعرف هذا كله، وأن نعمل على تحريره من أيدي الغاصبين.

المؤمنون وحدهم هم من يحررون المسجد الأقصى:

لن يحرر المسجد الأقصى إلا المؤمنون الصادقون، الذين يبيعون أنفسهم لله، إلا ورثة صلاح الدين، لن يُحرَّر المسجد الأقصى بالكلام، ولا بالدعاوي العريضة، ولا بالأمانى الكاذبة، ولن يُحرَّر المسجد الأقصى أناس لا يعرفون الله، ولم تغفر جباههم بالسجود لله، إنَّ النبي ﷺ أشار إلى محرري فلسطين، إلى مقاتلي اليهود، في حديث رواه البخاري وغيره: «تقاتلكم اليهود - وفي رواية: تقاتلون اليهود - فتسلطون عليهم، حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر والشجر؛ فيقول الحجر: يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله»^(١) يا عبد الله، يا مسلم، هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله! الحجر والشجر سيكون مع المسلمين، حينما يدخلون هذه المعركة تحت شعار العبودية لله، وتحت راية الإسلام، فلا يناديهم الحجر أو الشجر بيا مصري، أو يا أردني، أو

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٩٣)، ومسلم في الفتن (٢٩٢١)، عن ابن عمر.

يا فلسطيني، أو يا قومي، أو يا عربي، وإنّما يناديهم بيا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي ورأني فتعال فاقتله. سواء قال ذلك الحجر ونطق بلسان الحال، أو بلسان المقال، فمعناه أنّ كلّ شيء سيكون مع المسلمين.

قارنوا بين هذا وبين معركة قد دخلناها في يوم من الأيام، كان كل شيء علينا، كان كل شيء ضدنا، حتى الأسلحة التي في أيدينا، كانت علينا لا لنا! كان الجندي، أو كان الضابط، يركب دبابة زنتها ستين طنّاً من أحدث طراز، ومع هذا تركها، تركها غنيمة باردة، ولقمة سائغة لليهود، لم يكلف نفسه أن يُشعل فيها عود ثقاب، ويخربها على أعدائه بدل أن يأخذوها سليمة، ولكنّه كان يقول: النجاة النجاة، نفسي نفسي!

الأسلحة إذن لا تقاتل وحدها، إنّما يقاتل بها الرجال، وقديماً قال المتنبي:

وَمَا تَنْفَعُ الْخَيْلُ الْكِرَامُ وَلَا الْقَنَا إِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَ الْكِرَامِ كِرَامٌ^(١)

خيل بغير خيال ماذا تصنع؟ وقال الطغرائي:

وَعَادَةُ السَّيْفِ أَنْ يُزْهَى بِجَوْهَرِهِ وَلَيْسَ يَعْمَلُ إِلَّا فِي يَدَي بَظَلٍ^(٢)

ثالثاً: فرض الصلوات الخمس:

أيّها الإخوة: هناك عبرة ثالثة من هذه الذكرى، هذه العبرة: هي أنّ رسول الله ﷺ عاد من هذه الرحلة بذكرى باقية، لا تزول وإن زالت الحياة، إنّها الصلوات الخمس، التي فرضها الله ليلة الإسراء والمعراج، فجعلها في العمل خمساً، وفي الأجر خمسين!

(١) ديوان المتنبي ص ٣٩٠.

(٢) ديوان الطغرائي ص ٣٠٧.

هذه الصلوات هي معراج كل مسلم إلى الله ﷻ، فعلينا أن نتذكر هذه الصلاة، فهي الرباط اليومي بيننا وبين الله تبارك وتعالى، إنَّ المصلين القائمين، الصائمين الخاشعين، القانتين الصادقين الذاكرين: هم عمُد هذه الأمة، فلن تنتصر هذه الأمة إلَّا بأهل الصلاة، ولن تنتصر هذه الأمة إلَّا بأولئك الرجال الذين ورثوا خلال أصحاب رسول الله ﷺ، وقد سمعتم القارئ وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

لقد كان أهم ما يميز أبناء هذه الدعوة منذ أن قام بها الشهيد حسن البنا رحمه الله، كان أهم ما يميزهم أنَّهم أهل الصلاة وأهل الجهاد، دعوتهم: مصحف وسيف، عبادة وقيادة، رهبان بالليل، فرسان بالنهار، هكذا وُصفوا كما وُصف الصحابة والتابعون لهم بإحسان: رهبان بالليل، فرسان بالنهار، نشيدهم:

رِقَاقُ إِذَا مَا الدُّجَى زَارَنَا غَمَرْنَا مَحَارِبِنَا بِالْحَزَنِ
وَجُنْدُ شِدَادٍ، فَمَنْ رَامَنَا لِبَاسٍ رَأَى أُسْدًا لَا تَهِنُ^(١)

الصلاة هي العبرة التي ينبغي أن نستفيد منها ونحرص عليها.

فيا أيُّها الشباب، ويا أيُّها الإخوة: احرصوا على الصلاة، احرصوا عليها بأوقاتها، احرصوا عليها في جماعة، مروا بها أهليكم وزوجاتكم، وربوا عليها أبناءكم وبناتكم، مروهم للصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، فهذه الأمة لا تنتصر إلَّا إذا أقامت الصلاة،

(١) ديوان البواكير لعبد الحكيم عابدين، انظر: الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ لمحمود عبد الحليم (١/١٨٤)، نشر دار الدعوة، الإسكندرية ط١، ٢٠٠٤م.

﴿وَلْيَنْصُرِكُ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَقِيبُ الْأُمُورِ ﴿[الحج: ٤٠، ٤١].

لماذا الاحتفال بالمناسبات الإسلامية:

لماذا نحتفل بالإسراء والمعراج؟ ولماذا نحتفل قبل ذلك بذكرى ميلاد النبي ﷺ؟ ولماذا نحتفل بذكرى الهجرة؟ لماذا نحتفل بغزوة بدر، ولماذا نحتفل بكذا وكذا، لماذا نقيم هذه الأحتفال؟!

إنَّ هذه الأحتفال حينما فُكِّرَ فيها الشهيد حسن البنا وجمع الناس عليها، إنما أراد أن يربطهم بسيرة رسول الله ﷺ، أراد أن يحيي المحبة الحقيقية في نفوس الناس، وليست محبة النبي ﷺ عاطفة هوجاء، أو عاطفة جوفاء، فارغة من المعنى والإيجابية، إنَّ من يحب رسول الله يجب أن يتبع سنته، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

مسؤولية كل مسلم عن الإسلام:

يا أيُّها الإخوة: إن كنا نحب رسول الله ﷺ حقيقة، فليس معنى الحب أن نجتمع في حفل ثم ننصرف، أو نستمع إلى موعظة (فنمصمص) الشفاه، ونسبح الله، أو نمدح هذا الخطيب أو ذاك، ثم ننصرف إلى بيوتنا وكأن شيئاً لم يحدث، لا، إنَّ على كل منا تبعة ومسؤولية نحو دين محمد ﷺ، إنَّ كلَّ دين، وكلَّ مذهب له رجاله ودعائه وأنصاره، فأين رجال الإسلام؟ وأين أنصار الإسلام، وأين أنصار الله؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

كونوا أنصار الله لا بالكلام، ولا بالهتاف، ولكن بالعمل، والعمل المتواصل، بالثبات على الحق، وبالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، إن كنا نحب رسول الله ﷺ نفدي دينه بالنفس والنفيس، والغالي والرخيص، فكل شيء هين في سبيل رسالة النبي محمد ﷺ.

وإننا نحمد الله تعالى أن الشعلة التي أوقدها وأضاءها رسول الله ﷺ في قلوب الأمة بالإسلام وهداية القرآن: لم تنطفئ، ولن تنطفئ أبداً ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

الكلمة في حق الوطن:

أيها الإخوة: هذه كلمة في حق الذكرى، وكلمة قليلة في حق وطننا، ووطننا هو كل شبر فيه مسلم يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وقد تعلم الإخوان من قديم هذا النشيد، أو هذا الشعر يرددونه:

ولست أَرْضَى سِوَى الْإِسْلَامِ لِي وَطَنًا الشَّامُ فِيهِ وَوَادِي النَّيْلِ سَيَّانٍ
وَحَيْثُمَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ فِي بَلَدٍ عَدَدْتُ أَرْجَاءَهُ مِنْ لُبِّ أَوْطَانِي^(١)

الوطن الإسلامي هو وطننا، والعالم الإسلامي كل مكان فيه مئذنة، كل مكان ينادي فيه الله أكبر، كله أوطاننا. لا نقول: الوطن المصري فقط، ولا الوطن العربي فقط، بل الوطن الإسلامي، صحيح أن الوطن المصري له حق أؤكد علينا بحكم المولد والنشأة والجوار، والإسلام قد جعل للجوار حقاً أؤكد من حق غيره، والوطن العربي بحكم القربى أيضاً، والوطن الإسلامي، كل هؤلاء أوطاننا.

(١) البيتان من قصيدة بين القاهرة وبغداد لعبد الحكيم عابدين.

هموم ومشكلات الوطن الإسلامي:

أوطاننا كما أشار الأخ الأستاذ محمد عبد العال في كلمته: تشكو همومًا كثيرة، تشكو عقدًا شتّى، أين حلها؟ إنني سرت في بلاد كثيرة، ولقيت أناسًا من مختلف الأجناس واللغات والطبقات، والجميع يشكو من سوء الحال!

ما الحل؟ وما العلاج؟ لقد جربنا أشياء كثيرة، وحلولا مختلفة، جربنا الحل الرأسمالي الليبرالي - كما يقولون - فجنى علينا ما جنى، وجربنا الحل الاشتراكي الثوري، فجنى علينا أكثر وأكثر، وبدأت مساوئه تظهر يومًا بعد يوم، في صحف ومجلات تنشر وتوزع على الناس في كل يوم، ولسنا وحدنا الذين نقول هذا، بل يقوله كل الناس، أصبحوا يتكلمون والحمد لله.

ومهما تَكُنْ عند امرئٍ من خَلِيقَةٍ وإن خالها تخفى على الناسِ تُعلم^(١)

العلاج ليس في الحلول المستوردة:

لا رأسمالية ولا اشتراكية، لا إلى اليمين ولا إلى اليسار، لم يعد شيء يصلح من هذا كله، في وطننا المصري نشكو، ونشكو من فساد كبير، ونشكو من الغلاء، ونشكو من البلاء، ونريد أن نحرر الأرض، نريد أن نبني الوطن، ولكن بماذا يتحقق ذلك كله؟ بماذا نحرر الأرض؟ وبماذا نبني هذا الوطن؟ ومصر مثل للوطن العربي؛ بل الوطن الإسلامي كله، ليس العلاج وليس الحل في الرأسمالية الخالصة، ولا الاشتراكية الخالصة، ولا الرأسمالية المطعّمة بالاشتراكية، ولا بالاشتراكية المطعّمة

(١) شرح المعلقات التسع ص ٢١٣.

بالرأسمالية، إننا لا نعرف حلًّا، ولا نجد علاجًا، إلا أن تعود هذه الأمة إلى ربها، وإلى كتابها، وإلى سنة نبيها، إلى قرآنها ومحمدها، فليس هناك سبيل إلا هذا السبيل، ولا علاج إلا هذا العلاج.

ولماذا لا يُجربُ الإسلام؟ لقد جربوا اليمين واليسار، وجربوا الرأسمالية والاشتراكية، ولم تغنِ عنهم شيئًا، وما أفادت بشيء، لماذا لم يجربوا الإسلام؟!

الإنسان المؤمن هو الذي يحرر الوطن:

الحقيقة أيُّها الإخوة: أننا لا يمكن أن نحرر الأرض إلا بالإنسان، ولا نبني الوطن إلا بالإنسان، وبماذا يُبنى الإنسان؟ الإنسان هو عماد الأوطان، يمكن أن تُنشأ مصانع، وتُنشأ مؤسسات، ولكن قد تخرب بعد حين يقلُّ أو يكثر؛ لأنَّها لا تجد الإنسان الصالح، الذي يرفع الأمانة ويؤديها، ويخشى الله تعالى فيما أوَّتمن عليه، الإنسان قبل كل شيء، الذي يحرر الأرض كما قلت، ليس السلاح وحده، وليس التدريب وحده، لا بدَّ من السلاح، ولا بدَّ من التدريب، ولا بدَّ من التنظيم، ولكن لا بدَّ من الإنسان المؤمن، وقديمًا قال المتنبي:

وما تنفعُ الخيلُ الكرامُ ولا القنا إذا لم يكن فوقَ الكرامِ كرامٌ^(١)؟

الفرسان وحدها ماذا تصنع؟ لا بدَّ من الإنسان المؤمن، لا بدَّ من بناء الإنسان المؤمن، هذا الذي يخيف اليهود، إنَّ بضعة آلاف في سنة ١٩٤٨م. كانوا يقاتلون في أرض فلسطين من المتطوعين، الذين باعوا أنفسهم لله يبتغون الجنة، أربعوا اليهود، وأفزعوا اليهود، وكانوا أخوف

(١) ديوان المتنبي ص ٣٩٠.

ما يخافون أن يسمعوا تلك الصيحة: الله أكبر والله الحمد، وقال بعض اليهود لأخ أسر هناك - وهو الأخ المجاهد معروف الحضري - نسأل الله أن يرحمه رحمة واسعة، قال له: إننا لا نخاف إلا من هؤلاء الذين يُسمّون الإخوان المسلمون، فقال له: ولماذا تخافونهم؟ قال: نحن جئنا من كل بلد من هنا وهناك، من الشرق والغرب، جئنا لنعيش، وهؤلاء جاؤوا من بلاد شتى ليموتوا، جاؤوا يطلبون الموت، فكيف تطلب العيش أمام من يطلب الموت؟!

هذا هو الإنسان الذي يحرر الأرض إن كنا نريد تحرير الأرض.

الإنسان المؤمن هو الذي يبني الوطن:

وبناء الإنسان المؤمن هو الذي يبني الوطن، إن كنا نريد أن نبني الوطن، وأن نعلمه حقاً، لا يمكن أن يزول الفساد المنتشر في كل مكان إلا بالأخلاق، الأمم أخلاق كما قال أمير الشعراء شوقي رَحِمَهُ اللهُ .

وبماذا تُصنع الأخلاق؟ لا يصنع الأخلاق إلا الإسلام، وقد جربنا بلدنا هذا، إنَّ هذا البلد بلد مسلم متدين بفطرته، لا يحركه شيء كما يحركه نداء الإيمان وكلمة الإسلام، لا الوطنية، ولا القومية، ولا العروبة، ولا الاشتراكية، ولا الرأسمالية، إنّما إذا قلت له: الله، الجنة، فعل الأعاجيب، واخترق الحُجُب والحواجز، وصنع المستحيلات، هكذا الأمر أيها الإخوة.

الإيمان لا يتحقق إلا في مناخ إسلامي صحيح:

فإن كنا نريد لوطننا أن يتبوأ مكانته تحت الشمس، فلن يكون ذلك إلا بالإيمان، ولا إيمان إلا في مناخ إسلامي، مناخ إسلامي صحيح،

لا بد أن تعود الأمة إلى الإسلام، وأقول تعود إلى الإسلام، والعودة إلى الإسلام لا تعني تعديل القوانين فقط بما يتفق مع الشريعة الإسلامية، هذا جزء، وجزء لا بد منه، وفرض واجب، ولكن ليس وحده هو الذي يصنع الأمة الإسلامية، وليس وحده يبني المجتمع المسلم، لا، إنَّ المجتمع لا يُبنى إلا إذا تغيرت الحياة من جذورها، عقيدة وأفكارًا، وقيمًا وأخلاقيات، ومفاهيم وآدابًا، لا بدَّ أن تتغير المفاهيم، لا بدَّ أن تتغير التقاليد، لا بدَّ أن تتغير التشريعات، لا بدَّ أن تتغير النفوس، لا بدَّ أن يتغير ذلك ليسير كله في درب الإسلام ومنهاج الإسلام.

كلمة في حق الدعوة:

هناك كلمة أخيرة قبل أن أدع مكاني هذا لأخي الكبير الأستاذ عمر التلمساني: إنها كلمة في حق الدعوة، هذه الدعوة التي قامت منذ خمسين عامًا أو أكثر، نصف قرن من الزمان، تدعو إلى الله على بصيرة، تربي أبناء هذه الأمة في كل مكان على التقوى، على الإيمان، على الجهاد، تربيهم تربية روحية بالعبادة، وعقليًا بالثقافة، وبدنيًا بالرياضة، وخُلُقيًا بالفضيلة، وعسكريًا بالخشونة، واجتماعيًا بالمشاركة والعمل لخدمة المجتمع.. هذه الجماعة، هذه الحركة، هذه الدعوة، أين هي الآن؟

هل انطفأت جذوتها؟! لا والله، إنها لا تنطفئ؛ لأنها قبس من نور الله، ونور الله لا يُطفأ أبدًا، إنها قد تختفي في مكان لتظهر في آخر، وتضعف في بلد لتقوى في بلد آخر، لا تظنوا أنَّ هذه الدعوة قد تكسرت جذورها، فجذورها حية باقية، وفروعها باسقة في كل مكان، لقد ذهبنا إلى أوروبا: إلى ألمانيا، إلى إنجلترا، إلى بلجيكا، إلى بلاد كثيرة، فوجدنا آثار هذه الدعوة، ذهبنا إلى الشرق الأقصى: إلى الفلبين، إلى



اليابان، إلى أمكنة شتى، فوجدنا من يقول: الله غايتنا، والرسول قدوتنا، والإسلام شرعنا، لقد ذهبنا إلى أمريكا وكندا، فوجدنا أيضًا آثار هذه الدعوة، شبابًا والحمد لله، آمنوا بربهم وزادهم الله هدى.

ولهذا حينما سألني سائل: ما هذه الأحفال؟ وما هذه السراقات؟ وما هذه التجمعات بالآلاف وعشرات الآلاف؟ هل عاد الإخوان المسلمون؟ قلت له: وهل كان الإخوان المسلمون قد انقطعوا؟ إنهم لم ينقطعوا حتى وهم في السجون! كانت دعوتهم، وكانت صلاتهم، وكان إصرارهم على هذه الدعوة، لم تنقطع الدعوة يومًا من الأيام، الدعوة قائمة.

إذا كانت الدعوة لافتات وجدرانًا ودورًا، فربما نقول إنها ليست قائمة، ولكن الدعوة عقيدة راسخة في القلوب، وفكرة واضحة في النفوس، ورجال أحبوا الله وأبغضوا الله، وتواثقوا على الإيمان بالله، هذه الدعوة باقية إذن ولن تزول!

هذه الدعوة باقية، ولكن نريد لها أن تأخذ فرصتها كما تأخذ الدعوات الأخرى، إذا كان اليسار تجمعات، ولليمين تجمعات، وللوطن تجمعات، ولكل فئة في الدنيا لها مظهرها الرسمي، فلماذا لا تأخذ هذه الدعوة مظهرها وشكلها ورسمها بجوار حقيقتها؟! الحقيقة باقية ولا يفنى إلا الرسم.

هذه الدعوة هي سفينة الإنقاذ لهذه الأمة، لا ينقذ هذه الأمة إلا دعوة الإسلام، إلا هذه الدعوة، إلا رجال هذه الدعوة، وأبناء هذه الدعوة، لا أدعي أنهم ملائكة معصومون، ولا أدعي أنهم مطهرون مجردون من كل عيب، فهم بشر يخطئون ويصيبون، ولكنهم في جملتهم خلاصة هذه

الأمّة، زبدة هذه الأمّة الشباب الذي لا يرضى إلا بالله غاية، وإلا بمحمد ﷺ قدوة، وإلا بالقرآن إمامًا، رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، وبالقرآن شرعة ومنهاجًا.

هذه الدعوة هي دعوة الحاضر والمستقبل، هي الدعوة التي لا خلاص لنا في مصر، ولا في وطننا العربي، ولا في وطننا الإسلامي، إلا بها.

إذا قالوا: يمينًا ويسارًا، فكيف يتفق الناس على اليمين أو على اليسار؟ وعلى أي أنواع اليمين، وعلى أي أنواع اليسار؟

إنّ الدعوة التي تجمع ولا تفرق، هي دعوة الإسلام، فالإسلام هو فطرة هذه الأمّة، هو أعمق أعماق هذه الأمّة، الإسلام هو الشيء الوحيد الذي يجمع كلمة هذه الأمّة، ولا قيمة لأي رافض للإسلام؛ لأنّه مرفوض من شعبه أساسًا، الذين فرضوا الشيوعية على شعوبهم، إنّما فرضوها بالحديد والنار، ليس الشعب في عدن الجنوبية وعدن الشمالية شيوعيًا، وليس الشعب في أي بلد من بلاد اليسار الماركسي ماركسيًا؛ فالشعوب كلها مسلمة، تؤمن بالإسلام، وبرسول الإسلام، وبكتاب الإسلام.

ولكن لا بدّ من قوم يتبنون الإسلام، ويدعون إليه، ويعيشون له، ويموتون في سبيله، وليس هؤلاء إلا أبناء هذه الدعوة، ورجال هذه الدعوة.

يا أيّها الإخوة: إذا لم ندعُ إلى الإسلام، فستظهر دعوات ودعوات، سيظهر يمين ويسار، يمين ويسار يختلف الناس عليه، أي يمين؟ هناك يمين، ويسار اليمين، ووسط اليمين، وهناك اليسار، ويمين اليسار، ويسار اليسار، ووسط اليسار. أجنحة وأسماء وقبالات متعددة لا تنتهي، لا يمكن

أَنْ تَلْتَقِيَ الْأُمَّةَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا، إِنَّمَا الَّذِي يَجْمَعُ الْأُمَّةَ مِنْهَجُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ذَلِكَ وَمَصَّنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿[الأنعام: ١٥٣].

العودة إلى الإسلام:

لا بدّ من عودة إلى الإسلام، لا بدّ من رجعة إلى القرآن، لا بدّ أن تعود هذه الأمة إلى فطرتها، إلى رشدّها، إلى حقيقة ذاتها، وإلا سنظلّ كالحمار يدور في الرّحى، أو كالثور المعصوب العينين في الساقية، يدور ويدور، والمكان الذي يعود إليه هو المكان الذي بدأ منه.

لا نصر لنا إلا بالإسلام، ولا وحدة لنا إلا بالإسلام، ولا قوة لنا إلا بالإسلام، ولا عزّ لنا إلا بالإسلام، حقيقة واضحة في أذهان شعوبنا، يجب أن تتضح في أذهان وعقول زعمائنا ورؤسائنا في وطننا العربي والإسلامي كله.

أيّها الإخوة: الإسلام والإسلام وحده هو سفينة النجاة، فلنستمسك بعُرَاه، ولنقتبس من شذاه، ولنسر على هداه، ولنتشبث به، نحيا عليه ونموت عليه، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقفه مع الأمة الإسلامية في مطلع القرن الهجري الجديد^(١)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر، وأحمد إليك الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على خير أنبيائه وخاتم رسله سيدنا وإمامنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

﴿رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٥ - ٢٨]، اللهم يا معلم آدم وإبراهيم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، نحمدك الله على كل حال، ونعوذ بك من حال أهل النار.

وأحييكم أيها الإخوة بتحية الإسلام، تحية من عند الله مباركة طيبة، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأشكر لجامعة قطر حرصها على أن تصبغ موسم المحاضرات لهذا العام وللأعوام التالية بالصبغة الإسلامية، ولهذا حرصت أن يكون هناك

(١) أُلقيت في جامعة قطر.



عدد من المحاضرين يتحدثون في شؤون الإسلام وشؤون المسلمين، وأشكر لكم كذلك سعيكم إلى هذا المكان لنلتقي على الخير والهدى، وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرًا.

وقفه حساب ومراجعة وتقويم:

أيُّها الإخوة: محاضراتنا هي: وقفه مع الأمة الإسلامية، وقفه حساب وتقويم ومراجعة في مطلع هذا القرن الجديد القرن؛ الخامس عشر الهجري.

المحاضرة مكتوبة، ولكنني لا أحسن الحديث من الورق، فاقرؤوها بعد ذلك إن شئتم، ولكن دعونا نتحدث.

إذا كان من واجب الدعاة وأهل الفكر والرأي أن يذكروا الفرد المسلم في مطلع كل عام هجري أن يفعل ما يفعله التاجر في وقفه على رأس كل عام جديد؛ يراجع فيها رصيده وحساباته، ليعرف أرباحه من خسائره، ليتفادى الخسائر ويزداد من الأرباح، إذا كان هذا من واجبنا نحو الفرد، فأوجب من ذلك واجبنا نحو الأمة: أن تقف في مطلع كل قرن على الأقل لتراجع حساباتها ورصيدها، وتعرف ماذا قدمت وماذا أخرجت؟ وفيم نجحت وفيم أخفقت؟ وما سر النجاح وما سبب الإخفاق؟ هذه هي وقفتنا الليلة.

ليس من المعقول أن تجتمع الأمة لتحاسب نفسها؛ إنما على أهل الرأي فيها أن يحاسبوها ويحاسبوا أنفسهم معها، وما أصعب أن يقف الإنسان وقفه حساب ختامي - كما يقول أهل

الميزانيات - حساب ختامي لقرن كامل، لأمة كاملة، ما أصعب هذا؟

قرن اليقظة والكفاح:

القرن مائة عام، والعام اثنا عشر شهرًا، والشهر ثلاثون يومًا، واليوم أربع وعشرون ساعة، والساعة ستون دقيقة! عمر طويل، أعمار، أجيال! وهو قرن حافل، هذا القرن قرن حافل بالفعل، إنّه إذا أردنا أن نضفي عليه وصفًا إجماليًا عامًّا نقول: إنّه قرن اليقظة والكفاح والصراع بالنسبة للأمة الإسلامية!

ليس معنى ذلك أنّ القرون السابقة خلت من اليقظة والكفاح، لا، فليس هذا من طبيعة الإسلام ولا من طبيعة أمته، لا يقبل الإسلام على أهله أن يناموا نومة أهل الكهف، وأن يستسلموا للظلم والظلمات، لا بد من يقظة دائمة! لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة، لا يموت فيها الحق، لا بد فيها من قائم لله بالحجة، لا بد فيها من طائفة تقوم على الحق وعلى أمر الله، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وكما يقول شوقي رحمه الله:

إنّ الذي خلق الحقيقة علقمًا لم يُخل من أهل الحقيقة جيلًا^(١)

ولذلك فإنّ كل قرن فيه يقظة، وفيه جهاد، وفيه كفاح! هذه طبيعة الأمة الإسلامية، وقد جاء هذا في الحديث النبوي الذي رواه أبو داود وغيره: «إنّ الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها»^(٢)، لذلك لم تمر مائة سنة؛ قرن من الزمان، إلا وفيها من أيقظ الأمة من سباتها، وأحياها من موتاتها، وجدد شباب الدين!

(١) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٨١/١).

(٢) سبق تخريجه ص ٦٢٧.

نماذج من المجددين في العصور المتأخرة:

ولو أخذنا مثلاً القرن الثالث عشر، أو القرن الثاني عشر - وبعض المراقبين والمؤرخين يعتبرون هذين القرنين: حضيض الخمود والرقود والانحطاط في تاريخ الأمة الإسلامية - فكم سنجد فيه من أعلام، ومن مجددين، ومن مصلحين، ومن مجاهدين، نذكر منهم: حكيم الإسلام شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم، المعروف بـ(شاه ولي الله الدهلوي)، في القرن الثاني عشر. ونعرف منهم الإمام المجتهد المطلق محمد بن علي الشوكاني، في القرن الثالث عشر. ونعرف منهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، صاحب النهضة السلفية، وصاحب الريادة في الجزيرة العربية، ونعرف منهم الشيخ عثمان الفولاني في نيجيريا، ونعرف منهم الأمير عبد القادر الجزائري، ونعرف منهم الكثير، لو أردنا أن نتحدث عن قاموا في هذه المدة، وأيقظوا المسلمين، وجددوا شباب الإسلام لذكرنا الكثيرين.

تميز القرن الرابع عشر الهجري:

لا يخلو قرن ممن يعمل للإسلام مجددًا وموقظًا ومصلحًا، ولكن هذا القرن بالذات - القرن الرابع عشر - تميز باتساع نطاق اليقظة، وبحدة الكفاح والصراع ضد القوى المعادية!

والسبب في هذا أنَّ النَّائم إذا سمع صوتًا ضعيفًا قد يستيقظ ثم ينام، أو يستيقظ وهو بين النَّائم واليقظان، ولكنه إذا سمع جلبة مدوية، سمع زئيرًا وصراخًا يملأ الآفاق فلا بد أن يقوم، وهذا ما حدث في هذا القرن! المسلمون استيقظوا على هذا الزئير وهذا الصراخ، استيقظوا على حضارة جديدة فاجأتهم بما لم يكن في حساباتهم، حينما التقوا وجهًا لوجه مع

هذه الحضارة في الحملة الفرنسية وفي غيرها وجدوا شيئاً جديداً، كانوا يظنون أنهم الأمة القوية في الدنيا، وأنه ليس هناك أحد أقوى من السلطان ومن الخليفة! ولكن وجدوا شيئاً آخر، كانوا يعيشون في صومعة، في عزلة، ولم يعرفوا تطور الدنيا! كان المسلمون منذ قرون هم سادة العالم، وقادة الدنيا بحق، ولكنهم ناموا واستيقظ غيرهم، وتخلفوا وتقدم غيرهم، ولم يُحسوا بهذا.

أحسوا بهذا حينما التقوا واصطدموا بالغرب، كانت صدمة حضارية، وصدمة عسكرية، وصدمة دينية لهذا المجتمع الذي غلب عليه الخمول في ذلك الوقت، ولذلك تميز هذا القرن بقوة اليقظة، وبحدة الصراع والكفاح، فكان قرناً حافلاً بهذا الكفاح والصراع ضد سلبات عديدة، كفاح وصراع ضد الاستعمار، كفاح وصراع ضد الوجود اليهودي الصهيوني، كفاح وصراع ضد التخلف والتأخر، كفاح وصراع ضد التفرقة والتجزئة للأمة الإسلامية، كفاح وصراع ضد التغريب والغزو الفكري الذي دخل على العالم الإسلامي كله.

أحداث هائلة في هذا القرن:

نحن نعرف أن من الأحداث الهائلة التي حدثت في هذا القرن سقوط الخلافة الإسلامية، آخر قلعة لتجمع المسلمين تحت راية العقيدة؛ على ما كان بها من نقاط ضعف ومن مأخذ، ولكنها كانت قلعة للمسلمين، سقطت هذه القلعة، هذا من الأحداث التي يجب أن تسجل في هذا القرن.

من الأحداث التي حدثت في هذا القرن استعمار البلاد الإسلامية، نكاد نقول جميعاً إذا استثنينا الجزيرة العربية، كل بلاد الإسلام استعمرت، واقتسمت لقمة سائغة: هذه لفرنسا، وهذه لانجلترا، وهذه



لأسبانيا، وهذه لهولندا! تصوروا هولندا ذات الخمسة ملايين كانت تحكم إندونيسيا ذات التسعين مليوناً تقريباً في ذلك الوقت! والعالم الإسلامي كله أصبح غنيمة باردة للاستعمار الغربي! هذا ما حدث.

وقد نتج عن هذا الاستعمار تقسيم البلاد الإسلامية: قسمت وجزئت إلى دول، بل إلى دويلات، وكان مما سحب هذا، ومما سبقه، ومما لحقه ما عرفناه باسم الغزو الفكري، والتغريب للمجتمعات الإسلامية، وللحياة الإسلامية! كانت هذه الفجائع الهائلة مما أيقظ العالم الإسلامي، وهيأه للكفاح والصراع ليسترد شخصيته، ويستعيد مقوماته ووحدته من جديد، فكان الكفاح والصراع، وأنواع وألوان الكفاح والصراع التي تحدثنا وأشرنا إليها.

الأمة تكافح من أجل حريتها:

ولكن هل حقق هذا الكفاح ثمراته؟ هل أتى أكله؟ هل انتهى إلى النتائج المرجوة منه؟

لننظر في وقفة الحساب والتقويم، إذا نظرنا إلى الكفاح ضد الاستعمار نجد أنَّ الأمة - والحمد لله - لم تسكت يوماً، ولم تُغمض العين عن هذا الاستعمار! قاومته من أول يوم، وظهر رجال مؤمنون أفاضوا في كل بلد، قادوا القافلة والكتيبة ضد هذا الاستعمار الكافر؛ لأن الإسلام غرس في المسلمين العزة والكرامة، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، فالمسلم لا يقبل أبداً أن يكون تحت سلطان غيره، والإسلام يعلو ولا يُعلى! التربية الإسلامية، والثقافة الإسلامية، والروح الإسلامية كلها تأبى أن يخضع المسلم لغير المسلم، ولذلك قامت مقاومة شديدة

وكفاح مستميت في كل الأقطار ضد الاستعمار، وكان هذا الكفاح يتميز بهذه الصبغة الدينية الإسلامية، هذا ما يجب أن نذكره هنا.

إذا ذكرنا الاستعمار الغربي الذي دخل بلاد المسلمين يجب أن نذكر أمرين:

الاستعمار قائم على الأطماع والأحقاد معا:

الأمر الأول: أن هذا الاستعمار بالنسبة للمسلمين لم يكن مجرد أطماع في مصالح واستراتيجيات، ولكنه كان أطماعاً وأحقاداً معاً؛ كما قال أخونا الكبير الشيخ محمد الغزالي، الاستعمار أطماع وأحقاد، هو بالنسبة لغير المسلمين أطماع، ولكنه كان بالنسبة للمسلمين طمعاً وحقداً! كانت هناك روح صليبية خفية وراء هذا الاستعمار، تريد أن تثار من تاريخ قديم، أن تثار من المسلمين، تثار لهذا التاريخ، ولذلك إذا أخفى القادة السياسيون هذا الأمر كما تقتضيه الحكمة السياسية؛ لكن القادة العسكريين لم يخفوه، لما دخل القائد الإنجليزي «اللّبي» القدس في سنة ١٩١٧م. قال كلمته الشهيرة: اليوم انتهت الحروب الصليبية. ولما دخل القائد الفرنسي «غورو» دمشق وقف عند قبر القائد المسلم البطل صلاح الدين وقال بشماته وتشفّ: ها قد عدنا يا صلاح الدين!

كانت هذه الحرب الاستعمارية هذه فيها عنصر ديني، ولذلك أدرك المسلمون أيضاً هذا: أنهم لا يقاتلون مجرد مستعمرين، وإنما يقاتلون مستعمرين كفاراً حاقدين، أعداء للإسلام قبل أن يكونوا طالبين لأرض المسلمين وأموال المسلمين.

قام المسلمون بمحاربة الاستعمار، ونستطيع أن نقول إنه قد كُلت جهود المجاهدين والمكافحين في النهاية بالنجاح ضد الاستعمار



العسكري والسياسي، الاستعمار العسكري حمل عصاه ورحل من بلاد المسلمين، رحلت الجيوش والعساكر، ولكن هل زالت آثار الاستعمار التشريعي والاجتماعي والسياسي والفكري؟ ربما نقول السياسي؛ لأنّه تغيرت حكومة بدل حكومة، لكن هل يعتبر هذا في الحقيقة انتصارًا حقيقيًا للأمة الإسلامية؟ مجرد جلاء الجيوش الأجنبية عن أرض الإسلام هل يعتبر انتصارًا؟

بعض الناس قال لي: إنّ انتصار للمسلمين إن لم يكن انتصارًا للإسلام. ولكن كأن هذا تلاعب بالألفاظ: هل يمكن أن نفصل بين المسلمين والإسلام؟ هل يمكن أن يوجد مسلمون بلا إسلام؟ ما معنى أن ينتصر المسلمون إذا لم ينتصر إسلامهم معهم؟ صحيح أنّ المسلمين استقلوا وقامت لهم دول مستقلة، أقاموا دولًا وحكومات علمانية ليبرالية في أول الأمر، ثم اشتراكية في ثاني الأمر، هل هذا يعتبر انتصارًا للإسلام؟

انتصار الإسلام حين نقيم دولته:

لا ينتصر الإسلام في أرض المسلمين إذا لم ترتفع راية الإسلام نفسه، إذا أقمنا دولة ليبرالية رأسمالية ديمقراطية في بلد من بلاد المسلمين فهل يعتبر هذا انتصارًا للإسلام؟ أم يعتبر هذا انتصارًا للمعسكر الغربي؟ هذا انتصار لأمريكا أو انجلترا أو فرنسا!

وكذلك إذا أقمنا دولة اشتراكية ثورية ماركسية هل يعتبر هذا انتصارًا للإسلام؟ هذا انتصار للمعسكر الشرقي، انتصار لروسيا أو الصين.

ننتصر حقًا يوم نقيم دولة إسلامية، يوم نقيم حكمًا قرآنيًا، يوم ينتصر الإسلام في أرض الإسلام! إنّ الذي حدث هو انتصار بنا وليس

انتصارًا لنا حقيقة، إنَّما يحدث الانتصار يوم نقيم حياة الإسلام، يوم نستعيد الحياة الإسلامية!

ومعنى حياة إسلامية: حياة يحكمها الإسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه وآدابه، حياة يعيش فيها المسلم بلا ضغوط ولا تنازلات، حياة تتحقق فيها آمال المسلم، وتتحقق فيها شخصيته، أين هذا؟ دلوني على هذا في أرض الإسلام؟

الاستعمار رحل؛ ولكن للأسف لم يتحقق ما كان ينبغي، استقللنا إلا أنَّ الاستقلال في حد ذاته ليس غاية، الاستقلال وسيلة، الأمم لا تعيش لتستقل؛ بل تستقل لتعيش! وتعيش كما تريد لنفسها لا كما يراها! الأمم تستقل لتحقيق ذاتها ووجودها، وذات الأمة الإسلامية إنَّما تتحقق بالإسلام، لا معنى للأمة الإسلامية بغير الإسلام، ومن هنا أقول إنَّ الاستقلال لم يؤت ثمرته المطلوبة، صحيح أننا استرحنا من عساكر الاستعمار وجنود الاستعمار إلا أنَّ النتيجة لم تكن كما يحب الإسلام، وكما يريد الصادقون من المسلمين.

استمرار الاستعمار الشرقي:

هنا شي أحبُّ أن أقوله: إنَّه إذا كانت جيوش الاستعمار قد رحلت بالفعل من معظم بلاد المسلمين فيجب ألا ننسى هنا - وكثيرًا ما تنسى هذه النقطة - أن عددًا من بلاد المسلمين فيها استعمار حقيقي قاهر مذل يعيش في هذه البلاد الإسلامية، إنَّه الاستعمار الشرقي، عادة إذا ذكر الاستعمار يذكر الاستعمار الغربي فقط، ولكن الاستعمار الشرقي أعتى وأشرس وأشد وأقسى من الاستعمار الغربي، هناك بلاد البخاري وغيره؛ بخاري وسمرقند وطشقند والجمهوريات الإسلامية في الاتحاد



السوفيتي وفي البلاد الشيوعية، وأولئك الذين يعيشون وراء الستار الحديدي لا يزالون يعانون استعمارًا حقيقيًا، هذا استعمار حقيقي! يجب ألا ننسى هذا الجزء من أمتنا الإسلامية، هذا كفاحنا أيها الإخوة ضد الاستعمار، وهذه ثمرته.

الاستعمار الصهيوني اليهودي لفلسطين:

فإذا جئنا إلى النوع الثاني من هذا الكفاح، أو المجال الثاني لهذا الكفاح والجهاد، وهو الجهاد ضد الاستعمار اليهودي الصهيوني، وأنا أقول اليهودي، وأستغني كثيرًا عن ذكر الصهيوني؛ لأنه لا فرق عندي بين اليهودية والصهيونية، كل يهودي صهيوني؛ لأن الثقافة الدينية الأساسية التي يغذى عليها كل يهودي تجعل منه صهيونيًا؛ روحًا وفكرًا وسلوكًا؛ إن لم يكن صهيونيًا تنظيميًا! التوراة والتلمود - وهي مصادر الإلهام ومصادر الفكر والعقيدة بالنسبة لأي يهودي - كلها تجعل الناس؛ عدا شعب الله المختار عبيدًا أو كالعبيد عند اليهود، أميين، كما حكى القرآن قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، كل الأمم يجب أن تكون في خدمتهم: دماؤهم وأموالهم وأعراضهم حلال لهم، الربا حرام إذا عامل اليهودي اليهودي، ولكن حلال إذا عامل اليهودي غير اليهودي.

فلذلك أنا أقول: الاستعمار اليهودي، ويكفي هذا عن كلمة صهيوني، وأسميه استعمارًا؛ بل هو أشد أنواع الاستعمار؛ لأنه استعمار استيطاني خبيث، لم يجئ ليأخذ مالا، أو ليحقق مصلحة ثم يرحل؛ بل جاء يطرد الشعب ويأخذ مكانه ويحتل أرضه، وكما قال مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني رَحِمَهُ اللهُ: لم تكن فلسطين بلدًا بغير شعب حتى تستقبل شعبًا بغير بلد! بلد لها أهلها، ولكن أراد هذا الاستعمار أن يطرد

أهلها، ويعيش فيها، ويفرض نفسه على هذه المنطقة في قلب بلاد العروبة والإسلام، في أرض النبوات، الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، وذكرها بالبركة في عدد من آيات كتابه الكريم، أرض أولى القبلتين وثالث المسجدين الشريفين، أرض الإسراء والمعراج، أرض المسجد الأقصى.

أراد اليهود أن يقيموا وطنهم في هذه الأرض بالذات، لنبوءات وأحلام واعتبارات دينية عندهم، أنها أرض الميعاد كما يسمونها، وقاوم الشعب الفلسطيني - من الإنصاف أن يقال هذا - قاوم من قديم، في وقت كان كثير من العرب والمسلمين؛ أو جمهور العرب والمسلمين الأعظم لا يلتفت إلى هذه القضية، ولا يحس بخطورتها! قليل من الناس من الدعاة الإسلاميين هم الذين دقوا الأجراس، ونبهوا على خطر هذا الأمر، وكتبوا وخطبوا، وأقاموا المؤتمرات وعقدوا الندوات، وسيروا المظاهرات، من أجل التنبيه على خطر اليهودية في فلسطين منذ وعد بلفور ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧م، الحركة الإسلامية والدعوة الإسلامية وحدها هي التي نبهت على هذا، يوم كان يقول بعض الزعماء مثلاً في مصر: أنا رئيس وزراء مصر لا رئيس وزراء فلسطين. كانوا يظنون أن الخطر بعيد عنهم، أين نحن من فلسطين؟ هكذا كان تصورهم للأمر.

مقاومة الفلسطينيين والعرب:

قاوم الشعب الفلسطيني، وقاوم بعد ذلك العرب متطوعين وجيوشاً رسمية، الجيوش الرسمية جيوش الدول السبعة التي دخلت سنة ١٩٤٨م بأسلحة فاسدة وغير فاسدة، وبعضها عن إخلاص وبعضها عن خيانة،

وحدث ما حدث، ولكن مما يجب أن نذكره ونؤكدده تلك الروح التي تجلت في ذلك الشباب المؤمن، الذي هجر دياره وأرضه ومعاهده وجامعاته وتجارته وذهب إلى تلك الأرض لله، لا يطلب شيئاً إلا الجنة، يريد أن يسلم لله ما اشترى منه - النفس والمال - ليتسلم الجنة، هذا ما حدث، رأيتُ والله من شبابنا وإخواننا الطلاب من يبكي ويتحرق شوقاً إلى الذهاب إلى أرض فلسطين مجاهداً، رأينا من الفلاحين من باع جاموسته ليشتري بندقية، ويذهب إلى فلسطين، أخ في منطقة (بسيون) في محافظة الغربية بمصر، فلاح باع الجاموسة ليشتري بندقية، ويذهب ليتطوع للجهاد في فلسطين، قيل له: يا أبا فلان يكفي أنك ستقاتل بنفسك، دع غيرك يتبرع بماله، فقال لهم: هو ربنا اشترى منا النفس فقط؟ أم اشترى النفس والمال؟ قالوا له: النفس والمال، قال: خلاص ما دمتُ أريد الجنة فلازم أقدم النفس والمال، هذا هو المنطق. كان جزاء هذا الرجل أن يعتقل فيما بعد، وأن يؤخذ من الميدان إلى وراء الأسوار.

هذه الروح التي كانت تجعل بعض الشباب يصاب بدانة مدفع فتقطع ساقه، فيراها أمامه مقطوعة فيقول ما كان يقول الصحابي قديماً:

ولستُ أبالي حين أُقْتَلُ مُسْلِمًا على أيِّ جَنبٍ كان في الله مَصْرَعِي!
وذلك في ذاتِ الإله، وإنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعٍ^(١)

هذه الروح الإسلامية التي كانت وراء الشباب، الذين جاؤوا من أكثر من بلد إسلامي؛ ليقاتلوا مع إخوانهم في فلسطين، وضد هذا العدو الغاصب الشرس!

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٤٥)، وأحمد (٧٩٢٨)، عن أبي هريرة.

التنازلات والهزائم والخianات:

واستمرت المعارك، واستمرت الخianات، واستمرت التنازلات يوماً بعد يوم: هزائم ونكسات، حتى أصبح هم العرب في فترة ما - بعد أن كان هم الأمة كلها القضاء على إسرائيل؛ لأنّها قامت على الاغتصاب وعلى العدوان - أصبحت السياسة العربية تلهث وراء هدف مجمع عليه تقريباً؛ هو إزالة آثار العدوان، أي عدوان سنة ١٩٦٧م، أمّا عدوان ما قبل ذلك سنة ١٩٥٦م وسنة ١٩٤٨م إسرائيل كلها قامت على العدوان؛ فكأن هذا أصبح أمراً مسلماً به، فمهما اختلفت السياسة في صلح منفرد، أو صلح جماعي فكأن الكل متفقون على أنّ المطلوب إزالة آثار العدوان فقط! أهذه هي النتيجة؟

وحتى هذا لم نحصل عليه، وحتى هذا لم نقف صفّاً واحداً وراءه! من كان يظن أن بضعة ملايين من اليهود في العالم كله - هم بضعة ملايين، مليونان في فلسطين، وكل اليهود بضعة عشر مليوناً في العالم - من كان يظن أنّ العرب من الخليج إلى المحيط، وأن المسلمين من المحيط إلى المحيط، يعجزون عن مقاومة هذا السرطان الذي قام له كيان، سمي إسرائيل؟

مما أذكره أن أجهزة الإعلام العربية من صحافة أو إذاعة وغيرها ظلت سنين لا تذكر إسرائيل إلا وتقول: إسرائيل المزعومة، وإذا جاء ذكر إسرائيل في الصحافة كتبوا بين قوسين المزعومة، وبعد مدة من الزمن لما أصبحت هذه المزعومة تتحدى الجبهات المختلفة، وتلطم هذه، وتصفع تلك، وتركل الأخرى، ولا تبالي بأحد، خجلنا من أنفسنا، ولم نعد نكتب كلمة المزعومة؛ بعد أن أوشكنا أن نكون نحن المزعومين، هذا ما حدث.



من كان يظن أن يصل الأمر إلى هذا الحد؟ مائة وعشرون أو مائة وأربعون مليوناً من العرب، ووراءهم حوالي ثمانمائة مليون من المسلمين أو أكثر، ومع هذا يعجزون عن مقاومة اليهود! من كان يظن هذا؟

خطورة تجاهل البعد الإسلامي في القضية:

ولكن مما ينبغي أن يقال إنَّ القضية للأسف لم تعالج كقضية إسلامية حقيقية إلى اليوم! إنَّه يراد لها أن تكون قضية قومية عربية، وقضية فلسطين في الحقيقة قضية إسلامية بكل ملابساتها وظروفها، ولكن بعض زعماء النضال الفلسطيني كما يقولون قال: لا تقولوا إسلامية، ولا تثيروا هذه القضية، إن عندنا أربعة عشر مليوناً من الأقليات غير الإسلامية في بلاد العرب؛ فماذا نقول لهم؟

يا سبحان الله أمن أجل أربعة عشر مليوناً تُغفل ثمانمائة أو تسعمائة مليون مسلم في العالم؟! وما الذي يضير هؤلاء أن تكون قضية إسلامية؟ وهي إسلامية حقيقية، والإسلام يعتبر ثقافة وحضارة لهذه الأمة كلها، ولكل من يعيش في كنفها؛ سواء كان مسلماً أو غير مسلم؟ الإسلام بالنسبة للمسلم دين، ولكنَّه بالنسبة للنصراني العربي - مثلاً - ثقافة وحضارة وتاريخ مشترك، فماذا يضيره أن تكون هذه القضية إسلامية؟

إذا فرغت هذه القضية من الروح الإسلامية فلن تكون شيئاً، الروح الإسلامية هي القادرة على تفجير الطاقات، وصنع المعجزات.

وأضرب لكم مثلاً: في سنة ١٩٦٧م حينما كان العزف على نغمة القومية والاشتراكية وهذه الأشياء سائدة: ماذا صنع العرب في سنة ١٩٦٧م؟ هزيمة خففوا وقعها سموها النكسة، ولكن كانت انهياراً، كان الطريق إلى

القاهرة وإلى دمشق مفتوحًا؛ باعتراف أولئك القادة أنفسهم! لم تصنع القومية والأغاني الحماسية، والأناشيد التي كان يقال فيها: ومدفعا يتحدى القدر! أحد الأناشيد كان يقال فيها هذا، وشاء الله أن هذا المدفع لم يضرب طلقة! معظم الأسلحة تركوها لقمة سائغة وغنيمة لليهود؛ لأن السلاح لا يقاتل وحده!

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام^(١)!
خيل من غير خيال ماذا تصنع؟! هذا ما حدث ضد الوجود اليهودي المغتصب!

ماذا حدث في كفاحنا وجهادنا ضد التخلف؟

الإسلام يفرض التقدم، التقدم بالنسبة للمسلمين فريضة دينية، ما معنى التقدم؟ التقدم معناه أن نكون أقوياء، أن نكون قادرين على حماية أنفسنا، أن نكون قادرين على إطعام أنفسنا، أن نكون قادرين على الاستغناء عن غيرنا، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب شرعًا، ولكن للأسف ماذا صنعنا ضد التخلف؟ لا نزال حتى الآن نعاني تخلفًا في كل مجال!

أضرب مثلين: التخلف في الزراعة، والتخلف في الصناعة.

نحن بلاد زراعية، المفروض أننا بلاد زراعية، ومع هذا نجد كثيرًا من بلاد المسلمين إلى اليوم يحتاج إلى استيراد قوته اليومي، بحيث لو كف أولئك القوم هناك وراء البحار أيديهم عن إعطاء الخبز لهلك الناس جوعًا، هذا هو ما يحدث! حتى الزراعة! أين سواد العراق؟ وأين مصر التي كانت تعتبر في عهد الرومان مخزنًا للغلال؟ وأين

(١) ديوان أبي الطيب المتنبّي ص ٣٩٠.



البركات في الأرض الإسلامية؟ السودان وحده فيه ملايين الأفدنة، تكفي العالم العربي وتفيض على العالم الإسلامي، أين الأرض الإسلامية؟ لماذا لا نزرع أرضنا؟ لماذا لا نستغلها؟ لماذا لا تتكامل رؤوس الأموال مع الخبرة الفنية، مع الأرض الزراعية، مع الأيدي العاملة؟ لماذا لا يحدث هذا؟

عجيب أننا أمة لا تجد ما يكفيها من القوت، كل ما ينادي به كثير من رجالاتنا تحديد النسل، أهذه هي الحلول لتلك المشكلة عندكم؟ تحديد النسل؟! طبعًا أسهل شيء أنك بدل أن تتعهد الزرع بالرعاية والسقاية ألا تزرع أصلاً: لا تنجبوا الذرية. هذا ما يحدث، تخلف في الزراعة.

وكذلك تخلف في الصناعة، ماذا عملنا في الصناعة؟ علماء المسلمين يقولون: كل صناعة أو حرفة يحتاج إليها المسلمون في دينهم أو دنياهم، فإن تعلمها وإتقانها فرض كفاية؛ أي يجب أن يكون هناك عدد كاف في كل صناعة أو علم ديني أو دنيوي، بحيث يستغني المسلمون عن غيرهم، وإلا عم الإثم جميع الأمة بصفة عامة، وأولي الأمر فيها بصفة خاصة! تعلم الصناعات وإتقانها فرض كفاية، الإمام الغزالي عاب على فقهاء زمانه أن كثيرًا منهم يشتغلون بالفقه، البلد الواحد فيها عشرات المتفقيين، ولا يوجد فيها إلا طبيب يهودي أو نصراني يكشف على المسلمين والمسلمات، ويطلع على العورات.

تعلم الصناعات والعلوم الدنيوية المختلفة فرض كفاية على المسلمين، فهل تعلمنا الصناعات؟ القرآن فيه سورة اسمها سورة «الحديد»، هل تعلمنا من سورة «الحديد» أن نصنع الحديد؟ أمة سورة

«الحديد» لا تعرف صناعة الحديد! في تلك السورة آية يجب أن تُتدبر، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾: إشارة إلى الصناعات الحربية، ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾: إشارة إلى الصناعات المدنية، ولا بد منهما معًا، هل تعلمنا من القرآن؟ لم نتعلم! أكثر البلاد الإسلامية حتى اليوم يستورد من الإبرة إلى الصاروخ كما يقولون، حتى الإبر لا نصنعها.

لو نظرنا إلى هذا المكان الذي نحن فيه: أنظر إلى ما فوقني وما تحتي، وما خلفي وما بين يدي، أجد أن كله مستورد، كل شيء مستورد، لا يوجد شيء غير مستورد إلا أنتم فقط، هذا حالنا، هذا شيء يضحك ويبيكي في الحقيقة، نحن نستورد ولا نصنع، عندنا أموال كثيرة فماذا صنعنا بهذه الأموال؟ بعضهم قال: نحن نستطيع أن نشترى التكنولوجيا الغربية بأموالنا، التكنولوجيا لا تُشترى.

في الظهيرة كنا نتغدى مع العالم الباكستاني الذي يزور جامعة قطر حاليًا، والحائز على جائزة نوبل، قال: إنه في إحدى البلاد العربية صنع لها الروس مفاعلًا نوويًا، بلغت نفقاته ثلاثمائة مليون دولار، ويقول هذا العالم النووي المتخصص إنه زاره وشاهده فوجده لا يفيد شيئًا.

التكنولوجيا لا تشتري:

إنهم يضحكون علينا، التكنولوجيا لا تشتري، (لازم أنت تعملها) وتصنعها، لا بد من هذا، فنحن للأسف لا نزال متخلفين زراعيًا، ولا نزال متخلفين صناعيًا، ولم نحقق شيئًا! صحيح حققنا بالنسبة لما كنا عليه من قبل، إلا أن هذا ليس شيئًا مذكورًا بالنسبة لما يجب أن نكون عليه، وبالنسبة للعالم الذي نعيش فيه! نحن نعيش في قرن بلغ



الناس فيه في الغرب ما يسمونه عصر الصناعة الثاني، عصر الصناعة الأول كانت الآلة فيه تغني عن الجهد البدني للإنسان، الآن عصر الصناعة الثاني، الآلة تغني فيه عن الجهد الذهني للإنسان، عصر الكمبيوتر، أين نحن من هذا؟ نحن متفرجون، نحن عندنا أموال نشترى بها الأدوات المستهلكة، وكثير من هذه الأدوات تخرج من عندنا مادة خامًا، ثم تعود إلينا مصنعة؛ لنشترىها بأعلى الأثمان، ماذا نصنع؟ نحن نركب سيارات، وأحيانًا تُصنَّع لنا سيارات خاصة، فيقولون لك السيارة الأولى في هذه الدفعة هي لعظيم من عظماء العرب، يا سلام! (متشكرين) وبعد ذلك ينهب بها الأرض نهبًا، ويدهم بها الناس في الطريق، نختال بسيارات ليست من صنعنا، لم نصنع فيها شيئًا.

رأينا بلادًا شرقية وصلت أكثر مما وصلنا إليه، صنعت الهند الطائرات؛ فماذا صنعنا؟ وصنعت قنبلة نووية؛ فماذا عملنا نحن؟ بلاد بدأت الصناعة من عهد قريب مثل كوريا، وهي الآن - كما سمعتُ من بعض اليابانيين - يعتبرها اليابانيون منافسًا خطرًا لها!

الخيبة خيبتنا نحن، مصر بدأت نهضتها مع اليابان في وقت واحد، فأين مصر الآن؟ وأين اليابان؟

الإسلام ينكر علينا هذا التخلّف:

ما الذي فعل هذا؟ هل الإسلام مسؤول عن هذا؟ لا، بالعكس الإسلام يديننا، وينكر علينا هذا التخلّف! الحقيقة أننا لم نستلهم الإسلام في أمورنا هذه لو استلهمنا الإسلام لفجّر فينا الطاقات، وصنع فينا شيئًا كبيرًا!

صراعنا ضد التخلّف - أيّها الإخوة - هذا نتيجته، صراعنا ضد التجزئة والتفرقة ماذا صنعنا فيه؟

منذ ألغيت الخلافة وهناك محاولات لتوحيد الأمة في شكل أو آخر، تأخذ عناوين شتى، تسمى أحياناً عودة الخلافة، أحياناً الجامعة الإسلامية، أحياناً الاتحاد الإسلامي، أحياناً التضامن الإسلامي، ولكن هذه المحاولات لم تحقق الهدف، كل ما وصلنا إليه ما سمي أخيراً بالتضامن الإسلامي، التضامن الإسلامي! ماذا صنع هذا التضامن؟ أبسط القضايا وأوضحها وأقربها إلى الإجماع، أو حتى القضايا المجمع عليها، لم يصنع فيها شيئاً.

تقصير المنظمات العربية والإسلامية:

قضية مثل قضية فلسطين والقدس قضية لا يختلف فيها اثنان، ماذا صنعت أمانة المؤتمر الإسلامي، ومؤتمر وزراء الخارجية، ومؤتمرات القمة الإسلامية؟ ماذا صنعت هذه المؤتمرات في قضية واضحة مثل قضية أفغانستان؟ الشعب الأبى الشجاع البطل الذي لوثت أرضه قوى هذا الغزو الكافر دون مبرر، في هذه القضية للأسف نجد من المسلمين من يقف ليؤيد الغزو، أليس هذا شيئاً تنقطع له نياط الفؤاد حقاً؟

القضايا الكبرى لم نفعل فيها شيئاً؛ لأن هذا التضامن ليس تضامناً حقيقياً، هو تورط، هو تضامن حكام أكثر مما هو تضامن شعوب، حكام يتعانقون في العلانية ويتلاعنون في السر، حكام يقابل بعضهم بعضاً بالبسمات، وفيهم من يغمس يده في دماء المسلمين، ولا يقول له أحد: كف يدك!

هو عملية مؤامرة صمت، نسكت عن جرائمك لتسكت عن مبادلنا، صفقة بصفقة، والثلث حرمات المسلمين ودمائهم!

أين التضامن؟ لا تضامن حقيقياً! نريد تضامناً حقيقياً يجعل المسلمين قوة في وجه أعدائهم، وفي بناء شخصيتهم، واستعادة مجدهم وكرامتهم.



تغريب المجتمع المسلم:

الكفاح ضد الغزو الفكري، والغزو الفكري هذا - وإن أخرته في الحديث - هو شر من كل ما سبق! تغريب المجتمع الإسلامي، إخراج هذا المجتمع عن هويته، سلخ المسلم من شخصيته جاء نتيجة هذا الغزو! وهذا هو الأثر الحقيقي للاستعمار! الغزو العسكري أهون بكثير من الغزو الفكري، الغزو العسكري يحتل الأرض، إنما الغزو الفكري يحتل القلب والعقل! الغزو العسكري يُحس ويُلمس فيقاوم، إنما الغزو الفكري لا يُحس ولا يُلمس، إنه يتسلل تسلاً! الغزو الفكري قد يقتل الأفراد، إنما الغزو الفكري يقتل المجتمعات، ويقتل بلا رصاص ولا ماء، يقتل المعنويات، يفتن الناس، بدل أن يقتلهم يفتنهم، والله تعالى يقول: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وفي آية أخرى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

هذا الغزو لم تُصب أمتنا بمثله من قبل، حدث في الأزمنة الأولى أن دخلت هناك بعض أشياء عكرت صفو الثقافة الإسلامية، ما نعرفه باسم «الإسرائيليات»، اليهود لما هُزموا عسكرياً أدخلوا كثيراً من هذه الأشياء، دخلت عن طريق اليهود ومن أسلم من أهل الكتاب، وعن طريق الاختلاط، ودخلت أشياء بعضها بحسن نية وبعضها بسوء نية، ولكن هذه «الإسرائيليات» لم تستطع أن تفسد التصور الإسلامي لله وللكون وللحياة وللإنسان وللتاريخ، شابت الثقافة الإسلامية ولكن لم تفسد التصور ولا الفكر.

بعد هذا حدثت مسألة أخرى، وهي الاختلاط بالثقافة اليونانية، الفلسفة الإغريقية، وهذه أثرت لا شك في مجرى التفكير الإسلامي،

ولكن تأثيرها كان محدودًا! أثرت في طبقة خاصة، في الذين يسمون الإسلاميين، كابن سينا والفارابي والكندي وغيرهم، أثرت في هؤلاء حتى إن بعضهم كان يعتبر أرسطو المعلم الأول، ويعتبر تعاليمه أساسًا، ويؤوّل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويعتسف في تأويلها حتى توافق أفكار أرسطو! هذا حدث حقيقة، ولكن كان في دائرة محدودة، لم يتأثر جمهور الناس، ولا جمهور المتعلمين، ولا جمهور المثقفين، وظل علماء الدين وغيرهم، ومعهم جمهور كبير، ضد هذا التيار، إلى أن جاء أبو حامد الغزالي فدرس الفلسفة وهضمها وتمثلها، ثم هدمها بمنطقها، وحاربها بسلاحها نفسه، وكتب عن تهافت الفلاسفة، وبيّن أخطاءهم في عشرين مسألة، كّفّرهم في عشرين منها، وتبعه الرأي العام الفكري، وسموه حجة الإسلام.

ثم جاء بعده مثل شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أكمل الشوط، وحاول تنقية الثقافة الإسلامية كلها من آثار الفلسفة اليونانية، حتى المنطق! الإمام الغزالي كان يعتبر المنطق معيار العلوم، ولكن شيخ الإسلام قال: هذا علم لا ينتفع به البليد، ولا يحتاج إليه الذكي. ونقده في كتابين له، وسبق بذلك رواد النهضة الأوروبية، التي قامت نهضتها على أساس المنهج التجريبي الاستقرائي، المقتبس أساسًا من الحضارة الإسلامية؛ كما اعترف بذلك المنصفون من مؤرخي العلم.

حدث هذا كله؛ لأنّه لم يكن مثل الغزو الفكري الغربي، الذي دخل الحياة الإسلامية عن طريق المدرسة والجامعة والصحيفة والكتاب والاستشراق والاستغراب، وأثر في الجمهور الكبير، في القاعدة العريضة من المسلمين، حتى أصبح المسلم يفكر بغير عقل الإسلام، وبغير منطق



الإسلام! وأصبح المسلمون يشكون في صلاحية إسلامهم للحكم وللتشريع، وسادت العلمانية - وهي فصل الدين عن الدولة وعن الحياة، وهذا أمر ما كان يعرف في الإسلام قط، هذا أمر قد يقبل في منطق الإنسان الغربي؛ سواء كان منطق الدين أو منطق الفلسفي.

الإسلام لا يعرف فصل الدين عن الحياة:

المنطق الديني عند الغربيين المسيحيين أنه يمكن فصل الدين عن الحياة؛ لأن الحياة عندهم مشطورة شطرين: شطرًا لقيصر وشرطًا لله! والإنسان مقسوم قسمين: قسمًا توجهه الكنيسة وقسمًا توجهه الدولة! أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله! هذا ما يقولونه عن إنجيلهم!

الإسلام ليس فيه هذا، الإسلام فيه: قيصر وما لقيصر لله الواحد القهار! لا قسمة، لا ثنائية، الإنسان كيان واحد، والحياة نهر واحد، ومجرى واحد، ولا بد أن توجهها سلطة واحدة! لا يعرف الإسلام هذا الازدواج ولا هذه الثنائية قط، هذا ما يعرفه العقل الإسلامي، العقل الغربي غير هذا، فكان المفروض أن هذا يرفض تمامًا بمنطق الإسلام.

الغريون عندهم أيضًا تأثير ووراثة من فلسفة أرسطو وأفلوطين وغيرهم: أن الله لا يدبر في الكون أمرًا، ولا يعرف عنه شيئًا، ولا يعرف إلا ذاته؛ كما قال أرسطو! وأفلوطين يقول: لا يعرف حتى ذاته. هذا هو الإله عندهم، العالم يتحرك شوقًا إليه، إنما هو لا يحرك العالم، هذا هو تفكيرهم عن الألوهية، تفكيرهم غير تفكيرنا تمامًا، الله عندنا هو الحاكم، الحكم لله، والملك لله، والأمر لله، ولذلك لا نتصور نحن مع الله حاكمًا آخر: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

من هنا كانت كارثة كبيرة أن يقبل العقل الإسلامي العام مثل هذه العلمانية في وقت ما، وينادي المنادون بفصل الدين عن الدولة، ثم ينادي منادون آخرون باقتباس الحضارة الغربية كلها، خيرها وشرها وحلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، واشترك في ذلك نصارى ومسلمون للأسف، ودخل هذا الغزو بعض الأحيان بعض المعادل الإسلامية الكبرى، فوجدنا من علماء الأزهر من يكتب في الإسلام وأصول الحكم، ويجرد الإسلام من الحكم ومن الدولة، ولكن رفضه الأزهر كله رفضاً، ولفظه لفظ النواة، وأجمعت هيئة علمائه على طرده من الأزهر، وسحب شهادة العالمية منه! ما كان يتقبل الأمر هذا.

مقاومة الاتجاه الإسلامي للغزو الفكري:

الغزو الفكري في الحقيقة عمل عمله في الحياة الإسلامية، ولكن أيضاً لم يستسلم العقل الإسلامي لهذا! لقد قاوم هذا الغزو رجال مخلصون في كل بلد إسلامي، وقام مجددون هنا وهناك، من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وعبد الحميد بن باديس، وحسن البنا، وأبو الأعلى المودودي، ومصطفى صادق الرافعي، وكثيرون لا أحصيهم الآن، قاموا يقاومون هذا الغزو، ويعيدون إلى المسلم الثقة بالإسلام.

وفعلاً استطاع هذا الفكر الإسلامي الجديد أن ينفذ الغبار، ويزيل الصداً عن كثير من جواهر الإسلام وكنوزه، وأن يجلي محاسن الإسلام، وأن يكشف عن عورات الحضارة الغربية التي بُهر الناس بها، ووصل في ذلك إلى مرحلة لا بأس بها، ولكن لا تزال هناك قاعدة لهذا الغزو!



لا يزال في الجامعات، وفي أجهزة الإعلام، وفي شتى المجالات رجال يؤمنون بالغرب إمامًا، ويتخذونه لهم قبله، سواء كانوا يساريين أم يمينيين، هذا لا يهمنا؛ لأن الكل فرع من شجرة واحدة، هي شجرة المادية الخبيثة الملعونة في القرآن والتوراة والإنجيل.

هذه أيُّها الإخوة ألوان في الكفاح والصراع التي قامت بها أمتنا في هذه الفترة، وهذه هي النتائج، من المسؤول عن هذه النتائج؟ هذا ما يخطر ببال الكثيرين، من المسؤول؟ هذا سؤال

يدور على الألسنة، والجواب عنه يبين لنا أيضًا إحدى سلبياتنا.

نسأل الله ﷻ أن يفقهنا في ديننا، وأن يعلمنا ما جهلنا، وينفعنا بما علمنا، إنه سميع قريب، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *





رمضان وإحياء الأمة^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأزكى صلوات الله وتسليماته على مُعَلِّمِ الناس الخير، وهادي البشرية إلى الرُّشد، ومُخرجِ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، سيّدنا وإمامنا، وأسوتنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه، الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه، واتّبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون، ورضي الله عنّ دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أحْيَيْكُمْ به أيها الإخوة والأخوات تحيةُ الإسلام، وتحيةُ الإسلام السَّلام، فالسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(أمّا بعد)

فقد كانت إجازتي في مصر في هذا الصيف قليلة الأيام محدودة، حتى كدت أسافر ولا ألقى هذه المجموعة، وقال لي بعض الإخوة:

(١) ألقى هذه المحاضرة في الندوة التي نظمها «اتحاد الأطباء العرب»، بالتعاون مع «معهد الفكر العربي» بالقاهرة، بتاريخ ٢٧ أغسطس ٢٠٠٨م، ونقلتها قناة الجزيرة مباشر.

«أيهون» عليك أن تأتي إلى مصر، وترجع من مصر ولا تلقى أحبابك، الذين يحبون أن يروك. وأنا رجل عاطفي أثرت فيّ هذه الكلمة، فإني ألقى الناس في أقطار شتى من قارات الدنيا كلها، ولكن مصر لها مذاق خاص، ولها وضع خاص، ولها حين خاص، كما قال الشاعر العربي قديماً:

نَقْلُ فُؤَادِكَ حَيْثُ شَتَّ مِنَ الْهَوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَسْكُنُهُ الْفَتَى وَحَيْنُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلٍ^(١)

فلذلك لم أستطع إلا أن أجيب الإخوة الذين طلبوا مني أن ألقى إخواني وأخواتي، وأبنائي وبناتي في هذه الدار: دار الحكمة، وهي الدار التي لي فيها ذكريات وذكريات، أشار إلى بعضها أخي الدكتور عصام العريان حفظه الله وإخوانه، لهذا يسرني أن ألتقي مع إخواني وأخواتي في هذه الأمسية الطيبة لننتحدث عن (رمضان وإحياء الأمة).

المراد بالأمة:

إذا تحدثنا عن الأمة؛ فأى أمة نعني؟ وما المراد بالأمة؟ حينما تُذكر هذه الكلمة في المحيط الإسلامي؛ فليس لها إلا معنى واحد، ومفهوم واحد: هو أمة الإسلام، أمة القرآن، أمة محمد ﷺ، أمة الإجابة.

والعلماء يقسمون الأمة إلى قسمين:

هناك أمة الدعوة، وهي العالم كله، لأن العالم كله مخاطب بدعوة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]،

(١) البيتان لأبي تمام، كما في شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي (٢/٢٩٠)، فهرسة راجي الأسمر، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤م.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]،
 ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فهذه
 أمة الدعوة، العالم كله أمة الدعوة: من دخل في الإسلام، ومن لم يدخل.

وهناك أمة الإجابة، كل العالم مدعو إلى الإسلام، ولكن الله وفق
 القليلين من الناس، هم الذين استجابوا لدعوة محمد ﷺ، ودخلوا في
 هذا الدين، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، هذه هي أمة
 الإجابة: الأمة الإسلامية، فنحن مع أمة الإجابة، وهي التي وصفها القرآن
 بأوصاف أساسية مهمة، يجب أن نتذكرها حينما نتحدث عن الأمة.

أوصاف الأمة الإسلامية:

أول هذه الأوصاف الوسطية، أمة القرآن وأمة محمد أمة وسط،
 ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ
 عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهي الأمة الوسط.

ووسطية هذه الأمة تتجلى في أشياء كثيرة، أهمها وسطية المنهج،
 فمنهجها وسط بين الغلاة والمقصرين، بين اليمين واليسار، بين المغالين
 في الروحية والمغالين في المادية، بين المغالين في الاتجاه إلى الدنيا
 والمغالين في الاتجاه إلى الآخرة، هي أمة وسط في كل شيء، تجمع
 بين المثالية والواقعية، تمزج الروح بالمادة، والعقل بالقلب، والسماء
 بالأرض، هذا هو المنهج الوسط للأمة الوسط، فحينما نتحدث عن هذه
 الأمة نريد الأمة الموصوفة بالوسطية.

وهي موصوفة أيضًا بالخيرية، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾
 [آل عمران: ١١٠]، هي أفضل الأمم، ليس من ناحية عنصرية، لأنها تنتسب

إلى العرق الآري أو السامي أو إلى كذا، لا، وإنما خيريتها في رسالتها، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهي أخرجت، أخرجها مخرج، لم تنبت من نفسها، المصريون يقولون عن النبات الذي يخرج في البرية: هو نبات شيطاني. وهو تعبير خاطئ، لكنهم يقصدون أنه لم يزرعه زارع، لكن هذه الأمة ليست نباتًا شيطانيًا، وإنما هي نبات رباني، أنبته منبت، وأخرجه مخرج، ولذلك قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾، فهي أمة مجعولة مصنوعة، الله هو الذي جعلها وصنعها.

هذه الأمة أخرجها الله للناس، لم تخرج لنفسها، ليست أمة أنانية تعيش لذاتها، لا، بل هي أمة تعيش لنفع الناس، لهداية الناس، لتنوير الناس، لإسعاد الناس، هذا هو شأن الأمة الإسلامية.

أمة واحدة:

وهي أمة موصوفة في القرآن أيضًا بصفة أساسية هي الوحدة، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، فكأنه يشير إلى أنه لا تتم العبادة ولا تكمل التقوى إلا بأن تتحد الأمة، فهي أمة واحدة.

ولذلك كل من يريد أن يفرق هذه الأمة ويجعل منها أممًا، فهو يرتكب جريمة كبيرة، أنا أعيب على بعض الكتاب - حتى الإسلاميين منهم - أنهم يقولون: الأمم الإسلامية. ليست هناك أمم إسلامية إلا من باب المجاز، إنما الأصل أنها أمة إسلامية واحدة، ذات شعوب إسلامية: الشعب العربي، والشعب الهندي، والشعب التركي، والشعب الأفغاني،

والشعب النيجيري، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، فهي أمة واحدة، لا يجوز لكاتب إسلامي أن يقول: الأمم الإسلامية، علينا أن نعمل للأمم الإسلامية. لا، بل يقول: لخدمة الأمة الإسلامية، ونصرة الأمة الإسلامية، وتحرير أرض الأمة الإسلامية، وتوحيد الأمة الإسلامية.

الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم:

والأمة الإسلامية في الحقيقة هي أمة موجودة، أنا لي كتاب صغير مركز اسمه (الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم)، هناك أناس يقولون: ليس هناك شيء اسمه (أمة إسلامية)، هناك أمة عربية، وأمة تركية، وأمة هندية. وهذا خطأ، هناك أمة إسلامية موجودة حقيقة.

الأمة موجودة من الناحية الدينية:

الأمة التي تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت، هذه الأمة الإسلامية، حينما يأتي رمضان وتصوم هذه الأمة من أقصى الأرض إلى أقصاها، يؤذن الفجر فتمسك، ويؤذن المغرب فتفطر، من الذي وحّد هذه الأمة؟ الأمة التي تأتي في رمضان وتصلي صلاة التراويح.

لا توجد أمة تعبد الله في الأرض كما تعبد الأمة الإسلامية، النصراني مطلوب منهم أن يذهبوا إلى الكنيسة يوم الأحد، وقلما يذهبون إليها يوم الأحد، وليس كل من يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد يذهب بدافع ديني، كثيرًا ما يذهبون بدوافع اجتماعية وعاطفية إلى آخره.

الأمة التي تتعبد لله بالصلاة والصيام، والقيام والحج: هي أمة الإسلام، انظر إلى صلاة التراويح، الناس تصلي عشرين ركعة أو ثمانين

ركعات طويلة في مساجد الأرض كلها؛ خصوصاً في الحرمين، أي أمة نراها تجتمع في مكة والمدينة ثلاثة ملايين في ليلة السابع والعشرين من رمضان من أجل إحياء ليلة القدر على ما تعارف الناس عليه في تلك الليلة، الأمة التي تجتمع في عيدها الأسبوعي يوم الجمعة، وتجتمع في موسمها السنوي في الحج بالملايين هي أمة الإسلام، فالأمة موجودة من الناحية الدينية.

الأمة موجودة من الناحية التاريخية والجغرافية:

كانت دولة واحدة حتى عام ١٩٢٣م. أو ١٩٢٤م. حينما ألغى أتاتورك الخلافة الإسلامية، كانت دولة واحدة تجمع هذه الأمة، فالتاريخ أيضاً يؤكد وجود الأمة الإسلامية.

حتى الجغرافيا تشهد بوجود هذه الأمة، انظر إلى القطعة الخضراء التي تمثل الأمة في الخريطة تجد أنها أرض متصلة هي الأمة الإسلامية، لأن الإسلام ينتقل من بلد إلى بلد تنقلاً طبيعياً، فهي حقيقة دينية وحقيقة تاريخية، وحقيقة جغرافية، وحقيقة سياسية، وحتى إنها حقيقة بمنطق الأعداء أنفسهم، فهم يعترفون بهذه الأمة.

الأحداث المؤلمة توحد الأمة:

وتأتي أحداث تجمع شمل هذه الأمة، انظر حينما ظهرت الرسوم الكاريكاتورية المسيئة إلى محمد ﷺ ثارت الأمة من جاكارتا إلى الدار البيضاء، من المشرق إلى المغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، وحتى الأقليات الإسلامية؛ غضباً لنبهم محمد ﷺ. وقضية فلسطين كل الأمة غاضبة من أجلها، شعوب الأمة الإسلامية مهتمة بقضية فلسطين.

دائمًا الخطباء يقولون: اللهم انصر المسلمين، اللهم أعز الإسلام والمسلمين. هؤلاء المسلمون هم الأمة، وحينما تلقى مسلمًا من أي بلد وتسأله باللغة التي يفهمها: هل أنت مسلم؟ يقول لك: مسلم والحمد لله. يعتز بهذا الدين. كما علمنا النبي ﷺ حينما نأكل ونشبع، ونشرب ونروى أن نقول: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»^(١).

الأمة الإسلامية إذن حقيقة وليست وهمًا، ونحن حينما نتحدث عن (رمضان وإحياء الأمة) نعني بهذه الأمة أمة الإسلام.

خطورة نسيان معنى الأمة لصالح الدولة:

وينبغي أيُّها الإخوة أن تظل هذه الأمة حاضرة في عقولنا ووجداننا، لا ننشغل عنها بالجانب الإقليمي أو الدولة القطرية، لا، صحيح نحن نهتم بدولتنا القطرية؛ لأن الإسلام يأمر أن نهتم بالأقرب فالأقرب، حتى الجيران أقربهم إليك بابًا له حق أكثر من الأبعد، ولمسافة القصر أحكام تتعلق بها، ولكن لا ينبغي أن نعيش لإقليم، أن نعيش فيه وننسى الأمة الإسلامية.

دار الإسلام:

ولذلك كان اهتمامنا بقضية فلسطين، نحن نهتم بقضية فلسطين؛ ليس تبرعًا منا، ولا مساعدة لإخواننا أو اهتمامًا بأمرهم، لا، لأنَّ هذا فرض علينا، أن فلسطين جزء من دارنا، الفقهاء يسمون أوطان المسلمين مهما اتسعت (دار الإسلام)، ليس حتى ديار الإسلام، لا، اسمها (دار الإسلام)، فهي دار واحدة، هي دارنا، وكل قطعة أرض تغتصب منها.. على المسلمين جميعًا بالتضامن أن يعملوا على تحريرها، ابتداء بأهل الأرض.

(١) سبق تخريجه ص ٣٢.



إذا اغتصبت أرض يجب على أهلها أن يدافعوا عنها بطبيعة الحال، وعلى من حولهم أن يساندوهم، فإذا عجزوا؛ فجيرانهم، وإذا عجز جيرانهم؛ فجيران جيرانهم، حتى يشمل هذا الواجب الأمة كافة.

وحتى قال الفقهاء: لو جُبن أهل الدار التي غُزيت من المحتل الكافر، وتقاعسوا ولم يقوموا بواجب الدفاع عن أرضهم؛ لوجب عن إخوانهم المسلمين أن يدافعوا عن هذه الأرض. لا يقولون: تقاعس أهلها عنها فليذهبوا في (داهية). لا، هي ليست ملكهم، وإنما ملك الأمة.

لا يجوز لك الإسلام أن تفرط في أي شبر من أرض الأمة، فكيف إذا كانت هذه الأرض أرض الإسراء والمعراج، أرض القدس الشريف، أرض المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله؟! إذا كان الأمر كذلك يكون هذا أوجب على الأمة أن تسعى وتعمل، وتجاهد وتبذل، وتضحى من أجل هذه الأرض.

إحياء الأمة لا يكون إلا بالإسلام:

لهذا أيُّها الإخوة حينما نقول: رمضان وإحياء الأمة. نعم، رمضان له أثر في إحياء هذه الأمة، لأن هذه الأمة كما قلت لكم هي أمة الإسلام، وبقاؤها بالإسلام، وانتصارها لا يكون إلا بالإسلام، ووحدتها لا تكون إلا بالإسلام، وعزها لا يكون إلا بالإسلام.

ولذلك.. إذا أرادت هذه الأمة أن تحقق وحدتها، هل تستطيع أن تحقق وحدتها تحت عنوان (الاشتراكية) أو (الرأسمالية) أو (العلمانية) أو (الليبرالية) أو غير ذلك؟ لا يمكن أبداً.

ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله:

خذ مثلاً الاشتراكية، أي اشتراكية تريد أن ننتمي إليها؟ الاشتراكيات أنواع وألوان، هل الاشتراكية الثورية، أم الاشتراكية الهادئة، أم اشتراكية ماركس، أم اشتراكية لينين، أم اشتراكية غيرهما؟!

وأحياناً يعبرون عن الاشتراكية باليسار، واليسار درجات، يقولون: هناك يمين اليسار، ووسط اليسار، ويسار اليسار. فإلى أي هؤلاء تنتمي؟

لا يمكن أن تجمع فكرة من هذه الأفكار، ومذهب من المذاهب الأمة الإسلامية؛ بل سيزيدها فرقة، الذي يجمعها هو الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

كان النبي ﷺ يُعَلِّمُ الصحابة بوسائل الإيضاح، ولم يكن عنده سبورة وطباشيرة، ولهذا خَطَّ يوماً خطاً مستقيماً على الرمل، وقال: «هذا صراط الله مستقيماً». ثم خط عن يمين هذا الخط وشماله خطوطاً متعرجة وملتوية، وقال: «هذه سُبُل، على رأس كل منها شيطان يدعو إليه». ثم تلا هذه الآية من سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ^(١).

السبل كثيرة على رأس كل منها شيطان، والصراط واحد؛ لأنه صراط الله، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿[الشورى: ٥٢ - ٥٣]، ولذلك نجد القرآن دائماً يفرد النور ويجمع الظلمات، يقول:

(١) سبق تخريجه ص ٦٢٥.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. لأن الظلمات كثيرة، والنور واحد.. مصدره هو الله، ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].
ولهذا أيها الإخوة إذا أردنا لهذه الأمة أن تتحد فلن نتحد إلا بالإسلام، وإذا أردنا لهذه الأمة أن تنتصر فلن تنتصر إلا بالإسلام، بغير الإسلام لن تنتصر هذه الأمة.

عنتریات لا طائل من ورائها:

نحن هنا في مصر جربنا حربين معروفتين للشعب المصري، حرب ١٩٦٧م. وحرب ١٣٩٣هـ. المعروفة بحرب ١٩٧٣م. لكنني أفضل أن اسميها حرب ١٣٩٣هـ. لأنها حرب العاشر من رمضان، قبل أن تكون حرب السادس من أكتوبر.

في حرب ١٩٦٧م. كانت هناك عنتریات كما يقولون، مع أنني لا أحب أن أقول: عنتریات. لأن عنترَ مظلومٌ في هذا، عنتر كان يقول ويفعل، وإنما أحب أن أقول فرزدقيات، لأنَّ الفرزدق كان يُقال عنه:

زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ أَنَّ سَيَقْتُلُ مَرْبَعًا أَبْشَرَ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَا مَرْبَعُ^(١)

أمَّا عنتر فكان رجلاً فعَّالاً، لكن هؤلاء كانوا يقولون في ١٩٦٧م: سنلقي إسرائيل في البحر، وسنؤدب إسرائيل، وسنفعل ونفعل. ثم كانت النتيجة ما سموه (حرب الأيام الست)، وأنا أقول: هي في الحقيقة حرب الساعات الست، لأن المعركة انتهت من الساعات الست الأولى، بعد ضرب الطيران في مقره قبل أن يتحرك، بعد أن أصبحنا عارين، وبعد أن أصبحت جيوشنا في العراء لا يغطيها شيء، انتهت المعركة.

(١) ديوان جرير (٩١٦/٢)، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، نشر دار المعارف، القاهرة، ط ٣.

السلاح لا يقاتل وحده:

وكان شعارهم في تلك المعركة: بر، بحر، جو. ولم ينتصروا لا في بر، ولا في بحر، ولا في جو، بالعكس.. كان الجندي يترك الدبابة التي أمامه، ولا يكلف نفسه أن يأتي بعود كبريت ويحرقها - كما حُرق مجلس الشورى - ولا يستفيد منها العدو، كما يقولون: عليّ وعلى أعدائي! ولكن هل يمكث دقيقة أو دقيقتين يبحث عن كبريت ليحرق الدبابة؟ لا، بل الفرار الفرار، وهذه هي المشكلة، انجُ سعد فقد هلك سعيد، كان كل واحد يقول: نفسي نفسي!

ولذلك كانت الأسلحة التي تسد عين الشمس كما سمعت من الضباط الذين كانوا في العريش لم تُجدِ عنهم شيئاً، فالسلاح لا يقاتل وحده، السلاح يقاتل بمن يحمله.

أبو الطيب المتنبي له بيت شهير يقول فيه:
وما تنفعُ الخيلُ الكرامُ ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرامِ كرامٌ^(١)
يعني فرساً من غير فارس، وخيلاً من غير خيال ماذا تفعل؟

والطغرائي في لاميته الشهيرة يقول:
وعادةُ السَّيفِ أن يُزهى بجوهرِهِ وليس يعملُ إلا في يدي بطلٍ^(٢)
صحيح أن السيف قاطع وصارم ودرجة أولى، ولكنه لا يقاتل وحده، ليس يعمل إلا في يدي بطل، ونحن لم نعد الأبطال، والأبطال لا يعدهم إلا الإيمان وحده.

(١) ديوان المتنبي ص ٣٩٠.

(٢) ديوان الطغرائي ص ٣٠٧، لامية العجم.



أثر التغيير الروحي والإيماني:

ولذلك حينما رجع الناس بعد نكبة ٦٧م. التي يسمونها النكسة، ولا أدري لماذا يسمونها (النكسة)؟ لأن النكسة تعني أنهم كانوا منتصرين ثم انتكسوا، وهذا لم يحدث انتصار قبل هذا، ولذلك سميتها (النكبة) في كتاب (درس النكبة الثانية.. لماذا انهزمنا وكيف نتصر؟).

حينما جاءت حرب العاشر من رمضان سنة ٩٣هـ. كان الناس قد تغيروا، لأن هذه هزيمة ٦٧م. كانت بداية تغيير نفسي وروحي، وأخلاقي ومعنوي في مصر، وانتقل من مصر إلى سائر البلاد العربية، بدأت الصحوة بهذه الهزيمة، ورُبَّ منحة في طي محنة، ورُبَّ ضارة نافعة كما يقول العرب، وكما يقول الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فجاءت هذه المصيبة وهذه النكبة، التي كان الطريق فيها مفتوحًا إلى القاهرة؛ كما قال عبد الناصر نفسه في مجلس الشعب، هذه النكبة جعلت الناس يرجعون إلى الله، ويقولون: يا رب. ويحاولون الاستمسك بالدين، وكان هناك مجال لهذا الأمر، كان بداية الصحوة الإسلامية المعاصرة، ولذلك لما جاءت حرب العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ. الموافق السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣م. كان قد حدث تغير.

قانون التغيير الإلهي:

والتغير النفسي قانون إلهي، لا يمكن أن يحصل تغير في الحياة إلا إذا تغيرت الأنفس، الماركسيون عندهم قاعدة تقول: غير الاقتصاد أو غير علاقات الإنتاج يتغير التاريخ. ونحن نقول: لا، قبل كل شيء غير نفسك يتغير التاريخ، أو بتعبير القرآن: غير ما بنفسك يتغير التاريخ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ولذلك كان الناس بعد النكبة قد غَيَّرُوا شيئاً، لم يغيِّروا كل شيء، لا، وإنما غَيَّرُوا شيئاً مما بأنفسهم؛ فغيَّر الله ما بهم، وكان العبور، وكان اقتحام خط بارليف، وكان الانتصار الأول على قدر ما كان عندنا من إيمان، أعطني إيماناً أعطك نصراً، كان شعار المعركة في هذه المرة (الله أكبر)!

وأنا أذكر في تلك الأيام، حينما عبر بعض الجنود المصريين إلى القنطرة شرقاً، وقد جاء المغرب فقالوا له: أفطر. فقال: والله لا أفطر حتى أعلي علم مصر فوق هذه الربوة. ولم يفطر، كان صائماً في شهر رمضان هذا، مع أن من حقه في الجهاد أن يفطر، لكنّه ما زال صائماً حين ذاك، ولذلك أنا أصر أن أسميها (حرب العاشر من رمضان)؛ لأن نفحات رمضان في هذه الحرب كان لها إichaؤها وقوتها وتأثيرها، نفحات الصائمين القائمين.

الإسلام مفتاح الوحدة والنصر والتقدم:

يا أيُّها الإخوة، لا يمكن أن تتحد هذه الأمة إلا بالإسلام، ولا يمكن أن تنتصر هذه الأمة إلا بالإسلام.

كما لا يمكن أن تتقدم هذه الأمة إلا بالإسلام، نحن في عالم التخلف، كل العالم الإسلامي محسوب في البلاد المتخلفة، هم يسموننا (البلاد النامية)، تأدباً معنا وتلطفاً، لا يريدون أن يشتمونا ويقولوا: أنتم متخلفون. ولكن قالوا: أنتم نامين. وعلى رأي أحد الإخوة الأدباء الظرفاء يقول: نحن لسنا بلاد نامية، نحن بلاد نائمة!

أو يريدون أن يوهموننا أننا ننمو، ونحن لا ننمو، نحن محلك سر، أين نمونا؟! نحن بيننا وبينهم مسافات، وكلما حاولنا أن نلحق بهم وجدناهم



يسبقون سبقًا بعيدًا، كنا نركب الدواب؛ فركبوا القطار والسيارة، فلما ركبنا القطار والسيارة ركبوا هم الطائرة، فلما ركبنا الطائرة؛ ركبوا هم الصاروخ. والحقيقة أننا لم نركب قطارنا ولا سيارتنا ولا طيارتنا، وإنما ركبنا قطاراتهم وسياراتهم وطياراتهم، هم الذين صنعوا هذه الأشياء ونحن استوردناها واشتريناها، حتى الأشياء التي نصنعها معظمها تجميع، لم نصنع (موتورًا) أو محركًا حتى الآن!

أمة سورة الحديد:

وأنا دائمًا أقول: أمة سورة الحديد لم تتعلم صناعة الحديد، عندنا سورة في القرآن اسمها (سورة الحديد)، والقرآن حينما يسمي سورة بهذا الاسم؛ فلا بد أنه يريد أن ينبهنا على شيء مهم، ينبهنا على أهمية الحديد في الحياة: الحياة المدنية، والحياة العسكرية.

يقول الله تعالى في هذه السورة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. قوله: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾. إشارة إلى الصناعات الحربية، وقوله: ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾. إشارة إلى الصناعات المدنية، ونحن للأسف لم نتقن الصناعات الحربية، ولم نتقن الصناعات المدنية، كما قال بعضهم: نستورد من الإبرة إلى الصاروخ. هل هذه أمة سورة الحديد؟!

لا سبيل إلى التقدم إلا بالإسلام:

نحن أيُّها الإخوة إذا أردنا أن نخرج من عالم التخلف إلى عالم التقدم؛ فلا سبيل لنا إلا بالإسلام، هم يسموننا (العالم الثالث)، ولو كان

هناك عالم رابع أو خامس لنسبت إليه بعض بلادنا العربية والإسلامية، فالأمية لا تزال في بلادنا، لا زال هناك الإنسان الذي لا يعرف أن يقرأ ويكتب، أمة اقرأ لا تتعلم القراءة!

أول من وضع مشروعا لمحو الأمية هو محمد ﷺ؛ حينما قبل من أسرى المشركين في بدر، الذين يحسنون الكتابة أن يفتدوا أنفسهم بتعليم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة، النبي الأمي أول من حارب الأمية، أين نحن؟ نحن لا زلنا متخلفين. ولكي نخرج من التخلف إلى التقدم، من العالم الثالث أو الرابع لنكون العالم الأول أو ضمن العالم الأول؛ فلا سبيل لنا إلا بالإسلام!

لا صراع بين العلم والدين:

وقد كنا أكثر من ثمانية قرون العالم الأول، والأمة الأولى، الأمة الرائدة، والأمة القائدة، كنا صناع الحضارة في ذلك الوقت، الأمة التي سادت حضارتها العالم، حضارتها المتميزة المتوازنة، المتكاملة الربانية، الإنسانية الأخلاقية، العالمية التكاملية.

نحن الذين صنعنا هذه الحضارة، والغرب اقتبس منا واستفاد منا؛ حينما بدأ هو يستيقظ وبدأنا نحن ننام، بدأنا نسكن وبدأ يتحرك، استفاد منا حينما احتك بنا في الحروب الصليبية، واستفاد منا في الأندلس، مدرسة ابن رشد تعلموا منها، من صقلية، استفاد الغرب من حضارتنا من قنوات عدة.

لم تكن عندنا مشكلة الصراع بين العلم والدين، هم كان عندهم الصراع بين العلم والدين، وبين الفكر والعقيدة، وبين الشريعة والحكمة، ما كانت عندنا هذه المشكلة، ابن رشد ألف كتابا في الفلسفة اسمه (فصل



المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال)، وكانوا يعبرون عن الفلسفة بالحكمة، فليس عندنا تعارض ولا انفصال بين المعقول والمنقول.

وابن رشد كان فيلسوفًا، وكان فقيهاً، وكان طبيباً، انظروا إلى هذه الموسوعية، وكم عندنا من مثل ابن رشد، هو كان فيلسوفًا، أعظم من شرح فلسفة أرسطو، ونقلها عنه الغربيون، الغربيون عرفوا فلسفة أرسطو عن طريق شرح ابن رشد لها، ولولا هو ما عرفوا شيئاً عن فلسفة أرسطو، عرفوها مشروحة وبإضافات، فهو فيلسوف، وصاحب (فصل المقال)، وصاحب (كشف الأدلة عن مناهج أهل الملة) إلى آخره، وهو فقيه له كتابه الشهير (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) من أعظم ما أُلّف في الفقه المقارن؛ بطريقة خاصة، يبدو فيها العقل الفلسفي وحسن تقسيمه وتأصيله، وكان يسمى (القاضي ابن رشد) لأنه كان قاضياً في قرطبة على المذهب المالكي، وكان حسن السيرة مشهوراً بالعدل، ثم هو طبيب أُلّف كتاب (الكليات) في الطب، وأُلّف عدة رسائل في الطب، فهذه حضارتنا.

البعض يعزو التخلف الذي نحن فيه إلى الدين، إلى الإسلام، وهذا جهل واضح وكذب فاضح، هذا جهل بالدين وجهل بالحقائق، يوم كانت هذه الأمة مستمسكة بإسلامها صنعت الحضارة، ويوم ابتعدت عن إسلامها وتمسكت بالخرافات انحطت! الإسلام بالعكس هو الذي أنشأ هذه الحضارة، فنسبة التخلف إلى الإسلام نسبة خاطئة مائة في المائة (١٠٠٪)، الإسلام بريء من هذا التخلف الذي تعانيه الأمة.

على الأمة أن تستعيد سيرتها الأولى:

إذا أردنا أن نحيي الأمة، وأن تتقدم هذه الأمة، وأن تخرج من سجن التخلف إلى باحة التقدم، وأن تكون في زمام القافلة بدل ما هي في ذيلها

الآن؛ عليها أن تستعيد سيرتها الأولى، أمّا الذين يقولون: اترك كل شيء على ما هو عليه، ليس لك شأن، وهل أنت ستنظم الملك؟ هل ستعدل الكون؟ اترك الفساد يستشري، واترك الظلم يفعل أفاعيله، ولا علاقة لك به. لا، هذا المنطق يميت الأمة، ليس هذا الإسلام الصحيح.

نحن نريد إسلام القرآن والسنة، نحن لا نريد إسلام فلان ولا علان، ولا إسلام عصر من العصور، ولا إسلام مذهب من المذاهب، ولا إسلام بلد من البلدان، نحن نريد الإسلام الأول، إسلام محمد ﷺ وإسلام صحابته، إسلام القرآن والسنة.

ولا بد أن نحسن فهم الإسلام، ونوازن بين الثوابت والمتغيرات، ثبات الأهداف والمقاصد، وتغير الآليات والوسائل، يجب أن نربط النصوص الجزئية بالمقاصد الكلية، يجب أن نحيا الاجتهاد في الإسلام، ولكن من يجتهد؟

أهل الاجتهاد في الإسلام:

هناك أناس يدعون الاجتهاد في الإسلام، ولعل بعضهم لا يحفظ بضع سطور في القرآن، ولعلك لو أتيت له بكتاب من كتب الفقه، أو كتب أصول الفقه، أو كتب الحديث، وقلت له: اقرأ. لا يعرف أن يقرأ سطرًا واحدًا قراءة صحيحة، وهو مع هذا يدعي أنه شيخ الإسلام، وإمام الأئمة، ومجتهد المجتهدين! هذا ليس من الاجتهاد في شيء، ولا من التجديد في شيء، هؤلاء مبددون، ليسوا مجددين الحقيقة، الاجتهاد لا بد أن يكون من أهله في محله.

وأهل الاجتهاد هم الراسخون في العلم، هم الذين يعرفون اللغة العربية، هم الذين يعرفون القرآن والسنة، هم الذين يعرفون مقاصد



الشريعة، ليس في الشريعة شيء اعتباطي، هناك أشياء تعبدية، لكن كل شيء معلل في هذه الشريعة، لا بد من الربط بين النص الجزئي والمقصد الكلي، فأهل الاجتهاد هم الذين يعرفون أصول الفقه، وأحسنوا ممارسة الفقه، وتكونت عندهم ملكة، وعرفوا علم العربية وتذوقوه، ووصلوا فيه إلى مكانة مستقلة، أولئك الذين يستطيعون أن يجتهدوا للأمة، كما اجتهد السابقون لزمانهم ومكانهم فهؤلاء يجتهدون لزماننا ومكاننا، فلا بد أن يكون الاجتهاد من أهله وفي محله.

ومعنى في محله أي فيما يقبل الاجتهاد، هناك ناس تريد أن تغير الإسلام، أي تصنع لنا إسلامًا جديدًا، يكون على هوى الغرب، على هوى الأمريكان، على هوى الأوروبيين، على هوى الإسرائيليين، هذا ليس إسلامًا، هل نضحك على أنفسنا؟ الإسلام هو دين الله وليس أهواء الناس.

التجديد في الدين:

ولذلك أقول: نحن مطالبون أن نجتهد، الإسلام الذي نستطيع أن نتحد به، والإسلام الذي نستطيع أن نتصر به على أعدائنا، والإسلام الذي نستطيع أن نخرج به من التخلف إلى التقدم: هو الإسلام الذي يقوم على التجديد والاجتهاد، والنبى ﷺ شرع لنا التجديد.

بعض الناس قال: ما معنى التجديد؟ هل نعمل طبعة جديدة من المصحف أو كذا؟ لا، بل تجديد الفهم لهذا الدين، وتجديد الإيمان بهذا الدين، وتجديد العمل بهذا الدين، وتجديد الدعوة وأساليب الدعوة إلى هذا الدين، هذا لا بد من تجديده، ولا بد من الاجتهاد، بهذا أيها الإخوة نحيا الأمة، نحيا أمتنا، نحيا مشروع هذه الأمة.

مشروع النهضة بالإسلام:

ومشروع هذه الأمة الذي يقيم نهضتها على أساس مكين، وعلى أساس متين هو المشروع الإسلامي، فليس لهذه الأمة مشروع حقيقي إلا مشروع الحياة بالإسلام، والتقدم بالإسلام، والنهضة بالإسلام، أي مشروع آخر لا يستطيع أن يصنع لهذه الأمة شيئاً، سنظل نسير ونسير، وندور وندور، والمكان الذي انتهينا إليه هو الذي ابتدأنا منه؛ كالثور في الساقية أو في الطاحون؛ كما يقولون قديماً: محلك سر.

إذا أردنا أن نهض بالأمة، أن نوحّد الأمة، أن نحرر الأمة، أن نقوّي الأمة، أن نتقدم بالأمة، أن نتصر بالأمة وللأمة؛ فليس أمامنا إلا هذا الإسلام العظيم.

نعمة الإسلام:

وشهر رمضان يعطينا فرصة لهذا الإحياء، إن من خصائص هذا الدين العظيم، الإسلام الذي أكرمنا الله به وهو أعظم نعم الله علينا، نعمة الإسلام أعظم النعم، أعظم من نعمة العقل، أعظم من نعمة المال، أعظم من نعمة الأولاد، أعظم من كل شيء: الهداية إلى الإسلام، ﴿يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

أمة الإسلام لا تموت:

هذا الدين الذي أكرمنا الله تعالى به؛ جعل فيه من وسائل الإحياء والإيقاظ والتقوية ما يجعل هذه الأمة حية باستمرار، هذه الأمة لا تموت،

يمكن أن تنام، ويمكن أن تُنَوِّم، ويمكن أن تُخَدَّر، ولكنها لا تموت؛ لأنَّ الله ﷻ ضمن بقاءها، هي الأمة الأخيرة، ليس هناك كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد ﷺ، ولا شريعة بعد الإسلام، ولا أمة بعد هذه الأمة، هي الأمة الخاتمة، آخر الأمم، نزل عليها آخر الكتب، وُبُعْثَ إليها آخر الرسل، ولذلك هذه الأمة باقية، ولكي تبقى جعل الله ﷻ من الوسائل ما يجعل من المستحيل أن تموت هذه الأمة.

حروب الردة:

هذه الأمة في تاريخها الطويل نزل بها من المحن والكوارث؛ ما لو نزل بأمة أخرى لم تبقَ لها من باقية، انظروا إلى ما أصاب الأمة في فجر تاريخها، حرب المرتدين، الأنبياء الكذبة الذين ادعوا النبوة، واتبعتهم قبائلهم وأقوامهم، وقالوا: كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر!

كاد هذا يقضي على الإسلام في فجره، ولكن الله تعالى هيأ لهذا الدين مَنْ نصره وقام به، وقف أبو بكر: الرجل الرقيق البكاء؛ كالأسد الهصور يقول: والله لأقاتلنهم، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم على منعه^(١). قاتل المرتدين، وقاتل مانعي الزكاة، وجهَّز أحد عشر جيشاً، وانتصر على الجميع.

وعاد هؤلاء المرتدون إلى حظيرة الإسلام أقوى ما يكونون، فكانوا في المقدمة في حرب فارس والروم؛ ليُكْفَرُوا عن سيئاتهم في أيام الردة، فأظهروا من البطولات ما أظهروا.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسُّنة (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

الحروب الصليبية:

ثم رأينا ما أصيب به الإسلام في الحروب، التي سماها مؤرخو المسلمين «حروب الفرنجة» الذين جاؤوا من أوروبا، على أنها حرب استعمارية، وغزو استعماري، وسماها الأوروبيون «الحروب الصليبية» فأضفوا عليها الطابع الديني؛ ليظهروا أنها حرب مقدسة، وهي حرب مدنسة في الحقيقة.

قامت هذه الحرب في تسع حملات صليبية، مع ضعف المسلمين في ذلك الوقت، وتفرقهم وتخاذلهم، وخيانة عدد من أمرائهم، تحالفوا مع الصليبيين. وكوّن الصليبيون ممالك وإمارات في أرض فلسطين، واستمروا أكثر من مائتي سنة، حتى هبّ الله رجلاً من غير العرب، بعضهم من الأتراك؛ مثل عماد الدين زنكي وابنه البطل العظيم نور الدين محمود الشهيد، وبعضهم من الأكراد مثل صلاح الدين الأيوبي وخلفائه. هؤلاء وقفوا ضد الصليبيين، وانتصروا عليهم، وردوهم مدحورين.

ظلت الحرب مع الصليبيين حتى بعد صلاح الدين، مع خلفاء صلاح الدين في مصر، إلى الظاهر بيبرس، إلى أبناء قلاوون؛ حتى انتهوا تماماً من المنطقة، وكان لمصر دور كبير في هذه الحرب، وقد أسرت الملك الفرنسي لويس التاسع، الذي كانوا يسمونه «القديس لويس التاسع»، أسرته في دار ابن لقمان بالمنصورة، هكذا أيها الإخوة كادت هذه المحنة أن تقضي على هذه الأمة، ولكنها تجاوزتها وكان لها النصر.

حروب التتار:

وفي الوقت نفسه غُزي العالم الإسلامي من الشرق، جاء هذا الغزو الصليبي من الغرب، وجاء الغزو التتاري من الشرق، هؤلاء التتار كانوا



كالريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، لا يقف أمامهم أحد، خصوصًا مع تشرذم الأمة الإسلامية، وتقطع أوصال الدولة الإسلامية، فدخلوا بلاد الإسلام وأخذوها بلدًا بلدًا؛ حتى انتهوا إلى بغداد: عاصمة الحضارة الإسلامية والخلافة الإسلامية، ودخلوها وقتلوا من قتلوا؛ حتى قالوا: إنَّ هولاء قال لهم: عدوا لي عدد القتلى. فقالوا: هم ألف ألف وثمانمائة ألف. أي مليون وثمانمائة ألف، انظر هذه الوحشية؛ فهم في ذلك العصر لم يكونوا يقتلون بالرشاشات، وإنما يذبحون المؤمنين ذبحًا، فأى وحشية هذه؟!

ومع هذا أيُّها الإخوة انتصر الإسلام على التتار، انتصر عليهم مرتين: انتصر عليهم عسكريًا في معركة عين جالوت، التي خاضها الجيش المصري بقيادة الرجل المملوكي الصالح المظفر سيف الدين قطز، انتصر عليهم في الخامس والعشرين من رمضان سنة (٦٥٨هـ.).

بغداد أيُّها الإخوة سقطت سنة (٦٥٦هـ.)، وبعد أقل من سنتين استعاد الإسلام قوته، وانتصر على التتار في هذه المعركة الحاسمة من معارك التاريخ، فكان هذا هو الانتصار العسكري.

ثم اختار التتار بأنفسهم أن يدخلوا دين الإسلام - وهم منتصرون - لم يكونوا قبل هذه المعركة يقف أمامهم شيء، فاختر أصحاب القوة الغالبون الدخول في دين الإسلام، ولأول مرة يسجل التاريخ دخول الغالب في دين المغلوب، فكان هذا الانتصار المعنوي من نفحات رمضان أيضًا.

عمل اليهود بتعاليم الدين وتخلي المسلمين اليوم:

اليهود يعملون من أجل نصرة اليهودية، من أجل إقامة أرض الميعاد، يرجعون إلى تعاليم التوراة، وإلى أحكام التلمود، حينما كانوا في مدريد

يتفاوضون مع بعض العرب والفلسطينيين؛ قال شامير: غداً السبت، فلا بد أن نوقف المفاوضات؛ لأن عندنا السبت لا عمل فيه. قال لهم بعض العرب: كان اليوم عندنا الجمعة، وما أوقفنا المفاوضات من أجل يوم الجمعة. قال: لكم ما تشاؤون، ولكننا لا نعمل في يوم السبت! هذا أمر مقدس عندهم.

أراد اليهود أن يقيموا دولة يهودية، ونحن في بلدنا للأسف نتنادى بالعلمانية، لا صلة للدين بالدولة، ولا للدولة بالدين، نريد دولة لا دين لها، ودينًا لا دولة له، ولا قوة له؛ فكيف يمكننا أن نتصر عليهم بهذا؟!

رمضان يمد الأمة بنفحات النصر:

أنا أقول أيُّها الإخوة: رمضان يمد هذه الأمة بالذكريات، ويمدها بالانتصارات، ويمدها بالروح، الأمة لا يمكن أن تنتصر إلا إذا استعادت روحها، وروحها لن تُستعاد إلا بالإيمان، إذا كانت الأمة من ورق، من كرتون، الأمة التي لا يهتمها إلا همُّ بطنها، وهمُّ شهواتها، هذه الأمة لن تصنع شيئاً، إنما تصنع الأمم إذا كانت لها رسالة كبرى.

ولن تكون لأمتنا رسالة؛ إلا إذا اتخذت الإسلام أساساً لها وهدفاً لها، إذا عاشت بالإسلام، وإذا عاشت للإسلام، وإذا عاشت من أجل الإسلام.

رمضان شهر التطهير:

نحن أيُّها الإخوة والأخوات نستطيع أن نستمد قوتنا من رمضان، رمضان هو الذي يحيي روح القوة وقوة الروح في هذه الأمة بما يمدنا به؛ لأنَّ شهر رمضان هو شهر التطهير، كان السلف إذا أقبل رمضان يقولون: مرحباً بالمطهر. لماذا؟ لأنَّهم يتطهرون فيه من سيئاتهم،

ويغتسلون من أدران خطاياهم، يدخل الواحد في رمضان في حمام جديد؛ فيخرج منه متطهرًا، عنده أحد عشر شهرًا ارتكب فيها ما ارتكب من أخطاء، وخطايا وغفلات؛ فهو في هذا الشهر يتطهر، ولذلك رمضان شهر الطهارة، شهر الاغتسال، شهر النظافة: نظافة القلوب.

شهر التزود من العمل الصالح:

ومن ناحية أخرى كما هو شهر التطهر والتوبة، هو شهر التزود، تستطيع أن تتزود من الحسنات في رمضان، أن تزيد في رصيدك في رمضان، انظر الناس يتسابقون الآن على زيادة أرصدتهم في البنوك، فمن عنده ألف يريدهم عشرة آلاف، ومن عنده مليون يريد عشرة ملايين، ومن عنده مليار كما نرى أصحاب المليارات في هذا البلد - التي لا يجد فيها الألوف والملايين من الشعب القوت - هناك مليارديرات لا يقنعون بما لديهم، يريدون أن يزيدوها، حسنًا لماذا لا يحاول الناس أن يزيدوا أرصدتهم عند الله من الحسنات؟!

رمضان فرصة لزيادة الرصيد، أن تصوم إيمانًا واحتسابًا، وتقوم إيمانًا واحتسابًا، وفي الحديث: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا؛ غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه»^(١)، وقال: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا؛ غُفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢). أن تحسن الصيام، وتحسن القيام، تبحث لك عن مسجد يحسن تلاوة القرآن، تصلي فيه التراويح بخشوع وروية، ولا تنقرها نقرًا!

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠١٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٩)، عن أبي هريرة.

الصلاة ذات الخضوع والخشوع:

كنا ونحن صبيان في قريننا؛ فكان الشيخ يصلي بنا عشرين ركعة، ثم الشفع والوتر، وهو يصلي في كل ركعة آية أو بعض آية من أول ربع من سورة البقرة، تعرفون أنَّ البقرة عشرون ربعًا، فهو لكي يضبط العدد يقرأ أول آية من كل ربع، ولكن أحيانًا تكون الآية كبيرة فلا ينتظر حتى يكملها، يقول مثلًا: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠]. الله أكبر. لا ينتظر حتى يقول: ﴿فَأَنفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]. وهكذا!

فنحن لا نريد هذه الصلاة، نريد الصلاة الخاشعة، أمَّا الصلاة التي لا يحضر فيها قلب، ولا يُراقب فيها رب، ولا تستقر فيها جبهة ولا صُلب، ولا يُحسُّ فيها بخشوع ولا باطمئنان في سجود ولا ركوع؛ فليست هذه هي الصلاة المطلوبة، فأحسن الصلاة، أحسن القيام، وأحسن الصيام.

وهناك أيضًا فرصة في رمضان، هي المسارعة في الخيرات، كان جبريل عليه السلام ينزل إلى النبي ﷺ في شهر رمضان فيدارسه القرآن؛ فمرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة^(١).

الشعور بالجوع والعطش:

ولذلك كان من حكم شهر رمضان أن يحس الإنسان بالجوع، ويحس بالعطش، ويعلم أن هناك أناسًا جائعين، بعض الناس الذين ربما وُلِدوا وفي فمهم ملعقة من ذهب - كما يقولون - يظن أنَّ الناس كلها

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٩٠٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٨)، عن ابن عباس.

ليسوا جوعانين؛ كما قالت إحدى بنات الأمراء في عصرنا: لماذا يثور هؤلاء الناس؟ فقيل لها: لأجل لقمة الخبز. قالت: ولم لا يأكلون بسكوّتا أو كعكّا! هكذا يفكر بعض الناس!

من أجل هذا أجبرنا الإسلام أن نجوع حتى نحس بجوع الجائعين، وبؤس البائسين؛ فنعطف عليهم، ولذلك اشتهر تفطير الصائم، وموائد الرحمن المنتشرة في رمضان، وأنا أرحب بهذا حتى ولو من الفنانين والفنانات، ولماذا نحزن لهذا يا أخي؟ خلّهم يدفعون قليلاً من الأموال التي يأخذونها من الناس؛ فيطعموا بها الجائعين، والله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]. ربنا سيعاقبهم على سيئاتهم، وسيجزئهم بحسناتهم، ولن يضيع عند الله شيء!

معاناة إخواننا في فلسطين:

وهذا الشهر بالأخص يذكرنا بإخوتنا في غزة، في رفح، في الضفة الغربية، في الخليل، في نابلس، في طولكرم، فهم في هذه البلاد محاصرون من سنين طويلة، الذين لا يجدون ما يمسك الرmq، أو يطفىء الحرق، الذين يئنون من الجوع أنين الملسوع، الذين حوصروا حتى إنّ الناس لا يستطيعون أن يبعثوا إليهم تبرعات المتبرعين، ومساعدات المساعدين، وعلينا أيها الإخوة أن نحس بألم هؤلاء، بجوع هؤلاء وأوجاعهم، ونرسل إليهم ما استطعنا.

ونحن ننادي الإخوة المسؤولين في مصر أن يروا فرصة شهر رمضان فيفتحوا معبر رفح، ينبغي أن يفتح معبر رفح من أجل رمضان، حتى نتيح الفرصة لهؤلاء الجائعين أن يأكلوا، لهؤلاء المتعطشين أن يرتووا، لهؤلاء البائسين أن يحسوا بالحياة.

ليس من الإسلام، وليس من الإيمان، وليس من الإنسانية أن تأكل ملء بطنك، وأن تجمع على مائدتك في شهر رمضان - مائدة الإفطار، ومائدة السحور - ما لذ وطاب من الطعام والشراب، فتأكل ملء بطنك، وتنام ملء جفحك، وتضحك ملء سنك؛ وإخوانك يعيشون في هذا البؤس قريباً منك، في غزة ورفح والضفة الغربية!

إنَّما المؤمنون إخوة:

يجب أن نشعر بالأخوة الإيمانية، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحُمى والسهر»^(١)، «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(٢). وشبك أصابعه. هم أسرة واحدة، هم جسد واحد.

رمضان أيُّها الإخوة يذكرنا بحق إخواننا علينا، بحق الأمة كلها علينا، الأمة المسلمة التي نحن جزء منها، ولا نستطيع أن ننفك عنها ولا أن نفصل عنها، لأن انفصالنا عنها معناه أن نهلك ونموت، لأنَّها لنا كالماء للسّمك، لا يستطيع أن يعيش من غير ماء، كذلك نحن لا نستطيع أن نعيش من غير أمة

الآن لا يستطيع أي كيان صغير أن يعيش وحده، أصبح العالم يتنادى بالتكتل والاتحاد، انظروا إلى الاتحاد الأوروبي، وأوروبا التي تقاتلت وأراقت دماء الملايين بعضها مع بعض: الحرب العالمية الأولى، والحرب

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦)، عن النعمان بن بشير.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي

موسى الأشعري.

العالمية الثانية كانت في الأساس بين الأوروبيين بعضهم وبعض، ثم رأت أن من الخير كل الخير، ومن المصلحة كل المصلحة أن تتوحد، وقام الاتحاد الأوروبي، ونحن نزداد تفرقاً، ونزداد تشرذماً، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فينبغي أن نشعر أن رمضان فرصة بأن نذكر الأمة بأنها أمة واحدة.

رمضان ربيع الحياة الإسلامية:

ونذكر الأمة بالتوبة إلى الله من ذنوبها، أن نتوب إلى الله ونتطهر، وننزود ونفعل الخيرات، أنا أسمى رمضان «ربيع الحياة الإسلامية»، فيه تتجدد الأمة كل عام، تتجدد عقولها بالمعرفة، بدروس العلم، بتلاوة القرآن وبتفاسيره التي تنتشر في رمضان، تتجدد القلوب بالإيمان، بذكر الله، بالعبادات، بالصلاة والقيام والصيام، بتواصل الأمة ابتداء من الأسرة، ربما في غير رمضان لا يمكن الإنسان أن يتغدى أو يتعشى مع أسرته، في رمضان يُلزم أن يتسحر مع أسرته، ويفطر مع أسرته، ويترابط المسلمون: الأرحام بعضهم مع بعض، والجيران بعضهم مع بعض، والمختصمون يتصالحون، والمتباعدون يتقاربون.

هذا هو الشهر الكريم، شهر الخيرات والبركات، فأسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل لنا من هذا الشهر ربيعاً نحيا به، ونتجدد فيه، نجدد فيه إيماننا، ونجدد فيه صلتنا بربنا، ونجدد فيه صلتنا ببعضنا ببعض، ونقترب فيه من الله ﷻ؛ عسى أن يجعلنا في هذا الشهر من المتقبلين، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فإن من أخسر الناس صفقة من خرج من رمضان ولم يغفر له، «أبعده الله، ثم أبعده، رجل أدرك رمضان ولم يغفر له»^(١)، المغفرة توزع عن يمين وشمال، ولكنه لم يستفد منها!

(١) رواه الحاكم في البر والصلة (١٥٣/٤) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي. عن عجرة.

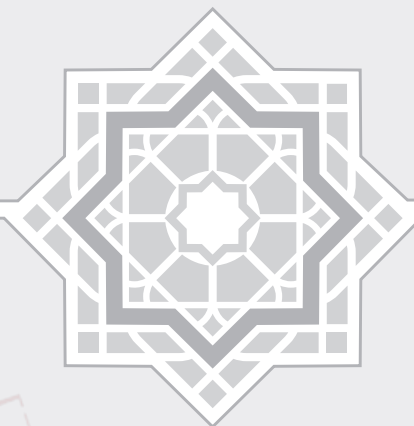


نسأل الله أن يجعلنا من المنتفعين بهذا الشهر الكريم، والمستفيدين
بهذا الموسم العظيم، وأن يجعلنا من الذين ربحوا من التجارة في هذا
الموسم، وأن يكون ربحنا رضوان الله تبارك وتعالى؛ إنه سميع قريب،
وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا،
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفهارس العامة



- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.







فهرس الآيات القرآنية الكريمة



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾	١	٣١٥، ٢٤٧، ١٧٦
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٢	٢٧٥، ٢٧٢، ١٠٢ ٧٠٠، ٦٩٥، ٤٥٣
﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾	٣	٧٠٠، ١٠٢
﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾	٤	٧٠٠، ٢٧٥، ١٠٢
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٥	٤٣٩، ٣٨٥، ١٠٢ ٧٠٠، ٦٦٧، ٦٦٤
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	٦	١٠٣، ٣٢، ٢٦ ٤٣٩، ٣٨٥، ٢٧٥ ٧٠٠، ٦٣٠
﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾	٧	٣٨٥، ٢٧٥، ١٠٣ ٧٠٠، ٦٣٠
سورة البقرة		
﴿الْعَمَّ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾	٢، ١	٤١٨
﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾	٥ - ٣	٣٢٦

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾	٢٣	٢٤٦
﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾	٢٦، ٢٧	٣٦٣
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾	٢٦	٤١٨
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	٣٠	١٩٨
﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾	٣٥	٢٩٣
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾	٤٣	٢٧٩
﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	٤٤	٤١٨
﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾	٤٩	٣٥٩
﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾	٦٠	٨٠٠
﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾	٦٢	٦٨٥
﴿أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾	٦٨	٦٥٣
﴿أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ نُهَا﴾	٦٩	٦٥٣
﴿أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾	٧٠	٦٥٣
﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾	٧٥	٣١٤، ٢٧١
﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾	٨٥	٣١٠، ٢٣٤، ٤٤
﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾	١٠٢	٢٩٣
﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	١١١	٥٨٦
﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾	١١٥	١٩٧، ٨٩
﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	١١٧	٦١٠



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾	١٢٤	٤٣٦
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾	١٢٧	٣٦٦
﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْكَ اللَّهُ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾	١٣٨	٩٩
﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾	١٤٠	٣٩٥
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾	١٤٣	٢٦، ١٥٧، ٣٩٥، ٥٨٨، ٧٧٩
﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾	١٥٠	١٠٣
﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾	١٥١	٣٨٠
﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾	١٥٢	٣٨٠
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾	١٥٣	٦٩٩
﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾	١٥٨	٢٩٧
﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾	١٧٧	٥٢٤
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ الْفَصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾	١٧٨	٣١١
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾	١٨٣	٣١١، ٣٧٦، ٣٨٥، ٤٤٣
﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾	١٨٥	١٨، ٨٩، ٢٨٢، ٦١٨
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾	١٨٦	١٩٧، ٤٢٩
﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾	١٨٧	٣٣٦، ٥٤٦، ٥٤٧
﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾	١٩٠	٣٠٩
﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾	١٩١	٧٧١

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾	٢٠١	٤٠٦، ٤٣٣، ٦٢٠
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَآفَّةً﴾	٢٠٨	٤٤
﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾	٢١٤	١١٧
﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾	٢١٦	٧٨٧
﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾	٢١٧	٧٧١
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾	٢١٩	٤٠٩، ٢٨
﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾	٢٢٠	٣٩٥
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾	٢٢٢	٢٩٥، ٥١٧، ٥٤٧، ٥٧٦، ٥٧٥
﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾	٢٢٣	٣٣٦
﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَبْعُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	٢٢٦	٣٤٥، ٣٤٦
﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾	٢٢٧	١٣٢، ٣٣٩
﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾	٢٢٨	١٣٠، ١٣٢، ١٧٩، ٣٢٩، ٣٤١، ٣٤٨
﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾	٢٢٩	٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥١
﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾	٢٣٠	١٣٢، ٣٤١، ٣٤٢
﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾	٢٣١	١٣٢، ٣٥٠
﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضِلُوهُنَّ﴾	٢٣٢	١٣٢
﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةُ﴾	٢٣٣	١٤، ١٢٩، ١٣٢



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ ﴾	٢٣٦	١٣٢، ٣٥١، ٣٥٢
﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾	٢٣٧	٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٢٩٦، ٣٤٩
﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾	٢٣٨	١٧٧
﴿ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾	٢٤١	١٣٢
﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾	٢٥٥	٢٠٦، ٢٥٩
﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ ﴾	٢٥٦	٣٠٩، ٣٩٤، ٤٢٦، ٦٦٢
﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾	٢٥٧	٢٠٣، ٧٨٥
﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾	٢٥٨	٦٦٢
﴿ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُ ﴾	٢٦٠	٣٩٤
﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾	٢٦٩	٦٧، ١٣١
﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾	٢٧٥	١٧٧
﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾	٢٧٨	٢٥٧، ٢٥٨
﴿ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾	٢٧٩	٢٥٧، ٢٥٨
﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾	٢٨١	٦١١
﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾	٢٨٢	١٩، ٢٣٨
﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾	٢٨٤	٤٣
﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾	٢٨٥	٢٧١
﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾	٢٨٦	٦١٨

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة آل عمران		
﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾	٧	٢٥٦، ٥٣ ٣١٧، ٣٠١
﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾	٨	٣١٣
﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾	١٧	٤٢١
﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾	١٩	١٧٤، ٦
﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾	٢٠	٦
﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾	٣١	٤٦٩، ٤٦٠، ٢٢٦ ٧٤٣، ٧١٢، ٥٥٨
﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾	٣٢	٢٣١، ١٢٥ ٤٦٩، ٤٦٠
﴿يَمُرِّمَ أَقْبَتِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾	٤٣	٣٧٦
﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾	٤٩	٣٦٥
﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾	٦٤	٦٩٣، ٦٦٦، ٦
﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	٦٧	٦٢٩
﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ﴾	٧٥	٧٦١
﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾	٧٩	٦٩٣
﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾	٨٥	١٧٤
﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾	٩٦	٣٦٧
﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾	٩٧	٣٦٦، ١٠٨
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾	١٠٢	٣٦

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾	١٠٤	٦٨٦
﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَرُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾	١٠٥	٦٣١
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾	١١٠	١٥٧، ٤٣٤ ٧٧٨، ٧٧٩
﴿وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾	١٢٠	٤٣٨
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾	١٣٠	١٧٧، ٢٥٧
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾	١٤٤	٢٤٧
﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا﴾	١٤٧	٤٠٦
﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾	١٥٩	٢٠، ١٥٣، ٣٣٥
﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾	١٦٠	١١٧
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾	١٦٤	١٨٤، ٤٤١، ٤٦٤
﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾	١٨٥	٦٨، ٤٠٤
﴿وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾	١٨٦	٤٣٨
﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾	١٨٧	٢٥٥
﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾	١٨٨	٢٥٤، ٢٥٥
﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	١٨٩	٤٣
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾	١٩٠	٧١٦
﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾	١٩١	٧١٦
﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾	١٩٦	٩٥
﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾	١٩٧	٩٥
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾	٢٠٠	٤٣٦، ٤٤٠

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النساء		
﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾	١	٢٩٢، ١٣٦
﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾	٣	٢٩٨، ٢٧٧
﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾	٤	٣٤٩
﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾	١١	١٣٨، ١٨
﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾	١٩	٣٥٠، ٣٤٢
﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ﴾	٢٠	٣٤٢
﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾	٢١	٣٥٠، ٣٤٢
﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾	٢٩	٣٠
﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾	٣١	٢٥٢
﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾	٣٤	١٣٠، ١٣٣، ٢٦٧، ١٣٤
﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾	٣٥	٤١٤، ١٣٤، ١٣٣
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾	٤٣	٢٩
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾	٥٨	٣٣٥، ٢٣٣، ٢٥
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾	٥٩	٣٣٥، ٢٤٨، ١٢٤، ٥٥٩، ٥١٥، ٤٦٩
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾	٦٥	٥٥٩، ٣٩٤
﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾	٦٩	٢٧٥
﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾	٨٠	٥٥٩، ١٢٤



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾	٨٢	٢٧٦، ٢٨٠، ٣٢٢، ٣٠٢
﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلِمُهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ ﴾	٨٣	٥٧٥، ٤٨٩
﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾	١٠٠	٦٤٢
﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾	١٠٥ - ١٠٨	٢٣٣، ١٤٧، ٢٥
﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾	١٠٦ - ١٠٨	٢٥
﴿ وَعَلَّمَكُمَا مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾	١١٣	٢٠٨
﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾	١٢٣	٢٣٦
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾	١٢٥	٦٢٩
﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا ﴾	١٢٩	٢٧٧، ٢٧٨، ٢٩٨
﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾	١٣٦	٤٢٦
﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾	١٤١	٧٥٧
﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾	١٦٣	٣٧٤، ٣٧٥
﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾	١٦٤	٣٧٤، ٤٦٨
﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾	١٦٥	٣٦٢
﴿ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾	١٧١	٢٦، ٣٠١
﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾	١٧٤	٢١٦، ٢٤٤
﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأُعتَصِمُوا بِهِ ﴾	١٧٥	٢١٦
سورة المائدة		
﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾	٢	١٩٣

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾	٣	٦، ٣١، ٨١، ١٧٤، ٢٥١، ٣١٣، ٤٩٢، ٥٩٧، ٦١٧، ٦٣٣، ٧٩٤
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾	٦	٦٨، ٢٩٥
﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾	٨	٣٤، ٥٧٨
﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾	١٢	٣٧٦
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	٢٠	٣٦٠
﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾	٢٧	٨٠٣
﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾	٣٣	١٣٧
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾	٣٨	٢٥٣، ٢٩٦، ٢٩٨، ٢٩٩، ٥٥٥
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾	٤٤	١٤٨، ١٤٩، ٢٣٥، ٢٤٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣١٤
﴿وَكُنَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾	٤٥	١٤٨، ١٤٩، ٢٣٥، ٢٦٧
﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾	٤٧	١٤٨، ١٤٩، ٢٣٥، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾	٤٨ - ٥٠	٤٤، ٩٩، ١٤٧، ١٥٠، ٢٣٤، ٣١٠، ٣٣٥، ٣٩٥، ٥٠٤
﴿وَأَن أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ﴾	٤٨	١٤٨
﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	٤٩	١٤٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾	٥١	٢٣٠
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾	٥٤	٤٣٩، ٦٣
﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾	٦٧	٦١٧
﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾	٧٥	٣٠١
﴿قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾	٧٧	٤٩٠
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ﴾	٩٠	٢٩، ٢٥١، ٢٧٧، ٣٠٣
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾	٩١	٢٩، ٢٥٣
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾	١٠١	٦٥٣
﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾	١٠٢	٦٥٣
﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ﴾	١١٠	٣١٨، ٦٧٤
سورة الأنعام		
﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾	٧	٦٧٩
﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُوا وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ﴾	١٤	٣٩٠
﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾	٣٧	٦٧٥
﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾	٣٨	٢٣٩، ٢٧٣
﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾	٦٠	٦٩٦
﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾	٨١	٤٢٧
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾	٨٢	٤٢٦، ٤٢٧
﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِمَّنْ نَشَاءُ﴾	٨٣	٣٧٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾	٨٤	٣٧٥
﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَئِيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾	٨٩	٦٣، ٦٤، ٤٠٦، ٤٣٩، ٧٥٤
﴿وَلِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾	٩٢	١٥٩
﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾	١١٤	٣٩٠، ٧٧٣
﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾	١٢٢	١٩٥، ٢١٤
﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾	١٤٥	٢٨، ٢٧٦
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾	١٥١	٢٥١
﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾	١٥٢	٢١١، ٥٧٨
﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾	١٥٣	١٨٥، ٦٢٥، ٧٥١، ٧٨٤
﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾	١٥٥	١٤٧، ٢٢٢، ٢٢٣، ٣٢٤
﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	١٦٢	٢٧٤، ٣٩٢، ٦٣٦، ٦٤٩، ٦٧٠، ٦٩٣، ٧٥١
﴿لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾	١٦٣	٢٧٤، ٣٩٢، ٦٣٦، ٦٤٩، ٦٧٠، ٦٩٣، ٧٥١
﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَىٰ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾	١٦٤	٤٢، ٣٩٠
سورة الأعراف		
﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾	٣	٢٢٣



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿	١٤ ، ١٥	٤٣٠ ، ٦٦٧
﴿ يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾	٣١	١٠٣
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾	٣٢	٢١٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢
﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ ﴾	٣٣	٢٨
﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾	٥٨	١٠
﴿ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾	٥٩	٣٩١ ، ٦٦٢ ، ٦٩٣
﴿ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾	٦٥ - ٦٨	١٢٨
﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾	٦٩	٣٧٤
﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾	٧٣	١٢٨
﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾	٧٤	٣٧٤
﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ ﴾	٨٦	١١٣
﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾	٨٨	٣٧٨
﴿ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَ تَارَبْنَا أفرغ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾	١٢٦	١٢٠
﴿ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾	١٢٩	٢١٣
﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾	١٥٧	٣٣٤ ، ٦١٨
﴿ قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾	١٥٨	٣٦٤ ، ١٢٢ ، ٧٧٨ ، ٤٥٣
﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾	١٧٥	٨٧
﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾	١٧٦	٨٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾	١٨١	٦٨٦، ٤٣٩، ٤٠٦
﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾	١٩٩	٣٢
﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾	٢٠٤	٢٢١
سورة الأنفال		
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾	٢ - ٤	٥٨٢، ٣٨٦، ٣٢٦
﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَكَةِ ﴾	٩	٦٨٠
﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾	١٠	٦٨٠
﴿ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾	١٢	١١٧، ١٨٨، ٣٩٨، ٢٠٣
﴿ إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾	١٩	٣٧٩، ٢٠٣
﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾	٤١	١٤٥
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴾	٥٨	٣٢٨
﴿ وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾	٦٠	٤٩٩
﴿ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بَصِيرَةً وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾	٦٢	١٨٨، ١٨٩، ٣٩٨، ٤٤٩
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ ﴾	٧٣	١٩٢، ٤٠٠، ٤١٣
﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾	٧٥	١٣٦
سورة التوبة		
﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾	٥	٣٠٨
﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾	٦	٢٧١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾	٢٦	٦٨٠
﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾	٢٨	٤٠٩
﴿ قَنِِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾	٢٩	٣٠٨
﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾	٣١	٦٦٦ ، ٦١٦
﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ ﴾	٣٢	٧٤٤
﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾	٣٣	١٨٨
﴿ وَقَنِِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَنِِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾	٣٦	٣٠٨ ، ٢٩٤ ، ٢٥١
﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا ﴾	٤٠	٤٢٨
﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾	٦٠	١٤٢
﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِن ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾	٧٥	٥٢١
﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾	٨١	٦٤٤
﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ ﴾	٩١	٦٤٤
﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَّا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾	٩٢	٦٤٤
﴿ خُذْ مِّنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾	١٠٣	١٠٥ ، ١٤٣ ، ٣٧٧ ، ٤٤٣
﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾	١١١	٣٩٧ ، ٣٩٦ ، ١٧١
﴿ التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّكِعُونَ ﴾	١١٢	٢٩٣ ، ٦٩٠ ، ٦٩٢ ، ٦٩٥ ، ٦٩٧ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٧
﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾	١١٤	٣٧٣
﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾	١٢٠	٣٨٣

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةَ صَغِيرَةٍ وَلَا كَبِيرَةٍ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾	١٢١	٣٨٣
﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾	١٢٢	٦٧، ٦٥
سورة يونس		
﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾	١	٣٥٦
﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾	٢	٣٥٦
﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لِمَنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾	٢٢	٤٣٠، ٦٦٧
﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾	٢٣	٤٣٠، ٦٦٧
﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾	٣١	٦٦٠، ٣٨٩
﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾	٣٢	٤٣٥، ٣٨٩
﴿لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾	٣٦	٥٨٦
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾	٣٨	٢٤٦
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ﴾	٥٧	٢٢٣
﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ﴾	٦٦	٤٣
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾	٨٧	٣٧٦
﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾	٩٩	٣٠٩
﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	١٠١	٥٨٦
﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾	١٠٦	٦٦٧
﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾	١٠٧	٦٦٧
سورة هود		
﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾	١	٣١٤، ١٧٩، ١٧٦



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾	٧	٢٠٩، ٢١٠، ٢٢٤
﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾	١٣	٢٤٦
﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾	١٨	٣٢٨
﴿ أَلَا بَعْدَ إِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾	٦٠	٣٥٦
﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾	٦١	٢١٢، ٤٣٢
﴿ أَلَا بَعْدَ الثَّمُودَ ﴾	٦٨	٣٥٦
﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وضًا ق بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾	٧٧	٦٥٦
﴿ أَوْفُوا بِالْمِكَالِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾	٨٥	٦٦٣
﴿ أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾	٨٧	٤٠٨
﴿ أَلَا بَعْدَ لِمَئِينَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾	٩٥	٣٥٦
﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾	١٢٠	٣٥٦
سورة يوسف		
﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾	١	٢٤٤
﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾	٢	٤٥٢
﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾	٢٣	٢٦٣، ٣٠٥
﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾	٢٤	٢٦٣
﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ ﴾	٣١	٢٦٤
﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْنُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾	٣٢	٢٦٤
﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَرَبِيِّ الْأَنْثَى حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾	٥١ - ٥٣	٢٩٩
﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾	٩٠	٣٥٦

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾	١٠٤	٤٥٣
﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾	١٠٨	٨٣، ٤٣٤، ٧٠٢
﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾	١١١	٢٣٩، ٢٧٣
سورة الرعد		
﴿الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾	١	٣٥٦
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾	١١	٩٤، ٧٨٧
﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾	٢٧	٣٦٣
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾	٢٨	١٨٦
﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾	٤٣	٣٥٦
سورة إبراهيم		
﴿الرَّكْتَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾	١	٣٥٨
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾	٤	٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٣
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾	٥	٣٥٨، ٣٦٠
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	٦	٣٥٩، ٣٦٠
﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾	٩	٣٧٨
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾	١٣	٣٥٧، ٣٧١، ٣٧٨
﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾	١٤	٣٥٧، ٣٧٨
﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾	١٥	٣٧٨، ٣٧٩
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾	٢٤	١٠

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ تُوْتِيْ أَكْلَهَا كُلِّ حِيْنَ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾	٢٥	١٠
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾	٢٨	٣٧٩
﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسُ الْقَرَارُ ﴾	٢٩	٣٧٩
﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾	٣٢ - ٣٤	٣٧٩، ١٩٩
﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾	٣٣	٢٣١
﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾	٣٥	٣٧٣، ٣٦٦
﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾	٣٧	٣٦٦
﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾	٣٩	٣٧٤، ٣٧٢
﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾	٤٠	٣٧٦، ٣٧٣، ٣٧٢
﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾	٤١	٣٧٣، ٣٧٢
﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾	٤٢	٣٧٢، ٣٧١، ٣٥٧
﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدَهُمْ هَوَاءُ ﴾	٤٣	٣٧٢، ٣٧١
﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعْدُهُ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾	٤٧	٣٦٨
﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾	٤٨	٣٦٩، ٣٦٨
﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾	٤٩	٣٧٠، ٣٦٨
﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَعْشَى جُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴾	٥٠	٣٧٠، ٣٦٨
﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾	٥١	٣٧٠، ٣٦٨
سورة الحجر		
﴿ الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾	١	٢٤٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾	٩	١٥٠، ١٧٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٨٣، ٣١٤، ٤٦٨، ٦٧٤
﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾	١٤	٦٧٩
﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾	١٥	٦٧٩
﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾	٤٢	٢٦٣
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴾	٨٧	٣١٩
﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾	٩٩	١٧
سورة النحل		
﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾	٣٥	٣٦١
﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾	٣٦	٢٥٢، ٣٠٢، ٣٧٥، ٣٩١، ٦٦٢، ٦٩٣
﴿ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ ﴾	٤٣	٥٧٥
﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾	٤٤	١٧٩، ٤٦٨، ٥٥١، ٥٥٤، ٤٦٩
﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾	٨٩	٤١، ١٢٤، ١٧٨، ١٧٩، ٢١٦، ٢٣٩، ٢٤٤، ٢٧٣، ٢٨٨، ٢٩٢، ٣٢٤، ٤٦٩
﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾	١٢٥	٩١، ٢١١، ٤٣٤، ٧٠٢
﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾	١٢٨	٧٣٦



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الإسراء		
﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾	١	١٠١، ١٨٢، ٣٩٢، ٦٧٧، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٩
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾	٩	٣٢٤، ٣١٨
﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾	١٥	٥٠٩، ٣٧٩
﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ﴾	٢٣	١٣٥، ١٧
﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾	٢٤	١٣٦، ١٣٥، ١٧
﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾	٢٩	٤٠٩
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾	٣٢	٣٠٣، ٢٥٢
﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾	٣٧	٣٢٩، ٢٢٨
﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾	٤٢	٨٣
﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾	٤٣	٢٧٧
﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا﴾	٤٥	٢٨٧
﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾	٤٦	٢٨٧
﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾	٥٩	٦٧٩
﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾	٧١	٢٤٩
﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾	٧٦	٣٧٨
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾	٨٥	٢٠١
﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾	٨٨	٢٤٦
﴿أَوْ تَرْفَعِ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزِّلَ عَلَيْكَ كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾	٩٣	٦٧٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الكهف		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾	١	٣٩٢، ١٨٢
﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾	٧	٢٢٤، ٢١٢، ٢١١، ٢١٠
﴿رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾	١٠	٣١٣
﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾	٢٢	٢٦١
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ﴾	٨٣	٢٩١
﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾	٩٨	٤٣٥
﴿ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾	١٠٤	٣٧٩
﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾	١١٠	١٨١
سورة مريم		
﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾	٢٠	٢٩٦
﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾	٣٠	٣٠١
﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾	٣١	٣٧٦
﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾	٤٧	٣٧٣
﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾	٥٩	٤٨٥
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾	٦٤	١٥٥، ٢٣
﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾	٩٧	٣١٨، ٢٤٤
سورة طه		
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾	١٤	٤١٧
﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْبُشْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾	١٨ - ٢٠	٣١٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ آيَةً أُخْرَى﴾	٢٢	٣١٨
﴿رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾	٢٥ - ٢٨	٧٥٢
﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾	٧٢	٤٤٧
﴿إِنَّا أَمْنَا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾	٧٣	٤٤٧
﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾	٧٤ - ٧٦	٤٤٦
﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾	١١٠	٢٠٨
﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾	١١٨	٤٩٦
﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾	١١٩	٤٩٦
سورة الأنبياء		
﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾	٧	٢٧٤
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾	١٨	١٦٣
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾	٢٢	٨٣
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾	٢٥	٣٩١، ٦٦٢
﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾	٢٨	٢٥٩
﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾	٦٨	٣٧٨
﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ وَكَلَّا آدَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾	٧٩	٥٣
﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآمِنِينَ﴾	٨٨	٢٠٣
﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾	٩٢	١٥٧، ٧٧٩
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾	١٠٧	١٢٣، ١٦٠، ١٧٩، ٣٦٤، ٤٥٣، ٦٧٤، ٧٧٧، ٧٠٨

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحج		
﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ﴾	٢٧، ٢٨	١٠٨، ٣٧٦
﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾	٢٧	١٠٨، ٣٧٦
﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾	٣٠	٢٥٢، ٣٠٢
﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾	٣٨	٢٠٣
﴿وَلِيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنِ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾	٤٠	٧٤٣
﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾	٤١	٧٤٣
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ﴾	٧٣	٦٦٠
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبَدُوا رَبَّكُمْ﴾	٧٧	٣٨٥
﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾	٧٨	١٨، ١٨٩ ٣٥٧، ٦١٨
سورة المؤمنون		
﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾	١ - ١١	٣٢٦، ٣٨٧ ٥١٩، ٥٨٢
﴿وَأِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾	٥٢	١٥٧، ٧٧٩
﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾	٨٤ - ٨٩	٣٩٠
﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾	٩١	٨٣
سورة النور		
﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾	٢	٢٩٨، ٣٠٥
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	١٩	٣٠٦
﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾	٢٥	٤٣٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾	٢٧	٢٢٨، ٢٢٩، ٣٣٠، ٣٠٦
﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾	٢٨	٢٢٩، ٢٣٠، ٣٣٠، ٣٢٩
﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾	٣٠	٣٠٥
﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾	٣١	٣٠٥، ٣٠٦
﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾	٣٢	٣٠٧
﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْتَ تَحَصُّنًا لِنَبْغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾	٣٣	٢٥٨، ٢٩٣، ٤٠٧
﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	٣٥	٨٣، ٧٨٥
﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِّنْهُمْ﴾	٤٧ - ٥٠	٣٩٤
﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾	٥١	١٦٠، ٢٧١، ٣١١، ٥٥٩، ٣٩٥
﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾	٥٢	٤٦٩
﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾	٥٤	٣٦١، ٤٦٠، ٥٥٩، ٤٦٩
﴿مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ﴾	٥٨	٤٧٢
﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾	٥٩	٣٠٦
﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	٦٣	٤٦٩، ٥٥٩
سورة الفرقان		
﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾	١	١٢٣، ١٦٠، ٢٧٢، ٣٦٤، ٤٥٣، ٧٧٨
﴿لَوْلَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾	٧	٦٧٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخْذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾	٤١	٤٣٧
﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾	٤٢	٤٣٧
﴿إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾	٤٤	٢١٣
﴿الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾	٥٩	٥٧٥ ، ٢٧٤
﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾	٦٣ - ٧٦	٣٢٥ ، ٢٢٨ ٥٨٣ ، ٥١٩ ، ٣٢٩
﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾	٦٨	٤٨٥
﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾	٧٤	٣٧٣
سورة الشعراء		
﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾	٢	٢٤٤
﴿إِن نَّشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾	٤	٦٧٩
﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾	٢٣	٢٧٥
﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾	٢٤	٢٧٥
﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ﴾	٦١	٤٢٨
﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾	٦٢	٤٢٨
﴿وَاعْفِرْ لِي إِنِّي إِذْهُوَ كَانُ مِنَ الضَّالِّينَ﴾	٨٦	٣٧٣
﴿فَأْتِ بِثَابِتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾	١٥٤	٦٧٥
﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ هَآ شَرِبَتْ وَلَكُمْ شَرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾	١٥٥	٦٧٥
﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾	١٩٣	٦٥٥ ، ٤٦٧
﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾	١٩٤	٦٥٥ ، ٤٦٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾	١٩٥	٦٥٥
﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾	٢١٠ - ٢١٢	٢٥٠
﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾	٢١١	٢٩٤
﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾	٢١٢	٢٩٤
﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾	٢١٤	١٥٩
سورة النمل		
﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾	١	٢٤٤
﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾	٣٤	٣٠٠
﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنطَهُرُونَ﴾	٥٦	٣٧٨
﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾	٦٤	٨٣
سورة القصص		
﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾	٢	٢٤٤
﴿يَتَابَتِ أَسْتَجْرَةُ إِبْرَٰهِيمَ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجْرَةِ الْقَوِيِّ الْأَمِينِ﴾	٢٦	٢٩٩
﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾	٣٨	٦٦٢ ، ٦٦٥
﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾	٥٠	٥٨٦
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾	٥٦	٣٦٢
﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَوِّعُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾	٥٧	٣٦٧
سورة العنكبوت		
﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾	٢ ، ١	٣٥٨ ، ٤٣٦
﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾	٣	٤٣٦

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَأَبْرِهِمْ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾	١٦	١٢٨
﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾	٢٧	٣٧٥
﴿وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾	٢٨	٦٦٣
﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ﴾	٢٩	٦٦٣
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾	٤٥	٤٤٣
﴿ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾	٤٦	٢٦٣
﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾	٥٠	٦٧٥
﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾	٥١	٦٧٥
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾	٦٧	٣٦٧
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾	٦٩	٤٤٤
سورة الروم		
﴿الْم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾	١ - ٦	٤٧، ١١٧، ١٥٨
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾	٢١	٢٩٣، ٣٤٨
﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾	٣٠	٦٦١
﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾	٤٧	٢٠٣
سورة لقمان		
﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	١٣	٣٧٢، ٤٢٧
﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾	١٥	١٣٦
﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ﴾	١٧	٣٧٦، ٤٣٦



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾	١٩	٢٢٧، ٢٢٨، ٣٢٩، ٥٩٢
﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾	٢٥	٣٨٩، ٦٥٩
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾	٣٠	٤٣٥
سورة الأحزاب		
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾	٧	٣٤٣، ٣٥٠
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	٩	٦٨٠
﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾	١١	٤٣٦
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾	٢١	٣٣، ٢٢٦، ٧١٢، ٧٢٨
﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾	٢٣	٧٣٥
﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾	٢٨	٧٢٠
﴿وَلِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ﴾	٢٩	٧٢٠
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾	٣٦	١٦٠، ٢٧١، ٣٩٣، ٥٨٤، ٥٥٩، ٣٩٤
﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾	٤٠	١٢٣
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾	٤٩	٣٤١، ٣٥٢
﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾	٥٦	٦١٩
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾	٧٢	١٩٩
سورة سبأ		
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾	٢٨	١٢٣، ١٥٩، ٣٦٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة فاطر		
﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾	١٤	٥٧٥ ، ٢٧٤
﴿وَلِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾	٢٤	٣٧٥
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾	٢٩	٤١٥
﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾	٣٠	٤١٥
سورة يس		
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾	٦٩	٢٤٤ ، ١٤٦
﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾	٧٠	١٤٦
سورة الصافات		
﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾	٢٢	٢٩٣
﴿أَتَعْبُدُونَ مَا نَنْحِتُونَ﴾	٩٥	٦٦١
﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾	٩٦	٦٦١
﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾	١٨٠ - ١٨٢	١١٩
سورة ص		
﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾	٦	٤٣٧
﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾	٢٦	٢٠١
﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَّبَ رُءُوسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾	٢٩	٣٢٢ ، ٢٨٠ ، ٢١٦
﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾	٧١ - ٧٤	٢٠١ ، ١٩٨
﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ﴾	٧٧	١٩٩
﴿وَلِإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾	٧٨	١٩٩



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾	٨٢	٢٦٣
﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾	٨٣	٢٦٣
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾	٨٧	١٦٠، ٣٦٤، ٤٥٣
سورة الزمر		
﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾	٣	٦٢٩
﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾	١٧	٢٥٢، ٣٠٢
﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾	١٨	٢٢٤، ٣٣٣، ٤٢٢
﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾	٣٤	٣٠٠
﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾	٣٦	٣٩٣
﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾	٥٣	١٩٨، ٤٣٠، ٦٦٧
﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾	٥٥	٢١١، ٢٢٤
﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾	٧٣	١٩٧
سورة غافر		
﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾	١٦	٢٧٥، ٣٦٩
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾	٧٨	٣٧٥، ٣٧٦
سورة فصلت		
﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كَتَبْتُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾	١ - ٤	٧٠٤
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾	٣٣	٣١
﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	٣٤	٢١١

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾	٤١	٣١٩
﴿ لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾	٤٢	١٧٩، ٢٧٢، ٣١٤، ٤٩٣
سورة الشورى		
﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾	١٣	١٢٧
﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ ﴾	٢١	٦١٦
﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ﴾	٢٢	٣٠٠
﴿ وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كِبْرَ الْأَيْمَنِ وَالْفَوْحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾	٣٧	٢٥٢، ٣٠٢
﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾	٣٨	٢٠، ١٥٣
﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾	٥٢	٣٣١، ٧٨٤
﴿ صَرِّطَ اللَّهُ الَّذِينَ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾	٥٣	٧٨٤
سورة الزخرف		
﴿ حَمَّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾	٢، ١	٢٤٤
﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾	٤	٣١٩
﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾	٩	٦٥٩
﴿ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾	١٣، ١٤	٥٤٢
﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾	٢٣	٨٢
سورة الدخان		
﴿ حَمَّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾	٢، ١	٢٤٤
﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾	٥٨	٢٤٤، ٣١٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الجاثية		
﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾	١٣	٢٣١، ١٩٦
﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	١٨	١٢١
﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾	١٩	١٢١
سورة الأحقاف		
﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾	٣٥	٧٠٧
سورة محمد		
﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّنَصِّرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾	٧	١١٧، ١٨٩ ٤٠٤، ٤٠٦
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾	٨	٤٠٦
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمَمْنُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾	١٢	٢١٠
﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَنبَغٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾	١٤	٨٣
﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾	٢٢	١٣٦
﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾	٢٣	١٣٦
﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ أَمْرٌ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾	٢٤	٢٨٠، ٣٢٢
﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكُمْ فَلَاعْرِفْتُهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾	٣٠	٥٦٥
سورة الفتح		
﴿لِيُخَفِّرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾	٢	٦٩٥
﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾	٤	١٨٦
﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ﴾	٢٩	١٩٠، ٧٤٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحجرات		
﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ﴾	٢	٢٢٧
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ﴾	٣	٢٢٧
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾	١٠	٨٠٢، ٤٥
﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾	١٣	٧٨٠
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾	١٤	٣٩٦
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾	١٥	٣٩٦، ٣٩٧
﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُوتُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾	١٧	٧٩٤، ٣٢
سورة ق		
﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾	١	٣١٩
سورة الذاريات		
﴿ءَاخِذِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾	١٦ - ١٩	٣٢٦
﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾	٢٤ - ٢٧	٦٥٥
﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾	٢٨	٦٥٥
﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ ثَمُودَ نَبِيًّا لِّتُزِيلَ عَنْهُمْ حَبَآرَةً مِّنْ طِينٍ﴾	٣٢ - ٣٤	٦٥٥
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	٥٦	٢١٢، ٢٠٩
سورة الطور		
﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٣٣	٢٤٦
﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾	٣٤	٢٤٦



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾	٣٥	٨٣
﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾	٣٦	٨٣
سورة النجم		
﴿وَمَا يَطِّقُ مِنَ الْهَوَىٰ ۖ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾	٣ - ٤	٥٢
﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾	١٠	٣٩٢، ١٨٢
﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾	١٦	١٠١
﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾	١٧	١٠١
﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَيْدَ الْإِنَّمِ وَالْفُوحَشِ إِلَّا الْيَمِّ﴾	٣٢	٣٠٢، ٢٥٢
﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾	٤٢	٦٣٦
﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾	٤٨	٣٢٠
سورة القمر		
﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾	٧	٣٦٨
﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾	٨	٣٧٢
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾	١٧	٣١٨، ٢٤٤
سورة الرحمن		
﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۖ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾	٧ - ٩	٢٦
سورة الواقعة		
﴿رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۖ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾	٤ - ٦	٣٦٨
﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾	٧٥ - ٧٩	٢٥٠
﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۖ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾	٧٧ - ٨٠	٣١٩، ٢٩٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحديد		
﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾	٤	١٩٧، ١٨٩
﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾	٧	٤٠٧
﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾	١٦	٣٢٣، ٢٨٧
﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾	٢١	٢٠٣
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾	٢٥	٧٨٩، ٧٦٨
سورة المجادلة		
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا﴾	١١	٢٢٨
سورة الحشر		
﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾	٧	١٢٤، ١٤٦، ١٥٩، ١٦١، ٤٦٠، ٥٥٩، ٤٦٩
﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾	٨	٦٤٩
﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾	١٠	١١٨
﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾	٢١	٣٢٢
سورة الممتحنة		
﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾	٤	٣٧٣
﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾	٨	٢٣٠، ١٧٨
﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ﴾	٩	٢٣٠، ١٧٨
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾	١٠	٤٧٢
﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ﴾	١١	٤٧٢



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الصف		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾	٢	٣٨٦
﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾	٣	٣٨٦، ٣٨٧
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ﴾	٤	١١٦
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾	٥	١٢٨
﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾	٦	١٢٨
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَى تَجَرُّقِ نُجُجِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾	١٠	٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٨٩
﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾	١١	٣٨٩، ٣٩٥
﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾	١٢	٤٠٢، ٤٠٣
﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾	١٣	٤٠٤
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾	١٤	٤٠٤، ٤٠٦، ٧٤٣
سورة الجمعة		
﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾	٥	٨٧
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾	٩	١٠٨، ٢٣٢، ٢٣٣، ٦٤٠
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾	١٠	١٠٨، ٢٣٢، ٢٣٣، ٦٤٠
سورة المنافقون		
﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾	٨	٧٥٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة التغابن		
﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾	١٢	٤٦٩
سورة الطلاق		
﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾	١	٣٥١، ٣٤٠، ١٣١
﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ﴾	٧	٣٤٩
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾	١٢	٢٠٨، ٢٠٥
سورة التحريم		
﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنْ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ مُّسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ﴾	٥	٦٩٧، ٢٩٤
سورة الملك		
﴿تَبَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	١	٢٢٤، ٢١١
﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾	٢	٢٢٤، ٢١١، ٩٥ ٦٠٣، ٤٤٢
﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾	١٤	٣٩٥، ٩٨
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾	١٥	٦٤٠، ٢٣٢
سورة القلم		
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	٤	٦٧٠، ١٨١ ٧٠٨، ٧٠٥
سورة الحاقة		
﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لِمَ أُوتِيَ كِتَابِي﴾	٢٥ - ٣٢	١٤٥
﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾	٣٣، ٣٤	١٤٥
﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ وَمَا لَا تُبْصَرُونَ﴾	٣٨، ٣٩	٥٨٥



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة المعارج		
﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾	٤٣	٣٦٨
سورة نوح		
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	١ - ٣	١٢٨
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿ فَلََمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴾	٥ - ٧	٣٦٣
﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾	٢٨	٣٧٣
سورة الجن		
﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾	١	١٢٣ ، ٣٣٢
﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾	٢	١٢٣ ، ٣٣٢
﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾	١٩	١٨٢ ، ٣٩٣
﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾	٢٦ ، ٢٧	٥٧٨
سورة المزمل		
﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿ قُرْآنٌ لَّيْلًا قَلِيلًا ﴿ نَصْفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾	١ - ٥	٣٢٠ ، ٦٩٤ ، ٧١٦ ، ٧١٧
﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾	٢٠	٦٧٠
سورة المدثر		
﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾	٣٨ - ٤٤	١٤٤
سورة القيامة		
﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾	١٤	١٩٩
﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾	١٩	٥٥٤
﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾	٢٢ ، ٢٣	٢٦٠

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الإنسان		
﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾	٥ - ١٢	٣٢٦
﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾	٨	٣١٠
سورة النازعات		
﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾	٢٤	٦٦٢، ٦٦٥
سورة التكويد		
﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِيتَ﴾﴾	٨، ٩	٥٠٩
﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾	٢٧	٤٥٣
سورة الانفطار		
﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ﴾﴾	٦ - ٨	٢٠٠
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾﴾	١٧ - ١٩	٢٧٥
سورة البروج		
﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾﴾	٢١، ٢٢	٣١٩، ٢٥٠
سورة الطارق		
﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾	٩	٣٦٩
سورة الأعلى		
﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾﴾﴾	١ - ٥	٢٧٥
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾	١٤	٤٤١، ٤٤٦
سورة الغاشية		
﴿فَذِكْرٌ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾﴾	٢١، ٢٢	٣٦٢



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البلد		
﴿مَسْكِنًا ذَا مَرَبَةٍ﴾	١٦	١٤١
سورة الشمس		
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾	٧ - ١٠	١٩٩
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾	٩	٤٤١
سورة العلق		
﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾	١ - ٥	١٩٦
سورة القدر		
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾	١	٣٢٠
سورة البينة		
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾	٥	٦٣٩، ٤٤٢، ٣٧٦
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾	٧	٢٠٣
سورة الزلزلة		
﴿زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾	١ - ٣	٣٦٩
﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾	٧	٨٠١
سورة العصر		
﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾	١ - ٣	٩٤، ١١٩، ٤٢٤، ٤٣٢، ٤٢٥، ٧٠٢، ٤٣٨
﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	٣	٤٢٦، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٧٠٣، ٤٣٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة قريش		
﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ * إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾	١ - ٤	٣٦٧
سورة الكوثر		
﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾	٢	٦٢٢
سورة الناس		
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾	١ - ٣	٢٧٢، ٤٥٣

* * *





فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



الحديث	رقم الصفحة
أ	
أئت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه رجل يتطيب	٢٢٣
أبعده الله، ثم أبعده، رجل أدرك رمضان ولم يغفر له	٨٠٣
أبغض الحلال عند الله الطلاق	٣٣٧
أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ	٦٥٤
أَتَحْتَسِبُونَ بِالْشَّرِّ، وَلَا تَحْتَسِبُونَ بِالْخَيْرِ	٦٤١
أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ؟ قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: اقْبَلِ الْحَدِيثَ	٣٤٤
أَتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ	٨٩
ادْرؤوا الحدودَ بالشبهات	٣٠٤
ادْرؤوا الحدودَ ما استطعتم، وَمَنْ وَجَدْتُمْ لَهُ مَخْرَجًا فَخَلُّوا سَبِيلَهُ	٣٠٤
إِذَا اخْتَلَفَ الصَّنْفَانِ فَبِيعُوا وَاشْتَرُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ	١٦٥
إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنَ لَهُ فَلْيَرْجِعْ	٥٦٠، ٢٢٩
إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ	٦٤٧
إِذَا جَاءَكُمْ مِنْ تَرْضُوعِ دِينِهِ وَخَلَقِهِ فَرُجُوعِهِ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ	١٣
إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ	٦٣٩
إِذَا قَرَأْتُمُ الْقُرْآنَ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا	٢٨٦

رقم الصفحة	الحديث
١٦٥	إذا كان ذلك من صَرْفِ يَوْمِكِمْما وافترقتما، وليس بينكما شيءٌ فلا بأس
٤٢، ١٢	أذهبني حتى تلدي. أي: إن كان لنا سبيل عليك
٧٢٩	ارجع فأضحكهما كما أبكيتهما
٧٢٩	ارجع فالزمها؛ فإن الجنة عند رجلها
٦٩٩	أرْحْنَا بها يا بلال
٦٥٩، ٦٥١، ٧١	الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله ﷺ
٢٢	أشار عليه سيدنا سلمان الفارسي بحفر الخندق
١٤٢	اشتر به قدومًا
٥٣٦	اشتكت النار إلى ربها، فقالت: ربي، أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين
٦٩٧	أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله لا شريك له، لا إله إلا هو إليه النشور
٥٣٤	اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان؛ إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم
٥٧٦، ٥١٨	اصنعوا كل شيء إلا النكاح
١٣	اظفر بذات الدين تربت يداك
١٢٧	أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مسيرة شهر
٥٤٨	أعفوا اللّٰحِي، واحفُوا الشوارب
١٢٥	أعوذ بك من الخُبْثِ والخبائث
٥٥	أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم
٤٩٨	أغنوهم في هذا اليوم
٦٩٤	أفلا أحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا
٧٣٢	أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق
٣٤١	اقبلِ الحديقةَ وطلِّقْها تطليقة
٧٠٤	أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مِنِّي. قال: أفعل
٧٠٠	أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد



رقم الصفحة	الحديث
٦٩٤	أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب
٤٦١	ألا إنني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا إنني أوتيت القرآن ومثله معه
١٣٩	ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر
٧٢٩	ألك والدان؟ قال: نعم. قال: ارجع ففیهما فجاهد
٦٢٠	اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي
٧٠١	اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك
٧٣٨	اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس!
٤٠١	اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض بعد اليوم
٧٢٢	اللهم إنني هذا قسمي في أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك
٦١٩	اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم
٢٦٦	اللهم علمه الكتاب
٢٦٦	اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل
٧٠٠	اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره
٦٩٧	اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك
٢٧٨ ، ٢٩٨	اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك
٦٠١	أمّا بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ
١٤٠	أمّا في بيتك شيء؟ قال: بلى، جلس نلبس بعضه ونبسط بعضه
٧٢٥	إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله
٥٧٩	إن ابني هذا يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين
٣٧٧	إن الله افترض عليهم في أموالهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم
٧١٦	إن الله أنزل علي هذه الآيات: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾
٦٤٢	إن الله تعالى لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن
٢٣٢	إن الله جميل يحب الجمال



رقم الصفحة	الحديث
٢٣٢	إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ
٦٤١	إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا
٦٤٧	إِنَّ اللَّهَ وَجَلَّ تَجَاوَزَ لِأَمْتِي عَمَّا حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ
٢٢٥	إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ
٧٢٢	إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مَعْنَتًا وَلَا مَتَعْنَتًا، وَإِنَّمَا بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مَيِّسِّرًا
١٤٣	إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيِّ وَلَا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّىٰ حُكِمَ فِيهَا هُوَ
٥٣٨	إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عِلْمُهُ مِنْ عِلْمِهِ، وَجَهْلُهُ مِنْ جَهْلِهِ
٣٧٢	إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ
٥٢٦	إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ، الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ
٦٢٧، ٦٨٥، ٧٥٤، ٦٨٧، ٦٨٦	إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا
٦٤٤	إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ
٦٤٠	إِنَّ بِكُلِّ تَسِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ
٢٢٤	أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَهُوَ يَرَاكَ
٤٩٦	إِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ
٦٤٢	أَنَّ رَجُلًا قَالَ: لَا تُصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فِي اللَّيْلِ
٧٢٤	إِنَّ الْعَيْنَ لَتَدْمَعُ، وَإِنَّ الْقَلْبَ لِيَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَىٰ رَبُّنَا
٤٨٩	إِنَّ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ
٦٨٧، ٥٣٢، ٤٣٣	إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدٍ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ إِلَّا تَقَوَّمَ حَتَّىٰ يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا
٦٦	إِنَّ لَبَدَنَكَ عَلَيْكَ حَقًّا، أَيْ فِي الرَّاحَةِ، وَلَعَيْنُكَ عَلَيْكَ حَقًّا، أَيْ فِي النَّوْمِ
٥٣٨	إِنَّ لَجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا
٣٢٧	إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ
٦٥٣، ٧٠	إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ جُرْمًا رَجُلًا، سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ؛ فُحَرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ



رقم الصفحة	الحديث
٧٢٤	إِنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ يَرَاغِبْنَ
٣٢٣	إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا
٥٩٤	إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبِغُونَ فَخَالِفُوهُمْ
٥٢٩	أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يَقِيمُ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُشْرِكِينَ
٧٣٧	أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ
١٩٧	أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ
١٢٤	أَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ
٥٥٨	أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ
٥٧٧	انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا
٦٠٤	انظري غلامك النجار، يعمل لي أعوادًا أَكَلَمَ النَّاسَ عَلَيْهَا
٥٣٠	إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ خِيَلَاءُ
٢٦٠	إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ
٦٣٤، ٦٠٣ ٦٣٧، ٦٣٥ ٦٥٨، ٦٤٩، ٦٣٨	إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى
٧٢٧	إِنَّمَا أَنَا أَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمُ لَهُ، وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأُفَكِّرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ
٧٠٨	إِنَّمَا أَنَا رَحِمَةٌ مَهْدَاةٌ
١٨١، ١٢٧ ٧٠٨، ٦٧١	إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ
٢٥٥	إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ يَهُودَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ
٦٤٥	إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ
٤٣٨	إِنَّمَا يَأْكُلُ الذَّنْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ. يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَدَّ شَدًّا إِلَى النَّارِ
٧١٨	إِنَّهُ كَانَ لِيَمِرُّ الْهَلَالَ ثُمَّ الْهَلَالَ ثُمَّ الْهَلَالَ، ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ

رقم الصفحة	الحديث
١٢٣	إِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي
٦٩٢	إِنَّهُ لِيُغَانِ عَلَى قَلْبِي، فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً
٥٣٦	إِنَّهَا مِنْ دَوَابِ الْجَنَّةِ
٧٢٣	إِنِّي أَعْرِفُ رِضَاكَ مِنْ غَضَبِكَ. قَالَتْ: وَكَيْفَ تَعْرِفُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
٦٩٨	إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أُطْعَمُ وَأُسْقَى
٧٢٢	إِنِّي مُحَدِّثُكَ فِي أَمْرٍ أَرْجُو أَلَّا تَسْتَعْجِلَنِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرَ أَبُوبَكَ
١٦	أَوْ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ، مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ
٥١٤	أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةَ
١٨٣	أُولَئِكَ عَجَلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ
٤٩١، ٢٦	إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّمَا هَلَكُ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ
٦٣٠، ٤٤٢	إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنْ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٍ، وَإِنْ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ
٣٤٥	أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ
٤٤٤، ٤٣٣	الْإِيمَانُ بِضْعٍ وَسَبْعُونَ - أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةٌ
٧٢٣	أَيْنَ أَنَا غَدًا؟
ب	
٥٧٨	بِاسْمِ اللَّهِ. فَضْرَبَ ضَرْبَةً، فَكَسَرَ ثَلَاثَ الْحِجَرِ وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ
٥٤٢	بِاسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ...﴾
٢٣٢	بَحْسَبَ امْرَأٌ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ
٥٠٤، ٥٠١، ٧٦	بَدَأَ الْإِسْلَامَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ
٥٤٢	بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ
٤٣٠	بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا
٤٠١	بَلْ أَنْتُمْ يَوْمئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غَتَاءٌ كَغَتَاءِ السَّيْلِ
٥٧٩، ٥٠٢	بَلْ مَدِينَةٌ هَرَقْلُ تُفْتَحُ أَوَّلًا



رقم الصفحة	الحديث
٧١٤	بلغوا عني
٦١٦	بلى إنَّهم حرَّموا عليهم الحلال وأحلُّوا لهم الحرام فاتَّبِعُوهم
٤٧٠	بِمَ تقضي؟ قال: بكتاب الله. قال: فإنَّ لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله
٥١٩، ٥٨٢	بني الإسلام على خمس
٢٧٦	بهذا أمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟! تضربون القرآن بعضه ببعض؟!
٧٢٦	بئس أخو العشيرة
٤٩٥	بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة
ت	
٥٧٨	تأخذُ فوقَ يَدَيْهِ - تمنعه من الظلم - فذلك نصرٌ له
١٣	تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وانكحوا إليهم
٢٢٣	تَدَاوُوا يا عبادَ الله؛ فإنَّ الله ما أنزل داءً إلا أنزل له شفاء
٥١٣	تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا: كتاب الله، وسنتي
١٢٥	تركتكم على المَحَجَّةِ البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك
٥٠٩	تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة، حاشا واحدة فهي في الجنة
٢٠٦	تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله
٢٠٦	تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله
٥٨٠	تقاتلكم اليهود، فتسلطون عليهم، ثم يقول الحِجْرُ: يا مسلم
٧٤٠	تقاتلكم اليهود - وفي رواية: تقاتلون اليهود - فتسلطون عليهم
٥٧٩	تقتلك الفئة الباغية
٢٩٧	التقطها. وسئل عن ضالة الإبل، فقال: ما لك ولها؟ دعها فإنَّ معها حذاءها
٤٢١	التمسوها في العشر الأواخر من رمضان في الوتر
١٠٥	تُؤْخَذُ من أغنيائهم وتُرَدُّ على فقرائهم
٣٩٩، ٤٠٠	توشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها

رقم الصفحة	الحديث
ث	
٧٢٩	ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما
٤٤٤	ثلاث مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وإِعْجَابُ المرءِ بنفسه
٥٣٠	ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة
٥٧١	ثلاثة يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ
٤٩٥	ثم رفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر
ج	
٦٩٩	جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ
٥٣٦	الجنة تحت ظلال السيوف
ح	
٤٠١	حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ
٥٣٧	الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام
٥٧٤	حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه
٥٣٦	الحجر الأسود من الجنة
٦٩١	الحجُّ عرفه
٧١٤	حدثوا عني
٦٢١	حديث رؤيا عبد الله بن زيد
١٥	حَزَقَةُ حَزَقَةٍ، تَرَقَّى عَيْنَ بَقَّةٍ
٤٣٦	حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ
٦٣٨	الحلال بَيِّنٌ، والحرام بَيِّنٌ، وبينهما مُشْتَبِهَاتٌ
٦٩٦، ٥٤١	الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور
٧٨٢، ٦٩٥، ٣٢	الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وجعلنا مسلمين



رقم الصفحة	الحديث
٦٩٦	الحمدُ لله الَّذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات
٦٩٦	الحمدُ لله الَّذي جعله عذابًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجابًا بذنوبنا
٦٩٦	الحمدُ لله على كلِّ حال
٥٣٦	الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء
٦٨	حوَّلها نُدُنْدن
خ	
٥٩٥	خالفوا المشركين، وفَرُوا اللحى، وأَحْفُوا الشوارب
٥٩٤	خالفوا اليهودَ، وصلُّوا في نعالكم؛ فَإِنَّهم لا يصلُّون في نعالهم ولا في خفافهم
٧٢٦، ٧٠٥	خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين
٤٧٣	خذوا عني مناسككم
٢٠١	خلق الله آدم على صورته
٧٣٢	خمس صلوات في اليوم والليلة. فقال: هل علي غيرها؟ قال: لا
٦٤	الخيرُ فيَّ وفي أُمَّتي إلى يوم القيامة
٥٣٧	خير ما تداويتم به الحِجامة والقسط البحري
٧٠٥، ٦٧١	خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي
٢١٩	خيرُكم من تعلَّم القرآن وعَلَّمه
٥٣٩	الخيَل معقودٌ بنواصيها الخير إلى يوم القيامة
٤٩٩	الخيَل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة
د	
٧١٩	دخل عليه عدي بن حاتم، فألقت الجارية إلى النبي ﷺ وسادة
٤٤٢	دلائل صدق الإيمان، وقد تكاثرت في ذلك الأحاديث النبويّة
١٣	الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة



رقم الصفحة	الحديث
٥٣٧	دواء عِزِّ النَّسَا أَلْيَةُ شاةٍ أعرابية تُذَابُ، ثم تُجْزَأُ ثلاثة أجزاء
٥١٨	دونكم يا بني أرفدة
٣٤٩	دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به
ذ	
٦٥٣	ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم
٦٩٨	ذلك شهرٌ يَغْفُلُ الناس عنه بين رَجَبٍ ورمضانَ
ر	
٦١٢	رَأَيْتُ الَّذِي صَنَعْتُمْ فَلَمْ يَمْنَعْنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ إِلَّا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ
٦٠٨	رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَلَ هَذَا فَفَعَلْتُ
٦٠٨	رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَفْعَلُهُ
٦٩٢	رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
٤١٥	رَبِّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرَبِّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ
٦٩٧	رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مَبَارَكًا فِيهِ، مَلَأَ السَّمَاوَاتِ
٧١٨	رُدُّوهُ لِحَالَتِهِ الْأُولَى؛ فَقَدْ مَنَعْتَنِي وَطْأَتَهُ صَلَاتِي اللَّيْلَةَ
س	
٦٢٨	سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَرْبَعًا فَأَعْطَانِي ثَلَاثًا وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ اللَّهَ ﷻ
٧٠٠	سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى
٧٠٠	سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ
٧٠١	سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ
٧٠٠	سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ.
٣٣٢	ستكون فتنٌ كقطع الليل المظلم. قلت: وما المخرج منها، يا رسول الله؟
١٨٢	السلام عليك أيُّها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله



الحديث	رقم الصفحة
سَمَّ الله، وكُل بيمينك، وكُل مما يليك	٧٣١، ١٨
سمعتُ رسول الله ﷺ يعطيها السُّدُس	٥٦٠، ٤٧١
سُنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب	٥٦١
السَّوَالُكَ مَطَهْرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ	٥٠٠، ٥٣٩
سَيِّدُ الْاِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ،	٦٩٢
ص	
صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي	٥٤٢، ٤٧٣، ٦٨
صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سَيَاطُ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ	٥٧٩
الصُّومُ جُنَّةٌ، مَا لَمْ يَخْرِقْهَا	٤١٦
الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ إِنِّي مَنَعْتُهُ	٣٢٨
ط	
طوبى لمن آمن بي ورآني مرة، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني	١٩٠
ع	
عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ	٧
علمكم نبيكم كل شيء	١٢٥، ١٨
غ	
غُفْرَانُكَ	١٢٥
ف	
فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَأَخَذَ الصَّنْفَ الرَّابِعَ نَفْسَ وَزْرِ الصَّنْفِ الثَّالِثِ، فَوَزَّرَهُمَا سَوَاءً	٦٤٧
فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تَوَخَّذَ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فَتَرَدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ	١٤٣
فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ	٢٥٧
فَإِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لَغَنِيِّ، وَلَا لَذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ	١٤١



رقم الصفحة	الحديث
٦١٤	فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة
٦١٥	فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة
٦١٨	فإنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين
٦٥٢	فإنَّه جبريل أتاكم يُعلِّمكم دينكم
٢٧٨	فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك
٦٤٩	فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله
٥٢٤	في المال حق سوى الزكاة
ق	
٥٠٩	القدريَّة مجوس هذه الأُمَّة
٧٠٤	قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك
٧٠٦	قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض
٣٢٧	القرآن شافعٌ مُشَفَّعٌ، وما حلُّ مُصَدَّقٌ، فمن جعله أمامه، قاده إلى الجنة
٧٠٠، ١٠٢	قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل
٤٧١	قضى فيه رسول الله ﷺ بالغرة
٧	قل: آمنت بالله، ثم استقم
٢٧٨	القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء
ك	
٧٢٣	كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه
٦٩٩	كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة
٧٢٣	كان إذا صلى العصر دار على نسائه
٣٢، ١٨١، ٢٢٥، ٣٢٥، ٦٧١، ٧١١، ٦٨٩	كان خُلِّقه القرآن



رقم الصفحة	الحديث
٢٢٠، ٤٢٠، ٨٠٠	كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس
١٨٢	كان ﷺ يجلس مع أصحابه كأنه واحد منهم
٤٢٠	كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شدَّ مئزره، وأحيا ليله
٦٠٥	كان النبي ﷺ إذا صلى ركعتي الفجر اضطجع على شقه الأيمن
٥٤٧، ٥٧٥	كان النبي ﷺ يأمرني فأتزر فيباشرنني
٧٢١	كان يسرب إليها من بنات الأنصار
٧٢٥	كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ
٦٩٨	كان يصوم حتى نقول: لا يفطر
٧٢٤	كانت فاطمة إذا ذهبت إليه رحب بها وأجلسها بجانبه
٥٣٣	كسّروا قسيكم، وقطّعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة
٣٠٦	كُلُّ أُمَّتِي مُعَاْفَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ
٤٦١	كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى. قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟
٤٠٣	كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَائِينَ التَّوَّابُونَ
٥٩٢، ٦٠٦، ٧٣١	كُلُّ بَيْمِينِكَ. قال: لا أستطيع. فقال: لا استطعتَ
٧	كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه
٣٢	كلكم ضال إلا من هديته
٧٢١	كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ، فيضع فاه على موضع فيّ
٥٧٥	كنتُ أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، كلانا جُنُب
٢٠٩	كنت كنزاً لا يُعرف فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً فعرفتهم بي، فعرفوني
ل	
٢٠٨	لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ
٦٨٦	لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم

رقم الصفحة	الحديث
٦٣	لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق، لا يضُرُّهم من خالفهم
٥٨٩	لا تُشَدُّ الرِّحال إِلَّا إلى ثلاثة مساجد
٢٦٣	لا تُصَدِّقُوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا:
٣٩٢، ١٨٢	لا تُطْرُونِي كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، وقولوا: عبد الله ورسوله
٥٠٣	لا تقوم الساعة حتَّى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً
٥٧٩، ٥٠٢ ٥٨١، ٥٨٠	لا تقوم الساعة حتَّى يقاتلَ المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون
٤٢٢	لا تمنعوا إماء الله مساجدَ الله
٣٢٨	لا حَسَدَ إِلَّا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآنَ فهو يتلوهُ آناءَ الليل وآناءَ النهار
٤٣٩	لا صلاةَ لمُنْفَرِدٍ خلف الصفِّ
٣٣٨	لا طلاقَ ولا عتاقَ في إغلاق
٥٩٢	لا عدوى، ولا طيرة، وأحب الفأل الصالح
٧١٧	لا، ولكن لم يكن بأرض قومي
٥٠٣، ٥٠١	لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شرُّ منه، حتَّى تلقوا ربَّكم
٧٣١، ٦٠٦، ٥٩١	لا يأكلنَّ أحدكم بشماله، ولا يشربنَّ بشماله؛ فإنَّ الشيطان يأكل بشماله
٥٤٩	لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتَّى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس
١٣٦	لا يدخل الجنة قاطع
٢٣١	لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر
٢٠١	لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحبَّته كنتُ سمعه
٥٨٦	لا يكن أحدكم إمعة، يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنتُ
٧١٢	لا يؤمن أحدكم حتَّى أكون أحب إليه من نفسه وولده والناس أجمعين
٤٤٣	لا يؤمن أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه
٢٢	لأن يأخذ أحدكم حبله على ظهره؛ فيأتي بحزمة من الحطب فيبيعها



رقم الصفحة	الحديث
٦٣٠، ٥٨٨ ٦٣٢، ٦٣١	لَتَتَّبَعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شَبْرًا بِشَبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ
٢٥٢	لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة
٦٠٢	لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك
٧٠٦	لقد قُلْتُ كلمةً لو مُزِجَتْ بماء البحر لَمَزَجَتْهُ
٣٩١	لَقَنُوا موتاكم لا إله إلا الله
٧٣٠، ٦٠٨	لما انتهى ﷺ إلى هذا المكان قضى حاجته
٥٢٠	لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة
٧١٧	لو شئنا لشبعنا، ولكنه كان يؤثر على نفسه
٧٢٦	لولا خوف القصاص يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك
٥٠٢	لَيُبْلَغَنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدبر ولا وبر
٥٢٤، ٥٢٣، ٤٨٩	ليس في المال حق سوى الزكاة
٤٢٧	ليس كما تقولون - إنه ليس كما فهمتم - أمّا سمعتم قول العبد الصالح
م	
٤٤٣	ما آمن بي من بات شبعان وجأزه جائع إلى جنبه وهو يعلم به
٣٨٣، ٢٢٠	ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم
١٥٥، ٢٣	ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو
٦٢١	ما أحيا قوم بدعة إلا أَمَاتُوا مثلها من السنة
٥٣٠	ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار
١٥١	ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر
٦٤٠	ما أكل أحد طعاماً قط، خيراً من أن يأكل من عمل يده
٧٠٤	ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك، على أن تستشعلوا لي منها شعلة
١٨٣	ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما

رقم الصفحة	الحديث
٥٣٦	ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة
١٢٥، ٤١	ما تركت أمرًا يقربكم من الله إلا أمرتكم به، ولا أمرًا يبعدكم عن الله إلا نهيتكم عنه
٣٩٨	ما ترك قومُ الجهادَ إلا عمَّهم الله بالعذاب
٢٧	ما خيّر بين أمرين؛ إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً
٢٥٤	ما لك ولها؟! معها حذاؤها وسقاؤها، حتّى يلقاها ربُّها
٩٥	ما لي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا، إلّا كراكبٍ سار في يومٍ صائفٍ
٦٤٠	ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ
٧١٩	ما يسرنى ألا يمر علي ثلاث، وعندي منه شيء إلا شيء أُرصدُهُ لِذَيْنِ
٧٢٤	مات ابن إحدى بناته فبكى من أجله
١٨٣	مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلّا كراكب استظل تحت شجرة
٤٤٥	المؤمن مرآة المؤمن
٦٢	مثلُ أمّتي كمثل المطر، لا يُدرى أوّلُه خيرٌ أم آخرُه
٨٠٢	مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ كمثل الجسد الواحد
٢٠١	مرضتُ فلم تُعْذِنِي! فقال: يا ربّ، وكيف ذلك؟
١٤	مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر
٥٧٧	المسلمُ مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده
٦٣٠	المغضوبُ عليهم هم اليهود، والضالُّون هم النصارى
٦٤٥	مَنْ أتى فراشه وهو ينوي أن يقومَ يصلّي من اللَّيْلِ
١٤٤	من احتكر طعامًا أربعين ليلةً، فقد برئ من الله تعالى، وبرئ الله تعالى منه
٦٣٧، ٦٠٣	من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ
٦٠٢	من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو ردٌّ، وفي بعض الروايات: من أحدث في أمرنا
٥٣٠	من جرَّ إزاره بطرًا



رقم الصفحة	الحديث
٥٣٠	من جرّ ثوبه من الخيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة
٧٣٢	من رغب عن سنتي فليس مني
٦٤٤	مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصَدَقَ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ
٤٧٨، ٨٥	مَنْ سَتَرَ مُؤْمِنًا عَلَى خُرْبَةٍ سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
٥٧١	مَنْ سَتَرَ مُؤْمِنًا فِي الدُّنْيَا عَلَى خُرْبَةٍ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
٧٣٣، ٧٢	من سرّه أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنة فليُنظر إلى هذا
٢١٧	من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة
٥٩٩، ٤٦٤	من سنّ في الإسلام سنّة حسنة... ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة
٧٩٩	من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا؛ غُفر له ما تقدّم من ذنبه
٦١٤، ٦٠٣	من عمل عملاً ليس على أمرنا فهو ردّ
٤٢٠	من فطّر صائمًا كان له مثل أجره، غير أنّه لا يُنْقَصُ من أجر الصائم شيئًا
٤٠٢	مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
٧٩٩، ٤١٧	من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدّم من ذنبه
٣٢٣، ٢٢١، ٢١٧	من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها
٥٤، ٥٣	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة
٤٤٣	مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
٤٧٤	مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ
٤١٥	من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه
٦٤٨	من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق
١٥٨	من مات وليس في عنقه بيعة لإمام، مات ميتة جاهليّة
٦٧، ٦٥ ٤٨٩، ٨٢	مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ



رقم الصفحة	الحديث
ن	
٤٥٧	الناس لآدم، وآدم من تراب
٥١٧	ناوليني الخُمرة من المسجد. قالت: إني حائض
٦٠٥	النبي ﷺ لم يضطجع لِسِنَّةٍ، ولكنّه كان يدأب ليلته فيستريح
٦٩١	الندمُ توبةٌ
٤٨٧	نِعَمَ المَالُ الصالحُ للرجلِ الصالحِ
٥٤٨	نهى الرجل أن يطرق أهله ليلاً
٥٣٦، ٥٣٥	النيل والفرات من الجنة
هـ	
٦٢٥	هذا سبيل الله ثم خَطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله، وقال: هذه سُبُل
٧٨٤	هذا صراط الله مستقيماً. ثم خط عن يمين هذا الخط وشماله خطوطاً متعرجة
٧٢١	هذه بتلك
٤٢١	هل من سائلٍ يُعطى؟ هل من داعٍ يُستجاب له؟ هل من مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَر له؟
٢٧	هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون
٢٧	هلك من كان قبلكم
٦٥٤	هو في النَّار
٧١٩، ١٨٢	هون عليك، فلستُ بِمَلِكٍ، إنّما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة
٥٣٨	هي من قدر الله
و	
٤٠٣	والَّذِي نَفْسِي بِيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاءَ بقومٍ يُذنبون
٧٠٤	والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري
٥٠٩	الوائدة والموءودة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم



رقم الصفحة	الحديث
٦٩٨	وَأَيُّكُمْ مِثْلِي؟ إِنِّي أَبَيْتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِيَنِي
٧٠٥، ٢٩٩	وَأَيْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَيَهَا
١٩١	وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا. قَالُوا: أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
٦٤٥	وَرُبَّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفَيْنِ اللَّهُ أَعْلَمُ بَنِيَّتٍ
٥٢٦	الْوَزْنُ وَزَنَ أَهْلُ مَكَّةَ، وَالْمَكْيَالُ مَكْيَالُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
٧٠٥	وَكَانَ يَنْهَى عَنِ الْغَضَبِ
٥٤٣	وَلِيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبُ، وَلِيَقْتُلَنَّ الْخَنْزِيرُ، وَلِيَضَعَنَّ الْجَزْيَةَ
٧٠٥	وَمَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ قَطُّ إِلَّا أَنْ تَنْتَهَكَ حَرَمَةَ اللَّهِ
٧٠٥	وَمَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ
٤٦٤	وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ
٤٤٢	وَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ
٤٩١	وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ
٦٠١	وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي
٧٢٥، ١٥	وَنَعَمُ الْفَارِسَانِ هُمَا
ي	
٤٢٨	يَا أَبَا بَكْرَ، مَا ظَنُّكَ بَاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا
١٥١	يَا أَبَا ذَرٍّ؛ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا خَزْيٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
٤٦١	يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا
٦٩١	يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ
١٨١	يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ، لَا يَسْتَهْوِينَكُمْ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
٦٩٦	يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لَجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ
٧١٦	يَا عَائِشَةُ، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا



رقم الصفحة	الحديث
٧١٦	يا عائشة، ذريني أتعبد لربي
٧٢٢	يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته
٧٢٦	يا عائشة، متى عهدتني فاحشاً؟ إن شر الناس يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره
٧١٨	يا عمر، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ ما لي وللدنيا
١٢٦، ٥٩٢، ٦٠٦	يا غلام، سَمَّ الله، وَكُلَّ بيمينك، وَكُلَّ مِمَّا يليك
٣٢٩	يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ
٨٥، ٤٧٨، ٥٧٠	يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ - عِرَاءً غُرْلًا بُهْمًا. قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟
٦٢٥	يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ إِلَى صَلَاتِهِمْ، وَقِيَامَهُ إِلَى قِيَامِهِمْ، وَقِرَاءَتَهُ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ
٥٥٣، ٤٩٠	يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عَدُولَهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ
٤٣٩	يُدُّ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَدَّ شَدَّ إِلَى النَّارِ
٧١٥	يَدْخُلُ الصَّلَاةَ يَرِيدُ أَنْ يَطِيلَهَا فَيَسْمَعُ بَكَاءَ الصَّبِيِّ فَيَتَجَوَّزُ
٦٧، ١٨	يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا
٦٩٨	يُومَانِ تُرْفَعُ فِيهِمَا الْأَعْمَالُ، فَأَحَبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ

* * *



فهرس الموضوعات

- ٥ • التعريف بالإسلام
- ٦ ❖ من الدستور الإلهي للبشرية
- ٧ ❖ من مشكاة النبوة الخاتمة
- ٩ ❖ ١ - رسالة الإسلام وواجبنا نحوها
- ١٠ بداية جمعية الإصلاح
- ١١ اتساع أنشطة الجمعية
- ١١ الإسلام رسالة شاملة
- ١٢ الإسلام يعتني بالإنسان قبل أن يولد
- ١٤ اهتمام الإسلام بالإنسان في رحلة الحياة
- ١٤ بين القسوة والتدليل
- ١٦ بين الحقوق والواجبات
- ١٧ أحكام الشيخوخة والوفاة
- ١٨ الإسلام رسالة تشمل كل جوانب الحياة
- ١٩ الإسلام يضع القواعد الكلية
- ٢١ الاجتهاد السياسي
- ٢٣ الحكمة ضالة المؤمن
- ٢٣ منطقة العفو
- ٢٤ فسحة للعلماء ليجتهدوا



- ٢٥.....رسالة الإسلام تقوم على العدل للجميع
- ٢٦.....رسالة الإسلام وسطية متوازنة
- ٢٧.....معنى الوسطية الإسلامية
- ٢٨.....عدم التشديد على المسلمين
- ٣٠.....المنهج الوسطي لا يحل الحرام
- ٣١.....الاعتزاز بالإسلام
- ٣١.....نعمة الهداية إلى الإسلام
- ٣٢.....العمل بالإسلام
- ٣٣.....الافتداء بسيرة النبي ﷺ
- ٣٥.....العمل للإسلام
- ٣٦.....أهمية العمل الجماعي
- ٣٧.....❖ ٢ - كيف نفهم الإسلام؟
- ٣٨.....توحيد العاملين للإسلام
- ٣٩.....أسس وحدة الفكر للعاملين للإسلام
- ٤٠.....شمول الإسلام
- ٤١.....الإسلام يشمل كل مراحل الحياة
- ٤٢.....الإسلام يشمل كل مجالات الحياة
- ٤٣.....منهج كلي لا يقبل التجزئة
- ٤٤.....الحياة نفسها لا تقبل التجزئة
- ٤٤.....الإسلام يرفض حصر الدين في المسجد
- ٤٦.....الإسلام يعتني بأمور السياسة
- ٤٧.....الأزهر يتصدى لفصل الدين عن الدولة
- ٤٩.....الرجوع إلى القرآن والسنة
- ٥٠.....الفهم الصحيح للكتاب والسنة
- ٥١.....مراعاة الخلاف بين المجتهدين
- ٥٢.....عدم الطعن في المجتهد المخالف



- ٥٣ الخلاف الفقهي لا يكون سببا في تفرق المسلمين
- ٥٤ أمر الخلاف الفقهي فيه متسع
- ٥٥ أثر الطبيعة الشخصية في الخلاف
- ٥٦ أثر البيئة في الاختلاف
- ٥٦ تقدير آراء الآخرين
- ٥٧ الخلاف في الفروع سيظل قائما
- ٥٨ تجنب الخصومات
- ٦٠ مسألة التوسل

❖ ٣ - حسن فهم الإسلام ٦٢

- ٦٣ بقاء أمة الإسلام إلى يوم القيامة
- ٦٤ الاعتزاز بالإسلام
- ٦٥ حُسن فهم الإسلام
- ٦٦ واجب كل مسلم
- ٦٧ الأصول والكمليات، لا التفاصيل والجزئيات
- ٦٩ نماذج تقليدية غير واعية
- ٧٠ حُسن تعليم الإسلام
- ٧٢ مقاصد الشريعة
- ٧٦ الإجابات عن أسئلة المحاضرة
- ٧٦ قوة الإسلام الذاتية

❖ ٤ - كيف نحقق الإسلام في حياتنا؟ ٨٠

- ٨١ سؤال يُحدّد حقيقتنا
- ٨١ مقتضيات الإسلام
- ٨٢ الواجب الأول: فقه الإسلام
- ٨٧ الواجب الثاني: العمل بالإسلام
- ٩٠ الواجب الثالث: العمل للإسلام

٩١	الدعوة بين غير المسلمين.....
٩١	المسلمون أغلظ حجاب يحجب الإسلام.....
٩٣	الدعوة بين المسلمين.....
٩٤	الإسلام سفينة الإنقاذ.....
٩٤	متاع الدنيا ومتاع الآخرة.....
٩٦	الإسلام يُمكن المسلم من الدنيا.....
٩٦	الحضارة الغربية حضارة قاصرة.....
١٠٠	❖ ٥ - من مقومات الإسلام ودعائمه.....
١٠١	تميّز العبادات في الإسلام.....
١٠١	الصلاة.....
١٠٢	الصلاة معراج يومي.....
١٠٢	الصلاة حمّام يومي.....
١٠٣	تميّز الصلاة.....
١٠٤	تميّز الزكاة.....
١٠٦	حملة لتنصير المسلمين.....
١٠٧	دعائم أربعة في الإسلام.....
١٠٧	القرآن.....
١٠٧	علماء الأزهر.....
١٠٨	اجتماع الجمعة.....
١٠٨	اجتماع الحج.....
١٠٩	مَقَوِّمَاتُ إسلاميّة.....
١١٠	حاجة الأمة إلى قيادة.....
١١٠	مظاهر الوحدة الإسلامية.....
١١٠	وحدة المرجعية.....
١١١	وحدة الدار.....
١١١	وحدة القيادة.....



١١٣	مقومات النجاح
١١٣	القوة العددية
١١٣	القوة الاقتصادية
١١٤	العمق الحضاري
١١٥	رسالة الإسلام
١١٥	الاهتمام بالعمل وترك الانتظار
١١٧	رعاية أسباب النصر
١٢٠	❖ ٦ - الإسلام شريعة ونظام
١٢٠	معنى الشريعة
١٢١	عقيدة وشريعة
١٢٢	عموم الإسلام وشموله
١٢٢	عالمية الرسالة
١٢٣	خلود الرسالة
١٢٤	عموم المحتوى
١٢٤	السُّنَّة وشمولية الإسلام
١٢٧	رسالة الزمن كله
١٢٧	رسالة للناس جميعاً
١٢٨	رسالة للحياة كلها
١٣٠	عناية الشريعة بالأسرة
١٣١	التفصيل في أحكام الأسرة
١٣٤	الأسرة بين الإسلام والغرب
١٣٥	بُرِّ الوالدين
١٣٦	صلة الرحم
١٣٧	نظام النفقات
١٣٨	نظام الموارث
١٣٩	نظام العاقلة

- ١٤٠ عناية الشريعة بالمجتمع
- ١٤٢ فريضة الزكاة
- ١٤٤ فريضة التكافل
- ١٤٥ موارد أخرى
- ١٤٦ عناية الشريعة بالدولة
- ١٥٩ إجابات الشيخ القرضاوي عن أسئلة المحاضرة
- ١٥٩ من شبهات الدكتور خلف الله
- ١٦١ القصور في فهم تطبيق الشريعة
- ١٦٣ مناظرة الدكتور فؤاد زكريا
- ١٦٤ توزيع التركات العينية
- ١٦٤ بيع النقود الورقية
- ١٦٦ إعطاء الغارمين من الزكاة
- ١٦٧ البيع بالصفة
- ١٦٧ الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية
- ١٧١ دعوة لدعم الوجود الإسلامي في الغرب
- ١٧٣ ❖ ٧ - من نعم الله على الأمة
- ١٧٤ نعمة الإسلام
- ١٧٤ الإسلام بعيد عن التحريف والتبديل
- ١٧٥ القرآن محفوظ في الصدور
- ١٧٦ القرآن محفوظ في السطور
- ١٧٧ القرآن محفوظ في طرق تلاوته
- ١٧٨ القرآن دستور شامل
- ١٧٩ رسالة النبي محمد ﷺ
- ١٨١ كان خُلِّقه القرآن
- ١٨١ بشرية النبي ﷺ



- ١٨٢ تواضعه ﷺ
- ١٨٤ المستقبل لهذا الدين
- ١٨٥ الإسلام يوحد الأمة
- ١٨٥ الإسلام سفينة الإنقاذ للعالم
- ١٨٦ إفلاس الحضارة الحديثة
- ١٨٧ المسيحية لا تملك العلاج
- ١٨٧ العالم في حاجة إلى الإسلام
- ١٨٨ الإسلام ينتصر ب رجاله
- ١٨٩ الوعي بالإسلام وحسن فهمه
- ١٩٠ العمل بالإسلام
- ١٩١ العمل للإسلام
- ١٩٢ العمل الجماعي فريضة وضرورة
- ❖ ٨ - قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام
- ١٩٤ مقدمة
- ١٩٦ قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام
- ١٩٧ مكانة الإنسان من الله
- ١٩٨ مكانة الإنسان في الملاء الأعلى
- ١٩٩ مكانة الإنسان في هذا العالم المادي
- ٢٠٠ علماء الإسلام يُشيدون بمكانة الإنسان
- ٢٠٣ منزلة الإنسان المؤمن خاصّة
- ٢٠٤ أثر هذه الفكرة في حياة الإنسان
- ٢٠٥ الإنسان هو المقصود من خلق العالم
- ٢٠٥ الغاية المعرفيّة للإنسان
- ٢٠٩ الغاية العمليّة للإنسان
- ٢١١ تفصيل للمقصد الإلهي من خلق الإنسان



- ٢١٥ • التفسير وعلوم القرآن
- ٢١٦ ❖ من الدستور الإلهي للبشرية
- ٢١٧ ❖ من مشكاة النبوة الخاتمة
- ٢١٩ ❖ ٩ - القرآن الكريم منهاج للعمل والاتباع
- ٢١٩ تدارس القرآن
- ٢٢٠ حفظ القرآن واستظهاره
- ٢٢١ تلاوة القرآن والاستماع إليه
- ٢٢٢ القرآن منهاج للعمل
- ٢٢٢ بركة القرآن
- ٢٢٣ اتباع القرآن
- ٢٢٤ اتباع الأحسن
- ٢٢٥ التَّخْلُقُ بأخلاق القرآن
- ٢٢٥ خلق الرسول ﷺ
- ٢٢٦ المحمديون قرآنيون
- ٢٢٦ أخلاق القرآن تفتح الآفاق
- ٢٢٦ هداية لا جباية
- ٢٢٧ شمول منهاج القرآن
- ٢٢٨ الذَّوْقُ القرآني
- ٢٣٠ في التعامل مع الناس
- ٢٣١ في التعامل مع الكون
- ٢٣١ كيف نتعامل مع هذا الكون المسخَّر لنا؟
- ٢٣١ في التعامل مع الحياة
- ٢٣٣ في سياسة الحُكْم
- ٢٣٤ الحكم بما أنزل الله
- ٢٣٥ من شبهات العلمانيين



٢٣٥	 الشبهة الأولى
٢٣٧	 الشبهة الثانية
٢٣٨	 الشبهة الثالثة
٢٤١	 ❖ ١٠ - معالم وضوابط في فهم القرآن الكريم
٢٤١	 تقديم
٢٤٣	 في تفسير القرآن الكريم
٢٤٣	 من خصائص القرآن
٢٤٤	 (١) كتاب مُبين
٢٤٤	 (٢) كتاب مُيسّر
٢٤٦	 (٣) كتاب مُعجز
٢٤٦	 (٤) كتاب خالد
٢٤٨	 مزالق في فهم القرآن وتفسيره
٢٤٨	 (١) عدم التمكن من اللغة العربية
٢٥٢	 تتبّع موارد الكلمة في القرآن
٢٥٣	 (٢) الجهل بالسُّنة النبويّة
٢٥٤	 (٣) إهمال أسباب النزول
٢٥٥	 أمران أساسيان في أسباب النزول
٢٥٦	 (٤) اتباع المتشابهات والإعراض عن المُحكّمات
٢٥٨	 (٥) سوء التأويل
٢٥٩	 الفلاسفة أساءوا التأويل
٢٥٩	 المعتزلة أساءوا التأويل
٢٦٠	 (٦) تناقل الروايات الإسرائيلية
٢٦٤	 (٧) قبول الروايات الواهية عن مُفسّري السلف
٢٦٦	 (٨) الأخذ بأقوال المُفسّرين الضعيفة
٢٦٧	 نماذج من الأقوال الضعيفة
٢٦٩	 معالم وضوابط لفهم القرآن الكريم

- (١) القرآن كلام الله ٢٧٠
- (٢) القرآن كتاب الزمن كله ٢٧٢
- (٣) القرآن كتاب العالم كله ٢٧٢
- (٤) القرآن كتاب الإنسان كله والحياة كلها ٢٧٣
- حكاية عن الشيخ محمد عبده ٢٧٣
- (٥) تفسير القرآن بالقرآن ٢٧٤
- زعموا أن القرآن لم يُحرّم الخمر ٢٧٦
- وزعموا أن القرآن منع تعدّد الزوجات ٢٧٧
- (٦) تفسير القرآن بصحيح السنة ٢٧٩
- (٧) أقوال الصحابة ٢٨٠
- (٨) التفسير بمقتضى اللغة وفي ضوء السياق ٢٨٠
- ❖ ١١ - التعامل مع القرآن.. ملامح وأضواء ٢٨٢
- حفظ القرآن ٢٨٣
- تلاوة القرآن ٢٨٥
- الاستماع إلى القرآن ٢٨٧
- ضوابط فهم القرآن الكريم ٢٨٨
- أولاً: العناية بالأمور وفق معيار القرآن ٢٨٨
- ثانياً: امتلاك أدوات فهم القرآن ٢٩٢
- (١) معرفة اللغة وعلومها ٢٩٢
- علم النحو ٢٩٤
- علم الصرف ٢٩٥
- علم البلاغة ٢٩٥
- (٢) معرفة السُّنَّة النبويّة ٢٩٦
- عصر النزول ٢٩٧
- أسباب النزول ٢٩٧
- (٣) معرفة السياق القرآني ٢٩٨



- (٤) رد المتشابهات إلى المحكمات ٣٠١
- (٥) ربط القرآن ببعضه ببعض ٣٠٢
- أ - تتبّع اللفظ الواحد ٣٠٢
- ب - تتبّع المعنى الواحد ٣٠٣
- علاج السرقة ٣٠٤
- علاج الزنى ٣٠٥
- التربية أولاً ٣٠٥
- سدُّ أبواب الحرام ٣٠٦
- فتح أبواب الحلال ٣٠٧
- كتاب الحقيقة المطلقة ٣٠٧
- المبالغة في النسخ ٣٠٨
- اتباع القرآن ٣١٠
- ❖ ١٢ - واجبنا نحو القرآن الكريم ٣١٣
- جوانب حفظ القرآن الكريم ٣١٥
- خصائص القرآن الكريم ٣١٦
- ١ - تيسير حفظه ٣١٦
- ٢ - تيسير فهمه ٣١٧
- ٣ - القرآن المعجزة الكبرى ٣١٨
- واجبنا نحو القرآن الكريم ٣١٩
- إحسان التلاوة والاستماع ٣١٩
- تقويم اللسان بالقرآن ٣٢٠
- ضرورة معرفة أحكام التجويد ٣٢١
- التدبُّر والخشوع ٣٢٢
- العمل بالقرآن ٣٢٤
- أهل القرآن المُستَحِقُّون لشفاعته ٣٢٧
- وختامًا ٣٣٢

- ❖ ١٣ - أحكام الطلاق في ضوء سورة البقرة ٣٣٤
- منهج القرآن في تفصيل الأحكام وإجمالها ٣٣٥
- حكمة مشروعية الطلاق ٣٣٦
- الضوابط التي وضعها الإسلام للطلاق ٣٣٧
- ١ - أن يكون في أضيق نطاق ٣٣٧
- ٢ - أن يكون الطلاق في طهر لم يمسه فيها ٣٣٨
- ٣ - أن يكون الطلاق بينة ٣٣٨
- ٤ - أن يكون بلفظ الطلاق ٣٣٩
- الطلاق في الشريعة الإسلامية ٣٣٩
- ولم يستثن الشرع من حق الرجوع للزوج إلا ثلاثة أنواع من الطلاق ٣٤١
- عندما يكون الزوج هو الكاره ٣٤٢
- عندما تكون الزوجة هي الكارهة ٣٤٣
- هل الخلع طلاق أم فسخ؟ ٣٤٤
- حكم الإيلاء في الإسلام ٣٤٥
- من روائع الإسلام ٣٤٦
- حدود الله في الزواج ٣٤٩
- الرجعة بقصده الإضرار بالمرأة ٣٥٠
- المتعة للمرأة المطلقة ٣٥١
- ❖ ١٤ - تأملات في سور القرآن سورة إبراهيم ٣٥٤
- إجابات الشيخ القرضاوي عن أسئلة المشاهدين ٣٥٩
- ❖ ١٥ - التجارة الربحية في ضوء سورة الصف ٣٨٢
- جَمْعُ مُبَارَك ٣٨٢
- التجارة الربحية ٣٨٤
- النداءات الثلاثة في سورة الصف ٣٨٤
- النداء الأول: الإيمان والعمل ٣٨٦



٣٨٨	 النداء الثاني: التجارة الربحية
٣٨٩	 رأس مال التجارة الربحية
٣٨٩	 (١) الإيمان بالله ورسوله
٣٨٩	 الإيمان بالله تعالى
٣٩٢	 الإيمان بالرسول ﷺ
٣٩٣	 الإيمان الزائف
٣٩٥	 (٢) الجهاد في سبيل الله
٣٩٦	 صفقة الله مع المؤمنين
٣٩٧	 نموذج في الجهاد
٣٩٨	 قانون النصر
٣٩٨	 قانون الهزيمة
٣٩٩	 حب الدنيا وكراهية الموت
٤٠١	 الموت يهب الحياة
٤٠٢	 في سبيل الله
٤٠٢	 أرباح التجارة
٤٠٤	 النداء الثالث: الانتصار لدين الله تعالى
٤٠٥	 دين عظيم لو كان له أنصار
٤٠٦	 الطائفة المنصورة
٤٠٧	 إجابات الشيخ القرضاوي عن أسئلة المحاضرة
٤٠٧	 مميزات الاقتصاد الإسلامي
٤٠٧	 (١) اقتصاد ربّاني
٤٠٨	 (٢) اقتصاد إنساني
٤٠٩	 (٣) اقتصاد أخلاقي
٤١٠	 التنمية العادلة
٤١١	 ضرورة تطبيق الاقتصاد الإسلامي
٤١٢	 توجيهات للشباب الحائر

- ٤١٤ بين يدي شهر رمضان
- ٤١٥ حسن الصيام
- ٤١٧ حسن القيام
- ٤١٩ الاستكثار من الحسنات
- ٤١٩ قراءة القرآن والاستماع إليه
- ٤١٩ الإكثار من الذكر
- ٤٢٠ التصدق وإفطار الصائمين
- ٤٢٠ الاجتهاد في العشر الأواخر
- ٤٢١ حظ المرأة من رمضان
- ❖ ١٦ - شروط النجاة من الخسران في ضوء سورة العصر ٤٢٣
- ٤٢٤ الإنسان الصالح
- ٤٢٥ قيمة الوقت
- ٤٢٥ شروط النجاة من الخسران
- ٤٢٦ (١) الإيمان
- ٤٢٦ الإيمان مصدر الأمن
- ٤٢٧ الإيمان مصدر السكينة
- ٤٢٨ الإيمان مصدر السعادة
- ٤٢٩ لا وساطة بين الله وخلقه
- ٤٣١ التوحيد روح الإيمان
- ٤٣١ التوحيد عزّة
- ٤٣٢ (٢) العمل الصالح
- ٤٣٤ (٣) التواصي بالحق
- ٤٣٥ معنى الحق
- ٤٣٥ (٤) التواصي بالصبر
- ٤٣٧ صبر أهل الباطل
- ٤٣٨ روح الجماعة



- ٤٤١ إجابات الشيخ القرضاوي عن أسئلة المحاضرة
- ٤٤١ تربية النفس وتزكيتها
- ٤٤١ التزكية من مهمّات النُبوة
- ٤٤١ تزكية الإنسان نفسه
- ٤٤١ تصحيح العبادة
- ٤٤٢ تقويم الأخلاق
- ٤٤٢ الأخلاق والإيمان
- ٤٤٣ الأخلاق والعبادات
- ٤٤٤ المعاصي الباطنة
- ٤٤٤ المجاهدة وطلب النصيحة
- ٤٤٦ الاستفادة من الأعداء
- ٤٤٧ قدرة الإيمان على التغيير
- ٤٤٩ البنوك الإسلامية ومسألة الربا
- ٤٥٢ العروبة والإسلام

• الحديث وعلومه ٤٥٩

- ٤٦٠ ❖ من الدستور الإلهي للبشرية
- ٤٦١ ❖ من مشكاة النبوة الخاتمة
- ٤٦٣ ❖ ١٧ - في السُّنة النبويّة وعلومها
- ٤٦٤ السُّنة منهاج لشرح الإسلام وتطبيقه
- ٤٦٤ السُّنة المصدر الثاني للتشريع
- ٤٦٥ جميع العلماء يحتكمون إلى السُّنة
- ٤٦٦ السُّنة مصدرًا للسلوك
- ٤٦٧ الفرق بين السُّنة والقرآن
- ٤٦٨ علاقة السُّنة بالقرآن



٤٧٤	حفظ الله للسنة
٤٧٥	الإسناد من خصائص الأمة الإسلامية
٤٧٦	معالم التعامل مع السنة
٤٧٦	المعلم الأول: الاستيثاق من ثبوت الحديث
٤٨٠	حكم العمل بالحديث الضعيف
٤٨٣	شروط العمل بالحديث الضعيف
٤٨٤	إضافة شرطين آخرين
٤٨٧	أحاديث الأحكام يجب أن تكون صحيحة
٤٨٩	المعلم الثاني: الاستيثاق من دلالة الحديث على الحكم
٤٩٠	الآفات التي أتيت بالسنة من قبلها
٤٩٠	الآفة الأولى: تحريف أهل الغلو
٤٩١	الآفة الثانية: انتحال أهل الباطل
٤٩٣	الآفة الثالثة: سوء التأويل
٤٩٤	تأويل العلماء مقبول ومطلوب
٤٩٦	المعلم الثالث: فهم الأحاديث في ضوء أسبابها وملايساتها ومقاصدها
٤٩٩	المعلم الرابع: التمييز بين الوسائل المتغيرة والهدف الثابت للحديث
٥٠١	المعلم الخامس: جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد
٥٠٤	منهج الصحابة في فهم السنة
٥٠٦	إجابات الشيخ القرضاوي عن أسئلة المحاضرة
٥٠٦	ضوابط رواية الأحاديث الضعيفة
٥٠٦	انتقاد كتب السنة الصحيحة
٥٠٧	إمكانية كذب الثقة
٥٠٧	اختلاف المحدثين في التصحيح والتضعيف

❖ ١٨ - كيف نتعامل مع السنة المطهرة (معالم وضوابط) ٥١١

الافتراء على السنة النبوية ٥١١

سوء فهم السنة ٥١٢



٥١٢	تحديد مفهوم السنة
٥١٣	السنة هي المصدر الثاني للإسلام
٥١٣	تعريف السنة
٥١٤	هذه السنة كيف نتعامل معها؟
٥١٤	(١) الإيمان بمصدرية السنة
٥١٥	(٢) الاستيثاق من ثبوت السنة
٥١٧	رد الحديث بسبب سوء الفهم
٥١٨	رد الحديث بسبب التصور الخاطئ
٥١٩	رد الحديث الصحيح وقبول الحديث الموضوع
٥٢٠	الأخذ من مصادر السنة الصحيحة
٥٢٥	(٣) فهم مدلول الحديث
٥٢٥	أحاديث لها صلة بعلة أو مصلحة مؤقتة
٥٢٧	أحاديث تراعي الزمان والمكان
٥٢٨	أحاديث لها علة محددة
٥٢٨	الاهتمام بأسباب ورود الحديث
٥٢٩	جمع أحاديث الباب
٥٣١	مراعاة المقاصد الإسلامية العامة
٥٣٢	فهم أحاديث الفتن
٥٣٤	حديث: لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه
٥٣٥	فهم الحديث في ضوء لغة العرب
٥٣٧	الفرق بين لفظ السنة وروحها
٥٣٩	التفرقة بين الوسيلة والهدف
٥٣٩	إخراج زكاة الفطر نقودًا أم طعامًا؟
٥٤١	تعامل المسلم مع السنة في الحياة اليومية
٥٤٣	أيها الإخوة
٥٤٤	أسئلة المحاضرة

السؤال الأول.....	٥٤٤
الجواب.....	٥٤٤
السؤال الثاني.....	٥٤٦
الجواب.....	٥٤٧
تعقيب من الدكتور محسن.....	٥٤٩
الرد.....	٥٥٠

❖ ١٩ - السُّنَّة ومواجهة حملات التشكيك..... ٥٥٢

الإسلام يُغزى ويُهاجم في عُقر داره.....	٥٥٢
تعرُّض السُّنَّة للطعن والتشكيك من أعداء الإسلام.....	٥٥٣
واجبنا نحو السُّنَّة النبويَّة.....	٥٥٥
أسباب الطعن والتشكيك في السُّنَّة.....	٥٥٨
السبب الأوَّل: الجهل.....	٥٥٨
الشروط التي تقبل بها الرواية.....	٥٦٢
١ - أن يكون معروف العين والحال.....	٥٦٢
٢ - أن يكون عدلاً.....	٥٦٣
٣ - أن يكون ضابطاً.....	٥٦٣
٤ - ألا يكون الحديث شاذاً.....	٥٦٤
٥ - ألا يكون معللاً بعلَّة قاذحة.....	٥٦٤
السبب الثاني: التحامل والحقْد على الإسلام.....	٥٧٢
السبب الثالث: التبعية والتقليد.....	٥٧٤
السبب الرابع: التسرع والادعاء والغرور.....	٥٧٥
السبب الخامس: إعطاء العقل أكثر من حقه.....	٥٨٤
السبب السادس: هزيمة المتغربين أمام الحضارة الغربيَّة.....	٥٨٦
السبب السابع: الرغبة في الظهور بمخالفة الإجماع.....	٥٨٩
التَّشكيك في مضمون السُّنَّة.....	٥٩٠
السبب الأوَّل: الناحية الفرديَّة.....	٥٩١



- السبب الثاني: الناحية الاجتماعية ٥٩٤
- السبب الثالث: الناحية العملية التطبيقية ٥٩٦
- ❖ ٢٠ - السُّنَّة والبدعة ٥٩٨
- معنى السُّنَّة لغة واصطلاحًا ٥٩٩
- معنى البدعة عند الإمام الشاطبي ٦٠٢
- البدعة مجالها الدِّين ٦٠٢
- فلا بدَّ - لكي يُقبل العمل - أن يكون فيه أمران ٦٠٣
- الاختراع ينبغي أن يكون في شؤون الدنيا ٦٠٩
- ما كان له أصل في الشرع لا يُعدُّ بدعة ٦١٠
- مضاهاة الطريقة الشرعية ٦١٣
- البدعة يُقصد بها المبالغة في التعبد ٦١٣
- تقسيم العلماء للبدعة والقول الأصوب في ذلك ٦١٤
- لماذا شدد الإسلام في أمر البدعة؟ ٦١٥
- أولاً: المبتدع ينصب نفسه مُشرِّعًا ونِدًّا لله تعالى ٦١٥
- ثانيًا: المبتدع يرى الدِّين ناقصًا ويريد أن يكمله ٦١٧
- ثالثًا: الابتداع يُعسر الدِّين ويُخرجه عن طبيعته السمحة ٦١٨
- رابعًا: الابتداع في الدِّين يُميت السُّنن ٦٢١
- خامسًا: الابتداع في الدِّين يصرف الناس عن الابتكار في شؤون الدُّنيا ٦٢٣
- سادسًا: الابتداع في الدِّين يُفرِّق الأمة ويُمزِّق وحدتها ٦٢٤
- إنكار البدع ومحاربتها هو الذي حفظ الإسلام ٦٢٧
- بعض تحريفات كاتب المقال ٦٣٠
- ❖ ٢١ - حديث «إنَّما الأعمال بالنيَّات» ٦٣٤
- سبب ورود الحديث ٦٣٥
- توجيه عام ٦٣٦
- اهتمام العلماء بالحديث ٦٣٦



٦٣٨	النية محلها القلب
٦٣٨	النية في مجال الفرائض
٦٣٩	النية في مجال المباحات
٦٤١	النية في مجال المحرمات
٦٤٢	فضل النية وآثارها
٦٤٨	دوام استحضار النية وتحريرها من الشرور

❖ ٢٢ - حديث جبريل عليه السلام

٦٥١	حديث جامع
٦٥٢	سبب ورود الحديث
٦٥٥	جبريل عليه السلام
٦٥٥	قدرة الملائكة على التشكل
٦٥٦	تشكل جبريل في صورة أعرابي
٦٥٧	حرص عمر على التعلم
٦٥٧	الطعن في المكثرين من الرواية
٦٥٨	السؤال الأول: ما الإسلام؟
٦٥٩	الشهادة لله بالوحدانية
٦٥٩	إقرار مشركي العرب بتوحيد الربوبية
٦٦٠	ضلال البشرية عن توحيد الألوهية
٦٦٢	تحرير الناس من العبودية لغير الله
٦٦٣	توحيد الألوهية
٦٦٤	عناية الإسلام بالتوحيد
٦٦٤	دين التوحيد
٦٦٥	كلمة التوحيد أم الفضائل
٦٦٦	دخول الشريكات على الحياة الإسلامية
٦٦٧	اتخاذ الوسطاء



- ٦٦٩ **• السيرة النبوية**
- ٦٧٠ ❖ من الدستور الإلهي للبشرية
- ٦٧١ ❖ من مشكاة النبوة الخاتمة
- ٦٧٣ ❖ ٢٣ - الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ
- ٦٧٣ عموم رسالة الإسلام وخلودها
- ٦٧٤ الخوارق والمعجزات في حياة الأنبياء
- ٦٧٥ سؤال المشركين للنبي ﷺ بآيات كونية
- ٦٧٥ دلائل النبوة المحمدية
- ٦٧٥ آيات عديدة لا تُحصى
- ٦٧٦ المعجزات والآيات الكونية
- ٦٧٧ الإسراء والمعراج
- ٦٧٨ عدم استجابة الله طلب المشركين
- ٦٧٩ الإسلام لا يريد معنى القهر في الآيات
- ٦٧٩ آيات حسية مختلفة
- ٦٨٠ آيات لها أسباب
- ٦٨١ صوت تسبيح الحصى، وحنين الجذع
- ٦٨١ الإيمان بالرسالة فرع عن الإيمان بالأنبياء
- ٦٨٢ المعجزات دلائل على صدق الرسل
- ٦٨٢ من لا يصدق المعجزات والخوارق
- ٦٨٣ من لا يؤمن بالأصل لا يؤمن بالفرع
- ٦٨٥ الإجابة عن بعض أسئلة الإخوة الحضور
- ٦٨٧ الآيات والأحاديث الواردة في الصحف
- ٦٨٩ ❖ ٢٤ - كان خُلِقَ القرآن
- ٦٩٠ أخلاقه ﷺ من خلال آية
- ٦٩٠ أولاً: النبي التائب

- ٦٩٢ ثانيًا: النبيُّ العابد
- ٦٩٣ دعوته إلى عبادة الله
- ٦٩٣ العابدُ الأوَّل
- ٦٩٥ ثالثًا: النبيُّ الحامد
- ٦٩٧ رابعًا: النبيُّ السائح
- ٦٩٩ خامسًا: النبيُّ الراكع الساجد
- ٧٠١ سادسًا: النبيُّ الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر
- ٧٠١ صلاح وإصلاح
- ٧٠٣ الأمر الأوَّل بالمعروف والناهي الأوَّل عن المنكر
- ٧٠٣ الصبر على الدعوة
- ٧٠٣ مقاومة الإغراء
- ٧٠٥ تغيير المنكر
- ٧٠٦ التوصية بالصبر
- ٧٠٧ سابعًا: النبيُّ الحافظ لحدود الله
- ٧٠٨ سيرة أخلاقيَّة
- ٧١٠ ❖ ٢٥ - حياة النبي ﷺ في بيته
- ٧١١ السيرة النبويَّة تطبيق عملي للإسلام
- ٧١١ السيرة النبويَّة من دلائل صدق الرسالة
- ٧١٢ دراسة السيرة تزيد من محبتنا للنبي
- ٧١٢ تجسيد المحبة في حسن الاتباع
- ٧١٢ النبي ﷺ أسوة للعالمين
- ٧١٣ ليس هناك خطوط حمراء في سيرته
- ٧١٤ حياة ربانية عميقة
- ٧١٥ مراعاة الحقوق والواجبات
- ٧١٦ حياة العابد الخاشع
- ٧١٧ زهد غير متكلف



- ٧٢٠ حياة النبي في بيته
- ٧٢٠ ملاطفة النبي نساءه
- ٧٢٢ العدل بين الزوجات
- ٧٢٣ ما يحدث بين الأزواج
- ٧٢٤ الرسول ﷺ أبًا وجدًا
- ٧٢٥ ليس فاحشا ولا بذيئا
- ٧٢٦ نبي الوسطية والاعتدال
- ٧٢٧ الاقتداء بالسيرة النبوية العطرة
- ٧٢٩ إجابات الشيخ القرضاوي عن أسئلة المحاضرة
- ٧٣٤ ٢٦ - في ذكرى الإسراء والمعراج
- ٧٣٥ أيها الإخوة الكرام
- ٧٣٥ يا أبناء المحلة
- ٧٣٦ ثلاث كلمات
- ٧٣٦ الكلمة في حق الذكرى
- ٧٣٧ أولاً: المُسْرى
- ٧٣٧ ثانياً: المُسْرى به
- ٧٣٧ ثالثاً: زمان الإسراء
- ٧٣٨ رابعاً: مكان الإسراء والمعراج
- ٧٣٩ حكمة الإسراء
- ٧٣٩ أولاً: التسلية والتسرية عن رسول الله ﷺ
- ٧٣٩ ثانياً: التذكير بالمسجد الأقصى
- ٧٤٠ المؤمنون وحدهم هم من يحررون المسجد الأقصى
- ٧٤١ ثالثاً: فرض الصلوات الخمس
- ٧٤٣ لماذا الاحتفال بالمناسبات الإسلامية
- ٧٤٣ مسؤولية كل مسلم عن الإسلام
- ٧٤٤ الكلمة في حق الوطن

- ٧٤٥ هموم ومشكلات الوطن الإسلامي
- ٧٤٥ العلاج ليس في الحلول المستوردة
- ٧٤٦ الإنسان المؤمن هو الذي يحرر الوطن
- ٧٤٧ الإنسان المؤمن هو الذي يبني الوطن
- ٧٤٧ الإيمان لا يتحقق إلا في مناخ إسلامي صحيح
- ٧٤٨ كلمة في حق الدعوة
- ٧٥١ العودة إلى الإسلام
- ٢٧ - وقفة مع الأمة الإسلامية في مطلع القرن الهجري الجديد ٧٥٢
- ٧٥٣ وقفة حساب ومراجعة وتقويم
- ٧٥٤ قرن اليقظة والكفاح
- ٧٥٥ نماذج من المجددين في العصور المتأخرة
- ٧٥٥ تميز القرن الرابع عشر الهجري
- ٧٥٦ أحداث هائلة في هذا القرن
- ٧٥٧ الأمة تكافح من أجل حريتها
- ٧٥٨ الاستعمار قائم على الأطماع والأحقاد معا
- ٧٥٩ انتصار الإسلام حين نقيم دولته
- ٧٦٠ استمرار الاستعمار الشرقي
- ٧٦١ الاستعمار الصهيوني اليهودي لفلسطين
- ٧٦٢ مقاومة الفلسطينيين والعرب
- ٧٦٤ التنازلات والهزائم والخianات
- ٧٦٥ خطورة تجاهل البعد الإسلامي في القضية
- ٧٦٨ التكنولوجيا لا تشتري
- ٧٦٩ الإسلام ينكر علينا هذا التخلف
- ٧٧٠ تقصير المنظمات العربية والإسلامية
- ٧٧١ تغريب المجتمع المسلم



٧٧٣ الإسلام لا يعرف فصل الدين عن الحياة

٧٧٤ مقاومة الاتجاه الإسلامي للغزو الفكري

❖ ٢٨ - رمضان وإحياء الأمة ٧٧٦

٧٧٧ المراد بالأمة

٧٧٨ أوصاف الأمة الإسلامية

٧٧٩ أمة واحدة

٧٨٠ الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم

٧٨١ الأمة موجودة من الناحية التاريخية والجغرافية

٧٨١ الأحداث المؤلمة توحد الأمة

٧٨٢ خطورة نسيان معنى الأمة لصالح الدولة

٧٨٢ دار الإسلام

٧٨٣ إحياء الأمة لا يكون إلا بالإسلام

٧٨٤ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله

٧٨٥ عنتریات لا طائل من ورائها

٧٨٦ السلاح لا يقاتل وحده

٧٨٧ أثر التغيير الروحي والإيماني

٧٨٧ قانون التغيير الإلهي

٧٨٨ الإسلام مفتاح الوحدة والنصر والتقدم

٧٨٩ أمة سورة الحديد

٧٨٩ لا سبيل إلى التقدم إلا بالإسلام

٧٩٠ لا صراع بين العلم والدين

٧٩١ على الأمة أن تستعيد سيرتها الأولى

٧٩٢ أهل الاجتهاد في الإسلام

٧٩٣ التجديد في الدين

٧٩٤ مشروع النهضة بالإسلام

- ٧٩٤ نعمة الإسلام
- ٧٩٤ أمة الإسلام لا تموت
- ٧٩٥ حروب الردة
- ٧٩٦ الحروب الصليبية
- ٧٩٦ حروب التتار
- ٧٩٧ عمل اليهود بتعاليم الدين وتخلي المسلمين اليوم
- ٧٩٨ رمضان يمد الأمة بنفحات النصر
- ٧٩٨ رمضان شهر التطهير
- ٧٩٩ شهر التزود من العمل الصالح
- ٨٠٠ الصلاة ذات الخضوع والخشوع
- ٨٠٠ الشعور بالجوع والعطش
- ٨٠١ معاناة إخواننا في فلسطين
- ٨٠٢ إنَّما المؤمنون إخوة
- ٨٠٣ رمضان ربيع الحياة الإسلامية
- ٨٠٧ • فهرس الآيات القرآنية الكريمة
- ٨٤٩ • فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
- ٨٦٩ • فهرس الموضوعات

* * *

